الإسلام غدًا!

عبد السلام ياسين

الإسلام غدا

العمل الإسلامي
وحركية المنهاج النبوي في زمن الفتنة

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

تجيل النظر في حياة المسلمين، في مرافقهم المادية وموقفهم غير الواعي مما يريدون ومما يراد بهم، فلا ترى إلا أزمات شديدات تشتد بالأمة الإسلامية المنهوكة وتطيح بالقيم وبالأرزاق وبالكرامة الإنسانية، ثم لا تنجلي إلا عن قطار جديد من البلايا. إنه لا يتراءى في أفقك إن أجلت النظر إلا مثلما يتخايله ملاح في البحر المدلهم قد أضاع أدوات سلوك البحر وعميت عليه السماء بضباب كثيف.

ذلك ما تكتشفه في مستقبل هذه الأمة إن سمعت الإعلان عن نيات في مسرح السياسة، أو قرأت بنات الفكر الكابي الحسير في معرض المنابرات والترهات، أو تأملت وهن رجال الفكر والعمل، وأَثَرةَ المترفين؛ إنه الانهزام وإنه الضياع والحيرة أنى وليت وجهك.

ويسمي الإسلامُ بلسان نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أمرَ الأمة إذا اختلط حتى ينطوي الحق ويمتد الباطل ويحل العنف محل القوة، والتطاحن على العصبيات محل التعاون بين المسلمين والمحبة؛ يسمى السلام هذا فتنة، وهو مفهوم يعم مدلولات الأزمة والتخلف وعدم

الاستقرار والفوضى والإلحاد، يغطيها جميعها ثم يفيض على معاني العصبيات المتضاربة والهيمان الجماعي والفردي في طلب القيم المادية . ولو كان طريق اكتسابها أن يمسخ المسلم الذي خلق للعزة دودة لزجة تدوسها الأقدام وتتقزز من نتنها النفوس السليمة.

نحن في زمن الفتن نعيش، وهي كقطع الليل المظلم قتامة وإنبهاما، وهي عنيفة تأكل الأمة من بين يديها ومن خلفها، بيد الطاغوت الأهلي، وبسلاح العدو الذي تداعت علينا أرساله.

لا نستعمل كلمة «جاهلية» في حق المجتمع المسلم، فذاك مزلقة إلى تكفير المسلمين، وهو درب العنف الذي نسلك فجا غيره.

ومن جنبات دار الإسلام تسمع همسا خافتا يغالبه حسيس الزحام الموسوس المهوس في سوق الفتنة، همس الملايين السبعمائة المغلوبة على إسلامها يشكو إلى الله عجره وبجره، يريد العمل الإسلامي ويحن إلى من يسمعه تكبير العمل الإسلامي وتهليله. وإن كان يصم آذان المسلمين المغلوبين على إسلامهم طنين، بل زفير، الدعوات القومية الظالمة المفرقة فذلك حداء لا تطرب له الأمة، كما لا تتعرف الأمة على نفسها إذا ما سماها قادتها المفتونون شعوبا وجماهير، والشعب تشعب وفرقة، والجمهور تجمع لا يرجع إلى أصل. وللأمة أصلها فهي به كانت أمة وستبقى.

أمة الإسلام نامت عن إسلامها زمنا، وتلهت بطيب ذكرها في التاريخ زمنا، وأرغمت لما أدرك الخوَر آخر دولة إسلامية مجاهدة على الرجوع لصيغها الجغرافية المفرقة؛ فتقاتل الإخوة

وتحامل بعضهم على بعض بما يحمل الجاهلين : الأنانية القومية والعنف العرقي. وكان من هذا التفتت التاريخي الحزين ما يسود دار الإسلام اليوم من نعرات لا تكتم هوانا على أعدائنا بل تفضحه.

نقدم هذا الكتاب للمسلمين الباحثين عن إسلامهم كما نبحث، في خط نظري يعرج على واقعنا الغثائي، يلتمس ملامس القوة عند الملايين السبعمائة المغلوبة على أمرها، هادفا لبعث إسلامي وسيلته التربية ثم التربية ثم التربية، ومقصده وحدة المسلمين أمة متكاثفة متعاونة، وغايته حمل الرسالة الإسلامية لهذه البشرية الكادحة الحالكة المعذبة في الأرض، بعضها بطغيان المعتدين، وبعضها بثقل الحضارة المتخمة، وجميعها بنهم الإنسان وهلعه وضراوته وتكالبه على هذه الدنيا، وقد ضاعت منه مفاتيح الخير، فلا يهتدي إلى الطمأنينة والسلام سبيلا.

إن ضعف المسلمين على دويلاتهم المتربص بعضها ببعض، ما هو إلا ضعفهم بهذه الدويلات، لأنها التعبير الماثل لاختلاف القادة المتسلطين، وعجزهم عن الأخذ بسياسة القوة، وهي سياسة الوحدة. وإن هذا العجز ينم عن تشتت إرادة الأمة في أيدي من عندهم مقاليدها السياسية؛ إرادة القادة تتجمع حول بريق الأدوار الزعامية والمجد الشخصي، والأمة شَعبوها فتشتتت إرادتها مع تيارات الأحزاب السياسية والدعوات الإقليمية والشعوبية المتلبسة

بالصبغة الدينية والسافرة؛ فلا إرادة للأمة المغلوبة على أمرها مهما نصب القادة سرادقات الانتخابات ومهما خاطبوا «الجماهير الشعبية» يكيلون لها الكلام المموه المعسول، ليتم تعامل القائد والرعية في جو كثيف من الريبة والجهل والجهالة، عليه غلالة من الوعد الكاذب لا تخفي عن الخبير فشل كلا الجانبين في فهم صاحبه.

موقفنا التاريخي موقف ضعف والضعف يدعو إلى القوة، وإن أقرب ما ترد علينا القوة من الثكنات العسكرية، فلذا كانت دار الإسلام بلاد الانقلابية. وموقفنا التاريخي موقف فتنة بمعاني الخور والوهن والتشتت، فلذا نعطي لأنفسنا بديلا زائفا عن الإرادة الواعية المصممة الفاعلة، بصنع شرعية انتخابية يحشر إليها الحزب الثوري «الموحد» والأحزاب البرلمانية جماهير تساق بالوعد والوعيد.

ومن الضعف والتشتت والفتنة والفرقة لا تتألف قوة موحدة ولا وحدة تصنع القوة، أعني أن نشدان الوحدة بين الأقطار الإسلامية كما هي اليوم سعي وراء السراب؛ هذه الأقطار تكون وحدات ألفت كل منها التعايش مع هزالها الأهلي الخاص، وألفت التعايش مع وضع دولي يحطنا في ذنابي الركب الإنساني، وألف قادتها أن يلبسوا قناعا إسلاميا مزيفا ليلجوا بنياتهم محرابا تتجه

إليه الأمة، جزؤها السليم، بإخلاص وقدسية.

كل هذا يصور لنا تصويرا واضحا معاني الفراغ الحائمة حول محاولات التجميع السياسي لدار الإسلام في مؤتمراته ومحاوراته، وليس لنا إلى الوحدة الإسلامية الحق إلا سبيل البناء الجذري الذي يبدأ بتحويل عميق في وعي الأمة، في وعي «الفاعل التاريخي» المتمثل في الأعداد الهائلة من مساكين المسلمين المغلوبين على أمرهم.

لقد بان فشل القادة في الأقطار الإسلامية بعد تجاربهم المستبدة لمنهاج الجاهلية التي جاءت وارثة لظلمنا الأهلي الموروث، فأتت بطاغوت جاهلي بدل طاغوت مفتون. وما ولدت الانقالابية ببلادنا مولودا يصح أن نعده ليوم كريهة وأن نعتد به ليرد لنا كرامتنا الإنسانية وعزنا الإسلامي.

يقف اليوم قادتنا حائرين بين داعي العمل الجاد الذي تفرضه هزيمتنا في ميدان الاقتصاد وميدان الجلاد، وبين استعصاء الأمة عليهم بعد أن امتهنوها ورهنوها. هؤلاء القادة، المترفون فكريا بما تحملوه من رجس العقلانية الإلحادية، المترفون من كل الجهات بعاداتهم الجاهلية، لم يفقدوا حس المكائد والمصانعة؛ لذلك تراهم إن تأزمت بهم الأزمات، وقام إليهم الشباب العاثر يريد ثورة منقذة زعموا له أن ما بهم من هوس اشتراكي هو الاشتراكية التي ينشدها الشباب، ولببوا دعاة المساواة والخلاص

الاشتراكي الشيوعي يشهدون عليهم الأمة المشعبة المجمهرة أن الإسلام ديننا؛ ثم لا يكون تعريفهم لأنفسهم ولقومهم إلا أنهم عرب أو بنجاب، أو ما سوى ذلك من الألقاب، تحدهم الاشتراكية من كل الجوانب، ويبقى الإسلام شعارا تابعا. فهذه جمهورية فلانية اشتراكية إسلامية، ولكل جمهورية أو قومية، ملكية أو إمارية، إسلامها واشتراكيتها. وتتشابك عند القوم معاني الاشتراكية ومعاني الإسلام اختلاط الحابل بالنابل فلا يجد الاشتراكيون المراقبون عند القوم اشتراكية، ولا يجد المسلم إسلاماً.

لا غرو أن ينشأ لنا جيل تظافرت عليه غزوات الكفر في مدارسه ومعاقله، وضرسته يافعا طواغيت المترفين الملوحين بشعارات الإسلام، حتى أصبح كل ظلم وكل فسق يتستر تحت الإسلام وحتى تنكر شبابنا لإسلامهم لهول ما يرون، وللفراغ المخيف الذي يحيط بهم في سياق تتألق بسمائه شموس الثورة الملحدة وأنجمها، تيار غلاب لا تقوم له في وعي شبابنا شهادة أمة بائسة بقي لها من إسلامها، في صفوف المسلم الأمي المسكين أو عند العالم المؤمن الفار بدينه، الأصل العقدي، لكنها لا تملك أن تخطط طريق الخلاص، طريق عمل إسلامي يستوعب ميادين المبادئ والأهداف والغايات.

لن يطول تلاعب قادتنا بالشعارات الإسلامية ولن يطول جهل أهل الإسلام بالإسلام، فلا منفذ لنا إلا الإسلام الحق، وإن الله فيما يبعث علينا من سياط التأديب باعثا لنرجع إليه، وإنه، له العزة، لن يجمع علينا حشفا وسوء كيلة، ألا وإن الحشف هو هذه القشرة من مترفينا الممسكين بمقاليد أمورنا. ولن ندعو إلى عنف أبدا لأن الإسلام ما قام بعنف ولن يقوم، إنما نخط منهاج النبوة القائم على الرفق والحكمة للعمل الإسلامي ونبين حركيته. ولعموم الدعوة الإسلامية منذ أبينا إبراهيم مجالس الفراعنة والأكاسرة والمساكين على السواء، نخاطب القادة في بلاد الإسلام أولا؛ ندعوهم إلى أن يتحولوا عن دار الخزي ليقودوا عمل الأمة الجهادى. أهي دعوة تعجيز ؟ بل هي إقامة الحجة ليوم يقضي الله فيه أمراً كان مفعولا. ثم ندعو رجال الدعوة الإسلامية أن لا يخرجوا إلى ميدان الفكر إلا بعد أن يكتشفوا المنهاج النبوي المنبني على التجربة الشخصية، أعني هذا العمق الروحي، الذي يحصل للعبد بعد أن يصبح تمسكه بحبل الله أوثق عنده من تمسكه بما عنده. ثم إذا كتب رجال الدعوة الإسلامية، نسألهم أن يتجاوزوا الشكوى من البلوى ليخطوا لنا مبادئ البعث الإسلامي ووسائله وغاياته، ويكبوا فورا على تحقيق نظرياتهم المنهاجية في تنظيم الدعوة ونشرها. فإنما تعرف العالم إذا جلست إلى غيره وإنما يتبين صلاح النظر إن ثبت في امتحان الممارسة وبمعيارها.

ها نحن أولاء نبدأ بحول الله وقوته لا بحولنا بحثا عن حركية المنهاج النبوي للخروج من الفتنة، ونبحث عن هذا «الفاعل التاريخي» كما يعبر الفلاسفة، ونبحث عن هذه الكتل الإسلامية كيف نحررها ومما نحررها، وعن الفرصة المتاحة لقادتنا، وكل المتنكبين عن إسلامهم من أهل المروءة والعلم والخبرة من أبنائنا، أن يتوبوا ويحملوا لواء الإسلام، في جهاده المرتقب، ونبحث عن تنظيم شؤون المسلمين في عملهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

بيد أن كل بحث لا يدخل إليه بمنهجية واضحة بينة، وكل عمل لا يسلك به منهاج لاحب لن يكون إلا خبطا. وإن من يكتب كتابة إسلامية في زمننا إما أن يقول «أنا سني» أو «أنا شيعي» أو يعرف نفسه بغير ذلك من التعريفات، فذلك له منهاج وذلك له منهجية، ومن زاوية ما ورثه من مذهبية يعرض إسلامه.

وإن من فضل الله علينا أن مهد لنا سلوك الطريق الصوفي، والاصطلاح لا يعدو أن يكون مذهبية إزاء مذهبيات لمن وقف عند المصطلح وعند تاريخ الصوفية الحافل المتناقض. ولمن سلك طريق القوم أن يطلب إلى قارئه سعة صدر وسعة أفق وصبرا طويلا حتى يسمع. ولئن قال أئمة الصوفية إن الطريق ما هي إلا الكتاب والسنة، فليس من اليسير أن يدرك الناس أن تجاوز الخلافات بين

المسلمين للتمسك بالكتاب والسنة يكمن وراء تجاوز اصطلاح تاريخي طالما أضل الناس به بعضهم بعضا وضلوا.

المنهاج النبوي وحركيته كما نعرضهما اجتهاد لا ندعي أننا له أهل إلا بما أهلنا الله ولي المتقين، له العزة وله الحمد.

ونرجو من القارئ أن يتريث في قراءته، فلعله يجد كلمات لم يألفها وأسلوبا فرضهما علينا أن النظر الإسلامي لما يكسب بعد آلية من التصورات والمفاهيم الدقيقة، فنحن نكتب ونصوغ تصورات إسلامية نعبر بها ميدان الفلسفة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وإلى الله الموئل والمعاد.

الرباط يوم الجمعة 15 من ذي القعدة 1392

الموافـــــق ليوم 22 دجنـــــبر 1972

الفصل الأول

المنهاج النبوي وحركيته

المنهاج

الإنسان سلوك، هذه كلمة يؤكد إغراءها كصورة لحقيقة الإنسان تعاقب الفلسفات على عرضها بشتى الأشكال والمفهومات. التاريخ وفلسفته لا موضوع لهما لو لم يكن الإنسان سلوكا، والفرويدية لا ترى في الإنسان الفرد وتاريخيه إلا عراقيل وعقابيل سلوكه في الصبا، والمذاهب المادية تفسر الإنسان المفرد والإنسان الاجتماعي بسلوكه التاريخي، فهو يصنع نفسه بسلوكه. ثم إن الفلسفات المعاصرة، الوجودية منها والسياسية، تعرف الإنسان بالنظر إلى مصيره، فهو عند العقلانية المتأملة والعقلانية العملية حركة متساوقة نحو مصير ما وعبر متناقضات تقوم في وجهه.

ومعنى كل هذا أن العقل البشري اختار أن ينظر إلى الإنسان، وبالتالي إلى حقائق الكون، من خلال المنطق الجدلي الدائب الحركة وبالتالي إلى حقائق الكون، من خلال المنطق الجدلي الدائب الحركة المحرك لكل ما يتناوله بالبحث. وللمنطق الجدلي إيواناته المفضلة عند الماركسيين وعند من يجري بهم السيل الجارف في وجهة النشر التاريخية. وله بعد ذلك سحر لما يفتحه للعقل من أسباب النشر واللف والتقليب والتلوين لكل ما يمسه من أشياء وفكر. فهو بهذا ضرورة لكل باحث يروم التعمق في مخبوءات الإنسان

مخاطبا جيلا ورد كُدرات الإلحاد المادي فهو لا يصدر عنها إلا بسلطان.

نعرض المنهاج النبوي كما جاء في كتاب الله وسنة نبيه، لا نجتهد إلا في عرضه وفق دواعي الوضوح ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، ما لنا حاجة إلى الفلسفة ومنهجيتها إلا بقدر ما تكون الأساليب الفلسفية معبرا لحوار بين قوم يستغشون ثياب الكبرياء بما لديهم من سقط المتاع العقلاني، وبين رجال الدعوة الإسلامية الذين يرفضون كثيرا المنهجية الفلسفية العقلانية في أشكالها، لأن محتواها في نور الإسلام ظلمة وظلم.

نلتقى صعوبتين في اجتهادنا، أولاهما تحميل اللسان العربي مفاهيم لما تتخصص باستعمال، ولما تكتسب الدقة اللازمة، وثانيتهما كسب تصورات[1] إسلامية قرآنية نبوية وتوظيفها في النسق الخطابي المنهاجي. وقد حَمَل الشيوعيون العرب لغة القرآن مفاهيمهم وتصوراتهم الماركسية، ما تكبدوا إلا عناء نقل الفكر الرائد الملحد. وآن منذ حين أن يخرج المفكرون الإسلاميون نمطا تصوريا مجدِّدا موحَّدا.

1 تصور : concept نعمد إلى هذه الوسيلة، وسيلة التثبيت بالمقابل الأجنبي، لأننا لا نجد أقرب من ذلك جدوى. على أن التقابل بين التصور القرآني النبوي ومدلول الكلمة الأجنبية ليس كامل ولا يصح، فلا يعدو الأمر أن يكون تقريبا إلى أدق ما يمكن التقريب. ونكتب فيما يلي الكلمات التصورية التي نعتمدها مميزة بخط تحت كل كلمة.

رويدك أخي فإننا لن نأتيك من عندنا بشيء ما خلا المنظار الذي به تعود إلى قراءة قرآن ربك. فالمنهاج السلوكي جاءتنا به الرسل، والمنهجية طريقة للنظر في المنهاج. وليس بالإمكان أن نعرض المنهجية النظرية بمعزل عن المنهاج السلوكي. فستقرأ المنهاج النبوي بمنهجية نبوية، واصبر علينا إن لقيت في أول قراءتك عنَتا.

عرض المنهاج على القارئ المسلم دعوة إلى العمل الإسلامي ابتداء من التفكر في رسالة الأنبياء إلينا. وبما يحمله المنهاج –ونستعمل الكلمة منذ الآن بالمعنى السلوكي والمنهجي– من أسباب الكشف عن واقع الإنسان يتيح للمسلم تحديد عمله وتجاوز العوائق الناتجة عن سوء الفهم وسوء التطبيق للرسالة المنزلة. سوء الفهم للإسلام، بل جهل الإسلام العام، يطلب أن يكون المنهاج أداة للمعرفة، وسوء تطبيق الرسالة المنزلة يبغي أن يكون المنهاج وسيلة لبعث وعي إسلامي ينفتح على ميادين العمل لتغيير ما بنا.

إذا سألنا : لماذا المنهاج وفيم ؟ أجابنا الوقت وضالتنا فيه أن لا معنى للمنهاج إلا إذا كان التغيير هدفه ومقصده وغايته. وإذا كان المنهاج يُعنى بالمسلم الفرد، ويحلل عوامل الإردة في نفسه كما يعني بالجماعة المسلمة، فذلك لكي يكون تغيير الفرد مع تغيير الجماعة وبواسطته مسايرا له.

معرفة الإنسان والكون ووعي المسلم لإسلامه ولمغزى وجوده في الأرض ليتصرف وفق نظرته لنفسه وللعالم الخارجي، ذلك ما يجعله المنهاج في متناولنا. ألا ترى أن الماركسي مثلا، أو الوجودي يستطيعان تفسير تعامل اقتصادي أو موقف سياسي أو واقعة من حرب أو سلم أو اضطراب فعوي على ضوء منهجية هي العماد الفكري للمذهب الذي ينتميان إليه. فإذا عرضت للمسلم حالة اقتضت تبصره وفهمه قبل سلوكه، وقف جهله للإسلام حجابا عن التبصر، فكان سلوكه اعتباطيا مرتجلا. وقد يستفتى في الحالة التي تتحداه للفهم والسلوك من يظنه بصيرا بالدين، فلا يجد إلا تفسيرا سلوكيا لاجتهاد على خطي الحلال والحرام، ولا يجد إلا فتوى تستند لاجتهاد مزمن منقول، فلا سعة فيها لاعتناق مشاكل المسلم والأمة الإسلامية الحاضرة، ولا حيوية فيها لبعث الروح الإسلامي العملي ولتغيير ما بنا من مآس وفقر وضيق.

تفتت المسلمون تفتت فهمهم للإسلام وسلوكهم وتفتت مناهجهم، فالفقه الشرعي يذكر منهاج الحلال والحرام في ظل قانون وضعي طاغ، والدعوة الإسلامية تعمل وتتكلم بمنهاج التعارض بين الجاهلية والإسلام، إما مطالبة بألاحاكمية إلا لله، وإما بشعار الفرار بالدين من الفتنة، وما إلى ذلك. وقد يكون ثم أسبقيات في الدعوة والعمل الإسلاميين، فنحن مثلا لا نستطيع

القيام بعمل إسلامي ما دامت السلطة السياسية في أيد غير إسلامية. يرى بعض رجال الدعوة أن المنهاج يجب أن يكون مرحليا يُسبق التحرير السياسي. وقد عملوا على هذا ويعملون. ونرى نحن أن الوقوف عند مرحلة ما وقوفا نهائيا قصور، لأن الرسالة تمت، ولأن القرآن يحمل هذه الرسالة مفسرة بالسنة، ثم لأن الدعوة الإسلامية لن يكون لها الفاعلية في العقول والأفئدة إن كان منهاجها ومحتواها أن لا حاكمية إلا لله دون وضع هذا المبدإ في مخطط للتجديد . لهذا فالمنهاج النبوي، وقد تمت الرسالة، ينبغي أن يعرض الإسلام عرضا مجددا يحمل للمسلمين الأداة الفكرية والنظرية البنائية لممارسة إسلامية متكاملة. فبالأداة الفكرية المناهضة للتحدي الجاهلي، المستخلصة من لوثاته، نتمكن من فك إسارنا بواسطة تحليل الجاهلية بمنهاجنا. وبالنظرية البنائية التي تأخذ في اعتبارها واقع العصر ووصايا الرسول الكريم لأمته بعدم العنف في زمن الفتن، نفتح باب الأمل لهذه الأمة البئيسة بجهلها وإعراضها عن حقها إلى باطل غيرها.

المنهاج النبوي منهاج أمل وبشرى، وأذان بالخلاص للمسلم الجغرافي ولكافة أهل الأرض. منهاج رفق ورحمة، يزف للإنسان الشقي بسلوكه نسمة الحياة ورَوْح الإسلام. المناهج المادية تسجن الإنسان في كمه ومادته عندما تعلمه أنه وليد حركة تاريخية

تصرفها المعاركة على الخبز، أو أنه سجين « الليبيدو» الفرويدية حيوان بين الحيوان . والله يدعو إلى دار السلام، أرسل بذلك رسله مبشرين ومنذرين ينبئون الإنسان أن له قيمة سماوية إن آمن واهتدى وذكر ربه فصلى.

اقتحام العقبة

تتجسد الفكرة المخلصة والطاقة المحررة في طبقة العمال عند المذهب الماركسي. فالعامل المستغَل هو الوجه الإنساني الذي انكبت عليه الماركسية وتنكب، هو الفاعل المخلص وهو موضوع الخلاص وهو المحَرك التاريخي. فخط النظر[1] إلى المستقبل والماضي، وحبل القوة الممتد على طول التاريخ وعرضه، هو قوى العامل المحروم التائق إلى عدل ومساواة. وبما أن أفق الإلحاد المادي هو الأرض وما فيها من تطاحن، فإن غاية التاريخ وغاية وجود الإنسان هو انصاف المحروم وإعطاؤه حقه مما ينازع عليه القوي الضعيف. ومعنى هذا تعريف الإنسان في دوابيته وأرضيته شيئا محدودا زائلا مع الموت. فعند الماركسية لا تجد حيرة في فهم الإنسان وفهم موضعه في التاريخ ولا تجد ترددا . وقد برعت عقلانية ماركس في إزالة كل حيرة وتردد في هذا الصدد. ومن هذا كانت العقيدة الماركسية لها قوة ولها جاذبية وسلطان ومنهجيتها وما أسسته من هذه المنظومة[2] الثورية تقدم للإنسان

1 خط النظر : perspective.
2 منظومة : système.

المعاصر لوحة فكرية جذابة تصور مبدأ الإنسان وغايته، وتعطي تطبيقا متعدد النماذج لمجتمعات تبنت العقيدة والمنهجية والمنظومة، فصالت في الأرض وجالت وبلغت النجوم، وقال الماركسيون إن الإنسانية بلغت الرشد فلا يمكن أن يتجاوز الناس الماركسية. وصدق الناس لما رأوا البرهان في هذه الصواريخ وهذه النهضة الاقتصادية الهائلة[1].

الحاجة هي الأس الذي عليه انبنت الماركسية وسائر الفلسفات الوضعية الجاهلية. الإنسان عند هذه الفلسفات ومنظومتها سلوك نحو الخبز نحو ارضاء الحاجة، فإذا توسعت هذه الفلسفات اعتنقت في حيز الحاجة هذه النزعات الغَرَزية التي طالما حاولت الماركسية أن تغني بها فكرها اقتباسا من جهود فرويد، والفلسفة الوجودية إذ تجعل مبدأ منهجيتها وأسه الموقف أمام الموت لا تستطيع أن تهتدي إلا إلى حومان يائس عند المسيحية الوجودية، ويأس حزين هابط عند الوجودية الملحدة، يلحقها بالدوابية في إطار أكثر تنميقا من الماركسية التي ذهبت أحلامها وبقيت كالحة كئيبة.

جعلت الماركسية ميدانها وحدها تاريخ الإنسان على الأرض، وبارزت الظلم بالحقد الطبقي، وتحكمت في التاريخ وغيرت. وألغت أثناء ذلك كل مصير للإنسان وكل سلوك لا يخدم دوابية الإنسان، وأنكرت مع تاريخ الحركات الدينية والروحية كل وجود

1 وقد تبين بعد أنها نهضة كاذبة.

لنزعات الإنسان نحو ما يروي غلته في تعطشه للمثاليات. وفي ركابها لا تسمع ذكرا إلا للوسط الجغرافي وثرواته، وللتاريخ التطاحني الموجه المكيف للبشر يسوقهم في حتمية «علمية» للحل الوحيد.

هذه منهجية هابطة في حكم المنهاج الإسلامي، رغم ما يبدو من بطولة في موقف المحروم صانع التاريخ، ورغم ما برهنت الأحداث عنه من بسالة معتنقي الدين الماركسي وفاعليتهم. هابطة هذه المنهجية لأنها تختار الطريق السهل، ولا تتناقض فيما تقول، إذ ليست الثورة والعنف من أجل الحياة المادية الأفضل تزن ثقيلا في ميزان النظرة العامة للإنسان وشرفه ودوره الخالد بعد الموت. هؤلاء هم الثوريون الملحدون يعملون في نظريتهم أن للتاريخ مجرى وأن الأحمق من يسبح معاكسا لتيار التاريخ. والصورة الذهنية للسابح وفق التيار توضح لك هبوط السابح لهبوط وميله للأسهل. وهؤلاء هم الماركسيون يعلمون أن الفاعل التاريخي هي الطبقة العاملة، فالإستراتيجية أن يحمل الدعاة لقب الرفيق جريا مع التيار. والتكتيك أن تسخر الجماهير الكادحة بما يليق من التسخير[1] لتقنع هي أيضا بلقمة خبز أفضل، جريا مع التيار الذي يحرمها الحرية ويحرمها كل معاني الإنسانية.

هكذا نرى أن المنهجيات الجاهلية، وما مثلنا بالماركسية إلا

1 التسخير : manipulation.

لأنها آخر ما وصلت إليه الدوابية، فاعلا وموضوعا واتجاها:

- فالفاعل هو الإنسان المعَرَّف في حدود حيوانيته وبؤسه الدوابي ومطالبته بالنصيب من خيرات الأرض عانفا ثائرا، والنموذج الاجتماعي لهذا الإنسان هو «البرولتاريا».
- والموضوع هو التاريخ الأرضي بوقائعه التنافسية التي تحمل جرثومة الثورة الطبقية.
- والاتجاه هابط صوب مجرى التاريخ وصوب المصير الدوابي للإنسان، رغم ما تحركه الماركسية من آمال في شيوعيته متآخية ترفع من قيمة الإنسان. ومع أنها أحلام فهي لا تعدو أبدا بالإنسان قيمة دودة التراب.

تنطلق الفلسفات الإنسانية من المعطى[1]، أي من هذا الوجود الموروث الذي تدركه حواس الإنسان. وعلاقة الإنسان بهذا المعطى وبأبناء جنسه منبعثة من حاجته إلى الغذاء والأمن. ومن هذه الحاجة والصراعات لإرضائها في التكييف بالبيئة الطبعية والاجتماعية يتحدد وعيه بنفسه، وتتحدد معرفته بحقائق الكون.

الجدلية الهابطة تحدد الإنسان بكونه حيوانا اجتماعيا موضوعيا، بما خلقته الظروف المعاشية، واعيا لقيمته نتيجة لعمله

1 المعطى : la donnée.

الحسي المتسلط على البيئة الطبيعية والاجتماعية.

وإن كانت الفلسفات المثالية تتحدث عن جوهر الإنسان وتبنى عليه، فالفلسفة المادية السائدة منذ العلموية الوضعية، لا ترى للإنسان جوهرا مستقلا عن تاريخيته. عند هيجل يتحقق جوهر الإنسان إذا عارض الجدلية بينه وبين العالم الخارجي في قابلياته[1] التي لا نهاية لها، وعند الجدلية الهابطة يتحقق الإنسان بالسير مع التيار التاريخي المحتوم الذي يسد كل إمكانية ليست إمكانية عدل التوزيع للأرزاق المادية.

قاعدة الفلسفة الماركسية أن الإنسان يخلق نفسه بعمله في صراعه مع التراب والناس، وقاعدة الفلسفة الوجودية أن الإنسان يتأله باستقلاله في الأرض في فترة ما قبل الموت. وبعبارة أجلى فقاعدة الماركسية هي : الإنسان أمام الحاجة، وقاعدة الوجودية : استقلال الإنسان أمام الموت. وكان لا بد من هذه المقدمات لنضع قاعدة المنهاج النبوي ليسر الفهم بتعارض الشيء وضده. هذه القاعدة هي : عبودية الإنسان لله الفاطر، معناه أن الإنسان مخلوق لغاية، له خالق فطره فهو مولاه. فالإنسان قبل كل شيء جوهر فاعل له إرادة وحرية في الاختيار فهو مأمور بالشريعة من أجل ذلك.

---

1 قابليات : virtualités.

أما البيئة الطبعية والاجتماعية التي تكون وسط فعل الإنسان فليست في المنهاج النبوي معطى مصدر معرفته التاريخ وجدليته، بل هو عالم مخلوق لغاية، وهذا العالم بما فيه من أحداث خارجية عن ذات الفاعل الإنساني ونوازع جبل عليها، هو عالم فتنة، أي عالم اختبار وامتحان للإنسان المخلوق المريد الحر المأمور بالشريعة. ومصدر المعرفة أن هذا العالم فتنة هو النبوءة لأن الخالق الفاطر أرسل رسله للخلق.

ها إن الإنسان وضعناه حيث وضعه المنهاج النبوي، ولعل عملنا لا يقرب من تحري الفلسفة وشكها، إذ لم نسبق موضوعة فكرية[1] تؤسس المنهاج. فلنقل إن هذا الوضع للإنسان في خط نظر خاص، مسلمة من المسلمات، يأتي نقدها عبر التحليل اللاحق.

ولنا بعد هذا أن نكمل وضع المنهاج وصياغته. إنه منهاج نبوي بمعنى أن رسالة الخالق لمخلوقاته جاءتنا بواسطة رجال حُملوا الأمر الإلهي إلينا. فماذا قال الله بلسان أنبيائه فيم يعرف الإنسان ويرسم له طريقا للسلوك والعمل ؟ سورة واحدة من القرآن الكريم تنتصب أمامنا مشرقة واضحة، تعطي القاعدة لمعرفة الإنسان ومعرفة فاعليته وتحدد له موضوعا واتجاها. قال الله تعالى :

---

1 موضوعة فكرية : cogito.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾[1]

نأخذ من الآيات الكريمات الصيغة الواحدة المركزة للمنهاج النبوي، هذه الصيغة هي : اقتحام العقبة، لنرجع بعد نفحصها ونتبين ما تعطيه من معرفة ومن إمكانيات وعي للوجود والعمل الإنساني.

الجدلية التاريخية تلح على كون الإنسان لا يتميز ولا يعي ذاته إلا بالعمل، وعمله يعطيه قيمته إن كان عملا حرا، فإذا انتُهب منه عمله وسُخر أصبح الإنسان بضاعة على صورة عمله المستبضع وصار كائنا مُشَيَّئًا مُسْتَلَبًا. لذلك فأفق السعي الماركسي ومداه تحرير العمل ليتحرر الإنسان. ويبقى ضمنيا أن الإنسان دابة

1 سورة البلد.

عاملة دائرتها الإنتاج. يبقى ذلك ضمنيا لأن الجدلية التاريخية لا تتحدث عما وراء ذلك بل تنفيه وتطارده إن ظهر في تطلعات المثقفين والفنانين. أما الوجودية فمجال عملها ومداه دائرة الممكن. ودائرة الممكن هذه مادية محض ويقتضي العمل الوجودي التحرر من كل قانون خلقي واجتماعي لاستيعاب كل عمل ممكن.

هكذا يذوب الإنسان وسعيه في نظر الفلسفة المادية وسط مشروعات بخسة لإرضاء الحاجة والتأله على المادة وإمكاناتها، ونهايته الموت.

أما في المنهاج النبوي فالإنسان عامل لأنه خلق ليعمل، لكن عمله يكون كَبَدًا وتعبا إن ظن أن لن يقدر عليه أحد، ولم يتجه بعمله صُعُدًا لاقتحام العقبة. إنْ تأله الإنسان وطغى بسلطانه على مجال الممكن متجاهلا مصدر هذا الحس الذي به كانت له القوة كان في تعب وشقاء.

حين يقول الجاهلي : أنا هنا بقدرتي على العمل وحساسيتي وحريتي ! يقول المسلم معترفا بخالقه مجيبا : بلى رب جعلت لي عينين ولسانا وشفتين ! ويستعد لتلقي الهداية من ربه من حيث يُعرض الجاهلي الكافر. إن ربهما هداهما النجدين، والنجد في اللغة عقبة وارتفاع، فالمسلم اقتحم نجده لما حبس نفسه عند الأمر والنهي، والجاهلي لبث في كبد بعمله وتأله كادا في مغالبة البيئة الطَّبعية

والاجتماعية شقيا بذلك، لا يتفتح أمامه باب الرحمة ورجاء ما عند الله بعد الموت.

الجاهلي يذوب سعيه في التاريخ متمردا على صورة أمثولته الأسطورية «بروميثيوس» هاويا لمآله الأرضي راضيا به، ويتجاوز المؤمن التاريخ لا بالهروب منه بل باقتحام عقبة الفتنة.

فموضوع المؤمن الحر العامل المقتحم للعقبة هو نفسه أولا يحملها على الاعتراف بخالقه وعلى السير في الاتجاه الذي رسمه الشرع الإلهي، ثم عالم الفتنة القائم المشترك بينه وبين الجاهلي الكافر.

كلاهما ولد في بيئة طبعية واجتماعية، وكلاهما بحاجة لأكل وأمن، كلاهما مزود بعقل وحس، وكلاهما ورث تطورا ماديا شكل ما بين يديه من أدوات ثقافية وتكنلوجية.

أحدهما ذاب في الفتنة (نستعمل عبارة الذوبان ريثما نستبدلها بعبارة الترف وهي المفهوم القرآني الدال على ذهاب الإنسان مع المعطى المادي والاجتماعي)، والثاني اقتحم الفتنة، أحدهما من أصحاب المشأمة والكبد والشقاء الأبدي، والآخر من أصحاب الميمنة من أهل السعادة الأبدية. والناظر للإنسان بغير المنهاج النبوي لا يرى أن الإنسان في كبد، بل يفتتن بالرفاهية المتاحة للجاهلي في هذه الفترة من تاريخ البشر، فيتراءى له أن الكبد من نصيب المؤمنين، بل إن ممن ينتسبون للإسلام من

يفتتن بذلك فيخاصم ربه أن أتاح للكافر حياة رغدا، وقد يطغى فينكر ربه. هذه بعض أبعاد الفتنة وبعض معانيها ودروبها.

اقتحام العقبة يحدد لعمل المؤمن الفاعل ذي الإرادة الحرة اتجاها صاعدا، وينصب بين عينيه صورة مستقبل يتجاوز التاريخ الأرضي فيقترح على المؤمن مسيرة إلى الله من ماض يثقل حاضره بالموروث، عبر حاضر متموج بالفتن ورث الإنسان ظلما اجتماعيا غل رقاب الإنسانية واستعبدها، فالمنهاج السلوكي في فك الرقبة كما تعبر الآية الكريمة والمنهاج في إطعام اليتيم والمسكين رحمة للمترَبَة والمقربة.

ولعل من ألف نمط الفكر الجاهلي يتعرض فيقول : أين نحن اليوم من عتق الرقاب وإطعام اليتيم والمسكين، وإن ما تقترحه المناهج المحررة أعلى لأنها تسعى ألا يبقى حرمان بعد أن تحقق في الأرض التحرير من الرق! والجواب المنهاجي النبوي أن الله يخاطب المؤمنين باعتبارهم خلفاء وقيمين على الأرض ومن فيها، والرقاب مستعبدة لا تزال، ويُثْم الإنسان ومسكنته لا تغطيهما ما صنعه المحظوظون في مصانعهم التي تظل البؤس والكآبة الصناعيين لا يحسدهما عليه ثلثا الإنسانية من المحرومين، من هواء وماء. هذا هو معنى فك الرقاب وإطعام اليتيم والمسكين في عصرنا. وحين يأذن الله أن يعز الإسلام

فستذل رقاب الجاهلية وسيكون فك رقابها بالنسبة للمؤمن أخذها بيد العزة والرحمة معا حتى تفيء إلى أمر الله، ويتم خلاصها من المشأمة في الدنيا والأخرة.

بين ماضي الإنسان ومستقبله عبر حاضره المثقل بوراثة متحكمة وآمال وخوف وشك في المستقبل، يقتسم المؤمنون والجاهليون هذه الكرة الأرضية يكدحون فيها ويتعبون ويتعارضون منذ بعث الله الأنبياء برسالته لأهل الأرض، ويعز المؤمنون في عصور الإيمان لأنهم يقتحمون العقبة، ويذلون فيصبح لهم قيمة الغثاء إن كان عملهم سلوك نجد الكبد المشؤوم غافلين عن ربهم. عندما تلتقم الفتنة المؤمنين فيُتْرَفُونَ فيها، أي يذوبون في لذائذ الحس أو حبائل العقلانية والاستكبار، يفقدون فاعليتهم وتعمى عنهم الشريعة، فلا يهتدون عملهم كما علمهم الرسل، ولا يهتدون إلى الاتجاه الذي فيه ينبغي أن يعملوا.

وفي فترات من التاريخ يتقلص الإيمان إلى إسلام فردي، فيعتق الناس الرقاب ويطعمون اليتيم والمسكين، كل على حدة، متقربا بعمله إلى الله، لا يدخل ذلك في جهاد جماعي لإحياء الأمة وإطعامها وتحرير رقابها. وهذا هو الإسلام الموجود اليوم بين ظهرانينا، وهو فهم جزئي وممارسة جزئية للمنهاج النبوي. ذلك لأن اقتحام العقبة لا يتم بأعمال البر الفردية وحدها. كلا !

حتى يدخل العمل في الجهاد الجماعي للأمة، ذلك ما قاله الله: «**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ !... ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**».

فما لم يكن المؤمن مع المؤمنين وما لم يشاركهم في الصبر والعمل والرحمة الجماعية، أي ما لم ينضم للجماعة ويتعاون معها على إقامة شرع الله فإنه لم يقتحم العقبة.

المسلمون يجهلون إسلامهم فنشأ عن ذلك أو نتج عنه جمود وتوقف حضاري وترد مع التيار الهابط. أي بعبارة أوضح، لقد فقد المسلمون حركيتهم[1] وفقدوا المبدأ الدافع والاتجاه ومعنى العمل وإنهم لن يستعيدوا كيانهم الإسلامي ولن يرجعوا أمة كما كانوا إلا إن تحركوا. وليس ما نراه في دار الإسلام من تحركات وضوضاء إلا اضطرابا، لأن عمل المسلمين المترفين في الفتنة ينبثق عن معرفة جاهلية ووعي جاهلي للذات والموضع والاتجاه. وإن اقتحام العقبة الذي هو المنهاج النبوي هو وحده الحركة التي سيكتشف المسلمون بها إسلامهم. إنهم متى زالوا عن مواضعهم الحالية، أهل السياسة عن تسخيرهم للجماهير المشعبة وأهل القيادة عن التألة والفسق وأهل المال عن الأثرة والاستغلال، ستظهر لهم قتامة الوضع الحالي.

---

1 حركية : dynamisme.

إذا كان الشباب في دار الإسلام يجهل الإسلام ويتنكر له فذاك لأن المواقع التي يحتلها من يدعون الإسلام من الأجيال الأشد فتنة مواقع جاهلية تتصف بالجمود والأثرة والانحلال الخلقي، فذلك الموت وذلك الحرمان وذلك الخزي والهزيمة ! ويرى الشباب في الأيديولوجيا وبلادها حركية فعلية وصراعا نحو دوابية أفضل وهم في بلادهم يحرمون حتى حق الصراع.

فالعمل الإسلامي ليس تأملا منهاجيا للعروض الأكاديمية بل هو دعوة إلهية نبوية تثير القاعد والمتردي ليقتحم العقبة. ولا يصح عرض المنهاج النبوي إلا في سياق دعوة تصرخ مبشرة منذرة أن تحركوا يا مسلمين ودعوا باطل غيركم إلى حقكم المنزل من ربكم!

العبارة القرآنية : «**فلا اقتحم العقبة!**» عبارة غضب ورحمة على هذا الإنسان التعب النكد وله، فلا : أداة للتحضيض والأمر الصارم الجاد. وقد فسر الآية مفسرون رأوا في العبارة نفيا والتمسوا العقبة التي ما اقتحمها الإنسان في صخور جهنم. وبعض المفسرين سبقونا للمعنى التحضيضي وبينوا العقبة وفسروها بما يليها من فك الرقاب وإطعام اليتيم والمسكين والكينونة مع المؤمنين المتواصين بالصبر والرحمة. نقول هذا لمن يسألنا عن أدوات اجتهادنا. ثم نمضي ننظر في مستقبل الإسلام والمسلمين.

لن يتكشف إذن الإسلام للمسلمين إلا إذا تحركوا من مواقعهم

الجاهلية، وباكتشاف صوابهم المستقبل يفتضح في عين الجميع ضلال الحاضر. المسكين في دار الإسلام والصغير الذي لم يتكئ على مراتب السلطان الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي يقارن بين حاضر قومه البئيس وحاضر البلاد الثورية، الثورية بعمق، فيحكم على فساد أوضاع بلاده، ويثور ويشقى، ويلتمس قلبا للأوضاع ليصلح الأمر. والمنهاج النبوي الذي نعرضه في سياق دعوة إسلامية لعمل إسلامي إنما هدفه ومقصده وغايته التغيير للحاضر في اتجاه إسلامي بعمل إسلامي وأسلوب إسلامي. فمن يقتحم العقبة ؟ أيقتحمها جماعة بالأمة كلها، أم تقتحمها الأمة مع قيادة إسلامية ؟ وما دام ليس للإسلاميين رجال الدعوة تنظيم إسلامي فمن يقتحم العقبة ؟ وبعبارة أوضح : من هو الفاعل التاريخي للتغيير الإسلامي ؟ وفي أي مجال ؟ أهو طاقة العمل المجسمة في «البروليتاريا» كما يقول الشيوعيون ؟ أي في مجال الممكن كما يعبر الوجوديون ؟ الجواب عن كل هذا نجده في كتاب الله وسنة رسوله عندما نبحث بمنظار المنهاج النبوي في صفحات هذا الفصل التالية. فإذا ذكرنا التجربة الصوفية فإنما نستعمل اصطلاحا طالما عمى عن المسلمين حقيقة الممارسة الإيمانية الإحسانية كما عاشها الأنبياء والصحابة عليهم جميعا سلام الله ورضوانه. وتتساوق حركية المنهاج النبوي في خصال عشر هي صلب الكتاب والسنة.

الخصال العشر

مابين الحياة والموت مجال زمني لعمل الإنسان، وهذا العالم بما فيه من امكانيات للإنسان السادج وللإنسان المسلح بالعقلانية التكنولوجية على السواء مجال حيوي يشقى فيه ويسعد، ويتوسع فيه أو يضيق حسب هذه العلاقات البشرية التي تربطه بالعدو والصديق والمعاون والمنافس والأسرة والقوم. بيئة طبعية بشرية هي الوسط الذي يمارس فيه الإنسان كدحه وصراعه من أجل الحياة.

الإنسان الساذج قليل الحول يقضي عمره في مغالبة القلة، والإنسان المسلح بالتكنولوجيا يعلو على دواعي القلة فيعمل في اتجاه الممكن، أي بلا وزاع خارج عن مقتضيات النظام والأمن الاجتماعيين. كل ما تتحيه له الحذاقة الصناعية والكثرة لإرضاء شهواته فهو له مطلب لا تُقَيِدُهُ عنه إلا حقوق غيره، وهكذا فكلا الإنسانين يستهلكه الصراع من أجل الحياة، فيذوب الأول في كدح من أجل العيش، ويذوب الثاني في مطاردة اللذة، ذلك جائع شقي بجوعته منهمك في صور ما حرم منه، وهذا مستهلك ذهبت عنه معاني الإنسانية وبقيت دوابيته. هذا الذوبان والاستهلاك نعبر عنه بكلمة الترف وهو مفهوم قرآني. وإن كان الترف

في اللغة الاستهلاك والانهماك والذوبان في اللذة فنحن نوسعه ليشمل كل قصور وكل ارتداد عن اقتحام العقبة. فنستعمل فعل أُترف[1] نظرا لقوله تعالى للكافرين يوم الدين : ﴿**وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ**﴾. وهكذا يكون لدينا تصور متكامل يعطينا وسيلة لتأمل الأنسان المترف بفكره أو بلذاته وممتلكاته أو بالسياسة وطلب الجاه، باعتبار أن كل ما أترف فيه الإنسان فإنما يعوقه عن اقتحام العقبة.

الحياة والبيئة والمجتمع مجالات يأخذها العقل على أنها مُعْطًى للإنسان موروث، فإن كان هذا الإنسان جاهليا، ونحن نعيش في جاهلية جهلاء، لم يكن هذا المعطى إلا فرصة للمتاع ولم تكن للإنسان غاية إلا الحياة في أحسن ما يتمناه. فيكون صراعه مفضيا إلى تَرف من نوع ما. من حصل على التكنولوجيا وأحرز الكثرة والوفرة أُترف في استهلاكه، ومن حُرم ذلك أُترف في مطالبته وثورته وسمى متخلفا. ومن خلال مبدإ الصراع الجاهلي وغايته الاقتصادية المحض، تستحيل معاني الحرية والإنسانية والظلم والعدل إلى نسبيات اقتصادية أرضية، شرفُ الإنسان في نظرتها مستوى عيشه المادي، وحريته تُقَاسُ بما عنده من فرص لإرضاء شهوته، والظلم والعدل لا يتعديان مقادير الرزق المتصارع عليه.

بهذه التصورات يسبح الفكر الجاهلي والممارسة الجاهلية في

---

1 يمكن أن يقابل معنى فعل «أترف في» مفهوم القاموس الفلسفي : «s'exténuer dans».

مجالات الحياة. وبمعيار هذه التصورات يوصف المسلمون بأنهم أقوام متخلفة. ولا بد لنا أن نستبصر في هذه التصورات قبل أن تقبل على اقتحام العقبة وأن نتعلم ماهية العقبة التي أمرنا باقتحامها. أهي عقبة التخلف ؟ إذن فغايتنا أن نترف في الجاهلية ونذوب فيها سائرين على دروب الصراع من أجل التصنيع أو منهين إلى مجتمع استهلاكي، وعندئذ فلا حاجة بنا للإسلام ولا مطمع في حمل رسالة الخلاص للإنسانية.

ما هي الحرية وما هو العدل وما هي الإنسانية ؟ إذا رجعنا إلى مسلَّمةِ أننا عبيد لله مأمورون، فإننا نتلقى جوابا غير جواب الجاهلية. الحرية الجاهلية حرية للخوض في اللذات الممكنة، والحرية الإسلامية أن تكون من أصحاب الميمنة. العدل الجاهلي توزيع للرزق بالمعاركة والكيد السائدين في مجال الاقتصاد، والعدل الإسلامي عدولٌ عن الترف في الدنيا إلى مواجهة الواجب الإلهي. الإنسانية الجاهلية دوابية منقطعة في الأرض، محط همتها المريخ وزحل، والإنسانية التي عرَّفنا بها فاطرها طائفتان، أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة. والفيصل في كل ذلك الإيمان والعمل الصالح.

لكيلا نتيه عن العمل الإسلامي واتجاهه نتحقق أولا من ماهية العقبة باحثين عن ذلك في كتاب الله تعالى. إننا إذ نعرفها بكل أبعادها يحصل لنا تصور مركزي. هذا التصور هو : العقبة : الفتنة.

قال الله تعالى : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ وقال عز وجل : ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾، وقال عز وجل من قائل : ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ وهذا كثير جدا في القرآن.

ومؤداه أن وجودنا في الدنيا إنما كان من أجل الاختبار والامتحان، وَضَعنا الفاطر سبحانه في بيئة مادية إنسانة تربطنا بهما علاقات متشعبة، وأرسل إلينا نماذج سلوكية مع أنبيائه المتعاقبين ليبلونا هل نحسن العمل وهل نغلب ضراوة غرائزنا وطاغوت عقلنا وكبريائنا. فنحن في وسط ابتلاء في وسط فتنة.

العقبة هي الفتنة، هي مجال الاختبار، وكأن الحياة وأدوارها وأحداثها مسرح إلهي تعطى فيه حرية الإرادة للممثلين أن يتصرفوا وفق برنامج مسبق شاق يشكل عقبة، فمنهم من يتجاوز مراحل العقبة فيخرج من الفتنة ناجحا، ومنهم من يُترف فيما زُين به المسرح من ملذات فيفتن ويضيع.

السلوك الإنساني يجري في مجال هو باعتبار طبيعته ومشاقه عقبة، وهو باعتبار مغزاه وغاية خلقه فتنة. فالسالك يقتحم العقبة على علم تام بما جاءته به الرسل : أن الدنيا متاع الغرور وأن الآخرة دار النعمة والقرار. فإما يكفر بالرسل فهو جاهلي، وإما يصدق لكن يعجز عن الاقتحام فهو مترف وهو مفتون. وفيما

يلي مما نكتب نقصد بالجاهلية والجاهلين الكفار من سكان دار الحرب، ونغطي ردة بعض سكان دار الإسلام إذ نطلق لفظ الترف والفتنة عليهم رجاء أن يعود الله علينا برحمته فنرجع لعزة إسلامنا.

التخلف والفتنة تصوران متعارضان أحدهما جاهلي والثاني إسلامي. وكما نفهم نحن المسلمين أنفسنا ونعيها يكون عملنا، فإن قسنا أنفسنا بمعيار التخلف انحبسنا في الدائرة المادية وغرزنا رؤوسنا في حمأتها، وكان عملنا مطالبة وصراعا من أجل مجتمع استهلاكي مصنع. وإن حددنا أنفسنا بتصور الفتنة الإسلامي وعملنا عملا إسلاميا على أساس أننا قوم مفتونون، اتخذ معنى اقتحام العقبة أبعادا أخرى ليس التصنيع فيها يكون من أجل الاستهلاك لكن من أجل القوة، وليست الحرية فيها تحللا وذوبانا في اللذة الممكنة لكن اختيارا للواجب الإلهي وللموعود الإلهي.

وكما نفهم أنفسنا ونعي العالم وعيا جاهليا أو إسلاميا يتكيف عملنا فننتقل من الخبط والاضطراب الحاليين إلى عزمة إسلامية تصطحب فيها الإرادة المؤمنة بالرجاء الساطع في موعود الله أن يستخلف في الأرض المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وإذا نحن أمة كريمة تحمل رسالة الخلاص للبشرية جمعاء.

يمكن السلوك المنهاجي على إحدى خطتين اثنتين. الأولى نعرفها بـ : مشروع الخلاص الجماعي، والثانية نعرفها بـ : مشروع الخلاص الفردي.

يتصور بعض الناس الدين أنه مطلب خاص بالفرد وعلاقته مع الله، متأثرين بالمفهوم السائد خاصة عند المسيحين، فيكون إسلامهم قاصرا على الجانب العبادي وما يخص ذات المسلم في معاملاته مع الناس، فلا يأكل حراما ولا يظلم، ويؤدي صلواته وصيامه وحجه وزكاته. فهل يقبل الإسلام هذا المشروع الفردي للخلاص؟ وقد شاع فيما يكتبه رجال الدعوة الإسلامية التنديد بهذا السلوك ورفضه. ولعل رجال الدعوة يقصدون أن يخرج المسلمون من إسلامهم الفردي هذا إلى إسلام جماعي.

والذي نجده في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يصف زمن الفتن عكس هذا، إذ يبيح للمسلم أن يفر وحده بدينه. وقبل أن نذكر واحدا من أحاديثه الشريفة في الموضوع نضيف مفهوما جديدا لآلاتنا التصويرية. المعنى القرآني للفتنة رأيناه، وفي الاستعمال النبوي تتخذ الفتنة معنى آخر هو معنى العنف والاضطراب الاجتماعي وسفك الدماء. وفي كتب الحديث أبواب فيها ذكر الفتن، يخبر فيها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالحروب والأهوال التي ستمزق الأمة، ويحث على نمط من السلوك غير عنيف من ضمنه الفرار بالدين أي الانزواء في الإسلام الفردي، في مشروع الخلاص الفردي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**من خير معاش الناس رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار إليها يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير**»[1].

الحديث يفتح المجال للإسلام الفردي، للرجل العائش مع غنمه ويفضل عليه المجاهد المدافع عن جماعة المسلمين. وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

أما مشروع الخلاص الجماعي فهو مشروع الجهاد بمعناه الواسع الذي يشمل جهاد الدعوة وجهاد البناء، ﴿**وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً**﴾.

إذا رجعنا إلى سورة البلد التي تضع قاعدة المنهاج وسياقه وجدنا تعريفا لاقتحام العقبة بحيث لا يتم السلوك الصاعد المقتحم إلا بالدخول في الجماعة والمشاركة في التواصي بالحق والمرحمة.

وهذا ما يوصلنا إلى عرض مراتب الإسلام وعرض المعراج السلوكي الإسلامي الإيماني الإحساني كما وصف ذلك رسول الله

1رواه مسلم.

صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل العظيم. الإسلام شهادة لله ورسوله وصلاة وصوم وزكاة وحج بشرط أن يسلم المسلمون من لسانه ويده. والإيمان يضيف إلى ذلك اعتقادا بغيب الله من ملائكة وقدر وجنة ونار، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

المسلم بمقتضى الحديث الشريف دون المؤمن، والمحسن هو قمة الإسلام. فاقتحام العقبة في حق المسلم تبعية للمؤمنين واستسلام وسلام، والمؤمن اقتحامه للعقبة هو تنفيذُه لكل الأوامر والنواهي لأنه هو المخاطب بالشريعة كلها، الموكول إليه تنفيذها في نفسه وفي غيره من المسلمين في الخطاب القرآني الذي يعبر بقوله : «**يا أيها الذين آمنوا**». أما المحسن فهو المقتحم للعقبة الخارج من الفتنة طاهرا قويا. وكل هذه الطوائف مسلمون مع اختلاف قوتهم ومدى سلوكهم في اقتحام العقبة.

أما وقد جمعنا هذه التصورات التي تعرف لنا كنه العقبة وتعطينا درجات الضعف والقوة عند السالك المسلم والمؤمن والمحسن وفصلنا بين مشروعي الخلاص الفردي والجماعي فيبقى لنا أن نشرع في الدراسة التطبيقية للسلوك الإسلامي مجزئين العقبة تجزئة اصطناعية لتسهيل البحث.

خصال عشر تقابل صعوبات عشر مردها إلى التكوين الغرزي في الإنسان أو إلى العوامل البيئية والثقافية، نجعلها أقساما نظرية

لتوضيح خطابنا، مع تداخل الصعوبات بمقتضى وحدة الإنسان الذي ترجع إلى ذاته وعمله أصولها.

الخصال العشر هي : (1) الصحبة والجماعة، (2) الذكر (3) الصدق، (4) البذل، (5) العلم، (6) العمل، (7) السمت، (8) التؤدة، (9) الاقتصاد، (10) الجهاد.

إنها مقولات خلقية روحية عملية، ولعل صياغتها على هذه المعاني يصدم من ألف المقولات المادية الجارية على ألسنة وأقلام أصحاب الإديولوجيات. ولئن كان بعض هؤلاء لا يزالون يرفضون الاعتراف بأن للإنسان رأسا وإرادة[1]، ويُترف عقلهم في تأمل «البُنى التحتية» لا يرون في «البنى الفوقية» إلا انعكاس الظلال المادية في مرآة الإنسان، فإن واقع الشيوعية وثورتها الثقافية تؤكد أن للإنسان، حتى الإنسان الشيوعي، والإنسان الشيوعي أكثر من غيره، رأسا وإرادة وتشوقا ثقافيا يرفض «البنى التحتية» ويروم تجاوزها ولا يستجيب لها برد الفعل كما تستجيب المرآة برجع الظل.

خصالنا العشر مقولات معنوية منسجمة بكونها كذلك أساس المنهاج واتجاهه وغايته. فالمنهاج الذي هو اقتحام العقبة أسه أن الإنسان مخلوق عبد مأمور، واتجاهه صُعُدا بإرادة حرة متشوفة لموعود الله، وغايته الانتصار على الوسط السلوكي الذي

1 كان من أطروحات الشيوعي برشتاين أن للإنسان رأسا وتدبيرا فقالوا مثالي.

هو فتنة. فليست المادة هي المهيمنة على الإنسان المسلم، بل إرادته الإيمانية تغالب ثقل المادة وتصارعها في كل حين، لأن البيئة المادية والبشرية مفضوحة في نظره يراها فتنة تحط من قيمته مخلوقا سماويا مآله الجنة ليصبح دابة أرضية مآلها التراب.

وليس معنى هذا نفي الضغط الواقع على الإنسان من البيئة الطبعية والبشرية، إذ لولا هذا الضغط وقوته لما كان مجال عمل الإنسان فتنة. ومن هنا يكون الفاعل التاريخي بمنظار الإسلام إنسان الإرادة السائر ضد التيار لا مع التيار.

في الخصال العشر أمهات ثلاث هي الصحبة والجماعة، والذكر، والصدق، والسبعة الباقية مظاهر تطبيقية لمن جمع الخصال الثلاث الأمهات واقتحم الصعوبات الثلاث المقابلة لهن. فالخصلة الأولى من الخصال العشر تقابل طاغوت الأنانية الفردية، والخصلة الثانية تقابل طاغوت العقل، والثالثة تقابل طاغوت العادة؛ وتكون الخصلة الرابعة مثلا وهي البذل تجاوزا للأنانية الفردية وتجاوزاً للعادة وتجاوزاً للعقلانية التي تبني علائق المجتمع على المردودية لا على التضحية.

تشكل الخصال العشر تسلسلا تصوريا يغطي موقف الإنسان في الجماعة وموقفه من العقلانية وموقفه من الله ومن العادة، كما تغطي التربية والتأثير المتبادلين وسط الجماعة. وبإضافة معارج

القوة في السلوك الإسلامي المنهاجي على مستويات الإسلام والإيمان والإحسان التي يجمعها منهاج اقتحام العقبة، نتمكن من فهم الإنسان وعمله وتجميع[1] أحواله بعرضه على المنهاج فردا كان أو جماعة. وقد أعيى الماركسيين البحث عن تلقيح إديولوجيتهم بآلات تصورية جديدة تمكنهم من تجميع الإنسان وهم المدّعون للشمولية[2]. فطالما بحثوا عن مفاصل في الفكر الماركسي ليطعموا فيها فسائل مقتبسة مما يجد في التحليل النفسي والبحوث العلمية. وانظر مثلا محاولات سارتر في كتابه «Question de la méthode» وجريه ليجد منهجا لتجميع الإنسان تجميعا أفقيا فيغني بذلك الماركسية التي لا تعرف إلا التجمع العمودي، أي التجمع حول محور تاريخي يضغط الإنسان حتى يعصره من كل معانيه الإنسانية، ويعرضه عاملا كادحا يتسقل ببؤسه وثورته، أو يشارك فيهما طبقة بروليتارية لا لون لها ولا أفق ولا معنى إلا الصراع الطبيقي من أجل التمتع بفائض قيمة العمل.

ثم إن الخصال العشر ليست إلا المضمون القرآني النبوي لمنهاج اقتحام العقبة. ما هي صياغة خارجة عن مصدر الإسلام، مصدر المنهاج، وإنما هي لب الصفات الخلقية والأنماط السلوكية التي

1 تجميع : Totalisation.
2 شمولية : Totalité.

تتردد في القرآن والسنة، أرجعنا كل طائفة منها إلى أصل واحد. وكان ترتيبها اجتهادا منا مبنيا على التجربة الإسلامية التربوية الخالدة التي تبدأ دائما بالصحبة صحبة الرسول والنبي المجدد أو صحبة الشيخ المربي الصوفي.

الخصلة الأولى

الصحبة والجماعة

الأنانية الفردية أعظم الحجب بين الإنسان وبين اقتحام العقبة. ونستعمل الحجب بمعناها الصوفي، فهي ظلمة وكثافة تحول بين الإنسان وعالم التحرر الروحي. والأنانية أيضا هي الأرضية التي تتأسس عليها العادة، وعندما نقول العادة فلسنا ننظر إلى الحركات الحسية والعقلية التي تتكرر منذ الصبا فتُكون العادات وتكون ضرورة التفكير والعمل، لكن نعني بالعادة مجموع المواقف النفسية الوجودية المتأصلة في الجاهلي، المهيمنة على سلوكه القاعدة به عند غرائز الشح والشهوة والكسل.

يتحدث الصوفية، وهم عالجوا النفس البشرية وراقبوها في عروجها السلوكي، عن مقامات لفظها يدل على الارتفاع من مستوى نزعات العادات. ونضيف نحن مفهوما هابطا ليتأتى لنا ترتيب دركات العادة كما رتبوا هم المعارج الصاعدة مقامات، فنقول إن للعادة مواقع واللفظ يدل على الوقوع والتردي.

الجاهلي أناني قبل كل شيء، والمسلم من استسلم وسلم نفسه لله.

ويعبر القرآن عن الأنانية بلفظ الاستكبار، فما من قوم كذبوا الرسل وعَتوْا عن أمر الله إلا كان دافعهم الاستكبار. هذا الاستكبار الجاهلي يستند أكثر ما يستند على القوة والمال، ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾.

وفي سورة البلد التي أعطتنا المنهاج تصوير الإنسان بماله الذي يقول : «**أهلكت مالا لُبَداً**». وكذب أقوام الرسل لأنهم مساكين يمشون في الأسواق سعيا وراء الرزق. وفي القرآن ذكر لطوائف المستكبرين الذين يعوقون بطاغوت القوة وطَوْل المال طوائف المستضعفين عن اتباع الرسل، فتقرأ في القرآن الكريم حجاجهم يوم القيامة. وما من قوم إلا طغوا واستكبروا فزعموا أن النبي ساحر أو مجنون، وقال الكافرون للرسول إنهم لن يؤمنوا به حتى يكون له بيت من زخف. وهذا كثير في القرآن.

الحجب الثلاث يقتحمها المؤمن بالخصال الثلاث الأولى متداخلة تداخل الظلام في الظلام، فالأصل الذي تنبت عليه الغرائز وتنمو هو المال والقوة. وطاغوت العقل يصوغ من معاني الترف بالقوة والمال أنانية مستعيلة. صور أفلاطون، وتبعه فلاسفة متأخرون من المسلمين، مركبة السلوك الإنساني يجرها فرسان : هما شهوة الحس وقوة الغضب، وتمنى أن يكون العقل سائق العربة المتحكم

في الفرسين. هذا تصوير مثالي يكذبه الواقع، فإن العقل وحده إذا تأمل الشهوة والقوة لا يكاد يرسم لهما إلا مسلكا يؤدي لمزيد من أسباب المتاع، لا يردعه عن ذلك إلا ضرورة الحياة الاجتماعية التي تضع حدا بينك وبين جارك على نسق فيه قليل أو كثير من الظلم الاجتماعي. وباصطدام الشهوة بالشهوة والقوة بالقوة تستوي الحياة الاجتماعية في مواقع وضعية قانونية تكبح الأنانيات. أما أن ترتدع قوتا الشهوة والغضب بوازع العقل المتأمل المتفلسف فهذا لا يحدث إلا في بعض صومعات الفكر المنقطع أصحابها عن الحياة. وإنك إن لم تأكلهم أكلوك، شعار يهيب بالأنانيات الجاهلية للكيد والمكايدة في كل زمان ومكان.

ليس العقل يحكم الغرائز الأنانية، بل يحكمها وزاع الهداية المتمثل في شخص النبي أو الوارث الوالد الروحي بالصحبة المباشرة أو بتوسط تربية الأبوين الطبيعيين. الهداية النبوية إنارة بالقبس الإلهي لحياة الفرد الأناني الواقع في مستوى عقله وغرائزه ليتطلع إلى آفاق الخلود.

وبالهداية جاء الأنبياء يؤيدهم نور القبس الإلهي، يحملون معهم برهان صدقهم معجزات تخرق العادة، برهان صدق من عالم الغيب قبل كل شيء. وإنما سدى القرآن ولحمته حديث عن الغيب وعن معجزات الأنبياء. ويكتب بعض الناس في هذه الأيام في خط

بدأ من عهد محمد عبده رحمه الله ما به ينكرون أن يكون الغيب هو صلب البراهين المؤيدة للرسالات. ولمن له عين ولسان وقلب أن يتدبر القرآن. نعم يقول الله في آيات معدودات كيف رفض الرسل أن يظهروا معجزات أمام تحدي الكفار، فيقول الله لرسوله أن يجيب عن التحدي بإظهار المعجزات : ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً**﴾. وبجانب هذه الآيات المعدودات، القرآن كله لا يكاد يتحدث إلا عن الغيب. ولعل من كَبُرَت في عينه دنيا المخترعات وضجيجها، عمي قلبه عن إدراك عوالم الله التي تتضاءل أمامها منظومات النجوم الذاهبة في هذه السماء الدنيا الصغيرة.

بالهداية المؤيدة من الغيب جاء الأنبياء عليهم السلام، إبراهيم عليه السلام لا تحرقه النار، ويدعو أشلاء طير فيحيي مجيبا لندائه، وعيسى عليه السلام يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ولكل الرسل معجزات أيدهم الله بها ليعرف الناس مصدر الرسالة التي جاء الأنبياء عليهم السلام يحملونها.

ومن لقاء الناس بالغيب تبتدئ الصحبة، بالإرشاد الحادب من جناب النبي وبالطاعة والمحبة من جانب الصاحب الحواري المتَّبِع يقول ربنا عز وجل : ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً**﴾.

لا تغلب الأنانية إلا بهداية ولا هداية إلا من الله، فمن لم يكن له ولي مرشد فهو عرضة للضلال.

لفظ القرآن أجلى من نور الشمس، الهداية رهن بأن يكون لك ولي مرشد. وهذا الولي المرشد في حق رسول هذه الأمة هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو من قلب المؤمن قريب وهو هدانا بهدي الله وأرشدنا وبلغنا رسالات ربه. لكن كيف بلغنا هذه الرسالة ؟ يجيبنا الحديث النبوي بأن تأثير الأبوين حاسم في الموضوع : «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، ومفهوم الحديث أنهما يهديانه للإسلام إن حافظا على فطرته طاهرة.

لكن لفظة «الولي المرشد» تحمل أكثر من هذا المعنى لضعف المحبة طبعا وشرعا بين من يسكن قلبه عالم الأرض وبين من يطمح قلبه إلى سكان عالم السماء، ولأن نصيب الأبوين من الهداية قد يكون ضئيلا. ولا شك أن كمال الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما كما صرح بذلك القرآن الكريم والحديث النبوي (وأعيذك بالله ممن يطعنون في مقام النبوة فيتحدثون عن دور ساعي البريد في حق الرسل الكرام، أولئك في ضلال مبين). كمال الولاية لله والرسول في كمال محبتهما، لكن من يربي عاطفتنا ويكبح أنانيتنا وينير لنا بالهداية الإلهية سبيل هذه المحبة الكاملة؟ إنه الولي

المرشد لا شك في ذلك.

الصوفية أصحاب التزكية الروحية والسلوك هم الطائفة من هذه الأمة الذين يتخذ الولي المرشد عندهم وجها آدميا متميزا هو وجه الشيخ المربي. وعند رجال الشيعة ولاية لإمام غائب وصحبة، ولسائر المسلمين ولاية مشتتة لواعظ الجمعة أو لأب وقريب وعالم ومعلم. ولكل هؤلاء المصحوبين أثر في الصاحب يقوى بقوة المثال الحي ويضعف بضعفه.

لما طغت الجاهلية على دار الإسلام باستيلاء المستعمرين انتصب أمام عين الجيل الناشئ مثال جاهلي خلاب بحزم الأوروبي ونظافته الظاهرية وعلمه ونشاطه وقوله، فأزرى بالخمول والجهل والضعف الموروثة وتحول ولاء الأجيال المفتونة فتهذبت أنانيتها بين عالمين أحدهما جاهلي منتصر والآخر خافت الضوء كئيب مهزوم. وذهبت الصحبة الإسلامية وذهبت ولاية الولي المرشد فانمحت الهداية أو كادت من قلوب الأجيال المفتونة.

وهؤلاء هم المسلمون في دار الإسلام انغلقت أمامهم السبل فتطاحنت أنانيتهم الفردية وسط أنانيات قومية بفعل الصحبة الجاهلية، فهم اليوم، فرادى وجماعة، أحوج ما يكونون إلى صحبة إسلامية قوية. فمن الصحبة تبدأ الأمة المشتتة مسيرتها في اقتحام العقبة، ولا تأليف ولا توحيد يمكن في قطر من أقطارنا إلا

بصحبة قوية ساطعة بأنوار الهداية، ولا وحدة بين أجزاء دار الإسلام ما دامت تقودها أنانيات مستعارة من دنيا الجاهلية.

الصحبة المنشودة لا بد أن تتعدد لأن موروثنا التاريخي ثقيل جدا حمل إلينا خلافات مذهبية لا تكاد تحصى. وإن كانت كل طائفة تزعم انتسابها للكتاب والنبي أكثر من غيرها، فسيمضي وقت قبل أن تظهر لوائح الهداية ونورها وتأييد الله لمن هو أهدى سبيلا.

قبل أن تتوحد صحبة كل المسلمين للخلافة على منهاج النبوة التي بشر بها الرسول الكريم الأمة بعد كبواتها التاريخية، يجب على من يتصدون للدعوة أن يبرهنوا على أن لهم مقاما وصفاء بالسلوك المثالي. وينم عن صفائهم ومقامهم أثرهم في تحويل الناس من غي إلى رشد، ومن ضلال إلى هدى. وتدل عليهم نورانية الدعوة وقوتها كما كان الأمر بالنسبة للشيخ الجليل سيدي حسن البنا في عصرنا هذا. ولن تجد أصحاب الهداية والنورانية إلا سالكي المنهج مقتحمي العقبة الذين أسلموا ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا. وصعود مقامات المعراج يقتضي أن يكون للداعي صحبة بها اهتدى وعلى نموذجها تربى.

وبيدنا معيار لنقيس فائدة الصحبة، هذا المعيار هو أن تستحيل الأنانية الفردية غيرية وعطاء ومحبة، أن تنكسر شوكة العقلانية

الثائرة بنور الإيمان فيتلقى المؤمن غيب ربه ويهتدي تبعا لذلك بقرآنه، وتنكسر شوكة الغرائز العادية فتصفو الفطرة ويتحرر الإنسان فيصبح محسنا يراقب الله ويعمل عملا إسلاميا بهدى الله.

الصحبة تربي الفرد من أنانيته وتفتح له قابليات الاندماج في الجماعة. لكن كسر الأنانية قد يتجه اتجاها فرديا محضا، وقد يسلك المريد سبيل التزكية الروحية فيهدف إلى المقامات الروحية في حضن الإسلام الفردي على هامش الجماعة الإسلامية. يكون هذا مثلا عندما يتحول الرباط الصوفي من وظيفته الجهادية إلى زاوية هاربة من الفتنة. وهذا حدث كثيرا ويحدث بين المسلمين.

لهذا جعلنا الخصلة الأولى ذات طرفين لنلح على معنى وجوب أن تفضي الصحبة والتربية الروحية إلى بناء الجماعة. المؤمن الفردي قد يكون له ذكر وصدق وبذل وما إلى ذلك من الخصال التسع، لكن جهاده لا يعدو الجهاد الباطني في حلقة مصغَّرة من المريدين أو بين جدران خلوة في أعلى الجبل وذلك جهاد مع أوهام النفس وأحلامها. لكن ليس الجهاد الأكبر خلوة الذي رجع إليه الرسول لما عاد من إحدى غزواته، الجهاد الأكبر جهاد النفس وسط الجماعة ومعها لهدف بنائها والصبر معها والتواصى بالحق والمرحمة.

لا حاجة بنا هنا أن نستقرئ الأحداث التاريخية التي جعلت بعض الصوفية وتجعلهم يقبعون في الزوايا أو بعضهم يرابطون

في الرباطات يجاهدون ليكونوا جماعة موحدة عاملة ويجاهدوا الفتنة الداخلية والجاهلية الخارجية. ولا نريد أن ندافع عن الإسلام الفردي وهو صيغة إسلامنا الحالي المنكمشة، فقد قال فيه الرسول الكريم ما يكفينا لنحترم من فر بدينه من الفتنة ونعذر ضعفه عن الجهاد.

الصحبة تذهب الأنانية المتحجرة وتفتح قابليات العمل الجماعي بما تبذره من بذور المحبة لخلق الله. وكي تنبني على الصحبة جماعة لا بد أن يضاف إلى المحبة آخران : أولهما الطاعة، طاعة محبة وثقة[1] وثانيها النصيحة.

يعبر النطق النبوي عن البناء العضوي للجماعة المسلمة فيشبهه بالجسد الواحد يشتكي كله باشتكاء عضو منه، والبناء المرصوص يشد بعضه بعضا. وتلاحُم المحبة لا يكفي، أي أن تأسيس الجماعة الإسلامية لا يثبت على أرضية عاطفة وحدها، بل يقتضي أن يتأسس على عامل إرادي يقام بعملية المبايعة التي تتطلب طاعة لقائد الجماعة مستمدة من طاعة الله. فإن كان رسولا فمبايعته مبايعة الله ويد الله فوق أيدي المبايعين، وهو سبحانه شاهد لهم ومؤيد، وإن لم يكن نبيا فهو اختيار المسلمين ذوي الذمة، يسلمونه مقاليدهم ويطيعونه بطاعة الله ورسوله كما صرح القرآن، فيكون صاحب أمرهم، منهم، حادبا عليهم، خادما لهم.

ويقتضي بناء الجماعة الإسلامية بناء إسلاميا عضويا أن تتأسس

1 لا تلك الطاعة التي يقتضيها «الأمير» اليافع تحت ناموس «بيعة» تتعاطاها جماعات الشباب الإسلامي لغايات شتى.

الجماعة بعد ذهاب أنانية أفرادها بالصحبة المربية في تنظيم للحريات والاجتهادات، وهو ما يعبر عنه القرآن بالتواصي بالصبر والحق والمرحمة ونجمعه في لفظ قرآني هو النصيحة.

مضمون النصيحة هو تبادل الرأي في حرية، نصيبُ المسلم فيها دون نصيب المؤمن، وللمحسن المقام الأول حسب الدرجات الإسلامية التي ليست طبقية استعلاء، بل طبقة خدمة ورعاية لحق الله وتقوى. تبادل الرأي وإبداؤه تسميه الأنظمة الجاهلية «حرية الرأي» أو « النقد والنقد الذاتي»، ومجال كل ذلك الكدح الدوابي. أما التواصي الإسلامي فمجاله الحق لكيلا يبقى محط نظر الإنسان دون قيمته السماوية الخالدة، والصبر ليكون الجهاد الدائم مقصدا للأمة الإسلامية حاملة الرسالة، والمرحمة ليكون المسلمون أمة تراحم ومحبة. ولا نصيحة ممكنة بدون التربية الفردية بالصحبة وبدون الطاعة المنظمة. وبدون هذه النصيحة يخسر الإنسان. قال الله تعالى : ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

الخصلة الثانية

الذكر

المركبة الأفلاطونية تطغى بها قوتا الأنانية والشهوة ويفلت الزمام من يد العقل فلا يكون له سلطان على اختيار الاتجاه. ومصير الإنسان بين هاتين القوتين أن ينخذل ويستخذم العقل لتبرير ميله مع الطاغوت.

ثم إن العقل بعد ذلك مظهر التأله الأناني، فإذا سار في ركاب الأنانية المستكبرة والشهوة العارمة، وأترف في لذتي الجاه والمتاع الحسي كفر ونصب نفسه معيارا للوجود. وقد يدعى العقل تحررا ويدعى صدقا في طلب الحق، وعندئذ يقفز من تلمذته للحواس وإخبارها، فإذا هو عقل فلسفي يبني منظوماته لتفسير الإنسان والعالم، ولا يشعر أنه سجين في شبكة العقلانية كسيح.

إن القرآن الكريم يدعو للتفكير ويدعو للتعجب في وضع الله والعقل الذي يفكر فيتعجب لا يمكن أن يكون هو العقل الفلسفي أسير العقلانية التي بناها، رغم حنين الفلاسفة دائما إلى ذلك العقل

الساذج الذي ينظر فيعجب ويتلقى ما يأتيه بكل استعداد.

العقل العلمي المحلل الدقيق قد يعجز أمام معطيات الحس المعقدة البديعة لكنه أيضا يرتد إلى قواعده الوضعية فيكفر.

ولكلا العقلين، الفلسفي والعلمي، عادات يتحجر عليها وإن كان يدعي الحرية فيتحجر بجموده على العادة كيان الإنسان ويتم ترفه في الغريزة والحس والأنانية المستكبرة، ويُمسخ. والمسخ مفهوم إسلامي معناه تحول الكائن البشري من معنى الإنسانية المخلوقة للتكريم إلى معنى الدوابية المهينة. والممسوخ من بني آدم الفاسق عن أمر ربه يطارده المسخ على مدى وجوده، أي في الدنيا والآخرة خالدا.

هكذا يكون العقل أداة للأنانية والغريزة الحيوانية مسخرا، وهكذا يفتتن العقل بأدواته من مفاهيم وتصورات وتقديرات، فيكون حجابا بين الإنسان وحريته، ويرديه في عالم المسخ ناسيا ربه، لا يذكره، غافلا عن مصيره المكرم لو آمن وعمل صالحا.

يخاطب القرآن الإنسان يدعوه للتفكير والتدبر، ويعرض عليه آيات الله في نفسه وفي الآفاق، ثم يدعوه ليتعجب ويعظم أمر هذا العالم العجيب المتقن وأمر نشأة نفسه من نطفة. وإنما يقدر على مثل هذا التفكير العقل الساذج الذي تسميه الفلسفة «حسا مشتركا»[1] هذا العقل الساذج لا يزال مرتبطا بالحواس والعاطفة، ولا يزال

1 الحس المشترك : common sense.

خلوا من عوامل التحجر العقلاني. العقلانية الشهوية تقضي أن الحق هو ما يخدم اللذة، والعقلانية الأنانية تقضي أن الحق هو كل ما يعطي القوة والغلبة، أما العقل الساذج فهو متفتح مستعد تسري فيه خلجات العاطفة ويسري فيه الحس بالغرابة والاستغراب من سر الوجود الإنساني وسر الكون الحسي المليء بالألوان والأشكال.

يتساءل العقل الساذج : من أنا وإلى أين أصير ؟ ويتألم ويشعر بالفراغ. أما العقلانية التكنولوجية التي تحدو المركبة الأفلاطونية فلا تطرح إلا سؤال : كيف أشكل الحس لرفاهية أكبر؟ »

من هذه الفجوة بين العقل الساذج تلميذ الحس والعاطفة، وبين العقلانية المستكبرة تدخل رحمة الله وهدايته بواسطة الصحبة أي بواسطة الاصطباغ العاطفي.

النبي المرسل أو الولي المرشد[1] يدعو إلى ربه بالمثال الناصع والبلاغ، فهو قدوة وهو مبلغ، وهو موضع لإعجاب المخاطب بالإسلام أو التوبة، ثم يتحول الإعجاب ميلا ورغبة. ويتبع العقل الساذج حركة القلب فيسمع آيات الله تخاطبه : ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾.

1 نستعمل عبارة «الولي المرشد» استعمالا واسعا، فكل من أحببته حتى صار أولى بك وأقرب تسمع إرشاده وتتخذه قدوة فهو وليك المرشد. ولا يكون إلا وليا من أولياء الله بالولاية العامة من الذين آمنوا وكانوا يتقون. أما الولاية الخاصة فليسأل من يرغب في السلوك عل يد «ولي مرشد» رجال هذا الفن إن طلب بصدق حتى علم الله صدقه فيسر على مدرجته من يأخذ بيده. إنه الغني الكريم سبحانه.

ويتأمل العقل الساذج وجوده وعلاقته بالزمان والمكان فيقر بعجزه ويرتد حسيرا، وهو من الإنحسار والحسرة معا. ينحسر العقل من مواقعه حيث كان حكما ومعيارا، ويتلفت إلى ما وكل إليه فيصير خادما للقلب سائرا مع الإيمان مستسلما مسلما بالغيب.

وقد ينحسر العقل من مواقع مترديه جدا ويفك جدا من إساره وغلوائه بقوة الانجداب العاطفي، بقوة المحبة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**». فمتى أتيحت لصاحب العقلانية صحبة نورانية لرجل قوي الروحانية عاليها تيسر له الفكاك.

الخطاب القرآني يحدث أولي الألباب ويقصر عليهم وحدهم القدرة على التذكر والاهتداء، فإذا عرض علينا طوائف أولي الألباب جاءنا بمقولات عاطفية خلقية، قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾.

وأولو الألباب عقلاء قبل كل شيء، لكن عقلهم في خدمة

اتجاههم العاطفي الإيماني، يقوي الاتجاه حتى يكون إرادة نافذة يفي صاحبها بالعهد، ويصل بالعهد، ويصل ما أمر الله به أن يوصل، ويصبر وينفق، ويقيم الصلاة، كل ذلك رغبة فيما عند الله ورهبة. ذلك عقل تحرر من إساره فأصبح لبا من اللب سائرا مع الهداية القلبية.

ما ألح القرآن على شيء كما ألح على ذكر الله، ذكر اسم الله، فبالذكر يناط الفلاح وبه تناط الحرية. قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾. وقال عز من قائل : ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى**﴾.

والتزكية أمرنا بها في آيات كثيرات، أمرنا أن نزكي أنفسنا بأن نطهرها ونجعلها طيبة، وأمرنا ألا نزكي كبرياء بدعوى تدغدغ زعمها للصلاح والتقوى. وأهل التزكية الروحية هم أهل الذكر، وهم الصوفية رجال الصحبة سالكو الطريق. وقد ألفوا رحمهم الله ورضي عنهم في وصف علل النفس وتهافت العقل وسلطان الغريزة. واستقل لهم تاريخ منفصل عن عالم الفتنة حتى ظن قوم أن الصوفية مذهب من المذاهب. وفقه المنهاج النبوي مسدود بابه على من حرم صحبة وذكرا.

نطلق لفظ الذكر لنجمع به مفاهيم قرآنية كثيرة. فعندما نعد الذكر خصلة من خصالنا العشر فإننا لا نعني به ذكر اللسان وحده ولا الأوراد والمراقبة، بل نقصد به كل الأعمال العبادية من فرض ونفل. ونقصد الحالة النفسية للذاكر وعاقبة التزكية الروحية. وكل هذه المفاهيم مجموعة في الحديث القدسي المتواتر الذي نعده بمثابة العمود الفقري في فقهنا المنهاجي فقه اقتحام العقبة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **قال الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته.**[1]

الشهادتان والقواعد الأربعة الأخرى من قواعد الإسلام فرض، والوقوف عند الحدود الإلهية من حلال وحرام وسائر ما فرضه الله على العباد فرض، والفرض أحب ما يذكر فيه العبد ربه. ومن

1 هذا لفظ البخاري، رواه الطبراني وأحمد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن عساكر والديلمي عن عائشة رضي الله عنها.

وراء الفرض نوافل بها يتقرب العبد لربه حتى يحبه ربه ويصبح له ربه عينا وسمعا ويدا ورجلا.

ولطالما وقفت أجيال المسلمين عند هذا الحديث الذي لا يأتيه الباطل من شك الضعاف وتشكيك الملحدين في آيات الله. وقف المسلمون موقف حيرة من الحديث القدسي الصحيح القوي، أهو يحتاج لتأويل؟ وكيف يؤول.

أما الذاكرون أهل التزكية أهل الله فيأخذونه وعدا صادقا من ربهم فيقتحمون عقبة الفرض والنفل، ويسلكون تلك الطريق فيتجلى لهم المعنى عندما يصبح الله عز وجل لهم يدا ومؤيدا، يبصرون بنوره ويسمعون بنوره ويسمعون بسمعه. والخلي التائه برأيه يكفر هذه الطائفة المحسنة إن ضعفت عن الكتمان أو أمر بالكلام أحد رجال الطريق.

وفي ظل الطريق الإحسانية، في ظل أهل الذكر المقتحمين للعقبة المؤمنين بالله وغيبه يعبدونه كأنهم يرونه، عشش أدعياء التصوف الكسالى، ونطقوا بتلك العبارات، ولبسوا تلك المرقعات، وكانوا آخر الأمر وبالا على هذه الأمة.

الإنسان المسخ يقابله إنسان الفطرة. ونحمل تصور الفطرة المعنى القرآني في قوله تعالى : ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ**

لِخَلْقِ اللَّهِ﴾. فمن أقام وجهه لله ووقف بين يديه ووعى نفسه مفطورا مراقبا من لدن فاطره فهو إنسان الفطرة. والموقف الفطري هو موقف المؤمن المؤتمر بشرع فاطره، والنظرة الفطرية هي تصور الإنسان والعالم خلقا أمام الله الذي بيده مقاليد كل شيء.

إن العقل الطاغوت يقول غير هذا ويزعم أنما هي الطبيعة والأرحام التي تدفع في اتجاه النهاية في التراب، وحسب تطور طبعي، أو يتخيل غير هذا من الفهم. فإن خاطبت العقل الطاغي بالإيمان سألك برهانا على هذه المسلمة : أن الإنسان مخلوق عبد بين يدي ربه. ويبغي العقل نقدا للبلاغ الديني، ويبغي أن يخضع ما يفوته إدراكه لقوالبه ومعاييره. وللعقل الناقد، إن قبل منهاج التحقق، أن يصحب بصدق مؤمنا نور الله قلبه ويذكر ربه بالفرض والنفل حتى يحصل له ما سماه الصوفية ذوقا. فإن الله سبحانه يقول: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

بالذكر والتجربة الشخصية المنبنية على الصحبة يتكشف للسالك ما شاء الله من عجائب القلب، وتتحقق له معية الله التي خص بها المحسنين، فإذا اقتحم العقل هذه العقبة تحرر وتحررت معه الإرادة وأصبح أداة بناء لكرامة الإنسان، لإنه يدرك معنى المسخ المحيط بالجاهلي والجاهلية.

أصحاب الجدلية يضعون العالم والإنسان في مواقع تناقضية ويبحثون عن القوة الناقلة من النقيض إلى غيره، عن «اللحظة» التي يتجاوز بها وضع ما نقيضه : وكل وضع يحمل جنين نقيضه. ولسنا نحب أن ننقد هذا التصور للعالم المادي فإن الأمر ما يقوله الفلاسفة بهذا الصدد. ونريد أن نقدم، استنادا على الفكر الجدلي، تصورا إسلاميا لمقام الإنسان ووضعه الجدلي تجاه النفس والشيطان. ومعنى هذا : التناقض بين الإنسان والعالم الحسي الذي يريد أن يلتهمه. وإنما ذكرت النفس لأنها بأنانيتها وشهوتها تتمرد على داعي النظرة الفطرية والموقف الفطري لتترف في العالم. وإنما ذكر الشيطان، وهو غيب بعيد عن الغافلين وحقيقة واقعة بالنسبة لمن اقتحموا العقبة وذكروا الله واحسنوا فخرجوا من ضنك العيش إلى سعة النور، لأن الشيطان ينزغ للإنسان أن يترف في العالم وينسى ربه.

العقل إذا تحرر بالتجربة الشخصية التي قوامها الصحبة والذكر حرر معه الإرادة، فيكون إيمان المؤمن المتساوق معه عقله هو القوة الإرادية التي تتجاوز النفس والشيطان للقيام بحق الرحمن.

ولنطرح هنا مفهوم «التجاوز» لنستبدله بمفهوم قرآني عتيد نجعله تصورا يغني آليتنا المنهاجية. هذا المفهوم هو العدل. والله أمر في القرآن بالعدل وحث عليه. وقد اكتسب العدل معنى متخصصا

هو إعطاء الحقوق لأهلها. ونستعملها نحن بمعنى موسع مأخوذ من أصله اللغوي، فالعدل ميل عن الشيء إلى غيره وهو توازن وقسط. بهذا المعنى الحركي نستعمل العدل، ويقابله الظلم بمعناه اللغوي الأصلي وهو وضع الأشياء في غير مواضعها.

فلاح الإنسان أن يكون مؤمنا يعمل الصالحات، بمعنى أن يكسبه إيمانه إرادة قوية يعدل بها عن العوامل المردية ليتسنم مقامات إنسانية أعلى فيصلح عمله ويذهب عنه المسخ ويكون من أهل الفطرة المحسنين.

في حركة دائبة يحارب المسلم النفس والشيطان فيعدل دائما، وينصب في ذلك، من شك إلى يقين، ومن كسل إلى عمل، ومن جهل إلى علم، ومن شح إلى بذل، ومن سمت جاهلي وعنف وتهالك على الدنيا وقعود إلى سمت إسلامي وتؤدة إسلامية واقتصاد وجهاد. ومن ذكر الله قام بحقه وأقام عدله آناء الليل وأطراف النهار.

الخصلة الثالثة

الصـدق

تفتتت الأمة الإسلامية وانحسر المد النوراني الذي كان محط أنظار التاريخ الإنساني بانكماش المسلم في أنانيته وبترفه في حيز الممكن الذي أتاحته حضارة متفسخة، عزلت المسلمين عن إيمانهم الفطري الجماعي. وها نحن أولاء في دار الإسلام لا نقدر على عمل ولا على تعاون ولا على توحد لأننا لا نصدق أبدا، ونخيس بالعهد ولا نقيس أي مشروع عملي إلا بمقياس أنانيتنا وبمقياس الجاهلية التي أترفنا فيها. هانت علينا نفوسنا فبعناها بالبخس من الشعارات، وكان خطرنا واهيا في ميدان القوى، وسعينا ذليلا على الأرض. ليست أمامنا أهداف ولا غايات تستجيب لها الأمة بصدق فتطلبها بصدق وتصمد لتحقيقها، لأن ما تقترحه علينا المعايير الجاهلية من أهداف اقتصادية تسخر فيها مطالب لا تهز قلوبنا. وقد خمدت منا العقول وهوت الفطرة في ركام الافرازات الحضارية الجاهلية فلا نتبين طريقا إلى الخلاص.

إعادة تركيب الأمة لن يكون إلا بتصفية تبرز لنا وجوه الصادقين

من المؤمنين وتلم شعثهم، ليقودوا جهادا يربى الأمة ويجدد إيمانا حتى تصدق في المبدإ والطلب.

بسمو الغاية المطلوبة تصلب إرادة الطالب ويصدق في العمل. ومنهاج اقتحام العقبة منهاج خلق الإرادة الإيمانية وتقويتها. وغاية سلوك المقتحم أن يعد من أصحاب الميمنة كما جاء في سورة البلد. وهو مطلب سام نفيس في حق من صدق وصدَّق.

وفوق مرتبة الميمنة مرتبة أخرى أعلى وأسمى، هي رتبة السابقية كما يعبر عنها القرآن تارة، ويعبر تارات أخرى بالصدق والإحسان.والمحسنون يعبدون الله كأنهم يرونه، وهم أولياء الله وأحباؤه، من عاداهم آذنه الله بالحرب، ويقتحمون العقبة بالفرض والنفل حتى يكون الله لهم سمعا وبصرا ويدا مؤيدا، أولئك هم الصادقون، وأولئك هم المحسنون.

الإحسان هو قمة الكمال الإنساني، يبلغه السالك بالهداية الممنوحة من جناب الحق بواسطة النبي والولي، ثم بالمجاهدة والعدل من أسباب الإنحطاط إلى مقامات الإيمان والإحسان. إن التكليف الإلهي بالشريعة جميل وأمانة في عنق الإنسان من حيث هو إنسان بلغته رسالة الأنبياء. فالصادق المصدق للرسالة يحمل الأمانة بقوة في ظل محبة الولي المرشد، ويذكر الله في الأمر والنهي فيتقلع من مواطن المسخ في دنيا العادة، دنيا الشهوات والأنانية، وتصفو

روحه فتتبدل إلى العالم وإلى نفسه، فإذا موقفه موقف فطرة وإذا هو يراقب الله فيصدق في كل حركة من حركاته وفي كل خلجة من خلجات نفسه. ومن لم يقتحم العقبة يراقب الناس فلا يصدق.

هذا السالك الصادق صاحب إرادة، وعن هذا عبر الصوفية عندما سموه مريدا، ناظرين إلى أخص صفاته السلوكية. يبدأ بالتوبة إلى الله على يد الولي المرشد، ويوطن النفس على عزمته حتى يتحقق له مقام التوبة كما يعبر الصوفية، ثم يتقرب إلى الله بالفرض والنفل فيصبح محبا للمؤمنين إلى أن يتحقق من مقام المحبة.

ويذكر الله حتى يتحقق من مقام المراقبة، أي يصبح في موقف فطري بنظرة فطرة بالمفهوم القرآني. فإذا تحرر من عادته أي من هذا السلوك الهابط الذي تهواه النفس فتعود إليه، تسنم مقام الصدق وأصبح محسنا. ومقام الإحسان تحقيق لقابليات الكمال الإنساني، الكامنة في كل منا. فيه تقوى النظرة الفطرية وتستوعب آفاق السالك حتى لا يرى في الوجود إلا الله. لا تسد عليه آفاقه كثافة عالم الأسباب، ولا يرهبه الخلق، ولا يحمله الوهن على الاستسلام.

قال الله تعالى : ﴿**وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾، لا ينفصل صدق من جاء من عند الله عن تصديق المبعوث إليه. ومتى التقى الصدق بالتصديق حلت الهداية وجاء التأييد من عند الله.

وبهذا فمشروع العمل الإسلامي والبعث الإسلامي هواء في هواء

إن لم يكن عامل الصدق أس بنيانه. ولهذا يخيب سعي حاملي الشعارات الإسلامية ومن خلفها نيات مترفة مفتونة.

الصادقون المحسنون أهل تصديق وإيمان، وهم بذلك أهل القرآن أهل الله. يؤمنون بالغيب فتنفتح لهم أبواب الهداية والفهم في كتاب الله، ومن لا يؤمن بالغيب ولا يصدق يلعنه القرآن فلا يقرأ إلا كلاما كالكلام. وحاشا لله أن تنفتح أسرار الهداية إلا لمن صدق وصدق وآمن بما وراء الحس في ملكوت الله وجبروته.

في وعي الصادق المحسن يتقلص هذا الحسي فيدخل في نسبية ضئيلة ويفقد سلطانه على المحسن. هذا إنسان حر لا تستعبده العادة لأنه أصبح عبدا لله الملك الحق. وقد يصبح هذا الوعي الإيماني شهادة في حق من أكرمه الله بمعرفته. يقع له ما يسميه الصوفية فتحا وينكشف عنه الغطاء إذا ماتت نفسه الحاجبة له عن ربه.

الجاهلي، إنسان العادة، لا يؤمن إلا بما يقع تحت حسه، وحتى المسلم لم يعرفه الرسول في حديث جبريل بأنه يؤمن بالغيب، فكيفيه أن يشهد ويصلي ويصوم ويزكي ويحج على ما كان من إيمان. وطائفة من الأعراب ادعوا الإيمان فأنزلهم الله في قرآنه إلى مرتبة الإسلام : ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾. فالمسلم المجرد

العادي يعيش في دنيا العادة، فكل ما هنالك عنده أرض زاخرة بالحركة المتطاحنة وسماء هي مسرح لصولات الاكتشافات الجاهلية. وما من لحظة من لحظات حياته إلا ويملؤها ضجيج العادة : غرائز أنانية تطلب حظها من مال وجاه ولذة. لا يميزه في ذلك عن الجاهلي إلا اعتراف بالله وطاعته.

والتجديد الإيماني الذي ينقذ هذه الأمة لا بد أن يكون تجديدا على مستوى أعلى، أعلى مستوى إيماني يتحول فيه اهتمام أفراد الأمة من دنيا العادة في خط النظر المنهاجي نحو الموقف الفطري، وليكون الأمر كذلك فلا بد أن يقود الحركة رجال الدعوة الصادقون المحسنون.

أسواء من فتح الله بصيرته فإذا له حياة روحية، وإذا هو يسبح في ملكوت الله ومن تملأ حويصلته هنات الأرض فيتدفق من لسانه ظلام قلبه حين يدعو المسلمين إلى العمل ؟

إسلامنا الفردي، عند من لم تمسخهم الجاهلية مسخا كاملا، إما عقيدة متجذرة لكنها مضببة بدرجات متفاوتة، وإما إيمان أقرب إلى الفطرة، وإن كانت تُرنِّقه كدورات العادة، ويوهنه نسيان الأمر والنهي والفرض والنفل قليلا أو كثيرا. عقيدة مضببة عند طائفة ممن قارفوا الثقافة المعاصرة فنالت منهم دون ما نالت من شرذمة المفتونين المترفين، وإيمان كدر عند أغلبية أفراد الأمة خاصة

مساكين الأمة الذين لطف الله بهم فجنبهم «تسهيلات» الحضارة المادية وبقيت ضمائرهم عارية كعري أجسامهم لم تلطخها الجاهلية، إنهم المحرمون الذين بنوا للإسلام أكواخا في ظل القصور المترفة الظالم أهلها مرتع الفسوق والردة وهتك حرمات الله.

ولتعود الأمة أمة كما كانت لا يرفعها من شعوبية يسوقها إليها القادة المترفون إلا تربية تعيد الصدق إلى نصابه.

الأمة المشعبة المسكينة لا تسمع إلا كذبا، كذبا عند إعطاء الوعود قبل الانتخابات، أو هكذا جزافا. وكذبا في الخلف عندما يحين الموعود، وكذبا في الخيس بالأمانات. حتى إن الأمة ألفت بتربية قادتها المنافقين ألا تنتظر إلا تمويها وغشا.

تربية المسلمين الفرديين حتى يكونوا أمة تبدأ باقتحام عقبة النفاق، والنفاق بالتعريف النبوي كذب في الحديث وخلف للوعد وخيانة للأمانات. وكل أولئك الصفات لحمة عملنا في الحياة الخاصة والعامة.

وفي ظلام النفاق لا تتبين الأمة لها طريقا لأنه ليست لها أهداف ولا مقاصد ولا غايات[1].

1 في حق الفرد : الهدف الرجوع للإسلام بالتوبة والالتزام بالأمر الإسلامي. والمقصد المشاركة في الولاية الإيمانية مع جماعة المؤمنين. والغاية التزكية الإحسانية. وفي حق الأمة : الهدف التحرر من الجاهلية وتحقيق العدل والمقصد قيام دولة إسلامية هدفها توحيد المسلمين، والغاية حمل رسالة الإسلام والجهاد لنشر دين الله قياما قياما بحق الخلافة في الأرض. بهذه المفاهيم نستعمل هذه الكلمات فيما يأتي من صفحات هذا الكتاب. فالهدف يقابل مرتبة الإسلام، والمقصد الإيمان والغاية الإحسان.

فإذا بدأ عمل إسلامي صادق يريد تربية الأمة لزم أن يرسم المربي أهدافا إسلامية ومقاصد وغايات للفرد والجماعة ليجد الكل في طلبها ويصدق.

نسي المسلمون أن الله يقبل التوبة من المسيء، وأن كل ابن آدم خطاء وأفضل الخطاءين التوابون فيتوهم المترف والفاسق وحتى المرتد أن باب الإسلام أغلق في وجهه، ويتحجر المسلم المصلي في أنانية مهدوية، فلا يقبل حوارا مع المرتد والفاسق والمترف ليتوب. وقد يحكم هذا المسلم المصلي، وحتى إن لم يكن مصليا، بأن المرتد في الإسلام يقتل حدا وكفرا، وينسى أن ذلك عندما يكون الإسلام قائما له دولة وصولة. أما زمن الفتنة هذا فمن يقتل ومن يقتل ؟ التوبة باب الرحمة ورفق وصدق، وبدايتنا في صدق التوبة وصدق قبولها من الأمة جميعا.

ونسي المسلم أن لله جنة ونارا حقا، وأن له مثابا وحسن العقبي للمؤمنين المجتمعين على عمل الصالحات. نسي ذلك لخمود حسه الإسلامي، كما عاقه عياء فكره أن يتخيل أية طاقة تبرز لو توحد المؤمنون برابطة إيمانهم، وأي عمل يكون لهم آنئذ.

نسي المسلم والمؤمن أن الله يحب العبد المتقرب إليه ويبلغه أقصى كماله الإنساني كما فعل ويفعل سبحانه بأوليائه. وهذا هو لب الرسالة التي جاء بها الرسل، وهو أعز مطلب للإنسانية

وأغلاه، وهو الكنز المخبوء في قلب الصادقين من هذه الأمة لا يجدون جسرا يصلهم بسمع الإنسانية ووعيها ليبلغوها أن الله كريم رحيم يحب من تحبب إليه، وسلك إليه الصراط المستقيم، واقتحم إليه عقبة النفس المائلة مع الهوى.

هذه التربية تحل تناقضات الإنسان مع العلم لأنها تعيد خلق الفاعل التاريخي المريد القوي وتقترح على صدقه الفعال موضوعا هو نفسه من حيث تعرضه لخطر الترف في العالم. وشتان بين مطلب يسمو بقيمة الإنسان إلى السماء والخلود وبين مشروعات عالم الوهم، عالم الجاهلية.

من هم الصادقون المربون؟ وأينا أحق بالإسلام وحمل أعبائه ؟ إن في سدة الحكم بدار الإسلام رجالا ما منهم إلا من يزعم أنه رائد الإسلام وحامل لوائه. وإن بدار الإسلام خصاما على معنى الإسلام وموطن هدايته. فأين الصادقون؟

إننا نبدأ بالتوبة جميعا فإن صدقنا فيها فإن لكل صدق برهانا. قال الله تعالى : ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾! وبرهان صدقنا في التوبة مقاطعتنا للجاهلية في حياتنا الفردية مقاطعة تامة. ثم لا يكفي المرشح للقيادة الإسلامية أن يلتف في الصوف ويأكل طعام المساكين حتى ينحسم في قلبه وعلى لسانه أننا قومية اشتراكية إسلامية. ومن لبث منا في قصوره وأموره وادعى صدق

التوبة أغنانا عن الهزء به يد الله الغالبة التي لا تفلت الظالمين. ثم إن لكل صدق بعد هذا برهانا يؤيده، برهانا من فاعلية النية الصادقة والتصميم المحكم الصامد وبرهانا من توفيق الله لعباده.

أما رجال الدعوة فما الفصاحة برهان على صدقهم، لا أحوالهم المتصوفة ولا تلك العبارات. ولا الخطب «النارية الملتهبة» المطالبة بالتغيير، وإنما الهداية في قلوب المستضعفين، والتوبة السارية حتى للمترفين، ووضوح المنهاج والاستقامة على كتاب الله وسنة رسوله.

بهذا تتميز لنا الإرادة الصادقة من الإرادة الخادعة. وببرهان العمل الصادق نعرف من له ذمة أي من له «ضمير خلقي». وإذا كان لكل شيء عروة يمسك بها ويرفع فعورة الرجال ذمتهم، ولا ذمة لغير المؤمنين الصادقين.

الخصلة الرابعة

البـذل

الهجرة عن عادات الجاهلية هي برهان الصدق وهي الحركة السلبية للإرادة التي تعدل عن الموقع العادي إلى الوضع الشرعي الإسلامي، وقد كانت الهجرة حادثة في عهد الرسول الكريم تاريخية من دار الكفر مكة إلى محضن الإيمان يثرب. طرح الرسول وصحبه أموالهم وأهلهم ورحلوا بإيمانهم. وتبقى الهجرة حركة إرادية دائمة في حياة المؤمن يطرح دائما عنه الرجس ويعدل إلى الحق.

جُبلت النفس الإنسانية على الشح، والشح تحجر على الملكية وترف للإرادة فيها وضياع. ومن غلبته النفس بشحها فكان بخيلا معظما لصنم الملكية بقي بعيدا عن الله بعيدا عن الجنة بعيدا عن الناس، كما جاء في الحديث الشريف. ويقول ربنا عز وجل : ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

عبرنا بالبذل عن معاني الإنفاق التي في القرآن لأن لفظة البذل تتحمل معنى الابتذال، وأنت لا تطرح شيئا وتنفقه وتدفعه عنك إلا إذا ابتذلته واحتقرته في وجه المقابل. وبهذا يعطينا لفظ البذل تصورا حركيا ينظر إلى حافز الإنفاق وموقف المنفق مما ينفقه.

في الصفحات السابقة وفيما يليها نحرص على صوغ تصورات إسلامية فكرية، لا نبغي وضعها قبلة للتأمل النظري، لكن ليتحرك بواسطتها الفكر فاتحا أبواب العمل وإمكانياته. وقد كانت الخصال الثلاث الأولى من خصالنا العشر خصالا تربوية نفسية، وندخل بهذه الخصلة الرابعة في سرد الخصال التطبيقية العملية لننظر كيف ينتج عن تربية إسلامية عمل إسلامي. وسنعرض كل خصلة على مراتب ثلاث : مرتبة الأهداف الإسلامية، ثم مرتبة المقاصد الإيمانية، ثم مرتبة الغايات الإحسانية، حتى لا ننسى أن المنهاج النبوي اقتحام دائم للعقبة، ونشدان لا يني لتحقيق قابليات الكمال الإنساني. ولطالما نظر المسلمون إلى إسلامهم التقليدي نظرة سكونية لأنهم لم يتبنوا المعارضة والتناقض بين الجاهلية والإسلام ولأنهم سلموا أن الإسلام الفردي حالة سطحية مسطحة هي منتهى المراد من بعثة الرسل.

الأهداف الإسلامية : المسلم الفردي المعتقد حقا أو الجغرافي المحض، مرتدا كان أو منافقا، يعبد أوثان الفتنة. أناني يجمع مالا وجاها ويعدده، ومثقف أو دعي في الثقافة يسبح في خيالات مثالية ثورية أو حالمة، ثم سائر الناس ممن تطحنهم عجلات الفتنة بثقل الكد اليومي وثقل الحاجات المتجددة المتنوعة الرهيبة. وكل هؤلاء يتصرفون على أساس الابتزاز لملء الجوعة النهمة، وترى

المتناقضات الصارخة عند المثقف الثوري المرتشي الذي يسهر ليالي الدعارة وينفق على لذاته رزق أسرة من الفقراء الذين يزعم أنه ثائر لحقوقهم. أحاول تصوير هذا الالتصاق بالمادة وتعظيمها وعبادتها. وفي هذا الجو المادي الإنساني المؤسس على التكاثر بالجاه والمال يترف المسلم الفردي والجغرافي في عادته ويحرص عليها فيكون عائقا للحركة المحررة. وما نراه من حركة المحرومين وغضب الشباب واحتجاجهم لا يبلغ أن يكون بداية حركة في دار الإسلام، لأنك لا تجد واحدا يحتقر حقا العادة، ويقدر على طرحها لحياة جديدة. والطبقة الأكثر ترفا في دار الإسلام تعبد مع عاداتها الوثن الأعظم وثن السلطة فتنفق في سبيله المال والمتاع.

أنفس شحيحة ملتزمة بخدمة شهواتها، وأخرى محرومة بالإضافة إلى شحها وعبادتها لأوهام خرافية على مستوى المستضعفين المشعبين، أو أوهام ثقافية جاهلية على مستوى الشباب المدرسي ومن هذه النفوس المتعكرة اليائسة، بعدما خابت الانقلابات في دار الإسلام وافتضت الاشتراكيات بهزائم «الشعوب»المسلمة لا تنتظر حركة محررة إلا إن جاء الإسلام بالفتح والرحمة والهداية. إنما تحل تناقضات الأمة المشعبة بحل إسلامي وفتح إسلامي، وإلا فسنقضي عصرا لتخلق طبقة ثورية ترث الأرض. وليس على المسرح في دار الإسلام من مثال مغر ولا عقول وهمم تنظم وتعمل إلا

على نماذج جاهلية ملحدة شيوعية محض بعد فشل الاشتراكيات.

وفتح الإسلام وحله هو الدعوة العامة إلى التوبة العامة، طرح للجاهلية وبذل للنفس والنفيس لبناء الإسلام.

ثم إن للأفراد وللدولة القومية في دار الإسلام أموالا مرصودة للدعوات الجاهلية والدعاية والتهريج السياسي. إنها أموال وثنية لأنها تخدم مشاريع وثنية. هذه دولة اشتراكية تنفق الأموال الطائلة لتبنى للبطل الزعيم سمعة عالمية أنه تقدمي ومناضل. وهذه دولة استبدادية من طراز آخر تبدد أموالا لتوطيد الاستبداد وشراء الضمائر حتى تقام محافل يذكر فيها مجد القائد.

هذه الأموال الإسلام في حاجة إليها، لتبذل في سبيل الدعوة والتربية. وما دامت الهمم المترفة في سعة من أحلامها فلن تحتقر أوهامها الجاهلية. ألا إنه يتراءى في الأفق، لمن ألقى السمع وهو شهيد، بشائر التوبة بظهور دواعيها، فإن أبواب العمل الجاهلي تغلق في وجه قادتنا ويفتضحون بولائهم الجاهلي ويرتفع وعي الأمة المبعثرة. فما بقي إلا تجميع هذا الوعي في اتجاه التزام فردي بالعمل الإسلامي وتحاجز بين الجاهلية والإسلام وتمايز في ضمير القائد وعمله.

المقاصد الإيمانية : المقصد الإيماني في حق الفرد ولايته لجماعة المؤمنين، وبالنسبة للأمة فالمقصد قيام دولة إسلامية يتجمع حولها

المسلمون قاطبة. ولتحقيق المقصد لا بد من استبدال علاقات الأفراد النفعية الاستغلالية بعلاقات تعاونية قوامها البذل.

يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ**﴾. فدخول المؤمن في ولاية المؤمنين منوط بالبذل والإنفاق وطرح شح الماضي. ولا بد من ترك العلائق الجاهلية الاستغلالية في ميدان الشغل فلا يكون ثم عبد وسيد، عبد عليه أن يشتغل زمنا معينا لقاء ثمن معين. إن كانت صيغة هذه الجملة من مقولات الشيوعية أو الاشتراكية فنحن لا نقصد ما يقصدونه، لأن تسوية التوزيع عندهم إن كانت ضرورة اجتماعية ينظمها ويفرضها سلطان الحكم، فإن العدل الإسلامي من الشح إلى البذل عمل المؤمن الملتزم بإرادته الهادفة إلى الخلاص في إطار مبايعة بين ذمم مؤمنة. ولا يتشابه المضمون ولا الشكل الإسلامي مع نظيريه الجاهليين.

إن الجاهلي مندمج فيما يملكه، فالأرض والبضائع والمال جزء من كيانه. فلما كان الشقاء الاجتماعي بؤسا لا يتحمله الإنسان، وكانت الطبقات المالكة لا تبذل ما بيدها لأن ما بيدها جزء من كيانها، أصبحت الثورة العنيفة الطريقة الوحيدة لنقل الملكية من الثري البطين إلى الفقير المحروم. وإن محاولة الفكر الثوري الماركسي لتحرير الإنسان بتحريم الملكية الفردية للأرض كان جريا

وراء الهباء. ما تحرر الشيوعيون من عبودية المادة، وإن في بلاد الشيوعيات تهافتا على الملكية الفردية في شكل مبان أو سيارات أو ما سواها من متاع، فالجاهلي لا ينفك ذائبا فيما بيده.

والإسلام لا يحرم الملكية الفردية للأرض، ويحقق الأساسي الذي من أجله خلق الإنسان وهو تحرير الإنسان من الفتنة. تدخل الملكية في التصور العام للفتنة: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾، فينظر المؤمن بنظرته الفطرية إلى نفسه كعابر سبيل في مجال الحياة بين الميلاد والموت، ويعرف نفسه بانتمائه للمؤمنين وأخوته لهم وولادته، ويرغب أن يحشر معهم وأن يخلد إلى جوارهم في الجنة، بينما ينظر الجاهلي إلى نفسه ساكنا للأرض مالكا لها، له كبرياء تنفخ فيها سلطة المال. فقيمة المؤمن منفصلة عما في يده، و**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**، وقيمة الجاهلي قيمة ما يملك. ولهذا ينفصل المؤمن عن ملكه ويبذله لأنه لا يساوي شيئا إلا بمقدار ما يخدم غايته الأخروية. أما الجاهل فلا ينفصل عن ملكه إلا مرغما، وأنت سمعت الملايين التي ذبحت في بلاد الشيوعية زمن تصفية الملكية الفردية، يموت الجاهلي دون أرضه لأنه لا وجود له بدونها، كيف لا وهو الدابة الأرضية !

يفعل كل هذا المؤمن التقى طالب الآخرة. أما مسلمونا الجغرافيون فسيكون اقتحام عقبة العدل التوزيعي شاقا عليهم،

لأن الشح هو الأصل، وإنما تحاربه الإرادة الإيمانية المتزكية.

فالناس في دار الإسلام قريبون جدا من ملكهم لا يبذلون لتعظيمهم المتاع المادي. فهل يكون معنى البعث الإسلامي أن يوكل أمر تعديل الملكية وتسوية الأرزاق تسوية لائقة للضمائر الفردية ؟

كلا ! فليس البعث الإسلامي عملية تأملية في مسرح غنائي. ولن يتحقق المقصد الإيماني في قيام دولة إسلامية رائدة إلا في جو تعبئة إسلامية مشدودة حبلها إلى إرادة قيادة حاسمة، تفسح المجال للتطوع الفردي للسباق المكون لنواة الجماعة الإيمانية، وعلى كل مسلم بعدئذ أن يخضع للجماعة ويعمل في إطار مقاصدها إما متحركا بحافز أهدافه، أو سائرا بدافع التعبئة العامة.

الغايات الإحسانية : قال الله تعالى : ﴿**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾، وتقرأ الكلمة الأخيرة في رواية ورش عن نافع «**قيما**».

فأموالنا لنا قيم من حيث تكون للمؤمن مطية يفعل بها الصالحات، وهي لنا قيام جعلت لنقوم نحن أمة مؤمنة ونقوى ونعز. فأي مال لا يخدم الغاية التي من أجلها خلقنا فليس في ملكنا بل نحن له مستعبدون. وجاءت الآية في سياق التشريع لأموال اليتامى القاصرين مثيرة إلى حرمة تصرف السفيه في أموال اليتامى القاصرين،

مثيرة إلى حرمة تصرف السفينة في ماله، يبدده فلا تقوم له مع العوز قائمة. والآية بإطلاقها بلاغ للمؤمنين عامة القصد.

للفكر الماركسي تصوره عن الاستلاب بواسطة العمل الاستغلالي المهلك للإنسان، يفقده ذاته ويحوله بضاعة وشيئا، ولنا نحن تصورنا الإسلامي للمسخ عندما يترف الإنسان في عادته، ومرد أكثر العادات لعلاقتنا بالممتلكات، وتجيئنا الأحاديث الشريفة تخبرنا عن بني آدم الذين يحشرون ويعذبون بحمل متاعهم المادي الذي أترفوا فيه وعتوا به عن أمر ربهم يوم القيامة.

والمؤمن السالك لمقام الإحسان يتعلم شيئا فشيئا، وباطراد ما يكسبه من قوة الروحانية، كيف ينفصل عن المتاع المادي، وكيف يتصرف فيه بالإرادة المتحررة من الشح لما أصبحت في عبودية ربها. هذا المؤمن يكون المال له قياما وينظر بعين الرثاء لخدام المال وعبدة الأوثان.

المحسنون عباد الله فلا سلطان للمادة عليهم، فإن أتوا مالا لم يتصرفوا فيه تصرف السفيه، وإنما يرصدونه لخدمة غاياتهم في التقرب إلى مولاهم.

والمحسنون هم نواة البعث الإسلامي والولاية بين المؤمنين، هم حملة الرسالة. لهم الدور القيادي طبعا من طبع كل تحرك إسلامي، وإلا فلا معنى للعمل الإسلامي. لأن من أخذ مقاليد الحكم ولا

يزال يشغل قلبه وسواس الاستكبار المستغني بالمتاع الحسي، لا يعمل عملا إسلاميا، ولا يبذل ما بيده لقاء ما عند الله.

فإذا أقام المحسنون رجال القيادة الإسلامية مثالا حيا لتجردهم وبذلهم لذات اليد وذات النفس، اكتسبوا من قوة السلطان على أنفسهم ومن ثم على أمور الأمة العامة، ما يمكنهم من إقامة دولة إسلامية تعاونية. وبذلك يستطيعون إن يوجهوا الجهاد الإسلامي لحمل الرسالة المحررة للبشرية المعذبة.

في عالمنا المادي يسير كل أمر بالسرعة والفاعلية التي تتيحها له الوسائل المالية. فالاقتصاد يبغي تجميع المال، الرأسماليون يجمعونه بالشح المضاعف، شح انتظار الفائدة، والشيوعيون يجمعونه بالغصب، وفي الطريق الإسلامية يكون برهان التوبة البذل، لأن الصدقة برهان كما جاء في الحديث. ونهوض الإسلام إلى أن يبلغ غايته في حمل الرسالة يريد تربية، ووسائل التربية تكون جدواها بمقدار ما ينفق عليها من مال، فلا مناص من أن يكون البذل السخي المعمم المنظم موردا للعمل الإسلامي. والمسلمون الجغرافيون اليوم ينفقون المال الجم على خصوماتهم وملاحمهم السياسة الخاوية، وما جعل الله من مصرف المال المسلمين إلا للفقير تغنيه وللمسكين، ونحن أمة مسكينة، تقويه. ثم نبذل أموالنا في سبيل الله لتعز كلمة الله بجهادنا ونعز على وجه الزمان.

الخصلة الخامسة

العلم

لعل أهم أبعاد الفتنة التي نخوض وسطها ولا نهتدي سبيلا لاقتحامها أن عقولنا عشش فيها أنانيات تراكمت ظلماتها على مر العصور منذ غزت الإسلام فلسفات اليونان الوثنية. ثم أعقب تهافت الفلاسفة رسوب الوعي وحيويته تحت أثقال تاريخية من الخلافات والحزازات حتى جاء وقت أعرض فيه المسلمون عن قرآن ربهم وهنا وضعفا وقتامة عقل، قائلين لمن زعم أنه يقرأ القرآن فيتدبره أو يفسره : «إن صوابه خطأ وإن خطأه كفر». فبمنطق كهذا كبت جذوة الإيمان في القلوب وومضة الحق في العقول. وراكب ذلك الهزيمة الحضارية في ميادين الجلاء، حتى استعمرت الجاهلية ديارنا، ونخر ضلالها في عقولنا، فهي اليوم متألهة بالعقلانية الإلحادية التي ينضوي تحتها ويفخر بالانتساب إليها من غامسها في جامعاتنا الممسوخة، وحتى من قارف من خير الثقافة الملحدة، مستقيا من فكر الملاحة ممن يحملون أسماء إسلامية.

الجاهلية إنما كانت جاهلية لأمرين : جهل بقيمة الإنسان وجهالة عنيفة. ونحن المسلمين في زمن فتنتنا هذا نضيف إلى

جهلنا مع الجاهلية بالمعنيين جهلا ثالثا مركبا، هو جهلنا كيف نقيم لأنفسنا استقرارا وحضارة كحضارة الجاهلية الرخية المتكاثرة.

صارت غايتنا من الحياة أن نغلب التخلف لنحلق بالركب الحضاري لكنا حتى جريا لنيل هذه الغاية المنحطة نختلف في الاجتهاد لتحويل «شعوبنا» دواب مترفهة، وتتشكل أقدامنا في السير حين تشكلت عقولنا بالطواغيت العقلانية المجلوبة المتعددة المصادر. وتبني الجاهليات، الواحدة تلو الأخرى، حضاراتها، وتتنافس على خيرات الأرض وعلى دور القيادة المحررة للعالم، ونحن تتضور أمعاؤنا جوعا، وعقولنا تحفزا للنماذج الساطعة الناجحة الجاهلية التي تثور وتبنى وتغير الإنسان.

الفلسفات الجاهلية تروم تجميع الإنسان تجميعا أفقيا وعموديا في تاريخه وفي أصوله البيولوجية والنفسية والتربوية، وتسعى العلوم الإنسانية لدراسة الإنسان دراسة متزامنة[1] ومتفاوتة الزمان[2]، فيحصل لها أن تمثل عنصرا ثابتا هو «الطبيعة المتطورة» وعنصرا متغيرا هو الإنسان. وهكذا تربط الإنسان بالطبيعة ليتكيف بها ولا تبحث أبدا عن وسيلة لتكييف الطبيعة حسب الضرورة الأولى : ألا يفقد الإنسان إنسانيته.

---

1 متزامنة : synchronique.

2 متفوتة الزمان : diachronique.

هذا هو علم الجاهلية وعلى ضلاله نسير ونحن الأمة المسلمة في زعم أنفسنا ! كان لنا علماء عاملون يذكرون الناس بالفطرة وبالمعاد، فلما غزانا التمدن الكمي الجاهلي غطت أنفاسَ علمائنا العاملين حجب كمية، وقيس علم المرء بشهادته كما تقاس علوم الطبيعة عند حامليها. ويسري التيار الجاهلي من خلال النماذج الجاهلية أو تمثلها غير الواعي ومثالها المنتصب مفخرة للحضارة، حتى يصبح مفهومنا عن العالم المسلم مفهوما ممسوخا، فكل من حمل شهادة من جامعة إسلامية حسب عالما قدوة وانتظر منه أن يعلم الناس دينهم. وقد يكون هو في نفسه ممسوخا يتلفت في أعطافه معجبا بحامل الشهادة الذي يمثله حضرته، وهو فاسق يضاهي بفسقه دكاترة برلين وباريس.

إذن مثقفيا أشد الناس بعدا عن الفطرة الإسلامية لأنهم جاهلون بالقيمة الإنسانية. تعلموا في الجامعات الممسوخة معايير للإنسان جاهلية، ولقنوا من الفكر الجاهلي نماذج للسلوك جاهلية ومع هذا فلنا بحمد الله علماء عاملون أطهار يتحسرون كما نتحسر على ضياع بني قومنا وأبناء ملتنا. وحين تبزغ شمس الإسلام يكونون الرعيل الأول، فليستعدوا. وعند الله مفاتيح الخير نسأله أن يفتح بها مغاليق الأفئدة الضالة. ولن تجدوا يا قوم مخرجا من ورطتكم إلا الإسلام.

إن حاجتنا إلى علم إسلامي كحاجتنا إلى تربية إسلامية، بل إن علم الإسلام وفهمه مقدمة ضرورية للعمل الإسلامي. يظن بعض رجال الدعوة من المسلمين أن ضعف المسلمين في قصور اجتهادهم الفقهي. وهذا حكم سطحي لأنه يقدر أن البعث الإسلامي يكون بالتجديد القانوني وكأنه ليس بيننا إلا ضمائر مؤمنة متعطشة للمعرفة الإسلامية والعمل بها. والعمل الذي نحن بحاجة إليه هو «الفقه المنهاجي»[1]

كيف نتعلم إسلامنا وفي أي اتجاه ؟ كيف نفهم الوسط الذي نعيش فيه وكيف نتصرف تجاه فتنة الدنيا وفتنة العنف ؟ ومن أين نبدأ ومن يبدأ ؟ وإلى أين نسير ولم نسير ؟ وكيف ننتقل من عالم الكم لحياة الكيف ومن الفتنة الجاهلية إلى الإسلام ؟ وما هي بنية الجماعة ورابطها ومراتب الإسلام والإيمان والإحسان ؟ الفقه المنهاجي فتح للتدبر والفهم بمفتاح القرآن، وفي ضمنه يتاح الاجتهاد الفقهي الشرعي والاجتهاد التربوي وهو أسبق، والاجتهاد الغائي المحول لمعاني الحياة على الأرض في معاملة المسلمين مع الطبيعة ومع الجاهلية ومع الفتنة بمعنييها.

الأهداف الإسلامية : إذا ما رمنا صوغ المنهاج النبوي فإنه لا مصدر لنا ولا مدرسة نتعلم منها إلا أمر الله في قرآنه كما طبقه

1 تصور إسلامي يمكن أن يقابله تصور «الإديولوجية» في استعماله الإيجابي.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه، ثم اجتهاد الرسل عليهم السلام في التعامل مع قومهم اجتهادا زكاه الله أو عزى رسله عن فشل اجتهادهم.

أغلقوا باب الاجتهاد زمن الانحطاط الذي مرت وتمر به هذه الأمة، زاعمين أن أدوات الاجتهاد غير ميسورة بعد القرن الفلاني. ووقف المسلمون موقف العاجز اليائس لا يجرؤ أحد إلا على الاقتداء بمجتهد سبق. وبهذه الكيفية يحكم كل جيل منحط بمقاييس الأجيال الغابرة المنحطة هي أيضا بالنسبة للنموذج العالي نموذج الرسول وصحبه.

لهذا نعرف كيف السبيل ليعود الناس للإسلام لأن فقهاء الأمة إبان كان الإسلام في عز دولته يستتيبون المرتد ثلاثا ثم يقتل حدا وكفرا. فما العمل اليوم والردة هي الأصل في صف كثير من أصنافنا ؟ إن عبادة «الحد والكفر» هي وحدها التي تطل من خزانات وثائقنا الفقهية، ومن يجرؤ أن يخرج من جوق الحوقلتة اليائسة المنذرة بالثبور وعظائم الأمور ونهاية الإسلام، فيرجع إلى كتاب الله الذي أمر بالتوبة المؤمنين وغير المؤمنين ؟ أما من يتذكر وسط زحام الوثائق الفقهية التاريخية أحاديث رسول الله المنبئة بزمن الفتنة، الآمرة بالرفق والطاعة لذوي الأمر ولو جاروا ولو نهبوا ولو ظلموا ؟

إلا يكن رجال الدعوة متجردين لا يطلبون جاها ولا يحوم همهم حول المحافظة على السمعة، فلن يقدروا على اجتهاد، لأن أهم أدوات الاجتهاد، مع الآلات العقلية بل قبلها، ذمة متجردة منيبة إلى الله.

لكي يتوب المسلم الجغرافي ويرجع إلى الالتزام بأمر الإسلام ولكي تنفصل الأعداد الغثائية من أبناء ملتنا عن حاضرها المفتون وعن عاداتها الجاهلية ! ينبغي أن يعلن رجال الدعوة أن «الحد والكفر» معيار لحكم الله في دولة الإسلام وعزه، وأن بدلها في وقتنا «التوبة والطاعة الإسلامية»، توبة مفتوحة للكبير والصغير والظالم بالأمس والمظلوم والصالح والطالح. ولعل من رجال الدعوة أو من زهاد المسلمين من يأنف أن يتوب إلى الله زاعما أن الصالح لا يتوب ! ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستغفر ربه سبعين مرة في اليوم ويتوب إليه!

ولن يستوي لنا علم بالإسلام إن لم نفقه أن الله تعالى يقبل من عبده سلوك مشروع الخلاص الفردي. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك**» وأمثاله كثير، يبيح فيها المعصوم عليه الصلاة والسلام للمسلم أن ينفرد بدينه. ومن المؤكد أن مشروع الخلاص الفردي يتضمن إمكان اقتحام العقبة

إلى إيمان وإحسان. هذا مؤكد ولله أولياء يحبهم ويكرمهم ما وضعوا قدمهم في ميدان جهاد وإنما آوتهم الخلوة يسبحون بحمد ربهم ويعبدونه عبادة ملائكته لا يفترون. أولئك فاتتهم مرتبة الجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض، وهي مرتبة عظيمة. ولكن لم تفتهم مقامات الصالحين.

إن القرآن كتاب جهاد، كتاب إسلام جماعي، كتاب عمل جماعي. لكن من تعاليمه الإشارة إلى العزلة ورضى الله عنها. في حق أصحاب الكهف مثلا وفي حق أبينا إبراهيم عليه السلام، وهو رسول جاهد حتى يئس ثم اعتزل وكان ينبغي بمقياسنا أن يبقى في جهاده حتى يقتلوه. قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ هذا إكرام بعد اعتراف بمشروعية العزلة.

نريد بهذا أن نخبر من يجهل إسلامه أن «الشعوب»الإسلامية سيبقى فيها ناس منعزلين لن يساهموا في بناء العمل الإسلامي المقبل ولعلهم ينكرون الإسلام المنبعث الجماعي ولا يعرفونه. فلا حاجة بنا أن نرغمهم على الجهاد وليس بهم جهاد!

وأمر ثان أساسي يحق أن نتعلمه حتى يرسخ في ذهننا فيكون جزءا من خطتنا للبعث الإسلامي، هو أن الإسلام مراتب ثلاث، إسلام وإيمان وإحسان، والمسلمون هدف العمل الإسلامي في

تربيتهم، ومردودهم في بنائه، أن يتوبوا ويلتزموا بالطاعة، لا جهاد عليهم إلا أن يرغبوا. نكرر هذا كثيرا قصدا لأهميته.

المقاصد الإيمانية : حدث خلاف بين الشيخ حسن البنا وابن شيخه الحصافي. ويمر البنا بهذا الخلاف مر الكرام في مذكراته، ثم ينتقد الصوفية نقدا شديدا. وهو رحمه الله الصوفي صاحب الوظيفة والأوراد والسر الباهر. ويرفض رحمه الله حديث البيهقي الذي يقول فيه الرسول الكريم : «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»، وينفي أن يكون ثم جهاد أكبر من جهاد السيف. ولأهل الحديث مقالات في هذه الرواية يضعفون الحديث.

وإنما كان خلاف البنا مع الصوفية، ورفضه الحديث حول نقطة الفرق بين الإسلام الفردي والجماعي، فهو كان لا يعترف بإسلام القاعدين، وهو كان في الجهاد الأكبر طول حياته لا في فترة حمل السلاح بفلسطين فقط.

المسلم الفردي لا نسأله أن يدخل في ولاية المؤمنين، لأنه لا يهاجر أو لا يستطيع هجرة، فلا نخاصمه ولا نحمله فوق ما يطيق. وليكن له إن شاء أن يتزكى كما يحب، ما دام المسلمون في أمن من لسانه ويده، وما دام مطيعا للأمر العام مصليا مزكيا.

على الدعوة الإسلامية الباعثة أن تنشر الفقه المنهاجي الذي يرسم لكل مسلم خط العمل الجهادي. تنشر ذلك بلغة العقلانية

ليفهمها المسممة عقولهم بالإديولوجية، مع حفظ أطراف العلم المنهاجي من أن تتسرب إليه العقلانية المعاصرة كما تسربت الفلسفة القديمة للفلاسفة المسلمين الأولين حتى تهافتوا.

سيكون الفقه المنهاجي عملا فكريا جديدا، وسيكون دعوة بما هو صيحة وخطاب للعقول والضمائر. لكنه لن يتحول عملا يقيم ولاية بين المؤمنين، ويقيم دولة الإسلام الباعثة الموحدة لدار الإسلام إلا إن التقى بوعي مترقب مستعد. وعلى الفقه المنهاجي أن يبرز الاستعدادات الإنسانية في دار الإسلام مثلما عليه أن يقرأ الكتاب والسنة قراءة حركية جهادية.

الغايات الإحسانية : من هم أقل المسلمين ترفا في الفتنة ؟ لا شك أن خط البحث يشير إلى أقل المسلمين امكانات للانغماس في الترف المادي والفكري، المساكين، والشباب الذي نراه اليوم متحمسا للشيوعية ونماذجها، يغلي غليانا لا يدل على ترف، لكن على استعداد حيوي للعمل لا يجد منفذا ولا وسيلة للتعبير إلا المطالبة بتغيير شيوعي. وإنما يطالب بالتغيير الشيوعي من يطالب لأنه لا حركة ولا نأمة باسم الإسلام. ثم إن الفقه المنهاجي لا يكون كذلك إلا إن أدرك بوضوح وأبرز بوضوح للقادة وللأمة جمعاء أن هذا الضغط الواقع على «الشعوب» الإسلامية لن يبرح المسلمين إلا حين يتوبون إلى إسلامهم ويفزعون إلى ربهم، ولا

مفر، ولن نكون أمة اشتراكية ولا شعوبا اشتراكية.

الفقه المنهاجي لا يكون كذلك إلا إن وعى وأوعى القادة وذوي الحول من هذه الأمة، أن الأمة المحرومة المسكينة لن تتحرك إلا وراء لواء الإسلام. وضاعت والله جهود المترفين في إغرائهم المسلمين بأكاذيب الوعد الاشتراكي وأباطيل العاملية التي لا يدخلها المسلمون إلا أن تجردوا عن إسلامهم.

إن كل «الأوهام»[1] العقلانية وكل «المدن الفاضلة» الفلسفية من نسج الخيال. أما موعود الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يستخلفهم في الأرض ويعزهم في الدنيا والآخرة فهو الحق الذي نؤمن به ومساكين هذه الأمة المستضعفين. وهو أيضا التاريخ الذي تحقق عهدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتحقق عندما يرفع الله إلى سقر كل متكبر جبار. وخاب والله الملاحدة من مثقفينا الذين يسولون للأمة أن جيل الصحابة فلتة تاريخية لن تعود.

ألا إن الله يحب المحسنين، وإن همم المسلمين ستطلب محبة الله ورضاه وستعمل عملا إسلاميا وستحمل رسالة الإسلام بقوة كما حملتها أول مرة. ورحم الله مؤمنا محسنا كان يعنون كتبه : «المستقبل لهذا الدين».

---

1 «أوهام» نقصد بها اليوتوبيا : utopie .

الخصلة السادسة

العمل

نعم العقل خادما وبئس العقل سيدا متألها بعقلانيته. علم التكنولوجيا محط اهتمامنا في فتنتنا، «والتقنوقراطيون» هم رجال القيادة المعظمون، لأن الأمة المفتونة في فئاتها المترفة تعظم التكنولوجيا وتؤلهها وتجعل كل جهودها ووجهة عملها اكتساب العلم التكنولوجي وتسخيره لبناء الاقتصاد. فلا خلاص إذن إلا بالتكنولوجيا إذا كان الخلاص هو ترفيه الإنسان -الدابة-.

ماهو هدف العمل الإسلامي ورسائله ؟ أبِناء الحضارة المادية، فنكسب التنظيم الاجتماعي والمادي ؟ وهذا يطلب كسب التكنولوجيا التنظيمية والتقنية. أم هو هذا الظل المطل من وعي كل المسلمين لداعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لاتصال المفهومين بعمل إسلامي مجيد مضى، ودفنه من يقولون إن العمل الإسلامي في عهد الصحابة فلتة لن تتكرر؟

يجد الفقه المنهاجي من أهم مهماته أن يجمع في وعي طلاب الإسلام ووعي من سيرغمهم الرهق السياسي من قادتنا داعي التربية الإسلامية على كسب العلوم المنهاجية وداعي اكتساب التكنولوجيا.

ومعنى هذا أنه لا يمكن الفصل بين العمل على كسب العلم التكنولوجي والتربية والتزكية في عمل الإسلام المنبعث. العمل الإسلامي سعي لبناء حضارة تخدم قيمة الإنسان وغايته الإحسانية، فلا يترف في عالم الكم ناسيا تزكية نفسه ليلقى الله وهو عنه راض ويخلد في قرب ربه في الجنة.

على مسرح الأحداث العالمية مسلمون يتحركون ويضطربون مع الوقائع العالمية، لكن حركتهم الاضطرابية لا تحدد لهم شخصية، لأنهم ناس كالناس ولا يتميز عمل المسلمين عن عمل الجاهليين. وبقدر ما يكون عمل المرء وحافزه هو المحدد لشخصيته فلا وجود للشخصية الإسلامية لأنه لا وجود للعمل الإسلامي.

يشكو أصحاب الإيديولوجية من أن الأثرة الطبقية المستغلة تشيء العمل الإنساني فتشيء الواقع علينا لأننا نتحمل النماذج الجاهلية في الفكر والعمل ونتمثلها ونترف فيها. ومن كان مسيخا كان عمله العشوائي الغوغائي وسيلة من وسائل ترديته في مسخ أكبر لا من وسائل تحريره.

عنوان هذا الكتاب «الإسلام غدا» وفي هذا كفاية للدلالة على الضالة التي ينشدها الفقه المنهاجي. إننا نبحث عن عمل، عن حوافز للعمل، عن تنظيم للعمل، عن توجيه بعد تكوينه، وعن تجديد وابتكار علاقات إسلامية نستبدل بها علاقاتنا الجاهلية مع

العالم وساكنيه. كل ذلك بحس إسلامي ووعي إسلامي وإرادة إسلامية. خصالنا العشر خصال عمل، ومنهاج اقتحام العقبة يوحى بالجهد المتواصل في سياق مغالبة واعية للنفس الممسوخة الماسخة وللقوى الترفية العادية. وكل ذلك يدل على طريق العمل ويبحث عن الحل الإسلامي بالعمل الإسلامي.

ويكون السؤال الأهم : من أين نبدأ ؟ بل من يبدأ ومن يعمل؟ الأهداف الإسلامية : نجيب عن السؤال الأخير بأنه لا عمل إلا بتعبئة، ومعنى التعبئة تجميع للطاقات المسلمة المترفة في النعيم أو البؤس بفتح باب التوبة لعامة المسلمين. وكما كان الإسلام يجب ما قبله في الانتقال من جاهلية للإسلام فلتكن التوبة تجب ما قبلها، حاشا المظالم، في انتقالنا المقبل القريب بحول الله من فتنة للإسلام، ومن معاني الفتنة العشوائية في العزم والتنفيذ. ولا انتقال لنا منها إلا بفكرة واضحة جلية : أن الإسلام رحمة قبل كل شيء، وأن بعث الإسلام لن يتم بفتنة تقهر فتنة، لأن معنى الإسلام سلام ورحمة والفتنة نقيض كل ذلك.

نبدأ العمل الإسلامي بدعوة عامة. باستصلاح كل القوى في دار الإسلام إن قبلت التوبة والعمل لبناء الإسلام. ويتبلور هذا العقد مع الله تعالى بالمبايعة العامة للقائد المجاهد، أن يتوبوا إلى ربهم معه، وأن يطيعوه بطاعة الله ورسوله. هذا هو الهدف

الإسلامي العام في بدء العمل الإسلامي، وكل من لا يتوب ولا يلتزم بأمر الإسلام، إلا يكن من أهل الذمة فهو مرتد يعد خبثا يطرح. وإن تكن لنا قيادة جهادية عازمة فلا إخال أن يخرج عن الأمر خارج إلا نفاقا وتسترا. وسيجد الانبعاث الإسلامي في دار الإسلام، في أي قطر نشأ فيه البعث الإسلامي مهما كان ترف أهله، استجابة راضية بل حماسية من أنفس لا تجد روح الرحمة في الكدح المفتون والأثرة والتغابن على الفرص في أكل الفقير وابتزاز ماله.

يرتبط هذا الحماس الضروري للبداية بعاملين اثنين، أولهما الاستعداد الفطري الذي يقهر دواعي العادة المترفة عند فئات المترفين، وهذا الاستعداد تجده عند مساكين الأمة والشباب والنساء، هؤلاء المسكينات. وثانيهما الحافز النفسي الذي تزيد قوته أو تقل بحسب ارتفاع الأهداف والمقاصد والغايات التي تقترحها القيادة الجهادية كموضوع لجهاد الأمة مجددة رائدة.

عددت النساء من فئات المساكين، وأنا أعلم أن منهن رؤوسا للفتنة وقائمات على سدانة الترف في دار الإسلام. وما أقصد أن أنصف المرأة تملقا لما تمثله من أعداد ضخمة في دار الإسلام، لأن الله عز وجل يعلم أي داء هو داء النخاب، فلسنا إذن في حملة انتخابية نرضي هذا وذاك.

إن المرأة أرهف حسا وأقرب انفعالا. تعيش بحسها أكثر من الرجل فهي إلى الفطرة والإيمان أقرب إن وجدت حزما في القيادة وحرارة في إيمان رجال الدعوة. ثم إن العمل الإسلامي، بعد التصفية في قترة المبايعة، إنما يتركز على التربية الإسلامية، فعمل مع تربية بعمل. وقد أمر الله النساء الفضليات أن يقرن في بيوتهن لأنهن إن آمن واتقين ربهن أقدر على التربية للصغير والكبير، وأجدر أن يبرزن في ميدان الدعوة محجبات بجلابيب الوقار لكن فياضة قلوبهن بالرحمة الإسلامية والبذل والجهاد.

الحافز الذي يستجيب له المسلمون هو عين الشهادة بالقسط في الأرض على أنفسنا وعلى الناس التي أمرنا بها. ومجلى هذه الشهادة هي القوة والإعداد لها نداء إلهيا خالدا لهذه الأمة : ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾.

إذا كان شعار الاشتراكية الممل هو : «اشتراكية من أجل تجاوز التخلف» أو بديلا له : «الاشتراكية من أجل محو العدوان الإسرائيلي» فإن شعار الإسلام : «الإسلام من أجل القوة» نحن أمة خلقنا لنحمل الرسالة الإلهية أبد الدهر، فلا نقبل أن تمسخ غاية وجودنا فنقف عند البناء الاقتصادي من أجل بطون أكثر امتلاء، وإنما نبني الاقتصاد لنقوى على حمل رسالة ربنا.

المقاصد الإيمانية : عندما يرتفع النداء بالتجديد الإسلامي

تتبدد سحب الوهم الجاهلية عن وعي المسلمين المساكين، ومن نبذ الترف الفكري والمادي على السواء. وعندئذ يكتشفون أنهم ليسوا جماهير وشعوبا متشبعة لا تلمها القومية الجاهلية مهما كادت وسخت. إنما هم أمة لها أصل واحد ترجع إليه، لها أم واحدة في التاريخ هي الأمة المسلمة من لدن آدم فالأنبياء إلى خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم. ولهم أم واحدة في المكان الروحي هي هذه الرحمة والرحم بين المسلمين. ولهم أم واحدة في مجال التطلع إلى الآفاق المستقبل هي الصالحات في الأرض مهما استضعفوا. ولهم أم واحدة من حيث مصدر الهداية والبلاغ وتوجيهات العمل هي القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يلتفون حوله التفاف الفزع إلى ربه.

ما بنا أيها الناس قلة في العدد ولا في المال، وإنما صرنا قصعة تداعى عليها الأكلة كما عبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لانصرافنا عن أصلنا وتشبعنا وتجمهرنا. ولقد أعيانا أن نقتبس علاقات إنسانية جاهلية لتكون لنا قوة ورباطا، فكان لنا ما نقتبس مسخا وعلينا وبالا. وهذا كتاب ربنا يصرخ علينا بالحق ويهيب بنا أن نكون أمة واحدة مؤمنة، ويعدنا على ذلك النصر والاستخلاف في الأرض والأمن والكرامة في دار النعيم.

قال الله تعالى : ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء**

بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ﴾.
فما نعت لنا العلاقات الإنسانية التي تمكننا من العمل وتنهض بنا جسما عضويا قويا حتى جاء بوعده الرحيم، ذلك أن رباط الإيمان بين المؤمنين رحمة في حد ذاته، يفضي إلى رحمة تخرج بالأمة من ضيق الدنيا إلى سعتها.

الولاية بين المؤمنين محبة وأخوة وتآلف، وعلاقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي علاقة التواصي بالصبر والحق والمرحمة، وهي النصيحة، وهي نفس الوقت وظيفة للجماعة المؤمنة المترابطة بالمحبة والولاية للمؤمنين، اعتبارا لولاية الله ورسوله الجامعة.

والعلاقة الثالثة هي في مظهرها التعبدي إقامة للصلاة والزكاة وفي مظهرها العملي الإنساني طاعة لله ورسوله طاعة جماعية تفرض الطاعة لوي الأمر المبايع ذي الذمة والعزم الجهادي الإسلامي.

عامة المسلمين وظيفتهم في بدء العمل الإسلامي المنبعث إقامة الصلاة والزكاة إقامة مع الجماعة والمبايعة على السمع والطاعة لله ورسوله وصاحب الأمر. ويكون هذا الرباط وهذه الوظيفة مضمون التوبة العامة.

أما رباط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووظيفته فهو خاص بمن يدخل في الولاية الخاصة بين المؤمنين. وهي ولاية لها

رافدان اثنان : أولهما الرحمة القلبية، شعور رقيق نحو الأخ المؤمن بمعاني المحبة والبذل والولاء، والثاني طاقة الأخوة الجهادية بين أفراد جيش يسير قاصدا لبناء أمة إسلامية حرة قوية تستقطب آمال المسلمين جميعا، وتنصب للعالم مثالا حيا للتعاون الإنساني والتمدن الإنساني والنظافة والأمن والقوة.

أهل الولاية الخاصة من المؤمنين لا يكونون دائرة مغلقة يدخلها مسبقا إلا هذا وذلك ممن له ثقافة أو حول، بل هي تكون رباطا جهاديا يحتاج لجند صادقين، فكل من قدم برهان الصدق بأعماله وبجهوده ونتائجه لبناء الأمة كان عضوا بالاستحقاق الكامل في الجسم المؤمن.

معنى هذا أن العمل الإسلامي، إن كان دعوة عامة مفتوحة، فإنه بكل تأكيد يستند إلى المؤمنين. وهم وحدهم، لا عامة المسلمين، المخاطبون بالقرآن الحافظون لحدود المعروف والمنكر المهيمنون على الحياة بما بذلوا لله من طاعة، وبما بذلوا لإخوانهم من محبة وخدمة.

إنها طبقية لا مراء فيها أراداها الله كذلك، لكنها طبقية خدمة وإنما سيد القوم خادمهم كما قال الرسول الكريم. لذلك فالمؤمن لا يستعلي بإيمانه ولا يتبجح ولا يطغى، لكنه يسبق إلى أكل الطعام البحت عند حاجة المسلمين، ويسبق إلى لبس الخشن عند

الحاجة، وإلى نبذ الترف وأسبابه، ويبذل ويؤثر غيره ويتستر في كل ذلك. فسلوكه تنفيذ مثالي لما يوصى به غيره وما يتواصى به المؤمنين من صبر وحق ومرحمة.

الغايات الإحسانية : المحسنون هم الطبقة الأولى في الجماعة الإسلامية. هكذا أرادهم الله لأنه كلفهم فوق ما كلف الآخرين، وجزاهم على ذلك محبته ونوره وولايته. ولا تجد المحسنين إلا على مثال عمر بن الخطاب وأبي بكر وأضرابهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقل الناس التفاتا لنعيم الحس، وأكثرهم حدبا وخدمة للأمة وسهرا متأوها جاهدا على مصالحها. لا يتصدرون المجلس لا يتكبرون، كيف والكبر أعظم الداء وأكثف الحجب!

طبقيتهم هذه المؤكدة في كتاب الله وسنة نبيه لا تعطيهم حق الامتياز عن المسكين بلباس ولا شارة ولا مطعم، لكن تعطيهم واجب أن يؤثر على نفسه ولو كانت خصاصة، وأن يتعب ليرتاح الضعيف، ويجوع ليشبع اليتيم، ويسهر لتنام المرأة والأمة جمعاء آمنة مطمئنة مرزوقة.

هؤلاء هم المجاهدون، وهم أصحاب القيادة الجهادية. يعسوبهم القائد المجاهد أكثرهم نصبا فيما يخدم الأمة، أمرا من أمر الله لنبيه: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾. القائد المجاهد

الراغب في ربه لا يفرغ من عمل إلا لعمل فينصب ممثلا الجهاد في أروع نماذجه. ولئن كان من شروطه الكفاية الروحية والفكرية، فإن منها أيضا بل أهمها قدرته على العمل، على التنظيم والدقة وامتلاك الوقت.

هذا رئيس المسلمين ورأسهم وإمامهم، لا تنصب له سرادقات، وإنما تنصب له خيمة الجهاد يتقلل فيها ويواسي الأمة بنفسه وكلمته وفكرته ومجالسته ومخاطبته. وأي قائد من قادتنا إن رغب في ربه ونصب خيمة الجهاد بقصد إيماني وكفاية ونورانية يبرهن عليها بتجرده، فليس أحد أحق بالتعرض بالمسلمين لموعود الله منه. وحتى يعاف قادتنا فتنتهم وترفهم ويتقايؤوه فموعود الله قائم، ورحمته ومحبته للراغبين الناصبين، وإن الله لمع المحسنين.

الخصلة السابعة

السمت

أكتب هذه الصفحات يوم ثاني رمضان من سنة 1392هـ. وقد بلغنا خبر دولة إسلامية اتخذت آلات إلكترونية لحساب الوقت وقررت أن تقوم السنة وتحدد مواعيد رمضان ومواعيد الأعياد مسبقا. وقد يبدو الأمر في عين «فقيه متعصب» افتياتا على الشريعة، وقد يبدو في عين المسلم العصري غير ذلك. ولا يلفت الخبر النظر بكل ما يحمله من نذر الاختلاط والترف الحضاري إلا في عين من يلتمس وسيلة لكي تتجدد أمة الإسلام وتنسل من الجاهلية المحيطة الهاجة المتسربة.

إنه لا بأس أن نقتني آلات الكترونية لحساب شؤوننا عند أقصى الضرورة قبل أن نستطيع نحن بناءها بأيدينا، لكن عندما تأتينا مقتنياتنا الحضارية معها إيحاء باستعمالها استعمالا عشوائيا، وفي أخص شؤوننا الدينية بداعي عقلنة الوقت فذاك الخطر.

إن الوقت المادي ليس هو الوقت الديني، الوقت الديني مرتبط بآيات الله في الأرض والسماء التي تخاطب المؤمن إنسان الفطرة فيستجيب لها خوفا من ربه وطعما، ويتطلع إلى السماء ليرى

الهلال علامة على عبوديته، ويشترك في ذلك مع الكبير والصغير، ويبشر من سبق بالرؤية إخوته. إنها ليست صورة فلكلورية هذه التي أعرضها، إنه سمت الإسلام وشكل الحياة الإسلامية وموقف المسلم من العالم، يعامله بأمر ربه ويعظم أمر ربه ويخدمه خدمة شخصية بكل ذلة لربه، كما يفعل إن حج البيت، أو خرج لصلاة الاستسقاء حافيا عاري الرأس متضرعا.

السمت الإسلامي موضوعه عالم الأشكال والسلوك الفردي والجماعي. السمت الإسلامي مرتبط بكرامة المسلم وعزته بربه لارتباطه دائما بعبوديته له.

في عالم الانغلاق الجاهلي فقدت حركات الإنسان وسلوكه اليومي كل معاني الإنسانية، وفرغت إلا من معاني الكدح أو البحث اللاهث عن اللذات. وبعد أن كان لعالم الجاهلية المتكاثر فن وثقافة يعبر بها الجاهلي عن توقانه للسمو عن مستواه الأرضي، أصبحت أسباب الحضارة الصناعية وما تتيحه من وقت فراغ تصبغ الفن والثقافة بصبغة الاستعجال الاستهلاكي، حتى لم يبق هناك إلا الثقافة المعلبة تهدف لإرضاء غرائز الجنس، وتهدف لصرف الحيوات في مسارب الدوابية البشرية التي لاقرار لها.

أما المسلم فلكل حركاته معنى متصل بقيمته الإيمانية الإحسانية، خليفة لله في الأرض ومكلفا بالشريعة. جاءته من

الله الهداية والعناية تصف له كيف يقوم وكيف يجلس، كيف يتكلم وكيف يصمت، ووضعت على كل عضو من أعضائه، بل على كل سلمة من سلمات أصابعه عبادة وحركة يكون مجموعها السمت الإسلامي.

نظافة الجاهلي قد يكون حافزها التجمل الاجتماعي أو الوقاية الصحية، أما المسلم فنظافته حركة أولى نحو الطهارة الجسمية، وهذه الطهارة تفضح قذارة الجاهلي الذي يبول في سراويله.

سمت المؤمن قوة لأن الله يحب المؤمن القوي، سمته وقار في المجلس وفي صف الصلاة.

إن للأشكال الحضارية والجماليات العادية الجاهلية سلطانا كبير على نفوس الأمة المفتونة. والأمة الإسلامية في انبعاثها يجب أن تقضي على هذه التبعية الماسخة، لا في نطاق الحلال والحرام فحسب بل بإحلال السكينة وزينة الله التي أخرج لعباده المؤمنين مكان الفخفخة المتكبرة المكابرة.

الأهداف الإسلامية : المسلم التائب الملتزم بأمر الإسلام يكتشف نفسه في الخلجة القلبية، أو في الوازع النفسي الذي رده لالتزام أمر دينه. ويكتشف نفسه أيضا في الممارسة اليومية للسمت الإسلامي في حركات جسمه حين يتعود إقامة الصلاة، وحين يتهيأ لها وحين يتنظف ويتطهر. ويتغير موقفه أمام العالم

فيرى فيه طاهرا ونجسا، يراه محدودا بحدود الله.

يكتشف التائب نفسه في العودة إلى الفطرة من حيث جسمه، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «**خمس من الفطرة : الختان، والاستحداد وتقليم الأظفار ونتف الإبط، وقص الشارب**» 1

وينبغي أن يكون هذا الاكتشاف بحافز عاطفي لا بالإلزام، فلا يكفي أن ترغم الناس على قص الشارب وإعفاء اللحية ليعوداو مسلمين. وقد برنط ولي الشيطان مصطفى كمال المسلمين ليكفروا، فما زادهم ذلك إلا إيمانا. وقد يمضي وقت قبل أن نستعيد السمت الإسلامي على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة. وقد يكون من شعارات التوبة التي سيخف إليها الناس طرح السمت الجاهلي ضربة واحدة.

على أن مشكلة العري لا بد أن تضرب بالقوة فإنها الفتنة العامة لتكون أول علامات السمت الإسلامي في شوارع المسلمين.

ويكتشف التائب نفسه في ضرورة اتباع السمت الإسلامي مع زوجه وأولاده، ويتنصل من الفهم الأناني لمعنى الأسرة، لكي يعم أقاربه جميعا خاصة والديه بالبر والرحمة.

ومع تصفية الشخصية من أدران الجاهلية، يصفو أيضا الجو الفني والثقافي وسائر المظاهر الحضارية من أساليب الجاهلية في سياق المبايعة والطاعة.

المقاصد الإيمانية : من أول صفات المؤمن بعد لزوم الجماعة الذكر والعبادة. إن للجاهلية عاداتها في الجد والهزل، في العمل والفراغ، يغشى الجاهلي المكتب والمعمل، ويغشى الأندية والسنمات، وفي كل يجد مرافق لراحته ولهوه وتفكيره وعبثه، الخمارة وأواني التدخين وصور العري ومباني العهارة ومجلاتها وهكذا.

أما المؤمنون في عملهم فهم جادون، وهم بعد العمل أكثر جدا. إن روحوا على أنفسهم فإنما يفعلون بما يجلب بينهم التراحم والمحبة، فإنهم لا بد أن يتجالسوا ويتحادثوا ويضحكوا. لكن يتم ذلك كله في حدود السمت الإسلامي بأحسن مظاهره. وقد أمرنا الله أن نأخذ زينتنا للمسجد. وكان السلف الصالح يتطيبون ويحتفلون استعدادا لدخول المسجد. وكانوا يجمرون المساجد ويعطرونها.

كانت المساجد محاضن للإيمان، وكان للصحابة فيها مجالس يسمونها «مجالس الإيمان» فيها علم وفيها ذكر وفيها وعظ. وفي المساجد أيضا الصلاة وهي أهم أمورنا.

وللمسلمين أعياد يظهرون فيها بنسائهم وأولادهم خارج المدن والقرى في أتم بهجة. وللمسلمين محافل تنافي محافل الجاهلية الماسخة.

باستبدال السمت الجاهلي وطرحه تنعقد بين المسلمين

التائبين علاقات جديدة تتسم بالنظافة القلبية التي تساير الطهارة الجسمية، وتتسم بالقداسة والسكينة الناشئين في المسجد ومجالس المسجد، ينزل الله فيها سكينته على المؤمنين ومحبته، فيتعلمون أن لكل مؤمن حرمة، وأن لكل مؤمن حقا إلهيا في التعظيم والتوقير والنصيحة والمحبة. وكل ذلك هو النقيض لعلاقات الجاهليين وعنفهم واضطرابهم، وإن كانت تغرنا المظاهر السطحية فنتيه إعجابا بسمت الكفار ونظافتهم، وما أعطاهم تاريخهم الحضاري من تهذيب.

ومعذور من أُخذ بذلك لأن طرف المقارنة هم هؤلاء المسلمون الجغرافيون الذين لا حضارة لهم ولا ثقافة لأنه لا عقيدة لهم ولا منهاج. ونحن إنما نصف مستقبلنا النوراني في أحضان إسلامنا المشرق علينا غدا بإذن ربنا.

إن إقامة أمر الدولة الإسلامية المنبعثة لن يتم بالصخب والكيد المتعاقبين في الاضطراب السياسي وتناحر أحزابه. لا ينعقد أمر الدولة الإسلامية إلا في المسجد وبمعاني المسجد بين مسلمين ذوي ذمة طرحوا السمت الجاهلي، وفي أول ما طرحوا التحزب السياسي.

المسجد معقل صدق وجهاد وجماعة مؤمنة، والسياسة أحابيل تصيد فيها الأنانيات الزعامية طموح الخبثاء في الوصول إلى أسباب

الترف، أو طيب السذج تغرهم خطب الزعامات السياسية.

لقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسمت الإسلامي في الأمر العام حين رفض طلب من تقدم إليه في أن يوليه أمرا عاما وأجابه بأننا الأمة المؤمنة لا نولي هذا الأمر من طلبه. والسياسة تدور حول المطالبة بالحكم بدعوى خدمة «الشعب» أما العمل الجهادي، أما العمل الإسلامي فهو بديل السياسة شكلا ومضمونا. ما كذب السياسيون إذا زعموا أنهم يخدمون الشعب، لأنهم في الواقع إنما يخدمون ما في كلمة الشعب من معاني الفرقة.

السياسيون يعملون بعقلية مطالبة وبسمت جاهلي يعتمد على العنف مرة، ومرة على التغرير والتسخير. تيار يحملهم لا يستطيعون أن يتأبوا عليه، وعنف يجرفهم جرفا لا يميز بين الصادق والمحتال. وإن كان من رجال السياسة مخلصون فإنهم لا يفلتون من حكم الإسلام عليهم بمعياره المنهاجي إنهم مترفون في الفتنة، لأنهم ما عرفوا أن يحتفظوا بمضمون إسلامي لعملهم، جزاء استيرادهم للشكل الجاهلي في العمل السياسي.

الغايات الإحسانية : خلفت الفتنة في التاريخ الإسلامي أشكالا ثقافية اجتماعية، بعضها يرجع إلى عدم العمق في إسلام من بلغتهم الدعوة فتوارثوها حتى أصبحت عصبية قومية. وبعضها

يرجع إلى الخلافات المذهبية حتى كان من المسلمين من يقيم الصلاة أربع مرات في المسجد بأئمة أربعة. ويرجع بعضها إلى الحزازات التاريخ بين المسلمين. وإنك لتجد حتى اليوم في بعض عواصم المسلمين من يحمل على صدره شعار : يا لثارات الحسين!.

وتخلف عن هذه الفتنة أعياد ما هي بالأعياد الإسلامية، وعادات للصوفية وغيرهم هي أبعد شيء عن السمت الإسلامي. وقد تمس هذه الطقوس بصفاء العقيدة، وقد تسيء إلى الأخوة الإسلامية الرحيمة في الانبعاث الإسلامي المقبل إن لم تعالج بحكمة ومرونة حتى ترجع المياه إلى مجاريها.

إننا إذا أردنا أن نكون حملة رسالة فيجب أن نتعلم ونبدع السمت الإسلامي الطاهر من الشوائب دون أن نخل بشروط إعداد القوة القاعدة على أساس التكنولوجيا. ومعنى هذا أن واجب الأمة المنبعثة أن تقتبس علم التكنولوجيا دون أن تستورد معه أشكال التفكير الجاهلي والعيش الجاهلي.

وعلى قدر تميزنا عن الجاهلية تميزا مبدعا جميلا نهيئ للرسالة الإسلامية مسرحا يأخذ بجماله ونظافته أخذه بالسكينة القلبية التي لا يتسع للتعبير عنها المظهر الخارجي إلا اشعاعا لا يوصف وعبيرا كما يتنفس الربيع.

كان فيما مضى من تاريخنا ينزوي طلاب التزكية الروحية في

خلوة، ويلبسون مرقعات تستر عن الناس سمو مطلبهم وارتفاع همتهم. أما غدا فإن المتزكي أن يجهر بإيمانه، ويجلس مع المؤمنين في المسجد، ويخالطهم في ميادين السعي اليومي، واجدا منهم طيب المنظر والمخبر. يعتبر كل ذلك مرابطة وحملا لأعباء الدعوة. وهذا يقتضي من المحسنين والمؤمنين من طلاب الإحسان سموا أسمى، وهمة أعلى، حتى لا يكون في عملهم رياء. ومن أجل مغالبة دواعي الكبر التي تصنع المرائي كانوا يتسترون، ومن أجل جهاد الدعوة نجهر نحن معاشر الذاكرين بإيماننا اليوم وغدا عند قيام هذا الأمر.

وإن للقيادة الجهادية، وللقائد المجاهد أمير المؤمنين، الحظ الأوفر من أعباء الجهاد في تغيير الأشكال الجاهلية بالسمت الإسلامي. إنهم القدوة والمثال، بهم يقتدي الناس في رعايتهم للولاية الإيمانية، وفي احتفالهم بذكر الله في المساجد، وفي طرح العادات، وفي البذل والسمت، وفي التؤدة والاقتصاد والجهاد. هيبة القائد المجاهد القدوة الإمام تأتي من تأهله للقيام بإمامة الصلاة، وذلك هو المجلى الأكبر للسمت الإسلامي. ومن جلال موقفه أمام الصفوف عند المحراب يناجي ربه، تشع معاني الجمال والكمال على الجهاد الإسلامي الذي هو إمامه إلى كعبة الله وجهة المجاهدين، وطلبا لوجهه الكريم طلابهم، آخذين زينتهم متجملين، باسمة وجوههم ناضرة، لأن الإسلام يسر وبهاء وفرحة.

الخصلة الثامنة

التؤدة

أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**السمت والتؤدة والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزءا من النبوة**». إن أنبياء الله رجال جهاد، رجال عمل وبلاغ، زودهم الله بأكثر الصفات ملاءمة لوظيفتهم الإلهية ومن أهمها السمت والتؤدة والاقتصاد. وقد وسعنا استعمال هذه الخصال لتكون صفات جماعية وفردية معا للإسلام المنبعث المجاهد. وهكذا تحيط خصلة السمت بمعاني التجمل والزينة المخرجة للمؤمنين والتميز عن الجاهلية وعن التشبه بها. وفي التؤدة معاني الصبر وعدم العنف وفيه معاني الرفق والرحمة والأناة والمثابرة.

إن مقتحم العقبة يعوقه عائق نفسه الأنانية قبل كل شيء. شأن النفس الأمارة بالسوء أن تكون مستعجلة هلوعا يذهب وقار المرء أمام رعونتها فيعنف ويظلم. وأخص صفات الجاهلية الجهل بمعنى العنف، وما العنف إلا وضع القوة في غير موضعها. لذلك لا يستطيع الأناني الجاهلي ولا الأناني المفتون أن يقتحما العقبة، عادلين عن مواقع الظلم والعنف إلى مقامات التؤدة إلا

بتقيظ الإرادة الضابطة، مع سريان الهداية من قلب من له خصلة التؤدة نبيا كان أو وليا مرشدا.

الإسلام استسلام وطرح للأنانية العنيفة، وشعار الإسلام سلام، وحياة المسلمين تراحم لا يعرف العنف إلا مرضا في زمن الفتنة بمعناها النبوي.

توقظ اللذات الممكنة في العالم غريزة الشهوة في إنسان العادة. إنسان الانفعالات غير المضبوطة، فيتهالك عليها ويغضب إذا نافسه عليها منافس، وهكذا يتكون ثنائي العربة الأفلاطونية : شهوة وعنف في خدمة غريزة الامتلاك والاستئثار بالجاه والقوة. وتتراكب الأهواء وتتعارض، فيكون عنف الجاهلية عنفا متخفيا وراء النظام الإداري القانوني، ويكون عنف المسلمين المفتونين بأسا بينهم مفضوحا ساذجا لشدة تباينه مع قيمة الإنسان وكرامته، كما عاشها المسلمون في تاريخهم السليم، وكما يدعو إليهما داعي الله.

الفتنة تخلط مجال الفكر والعمل وتعطيه كثافة تستحيل معها الرؤية الشفافة. هو ذا عالم المادة وعالم المجتمع يحيط بالجاهلي والمفتون ويقاومان شهوته، وهو محدود حدودَ لذاته من جاه ومال، فيغضب ويعنف، ويثور على عالم المادة وعالم الإنسان. فإذا أخذت العقلانية بمقاليد الإنسان الجاهلي وصعدت هواه

من مستوى الصراع الفردي على الرزق الضروري واللذة والجاه إلى مستوى المطالبة الجماعية بالعدل الاجتماعي والتسوية، انتقل عنفه من معناه البسيط إلى معنى مركب اسمه الثورة، وتسمى العقل الثائر عقلا سلبيا ينتقد الواقع المغضوب عليه ويسخط ويعنف من حيث يظن أنه يقوى ويريد.

إن الفقه المنهاجي ليس تحليلا عقلانيا يستخرج للمسلمين سلوكا عقلانيا باسم الإسلام، إنما هو اتباع لأمر الله وأمر رسوله. وإن رسول الله صرح بوجوب الرفق وسمى العنف وأوصى بالحذر منه. من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه**» 1

إننا ندعو إلى الرفق في عملنا الإسلامي، لكن نحب ألا يفهم عنا أننا ندعو للخمول والاستسلام والضعف. إن القوة الفاعلة البناءة هي القوة السائرة في ركاب الإرادة الواعية، ولا يمكن أن يكون للأمة الإسلامية المنبعثة وجود ولا استمرار بلا قوة. وإن الغضب لمحارم الله قوة أساسية في العمل الإسلامي، فإذا لابس هذا الغضب غضب جاهلي، قومي مثلا أو طبقي، كان العمل غير إسلامي.

إننا أمة بحاجة إلى غضبة كبيرة، غضبة تهذب فيها الإرادة

الانفعال البدائي وتوجهه وجهة التغيير الإسلامي. والثورة جموح انفعالي تتجمع فيه الإثارة العارية إلى إرادة طبقة ثورية معينة متجهة إلى اليسار، إلى سقر، والانقلابية ثورة فئة على سائر الفآت. أما العمل الإسلامي في زمن الفتنة فنهضة عامة تسبقها تربية ويقودها من يتوب من أي فئة، أو من يسبق للمبادرة الإسلامية ممن لهم الطاعة التي أمرنا إلا نهتكها ولو جاروا.

الأهداف الإسلامية : المسلمون الجغرافيون في قبضة عالم العنف يصبحهم ويمسيهم أذاه أو صداه، في ظلم حكامهم وفي أخبار تطاحن القوى العالمية. وتلتهمهم عجلة العنف الواردة إلينا في الأشكال الحضارية الجاهلية مثل العنف الذي بين المالك والعامل، لا يحله إلى العنف، ومثل جور الإدارة المفتونة يطغى سدنتها بما لهم من سلطان أصبح عنفا إذ تعذر عليه أن يكون قوة. وتصطدم النزعات وتضطرم النزاعات وتتحول الإرادة البناءة إلى أحقاد تدفع للكيد والانتقام.

بأسنا بيننا شديد، ظهر في حمي الانقلابات الغضبة على الظلم، أو هو تحت الرماد جمرا من البغضاء والنيات السوداء ظلام في ظلام، لأن طرق الخلاص لا يتبينها العائمون في ضباب الفتنة القاتم.

يقال لأهل الجنة : سلاما ! وداعي الإسلام يبشر المسلمين

المفتونين أن في أحضان دينهم بين يدي ربهم سلاما وأمنا وسكينة إن تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات.

صفحة بيضاء من تاريخنا تفتح يوم يبدأ الجهاد الإسلامي الحق، يوم يكون لنا إمام مجاهد يعلن أننا أمة لا شعب، أي ألفة ومحبة لا فرقة وتشتت وبغضاء. ومن ورائنا يومئذ ليال ليلاء وأيام حالكة مليئة بالظلم والتعسف. فهل يجب الإسلام فيما يجب المظالم ويطويها في عملية التوبة العامة طيا، فيبقى المحروم محروما. ويتسلى بإسلامه، ويتوب المغتصب الظالم بالأمس على ما بيده من متاع الناس؟

كلا فإن التؤدة والرفق ما هما إقرار الظلم بل رفعه. وإذا كان العنف الثوري ينصب المشانق لطغاة الأمس فإن الإسلام سينصب أيضا ! لكن ينصب محاكم لرد المظالم، لرد «جسم» المغصوبات دون الانتقام ممن شاركنا جميعا في الفتنة ضحية من الضحايا، هذا هو الرفق الإسلامي عند الانتقال من فتنة الإسلام، عند التوبة والعدل إلى الله.

المقاصد الإيمانية : إنه لا إكراه في الدين لمن كان كافرا، أما المؤمنون السابقون في حمل لواء الإسلام المنبعث، فعليهم أن يأخذوا كلا بالتوبة. فمن أبى من المترفين فلهم أن يعتبروه ذميا إن شاؤوا ريثما تقوم قائمة الإسلام، فيحق عليه حد الله كما تحق

الحدود الأخرى على الظالمين.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الجماعة الإيمانية الإحسانية التي تربطها ولاية المؤمنين المهاجرين الذين قدمو برهان صدقهم. ومعنى هذه الوظيفة ومضمونها السهر على إقامة حدود الله والمراقبة السديدة الشديدة على تطبيق أوامره. وقد رأينا في زمن فتنتنا هذا، والدولة معرضة عن إسلامها، آخذة بالقوانين الجاهلية الإباحية، جماعة من المؤمنين انبروا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتؤول محاولاتهم الصادقة إلى عنف لأنهم في دار العنف حالون، فإذا قامت قائمة الإسلام فوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة جماعية لا بد أن تنظم تنظيما وتعمم على سائر المؤمنين المجاهدين، لكيلا تكون مظهرا منعزلا، بل عملا ساريا في جسم الأمة كلها، مقصده الأخذ بيد المسلمين برفق لكن بقوة تامة حتى لا يعود عائد لجاهليته.

إن حدود الله تعالى وحي منزل تفصل بين السلوك الحق والهيجان الباطل، وتضع عقابا أزليا لمن يتجاوز الحدود. والمسلمون يتصورون إقامة حدود الله ببلادهم المفتونة من قبيل المحال، بعد أن أعمالهم وهج الظلام الجاهلي المتقدة ناره. وسمعنا دولة إسلامية أعادت قطع السارق وتقطيع المحارب من خلاف. ما منعنا أن نستسيغ الحق ونعظمه إلا المسخ الذي خالط منا الضمائر،

فوهنا وأصبحنا نعبد الأوثان الجاهلية الثقافية، واكتسبنا حساسية مرضية تصور لنا القطع والرجم همجية وعنفا. وكأن فقهاء القانون الجاهليين تسخر منا الأقدار الإلهية بلسانهم حين يكتبون أن العقوبات الوضعية الآخذة في التسامح من أسباب انهيار الحضارة الغربية لأنها ترفع العقاب البدني من جلد وقطع!

إن الضعف لا يرتفع إلا إن جاءت القوة، ولما خانتنا قوة العقيدة بعد أن خنا نحن عقيدتنا، تسرب ضعفنا المعنوي إلى مظاهر حياتنا وسلوكنا، فلا نستطيع إلا تقليدا خانعا، وهكذا نعنف ونحن ظانون بأنفسنا القوة ونستكين للمذلة ونحن نحسب أننا رفيقون رحماء. ونبرر هواننا على أنفسنا وعلى الناس بدعوى كاذبة منافقة : إننا من دعاة السلم العالمي. وما بنا من سلم وديارنا تجوسها الصهيونية، وإنما خنوع وذلة.

لو كانت لنا قوة في عقيدتنا بحيث نقيم حدود الله كما أمر، ونقطع ونجلد ونرجم وننفي ونقتل كما أمرنا ربنا، لكانت لنا أسباب القوة التي نحارب بها عدونا. بأسنا بيننا شديد لا نجرؤ إلا على إخواننا من المسلمين، ويطل علينا فأر مهين يبرز من قاذورات الجاهلية فنخنع له ونقعد ونبرر الذل بالشعارات الزائفة.

الحساسية المرضية والجبن والكفر بأمر الله هي المانعة لنا المثبطة عن الحركة. يسير كل هؤلاء في ركاب الصناعة العلمية الخادمة

للعنف في دنيانا التي تسودها الجاهلية. وتختلط علينا، معشر المفتونين، الوسائل بالغايات فنحتج على عنف القوي في حدود «المجابهات» الخطابية بالمبرر الخانع أننا لا نقدر على قتاله، ونعنف نحن على بعضنا ولا نرفق هجوما على ضعف أخينا وظلما. ولو كان الرفق سمتنا فيما بيننا، ومن الرفق إقامة حدود الله، لكانت القوة سمتنا أمام العدو الغاضب الهاجم.

إن في دار الإسلام طاقات غضبية هائلة، فلو يستمسك رجال الدعوة الإسلامية بالحكمة والرفق لدى الدعوة وإبان التربية لحصل عندنا بدل التفجر الثوري المعاكس للاتجاه الإسلامي حتما جهاد إسلامي يتبطن الأمة فيخلقنا خلقا جديدا. فإذا استرسلنا في عنفنا فلن يلد لنا العنف إلا عنفا أعتى منه، وإن العاقبة للمتقين.

الغايات الإحسانية : قال الله تعالى : ﴿**وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ . وكان داود فتى بيده سلاح من شريط وكان جالوت مدججا بالحديد، فقتلت القوة الإحسانية في قلب النبي جسم الكافر العنيف، وغلب رفق النبوءة عدوان الجاهلي الغليظ.

إن النخبة الإحسانية المؤمنة بدار الإسلام تحمل في أحشائها جنين البعث الإسلامي، وإن ميلاد هذا الموعود المرتقب يطلب رفقا وسكينة وسلاما. إن المسلمين المفتونين عضتهم الجاهلية بأنياب

ووطئتهم بمنسم، وما هذه المآسي والمخازي الحازة في القلب، مما نشهده من تطارح المسلمين المغلوبين على أعتاب الإدارة العالمية الجاهلية، يطلبون مساعدة أو يتفاوضون على استسلام، إلا آخر رمق تلفظه الفتنة في ديارنا، يشيعها قرف القادة من دورهم الكريه الذليل، وتشيعه ضمائر السبعمائة مليون مسلم، عافوا أن تجرهم المركبة الجاهلية النارية في تراب القذارة من خلفها.

حاجة المسلمين المساكين رحمة، وحاجة العالم سلام وحاجة الإنسانية تعاون وأخوة. وإن النظرة الفطرية عند المؤمنين المحسنين حاملي الرسالة تفسر هذا العالم وهذا الإنسان على ضوء الإسلام الذي أمرنا أن نقول للناس حسنا. فالمؤمن لا تحجبه كثافة العالم وعنف أحداثه عن النفاذ إلى تدبر آيات الله في الكون، يقبل مشروع الله في خلقه، ويخرق الفتنة بنظر الإيمان، فتحل السكينة في قلبه. ويلفي نفسه قد سالم الناس جميعا، لا يكره إلا الظلم، ولا يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الله.

من شاء يبتهج بميلاد الإسلام فليسع جادا لجمع الطاقات المسلمة الذاهبة ضياعا في تيار التفجر الجاهلي، وتحويلها إرادة فاعلة واعية يدب هديها برفق إلى قلوب مريضة وعقول استعمرها الفكر السلبي العنيف. وهكذا نكون عاملين بعزمة الواجب لا بعقلية المطالبة، غير غائبين مع ذلك عن حقوقنا وعن ضرورة استرجاع المظالم من طغاة ماضي الفتنة ومن أعدائنا، حين تكون لنا قوة بالإسلام دين السلام والجهاد.

الخصلة التاسعة

الاقتصاد

الخصال العشر قوى روحية خلقية عملية يتحلى بها طالب الإيمان والإحسان، طالب السلوك، ليخرق حجب الأنانية والغفلة والعادة. وهي صفات معنوية في حوافزها تتجلى في العمل الجهادي إن تجمعت واتجهت نحو الهدف. أما إن تفرقت وانحبست في الاعتبارات الفردية فإنما تعطينا مسلمين فرديين لا يجمع سعيهم قضية يرومون التفاني في خدمتها. والمعنى الأول للاقتصاد هو استجماع القوى نحو القصد وتجديد القصد والسير إلى تحقيقه.

أما المعنى الثاني الذي يفسره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**الاقتصاد نصف المعيشة**» فهو راجع للأخذ بأسباب العيش بكيفية لا تضيع منا المقاصد والغايات التي خلقنا من أجلها، ألا وهي إقامة أمر الله وحكمه فينا، ثم حمل رسالته للخلق كافة.

كان من اقتصاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه وتابعيهم الصالحين الزهد في الدنيا والتحري في كسب الحلال، ونبذ التنعم، والاخشيشان لكيلا تلين الجسوم وتطيح العزائم. من

كان منهم رحمهم الله ورضي عنهم في بداوة حذر أن يستميله استروام الحضارة واسترخاؤها، من كان حاضرا تقلصت يده عن الرفاهية وأسبابها، يحفظ بذلك نفسه أن تتميع في الزينة ورغد العيش. وعرف الصوفية رضي الله عنهم بالاخشيشان والتمعدد كما يحبهما الفاروق عمر رضي الله عنه.

وإن زمننا هذا زمن الفتنة راجت فيه متنوعات الرفاهية والعبث، فتركبت عادة الشح وتلأنانية على أرض تتيح للهوى ملء حاجته الشهوانية، بل تتحداه بشهوات متجددة، فتخلف له حاجات لا تنتهي. ويتم الترف بين دواعي العادة في نفس الإنسان وبين عالم الصناعة والاستهلاك.

وفي دار الإسلام يكتسب الأمر معرة ثالثة هي أن ما نستهلكه لإرضاء شهواتنا، ونفتن به لأنه يعرض علينا فنتنافس في اقتنائه واستهلاكه، يصنعه لنا طلباؤنا الجاهليون، فيسْمَنون ونهْزل ويقوون من حيث نضعف.

وهكذا تكون لنا العادة المتأصلة في نفوسنا والبضاعة الفاتنة الممتصة لدمائنا عائقا عن المقصد والغاية، فلا نستطيع أن نتحرك إلا إلى حيث نوفر للعادة مرتعا جديدا يزيد من كسلنا وتبلدنا ووهننا. ولعل أحسن ما يصف هذه الحال تعريف رسول الله صلى الله عليه وسلم للوهن بأنه حب الحياة وكراهية الموت في الحديث

النبوي الذي أخبرنا به الرسول الكريم بأن الأمم ستأكلنا حين يعرونا الوهن.

لنحن اليوم أحرص الناس على حياة، على حياة كمية بدايتها ونهايتها في الاقتصاد، كما يسمي طلاب العادة وكهنتها هدف الثورة والاشتراكية القومية.

وفي السياق الإسلامي لا يكون الهدف الاقتصادي معنى الا مقرونا بمقصد القوة. الجاهليون تخللتنا عدواهم إذ ينظرون إلى الاقتصاد من زاوية مطلب الاستهلاك، ومع اقتصاد الاستهلاك يصنعون أسلحة ويعنفون ويدمرون ويتعدون ويظلمون. ذلك لأن الإنسان الجاهلي المفتون بمعامله ومشاكلها والضباب الخانق المسموم في مدنها يعيش في جو حرج يعشعش فيه الضغن والحقد والعنف، فلا يجد متنفسا للأفراد إلا في الإجرام وقطع الطريق، ولا يجد متنفسا للدولة إلا في تجييش الجيوش لغزو بلاد آمنة، أو تسليح خصوم من بلاد المتخلفين، يتفرج عليهم الجاهلي كأنهم ديكة تتناقش، ويستصفي هو من نتائج الحرب مركزا أو ذخيرة يرصدها لعراكه الكوني بين كبار الجاهلية.

اقتصادنا بناء من أجل القوة، ولا يكون قويا إلا من نشأة رجولية متمعددة مخشوشنة. وإذا كان الزهد عند أسلافنا الصالحين منحى فرديا وأسلوبا فرديا للعلاقة مع العالم المادي، فإن الإسلام

المنبعث يجب أن يكون له أسلوبه الجماعي في ذلك ونسميه تقللا.

الأهداف الإسلامية : يتوب المسلم من كذا إلى كذا، من معصية إلى طاعة ومن حالة إسلام جغرافي إلى حالة إسلام حقيقي، من إسلام فردي إلى إسلام جماعي ملتزم بأمر الإسلام. إذ التوبة رجوع من غي لصلاح.

وبما أن التوبة العامة بالمبايعة على الطاعة للقائد المجاهد هي الخطوة الأولى للانبعاث الإسلامي، فلا بد من النظر إلى العاوئق القائمة بين ضمير التائب وبين تحقيق المقصد من التوبة، وهو قيام الدولة الإسلامية. لقد جعلنا من المقاصد الإيمانية الجماعية الانفصال عن الجاهلية، عن أشكالها وسمتها وعن نظرتها للناس والعالم وهن عاداتها. وما دامت فينا هذه الشوائب المخزية المغرية بالفسوق والعصيان فإن التوبة والطاعة تتبخران سريعا في الوسط المفتون الماجن فلا نبلغ قصدا.

وهكذا يكون الاقتصاد القاصد شرطه الأول إزالة العوائق الموروثة من طريق التائبين.

إن هذه العوائق يمكن أن تصنف على ثلاثة أصناف ما منها إلا ما يُحول عن الهدف ويصد عن القضية الإسلامية.

أولهما : ضياع عامة المسلمين الفقراء الجاهلين بين المقاهي والملاهي والخبائث، لهم فيها عادات متأصلة وجذور، وهم فيها

وبالضعف الخلقي المتوالد فيها عرضة لدعايات الزعامات السياسية المسخرة للعقول والانفعلات. وهؤلاء ينبغي تحويلهم إلى المسجد وسمته ومجالس علمه وذكره، ببناء حيطان المسجد ومعناه بناء مجددا، مع القضاء على أسباب الخبائث. ونحول حيوية الشباب من النشاط المطلوق الجامح إلى ترويض العقل والجسم لنحقق هدف القوة في الأجسام كما نحققها في العقول وكما نحققها فيما تعطيه الجهود اليومية لأمة معبأة.

ثانيهما : حرفيتنا الثقافية وتبعيتنا الفكرية. المترفون من رجال الفكر أهم عائق في وجه الشباب عن القصد. هم الصادون عن الله وعن الصلاة. الملاحدة منهم والمفتونون يصرخون بأصوات محمومة مسمومة بشعارات جاهلية تحرض على العنف والتحلل الخلقي والنذالة السلوكية. وهؤلاء نحولهم إن لم يتوبوا لحقولنا المهجورة وغنمنا السائبة في بلاد الله يرعون بقرا ويعنفون على التراب ليتركونا نحقق مقصدا ما هو مقصدهم، تعزيرا وتربية لقوم فاسقين.

لكن لا يمكن أن نعوض فراغنا الثقافي بالحرفية الموروثة عن السلف على مدى التاريخ. إن علماءنا التقليدين محاضن لبذور الإيمان، إذا استثنينا ديدان القراء المتحذلقين الفاسقين. لكن تخصصهم يؤدي إلى حرفية ناقلة تستهلك كل قوى الفكر في

مجهود الذاكرة، تحفظ ما قال هذا وذاك على مر العصور وتتحمس لقضايا مزمنة ميتة بين مجتهد بال ومن تعقَّبه وانتقده. وكل هذا عائق لنا عن مقصدنا الثقافي وهو تلاوة القرآن وتدبره والغرف من معنيه. ليس في نيتي الاستهانة باجتهاد المجتهدين إن أخذنا منهم اللب بفكر نوره القرآن، تلاوته وتدبره، كما أمرنا الله، لا كما يزعم الزاعمون أن صوابه خطأ وأن خطأه كفر.

ألا يا قوم إن هذا القرآن ما أنزل ليحنط ولا ليؤول بل ليتلى ويتدبره كل مسلم فيخشع ويعظم ربه فيشفي القرآن علته لأنه شفاء ورحمة. وإن أوله الباطنية وعالج رموزه الصوفية، وتحجر على حرفية النقل آخرون فمقصد الإسلام المنبعث أن نتلو القرآن ونحتفل بخطاب ربنا ونعتز ونتباهى ونفرح.

ثالثها : التكاثر الربوي المستغل، هذا السم الذي لا يقوم آكله، ويتخبطه الشيطان فلا يصل إلى قصد. قال الله تعالى : **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾**.

نضع هنا مشكلة لعلها أهم المشاكل في بناء الإسلام على أنقاض الفتنة الجاهلية. إنها مشكلة بناء اقتصاد إسلامي بدل الاقتصاد الموروث الموبوء.

يكفي أن نقول هنا بأن مطلب اكتساب التكنولوجيا وتكييفها

لخدمة أهدافنا الإسلامية ومقاصدنا يتضمن اجتهاد خاصا لصياغة اقتصاد إسلامي، يكنس المستغلين الربويين، ويكنس الأثرة الربوية التي تتيح لذوي الكفاءات ما لا تتيح للمسكين. ودار الإسلام دار مساكين يقصدون قصدا ساميا متساوين متحابين متعاونين.

المقاصد الإيمانية : هل يكون القضاء على الخبائث وإقامة الإيمان وبعث المترفين الفكريين لرعي البهم ونبذ الربا كافيا لبناء الإسلام؟ إن كل ذلك يشبه أن يكون أعمالا سلبية، لأن ما تحب إزالته هو مضمون مجتمعنا المفتون. ولسنا نشك في أن تغيير العادات أشق من تحويل الجبال حتى في جو تعبئة جادة. وإن الحماس الذي يصحب عادة كل انطلاقة شعبية وراء وعد جديد لا يلبث أن يخمد منذ يتراءى للناس سوء النيات، ويطول الأمد فيرجع كل إلى عادته. وفرق ما بين الجهاد وبين سائر التحركات أن الجهاد بذل متواصل، بذل قاصد للجهد لا يني ولا يكل.

من بين الطاعة الشكلية للمترفين، يبايعون عليها يوم يقوم الإسلام كما يبايعون على صفقاتهم أيام الفتنة بنية متربصة وقصد نفعي وصولي، تبرز الهمم المؤمنة من فئات المساكين ومن فئات المتطهرين الصادقين من ترفهم. فأقل الناس ترفا وانهماكا في العادات المجتمعية يكونون أقرب الناس استجابة لجهادات جماعية. فمن تحركهم نحو المسجد وفي المسجد ومن مباهاتهم

بالقرآن واستقلالهم عن إغراء الدرهم والدينار يبزغ فجر الإسلام ينير الآفاق للفكر الإسلامي والعمل الإسلامي. ذلك إن أزيلت العراقيل من طريق الشباب المؤمن بيد السلطان، سلطان الإسلام المنبعث.

قالها مولانا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان أعلم الناس بالفتنة إذ خبرها من قريب وقتل شهيدا ضحية لها : «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

كانت أيامه رضي الله عنه أيام انحطاط من حياة الجماعة الإيمانية التي تربطها صلات الطاعة والنصيحة والمحبة بوازع القرآن. وأيامنا، يوم يقوم للأمر داعي الله، أيام رفعت من دركات الفتنة إلى مراتب الإيمان والإحسان، وعدا من الله مفعولا لهذه الأمة المستضعفة المستخلفة غدا.

الغايات الإحسانية : ما كان الإسلام الأول في عهد الرسول أولا ولا أخيرا، فقد خلت من قبله صلى الله عليه وسلم الرسل وكانت لهم أمم مسلمة قوية. تألقت الجماعة الأولى مع رسول الله في سماء الإنسانية كما يليق بأصحاب خاتم الرسل وجوهر الإنسانية. وستتألق هذه الأمة وتحقق القصد مرة أخرى كما يليق بنبوآته صلى الله عليه وسلم، إذ وعدنا بأن الله سيرفع عنا الفتنة، وأن ستكون خلافة على منهاج النبوة كما كانت أول مرة. فنحن

نقترب موعود الله وروسله.

لا يثبطنا عن هذا من يهذي بأن الجيل الأول فلتة من فلتات التاريخ. كيف ورسولنا الكريم كان يشتاق لإخوته الذين لم يرهم، يفضلهم على أصحابه ويعدل صلاة واحدة من صلوات إخوانه بخمسين صلاة من صلوات أصحابه ! ولا يثبطنا أنهم يرون ذلك بعيدا، لأن الله تعالى رب هذا الكون آخذ بناصية كل دابة يدحرجها سبحانه في هاوية الظلام إن عتت عن أمر ربها، ويمهد لها السبيل إلى الخير إن أطاعت أمره وأخلصت له القصد.

بوازعي السلطان والقرآن تزال العوائق ويؤسس الضمير النظيف والفكر النير بنور القرآن. والاقتصاد القاصد القوي يغنينا أولا عن بضاعة من يستبضعنا، ثم يقوينا حتى نتمثل أمة شاهدة على الناس حاملة للرسالة.

بوازعي السلطان والقرآن نرتفع إلى مصاف المسلمين الذين بلغوا القصد والغاية، لا يقف في وجه جهادنا فاجر إلا أارده الله. يقول الإمام البوصيري رحمه الله :

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم

وكان من كرامات بعض الأولياء أنهم يأخذون بأذن الأسد يسخرونه في أمرهم، ونحن الواقفين ببابه عز وجل الباكين من خشيته لن تنثني عن القصد ولن يخيفنا هوام الأرض المتأبية على

أمر الله المستأسدة وهي في معاني الجرذان. لكننا لا نعنف بل نرحم ونرثي للمفتونين من إخواننا المعوقين عن القصد، وندعوهم للمقصد العالي والغاية السامية، كما ندعو المساكين من إخواننا معشر المعتصمين بمن قال : «**اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرتني في زمرة المساكين**».

الخصلة العاشرة :

الجهاد

عندما تصدُق نية قائد مجاهد في دار الإسلام، تصدق على الجهاد لتحقيق أهداف الإسلام ومقاصد الإيمان وغايات الإحسان، فإن أس سلطانه ومشروعيته نفس خلوص نيته أن ينصره الله على نفسه وعلى الناس كافة. ثم يبني سلطانه على المبايعة العامة مع التوبة العامة. لكن هذا السلطان إن يلق حماسا من سواد الأمة يلق أيضا عتوا من جانب المترفين، وقد يطول الكيد من هؤلاء والتضليل والمراوغة إن لم يلتق السلطان بوازع القرآن. ومعنى هذا عمليا أن يجتمع على الأمر سلطان الدولة المجسد في شخص القائد المجاهد بوازع القرآن المجسد في رجال الدعوة الإسلامية.

هذا اللقاء هو ما نسميه بثنائية الدولة والدعوة.

كان من أنبياء الله ملوك أنبياء كداود وسليمان عليهما السلام، أما أمر هذه الأمة فقد قام بجهاد نبينا وصحبه، وكان جهاد دعوة ودعوة جهاد. يدور عمل المسلمين حول شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المؤيد بنور الوحي والهداية،

المنصورة ألويته في جلاد الكفار الباغين الظالمين الواقفين في وجه الدعوة. فهو كان عليه الصلاة والسلام داعيا إلى الله وقائد جهاد، يبايعه أصحابه على الإيمان بالله وعلى الطاعة الجهادية في نفس الوقت.

وكانت تنشب بين الصحابة خلافات في عهده تنظيمية من شؤون الأمن أو تنافسية من شؤون الجهاد الحربي فترجع الخلافات إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه الحكم الذي نصبه الله وحيا من عنده، فتنطفئ ويفيء الناس إلى رباطهم الجماعي، يخشعون إذا تليت عليهم آيات الله تأمرهم بالطاعة والاتباع.

كان القرآن ينزل طريا على قولب طرية، فما يفهمه المؤمنون إلا كتاب جهاد ونظام، فيبذلون الطاعة ويبذلون المال والنفس جهادا في سبيل الله. أليس الله القائل سبحانه : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ ؟

فما من مؤمن يحب أن يقعد عن الجهاد إلا منافق أو عاجز ويقرِّع القرآن القاعدين ويفضح المتلكئين، إلا النساء، بيعتهن لا تتضمن جهادا، ومع ذلك يتطوعن ويبذلن ويسعين في ساحات الوغى، بل ويذدن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاح.

وكان لا بد من خلاف بين المسلمين في زمن أبي بكر وعمر

رضي الله عنهما، لا يلبث أن يتبخر إذ يذكر المؤمنون بعضهم بعضا آيات الله وحديث نبيه. واستفحل الخلاف زمن سيدنا عثمان وآل الأمر إلى ما نعرفه من فتنة بعد ذلك، لأن القلوب قست لما طال عليها الأمد، فكانت صرخة عثمان رضي الله عنه بأن يقرن وازع السلطان بوازع القرآن.

طبع الله هذا الإنسان على المشاكسة والمجادلة : ﴿**وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**﴾ .لهذا جعل أمر المسلمين شورى بينهم، فتح لهم بذلك بابا للتراضي والجدال بغية المصالحة على منافعهم. وما استبد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر من أمورهم بل شاورهم كما شاورهم خلفاؤه الراشدون. فلما تحول الأمر ملكا عاضا برز وازع السطان يجسده سيف معاوية على رؤوس من أبوا البيعة ليزيد ابنه. وبدأ من ثَمَّ تدهور المسلمين وأنشبت الفتنة أنيابها فينا، ودالت دول، علماء المسلمين الصادقون فيها على هامش الأمر وفضلاؤهم.

جهاد القيادة الجهادية المستقبلية يهدف إلى نصب نظام يقوم على المواجهة المتناسقة غير المندمجة بين الدولة المنفذة والدعوة المربية المراقبة. وبما أن دار الإسلام اليوم تكاد تخلو من تنظيم مستقل للدعوة، فإن أول برهان للصدق سيطلب من علماء الأمة وفضلائها أن يستأنفوا جهادا أوقفهم عنه ظلام الفتنة وظلمها،

وإنما نعلم صدقهم إن قدموا على صدقهم برهانا فبلغوا كتاب ربهم وبينوه وقاموا بأعباء الدعوة متجردين عن الجاه الفاتن منذ العصر الثاني لعلماء هذه الأمة إلا المحسنين.

سيكون لزاما أن تخلق القيادة الجهادية دعوة ينهض بأعبائها كل متطوع قادر من المتقين، ويكون دور رجال الدعوة حاسما في قيام الإسلام إن تعلموا كيف يصبحون ربانيين، أي رفيقين غير مستغلين، يصعدون من سماقة العظمة العلمية المزيفة إلى مقام المسكنة مع المساكين، حيث أحب رسول الله أن يكون فدعا ربه.

وعلى جهاد الدعاة المتطوعين تهيء الدعوة المنظمة.

الأهداف الإسلامية : على عامة المسلمين السمع والطاعة، يبايعون على ذلك حين يتوبون مع سائر الأمة توبة مجددة تتماسك فيها الأيدي والذمم المسلمة لتنهض الأمة من كبوتها. ولن يترك أمر الطاعة شيئا مقضيا بل يطالب المسلمون بعضهم بعضا، ويطالب القائد المجاهد الكل ببرهان الصدق لما بايعوه عليه، كما يطالبونه هم بالوفاء لما بايعهم عليه، في كل يوم وفي كل لحظة، جهادا متواصلا يقظا.

إنها قضية الإسلام، قضية حياة أمر الله الذي أؤتمنا عليه، وهي في نفس الوقت قضية حياة أو موت بالنسبة لأمل المسلمين والإنسانية كافة. وهذا ما نسميه جهاد الطاعة.

في أي مجال يجاهد عامة المسلمين مطيعين خلف القيادة الجهادية ؟ إن أغلبية الناس لا يرون أن ثم جهاد لازما ولا ممكنا إلا في الحروب بين المسلمين والكافرين، ويبترون بذلك معنى الجهاد حتى يصبح عندهم لقاء في يوم أو أيام بين جيشين. ولقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد الأكبر الدائم الذي يستغرق كل جهد وكل مال : ألا وهو جهاد البناء.

وبما أن واجهتنا الداخلية خربة، فإن جهادنا سينصرف قبل كل اعتبار لبناء كيان الأمة إعدادا للقوة، وإلا فمن نقاتل وعلام نقاتل ؟ إن الحمية القومية لن تحرر أرضنا ولن تهزم عدونا، وإنما يفعل ذلك جهاد المؤمنين. فلنبنِ أمة مؤمنة يخرجْنا الله من صف المستضعفين في الأرض.

إن إعلان الإسلام في دار الإسلام منهاجا للعمل والفكر والتنظيم معناه فتح باب الرجولة الحقيقية على مصراعيه للإرادة العامة في ظل الطاعة العامة سنكون محط أنظار العالم وسيتربص بنا العدو وسيقل الصديق، ونحن يومئذ في رأي العين «أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام».

قالها مجاهد في سبيل الله هو طارق بن زياد فاتح الأندلس قالها بعد أن حرق السفن على ما يقال، وحرض المسلمين على القتال، فآزرهم الله ونصرهم لما صبروا. وهكذا يكون المجاهدون في

كل موقف عبر الأزمان، يراهم الجاهلي في ضياع لا يبصر يد الله المؤيدة المناصرة للصابرين.

إن أصحاب الثورة يبدأون عملهم الثوري الهادف لتعبئة الإنسان بنزع الملكية من الإنسان حتى لا تعوقه عن العمل من أجل المساواة والقوة. والإسلام يفعل خيرا من هذا وأبقى، لأنه ينزع الإنسان من الملكية ويحرره بذلك تحررا نهائيا. أما من نزعنا منه الملكية فما نزعنا من قلبه حبها، وما نزعناها منه إلا لنعطيها غيره، حتى ولو كان الغير متسترا خلف اشتراكية البيروقراطية ورأسمالية الدولة.

صبْر عامة المسلمين في الجهاد البناء أن يتجردوا ويبذلوا ويصبروا على القلة الضرورية للبناء، وينبذوا بيد واحدة عادات الترف والاسترخاء، ويستبدلوا جميعا أثاث البذخ بخيمة الجهاد كما يفعل القائد المجاهد، ويستبدلون طعام الدعة بطعام الاخشيشيان، ويتقمصوا جميعا معاني الجندية في كل يوم وفي كل لحظة طاعة وتطوعا.

المقاصد الإيمانية : إن أشد أزمة في بلادنا الإسلامية هي أزمة الثقة، لطالما عبث المترفون بالذمة والعهد، ولطالما كذبوا على الناس حتى لا يثق أحد بترهات الزعامات. والأمر على مثال ذلك بين المسلمين في السوق والعمل والمدرسة. ولا جهاد إلا بصدق

ولا معنى للجهاد إن لم يثق بعضنا ببعض آمنا أن يؤتى من جانب أخيه.

لا نعتمد على الهزة العاطفية التي تهز قلوب القريبين من الفطرة غداة إعلان الإسلام، لأن الهزات العاطفية سرعان ما تذهب، لكن يكون برهان الصدق أسا للتعامل والتعاقد، وكما يعطي عامة المسلمين برهان صدق الطاعة، ننتظر من النخبة الإيمانية الإحسانية برهان الصدق على التطوع. ويتبع كل كلمة انتظار للعمل، ويتبع كل وعد انتظار للوفاء، وهذا هو المضمون العملي للنصيحة، والنصيحة وظيفة الدعوة من لدن البداية إلى إن تتخذ صبغتها الدائمة أمانة في يد الدعوة المنظمة. وسنفسر كل هذا فيما يلي من الفصول.

لا يغبْ عنا حين نقول «عامة المسلمين» أن ما نقصده ليس ما تذهب إليه العقول التي ألفت أن تقرن اللفظة بالمحرومين. وقد أشرنا أن الأقربين للإيمان، ومن ثم للجهاد، هم المحرومون المساكين ومن في معناهم. ثم إن باب التوبة مفتوح ولا حاجز بين أحد وبين مرتبة الإيمان إلا شح نفسه وعاداته، إن اقتحمها وأعطانا برهان الصدق كل صباح وكل مساء عددناه في ولايتنا ونصيحتنا.

الجهاد لا بد له من آلات، فالإنسان ذو الذمة الذي يغضب لله ورسوله ويخلص لله ورسوله وينضوي مطيعا متطوعا تحت لواء

الإسلام هو الآلة المحورية للجهاد الإسلامي. إنه المسلم المعبأ المرابط في الرباط. وإن في دار الإسلام جيوشا منظمة تنظيما جاهليا، في قاعدتها المساكين من هذه الأمة أميون محرومون تطؤهم أقدام طبقة مترفة. ولا يزال جيشنا في عامته مخشوشنا مسترجلا، فإذا أعطانا الضابط برهان صدقه بأن يدخل في الصف ويلبس الخشن ويقاسم مساكين رعيته عيشهم تألف لنا مجاهدون خليقون أن يثبوا لميدان الجهاد خفافا يوم يرفع اللواء الإسلامي. ولعل جيشنا هذا، بعد أن نلغي منه الطبقية، كما تلغى بين القائد المجاهد ورجل الشارع، يكون نواة التعبئة وآلتها طائعا متطوعا.

وآلة الجهاد الفكري عقول تائبة راجعة إلى ربها من الترف والبهتان، تتلو القرآن وتروض الفقه التكنولوجي على صراط الفقه المنهاجي. لكن الضمائرخبايا لا سبيل للاطلاع عليها إلا بالعمل، فمن أطاع وتطوع من رجال الفكر وأعطى برهان الصدق متجردا مؤثرا على نفسه كان أجدر بالقيادة وأحق بها وأهلها، ومن راوغ فإن لنا أرضا قاحلة هي بحاجة لمن يحرثها ليأكل ونأكل، وينحط إلى مرتبة الطاعة بين يدي مساكين الأمة يربونه كما يفعل أصحاب الثورة الثقافية بالصين.

وأصحاب المال لا ننزع منهم أموالهم، بل ننتظر منهم أن يصحبوا الأمة ويغلبوا طاغوت العادة فيخدموا ما لديهم من مال

ويستثمروه متقللين سائرين في خط العمل الإسلامي وتخطيطه، طائعين. متطوعين. ومن سائر الأمة تأتي الأموال مبذولة مبتذلة تطوعا وطاعة، من أمة قلت حاجاتها إذا نبذت الجاهلية وعادات الجاهلية، وتعبت ونصبت راغبة لربها تنتج الخير وتفيض الخير بما أفاض الله من بركاته على من سيقوم ليقول في العالم ربي الله.

الغايات الإحسانية : أهم جهاز من أجهزة الجهاد هو جهاز المواصلات. في المجتمعات الراكدة تكثر الوساطات بين الحاكم والمحكوم، حتى إن هذه الوساطات توشك أن توقف الحركة لأنها بطيئة ثقيلة. وجماعة الجهاد الإسلامي تأتي فاعليتها من سرعة التواصل بين القيادة والقاعدة، ومن عمق هذا التواصل وتكراره ودوامه. الجيش المعبأ الأقوى هو ذلك الذي يتوسطه قائده يخاطب كل فرقة وكل جندي ويوحي إليهم، بمثالة وخطابه وحيويته وإرادته وتحفزه وتحركه، إرادة وحيوية وحركية وإيمان.

وهذا مثل الجماعة المؤمنة المجاهدة يتوسطها القائد المجاهد باذلا المال والنفس، من أراده فلن يبحث عنه في السراداقات والقصور المشيدة بين الحجاب «والأحباب» أو بين الدن والعود، بل سيجده في خيمة الجهاد مع الأمة، يسمعها وتسمعه، يجالسها ويواسيها، تدخل عليه العجوز والطفل كما يدخل عليه الوزير الخطير. وبهذا يلغى طاغوت الاستعلاء حين يكون رمز الطاعة

والولاء، الذي بيده زمام الأمر كله، على مقربة من الأمة جمعاء بجسمه ولسانه، وبتقلله ومسكنته وبقلبه ومحبته وعبوديته لله، وبعزمه وقوته، يأمن عنده الخائف ويقوى الضعيف ويضعف القوي المستكبر.

صنعت لنا الحضارة آلات للاتصال كثيرة أهمها وسائل الإعلام من هاتف وإذاعة وتلفاز وصحافة وأقمار صناعية. وسخرت كل هذه وشحنت برسائل العنف الجاهلي والتهافت الجاهلي.

ولهي في بلادنا أحق أن يبدأ بتطهيرها وتصفيتها لتصبح آلة جهاد تحرض الأمة على الصبر وتنفتح للنصيحة والتواصي بالحق والمرحمة. تنطق من إذاعاتنا وفي صحافتنا ألسنة أجيرة تموه الحق بالباطل وتكتم الحق، وفي أحضان الإسلام ينبغي أن تصبح أدوات الإعلام منابر للتطوع بالنصيحة، يغشاها المحسنون الصالحون يعلمون الناس دينهم ويعلمونهم أمر دنياهم، ويعلو منها صوت الإسلام يبشر العالم بالسلام.

كل هذا يقرأه القاعد الكدر القلب، فيحكم أننا نسبح في لجة الخيال، ويرمي كل هذا على أنه من قبيل المستحيل. ومن كان مجال عمله وأحلامه دنيا الممكن المتاح فإنى له أن يقتحم العقبة، لا أن يصف لأمة مضطربة منهاج اقتحامها. ونحيل القاعدين على المنهاج النبوي ينقلهم عبر الصحبة لأولياء الله لمقام الجهاد.

لقد برهن تاريخ هذه الأمة أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حق يتجدد لنا وعده ووعد ربنا. قال صلى الله عليه وسلم : «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[1]. فإن جئت تطلب لهذا الحديث تأويلا فاحكم أن رأس العصر وشرفه يتشخص في القائد المجدد، وإن تلقيت وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بنظرة فطرية فسترى أن قد آن الأوان وأن قد غرب القرن الرابع عشر ليشرق الخامس عشر بنور ربه.

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق ربنا، فإذا الأمة بعث الله أليها بعد الطاغوت الأموي بالمنهاج النبوي على المنهاج النبوي منهاج الصحبة والجهاد سيدنا عمر بن عبد العزيز. عاشر أولياء الله فتولاه الله وجعله أداة لقدره وتحقيق وعده ووعد رسوله. وظهر للمسلمين صلاح الدين تلميذ الأولياء الصالحين، وظهر لهم ولي الله تعالى سيدي يوسف بن تاشفين ربيب الرباط الصوفي، وظهر لهم ولي الله تعالى سيدي محمد الفاتح العثماني مريد الشيخ آق شمس الدين فتح الله به بلاد الكفر وعدا من رسول الله مكتوبا. وظهر في هذه الأمة ولي الله تعالى الملك الصالح «أورنك زيب» ربيب زواية الشيخ السرهندي. وظهر في هذه

1 رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة والحاكم والبيهقي.

الأمة علماء عاملون ومشايخ داعون إلى الله يجددون أمر هذه الأمة ويصححون عقيدتها.

ألا إن الله أولياء ما فتئ يصطفيهم ويأذن لهم في الدعوة إليه فإنه عز وجل لا يشفع عنده إلا بإذنه، وإن هذه الأمة ما عقمت أن تلد لنا قائدا مجاهدا يؤم صلاتنا وجهادنا فيكون قبلة الأنظار والأفئدة يرفع لنا اللواء، ونؤمن بربنا وموعوده فتفتح لنا أبواب السماء. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

الفصل الثاني

النموذج الخالد

المسلمون والتاريخ

بم تحدثنا فلسفة التاريخ وبم تنبئ فيما يخص مصير الإنسان ؟ تباينت الأنظار كلما تدبر الإنسان ماضي الإنسانية ومستقبلها ليستخرج من دروس التاريخ حكمة تنير عمله الحاضر. يموت الناس ويخلفون صدى أعمالهم ونتائج إرادتهم وعزمهم وسعيهم على الأرض. فيرى العقل الفطري في تاريخ البشر دورات تكاثرية تعكس على خطها الصاعد الهابط جشع الإنسان وقتاله إخوته من أجل السلطان والمال والجاه والمتاع. إنهم أعراب ابن خلدون أو «البرلتاريا الخارجية» عند طوينبي أو «المحرومون الهامشيون» عند ماركوز. هؤلاء الغلاظ يطلبون رخاء يستأثر به أهل الحضارة والنعيم، ويطلبون رغدا تتيحه أرض أهل الحضارة . وتنشأ المنافسة وينتهي الطلاب إلى مداه. وهكذا تأتي دول وتدول.

ومن الطلاب ما يرتكز على عقيدة أو إديولوجية يمتاز بحيوية الانطلاق لكنه لا تفلته دواعي الترف، فيطَّرد ضعف الأجيال وتتخنس الإرادة بفاعل الدعة، ويطول الأمد وتقسو القلوب.

إن تاريخ الإسلام مرآة لتذبذب الإنسان وضعفه، رغم قوة العقيدة المؤسسة، أمام الفتنة، فتنة المال والجاه والقوة المركبات للحضارة التي أهلكت وتهلك الإنسان، لأنه لا يفهم الحضارة ولا

يبغيها إلا رقة في العيش ورفاها.

ويختلف المسلمون في النظر إلى تاريخهم اختلافا كثيرا، الخلي منهم يفخر بالأمجاد الحضارية، إما في سياق قومي يدعم بذلك تعصبا حاضرا، وإما في سياق عقدي يبرر به ضعف الحاضر ووهن الجيل ويتسلى بالذكريات.

ومن رجال الدعوة من يوصي ألا يمس تاريخ المسلمين بسوء مخافة أن تفقد الأجيال الطالعة مرتكزا للشعور بالانتماء لجانب عزيز.

وأظن أن من أسباب عدم جدوانا أننا لا نتبين تاريخنا ولا نقرأه إلا بمنظار الإعجاب، وكأنه شيء تام متكامل يحمل في طياته العناصر السحرية التي خلقت الحضارة البراقة القوية.

لا شك أن تاريخنا يتحمل مقارنة مشرفة جدا مع تاريخ الأمم فلقد غلبنا وسدنا، ولقد كنا علماء الدنيا ومعلمي أوربا، ولقد كنا أرق الناس حسا وأرهفهم وجدانا وأرغدهم عيشا، كل ذلك ومزيد. لكن هل يصلنا هذا كله بتاريخنا الحقيقي، تاريخ الإسلام ؟ هل منعنا ذلك كله من أن تطوينا الدورة الجهنمية، دورة التكاثر، بين عجلاتها ؟ ألم نكن أيضا أكثر خلافا وفرقة، وأكثر افتتانا بتأسيس الإمارات ؟ هل يغطي مجدنا الدنيوي هذا الاعتبار الوحيد أن الإسلام الذي هو دين الله ومنهاجه لكمال الإنسان إنما عاش مرهقا منزويا تحت ظل الحضارة العظيمة ؟ أكان

المسلمون في كل فترات تاريخهم يعملون لدعوتهم وإسلامهم أم لنخوتهم وسلطان دلوتهم ؟ إن لم يكن هذا حقا فلم قتل بعضنا بعضا على مر التاريخ ويقتل ؟ أم ما هي هذه الرقعة الجغرافية المبرقعة التي هي اليوم دار الإسلام إن لم يكن اختلاف ألوانها على الخرائط رسالة تارخية لدول دالت بعد أن فرقت وسفكت الدماء. ثم إن هذه الخلافات المذهبية العديدة ما هي إلا نتاج فتنة بكرت في الظهور من لدن خلافة مولانا عثمان رضي الله عنه.

إن اتصالنا بتاريخنا الحق هو وحده الكفيل بأن يجعل لنا توترا خلاقا متحررا نحو المستقبل. إن تاريخنا الحق هو تاريخ الدعوة الإسلامية، تاريخ تحكم المسلم في التاريخ واستعلائه على الفتنة وعزته بربه. إن هذا التاريخ الحضاري الماجد عبء حملناه ونحمله يزيدنا قماءة في نظر أنفسنا كما يزيدنا قزامة ما نراه من تفوق الحضارة الجاهلية المعاصرة. هذا هرون الرشيد يخاطب السحابة ويتحف شرلمان الهمجي الأوربي بساعة متحركة أبدعتها الأيدي المتحضرة والعقول العالمة. وهذه حضارة الأندلس المتألقة المزرية بالدنيا جمالا وبهجة وحضارة وعلما. وإنما يتحول العبء التاريخي حافزا للتعبئة إن تخطينا المظاهر الحضارية نتركها للذرية الناشئة تباهي بها الناس، ونتعمق نحن في تاريخنا الحق نستوحي منه معيارا إنسانيا للعمل الإيماني الإرادي القوي.

ليكن لنا اتجاه معياري في عملنا على غرار العمل الأول في عهد الصحابة الكرام الذين خلقوا لنا نموذجا خالدا نتمرس به ونحذو حذوه، ثم ليكن لنا من تاريخنا الحضاري، تاريخ الفتنة، درس نتدبره.

إن الذي أردى المسلمين وفرقهم شعوبا بعد أن كانوا أمة واحدة هو نفس العامل الذي أسس الحضارة الباهرة، وإنه إن سرنا في خط النظام السياسي الذي ورثناه، فإنما نسير إلى حيث سارت الأندلس، وإلى حيث سارت وحدة باكستان. لابد أن نغير ما بأنفسنا لنكتسب فاعلية جديدة وقوة، لأن الله جل ذكره لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ثم أليس نعتز بما صرنا إليه، أليست فلسطين مهدا لأنبياء أرض الإسلام عبرة لنا؟ وإذا كانت مهانة الجبناء تزداد نكُرا بعزة المكان والزمان الذي يهانون فيه، فما أمة كانت أهون منا وأجبن، لأن مسرح فضيحتنا كان على أعز أرض من دار الإسلام وفي زمن الناس فيه أقوياء أعزاء وعدونا بعد ذلك أحقر عدو وأنجسه لو كنا نستطيع قياما!

نظرات عابرة في صفحات تاريخ الإسلام تبصرنا بمواقع الفتنة وتبصرنا حيث تعشش الأنانية والترف والغفلة عن الله من هذه الضمائر التي لا بد لنا من تغييرها حتى يغير الله ما بنا.

الفتنة : بدأت فتنة المسلمين في الوقت الذي بلغت فيه

فتوحاتهم مداها. تفرق الناس في الأقطار، قلة مؤمنة في أكثرية جاهلية. ضعفت أواصر الجماعة المؤمنة بتباعد الجسوم فأصبحت الأنفس أقل قدرة على مقاومة فتنة الدنيا الزاهية المتزينة. واجتمع في المساجد، حيث كانت تستقر النصيحة بين المؤمنين والتواصي بالحق والصبر، فلول من طلاب الدنيا حديثو عهد بالإسلام. وما أمكن لهذه الأعداد الهائلة أن تندمج في الجماعة وما نالها من تربية العلماء العاملين إلا قليل. وعم البلاء شيئا فشيئا وأنكر المؤمنون وجه الجاهلية المطل لأنهم عرفوه، أما من نشأ في الفتنة فقد انضوى تحت لواء الغالبين وله من إسلامه ما تتيحه له الصحبة للصادقين وما يحضنه الإسلام الرسمي للدولة من مظاهر إسلامية وراءها العصبية ضد الموالي أو ضد المنافس على السلطان.

وكانت الفتنة أكثر ضراوة على آل البيت المطهرين الذين أوصانا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أوصانا بالتزام كتاب الله وسنة رسوله ومنهم سلمان الفارسي ومنهم كل تقي نقي من أولياء هذه الأمة.

وخير وصف للفتنة تركه لنا قلب مؤمن طاهر نجده في خطب الإمام علي كرم الله وجهه، ونجد مع ذلك مبارزة بين الحق والباطل، ونجد نموذجا ساطعا للقائد المجاهد في زمن الفتنة حين كان الأمر آئلا إلى فساد. وهو نموذج يحق أن نتدبره ونحبه ونتشرب معانيه

عسى أن تنبعث فينا إرادة جهادية حين ينطلق الإسلام انطلاقته غدا والأمر إلى صلاح بإذن الله.

خطب مولانا علي حين بايعوه قال: «لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحدا. إني أريدكم لله وتريدونني لأنفسكم. أيها الناس، أعينوني على أنفسكم، وايم الله لأنصفن المظلوم من ظلمه ولأقودن الظالم بخزامته، حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها»[1].

هذه النية الجهادية ما لبث أن غمرتها لجة من الأهوال احمرت فيها الحدق غيظا للأخ على أخيه لا غضبا لله ورسوله. ويكتب الإمام إلى معاوية يقول : «إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار»[2]

ويعظ الإمام الطاهر خصمه إذ لم يُجد البلاغ، يقول : «وكيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها وخدعت بلذتها. دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها. وإنه ليوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مِجَنٌّ. فاقعس عن هذا الأمر وخذ أهبة الحساب،

1 نهج البلاغة (2) ص 19.
2 نفس المصدر (3) ص 7.

وشمر لما قد نزل بك، ولا تمكن الغواة من سمعك. وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك، فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم»[1].

وصف لنا الإمام عوامل الترف وذكر بالله واليوم الآخر، لكن خصمه ما قعس عن مطلبه. وجهر السيف بعد أن أعيت المواعظ وكانت الملاحم المؤلمة آخر قتال بين المسلمين يسبقها وعظ من هذا القبس النبوي، وتلتها مجازر لا يزال صداها يقعقع في ضمير هذه الأمة.

أما وعظ الباغين فقام به بعد الإمام المطهر علماء هذه الأمة العاملون. ما منهم إلا من خبر الفتنة بما معه من معيار الإيمان يعيشه في قلبه خاليا في زاوية، زاهدا في الناس وفيما يخوض فيه الناس.

كلمة حق عند سلطان جائر : أصبحت القاعدة في تاريخ الفتنة الطويل ألا يكون السلطان إلا جائرا، واتيحت الفرصة لعلماء هذه الأمة ممن يطلبون الشهادة أن يبرزوا للطاغوت يلقون إليه كلمة الحق كما أمر الرسول الكريم. هذا أبو حازم الزاهد التابعي الجليل يدعوه سليمان بن عبد الملك لما زار المدينة : قال سليمان : يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت ؟ قال أبو حازم : لأنكم

1 نفس المصدر (3) ص 8.

أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران للخراب ! قال سليمان : أصبت يا أبا حازم، فكيف القدوم غدا على الله تعالى ؟ قال أبو حازم : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان وقال : ليت شعري ! ما لنا عند الله !... قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه؟ ... قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا مقتلة عظيمة، حتى ارتحلوا عنها، فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم ! فقال رجل من جلساء الملك : بئس ما قلت يا أبا حازم ! قال أبو حازم : كذبت ! إن الله أخذ ميثاق العلماء ليُبيِنُنه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان : فكيف لنا أن نصلح ؟ قال أبو حازم : تدعون الصلف وتمسكون بالمروؤة، وتقسمون بالسوية ...»[1]

كان سليمان يبكي وكأين منهم فتك بالواعظ وعذبه كما فعل المأمون بالإمام أحمد وكما فعل قبله المنصور بالإمام مالك.

وما يدل العلماء أهل الجور إلا على المنهاج النبوي الذي يقتضي طرح الكبرياء والأنانية ومعاودة الجماعة وشورى المسلمين.

الإسلام المفترى عليه : قاومت العقيدة الإسلامية عوامل

1 من خبر رواه الدارامي في مسنده.

الفتنة، فكان من يحمل السلاح في وجه أخيه ويسفك الدماء علوا في الأرض واستعلاء هو نفسه ذلك الذي يخاطب المسلمين مسخرا خوفهم من عقاب الله ورعاية حقوقه لكي يرضخوا لإرادته. نموذج لذلك عهد المنصور العباسي لابن هبيرة بعد معارك طحنت المسلمين طحنا، والعهد على لسان السفاح أخي المنصور ووكيله في الصلح : «... وأن عبد الله بن محمد إن نقض ما جعل لكم في أمانكم هذا فنكث أو غدر بكم، أو خالف إلى أمر تكرهه أو تابع على خلافه أحدا من المخلوقين في سر أو علانية، أو أضمر لك في نفسه غير ما ظهر لك، أو أدخل عليك شيئا في أمانه وما ذكر من تسليم أمير المؤمنين (يعني أخاه المنصور) التماس الخديعة والمكر بك وإدخال المكروه عليك، أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء عليه، فلا قبل الله منه صرفا ولا عدلا وهو بريء من محمد بن علي وهو يخلع أمير المؤمنين ويتبرأ من طاعته، وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذي هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذي بمكة حافيا راجلا، وكل مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حجة بشراء أو هبة أحرار لوجه الله. وكل امرأة له طالق، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أومتاع أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه، والله عليه فيما وكد وجعل على

نفسه في هذه الأيمان راع وكفيل، وكفى بالله شهيدا.»[1]

هكذا تصنع الذمم في زمن الفتنة، بالأيمان المغلظة لترتبط طاعة المسخرين بالتهويل الذي تنفطر له أكباد المؤمنين. ومن يدري فلعل السفاح كان في عهده صادقا، وإذا فما هو الإسلام في نظره ؟ وإن تاريخه الأحمر المقبل ليلقي الضوء على هذه الوثيقة العجيبة فيزيدنا شكا وعجبا، ويحملنا على معاودة قراءة تاريخنا تاريخ الفتنة التي ذهبت بالذمم والدماء والشهامة الأولى.

ثم ما هذا التناقض الفاضح بين الإسلام الرسمي للدولة الثري بمواكبه ومجالس العلم أمام الخليفة وبين مجالس الشراب والدعارة يهتك فيها الجائر حرمات الله وأعراض الناس، لا نجد اسما لهذا إلا الترف الآسر في الجاه والمال لا يتبين السكران معهما إلا ذكرى هامشية حين يحلف بجده وحياة رأسه.

المترفون : مفتونون هم زعماء القوميات في تاريخنا كفتنة زعمائنا المعاصرين، وقد يبدو شاحبا بذخ المأمون أمام بذخ من تبعوه من أكاسرة مسلمين إلى يومنا هذا.

يقول ابن خلكان يصف زواج المأمون ببوارن :

«تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار،

1 الإمامة والسياسة لابن قتيبة (2) ص 165.

وكان ذلك بفم الصلح. وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك : فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها، فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها له ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرسا أو جارية أو مملوكا. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه — وكانوا خلقا لا يحصى- حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره. فلم يكن في العسكر من يشتري شيئا لنفسه ولا لدوابه».[1]

لا جرم أن ما بني على العصبية الجاهلية لن يبلغ خيرا من هذا. وقد يُسَمِّي البُله أو ديدان القراء هذا كرما وغنى ويسرا تمتع به خليفة الله في الأرض.

أرادهم الإمام علي لله حين بايعوه، وخلف من بعده خلف أرادوها جاهلية فهي لا تزال جاهلية منذ أسسوها، وسيرفعها الله عز وجل ويستخلف في الأرض رجالا آمنوا به وبموعده. يقول محمد كرد علي[2] : « وكان إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم

1 نقلا عن كتاب أبي الحسن الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ص 82 وما يليها.
2 الإسلام والحضارة العربية (2) ص 419 الطبعة الثالثة.

باليمانيين أن يقتل من يشك فيه من مضر، وإن استطاع ألا يدع بخراسان من يتكلم بالعربية فليفعل، وأي غلام بلغ خمسة أشبار يتهمه فليقتله، فأنفذ أبو مسلم ما أمر به، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار بخراسان، واستثمر ما كان من الشنآن بين النزارية واليمانية، وتحزب الناس بالمثالب».

أليس هذا وصفا لقوميات زماننا المتعصبة المتآكلة ؟ ألا إنه لا مندوحة لنا عن الخلود في الفتنة أو نتبع قرآن ربنا نستلهمه الهدي ونستهلمه الوجهة والمعيار. فإن في كتاب الله وحده سر التاريخ وسر الخلق وسر الغاية. إن في سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه الأسوة الحسنة والنموذج الخالد.

موكب النبوءة

على مر التاريخ يطول الأمد على الناس فيعرضون عن الفطرة ويعرضون عن إقامة الوجه لله ابتغاء مرضاته وسعيا لتحقيق قابلياتهم للكمال الإنساني.

جاءتهم الرسل تنبئهم أن هذا العالم إنما خلقه الله لخدمتهم وأنهم المقصودون من الخلق وأن اكتمالهم الروحي هو الغاية من التاريخ، من سعي الإنسان على الأرض. لكن بني آدم ينسون منبتهم وينسلون مما يوصي به الرسل والأنبياء قومهم فيفتنون ويترفون ويبنون الحضارات ويغفلون عن ربهم.

نجد في القرآن حدبا على هذا الإنسان الغافل عن ربه المتجمج في قراه المتحضرة، لا يسألهم الله إلا العدل وينذرهم على لسان أنبيائه ألا يظلموا ويبشرهم بالخيرات وحسن المصير إن آمنوا. قال تعالى :﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾. وقال عز وجل من قائل : ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾.

يخلق الله الأجيال فتكذب رسله وتستكبر بما جمعت في قراها، فيأخذها الله جل ذكره ويهلكها ويقصمها بعد أن يعيث المترفون

فيها فسادا. قال عزوجل : ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾. وقال : ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ**﴾. وقال : ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا**﴾.

ذلك هو التاريخ الحق للإنسانية : إن الله خلق آدم أبانا وجعل منه ومن ذريته في كل جيل أنبياء مبشرين ومنذرين ﴿**وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾. غاية الخلق كله. أن يقوم الإنسان بالقسط أي بالعدل والتوازن لا يميل مع ما يترفه ويرديه، بل يقتحم العقبة دائما ليلقى ربه وهو عنه راض. فإذا استكبر الإنسان بحضارته وبأسه وابتعد عن موقف الفطرة من حيث يخشى ربه ويعبده وينشد عنده الرحمة والنور والمغفرة أهلكه الله. وسواء كان استكباره على قاعدة اقتصاد بدائي أو قاعدة اقتصاد معقلن فإن بأس الله لا يفلت القوم المجرمين.

المنهاج النبوي : مر موكب الأنبياء عليهم السلام تحذوه هذه النورانية التي تصحب المؤيدين المحبوبين أولياء الله المصطفين من خلقه. وما منهم إلا من دعا قومه ليقتحموا العقبة، وما منهم إلا من كذبوه وعصوا أمره ﴿**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾. أما الأقوام الآخرون فهلكوا وأخزاهم الله.

دعا سيدنا نوح قومه أن يتقوا الله، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فما آمن معه إلا قليل. ولينتحر هنا منطق المؤرخ العقلاني حين ابتعد عن الفطرة وجهل أن الله الفاطر القادر أخبرنا بالحق. فلا يهتدي الجاهلي ولا المفتون إلى الإيمان بالألف سنة وتتبعثر بحوثه محاولا تفسير الطوفان والسفينة. والمؤمن يسمع آيات ربه ويتدبرها، فإنه عز وجل ما جعل لنا التاريخ وقص علينا منه أحسن القصص إلا لنتدبر الآيات. قال عز وجل من قائل : ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً**﴾.

وكذبت عاد المرسلين، وأعرضت عن نبي الله ورسوله سيدنا هود لما دعاها لتقتحم عقبة الكبرياء والاستعلاء على الله ورسله بالبناء الحضاري الشاهق العابث تتبعه الغطرسة والتجبر. قال تعالى : ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً**﴾ ونحن بآيات ربنا نصدق.

وجاء سيدنا صالح قومه يدعوهم أن يطيعوه ولا يغتروا بالبيوت التي ينحتونها طلبا للخلود فرهين مترفين يطيعون المسرفين. وجاء لوط قومه يدعوهم ليكفوا عن الفسق. وسيدنا شعيب دعا قومه ليعدلوا في معاملاتهم ويقتحموا عقبة الأثرة والشح. وسائر الرسل دعوا قومهم دعوة واحدة أمناء على رسالات ربهم صابرين على أدائها. نجا معهم من آمن وعمل صالحا ودمر الله الكافرين.

كان الرسول بشرا من إخوة المنذَرين، فيحتقرون أخاهم ويطغون عليه. وتبهرهم نورانيته ونورانية أصحابه فيقولون : ساحر أو مجنون. قال الله تعالى : ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾ .

وكل نبي يدعو قومه أن يؤمنوا بالغيب ويعصوا أمر المسرفين. وإنما جعل الله الهداية باتباع المرسل النبي وبالإيمان بالغيب. قال الله عز وجل : ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾.

فمن اقتحم العقبة مع الرسول النبي فتح الله مغالق قلبه ووهبه زيادة على النجاة من البأس الإلهي طمأنينة ونورا. قال تعالى : ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ وقال : ﴿**فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾.

بالإسلام جاء الأنبياء عليهم السلام من لدن آدم، فمنهم النبي المرسل يستقل برسالته وشرعه، ومنهم النبي المجدد لدين رسول سبقه. ولهذه الأمة مجددون كما جاء في الحديث، ليسوا أنبياء لأن النبوءة ختمت برسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن

أولياء صادقون علماء عاملون ورثة لرسول الله .

وهكذا يتكون الموكب النبوي حاملا الخير والهداية قائما بأمر الله على صراط مستقيم. فإذا قلنا : «المنهاج النبوي» فإنما نقصد هذا الصراط السوي الذي يمر عليه الموكب الفخم الأغر الأزهر.

التؤدة النبوية : يشرح الله صدر المؤمنين، وتقسوا قلوب الغافلين عن ذكر الله الرافضين لرسالات الله ومنهاجه. وإن في كل قرية فرعونها الذي حوله تنسج الفخفخة الحضارية على منوال كبريائه. قد يكون هذا الفرعون شخصا قائما كما يليق بالقرى البدائية وقد يكون فرعونا معنويا كما يليق بالقرى العقلانية. وغالبا ما يجتمع الطاغوتان فتتحجر قلوب الغافلين حول وثنهم. هكذا الحال في عصرنا عصر الإديولوجيات والزعامات.

يد الله القوية تدمر القرى الباغية بأمر من الغيب لا يصنعه الأنبياء، بل تتنزل به ملائكة الله. أما الأنبياء فما بعثهم الله بالحق إلا لهدف واحد ومقصد واحد وغاية واحدة تجتمع كلها في «القيام بالقسط».

النبي المرسل أو النبي المجدد والولي حضور نوراني يمثل معاني الطهارة ومعاني اليسر ومعاني التوازن والسكينة ومعاني الإسلام كافة والإيمان والإحسان. وما عليه أن يكون وكيلا على الناس ولا جبارا. وتتكرر في القرآن خطابات الحق لأنبيائه أنهم ليسوا

جبارين ولا وكلاء وإنما هم مبشرون منذرون.

على الرسل والأنبياء جهاد فرضه الله، فكان جهاد نوح أن يصبر في قومه أعواما ألفا، وكان جهاد داود وسليمان وهما ملكان نبيان أن يعدلا ويقاوما فتنة الجاه والمال ويشكرا ربهما بالعمل الصالح. وكان جهاد سيدنا موسى وسيدنا محمد جهاد دعوة يحميها السيف.

لكن الصبغة العامة لجهاد الأنبياء الرفق والرحمة والحكمة والموعظة بالتي هي أحسن.

كل فرعون يتولى الله سبحانه فتنته وعقابه كما فعل بفرعون موسى. قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾. وقال : ﴿**فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾. ومع آل فرعون كان فرعون : ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ**﴾.

وتكبر فرعون لما جاء رسولا ربه وقال : ﴿**أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾! منعه كبرياؤه أن يسمع كلام المستضعفين في الأرض وهو يدعي الربوبية وينتصب وثنا ليعبده الناس.

تعامى فرعون الأول كما يتعامى الفراعنة في كل زمان عن سلطان النورانية الذي يؤيد الله به أنبياءه وأولياءه، فما وجد إلا ما يجده كل كافر يكذب رسالات ربه. قال الله تعالى : ﴿**وَفِي**

مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

ويبلغ كبرياء فرعون وجهله الجاهلي ذروته إذ يجمع قومه يخطب فيهم ويتخذهم شهداء على عظمته ومهانة موسى وأخيه. قص الله علينا خبره قال : ﴿**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**﴾!

هذا الطاغوت الذي كفر بالله وغيبه يريد أن يرى آية تدل على صدق موسى وأخيه، فيتحدى موسى أن تلقى عليه من السماء أساور أو تأتيه الملائكة ومثله الجاهليون يتحدون الأنبياء : ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً**﴾!

سبحان ربنا ما هذا الموكب النبوي إلا موكب هداة عباد الله

لا يمتازون عن البشر إلا بهذه النورانية التي يبديها الله كما يشاء عليهم لا كما يشاؤون وإلا برباطة الجأش لا تستفزهم الفتنة ولا يستفزهم العنف. لما بلغ الحنق أشده بفرعون قال كما أخبر القرآن : **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾**.

عاذ موسى بربه وكان كإخوته الأنبياء لا يضعفون في أمر ربهم ولا يلجأون إلا إليه. ولقد خاف موسى إذ أمره به أن يبلغ رسالته، فأعانه ربه بوزير من أهله سيدنا هارون. ثم طمأنهما ربهما لكيلا يخافا وبشرهما بأنه معهما. وكيف يخاف من معه ربه؟ قال الله : **﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾**.

هذه هي التؤدة وهذا هو الرفق في المنهاج النبوي.

الصادقون الصالحون : قال الله يخاطب المؤمنين : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**. الصادقون هم أهل الطاعة وأهل الدعوة إلى الله أهل الكلمة الطيبة التابعون في موكب النبوءة الصديقون. هم أحسن الناس قولا وعملا، قال تعالى : **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً**

وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

صحبة الصادقين مفتاح البر لأنها مفتاح الطاعة، ومن أطاع الله ورسوله فقد حصل على حقه ليدمج في الموكب النبوي كفاء سلوكه على المنهاج النبوي. قال الله تعالى : ﴿**وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾. وإنما تكون رفقة الآخرة في دار الخلود لمن رافقهم ابن آدم في دار الفتنة.

ماهو نتاج التاريخ والغاية التي يجري إليها ؟ أعبث كل هذا الضجيج الذي يحدثه الحيوان العمودي على وجهها، أم أن تكور الإنسانية في بغي الباغين والبؤس الناتج عن الظلم والألم والشقاء صدفة لا معنى لها؟ أيكفي الإنسان غاية وينقع غلته لفهم سر الوجود ما تشير إليه العقلانية المادية من صيرورة تتم فيها الوفرة وتستغني الدابة البشرية عن الكد من اجل العيش في عالم تنقرض فيه مهام الدولة ؟.

كلا ! إن في الإنسان حاسة فطر عليها تتطلع لغاية الوجود ويضيق صدرها ويبلغ أشد الحرج دونها. وليس ينبئ الإنسان عن هذه الغاية، غاية كماله الروحي ولحاقه بالموكب النوراني موكب الأنبياء الصادقين الصالحين إلى وحي الله الذي جاءنا عن طريق المنهاج النبوي. على مر التاريخ عاش رجال يحيط بهم الغيب

أذهلوا معاصريهم بآيات الله المعجزة الظاهرة عليهم وأهمها نورانية الصحبة. ومع ذلك كذبوا واتهموهم بالسحر والجنون كما كذب الخلف المفتون المستغنى بالعالم المغلق عالم العقلانية الفلسفية والعلمية.

إبراهيم لا تحرقه النار، وسليمان تخدمه الريح والجن، وعيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبدو لهم منه في كل يوم آية. هل كان كل هذا فلتات اختل فيها «قانون الطبيعة» أم أن حوت يونس وعصا موسى حديث خرافة ؟

إن الإنسانية اليوم لا تزال حائرة أمام ظواهر الكون التي لا تخضع لمنطق عقلاني، وإن شأن التموجات والجزئيات الذرية وتعاقبها وإرادتها التي تكاد تكون شخصية لمن أبسط هذه الظواهر إذا قيست مثلا بحضور شياطين الجن وملابسته للناس مع الجهل الكامل المتخفى بستار التجاهل عند الباحثين المعاصرين.

وما كل هذه الظواهر إلا إعلان غيبي من جانب الحق يحوم حول أشخاص من اصطفاهم ربهم وكلمهم لما آمنوا به وصدقوا رسله واطاعوا. يحوم الغيب حولهم كما يحوم العالم وكما يدور التاريخ. فإنه ما خلق الله خلقه إلا ليعبدوه، فإذا عبدوه أتم لهم نورهم وجعلهم من أحبائه الصالحين الصادقين.

بعد السعي في الأرض وفق الطاعة تأتي رحمة الله للمحسنين خالدين فيها. إبراهيم عليه السلام واسحق يعقوب ابناه اصطفاهم ربهم : ﴿**وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾ ولوط عليه السلام أتاه الله حكما وعلما : ﴿**وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ . ونوح نجاه الله من الكرب ونصره جزاء لما نصر ربه قياما بأمره ودعوته وداود وسليمان جمع الله لهما ملك الدنيا وملك الآخرة. وأيوب عبد ربه فكشف عنه مولاه الضر: ﴿**رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾. وكل ولي لله مطيع تابع من هذه الأمة صائر بإذن الله معهم.

ألا إن غاية التاريخ هو المصير إلى الرحمة الإلهية مع الصادقين، وإن هذا المصير نتيجة لا تكون مقدمتها أبدا إلا صحبة المعصوم عليه الصلاة والسلام واتباعه وصحبته مع المؤمنين على المنهاج النبوي. ولا تصح صحبته إلا لمن نبذ أنانيته وطاغوته واتخذ عند الله يدا وأوى إلى جماعة المؤمنين.

محمد رسول الله

اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه والمرسلين وكل ولي لله إلى يوم الدين. ما يمنع الناس من هداية ربهم إلا استكبارهم : ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً**﴾ . انتمى الصحابة إلى هذا الجناب الكريم والتفوا حوله وأحبوه بمحبة الله فكانوا أفضل جيل وخير أمة. ووصانا صلى الله عليه وسلم بالتقلين من بعده : كتاب الله وعترته أهل بيته، وفتح لنا باب الفقه حين دلنا أن سلمان من أهل بيته لتتجه محبتنا للنسبين، نسب فاطمة والعباس وعقيل وجعفر، ونسب الإحسان وهو النسب الروحي وعليه مدار الصحبة.

إن الله تعالى ارسل المرسلين وجعل خاتمهم سيدنا محمد بن عبد الله فجمع فيه الهدى وجمع له أسباب كمال التابع في محبته وطاعته بنص القرآن الكريم. فمن صحبه صلى الله عليه وسلم وأحبه وفني في محبته صعد إلى الدرجات العلى، ومن لم يدرك زمانه احتاج لتربية شيخ يرقي روحانيته لتتصل بذلك المقام السامي. وإنما يسمى الصوفية وصولا هذا الرقي الروحاني حتى يتلقى المريد

عن روحانية الرسول مباشرة ويستقي منه الروح والرحمة. ويسمى عندئذ «محمديا» وهو اصطلاح صوفي توسع معناه ليشمل كل من يحب جناب الرسول ويخلع في حبه العذار.

قال الله عز وجل : ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ**﴾.

وجعل الله مبايعة محمد عبده ونبيه مبايعة له سبحانه، قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾.

وتقصر الآيات الكثيرة الرحمة والفوز في طاعته عليه الصلاة والسلام وأتباعه.

ولكي نعرف مقامه العظيم أخبرنا بلسان الحق أنه سيد ولد آدم وأخبرنا أنه لبنة التمام في البناء الإلهي. قال عليه الصلاة والسلام : «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيئين**»[1].

أول خطوة على المحجبة البيضاء في المنهاج النبوي محبته وطاعته

---

1 متفق عليه واللفظ لمسلم, استفدنا هذه الفقرة وسائر فقرات هذا الفصل من كتاب الشيخ محمد يوسف شيخ جماعة رجال التبليغ : حياة الصحابة.

صلى الله عليه وسلم، فمن أحبه فقد ائتمر بأمر الله فتفتح له أبواب فضل الله ومن صلى عليه فقد ائتمر بأمر الله وحق له أن يتعرض لرحمة الله، ومن لهج به وعكف على بابه فقد اهتدى ووفي له الكيل وسار على درب الموكب النوراني يقتحم العقبة سالكا مسالك الرجال. ومن وقف مع أنانيته يرد على الله في قرآنه فإنما هو محروم.

ها نحن يا رسول الله حبيبنا يا حبيب الله غثاء كما حذرتنا، نسينا عهد الله إذ نسينا ما بايعك عليه المؤمنون. إن الله قرن محبتك ومحبته وإيثاركما على الآباء والأقرباء بالجهاد في سبيله وسبيلك، فنحن نتربص بنا الناس الدوائر ويتربصون بنا السوء، والدعاة إلى الله الملائذون بجنابك الأحمى لا يكاد يسمع لهم صوت، وكان أمتك المسكينة المتلوية على أشد من حسك السعدان لحم على وضم للآكلين، وإنها لذاهبة مع السيل مع ما يحمل السيل، فهل من سبيل يا رسول الله لنصل حبلنا بحبلك فنتمسك عندئذ بالعروة الوثقى وتتأصل لنا الجهود ويتأصل لنا الجهاد والعمل والقوة؟

إن حاضرنا المتعثر هو المجال الكدر الذي يجب علينا أن نصفي فيه نظرتنا إلى تاريخنا الحقيقي تاريخ الموكب النبوي ونعبر تاريخ الفتنة لنجدد لأنفسنا إسلاما وإيمانا. وإن المستقبل الذي ينظره لنا المفتونون بمنظار الجاهلية المترقبة لمزيد من صناعة ومزيد

من اختراع ارضاء للدوابية الجاهلية لا غير، ليس مستقبلنا. إنما مستقبلنا في مقام الثريا وفي الأفق الأعلى مستقبلنا أن نحمل للخلق الرسالة كما حمل الأنبياء والأصحاب الحواريون.

يكفي لتحقيق ذلك أن نعرف المنهاج النبوي ونتتبع الخطى على المحجبة البيضاء، ولن نلبث أن نرى بشائر صبح جديد يعود علينا يومه وتسطع علينا شمسه، وإذا نحن مع الصادقين الآئبين إلى ربهم بدار النعيم.

دلنا قرآن ربنا على المنهاج إذ وجهنا لرسوله، قال :﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾.

التأسي برسول الله ليس إلا في متناول الصادقين المصدقين بالله واليوم الآخر الذاكرين الله كثيرا. فصحبة وذكر وصدق، وأنت على طريق المعراج الإسلامي طريق اقتحام العقبة.

فإذا رمنا أن نصل مستقبلنا بماضينا الجهادي عبر الفتنة التي ننوء تحت كلكلها لزم أن نتبايع على الصدق في أحضان الصحبة النبوية. قال الله تعالى : ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾.

في طريق الانبعاث الإسلامي عقبات كأداء، فلا جماعة لنا

وإنما لنا مجتمعات لأنه لا مبايعة لنا. ولا مبايعة ولا تصح ولا تمكن لأن ما في قلوبنا نية إسلامية إلا ومضات تطفئها الأعاصير الفاتنة ويخمدها الجهل بالله ورسوله ودينه. القلوب وجلة خائفة من الناس لا من الله، والعقول هائجة تتماوج مع التيار الجاهلي، ومن كل هذا ينتج في ساحة العمل اضطراب لا سكينة ترجى معه.

إنه لا بد لنا أن نتأهل بتزكية قلوبنا للتأسي بمحمد وصحبه، وإن أول حركة في النهضة الإسلامية مبايعة يرضاها الله ورسوله وتنزل معها سكينة ربنا، ونغنم نحن بعدها ولا نبقى غنيمة وكان الله عزيزا حكيما.

المتبوع الأعظم : في قلوبنا خواء ووحشة وكراهية لأنها خلت من محبة الله، وما تأتي صحبة الله لنا وصحبتنا له إلا من اتباع الرسول الكريم، قال الله تعالى : ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

تجد الصوفية الكرام آمنين حين يخاف الناس ضاحكين فرحين بربهم حين ييأس الناس لأن لهم قلوبا يعمها الحب لله ورسوله، فهم تابعون على يقين لا يلحقه الشك ماثلة في أفئدتهم نوارنية المتبوع الأعظم صلى الله عليه وسلم. وما ذاك إلا أنهم صحبوا الرجال أولياء الله حتى وصلوا. هذا الإمام الغزالي يقص كيف لقي «متبوعا مقدما» أخذ عنه وتتلمذ حتى وجد أن الحق مع الصوفية.

ومدار الحق الذي يجده الصوفية وسره في روحانية المتبوع الأعظم صلى الله عليه وسلم تحلق حولها أرواحهم وتقتبس الهداية والتقوى ومحبة البر الرحيم عز وجل، وكما تهيئ الماشطة العروس لتزف إلى المقام المكرم يهيء «المتبوع المقدم» على حد تعبير الغزالي مريده لذلكم الجناب الأنور صلى الله عليه وسلم.

وغاية ما تحمله الطروس من التشويق للطلعة المحمدية وصف محاسنه وأخلاقه صلى الله عليه وسلم، عسى أن تحمل السطور لمعة لقلوب المؤمنين.

كان وجهه صلى الله عليه وسلم يتلألأ كالقمر ليلة البدر. هكذا وصفه أصحابه من أهل الرضى، وهو وصف محبة لا شك. أما الكفرة الفجرة فقد نظروه كما نظره المؤمنون فما رأوا إلا وجها بشريا عاديا لعمى قلوبهم. أما من خلع العذار في محبته صلى الله عليه وسلم ممن صحبه في حياته على الأرض وبعد انتقاله فلا يكفيه لوصف محاسن الوجه الشريف صورة القمر والشمس. وإن أصحابه من بعده يتملون برؤية ذلك البهاء، يرونه رأي العين يخاطبهم ويخاطبونه ويناجون روحه الطاهرة. ذلك لمن صفت مرآته، ولسائر المؤمنين رؤيا المنام وهي حق كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام.

ورد وصف لجسمه الترابي صلى الله عليه وسلم في أحاديث

متعددة عن أصحابه، ومضمونها أنه كان فخما مفخما كان ملء العين تعظمه النفس ويمتزج تعظيمها برهبة مما آتاه الله من هيبته وجلاله.

الأسوة العملية لا تصح أبدا لمن ينهج لم نهج الآية الكريمة المشيرة إلى الصدق والذكر الكثير، لهذا كتبنا صفحة لنشوق المؤمنين. ثم ها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم في حركاته وسكناته كما يصفه الأصحاب رضي الله عنهم. سيدنا هند بن أبي هالة يسأله مولانا الإمام الحسن بن علي عن جده صلى الله عليه وسلم. فبعد أن سأله عن هيئته، قال[1] : «صف لي منطقه ! قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت،...يتكلم بجوامع الكلم كلامه فصل لا فضول ولا تقصير، دمث ليس بالجافي ولا المهين...»

وسأل مولانا الإمام الشهيد الحسين بن علي أباه الإمام المطهر قال[2] : «سألت أبي عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي عن حاله في البيت) فقال : كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك، وكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء، جزءا

1 حديث أخرجه يعقوب بن سفيان والترمذي والحاكم والطبراني.
2 نفس المصادر.

لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة والخاصة لا يدخر عنهم شيئا. وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين... ويقول : **ليبلغ الشاهد الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدميه يوم القيامة**». لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره. يدخلون عليه روادا ولا يفترقون إلا عن ذواق» ترى كيف تستغرق أوقاته عليه الصلاة والسلام عبادة ربه والبر بأهله، ثم ترى كيف يؤثر حوائج الناس على راحته ولا يقبل إلا أن يدخل الناس عليه روادا يرتادون الخير للناس، وكان يطعمهم تأليفا ومحبة.

يسأل الإمام الحسين أباه قال : « وسألته عن مخرجه (حالة بروزه إلى الناس) كيف يصنع فيه ! فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه إلا بما يعنيه ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد مهم بشره ولا خلقه. يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس (يسأل عن الإخبار) ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه. معتدل الأمر غير مختلف (لا اضطراب في تصرفه)... لكل عنده عتاد، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه.

الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده أحسنهم مواساة وموازرة.

قال : فسألته عن مجلسه كيف كان ؟ فقال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر،... قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء. مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة. لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن[1] فيه الحرم ولا تنثى[2] فلتاته، متعادلين يتفاضلون بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، يؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب».

قال : فسألته عن سيرته في جلساته فقال : « كان رسول الله صلى اله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح. يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيب فيه. قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والإكثار وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو توابه. إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. فإذا تكلم سكتوا وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده. يضحك مما

1 لا تعاب.
2 لا تداع.

يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه. ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم في المنطق، ويقول : إذا رأيتم صاحب حاجة فأرفدوه[1]. ولا يقبل الثناء إلا من مكافيء ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهي أو قيام.

قال : فسألته كيف كان سكوته ؟ قال : «كان سكوته على أربع : الحلم والحذر، والتقدير والتفكر فأما تقديره ففي تسويته النظر والاستماع بين الناس، وأما تذكره –أوقال تفكره– ففيما يبقى ويفنى. وجمع له صلى الله عليه وسلم الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه. وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسنى، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة، صلى الله عليه وسلم.

1 أعينوه.

الأسوة

الإسلام عبء تاريخي نحمله إما حفاظا على تراث لا نفقه قبيله من دبيره وإما حفاظا على عادة حطت ثقلها على المسلمين عبر التاريخ فهي لا تزال في أرجلنا عقالا وفي عقولنا كثافة تمنعنا أن نتحرك.

وطلبنا للأسوة عند الرسول الكريم وصحبه لا نريد منه أن نتنكر لتاريخنا بل نريد أن تزودنا صحبتهم الثقافية التأملية بإعجاب يتبعه محبة واقتداء وممارسة نستطيع بها أن نخرق كثافات تاريخنا فنعيد فحص التراث على ضوء ما يجد لنا من اكتشاف الرجولة والإيمان والسمت الرائع في حياة الصحابة رضي الله عنهم وحياة رسولنا المعصوم ذي الخلق العظيم.

إننا إن نولع بالنبي وصحبه ونتعلق بدراسة حياتهم ونعايشهم مباشرة بالشوق والتشوق والمحبة نفلت من هذه الأنماط المحملة بنسج الأجيال التي لا تستطيع أن تستفتح أوعية القلوب بالمحبة الحق فتتشرب معاني الإيمان من معينها وتكون محمدية لها الوصلة بذلكم الجناب الشريف ولها الفتح من لدن الحكيم الخبير ولها الشفافية التي تعطيها الصحبة المباشرة للنورانية المحمدية فلا تحجبنا الأجيال المتلاحقة الأربعون عن مصدر الإشعاع والهداية.

أو لسنا نقرأ القرآن بمنظار سلفنا وهو كتاب ربنا خاطبنا به كما خاطبهم وأمر كلا بتدبره؟ أولسنا تكل عقولنا أمام هذه الأحمال الكثيرة من كتب التفسير ونشعر بالعجز والبعد عن كتاب الله لأننا نشعر بضرورة قراءة كل التفاسير واستيعابها قبل أن يحق لنا القول ومخافة أن يحق علينا القول ؟

إن الثقافة الصاعدة التي ستقلع بنا من قاع الحيرة لقمم الحيوية والتحرر العقلي والإرادي يكمن سرها في المحمدية السمحة. جذورنا الشعورية الثقافية ضاربة في أرض الفتنة المتراكمة، فتنتنا التاريخية الممتدة لغدنا كما يراه المفتونون. والتربية الإسلامية التي نحتاجها لا بد أن تؤصل لنا ثقافة على أرضية بكر طاهرة على أرضية الفطرة حيث نسمع كلام الله غضا طريا يخاطبنا فنفعل ونخشع ونطيع فنعمل، وحيث يصبح المنهاج النبوي طريقا نسلكه مع الموكب النوراني وعلى خطوات من جعل الله لنا بهم الأسوة.

لعل في التاريخ درسا لا يعوض وحكمة لمن يتخلص من الانفعالات الإنسانية التي نُسج منها التاريخ. لكن مدرسة السلوك المنهاجي ومحك الفقه المنهاجي الذي يخلصنا هو هذه الصفحة الخالدة من حياة الرسل والحواريين، ومن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه خاصة. نتعلم من هذه المدرسة إن تزودنا بالإيمان لأنها صفحة مشبعة بالغيب والأحداث الخارقة،

يسيرون صفا مع الملائكة في الغزوات يروهم رأي العين، وينزل عليهم جبريل رجلا يخاطبهم ويحضرون مجالس رسول الله حين يأتيه الوحي فتثقل رأسه على فخذ جاره، ثم يخبرهم عن الله وأمره. ونتعلم من هذه المدرسة إن أزلنا عنا وهْم القرون وبرودتها وقابلْنا التجرد والإيمان والصدق والإحسان من جانبهم بالإعجاب والمحبة والشوق ثم الإرادة المؤمنة أن نسلك مسلكهم. تتعلم قلوبنا منهم الإيمان كما نتعلم من سلوكهم الجهادي نماذج العمل الصالح. بدون الأسوة القلبية يكون التشبه العملي محاكاة جوفاء.

ونتعلم من هذه المدرسة إن تزودنا قبل كل شيء بصحبة تفتح بركتها الأبواب وتربي الإيمان والصدق والإرادة والعقل.

وعندئذ لا تبقى هذه الصفحة فلتة تاريخية بل تصبح نموذجا عاطفيا عقليا يتحدانا مباشرة بسموه لنسمو نحن على ثقة من أن المنهاج النبوي لا يكون منهاجا نبويا إلا لأنه مستمر متجدد، أخبرنا بذلك الله ورسوله.

لتكن حكمة التاريخ فكرا نتأمله ونصفيه بمصفاة ممارسة لنا متجددة للإسلام، ولا يتأتى لنا ذلك إلا إن كان بيدنا مصفاة. وإذن فلنطو التاريخ ريثما نكون مسلمين نفكر ونحكم بمعيار إسلامي. لنتلق الرسالة من منبعها، ولنمارس الإسلام كما مارسه الأولون، وعلى ضوء السنة كاملة غير منقوصة. لأن من الناس

من يأخذ من السنة على قدر حاجته أو هواه، فواحد يشتد على نفسه ويشاد الدين ويزعم أن الدين مضى وفات وأن الجيل الحاضر المفتون حطب جهنم ويغلق باب التوبة والرحمة. ومن الناس من يزعم لنفسه أَنَّ يُسر الدين يتسع لبغي الباغين وقعود القاعدين وعبث العابثين. وكثير يصورون الإسلام وتاريخ الإسلام تصويرا عقلانيا يلغى به الغيب، وما القرآن إلا غيب واخبار عن الغيب ولا يفتح فيه الهدى إلا للمؤمنين بالغيب، وما حياة الرسول وصحبه إلا غيب في غيب.

لنأخذ السنة كاملة ولنبدأ بالمصدر الأول للإيمان، أَهو العقل أم هو عامل آخر. يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : «**والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ! أَلا أَدلكم على شيء إِذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**».[1]

هكذا نرى أن الإيمان يسري بالصحبة التي تلد محبة، اقسم على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد تبدأ محبة المؤمنين بالإعجاب والتقدير، فمن هنا تكون حياة الصحابة بداية السلوك إذ تدفعك لصحبة المؤمنين طلبا لتحقيق النموذج التاريخي الخالد والصحبة لا تتبعض لكنها ولاية المؤمنين كافة مركزة على شخص

1 رواه مسلم عن أبي هريرة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ترسلك صحبة الأحياء من أولياء الله لصحبة النموذج التاريخي الخالد، ويرسلك الإعجاب بالصحابة الكرام لطلب صحبة معاصريك إن كنت حيا أو بك نبض من حياة. فإن زدت على ذلك همة تطلب الكمال. فاسع إلى كمالك من باب المحبة، لكن محبة متحققة الآن وهنا، وسائل الصوفية الصادقين.

وصف الله تعالى محمدا وصحبه في القرآن قال : ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾.

بهؤلاء الكرام جعل الله لنا الأسوة، نتأسى بهم ونفعل فعلهم. وفي الآيات خصال ثلاث بارزة للجماعة المؤمنة. أولها : شدتهم على الكفار فإذا صغنا هذا بلسان عصرنا قلنا : تميزهم عن الجاهلية وبغضهم لها. ثانيها : رحمتهم المتبادلة، ونقول : انتماؤهم العاطفي بعضهم لبعض. وثالثا : ابتغاء رحمة الله، ونقول : نظرتهم إلى الإنسان والعالم نظرة إيمانية منهاجية.

وقد أمر الله الصحابة الكرام من قبلنا، وهو أمر لنا أيضا أن يتأسوا بمؤمنين مضوا، قال عز وجل : ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾.

وهنا أيضا نجد الخصال الثلاث الأولى من الخصال العشر يتضمنها الخطاب. فخصلة الصدق في التميز عن الجاهلية، وتتحدث الجماعة المؤمنة متضامنة متوالية، ويجعلون الشرط في الصلح مع قومهم الإيمان بالله. فتلك هي الصحبة والجماعة، وذلك هو الذكر، وذلك هو الصدق في وصف أصحاب إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

تأملنا في الفقرة السابقة وجه المحبوب المعصوم صلى الله عليه وسلم وجها لوجه، ونتأمل هنا النماذج الساطعة للصحابة الكرام خلفاءه الراشدين قبل أن نمضي للبحث عن فقهنا المنهاجي وخصالنا العشر في حياة الصحابة.

أخرج الطبراني عن ربعي بن حراش قال : «استأذن عبد الله بن عباس على معاوية رضي الله عنهم وقد علقت[1] عنده بطون قريش وسعيد بن العاص جالس عن يمينه. فلما رآه معاوية

1 جلسوا عنده.

مقبلا قال : يا سعيد ! والله لألقين على ابن عباس مسائل يعيي بجوابها فقال له سعيد : ليس مثل ابن عباس يعيي بمسائلك. فلما جلس قال له معاوية : ما تقول في أبي بكر ؟ قال : رحم الله أبا بكر، كان والله للقرآن تاليا، وعن الميل نائيا، وعن الفحشاء ساهيا، وعن المنكر ناهيا، وبدينه عارفا، ومن الله خائفا، وبالليل قائما، وبالنهار صائما، ومن دنياه سالما، وعلى عدل البرية عازما، وبالمعروف آمرا، وإليه صائرا، وفي الأحوال شاكرا، ولله في الغدو والرواح ذاكرا، ولنفسه بالمصالح قاهرا. فاق أصحابه ورعا وكفافا وزهدا وعفافا وبرا وحياطة وزهادة وكفاءة. فأعقب الله من ثلبه اللعائن إلى يوم القيامة!

قال معاوية : فما تقول في عمر بن الخطاب ؟ قال : رحم الله أبا حفص، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان، ومعاذ الضعفاء، ومعقل الحنفاء، للخلق حصنا وللناس عونا. قام بحق الله صابرا محتسبا حتى أظهر الله الدين وفتح الديار، وذكر الله في الأقطار والمناهل، وعلى التلال وفي الضواحي والبقاع. وعند الخنى[1] وقورا، وفي الشدة والرخاء شكورا، ولله في كل وقت وأوان ذكورا، فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم الحسرة !

قال معاوية : فما تقول في عثمان بن عفان ؟ قال : رحم الله

1 الخنى : الفحش في القول.

أبا عمرو، كان والله أكرم الحفدة، وأوصل البررة، وأصبر الغزاة، هجادا بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر الله، دائم الفكر فيما يعنيه بالليل والنهار، ناهضا إلى كل مكرمة، يسمى إلى كل منجية فرارا من كل موبقة، وصاحب الجيش[1] والبئر[2]، وختن[3] المصطفى على ابنتيه. فأعقب الله من سبه الندامة إلى يوم القيامة !

قال معاوية : فما تقول في علي بن أبي طالب ؟ قال : رحم الله أبا الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، ومحل الحجى[4]، وطود البهاء، ونور السرى في ظلم الدجى. داعيا إلى المحجة العظمى، عالما بما في الصحف الاولى، وقائما بالتأويل والذكرى، متعلقا بأسباب الهدى، وتاركا للجور والأذى، وحائدا عن طرقات الردى، وخير من آمن واتقى، وسيد من تقمص وارتدى، وأفضل من حج وسعى، وأسمح من عدل وسوى، وأخطب أهل الدنيا إلا الأنبياء والنبي المصطفى. وصاحب القبلتين فهل يوازيه موحد ! وزوج خير النساء، وأبو السبطين. لم تر عيني مثله ولا ترى إلى يوم القيامة ! يوم اللقاء من لعنه فعليه لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة! (وإنما لعن سيدنا ابن عباس من يلعن الأئمة الهداة لأن بني أمية

---

1 جهز جيش العسرة.

2 تصدق ببئر رومة على المسلمين.

3 ختن : صهر.

4 الحجى : العقل.

كانوا يسبون عليا على المنابر).

قال : فما تقول في طلحة والزبير؟ قال : رحمة الله عليهما: كانا والله عفيفين، برين، مسلمين، طاهرين، متطهرين، شهيدين، عالمين. زلازلة والله غافر لهما إن شاء الله بالنصرة القديمة والصحبة القديمة، والأفعال الجميلة.

قال معاوية : فما تقول في العباس ؟ قال : رحم الله أبا الفضل، كان والله صنو أب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرة عين صفي الله، كهف الأقوام، وسيد الأعمام. وقد علا بصرا بالأمور ونظرا بالعواقب. قد زانه علم، قد تلاشت الأحساب عند ذكر فضيلته، وتباعدت الأسباب عند فخر عشيرته، ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من دب وهب عبد المطلب أفخر من مشى من قريش وركب!».

بذكر الكرام المحسنين تتنزل الرحمات، وبذكر خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم نستطلع وجوها صبيحة وضمائر نقية وقلوبا طاهرة متطهرة. إنهم رجال كانوا جاهليين، وكانت الفتنة الجاهلية أترفتهم، فمنهم العربيد والظالم. وما عتم الأمر أن جاء الرسول بنورانيته وهدايته من الله، فلمس نوره قلوبهم، وفتحت صحبته صلى الله عليه وسلم مغالق نفوسهم، فالتحموا به صلى الله عليه وسلم وأحبوه وساروا على خطاه على المنهاج الحق

مقتحمين العقبة ذاكرين ربهم باكين من خشيته، وصدقوا الله ورسوله وهاجروا وقطعوا حبال الجاهلية.

وما معنى لخلود الرسالة المحمدية وكمالها إلا أن المنهاج النبوي ساطع اليوم كما كان ساطعا أمس، فإن اهتدينا إليه كانت الهداية والقوة أسرع إلينا مما نظن. إن ذلك النور الذي أنزل معه عليه الصلاة والسلام مع قرآن ربه لا يزال هو هو في قلوب المؤمنين الصادقين أهل القرآن أهل الله. وإن باب التوبة مفتوح لا يزال كما كانت مفتوحة أبواب الرحمة لعمر بن الخطاب وأضرابه، ومع التوبة وصحبة للمتطهرين، ونذكر الله فنسير على المحجة والمنهاج مع أولئكم السائرين.

الصحبة

الصحبة أولها لقاء بالشخص الرباني النوراني لقاء تتبادر إلى القلب منه هزة إعجاب وارتياح وطمأنينة، ثم محبة تغذوها المجالسة والمعاشرة في العمل.

الذين صحبوا المعصوم صلى الله عليه وسلم أصناف من الناس منهم الكهل والشاب ومنم شريف قومه والغريب المهان. ويتفقون جميعا في محبتهم للشخص الكريم وتصديقهم له وهجرة الأهل وبذل النفس والمال في سبيله. وكان لهم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لقب «صاحب رسول الله» شارة تزين شيخوختهم فتحيط بهم في عين الناس هالة تعظيم ومحبة، فأصبحوا مصحوبين متبوعين، وكان القرن التالي أفضل القرون لأنه صحب من صحبوا رسول الرحمة.

لقد وردت أحاديث تفضل القرن الأول على سائر القرون ثم القرون التالية أولا بأول. وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آحاد الناس لو انفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد صحابي ولا نصيفه. واتفقت الأمة على أفضلية الصحابة رضي الله عنهم وكيف لا وعليهم نزل القرآن أول ما نزل ! وبينهم عاش أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم!

هذا ما لا نجادل فيه وما ينبغي ! بيد أن تقديس الأجيال لأسبقيتها لا يعني تقديس زمان وإلا أصبح وثنية، وما فضل الأولون رضي الله عنهم إلا بأعمالهم. هم كانوا أتقى وأنقى الناس وهم كانوا أكثر المسلمين جهادا وقياما بأمر الله ومحبة لله ورسوله فمن عمل مثل عملهم في ظروف كظروفهم فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

محبة الصحابة للرسول الكريم وصحبتهم له لم تكن عاطفة تؤكد بالمظاهرات والقسم، إنما كانت يقينا يسيطر على الأفئدة فيترجم في العمل إيثارا وبذلا وتعرضا للأذى والموت وهجرة المال والولد، في ظروف قاسية تكالب فيها أعداء الإسلام على النبي وصحبه واشتدت الأزمات وقل النصير. لذلك كانت أعمالهم أفضل الأعمال وكانوا أفضل الأجيال.

أما اليوم فهل يحق أن نقارن مجال العمل الإسلامي وظروف العمل الإسلامي بالمجال الأول ؟ وهل يكون العامل المؤمن لأحياء الإسلام من فتنة كالعامل المجاهد للجاهلية الأولى؟ إن أجيال المسلمين بعد الجيل الأول وجدوا أمامهم قاعدة مسلمة وجماعة أو مجتمعا إسلاميين. إن لم تكن جماعة بالمعنى القرآني متوالية متناصحة فمجتمع ينتسب إلى الإسلام ولا ينكر من أمر الله إلا بهذه الأثرة في المال والهيمنة على المسلمين بقوة السلطان. حتى

في تاريخ فتنتنا الطويل كان «أولو الأمر» من أصحاب الملك العاض يطبقون من أحكام الإسلام في الحياة العامة ما لا يتناقض مع سيطرتهم وفي الحياة الخاصة ما يعلمه الله، لكنهم لا يحاربون الإسلام.

أما في فتنتنا المعاصرة فالإسلام غريب في داره، والمجاهد لإحياء الإسلام في غربته بين أهله يتعرض لأذى الجاهلي، ويتعرض لضياع المال وضياع النفس، وما سيد قطب رحمه الله منا ببعيد فحق له الجزاء الأوفى عند الله، وكانت مكافأته طوبى وهي شجرة في الجنة كما قال الرسول الكريم.

إننا لا نود أن ننصب من حياة الصحابة تمثالا معجزا بجماله وكماله، ولا ينبغي للمسلم أن يقف منهم موقف التقديس الضعيف، إنما كانوا بشرا مثلنا، لهم نفوس كنفوسنا وحاجات كحاجتنا، وهواجس كهواجسنا. فلئن استطاعوا أن يُصعّدوا كل ذلك ويرقوا بروحانيتهم تائهين على الممكن طالبين «المستحيل» حتى حققوه في أنفسهم وعلى رقعة الأرض، فنحن إن سرنا على منهاجهم وشيكون أن نجدد عهدهم وينصرنا الله كما نصرهم. يكفي أن نتعلم كيف ينصر الله، ومدرستنا لتعلم ذلك هي كتاب الله نعيد قراءته قراءة جهادية، وهي سيرة الصحابة نعيد قراءتها قراءة من ينوي جهادا مجددا لا من يتأسى بالماضي عن ضياع

الحاضر. أسوةً نريد لا مسلاة!

من أين لنا محبة الله ورسوله ؟ وهل يمكن أن نتصنع المحبة تاتي أم أن المحبة ضمنيا من المنهاج نفسه؟ ومن أين لنا نصر الله ومعيته ؟ أنكون معه نحن قبل أن يكون معنا أم ياتينا فضله ورحمته ونحن سائرون على المحجة البيضاء؟

قال الله تعالى : ﴿**إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ والإحسان غاية المنهاج ومداه، والمقصد الإيماني والهدف الإسلامي مرقاتان ضروريتان لتحصل لنا معية الله تعالى ومحبته.

نسأل الصوفية الكرام أهل التقوى والإحسان فيدلوننا على مقام التوبة يتلوه مقام المحبة ثم مقام الفناء والبقاء. ولنطرح الاصطلاحات المعماة لنتصور المنهاج غير ناكبين عن الصوفية واصطلاحهم، لكن طلبا للوضح. التوبة على يد مؤمن هي التوبة الحق وإنما تاتي بعد ميل إلى المؤمن وإعجاب تتبعه محبة. ومن المحبة للمؤمن تاتي محبة الله ورسوله كما جاء في الحديث الشريف المروي عن سيدنا أنس رضي الله عنه : «**ثلاث من كن فيه ذاق حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ؟، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يعود في النار**»[1].

1 متفق عليه.

كراهة وحب، هذان مبدآن منهاجيان. إن انفصال المسلم المفتون عن طاغوت غفلته كانفصال الكافر عن جاهليته، كلاهما يتم بعملية عاطفية إرادية. ونفس الحركة التي تحبب إليه الإيمان تكره له العودة في الكفر. ومأتى المحبة من صحبة امرىء مؤمن يذوق بمحبته محبة الله ورسوله ويذوق حلاوة الإيمان.

وهذا هو الدين «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» كما جاء في الحديث الشريف. وما كان الصحابة صحابة وماكانو رحماء بينهم إلا بفيض محبة المتبوع الأعظم صلى الله عليه وسلم، فيها ذاقوا حلاوة الإيمان وبها اتقوا وأحسنوا.

إن لهذه المحبة الإيمانية التي يسري بها الإيمان من قلب المؤمن المحسن إلى أوعية القلوب المتعطشة شبها بسريان الماء، فلذلك تجد الصوفية يمثلون ماء المحبة بماء الشراب، ويتحدثون عن السر الساري من الشيخ للمريد، وما عدوا الحق والله، فطوبي لمن له صحبة إيمانية توصله لمحبة الله ورسوله، وللخلي المتشكك كفاء الحرمان في شكه.

بالمحبة والصحبة بدأ بناء الجماعة المسلمة القوية، محبة مركزة على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم خالطت القلوب بشاشتها وحولت غلظة الأعراب رحمة ورقة، والمحبة دفعت المحبين الأصحاب للبذل والعمل والصدق في كل ذلك، والمحبة مع

التصديق كشفت عن العقول البدائية حجاب الغفلة فذكروا الله وانجلت لهم لوائح الغيب حتى كانوا من أمرهم على يقين يرون الجنة والنار والملائكة بالبصيرة رؤية أقوى من رؤية العين ولا مجاز في التعبير.

خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أيام الدعوة الأولى، ولم يكن الصحابة يومئذ إلا ثمانية وثلاثين عدا، فثار به المشركون وضربوه حتى ما يعرف وجهه من بطنه. وغاب أبو بكر فلم يتكلم إلا آخر النهار، فما سمع منه إلا السؤال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن المرء ينسى عند الشدائد أهله لكن لا ينسى محبوبه وخليله. وأقسم أبو بكر لأمه. «فإن لله علي أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله عليه وسلم، وهي تسأل : « ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا خيرا ! هو بحمد الله كما تحبين. قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ! فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل»[2]. هذا مثال للصدق في المحبة تزول معه العادة ومحابها فيكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن من نفسه وماله والناس

1 رواه الحافظ الطرابلسي.
2 البيهقي.

أجمعين كما جاءت الآية الكريمة : ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ والمرأة المؤمنة كانت في موقف جهاد فجمعت بين محبة الله ورسوله ومحبة الجهاد في سبيله، وكان التعبير العملي لكل هذه المحبة منصبا على شخص الرسول الكريم، على الشخص البشري الماثل يريه الناس إياها حتى تنظره فيطمئن قلبها على سلامة محبوبها.

من الناس من يتصور المحبة الإلهية لله والرسول والمؤمنين تصورا مجردا نظريا، ومنهم من يذهب به الجهل والجاهلية إلى نفي هذه المحبة ويدعو أن «يطهر الإسلام» في زعمه والسنة تكذبه وحياة المؤمنين المحسنين ؟ الذي كان صلى الله عليه وسلم ولا يزال قرة أعينهم.

تقرأ للصوفية نسيبا رقيقا في الجناب العالي، وتقرأهم يتحدثون على المحبة الإلهية وعذوبتها ورقتها ولا تكفيهم المجازات للتنويه بها.

وما بدأت هذه المحبة في قلوبهم إلى نقطة نوارنية تحركت نحو مؤمن أو أنكره فإنما ينكر الكتتاب والسنة، وإلى مثله تابوا على يده، ثم إذا بها ترقيهم وتشع وتنير الآفاق، وإذا بهم هائمون في محبة الله ورسوله.

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية فيها سيدنا خبيب وسيدنا زيد بن الدثنة فأسر الرجلان وبيعا حتى بلغوا بهما مكة. فأما خبيب فقالت عنه ابنة الحارث بن عامر وهي سجانته : «ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله» وقتلوه بعد أن استمهلهم للصلاة وهو ينشد :

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصـــال شلـــو ممزع

في ذات الإله ومحبته ومرضاة رسوله مات مؤمن حمله الحب على جناحيه عبر الكثافات العادية وأكل من قطف العنب الغيبي وهو أسير مثقل، ومع المحبة وخرق حجاب الحس الرجولة والشهامة.

وأما زيد بن الدثنة فاجتمع رهط من قريش على قتله، فقال له أبو سفيان بن حرب: «أنشدك بالله يا زيد ! أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي !؟ قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا !».

هذه هي محبته صلى الله عليه وسلم في موقف الفداء والجهاد، وهي هي لا تنقص في يوم عنها في يوم غيره. أخرج الطبراني عن

عائشة رضي الله عنها قالت «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنك أحب إلي من نفسي وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لاكون في البيت فأذكرك فما اصبر حتى آتي فأنظر إليك. وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيئين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك. فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿**وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ**﴾.

وكانوا رضي الله عنهم من محبته صلى الله عليه وسلم ومحبة ربهم يقاتلون الإخوة والآباء المشركين، وكانوا يترسون عليه في الحرب بأجسادهم تقع السهام في نحورهم دونه صلى الله عليه وسلم وكانت محبة لا تتستر وكانت محبة شخص ماثل. ولو لم يكن هو رسول الله ووليه ونبيه لكانت هذه المحبة اشبه أن تكون وثنية لكنها كانت محبة صديقين لمن جاء بالصدق. والوثنية الزعامية في عصرنا ادعاءات للمحبة ومظاهرات كاذبة جوفاء ككل الطقوس الوثنية.

ومع المحبة الإيمانية كان التعظيم والتوقير والتعزير والنصرة. أخرج الترمذي عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس، فيهم أبو بكر وعمررضي الله عنهما فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما، ويبتسمان إليه ويبتسم لهما».

وكانوا يحبونه ويهابونه، فإذا جلسوا معه كانوا كأنما على رؤوسهم الطير، وقد رأينا كيف كان يجالسهم صلى الله عليه وسلم ويوطيء لهم كنفه الشريف.

وصف عروة بن مسعود رسول الله وصحبه لقومه قال[1] : فو لله ! ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا اصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له أي قوم ! ولله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي. والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا !».

1 رواه البخاري عن المسور بن مخرمة.

الجماعة

الصحبة والجماعة تكونان خصلة واحدة من خصالنا العشر، وإنما كتبناها تحت عنوانين لنؤكد أن مشروع الخلاص الشخصي له مكان في الإسلام. وما جمعناهما أول الأمر في خصلة واحدة إلا اعتقادا يقينيا أن الإسلام الفردي لن يجمع لنا كلمة ولن يؤهلنا لجهاد.

لا يزال الغزالي الإمام الجليل المتهم الأول عند بعضهم في قضية تأخر المسلمين. يقرأون كتبه الخاصة بتزكية النفس كالإحياء، فلا يرون فيها جهادا ولا إمكان جهاد، لأن الإمام في هذه الكتب إنما دل على مشروع الخلاص الفردي ولم يزرعه في المشروع الجهادي للامة. وفي حياة الغزال نفسه ما يدل على أن فهمه للإسلام لا يقف عند المشروع الفردي، فقد نصح أهل وقته وشد رحاله ليلقى المؤمن المجاهد يوسف بن تاشفين ولي الله تعالى أمير المؤمنين. ولا مكان هنا لمرافعة ضد المتصوفة وحتى بعض صادقي الصوفية الذين تحول مأواهم من معاني الرباط إلى معاني الزواية.

لا مكان لهذه المرافعة لأن الفتنة التاريخية المزمنة أناخت على هذه الأمة بكلكلها، فدخل المؤمنون في رخصة القاعدين أولى الضرر.

وكما أنه ليس على الأعمى حرج ولا على المريض إن قعد فإن الفتنة المشتعلة لا تترك مجالا للدعوة إلا لمن يستشهد في سبيل الله، وسبيل استشهاده ألا يعنف ولا يزيد نار الفتنة اضطراما. ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يكسروا السيوف ويلحقوا بالجبال ويعتزلوا الناس إن برز قرن الفتنة، وفعل ذلك كثير من الصحابة فآتاهم الله منه رحمة كما آتى أهل الكهف في خلوتهم وكما يؤتي المحسنين الفارين بدينهم.

إن مشروع الخلاص الفردي هو المحور الذي تدور عليه الجماعة المؤمنة، ولا يتصور أن تتكون للمسلمين جماعة إن لم يكن لدى كل فرد من أفراد الأمة محبة لله ورسوله وانتظار لموعوده. لكن الإسلام الفردي والإيمان والإحسان لا يكون بنفسه جماعة، ولو تجمع آلاف من المحسنين ما كونوا جماعة حتى تربطهم روابط ثلاث هي المحبة والطاعة والنصيحة.

إن ما نراه في بلادنا الإسلامية من التنظيم الاجتماعي ما هو إلا تركيب منقول عن النظام الجاهلي. هذا التركيب قوامه وروحه هو القانون الذي يضمن مصلحة كل فرد بضمان الأمن. القانون ووازع السلطان هما الإطار الذي تدور فيه اضطرابات الناس ومخاصماتهم في دنيانا دنيا الفتنة، وطلب الوجاهة والمال هو الدافع للعمل والسعي. ننقل نظام الديمقراطيات والاشتراكيات نبني

عليه حياتنا، ونصرخ بشعار العدل ونتهارش في مجتمع الكراهية.

والإسلام إن اهتدينا إلى منهاجه يبدل مجتمعنا جماعة، ينقلنا من التركيب الاجتماعي الذي يواري الفرقة ويداريها إلى بناء عضوي روحه المحبة وهيكله الطاعة لله والرسول وذي الأمر منا والنصيحة عامة شاملة بيننا.

إنه لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وإننا لن نؤمن حتى نتحاب، أقسم على ذلك رسول الله.

أما المسلم فقد يكون مسلما دون أن يحب اخوته، يكفيه أن يقيم الصلاة مع الجماعة وأن يقوم بأركانه الخمس وأن يطيع الأمر العام ويسلم المسلمون من لسانه ويده وهكذا يبقى على هامش الجماعة وفي ظلها حتى ترقى به همة لخلاص نفسه والتقرب من ربه، وعندئذ يدفعه الطلب فيتقرب من المؤمنين ويحبهم ويندمج فيهم بعد أن يعطي برهان صدقه.

وقد رأينا في الفقرة السابقة كيف كانت جماعة المؤمنين يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأنا في القرآن الكريم كيف كانوا رحماء بينهم.

المؤاخاة : بلغت المحبة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار حدا تضرب به الأمثال فتقاسموا المال والعمل، ومدح الله الأنصار بأنهم : ﴿**يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ**

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

هذه المحبة كانت طاقة هائلة مجمعة، وكانت اللحام بين أعضاء الجسد الجماعي. ولكيلا تتبدد ولكيلا تخطئ المحبة مقصدها نظمها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آخى بين المهاجرين والأنصار، ونظمها الله حين جعل أولي القربى أحق بها والوالدين قبل لك، ثم الجار والصاحب بالجنب.

ليست هذه المحبة تائهة مثالية إنما هلى لحام بين المؤمنين مجلاه في العمل اليومي والبذل اليومي والتعاون اليومي.

الطاعة : كانت جماعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة تعتمد على المحبة المركزة في شخصه الكريم، وكان كل مسلم يبايعه على أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فلما أذن الله ببناء الجماعة الجهادية طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد الأوس والخزرج أن يبايعوه على النصرة فبايعوه ووفوا فكانوا أنصارا.

أخرج الإمام أحمد حديثا طويلا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مكث بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم عكاظ ومجنة وفي المواسم» يقول : «**من يؤويني ؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة** ؟ فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره» هكذا كان صلى الله عليه وسلم يطلب جماعة تربطها عقدة الجهاد

على نصرة الرسول لأن جماعة أصحابه الأولين مستضعفون في قومهم مغلوبون.

وما أشبه الليلة بالبارحة ! فهؤلاء هم المسلمون مستضعفين مغلوبين، تتلى بين ظهرانيهم مزامير إبليس العقلانية ويذهب بهم مع ريح الجاهلية فتذهب ريحهم ولا نصير ! ما في صفوف العمل القيادي في دار الإسلام إلا كل ناصية كاذبة خاطئة، وإن أفدح الكذب التلويح بشعار الإسلام لتخفي ذيوله المفترى عليها البهتان القيادي والفجور.

فهل تتوب هذه النواصي الكاذبة الخاطئة، وهل يبرز صلاح الدين من بين المعربدين الفاسقين ؟ كان يبدو أن لا نصير في فجر الإسلام الأول، واليوم، والإسلام في غربته، يبدو أن لا نصير، ويد الله القاهرة تدبر شؤونه تعالى، وإننا وايم الله إلى ربنا لعائدون ! رحل إلى النبي صلى الله عليه وسلم سبعون رجلا من يثرب وقد ائتمروا وقالوا :«حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟» قال الإمام أحمد يروي عن سيدنا جابر : «فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة. فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا : « يارسول الله، علام نبايعك ؟» قال: «**تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل،**

والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»...قال : «فقمنا إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة !».

رسول الله : لنتدبر هاتين الكلمتين المألوفتين تغطي عنا العادة عظمة مدلولهما. إنه رسول، إنه من عند الله جاء، إنه حمل رسالة، حملها من ربه إلينا. ومن كان هذا شأنه حق له أن يعطي الجنة وعدا لمن وفى ما بايع عليه. ويشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم! هذا معنى المبايعة أعطيك وتعطيني. وقد مسخت هذه العقدة المطهرة في زمن الفتنة حتى صارت بيعة من جانب واحد، بيعة من المسلمين تحت قهر السيف، وخيلت معناها السامي.

إن وعد الله قائم لمن نصره لا يتخلف أبدا، فهل تؤمن نواصينا الكاذبة الخاطئة بوعد ربها الذي يتلي قرآنا مهجورا ؟ وهل يبرز رجل يبايعنك الله ورسوله على النصرة فيستحق أن نبايعه على السمع والطاعة والجهاد؟

وبايع النبي صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين حتى النساء، فهن كانت لهن مبايعة ذكرها الله في كتابه وحددها : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ**

شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ ولا تتضمن مبايعة النساء جهادا، وكان يعرف في عهد الرسول «بيعة النساء» بايعه عليها حتى رجال ما التزموا بجهاد لكن التزموا بالطاعة. ونسمي هذه مبايعة عامة مبايعة الطاعة التي تلم « الشعب الجماهيري » وتخلق منه أمة، غدا يوم يرفع لواء الإسلام خفاقا تهفو إليه أفئدتنا معاشر الأعداد الغثائية ! والموعد الله تعالى ولا نأسى على القوم الفاسقين إنما نشكو بثنا إلى ربنا إذ حقت علينا كلمة ربنا فجرفنا السيل.

وتعددت صيغ المبايعة ومضموناتها بتعدد المواقف، وتجددت في حياته صلى الله عليه وسلم لدى كل أمر يستدعي تحفزا اراديا جديدا. فكانت مبايعة على الجهاد وعلى الموت وعلى النصيحة. وتنوعت المبايعة وكانت خاصة أحيانا عامة أحيانا حتى تشمل الأطفال.

إن المبايعة رباط ارادي بين ذوي الذمم والصدق، ومعنى هذا أن الإنسان في هذه الأرض مأسور بجاذبية الأرض ونوازع الهوى لكنه يستطيع الإقلاع بإرادته ويغير التاريخ. والحتمية المادية تقول غير هذا لأنها دعوة للتدحرج على نجد الشقاء وفق التيار الغالب تيار التكاثر والتناحر حول المال وفائض القيمة والعمل الكادح

الكالح والمبايعة لله ورسوله على أن تكون لنا الجنة ينقل الإنسان لمشروع يليق بالسر المودع فيه ألا وهو مشروع اقتحام العقبة والمآل الله تعالى.

والمبايعة رباط واقعي رغم ذلك، فلا يكلف الإنسان فوق طاقته ولا ينتظر من الملتزمين خرق العادة فيما يلتزمون به، لذلك كان الرسول الكرم يفتر الحماس وييسر العمل إذ يدخل في المبايعة استثناءً في حدود ما يستطيعه الإنسان. فيلتزم المؤمن بما يبايع عليه ويضرب على اليد الكريمة صفقة البيع فيقول الرسول : «**فيما استطعت**».

ولذلك أيضا أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المبايعة شرطا يعطي للنقص الإنساني هامشا غير منكر، فإن الداخل في الجماعة قد يجد من إخوته ظلما وأثره، فيسبق الأمين صلى الله عليه وسلم فيشترط عليه الصبر على الأثرة والحيف. فعن سيدنا عبادة بن الصامت قال[1] : «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

النصيحة : رأينا كيف بايع الأنصار الأولون رسول الله صلى

1 يونس عت ابن اسحاق.

الله عليه وسلم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بالحق. وهذا شرط من الشروط الثلاثة لنجاة الإنسان من الخسر كما في سورة العصر : ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾. فالإيمان لا يكون إلا بمحبة، والعمل لا يكون إلا بمبايعة والتواصي بالحق والصبر هو الدين، هو النصيحة.

في الإسلام المنبعث بإذن الله تكون النصيحة مجالا واسعا للشورى بين المسلمين والعدل وتنظيم الجهاد. ويكفينا هنا أن نقف لحظة لنرى كيف كان الصحابة يتناصحون.

إن النصيحة لله ورسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم. فأما النصيحة لله فهي الوفاء بحقه وعبادته والتقرب إليه بالفرض والنفل ونصرته في النفس وفي العالم، وأما النصيحة لروسله فهي السيرعلى سنته الجهادية، والنصح للمؤمنين الوفاء بحق ولايتهم وحق الطاعة لمن لهم الأمر. أخرج ابن سعد أن سيدنا سعيد بن عامر ابن حذيم الجمحي صاحب رسول الله قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : **إني أريد أن أنصحك يا عمر** ! قال : أجل، فأوصني فقال : «**أوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخش الناس في الله. ولا يختلف قولك وفعلك، فإن خير القول ما صدقه الفعل. لا تقض في أمر واحد بقضاءين فيختلف عليك أمرك وتزيغ**

عن الحق. وخذ بالأمر ذي الحجة تأخذ بالفلج[1] ويعينك الله ويصلح رعيتك على يدك. وأقم وجهك وقضاءك لمن ولاك الله أمره من بعيد المسلمين وقريبهم. وأحب لهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك وأكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك. وخض الغمرات إلى الحق، ولا تخف في الله لومة لائم».

ليست النصيحة قولا يقال لكن عملا متواصلا جهاديا، وجهر بالحق. فكما كانوا يقولون كانوا يفعلون، وكما كانوا ينصحون بخوض الغمرات إلى الحق خاضوا هم الغمرات إليه مع المؤمنين متآزرين متناصرين جاهرين لا متسترين صادقين صرحاء يقيمون وجههم لله ولمن ولاه الله عليهم كما ينصحون الإمام أن يقيم وجهه وجوها صادقة مشرقة لا يرهقها نصب النواصي الكاذبة الخاطئة وذلتها. وإلى الله المصير.

1 الفلج : الفوز.

الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت**»[1].

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه**»[2].

يا بني آدم طالما إنعطفتم تعجبون بأعطافكم وتغفلون عن ربكم وعن المصير الرفيع الذي خلقتم من أجله ! إن المترف في دوابيته يقف جهده وأمله في تسمين الدابة الإنسانية وترويحها ميت بين موتى وإن كان يسعى على قدميه. إن ربنا الخالق فطرنا ونفخ فينا من روحه كما أخبرنا، ولمن نسي ربه وابتعد عن الفطرة أوهام وطواغيت صاغتها أنانيته وأظلها ظلام عقلانيته تمنعه أن يسمع عن الله ويفهم عن الله. إنه عز وجل نفخ فينا من روحه وإنه مع من يذكره، وإن انبياء الله وأولياءه أخبرونا جيلا بعد جيل، أخبرونا بحالهم ومقالهم، أن الإنسان ما هو هذه الدابة الكادحة بل هو اللطيفة الروحانية التي تتزكى وترقى طاهرة تخترق

1 متفق عليه عن أبي هريرة.
2 متفق عليه.

حجب الأنانية والغفلة والعادة فتفق بين يدي ربها يذكرها برضاه ورحمته كما ذكرته بعبادتها وذكرها له آناء الليل وأطراف النهار وتسبيحها بحمده.

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شعب الإيمان بضع وسبعون شعبة وأن أعلاها لا إلا إلا الله، ودعا المؤمنين لتجديد إيمانهم بلا إله إلا الله فقال : «**جددوا إيمانكم** ! قيل : يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**».

نعلم من هذا أن الإيمان يجدد بالقول أي بالنطق بالكلمة الطيبة. وقول رسول الله حق. لكننا نعجب لأن من الناس من ينطق بالكلمة الطيبة طويلا ولا يتجدد إيمانه ! وآخرون يقولونها فيفلحون كما أفلح الصحابة الكرام، يبشرهم متبوعهم الأعظم بأن : «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** !» فيجدون بعد التجربة قوله حقا !

إن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة لا بد لها من زرع ورعاية وسقاية، فمن لقي رجلا كاملا يلقنة لا إله إلا الله يزرعها في قلبه بما أوتي من روحانية مهيمنة ويسقيها بسره من غيب لغيب بمدد الله تعالى، وكان مريدا محبا يتلقى بصدق فذلك أحر به أن تنمو نبتته وتترعرع وتوتي أكلها فلاحا ونورانية وحياة. ومن ذكر الله يبغي أجرا وثوابا فله عند الله ما ظنه، وإن الله تعالى عند ظن عبده

كما أخبرنا. يرجع الأمر إلى الصحبة، صحبة عارف بالله حي يسعى تلقاه وتجلس إليه وتحبه وتتلقى من مدده حتى يحصل لك هذا الميلاد الروحي الذي كثيرا ما يتحدث عنه الصوفية ويحسب الخلي أنهم حالمون. ومن لم يسع لتجديد إيمانه تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا للحياة الحق فله تعزية نفسه الميتة !

لتجديد الإسلام والعمل الإسلامي لا بد من تجديد الإيمان بالقول الثابت، ثم لا يكون تجديد حق على صعيد الأمة إلا أن اندرج مشروع الخلاص الفردي في الجهاد الجماعي. ولا سبيل أبدا إلى التعرض للفار بدينه القاعد عن الجهاد. فإن الله تعالى يقول: ﴿**فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً**﴾. إن الله وعد كل المتزكين الحسنى لكنه فضل المجاهدين. وغدا يوم يبدأ الجهاد الإسلامي لن يتخلف من يقرأ قرآن ربه حقا!

الذكر : كان ذكر الأصحاب الكرام لحمة حياتهم وسداها، فالصلاة كانت أهم أمورهم وأسبقها بحق، والفرض كان يكمله النفل، وكان الذكر تحت جناح القلب الطاهر مهبط الوحي وعرش الرحمن صلى الله عليه وسلم يبلغ بالمؤمنين مبلغ الكمال فيكون

الله عز وجل سمع العبد وبصره ويده ورجله، ويصبح العبد وليا لله يغار الله عليه فيحارب من آذاه.

فذكر منفرد يلقنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فرادى أو جماعة، فذلك التلقين هو الإذن وعليه المعول. ودعاؤه صلى الله عليه وسلم ربه في كل حين كان يحفظ وتشد عليه الأنامل ويعض عليه بالنواجذ. وقد رأينا في وصف مجلسه الشريف أنه كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر. وكان آخر ما يدعو به قبل النوم قوله : «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، واسندت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي انزلت وبنبيك الذي أرسلت**».

مناجاة الله عز وجل كانت دأبه ودأب المؤمنين، وكيف لا والقرآن الركيم ما حث على شيء ما حث على ذكر الله. وإن بين رسول الله أن مثل الذاكر والغافل مثل الحي والميت فإنما قرأ لهم القرآن مجملا. قال الله تعالى : ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾. ولعل كثيرين يقرأون الآية فيحملونها محمل المجاز، ويذهبون المذاهب في فهم النور المعني في الآية وفهم الحياة والظلام. وما ثم إلا هذه الحقيقة المشرقة السافرة التي شهدت بها

الأجيال من العلماء العاملين أهل الله وما زالت تشهد. ويشبه الصوفية حياة المحبة والفناء في ذات الله ويومئون، ويصرح القرآن ويصرح الحديث القدسي تصريحا ما بعده ابهام، وتشهد حياة الصادقين على مر الأجيال أن الغافل ميت يحسب نفسه حيا.

وذكر كان للصحابة في مواقف العمل والجهاد. أخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : «لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا. فقال أبو سفيان لهند (زوجة) : أترين هذا من الله؟ قالت : نعم ! هذا من الله. قال : ثم أصبح أبو سفيان فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلت لهند : أترين هذا من الله ؟ قالت : نعم، هذا من الله! فقال أبو سفيان : أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به أبو سفيان، ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند».

أبو سفيان كان جديدا في الإسلام لم يصحب المسلمين، فتعجب من إقبالهم على الذكر والطواف حتى ظن أن بهم خبالا وسأل زوجه. وكذلك من يجالس الذاكرين في أيامنا هذه أيام الغفلة يعجب من قوم يرفعون أصواتهم بكلمات تتردد بلا ملل ويستكبر هو أن يأتي ما يظنه خبالا. أما أبو سفيان فقد جاءته الحجة من الغداة وآمن وصدق، وأما مستكبرا فإنه يجد عند

«ديدان القراء» الغافلين من يفتيه أن الذكر جهرا والاجتماع في الحلق بدعة ![1] أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاجتماع على الذكر كثيرة. وجاءته من الله عزمة أن يجالس الذاكرين، قال تعالى : ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد جماعة يذكرون الله ويتطارحون العلم فقال : «**هؤلاء الذين أمرت أن أصبر نفسي معهم**» أو قال : «**الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم**»[2].

نورد حديثا قصيرا رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**».

لا سكينة إلا للذاكرين، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

الغيب : بالصحبة والذكر تفتح ظلمات الغفلة للمريد الصادق فتتحطم بالغي وبذلك تتحطم كبرياء عقلانيته إن كان من أصحاب المنظومات الفكرية، وتتحول عقليته إن كان من

1 على أننا لا نشجع على حلق الذكر الصاخب تجنبا لمواطن الخلاف وإثارة النزاع والقيل والقال..
2 الطبري في تفسيره.

السذج الواقفين مع العادة. كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجزات جمة، لها في كل يوم ومضات من كشفه صلى الله عليه وسلم كما رأينا في قصة أبي سفيان، ومن أنواع خرق العادة يرفع الله أسباب الطبيعة ويعطل قوانينها على يده شهادة على أنه الملك الحق وأن محمدا عبده مرسل من عنده. وللصحابة رضي الله عنهم كرامات وكشف يؤيد الله بها قلوبهم ليزدادوا له طلبا بمحبته ومحبة رسوله شغفا. وما القرآن الذي يتلونه إلا غيب يتحدث عن أصحاب الكهف ثلاثمائة سنين وتسعا ثم يبعثون وعن مآت الأمثلة من هذا. ويتحدث لهم الله تعالى عن طريق وحيه في الرؤيا الصادقة يراها رسول الله ويراها المؤمنون ويبني على ذلك الأمور الجسام. قال تعالى : ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**﴾، وكان رسول الله يقول : «**الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**».

تذكر نزرا من هذه المعجزات والكرامات لأنها لا تستقصى في القرآن والحديث، ونلح على تدبر قوله تعالى : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب». فمن لا يؤمن بالغيب لا ينفتح له القرآن، فإما يلقى رجلا كاملا يذكر الله بين يديه حتى تنجلي عنه ظلمات الغفلة وتسطع له الأنوار الكاشفة عن الطريق وإلا فهو الشك والتربص إلا أن يرحمه الله بإيمان كإيمان

العجائز وإليه يؤول أصحاب العقل حين يرحمهم الله.

إن عوالم الغيب ما خلقها الله لتصبح شهادة، وإنما يفتح الله ملكوته لأحبابه ليربط على قلوبهم فيجدوا في اقتحام العقبة وينصرفوا إلى الجهاد. ومن الناس من يفتتن بلوائح الغيب من السالكين المبتدئين فتصبح مطلوبه وغايته وذلك هو الخسران المبين. ويحير العالم اليوم كما حيره بالأمس ظواهر لا يفسرها العلم التجريبي من هذه الخزعبلات التي يأتيها المجوس اليوكيون ولهم اليوم في العالم سطوة، ويتهافت الناس على كتبهم ومدارسهم يلعب بهم الشيطان كما يلعب بأساتذهم وكما يلعب بكل غافل لا شيخ له. إن الله تعالى يأذن بفتح ظلماني تغوص فيه همة الظلمانيين كما يفتح عز وجل لأحبابه الفتح النوراني.

كان الصحابة رضي الله عنهم يقاتلون مع الملائكة كما جاء في القرآن يؤيدهم ربهم بهم، وكانوا يؤكدون أنهم لم ينصروا بالكثرة وإنما انتصروا بتأييد الله. كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص قال : « أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر ما جمعت الروم من الجموع. وإن الله لم ينصرنا مع نبيه صلى الله عليه وسلم بكثرة عدد ولا بكثرة جنود. وقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معنا إلا فرسان، وإن نحن الا نتعاقب على الإبل. وكنا يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما

معنا إلا فرس واحد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركبه. ولقد كان يظهرنا ويعيننا على من خالفنا».

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب في وجه أعدائه يوم بدر ويوم حنين بوحي من الله فما منهم رجل إلا أصابه منه. وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى**﴾. فيد الله في هذه الآية وفي آية : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ تصديق للحديث القدسي المخبر بأن الله يحب عبده فيكون سمعه وبصره ويده.

روى الإمام مسلم عن أبي عباس رضي اله عنهما قال «بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ! فنظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقيا. فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط وأخضر ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : **صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة !**».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأنصار، فلما دنا من منزله سمعه يتكلم في الداخل، فلما استأذن عليه دخل عليه فلم ير أحدا. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعتك تكلم غيرك ! قال يا

رسول الله : لقد دخلت الداخل اغتماما بكلام الناس مما بي من الحمى، فدخل علي داخل، ما رأيت رجلا قط بعدك أكرم مجلسا ولا أحسن حديثا منه. قال : **ذاك جبريل، وإن منكم لرجالا لو أن أحدهم يقسم على الله لأبره»**[1].

وعنه رضي الله عنه قال : «كنت مع أبي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده رجل يناجيه، فكان كالمعرض عن أبي. فخرجنا من عنده فقال أبي أي نبي ! ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟ فقلت : يا أبت، إنه كان عنده رجل يناجيه. قال: فرحنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبي : يا رسول الله، قلت لعبد الله كذا وكذا فأخبرني أنه كان عندك رجل يناجيك، فهل كان عندك أحد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **وهل رأيته يا عبد الله قلت : نعم ! قال : فإن ذلك جبريل عليه السلام هو الذي شغلني عنك»**[2].

أولياء الله يحمون فتزورهم الملائكة، وتزور الأوهام الغافلين، وإن عبد الله يرى ما لم يره أبوه لمثال واحد من أصحاب الفتح، ولولا أن التجربة الشخصية تتكرر آلاف المرات لما عدا الأمر أن يكون اخبارا بالغيب يؤخذ بالإيمان أو يطرح. لكنها الحقيقة

---

1 البزار والطبراني بسند حسن.
2 أحمد والطبراني.

الصارخة يشهدها الذاكرون.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعد الخدري رضي الله عنه أن سيدنا أسيد بن حضير بينما هو في ليلة يقرأ في مربده، إذ جالت فرسه فقرأ. ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أخرى قال أسيد فخشيت أن تطأ يحيى. قمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها قال : فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة في جوف الليل اقرأ في مربدي إذ جالت فرسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **اقرأ ابن حضير !** قال : فقرأت ثم جالت أيضا ! ثم قال رسول اله صلى الله عليه وسلم : **اقرأ ابن حضير!** قال فانصرفت، وكان يحيى قريبا منها فخشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصحبت يراها الناس ما تستتر منهم**».

كان صلى الله عليه وسلم يتلو على أصحابه آيات الله تعدهم بالحق ما بعد الموت من نعيم وعذاب وتخبرهم بجنود الله وعوالمه فيؤمنون ويبلغ إيمانهم حد اليقين بل حق اليقين لأنهم يرون ما يوعدون به، من أوتي منهم النور الكامل، أو من فتح له فتح

في مشاهدة أكوان الله تعالى. لذلك كانت لهم الفاعلية الخارقة ولذلك كانوا يجاهدون ويطلبون الشهادة في سبيل الله. أخرج الشيخان عن جابر رضي الله عنه أنه لما قتل أبوه جعل يكشف عن وجهه الثوب ويبكي، فنهاه الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**تبكيه أو لا تبكيه، لم تزل الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه**».

إن لشياطين الجن اليوم سلطانا كبيرا على الذين يتولونه، وهذه ظاهرة يتجاهلها العقلانيون الكافرون، وكان للصحابة الإبرار ما يكون للمتقين أصحاب النور من سلطان عليه. أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : إني محتاج وعلي عيال، ولي حاجة شديدة ! قال : فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم : **يا أبا هريرة ! ما فعل أسيرك البارحة** ؟ قلت يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله. قال : **أما إنه قد كذبك وسيعود.** فعرفت أنه سيعود لقوله صلى الله عليه وسلم : **إنه سيعود** ! فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال : دعني فإني محتاج وعلي

عيال، لا أعود ! فرحمته وخليت سبيله. فأصبحت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك** ؟ قلت. يا رسول الله، شكا إلي حاجة شديدة وعيالا، فرحمته فخيلت سبيله ! فقال: أما إنه قد كذبك وسيعود ! فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إنه سيعود**. فرصدته فجاء يحثو من الطاعم، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم ألا تعود ثم تعود. قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت : ما هن ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿**اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ حتى تختم الآية فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخيلت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ما فعل أسيرك البارحة** ؟ قلت : زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخيلت سبيله. قال : **ما هي** ؟ قلت : قال لي : إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم : ﴿**اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾، وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح -وكانوا أحرص شيء على الخير- فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **أما إنه قد صدقك وهو كذوب ! تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال** ؟ قلت لا ! **ذلك الشيطان** !

الصدق

الذكر هو القرآن أنزله الله لنصدق ونصدق في العمل. كانت الجماعة الأولى جماعة مؤمنين متقين، رجل جاء بالصدق ورجال صدقوا بالحق، وشاهد صدق الرسول وصدق المرسل إليهم شاهدان : أحدهما من هذه الطاقة التي حولت التاريخ وفعلت فيه والثانية هي النورانية المتحققة في التجربة الشخصية في أحضان رجال الله الصادقين أهل الذكر.

رجل غير عادي يتكلم كلاما غير عادي ويدعو لسمو عن العادة بهر معاصريه بالصدق والخلق، وأيضا بالمعجزات والنوارنية، بل بهذه قبل كل شيء. ومن يكتبون سيرته الشريفة بعقلية تصنيفية مترفة يتناسون المعجزات والنوارنية ليبرزوا «الرجل العبقري» ويصفوه مع أبطال التاريخ. وحاشا ورسول الله نبي الله المؤيد من جانب الله الصادق الخارق لعادة الإنسانية الغافلة الأنانية.

بتروا لنا إسلامنا منذ واجه بضعف لا نهاية له الأفغاني ومحمد عبده العقلانية الوضعية الملحدة. سورت الفلسفة الوضعية على نفسها أسوارا تحشر بها الإنسان في المعطى المحسوس الضيق وتعامت عن واقع الإنسان المعقد قابعة في علمانيتها. وعرض محمد عبده إسلاما لا ينفي الغيلابة لكن يقرضها من أطرافها

ومن بعده تتابعت الغيبية العقول المترفة الخوارة فوارت الغيب وأولته ولتصور لنا «مودة» إسلام علماني سطحي فيه أخلاق وفيه إرادة لكنه «معقول» و«جاد» وكان الغيب خزعبلات كانت تليق بالأجيال الجاهلة ورفعها التقدم العلمي لكي لا تكون وصمة في صفحة عقلاء العصر المتألهين !

خرق العادة : كان المؤمنون الأولون ناس فطرة، جاءهم الرسول بمعجزات فمحا عنهم اشعاعها الشك في كونه رجلا خارقا للعادة ونفى عنهم الشك في مصدر رسالته. كانت عقولهم ساذجة لما تتحجر في عقلية مقلدة علمانية أو مشعوذة، وكانت لما يصغ لها العقل شباك عقلانية يغتال تلقائيتها وقابليتها للغوص في الهم الدائم هم المصير الذي يلازم السذج والعباقرة ويتخطى المسترجلين القانعين بلعبة العقلانية.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من التقى بعالم الغيب عندما برز له جبريل وكلمه في غار حراء وفزع الرسول وفر وتزمل وتدثر خائفا مما لا عهد له به. هذا صدق برئ يدفعه عليه الصلاة والسلام لاستشارة رجل من اهل الكتاب هو ورقة بن نوفل عنده علم بأمور الغيب. وجاءت الرسول بعد ذلك رسالة ربه على يد الملك الأمين تأمره أن يقرأ ليتعلم أنه خلقه الله من علق وأنه إلى ربه سيرجع وأنه تحت نظر الله يراه ويعرف المتقين

ويعرف المهتدين والمكذبين ثم تخبره أول سورة نزلت بأن نواصي الخلق بيد خالقها وأنه تعالى يستطيع أن يسفع كل ناصية كاذبة خاطئة.

كان صلى الله عليه وسلم يومئذ حديث عهد بهذا الأمر يتعجب ويخاف، ثم تعلم بتعليم ربه وأسلم له الأمر حين علم أنه فاطره يحدثه ويكلفه فتغيرت نظرته لنفسه وللعالم وتغير موقفه لأنه أصبح إنسان فطرة يسعى أمام ربه مراقبا له عالما أنه لا تخفى عليه خافية.

وهذا ما حدث أيضا لأصحابه، صدقوه لما اعتادوا من صدقه، لكنهم صدقوه أيضا لما رأوه من حاله حين ينزل عليه الوحي ولما خبروه بأنفسهم من اتصال بالغيب. وإن الله تعالى يطلب من كل من دعي صدقا أن يأتي ببرهان صدقه : ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، لذلك أعطى أنبياءه براهين على صدقهم، براهين موضوعية ملموسة.

ولما جاءت السنة الثامنة أو العاشرة بعد بدء الوحي أسري بالنبي وعرج به إلى السماء. حدث ذلك بكل بساطة، وتحدث به القرآن وأجمعت الأمة على أن ذلك حدث بجسمه الشريف وروحه معا. وفي حديث البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم أتي بدابة طائرة اسمها البراق تضع حافرها عند منتهى بصرها، فذهبت

به إلى المسجد الأقصى فصلى إماما بالأنبياء، ثم صعد السماوات فرأى فيها رسل الله وخاطبهم ورأى من ملكوت الله ما تحدث عنه بكل صدق وبساطة إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى فأوحى إليه ربه ما أوحى.

ولما أصبح وأخبر الناس كما يفعل الصادق الفطري تلقى المشركون خبره وهم لقبوه بالأمين يعلمون أنه لا يكذب، بالسخرية وتحدوه أن يصف لهم بيت المقدس. وكان صلى الله عليه وسلم زاره ليلا فلا يتبين جزئياته. قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم : «**لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، وأنا فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**».

هذا الكشف وهذه التجلية الإلهية عطاء من الله لا يزال يتجدد لصالحي هذه الأمة، ولا يزال يكذب المكذبون. وتعرض بعض المشركين لأبي بكر يحدثه بالخبر الضخم راجيا أن يزلزله، قال أبو بكر : «إن كان قال ذلك لقد صدق، إني لأصدقة على أبعد من ذلك».

ومما أوحى الله لنبيه عند سدرة المنتهى أن فرض عليه وعلى أمته الصلاة، فأصل الدين وعماده جاء في موقف غيبي يكنفه جو غيبي كما يكنف الرسول على مدى دعوته.

كذب المشركون بالإسراء والمعراج رغم الوصف عن التجلي، وكيف لا يكذبون خبر الصادق الأمين وهم كذبوا أعينهم قبلها عندما انشق القمر بإشارته صلى الله عليه وسلم وكانوا ليلتها قد تحروا وسألوا الواردين على مكة فأخبروهم أنهم رأوه منشقا فلقين!

ولما كثر أذى قريش وهمت بقتله صلى الله عليه وسلم أعطى من نفسه برهان الصدق فهاجر ودخل غار ثور بعد أن غاصت فرس طالبه سراقة في الأرض معجزة له صلى الله عليه وسلم. وفي غار ثور وارته الملائكة بأجنحتها كما أخبر.

إن المؤمنين الأولين كانوا في جاهليتهم من أكثر الناس ترفا في عاداتهم، فهناك طبقية طاغية، وهناك لهو وعبث، وهناك أوثان ورثوها عن أجداد يعظمونهم. وكان أهم مظهرهم لفتنتهم بالعادة، ما كانوا يكرهون الرسول لأنه يسفه آباءهم، فهذا أهم مظهر للعادة، إنهم ألفوا ما ورثوه ولزقوا به فسد عليهم منافذ النور. وجاء الغيب النواري فخرق الصحابة العادة عندما جلس العبد الحبشي مع سليل الأسرة القرشية العتيدة. وخرقوا العادة من أنفسهم لما صبروا للعذاب وخرقوها لما هاجروا وتركوا كل مألوف ومحبوب. وكان الغيب لازمتهم التي لا تتخلف، إذا حلت بهم أزمة دعوا الله فاستجاب دعاءهم، وإذا عطشوا نبع لهم الماء من اليد الشريفة، ويكثر لهم الطعام بدعائه وبركته صلى الله عليه وسلم.

كان شاهد الغيب حافزا للعمل، ولم يكن قعودا مع الأوهام كما أصبح في عهود الفتنة حين اختلط صدق الصادقين بشعوذة الفتان. كانوا رضي الله عنهم مجاهدين يطلبون الجنة وهي غيب ويشتاقون إليها ويطلبون الشهادة فيقتلون ويقتلون. وكانوا ينفقون ويتزودون لا يعتمدون على النبع الغيبي.

كانوا صادقين مع ربهم فصدقهم الله ولايته ونصرته. وفي مواقف جهادية بارزة ظهر التأييد الغيبي[1] في أجلى مظهره، في بدر وحنين وفي جل المغازي كانت الملائكة ظهيرا ومع ذلك كان معولهم على الجهد البشري.

أخرج البخاري وأبو نعيم والطبراني والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي رضي عنه إلى البحرين تبعته. فرأيت منه خصالا ثلاثة لا أدري أيتهن أعجب ! انتهينا إلى شاطئ البحر فقال. سموا الله واقتحموا، فسمينا واقتحمنا، فعبرنا وما بل الماء أسفل خفاف إبلنا. فلما قفلنا سرنا معه بفلاة من الأرض وليس معنا ماء، فشكونا إليه. فصلى ركعتين ثم دعا، فإذا سحابة مثل الترس ثم أرخت عزاليها فسقينا واستقينا. ومات فدفناه في الرمل. فلما سرنا غير بعيد قلنا يجيء سبع فيأكله، فرجعنا إليه فلم نره- يعني

1 اقرأ الجزء الرابع من كتاب «حياة الصحابة» للشيخ محمد يوسف رحمه الله.

في القبر – وزاد أبو نعيم في رواية أخرى: فلما رآنا ابن مكعبر عامل كسرى قال : لا والله لا نقابل هؤلاء (خوفا من قتالهم) ثم قعد في سفينة فلحق بفارس.

وأخرج الطبري وأبو نعيم هذا الحديث العجيب الذي يصور لنا جهاد الصحابة لما توغلوا في بلاد فارس يحملون معهم الإيمان ويحملون معهم النوارنية الغيبية، عن ابن الرفيل قال : لما نزل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بهر سير وهي المدينة الدنيا، طلب السفن ليعبر الناس إلى المدينة القصوى. فلم يقدروا على شيء، وجدهم قد ضموا السفن. فأقاموا ببهر سير أياما من صفر يريدونه على العبور (عبور دجلة) فيمنعه الإبقاء على المسلمين (يخاف عليهم)، حتى أتاه أعلاج فدلوه على مخاضة تخاض إلى صلب الوادي، فأبى وتردد عن ذلك. وفجأهم المد، فرأى رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمتها فعبرت، وقد أقبلت من المد بأمر عظيم. فعزم، لتأويل رؤياه على العبور. فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه فقال : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشوكم في سفنهم. وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه. وإني قد عزمت على قطع هذا البحر (يعني دجلة) إليهم. فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل ! فندب سعد الناس إلى العبور فقال : من

يبدأ ويحمي لنا الفراض (المكان المقابل من الماء) حتى يتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟ فانتدب له عاصم بن عمرو، وانتدب بعده ستمائة رجل من أهل النجدات واستعمل عليهم عاصما. فسار عاصم فيهم حتى وقف على شاطئ دجلة ثم قال : من ينتدب معي نمنع الفراض من عدوكم ؟ فانتدب له ستون منهم فجعلهم نصفين، على خيول إناث وذكور ليكون أسلس لعوم الخيل. ثم اقتحموا دجلة. فلما رأى سعد عاصما على الفراض قد منعها أذن للناس في الإقتحام وقال : قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وتلاحق عظم الجند، فركبوا اللجة وإن دجلة لترمي بالزبد وإنها لمسودة، وإن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقترنوا كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض ففجأوا أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم فأجهضوهم وأعجلوهم على حمل أموالهم. ودخلها المسلمون في صفر سنة ستة عشرة، واستولوا علىكل ما بقي في بيوت كسرى من الثلاثة الآلاف ألف ألف وما جمع شيرويه ومن بعده».

صدق الهجرة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وورث الصالحون من أمته بركته ونورانيته. كان الغيب في عهده شاهدا يكتنفه التنظيم والعمل الإرادي الجهادي، أخوة منظمة وطاعة

منظمة وجهاد مستمر. كان صلى الله عليه وسلم تظهر عليه وعلى المؤمنين المعجزات تصبحهم وتمسيهم فتزيدهم يقينا، بل كان الرسول الكريم يحدثهم عن الغيب الذي لم يروه ويتلو عليهم القرآن فيه آيات الخالق الفاطر من قصص الأولين يثبتهم بها ويعطيهم الأسوة أسوة الإيمان والجهاد. بل كان يقص عليهم من أنباء الأولين ما يعجب له السامعون ليزدادوا، إيمانا حدثهم مرة عن رجل ممن كان قبلنا حمل على بقرته حملا فخاطبته. فلما تعجب متعجب قال الصادق الأمين آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر!

ما عدا الملاحظون من أهل الملل العقلانية الحق إن وصفوا الإسلام بأنه غيبية ! إنما يخطئون إذ يقارنون شعوذة المشعوذين المتواكلين ويقرنونها بالغيب الحق. إن الغيب عند الصادقين واقع علمي يخضع للتجربة، الفرائض والنفل أعمال تعبدية حسية لكنها تعطى المؤمن نورانية يحسها في نفسه. ولا يزال العبد يتقرب إلى ربه بالنوافل حتى يحبه ويتولاه ويكشف له عن أسرار ملكوته فيرى ما لا يراه الناس كما رأى عبد الله بن عباس ولم ير أبو. وما كان صلى الله عليه وسلم يريد المسلمين أن يقرأوا خبر الغيب في القرآن ليتواكلوا بل ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ولا كان يقص عليهم خبر البقرة المتكلمة إلا ليؤكد لهم بأنه هو والصديق أبو بكر والشهيد

عمر يؤمنون بهذا، والإيمان مزية وفضيلة ولا إيمان بدون غيب.

انظر لهؤلاء الصادقين المؤمنين بالغيب المصدقين كيف كان اقبالهم على العمل وكيف كانت فاعليتهم في الجهاد وكيف كانت عزيمتهم.

هاجر النبي وأصحابه من دارهم لدار الغربة والجهاد بعزم لا مثيل له. ولما خاف أبو بكر في الغار قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿**لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا**﴾ وقال له : **ما ظنك باثنين الله ثالثهما** !. ولو كانا متواكلين لقعدا في دارهما واذن لما حق لهما أن يعتقدا أن الله معهما لأن الله معهما لأن الله مع المتقين المحسنين لا مع الجبناء المتواكلين الكسالى !.

الهجرة اقتلاع للعادة من جذورها وانتزاع للنفس المتزكية مما ألفته وأنست إليه لتأنس بموعود الله بموعود الله للساعين المجاهدين. انتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإذن من ربه في الهجرة وانتظر أبو بكر وأعد عدة السفر وأعد الراحلتين، فما كان ينبغي أن تتم الهجرة على ظهر البراق ! لتبقى لنا الأسوة الجهادية منفصلة عن الغيب متصلة بالإيمان بالغيب. يفعل العبد بإرادته الحرة المختارة مقتحما العقبة متحملا الألام والخوف ثم ينتظر أن يصنع له ربه. ولما خبا الإيمان في عهود الفتنة ووهنت العزائم وطغت الشعوذة فأصبح المسلمون المفتونون ينتظرون المخلص

فارسا ينزل من السماء، ولا يكون المخلص إلا مهاجرا مجاهدا يسعى على الأرض يؤيده الله بالغيب لكن يفعل بالإيمان الذي يحدو الإرادة البشرية ويوجه الجهاد البشري. وعندما يشاء الله أن ينزل نبي الله عيسى عليه السلام، فعندما يتصل عالم الغيب بعالم الشهادة، وقد أتى يومئذ أمر الله الذي لا نعلم منه إلا ما علمنا الصادق الأمين المهاجر المجاهد صلى الله عليه وسلم.

نموذج لهجرة الصحابة وما كان من تعبهم وألامهم نجده في حديث هجرة أبي سلمة وأم سلمة رضي الله عنهما. عن أم سلمة رضي الله عنها قالت[1] : لما أجمع أبو سلمة رضي الله عنه الخورج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سَلَمة في حجري. ثم خرج يقود بي بعيره. فلما رأته رجال بني مغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه. قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد أسد رهط أبي سلمة وقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا قالت : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلق به بنو عبد أسد وحبسني بنو المغيرة عندهم. وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت : ففرق بيني وبين ابني

1 ابن اسحاق.

وزوجي. قالت فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبا منها، حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني. فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟ قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت. قالت فرد بنو عبد أسد إلي عند ذلك ابني. قالت فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت : وما معي أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة أخا بني عبد الدار. فقال : إلى أين يا ابنة أبي أمية ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة. قال : أوما معك أحد ؟ قلت ما معي أحد إلا الله وبني هذا ! فقال : والله ما لك من مترك! فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي. فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه. كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجر ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها. فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال : اركبي. فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمر بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية — وكان أبو

سلمة بها نازلا – فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا إلى مكة. فكانت تقول : ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة !».

مأساة رثى لها حتى الجاهلي، كان عثمان بن طلحة (وقد أكرمه بالإسلام من لا يضيع أجر من أحسن عملا). لكن عزم أبي سلمة وأم سلمة وصدقهما كان أقوى من أن تفت فيه فتنة العصبيات. وبصدق الهجرة وبرهانه الواضح ابتدأ المسلمون حياة الجهاد في الجماعة المبايعة على السمع والطاعة. وغدا ستبدأ هذه الأمة جهادها بصدق الهجرة من الفكر الجاهلي والسمت الجاهلي متحررة من عقالها مؤمنة بربها وبغيبه، بجنته وناره وملائكته وكتبه ورسله وقدره الذي يتضمنه موعوده بالاستخلاف في الأرض لمن آمن وعمل صالحا.

البذل

إن اقتحام العقبة ليس عملية واحدة تنتهي ويبلغ مداها، إنما هي عملية مسترسلة دائمة. والملكية وما يتبعها من تكاثر وحب للقناطير المقنطرة هي العنصر الأساسي في جاذبية الأرض وحولها تعشش الأنانية وحولها تتألف العادة وبها يترف الإنسان أكثر ما يترف، وعندها تخمد همته وترتكس إرادته إلا إن وقي شح نفسه. هذه النفس جبلت على الشح، فهي في حالتها الجاهلية أو المفتونة همزة لمزة منكبة على القيم المادية، وليست تنفتح لخير إلا إن أحبت ما يعوض لها الحب الأولي الذي جبلت عليه.

كان الأنصار رضي الله عنهم ﴿**يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ فكانت المحبة حافزا للبذل وكانت صدورهم سليمة لا حسد فيها فلا مجال للتكاثر.

وعالمنا المعاصر عالم تكاثر، وبناء الإسلام يتوقف على البناء الاقتصادي، وإلا فلا إسلام، لأن الفقر كاد أن يكون كفرا كما يقول الإمام علي عليه السلام. فالمسلم الفردي يعظم المال ولا يبتذله فلا ينفقه، الأيدي مقبوضة على القيمة الوحيدة المعظمة. إن الثوراث الاشتراكية والشيوعية تنزع الملكية لتفصل بين الناس

والمال، ولا بد للإسلام المنبعث أن تكون له حرارة حياة جديدة وباعث محبة جديدة يفصل بين الإنسان والمال، ليبتذل المال ويبذل. وقد يلزم أن يتضافر وازعا السلطان والقرآن في تهيء وسط يبتذل فيه المال ويعظم فيه الإنسان. إن الإسلام يستعمل المال استعمالين : ففي حق حديثي العهد بالإسلام يكون المال الذي عند المسلمين مطلبا من مطالب المسلم الجديد ومشجعا، فلذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي المال لمن اعتنقوا الإسلام حديثا، عملا بأمر الله الذي جعل من مصارف الزكاة إعطاء المؤلفة قلوبهم. هذه القلوب لا زالت منكمشة على عادة التكاثر وحب الدنيا فتعان على اقتحام العقبة وتستمال بالعطاء السخي. والاستعمال الثاني للمال بالنسبة للمؤمنين أن يبذل وينفق في سبيل الله يقتحم المؤمن بالبذل عقبة شح نفسه المتأصل فيه. فالبذل للمؤمن تزكية وتطهر وبرهان على الصدق للجماعة ومادة بناء وتعاون.

وربما يكون لزاما أن يسبق وزاع السلطان عند بناء الإسلام المنبعث لكي يبذل المال ريثما يفتح الله على الأمة حاملة اللواء وييسر، فإنه من اليسير أن يستيقظ حماس باذل غداة نشر اللواء الإسلامي. لكن البذل الذي نحتاجه يومئذ بذل دائم، بذل يتأصل فيصبح عادة بدل الشح لتجميع رأس المال ولتسوية الأرزاق.

وليس يكفي في ذلك صدقات منثورة شرع الله الزكاة فهي تؤخذ من كل مسلم قسرا إن امتنع ويقاتل عليها ويقتل. هذا لا جدال فيه، وإنام نتحدث عن الحق الذي للجماعة في الأموال زيادة على الزكاة. وقد روى البخاري عن سيدنا جابر حديثا في الفضول وإنفاقها، أمر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن ينفقوا كل ما زاد عن ضرورتهم من ظهر أو طعام، قال جابر : «حتى ظننا أن لا حق لاحدنا في فضل».

في كل بلاد الإسلام ترف مرد وفقر مخز، وتسوية كل هذا الظلم قد لا تتهيأ بوازع القرآن وحده، لأن النفوس زيادة على جبلتها ألفت البذخ. فنحن نعيش، من وجد إلى ذلك سبيلا، على مستوى المجتمعات المستهلكة ونستورد بضائع الترف كما نستورد أفكار الترف. وما يسعى مترفو الفكر إلا لكسب متاع المتمولين إلا أن يكونوا من هذه الجرثومة النادرة من المثاليين الثوريين، فأولئك يخدمون أوثانا أخرى.

شهد الله للأنصار الكرام بالمحبة والإيثار وسلامة الصدر، وربهم أعلم بهم. ونستخرج نحن درسا تاريخيا يعلمنا أن المؤمن لا يسلم من مطالب نفسه أبدا بل يلزمه أن يعالجها باستمرار ويعاني ويدافع، أخرج الشيخان وغيرهما أن رسول اللهصلى الله عليه وسلم قسم غنائم ثقيف بعد غزوة حنين وخص المؤلفة قلبوهم

من أهل مكة بالعطاء الجزل، فوجد لذلك بعض الأنصار وقالوا : «يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم !».

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار، فلما اجتمعوا عنده أغلق الأبواب ثم قال : «**يا معشر الأنصار ! ما قالة بلغتني عنكم ؟ ألم آتيكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟** -كلما قال لهم شيئا من ذلك قالوا : بلى، الله ورسوله آمن وأفضل-. ثم قال : **ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟** قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. فقال صلى الله عليه وسلم : **أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتكم وصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك** فصاحوا: بل المن علينا لله ورسوله!

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لعاعة** (بقلة خضراء) **من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت**

أمرءا من الأنصار! ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ! وإنكم ستلقون أثرة من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض. اللهم ارحم الأنصار ! وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلت لحامهم وقالوا : رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا!»

كان لا بد من هذا الموقف الإيماني العظيم لتنطفيء غائلة حب الدنيا والتنافس عليها من قلوب مؤمنة، استيقظت فجدد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم محبة وإيمانا. التاريخ كله يدور على هذه اللعاعة من الدنيا يتنافس عليها الناس. وغليان عصرنا أشد من كل الاضطرابات السابقة لأن الناس يتكتلون ولأن بأيديهم وفي عقولهم أسلحة للتنافس ما عرفها الأولون. وبهذه الأسلحة يريد المفتونون منا أن نقاتل الظلم والأثرة ولا ينظرون إلى الجاهلين كيف ينقلب بهم العنف الثوري من أثرة سوداء إلى أثرة حمراء ملتهبة طبقيتها أطغى وأكثر بغيا بتقنيتها وعلمها!

وعند الإسلام دواءان لعلاج الأثرة أحدهما الإيمان، وثانيهما السلطان العادل القوي. ويجتمع العلاجان في المبايعة على تحمل الأثرة كما بايع سيدنا عبادة بن الصامت. وليس معنى هذه المبايعة أن يوطد المسلم نفسه على أن يظلم ويذهب حقه وإنما معناها أن لا يأخذ حقه عنفا بيده حتى يكون السلطان الفيصل.

هذه بين أعيننا شعوب جاهلية تتعلق بمثاليات ثورية فتبذل المال وتسترخصه، وما بلغ أحد منها معشار بذل المؤمنين الأولين وسخائهم. وإنما قام الإسلام ويقوم بالمال، فلا غرو أن نجد في أصل تاريخنا إنفاقا عظيما، ولا غرو أن يكون الإنفاق شرطا أساسيا في كمال الإيمان بل في وجود الإيمان. في القرآن الكريم آيات كثيرة تعرف المؤمنين تعريفا حصريا وتبدأ بـ« إنما المؤمنون» وكلها تذكر الإنفاق وآيات الجهاد لا تفرق أبدا بين جهاد المال والنفس، وقد جعل الله الفلاح ونيل البر في النفقة، قال : ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾.

حياة الصحابة مرآة تعكس صورة البيان القرآني والبلاغ، وهذه نبذة قصيرة من سخائهم رضي الله عنهم : عن أم سلمة رضي الله عنها قالت[1] : دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم الوجه، فخشيت ذلك من وجع. فقلت : يا رسول الله ! مالك ساهم الوجه ! فقال : من أجل الدنانير السبعة التي أتينا بها أمس، أمسينا وهي في خصم الفراش (طرفه). وأحاديثه صلى الله عليه وسلم في مثل هذا كثيرة، لا يدخر ما لا أبدا. وكيف لا والله تعالى توعد الكانزين !. وكان أبو ذر رضي الله عنه يأخذ الآية المانعة للكنز يؤيدها بحديث النبي صلى الله

1 الإمام أحمد وأبو يعلى.

عليه وسلم ويلتزم بترويج المال ودفعه حالا. عنه[1] رضي الله عنه أنه جاء إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فأذن له، وبيده عصا. فقال عثمان : يا كعب! إن عبد الرحمن مات وترك مالا، فما ترى فيه فقال : إن كان قضى فيه حق الله فلا بأس عليه. فرفع أبو ذر عصاه وضرب كعبا وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**ما أحب لو أن هذا الجبل لي ذهبا أنفقه ويتقبل مني أذر منه خلفي ست أواق!**»

عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2] : «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أن نتصدق، ووافق ذلك مالا عندي. فقلت : اليوم أسبق أبا بكر رضي الله عنه أن سبقته يوما! فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما أبقيت لأهلك** ؟ قلت : أبقيت لهم. قال : **ما أبقيت لهم** ؟ قلت : مثله. وأتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال : **يا أبا بكر ! ما أبقيت لأهلك** ؟ قال : **أبقيت الله ورسوله**. قلت : لا أسبقه إلى شيء أبدا!

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «ما رأيت امرأتين أجود من عائشة فكانت تجمع

1 الإمام أحمد والبيهقي.
2 أبو داود والترمذي.

الشيء إلى الشيء حتى إذا كان اجتمع عندها قسمت. أما أسماء فكانت لا تمسك شيئا لغد».

وأخرج الشيحان عن عائشة رضي الله عنها قالت : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا!** قالت : فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا. قالت : وكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق» يا لروعة النموذج : عمل وبذل فأينكن أيتها المؤمنات!

كان الموسرون ينفقون على الجهاد وينفقون على إخوانهم، فقام على نفقتهم جماعة المؤمنين في المدينة بما بذل الأنصار وقام على نقتهم جهاد النبي وفتحه للبلاد.

ولا تحسبن أن جماعة المؤمنين جماعة نصفها كسالى متطفلون ونصفها محسنون متطهرون. فكل قادر كان يعمل، وعلى الحاجة كان ينفق ! ومع الشهامة والرقة والمحبة!

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «قالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم (حين نزل المدينة مع المهاجرين) أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ! قال : لا ! فقالوا : أفتكفوننا المؤونة (العمل) ونشرككم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : **إن إخوانكم قد تركوا الأموال**

والأولاد وخرجوا إليكم ! فقالوا : أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أو غير ذلك ؟** قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : **هم قوم لا يعرفون العمل** (لا يتقنون صناعة الغراسة لأنهم من مكة وهي لا نخل بها) **فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر**. قالوا : نعم

وأخرج البزار عن جابر رضي الله عنه قال : «كانت الأنصار إذا جزوا نخلهم قسم الرجل ثمره قسمين إحدهما أقل من الآخر. ثم يجعلون السعف (جريد النخل) مع أقلهما (ليبدو وكأنه أكثر)، ثم ... يخيرون المسلمين (من إخوانهم المهاجرين) فيأخذون أكثرهما (الذي يبدو قليلا لأن تحت القسمة الأخرى سعفا)، ويأخذ الأنصار أقلهما من أجل السعف، حتى فتحت خيبر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **قد وفيتم لنا بالذي كان عليكم، فإن شئتم أن تطيب أنفسكم بنصيبكم من خيبر ويطيب ثماركم فعلتم**. قالوا : إنه قد كان لك علينا شروط ولنا عليك شرط بأن لنا الجنة، فقد فعلنا الذي سألتنا بأن لنا شرطنا. قال: **فذاكم لكم !**»

أخرج الطبراني عن أبي عقيل رضي الله عنه أنه بات يجر الجرير (الحبل) على ظهره على صاعين من تمر (أجرة على عمله). فانفلت بأحدهما إلى أهله ينتفعون به، وجاء بالآخر يتقرب به

إلى الله عز وجل. فأتى به رسول الله صلى الله عليه سولم فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **انثره في الصدقة**. فقال فيه المنافقون، وسخروا منه: ما كان أغنى هذا أن يتقرب إلى الله بصاع من تمر ! فأنزل الله عز وجل : ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني مجهود ! فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : لا ! والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ! ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذالك، حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: **من يضيف هذا الليلة رحمه الله** ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ! فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت لا، إلا قوت صبياني. قال : فعلليهم بشيء، فإذا أرادوا العشاء فنوميهم، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل. قال : فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين. فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : **قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما !**».

تقلل وبذل ووحي الله يزكي كل ذلك، ويعجب الله فرحا بما

فعل عباده المتقون. إن للصحابة ولكل مؤمن محسن حياة روحية ورباطا مع ربه ومحبة له ولرسوله وانتظارا لموعوده في االدار الآخرة. يملأ كل ذلك قلبه نورا ويفعم أيامه حبورا فتذل في عينه الدنيا ويعز الله ورسوله ويعز المطلوب فيهون الطلب وينشط المؤمن لاقتحام عقبة الشح.

إن هذه الأنا تطلب خلودا فينكب الهمزة اللمزة على ماله يعدده ويستغني عن ربه يحسب أن ماله أخلده. كلا ! إنما تخلد الأنا بعد التزكى والتطهر وبعد أن تولد الروحانية العلوية من حطام النفس الخبيثة بالصحبة والذكر والصدق. ولا يبذل المرء ماله إلا قهرا في مجتمع الجاهلية ويبذله المؤمن لقاء موعود الله.

عن أنس[1] رضي الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله، إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطي بها (يحب أن يزيدها إلى بستانه ليستوى البستان) فأمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أعطه إياها بنخلة في الجنة ! فأبى. قال : فأتاه أبو الدحداح (وهو صاحب الحائط) فقال : بعني نخلتك بحائطي. قال : ففعل. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، ابتعت النخلة بحائطي فاجعلها له فقد اعطيتكها ! فقال صلى الله عليه وسلم : كم من عذق رداح[2]

1 رواه الإمام أحمد والطبراني والحاكم.
2 نخلة ثقيلة بالتمر.

لأبي الدحداح في الجنة ؟ قالها مرارا. قال : فأتى امرأته فقال يا أم الدحداح ! اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة ! فقالت : ربح البيع !»

يقول الله تعالى : ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

كان بيع الله وموعوده منهم رضي الله عنهم كأنه رأي العين لإيمانهم ويقينهم. لذلك بذلوا واستحبوا الآخرة على الحياة الدنيا.

العلم

أغمي على الفكر الإسلامي منذ أصبحت متعذرة تربية الأعداد الهائلة من الذين دخلوا في دين الله أفواجا، دخلوا فيما دخل فيه الناس يفيئون إلى ظل دولة قوية عادلة. ما جالسوا وما صحبوا إلا قليلا. ووفد كل منهم بثقافته وتناول العلم النبوي تناوله الخاص، فكان القُصَّاص بإسرائلياتهم إلى أن أنشبت الفلسفة الإغريقية عقلانيتها في العلم النبوي. فتناول المسلم هذا العلم الغيبي بالمنطق لغايات شريفة أحيانا وأحيانا تناوله الموسوسون بنياتهم. بقي رجال الحديث يرثون العلم النبوي الحق، فكانوا يقرأون القرآن ومعه الحديث يفسره عملا نظمه رسول الله وزكاه، وكانوا يروون الحديث ويربطونه بالوحي، وكان منهم رضي الله عنهم أئمة الهدى.

وتفرعت فروع العلم النبوي لحاجات «مجتمع» يترعرع بسرعة وتتشكل معاملاته، وحظي علماء الفروع بالمكانة الأولى في الدولة لأن الدولة ما كان يهمها أمر الدعوة بقدر ما كانت تحرص على تنظيم الدولة. وخدم العلماء الدولة بعد أن قل أمثال الإمام أحمد وانعزل العلماء العاملون بإيمانهم الغض الطري الذي حافظوا عليه كما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية. وكان

لرجال الحديث إسناد متسلسل في رواية الحديث وللصوفية إسناد متسلسل أخذوا عن طريقه تربيتهم .

أما الحديث والفروع فدونت وتناقلتها الأجيال، فأخذت تجف شيئا فشيئاحتى تصل إلى حرفية جامدة تماما لاصلة لها بالحياة العملية إلا من بعيد بعيد. فإذا بلغ تدهور «المجتمع» الإسلامي آخر دركاته وجاءت الجاهلية بتكنولوجيتها تسحب معها «علوما» مادية واحتار وارث الحرفية التاريخية في دار الإسلام فإما يتحجر وينفى علوم الكفار مفضلا الإحتفاظ بإيمانه الغيبي وإما «ينفتح» فينادي مع المنادين بأن الإسلام ينبغي أن يساير العلم، ويفاخر الجاهلية بأن القرآن سبق لاعلان هذه الحقيقة أو تلك بأربعة عشر قرنا! ما قدروا الله حق قدره إذ قارنوا بين الحق المطلق وبين ركض الإنسان الواهن في تعلم جزئيات الكون ! وبين أيدي أولئك وهؤلاء يصان العلم النبوي إدراكا وقولا، وبين أيدي «ديدان القراء» كما يعبر الرسول صلى الله عليه وسلم يبتذل في خدمة الطاغوت وتبرير الفسوق. أما العمل بالعلم النبوي فيتفاوت فيه العلماء فإن منهم المتقون.

وأما الصوفية فتوارثوا التربية الإسلامية كاملة، وحاولوا تدوينها بصيغ فما وفقوا، وساحوا يذكرون ليلى والكأس باستعارات لا نجدها في كتاب الله وسنة نبيه، لأن الصيغة الكاملة الصحيحة

هي في كتاب الله وسنة نبيه، وضرهم التدوين. وكفروهم لعجزهم في التعبير عن حقائق صرح الله بها ورسوله. وضرهم تعظيم الناس على مر العصور لأنوار الولاية البادية عليهم حتى ادعى الأدعياء وكذب المنافقون، وانتسب كل من هب ودب للموكب النوراني بلبس المرقعات وتلفيق العبارات.

وكان عن شأن العلماء أن يكونوا متبوعين، لكنهم ضعف منهم الإيمان فأصبحوا تابعين، تبعوا الفلسفة في القرون الأولى، ونسوا الغيب فأغلقت عليهم نورانية القرآن فهم اليوم أتباع خانعون أمام التكنولوجية الإنسانية التي أصبحت معيارا يقاس به حق الله وغيبه وعلمه الذي جاء به نبيه.

إن المرء لا يقسو إلا على أحبابه، ولطالما امتهنوا علماء الشريعة يتيهون عليهم بالحضارة الإنسانية وعلومها، حتى إن علماء الشريعة يفضلون أن يلقبوا استاذا ودكتورا لكي لا يتميزا عن زملائهم من طلاب علوم المادة. وشتان بين علم الأنبياء وعلم الأغبياء، الجاهلين لقيمة الإنسان ومصيره!

لسنا ننقص من أهمية التكنولوجية ودورها في إحياء هذه الأمة وإعطاءها القوة. فنحن نعتقد أن الأهداف الإسلامية في تميزنا واستقلالنا عن الجاهلية لا يمكن تحقيقها إلا بالتكنواوجيا وتنظيمها للحياة اليومية والاقتصادية والجماعية، ونحن نعتقد أن

المقاصد الإيمانية في بناء دولة إسلامية توحد الأمة كلها من حولها لن تتحقق إلا بعلم تكنولوجي إسلامي نقتبسه ونمتلكه. لكن هذا كله أحلام واهية إن لم نربط همتنا كأمة وكأفراد بالغايات الإحسانية الغيبية.

أرأيت لو أن كاتبا كتب لك في مقدمة كتابه دليلا يحدد فيه معاني مصطلحاته، أفيمكنك فهم الكتاب إن نبذت الدليل ؟ هكذا كتاب الله تعالى أخبرنا في مقدمته أنه لن يهتدي به إلا المتقون المؤمنون بالغيب : ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾. علماء الشريعة غاصوا في الفتنة مع الأمة ففقدوا القدم التي كانت لهم، وفاتهم ركب المعرفة على ما يظنون فتقاعسوا. ولو اكتشفوا الغيب بتجربة شخصية لوجدوا أن الركب الوحيد الذي له عند الله حرمة هو ركب المؤمنين، ولعلموا أن ثم جاهلية وإسلاما، وظلمة ونورا. وإذا لا نفتح لهم القرآن ولو جدوا الكنز والسر الذي بعث الإسلام أول مرة ويبعثه غدا.

أبو الدحداح رضي الله عنه اشترى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نخلة في الجنة بحائطه كله. هذا رجل عالم عمل بعمله. وضيف رسول الله المجهود آواه صحابي فقير فتعجب الله من صنعه، يخبر بذلك رسوله. وهذا رجل عالم عامل. وكل الصحابة كانوا علماء بعلم النبوة الذي مصدره غيب وملابسات العمل

به متشكلة بالغيب، والجزاء عليه غيب، لكنه غيب كالشهادة وأقوى.

ما كان الإيمان بالغيب ينفصل عن العلم والتعلم في عهد الصحابة.

أما العهود المتأخرة فإنك تجد علماء حرفيين متاعهم ألفاظ قالها فلان عن مائة فلان يعارض بعضهم بعضا أو يعلق عليه في موضوع حديث نبوي أو آية قرآنية تبقى أثناء الشروح على الهامش لا ماء بها لأن الماء غاض من القلوب. وتجد ذاكرين مؤمنين يفضلون الأمية المسالمة على التعلم والعلم وما هكذا كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. إنما كانت لهم مجالس للإيمان فيها علم وتعلم وفيها ذكر يسمونها مجالس الإيمان. والعلم ذكر فإذا سمعنا وعد رسول الله بالسكينة والرحمة للجالسين على الذكر فإن ذلك لا ينفي من أصناف الذكر هذا الصنف الشريف الذي هو العلم النبوي علم القرآن والسنة الطاهرة.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال[1] : «كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يأخذ بيدي فيقول : تعال نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غلياناها». وعند ابن عساكر عنه قال : كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني قال لي :

1 الإمام أحمد والبيهقي والطيالسي واللفظ له.

يا عويمر، تعال نتذاكر ساعة، فنجلس فنتذاكر ثم يقول : هذا مجلس الإيمان، مثل الإيمان قميصك، بينا أنك قد نزعته إذ لبسته، وبينا أنك قد لبسته إذ نزعته، القلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غلياناها».

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي ذر رضي الله عنه قال : «كان عمر مما يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول : قم بنا نزدد إيمانا فيذكرون الله عز وجل».

واخرج أبو نعيم عن الأسود بن هلال قال : «كنا نمشي مع معاذ رضي الله عنه فقال لنا : اجلسوا بنا نؤمنْ ساعة».

إن العلم الذي كانوا يطلبونه في الذكر والمذاكرة علم غيبي يزيدهم إيمانا. وعن هذا العلم يخبرنا قرآن الله عن غيب الله يضرب الله لنا الأمثال بأنبيائه لنتأسى بهم ونفعل فعلهم حين قال : ﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾ ؟ نبي الله ورسوله يتبع عبدا ما هو نبي ولا مرسل ليعلمه الرشد. وصدق الله تعالى حين صرح بما لا يقبل تأويلا : ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً**﴾.

علم الإيمان ومجالس الإيمان هما المظهران الرئيسيان للحياة الإيمانية الإحسانية التي دفنوها تحت اسم «الصوفية». وفي هذه المجالس صحبة وذكر ومذاكرة وعلم. علم الاتباع للسنة وعلم

يفيضه الله على قلبك من لدنه كفاء اتباعك وتزكيتك للنفس الخبيثة انتزعتها من أنانية الغرور وعادات الثبور.

إن تفرغ علوم الشريعة وتجردها من الغيب والإيمان سبب أصلي في تدهور المسلمين. ولكي يعود الإسلام حياة ويكون العلم عملا لا بد لنا من علم يجمع لنا شتات التخصص المدني الذي أضاع الوراثة النبوية في علم منهاجي معتصم بالقرآن لا بث مع القرآن مشتق منه، يرجع لنا كل شتات إلى نصابه ويخطط لنا حياة إيمانية غيبية في وسط الفتنة المعاصرة ويعطينا هذه الحياة.

العلم المنهاجي اكتشاف جديد للمحجة البيضاء، يعيد طرواة الإيمان بالغيب لأنه يدل على الطريق العلمي التجريبي لاكتشاف الغيب واكتشاف سر الإسلام ومفتاح القرآن بالصحبة والمحبة والذكر. إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأن الإسلام يجدده شخص يبعثه الله على رأس كل مائة سنة ويحدثنا أن التجديد يكون بلا إله إلا الله فنحن نجرب باحثين عن شخص يلقننا كلمة الحق فيتجدد إيماننا. وهي تجربة شخصية عاشها أجيال من أهل التزكية أهل القرآن فرادى في زاوية منعزلة وجماعات في رباطات الجهاد، وستعيشها الأمة كلها غدا حين يكشف الغطاء وتنجلي عن العلم الحق غشاوات الحرفية والسطحية.

كان الصحابة لا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض

كما كان يفعل بنو اسرائيل، بل كانوا يأخذونه كله. وكان الأمر عندهم فطريا لأنهم ناس فطرة علموا أن الخالق سبحانه بيده مقاليد الأمور لأن حياتهم اليومية كانت صورة طبق الأصل لما جاء به القرآن، وحي الله ينزل على نبيه بينهم والغيب والتأييد الغيبي محيط برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان كل ما يبلغه الرسول هداية منزلة فكان العلم به جزءا من العلم المنهاجي، علم يكون سلوكا كله لا بعضه. فلذلك كانوا حريصين على تعلمه يتناقلونه بصدق ويحفظونه ويعلمونه.

عن قبيصة بن الخارق رضي الله عنه قال 1 : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما جاء بك؟ قلت : كبر سني ورق عظمى فأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله به، قال : ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك ؟ يا قبيصة، إذا صليت الصبح فقل ثلاثا : سبحان الله العظيم وبحمده تعاف من العمى والجذام والفالج. **يا قبيصة، قل : اللهم إني أسألك مما عندك وأَفِضْ علي من فضلك وانشر علي من رحمتك وانزل علي من بركتك**».

هذا هو العلم النبوي ! ولا تعجب أن يكون المفتونون من أبنائنا يسخرون من مثل هذا العلم لتعارضه التام مع ما يلقنه لهم الفكر الوضعي. ذكر الله يبرئ من العمى والجذام والفالج ؟!

والحجر والشجر والمدر يستغفرون لمن يمر عليهم ؟! لا تعجب فإن من صادقي المسلمين من يذهب مع المستشرقين فينفي الحديث النبوي كله أو جله. أما الأصحاب الكرام فصدقوا وتعلموا ونفعهم الله تعالى بعلم نبيه. وكان الأمر فطريا بسيطا لأنهم سمعوا الحصى يسبح في يده الشريفة صلى الله عليه وسلم ويد أبي بكر وعمر، ورأوا الشجر يتحرك ويمشي وسمعوا جِذع النخلة يحن إليه صلى الله عليه وسلم لما استبدله بالمنبر، وعاشوا مع غيب الله كما عاشوا مع الحس الظاهر كل يوم. فإذا اخبرهم رسول الله بسر غيبي ووعدهم صدقوا وتعلموا وعملوا فنفعهم الله. ونحن نشك لطول الأمد علينا فلا ننتفع وإنما نلهت في ذنابي ركب الحضارات الإنسانية وليس لنا همة لنمسك بزمام أمرنا ونتعلم العلم النافع آخذينه عن ربنا سواء في كتابه المنزل وفي صفحات السنة المشرقة أو في كتاب الكون الذي صنعه الله وعلم فيه الإنسان ما لم يعلم. كلا ! إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى!

عن صفوان بن عسال رضي الله عنه قال[1] : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد متكيء على برد له أحمر.

فقلت له : يا رسول الله إني جئت أطلب العلم. فقال : **مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم**

1 رواه الإمام أحمد والطبراني والحاكم.

يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب». ولو ترى إذ يقرأ بعضهم مثل هذا الحديث ويؤوله لمكان الغيب فيه مخافة أن يوصم الإسلام بالغيبية! وأصحاب التزكية أهل الله وأولياؤه يصدقون كما صدق الصحابة بالملائكة وبما أخبر به الرسول الكريم من فرحهم وتراكبهم حتى السماء الدنيا. ذلك أنهم عاشوا الغيب وآمنوا به كما عاشه الصحابة وآمنوا به، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

العلم النبوي علم غيب يربط اللطيفة الإنسانية بمصدرها القدسي عن طريق الفرض والنفل. والفرض والنفل كيفيات غيبية بها يتقرب العبد إلى ربه حتى يحبه ويكون سمعه وبصره. هذا هو العلم وهذه هي غايته الشريفة والقرآن كله وسنة النبي إنما مركزها هذه النقطة : تحرير الإنسان وتهييئه لمصيره العلوي وهدايته فمن الناس من تلقى هذا العلم عن أهله وصدق وانتفع، ومنهم من عظمت عليه أنانيته فلا يأخذ ولا ينتفع.

أخرج الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجاذب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا**

وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، كذلك مثل من فقّه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به». الماء حياة، فما أبدع ما صور النبي صلى الله عليه وسلم !

إن الغيب هو مصدر العلم النبوي والغيب والمصير الغيبي غاية العلم النبيو وحتى وسائل أخذ العلم غيبية ! هذا حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد اتهموه بالإكثار من رواية الحديث، وما زالوا يفعلون. وقد كتب أحد ديدان القراء في عصرنا يشتم ولي الله وصاحب رسوله وأن من ديدان القراء من يجمع بين التواء الديدان ولزوقها بالأرض وقذارتها معا!

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يقولون : إن أبا هريرة يكثر الحديث ! والله الموعد ! ويقولون : ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه ؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم. وكنت امرأ مسكينا ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني، فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون. وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوما : **لن يبسط أحد منكم ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمعه إلى صدره فينسى من**

مقالتي شيئا أبدا ! فبسطت نمرة ليس علي ثوب غيرها حتى قضى النبي صلى الله عليه مقالته ثم جمعتها إلى صدري، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا ! والله لولا آيتان في كتاب الله ما حدثتكم شيئا أبدا : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى**﴾ إلى ﴿**الرَّحِيم**﴾. هذه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ورثها بعض أوليائه فكانت لهم كرامة، يحثو أحدهم من الهواء في ثوب مريده خيرا من الخير فيكون كما شاء الله. لكن أين نحن من صدق الصادقين!.

العمل

علم علمائنا علم بلا عمل، علم بلا قضية. في عالم الكم الذي أصبح عالما يقاس بلاء الناس في «المجتمع» بإنتاجهم المادي، والإنتاج المادي يتيسر بعلم التكنولوجيا، فكسبها هو هدف كل طالب وهدف الدولة، وحقَّ لها إذ أصبح مسلما أننا شعب متخلف. واعترفنا بتصنيف الجاهلية إيانا أو دافعناه لنقول: إننا «أمة نامية» لعبا بالألفاظ. واعترافنا بأننا شعبمتخلف اعترافا صريحا أو ضمنيا يخدر حسنا بل يقتله بالتردي الكيفي، بالمسخ الذي أصابنا حتى صنفنا أنفسنا، بتصنيف الناس إيانا، على سلم الإنتاج الكمي.

العلم النبوي الذي خلق أمة حية يحقق فيها الإنسان غاية وجوده على الأرض وسمو عن مرتبة الحيوان طاردته الفتنة وطرحته على الهامش. وكانت قد اصفرت طروس علماء الفروع وعجزت عن تجديد فقه شرعي لصدود الناس عن العلم النبوي واعراضهم عن الإسلام، وما يغني شيئا إن يتجدد الفقه الشرعي إن لم يتجدد الإيمان ويتجدد العمل الإسلامي. وعلم الفروع لا يقدر على ذلك. وهكذا حمل علماؤنا التقليديون جثتا محنطة إلى هامش المجتمع المفتون، فمن كان منهم من أصحاب القلوب انصرف

إلى ربه ينتظر فرجا وبين جنبيه بذور الإيمان، ومن كان وراقا شمر جادا ليساير الحضارة ويساير «العلم»، وعمل بغير ما يعلم رجاء أن يلحق بالمتفرنجين الحذاق في الندي أو في المكتب. وهيهات !

إن الأمة المعذبة المسكينة تشكو ظلما وفقرا، وإن سطوة رأس المال وسطوة المترفين الأثرين لا تترك عملا لعامل وتسلبه وتتخذه شيئا من أشيائها. والحل الاشتراكي يحلل هذه العملية تحليلا مقنعا ويقترح المخرج. فلهذا يتبع شبابنا الأبرياء الجاهلون لإسلامهم داعي الاشتراكية، وحق لهم لأنهم لا يعرفون من الإسلام إلا ادعياء ولا يعرفون دعاة الإسلام. ويتجهمون لكلمة الإسلام فما هي عندهم إلا ستار وراءه التدليس، وما هي عندهم إلا شعار يصطنعه رجال السياسة يخفون به نيات مالها بالإسلام صلة. وبين كلمات المبطلين تتسرب في الرمل كلمة الصادقين.

العمل الإسلامي هو موضوع هذا الكتاب، والعلم النبوي المؤدي للعمل الإسلامي هو بغيتنا وهو طلبة هذه الأمة المشعبة المبعثرة، ما بالنا نردد أحاديث رسول الله النابضة بالحياة والعمل فلا توقظ فينا حس الإيمان، وما بالنا نقرأ قرآن الله فلا نتحرك. وكأن الكتاب والسنة دُجِّنا في وسط الفتنة وعينت لهما وظيفة رسمية هي وظيفة تخدير الأمة عن إسلامها. ما دمنا يملأ الجو صوت المذياع بالقرآن، وما دمنا علماء يعظون يوم الجمعة فالإسلام بخير

! الإسلام بخير حقا لأنه دين الله لكن نحن ؟ ألسنا ضائعين، عملنا عبث لا يجدُّ وفقر لا يستغني وضلال لا يهتدي ؟

عُزل العلم النبوي عن العمل وأصبح بلا قضية. العلم النبوي الموروث لا قبضة له ولا سلطان على مجال العمل اليومي. ويجادل ذرارينا المفتونون بأنك لن تحرك مصنعا ولا مكنة بأقوال الزمخشري والخرشي. وحق لهم أن يجادلوا لأن علماء الفروع ما يستطيعون أن يعلموهم أن الإسلام يحرك ما هو أعظم من مصنع ومكنة، إنه يحرك الإنسان ويرقي همته حتى يصبح الإنتاج الكمي وسيلة من وسائله لا غاية.

ما يستطيع أحد أن يعلمهم ذلك إلا على قدر ما لديه من وراثة بحق للنبي الذي بعثه الله معلما. ولا تكون له وراثة بحق إلا إن علمه شديد القوى ذو مرة من العلماء العاملين كما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد القوى ذو مرة من الملائكة. وإن وراثة الوراقين تبلى بعد جيل ويتجدد ميراث العلماء العاملين على رأس كل مائة سنة، وهو أبدا جديد بتجدد إيمان العاملين كل غدو ورواح بلا إله إلا الله.

لقد أوتي الصحابة الإيمان قبل القرآن كما يحدثنا مولانا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وهذا يدل على المنهاج والفقه المنهاجي الذي يسبق الإيمان فيه العلم ويتلوه بعدئذ العمل. فإن

دخل في وهمنا أن بيدنا إسلاما لإن من بيننا حملة للعلم النبوي رواة لفظيين وأن كانوا لا يصلون ولا يتقون فلنقبل معها أن يكون من شبابنا من يضحكون ويسخرون ولا يصدقون.

بدأ الصحابة رضي الله عنهم عملهم الإسلامي بالهجرة وكان عملهم بعدها جهادا بالمال والنفس، وما كانوا يستكثرون من البضائع المستهلكة إلا ما يعدونه من قوة لقتال عدوهم. كان عملهم بحافز غير حافز الربح المادي ولا الجاه الدنيوي. كان عملا كيفيا يصل المؤمن بربه وبحياة النعيم السرمدية. أبو عقيل رضي الله عنه يجر الجرير طول الليل، والجرير هو الحبل عنوان العمل الشاق المجهد. كان يجره طول الليل على ظهره على صاعين من تمر يأكل منها صاعا مع أهله، وهو قوت اليوم على التقشف الكامل الخارق للعادة، ويتصدق بصاع ينثره مع الصدقة، وما صاع تمر ببلاد التمر لكن انظر إلى الحافز الغيبي المحرر للإنسان من عبوديته، ينزعه من سلطان الحاجة إذ يدعوه إلى العمل بنفس الحركة التي يحرره بها من عبودية الملكية وعبادة الربح والثروة في الجماعة المؤمنة الأولى لا يوزع العمل الجماعي حسب طبقية أساسها التملك والثروة، بل حسب طبقية كيفية يضرب فيها المحسنون المثال ويجتمع فيها المؤمنون متعاونين على الشأن العام.

وفي المجتمعات المعاصرة تفرض حاجات الحضارة لعنة توزيع

العمل الكمي حسب قوانين تعرفها الشيوعية العلمية، ومع توزيع العمل استغلال العمل، وفي سياق العراك حول الاستغلال ينشأ مجتمع جديد فيه توزيع للعمل لحاجة الحضارة وفيه استغلال للعمل وطبقية أدهى وأمر من الطبقية التي حاربها الشيوعيون، طبقية ولدت لهم على الفراش الإيديولوجية ممجدة العلم والعمل! والإنسان في كل هذا عبد وآلة وشيء.

كان أبو عقيل بجريره على ظهره إنسانا حرا وعاملا حرا وعضوا في الجماعة فعالا بصاعه الذي سخر من قلته المنافقو. لا موضوع للتأمل في حياة كانت على قدر الإنسان مضت، ولا مناص لنا من تحمل الحضارة وما ترزأه الإنسانَ بل حنين ضائع لأننا أمة الإسلام لن نكون جزيرة وسط خضم الصراع الإنساني آمنة ترجع لنخلها وجريرها!

إن العلم النبوي إن لم يكن مصدرنا لإحياء الأمة بإحياء اقتصادها فلن تكون لنا حياة. إن الله بعث رسوله ليعلمن الكتاب والحكمة وليتلو علينا آيات ربنا. فبالتلاوة نذكر ربنا فيعطينا إيمانا، ومن الكتاب نستخرج الحكمة لكي تتحكم في شؤون حياتنا وتسيرها على المنهاج. ما الحكمة إلا حَكَمَة تتحكم في الاتجاه وتتحكم في العمل وفي نظام العمل. والفقه المنهاجي اكتشاف للحياة الإيمانية وللحياة المفتونة معا،ثم بعدهما للحياة المنبعثة غدا.

إنه منظار ننظر به تاريخنا في امتداده للغد الموعود.

لأمة صارت «شعبا وجمهورا» لا بد من دعوة بحكمة، وتحول بحكمة وجهاد بحكمة. وكل عمل مرتجل حماسي صاخب ينافي الحكمة فهو كالفرس الذي لا حكمة له تحكمه.

إن مناط العمل الاجتماعي هو هذا النشاط الذي تسميه الجاهلية «سياسة» وننقل اللفظ نحن وننقل معه اللغة المتضمنة. وغير ذلك يكون العمل الجماعي المسلم، لنسميه جهادا ولنسميه عملا، ليس اللفظ أهم ما يعوقنا، بل وجود الحكمة. رجل السياسة يرتجل ويصخب ويلتهب حماسا، ويدس أيضا ويكذب ويؤارب، وهو يطلب رئاسة وحكما. وما العمل الإسلامي يشبه ذلك. إن الرسول أخبر من سأله ولاية أنه لا يعطي هذا الأمر طالبه. وها قد تحدد لنا مبدأ الساسة ومعادهم، إنهم طلاب منصب، وما الشباب التائر إلا أرنب في حبال!

نعذر الساسة كما نعذر القاعدين، فقد يكون النشاط السياسي بديلا عن الخمول إن استطاع السياسي أن يبقى نظيف اليد والضمير. وإن في دار الإسلام لرجالا تاهوا مع الفتنة وبها فتجد في عملهم غضبا حيا على ظلم الظالمين وتجد له عبيرا ينسيك أسى الجثث المحنطة. إنما نسأل العلم النبوي عن حكمة الغد يوم يضطر قادتنا وساستنا لاعتناق إسلامهم بصدق بعد

فشل عملهم المفتون الضائع بين اشتراكية تتلون بالإسلام إذ لم يكن لها من نفسها وبين عشوائية تتقاذفها أمواج الصراع.

إن ثقافتنا في مجتمع الكراهية ثقافة هجين مشبعة بالكفر والجهل الجاهلي كإشباع إسفنجة البحر بملحه ومائه. فمن استعمرت عقله هذه الثقافة المهجنة اصبح دخيلا في الأمة المستضعفة الوارثة يدين للنماذج الجاهلية بولائه ويدين لأنانيته المترفة بمال حالّ ومنصب حالّ أو بمال ممكن ومنصب مطلوب. وبين هذا الدخيل وعالم الفروع الذي لا يصلي ولا يتقي حوار الصم البكم لأن المثقف فرغ من تصفية ثقافة العناكب في زعمه وأقنع صاحبه، فأحدهما في برجه العاجي مع برست وماركس والآخر لا يفتأ يسوي بضاعته ويسميها «ثقافة» ويقنع من الغنيمة بكرسي الكلمة الإسلامية في المناسبات يفتري على الله لأنه لا يعمل بما يعلم. أحدهما يجهل إسلامه ويعاديه ويمقت بحق النماذج الدعية، والآخر لا يعمل بعلمه فهو عند الله مخزي، وعجل له سخرية أقرانه وتبعية الديدان.

وعند العلماء العاملين ننشد غدا إن شاء الله اجتهادا منهاجيا لا يلفق بل يجدد ويعالج الفتنة ليتعلم منها خيرها وشرورها ثم ليستنبط لنا ثقافة مسلمة لا تكون جموحا نحو الجاهلية وولاء لها بل توترا نحو مستقبل عزة الإسلام.

الحياة الإسلامية في ظل لواء الإسلام تبدأ بعمل جهادي لا يشبه عمل الجاهلية الجالسة على مكتسباتها المتراكمة. سيكون

العمل الإسلامي جهاد كل ساعة وكل دقيقة جهاد بناء من عدم أرض خاوية قحلاء وضمائر أكثر خواء، ومن فوق ذلك فتنة موروثة ثقيلة. وهذه الخلايا البشرية العديدة ستتحرك لجدة الدعوة وستستجيب لداعي الإسلام لكن متى ينتهي حماسها ؟ الجماعة الإيمانية لا وجود لها، وأول العمل بناؤها لتتحمل مسؤولية البناء بحافز الصدق الذي لا ينتهي ولا يمل لا بحافز الحماس العابر. فإذا رأى المسلمون المنضوون تحت لواء الإسلام الجهادي صدق العمل تجدد حماسهم حتى يصبح صدقا.

إن كان لا ينفع الحنين لجماعة لا توزع الإنسان بين داوعي الحضارة الممزقة، فلنوطد العزم على جر الجرير بصبر وصدق ننصب ونتعب ونعرق ونتحمل ونوثر على أنفسنا مع الخصاصة، إلى أن نحول هذا الجهاز الاجتماعي المفتون جماعة متعاونة، ثم نسير قُدُمًا لنحقق القوة دون أن نُترف في الهدف الاقتصادي.

إن العمل الإسلامي عمل كيفي، موقف الإنسان فيه موقف سيد حر لا تحكمه الحاجة لأنه يصبر على الخصاصة ويتقلل ويزهد، ولا يغريه التكاثر بل تغريه الجنة ويغريه وجه الله وتغريه القوة التي أمرت الأمة أن تعدها لتجاهد في سبيل الله.

كان سلفنا الصالح يعملون بما يعلمون فورثهم الله علم ما لا يعلمون، وكانت ينابيع الحكمة تنبع من قلوبهم كفاء اخلاصهم لله

تعالى، كما جاء كل ذلك في الحديث. كان لهم علم لدني يربط الله به على قلوبهم، وكان لهم منهاج للعمل العبادي والجماعي ولهم عزم ولهم قوة ومضاء.

وكان سلفنا الصالح يعملون ولا يخافون التعب ويستعيذون بالله كما استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكسل. عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال[1] : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه».

أما ترى كيف يتخلل العامل النفسي الإيماني العمل وكيف يكون كف الوجه والحفاظ على المروءة حافزا على العمل ! ويخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر الأنبياء بعد أن يضرب المثال بعمله. فهو كان في مهنة أهله إذا دخل يرفو ثوبه ويطحن ويكنس، فإذا خرج جمل الحجارة وحفر الخندق وغرس مع الغارسين، ويخبرنا أن داوود عليه السلام «كان لا يأكل إلا من عمل يده»[2]، وأن زكرياء عليه السلام كان نجارا.[3]

وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم على العمل والعمل

---

1 رواه البخاري.
2 رواه مسلم عن أبي هريرة.
3 رواه مسلم عن أبي هريرة.

اليدوي حثا ملحا حتى قال : «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة (غرسة نخل) فاستطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر**».

عمل مقابل الأجر عند الله ومقابل الجنة ورضى الله، هذا عمل لا يتشيأ أبدا لارتباطه بالغاية العليا ولا يشييء المرء أبدا، بل يرفعه عن مستوى الدابة، فهو عند نفسه أشرف ما يكون حين يعمل، يكون عمله عبادة إن عمل لقوته أو لقوت عياله ويكون عبادة إن سعى في حوائج الناس، ويكون عبادة إن جر الجرير لينثر في مال المسلمين ولو صاع تمر.

إن الإسلام يرمي لكي ينتزع الإنسان من جاذبيته الأرض، ليطلب الأخرة فيعمل في دنياه متجردا لا يملكه الطمع ويتقلل. ثم إن الإسلام شرع قوانين لتنظيم العمل هي القوانين الإلهية النهائية لا يوازيها اجتهاد الإنسان. وفي ظل قانون الله ونحو الأخرة يسلك المؤمن والمسلم يمنعهما وازع السلطان ووازع القرآن من البغي ويزجرهما عن الكسل. وفي ظل الإسلام يكون للصدقة معنى وللتعاون معنى ولإطعام الطعام على حبه معنى ولاكرام الضيف والجار معنى وللبذل معنى. ذلك كان في جماعة القناعة والقلة عند أسلافنا، ويكون غدا لهذه الأمة تنفض غبار الكسل وتشمر لبناء جماعة فيها القناعة والقوة يزري بهاؤها بداوبية المجتمعات الاستهلاكية الصائرة إلى خراب.

السمت

الوجهُ والعِرْضُ والذمة والولاء والمحبة مقولات خلقية غيبية، وتصبح مقولات عملية عند الجماعة المؤمنة، فبذلك يتميز العمل الإسلامي عن العمل الجاهلي.

إن للجاهلين حمية وإن لهم «شرفا» أنانيا به يتعاملون وعليه يتعاركون، وللوجاهة المكانة الأولى في حسبانهم. يطلب الرأسماليون تسلق السلم الاجتماعي بجمع المال وجمع المجد بالنجاح الصناعي والثقافي، ويطلب الشيوعيون رئاسة بالانتماء للحزب السيد. ونحن المفتونين نتبنى قيم الجاهلية زمن ضياعنا. ففخفخة الجاهلية فخفختنا وأعيادهم أعيادنا ونزاحمهم في الندي نرطن بلسانهم ونكتسي بأثوابهم لا يتميز أحدنا، ولا يُحب أن يتميز إلا ريثما يؤكد أصالته «الفلكلورية» ثم هو المتفرنج ربيب الحضارة، أو هو الثوري العالمي محرر الإنسانية في زعمه. لا يتميز أحدنا عن الجاهلين إلا بأن الجاهلي يكسب مجده ورئاسته بالكد والغَناء والكفاية. وتحت أصحابنا المفتونين ركام بشري مستعبد على كتفيه يسقط الحمل حمل طبقة مترفة ليس لها سمت الإسلام ولا عمل الإسلام.

مترفونا ضاعت شخصيتهم في مظاهر الحضارة الجاهلية مثلما ضاعت أرواحهم بكفر الجاهلية، فإذا كان لهم وجه فهو وجه لا

يستحي من الله والناس بل يُصبغ بعد حلقه ليتم المسخ. وإذا كان لهم أهل فالعشرة جاهلية وماتت حتى المروءة التي التي تحفظ العرض، وإن كانت لهم ولاية ومحبة فهي منصرفة للخليلة والصديق الجاهليين ومنصرفة لبطانة جاهلية تُملي السلوك.

كان مصطفى كمال أشجع من أبطال التاريخ القوميين، كان كفره صريحا وكان سلوكه جاهليا لا يتستر، فعرفته الأمة الإسلامية وعانت منه لكنها لم تنسلخ عن دينها وهيهات ! أما أبطال التاريخ فينتسبون إلى القومية والإسلام، أصيلين في الأولى أدعياء في دين الله. ويحجون أو يعتمرون «ويرأسون» صلاة الجمعة، ليراهم الناس في تلك المواقف بسمت ظاهر يساهم في عملية تخدير الحس الإسلامي وتدجينه حتى ينحصر في مظاهر رسمية. فأولئك أنكى على الأمة من الكافر، وإن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

إن رجوع الأمة إلى السمت الإسلامي يعني تحررها من أشكال الحضارة الجاهلية وثقافتها ليتم التحرر من العادة الدوابية. اتخاذ السمت الإسلامي ونبذ السمت الجاهلي برهان على الصدق في نبذ العادة القاعدة بالإنسان عن اكتمال فطرته. فالأوضاع الاجتماعية المقلدة للجاهلية تقتضي أن نلبس على أعين الناس، والمترفون يلبسون على أعين خلانهم الجاهليين، يتبعون المودة

ليرقصوا في مراتع الدَّعارة مختنين لا رجولة لهم. وتقتضي هذه الأوضاع أن نعيش في أسرتنا وفي الشارع والعمل في ضيق شديد على أعين الناس، لئلا ننعت بالتخلف. وللعيال مطالب باهظة يفرضها وضع الفتنة العارمة. وكل هذا مدعاة للتعب الشديد والانحلال الخلقي، وما جماع السمت الإسلامي إلا خلقية تستعلى على العادة. لا جَرَم أن تستبد بنا العادات الجاهلية فنظم ونرتشي ليتأتى لنا أن نباهى الناس، ولا جرم أن يتخرب اقتصادنا لأن مطالب الحضارة تتنوع فتزداد عبوديتنا لها بازدياد حاجات نفوس لا تملك حريتها. ونستورد السيارات ونبني القصور للفخفخة الكاذبة. ويقوى عدونا من حيث نفتقر ونضعف. هل قرأت عن نظام الصهاينة في الكبوتزات ؟ هل رأيت كيف يخشوشنون ويتقللون ؟ وهل رأيت كيف يستعدون ليوم الجلاد في الوقت الذي يلهو فيه شبابنا بالسينما تغريه بالحياة الرخية المكتظة ؟ فذلك سبب انهزامنا أمام عدونا!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] : «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمَّاء. أتحسون فيها من جماء؟ ثم قرأ : فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ».

1 رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة.

فالفطرة أصل، وعامل التربية يُردى الإنسان في حمأة العادة وكلما ابتعد الإنسان عن دين الله ابتعد عن الفطرة وزاد شقاؤه. هذا هو الإنسان الجاهلي غارق إلى أذنيه في ضباب وجرائم مجتمعه وعنفه اليائس على نفسه وعلى العالم، يعيش ليأكل ويتنفس هواء ملوثا ويبذر خيرات الأرض وينجس البحر، هذا هو الوجه الحقيقي للحضارة الجاهلية تخفيه مظاهر النعيم وإنما القوة في اقتناء هذه المعامل وهذه الصناعة. وإنما الفطرة قوة في الخَلَقْ والخُلُق معا، لكن قوة نظيفة حسا ومعنى.

ثم إن الحضارة الصناعية حضارة كئيبة رغم تصنعها للساعدة. والإسلام الفرحة الكبرى يزف للإنسان بشرى خلاصه من الأرض حين يصله بمعاني السماء. وأكثر ما يجب أن يظهر به الإسلام المتجدد غدا من السمت الإسلامي اليُسر والبشاشة. فقد اعتاد المسلمون أن يتصوروا إسلامهم تزمتا وضيقا لأن الدنيا سجن المؤمن، ويوردون بكاء رسول الله وأصحابه وحزنهم وخوفهم، لا يميزون مقامات هذه المشاعر الغنية الرقيقة في حياة الصحابة.

يُعرف البوم المسلمون بسيماهم، فهم الضعفاء في معرض الضعف، وهم الفقراء وهم المنهزمون وهم المبِذّرون لثروات بلادهم. وفي دار الإسلام أغنى قطر في العالم يتيه على الأمة الغثائية بقناطيره المقنطرة ! وغدا حين ييأس قادتنا من مناهبهم

ويفيئون إلى الإسلام هربا من دوامة العنف العسكري ستتبدل سيما المسلمين فيعزون ويتحررون ويستغنون. ومن أمة مستضعفة يخلق الله الوارثين. والبوتقة التي سيصنع فيها السمت الإسلامي هي المسجد، لذلك نلخص الأمر كله إذ ندعو إلى سمت المسجد. ففي المسجد وقار وفيه هيبة وفيه حياء وفيه جد. وقد احتفظ المسجد بمظهر المساواة بين المصلين وإن كان قد فقد هذه المشاعر الرقيقة مشاعر المحبة والمواساة بين المسلمين. ولا عجب فإن الناس يتعاملون خارج المسجد بغير ما كان يتعامل به الأنصار والمهاجرون إذ يضع أولئك الأسعف تحت التمر ليختار المهاجر النصيب الأصغر من تمر أخيه فلا يتألم قلبه!

دخلت مساجدنا فخفخةٌ ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك أمة قد خلت، ولا يؤوى إسلامنا إلا مساجد وظيفية في شكلها إنسانية بمضمونها، بمجالس الإيمان وبالمبايعة على الطاعة والتطوع والتعاون البناء. ولن نهدم هذه المساجد المشيدة المزوقة بل نعمرها، وعمارتها شيء غير هذا التزويق، إنما عمارتها بقلوب طاهرة وعقول مدبرة وجسوم نظيفة قوية وأخلاقية تعبق بأريج الروحانية العالية للمؤمنين المحسنين.

سمت المسجد في أجلى صورة حين يتجالس المسلمون يذكرون ربهم. إنهم عندئذ في أعز مكان وأبهى عمل. عن أبي سعيد

الخدري رضي الله عنه1 : « خرج معاوية رضي الله عنه على حلقة في المسجد فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله. قال : الله ! ما أجلسكم إلا ذاك ؟. قالوا : ما أجلسنا إلا ذاك. قال : أما إني لم اسحلفكم تهمة لكم،، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثا مني. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال : **ما أجلسكم ؟** قالوا : نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا. فقال : **آلله ما أجلَسَكم إلا ذلك ؟** قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذالك ! قال : **أما إني لم استحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة !**»

إن اتخاذ السمت الإسلامي في حركية المنهاج يعني تبديل رموز الجاهلية بالرمز الإسلامي. فأهم رمز هو شخص المؤمن المجاهد المتجدد المرابط في خيمة الجهاد، كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رمزا يحكى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نظافة وتقللا من الدنيا وعدلا وسهرا على الرعية. والرمز الثاني هو المسجد، فيكون بناء المسجد علامة لبداية التعبئة الإسلامية والجهاد الإسلامي، يساهم فيه المؤمنون المتطوعون حتى يقوم، ثم يعمرونه ويدورون عليه في حياتهم الإسلامية الجديدة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه.

أول عمل جماعي للمسلمين بعد مبايعة الأنصار وبعد هجرة المسلمين المكيين إلى إخوانهم، أي بعد تأسيس الجماعة بالطاعة وبرهان الصدق، هو بناء المسجد، أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يحملون اللَّبن إلى بناء المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم : فاستقبلت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عارض لَبِنة على بطنه، فظننت أنها شقت عليه، فقلت ناولنيها يا رسول الله ! قال : **خذ غيرها يا أبا هريرة، فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة!**»

وأخرج الطبارني عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « قالت الأنصار : إلى متى يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الجريد! فجمعوا له دنانير فأتوا بها النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : نصلح هذا المسجد ونزينه، فقال : ليس لي رغبة عن أخي موسى ! عريش كعريش موسى!».

وعن ابن شهاب قال : «كانت سواري المسجد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جذوعا من جذوع النخل، وكان سقفه جريدا وخوصا ليس على السقف كثير طين. إذا كان المطر امتلأ المسجد طينا، إنما هو كهيئة العريش».

هكذا كان العمل، وهكذا أسس مسجد التقوى بالتعاون بين الإمام الأعظم والمؤمنين، كان بينهم يبغي ما يبغون من فضل الله

ويطلب اللآخرة كما يطلبون. وهكذا كان عزم الرسول الكريم على التقلل ونبذ التلكف حتى جاء الإمامان عمر وعثمان فوسعا المسجد وأحكما البنيان لكنهما لم يُزَوِّقَاه.

لبناء المسجد معنى حضاري عميق، فأس الإسلام المحبة، والمحبة تنشأ بالمعاشرة والألفة، وهذا يقتضي أن يتجمع الناس في قرى وأن تتجمع حياة القرية في المسجد، وأن يَعْمُر المسلمون مسجدهم بالمواظبة على الصلاة في الجماعة. أخرج ابن عساكر أن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب إلى أبي موسى وعمرو ابن العاص وسعد ابن أبي وقاص يأمرهم أن يتخذوا للجماعة مسجدا وللقبائل مسجدا، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة فشهدوا الجمعة. وكتب إلى امراء الأجناد أن لا يبدوا إلى القرى وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا. كل ذلك حفاظا على الجماعة ليتزوار المؤمنون كل يوم مرات ويتعارفوا ويتحابوا.

وكان من اهتمام عمر رضي الله عنه بالمسجد أنه كان يجمره، أي يطيبه بالبخور، كل يوم جمعة. وكل ما يُصلح المسجد ويحببه للمصلين والجلساء فهو من هذا الباب حاشا التزويق. ويرحم الله أسلافنا لم يكفهم أن يتباهوا من المساجد بالحيطان حتى بنوا الأضرحة وشيدوها وبذروا الأموال!

لا يمكن أن نعرف إسلام المسلم في توبة المسلمين تحت لواء الإسلام غدا إلا بما كان يتعارف به المسلمون الأولون. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم في البعثات ألا يقاتلوا قوما يؤذنون للصلاة، والأذان رمز ينم عن وجود مسجد والمسجد رمز. وكان المسلم يحضر الصلاة في الجماعة فبذلك يعرف أنه مسلم، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة !**». ويوجب الإسلام شهود الجمعة، وعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على حرق بيوت قوم لا يحضررن الجماعة والجمعة. في دار الإسلام اليوم قليل ممن يُصلون. دخلت الصلاة في الشؤون الخاصة في عرف الأمة المفتونة، لا شأن لأحد بها، كما انزوى الإسلام في ما يسمونه «معاهد إسلامية». وليت شعري بم يفخر الذين يتباهون بوجود معاهد دينية في دار الإسلام ؟ إنه يا قوم ما ذل المسلمون إلا منذ أصبحوا ولهم معاهد دينية إلى جانب أخرى غير دينية !

ليكن لنا في كل حي مسجد وفي كل معهد وفي كل مصنع وإدارة، والعهد الذي بيننا هو الصلاة. وإن للصلاة في استواء أوقاتها واستواء الناس متواضعين أمام ربهم واستواء صفوفهم وطيب أنفاسهم لبهاء وجمالا. ويعرف المؤمنون بسيماهم في وجوههم من أثر السجود وأثر السجود نوارنية وطمأنينة تظهرها ملاحم

الوجه لأن الصلاة ذكر وتسبيح بالروح والجسم والعقل معا. وتأتي الطمأنينة إلى القلب فيتفتح الوجه مستبشرا وتجد المصلين ينضحون طهارة وبشاشة وسعادة.

كتب عمر رضي الله عنه إلى أحد قواده الذي سأله مددا وشكا له حال الجند : «إن أهم أمركم عندي الصلاة !».

الصلاة تجمع وقت المؤمنين ويتبلور بمناسبتها الروح الجماعي، فلذلك يحتفل بها المسلم، فهي في كل يوم خمس مناسبات لذكر الله وطلب الغاية التي من أجلها خلقنا، وهي في كل جمعة حفل بهي، وفي كل عيد مظهر لجمال الجماعة وقوتها وكثرة عددها. فلذلك أمر صلى الله عليه وسلم بالسير إلى المسجد في الظلم، في غسق الليل وعند الفجر، وأمر بالطمأنينة في السير إلى المسجد، وأمر بالتبكير لحضور صلاة الجمعة وأمر بالبروز لصلاة العيدين بالنساء والصبيان في مظاهر الحبور.

إلى المسجد كان يفزع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن حدث حادث، وفيه كان يجمع المسلمين، وفيه كان يبرم أمر الجماعة ومنه كان يخرج المجاهدون في وجههم للجهاد، وفيه كان يلقي الوفود، وفيه كان يعلم أصحابه، وفيه كان يجلس لحاجة المسلمين، وفيه كان يتم أمر الأمة الأعظم وهو المبايعة للإمام.

لهذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن السبعة

الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلا قلبه معلق بالمساجد. شيوخ المسلمين اليوم وعجزتهم يلزم بعضهم المساجد، ولسنا نرغب في مثل هذا التعلق الفردي إنما نحب حياة للمسلمين جديدة تنشأ في المسجد وتشب وتعمم أوقات المسلم كلها معاني المسجد ومعاني الجماعة التي مأواها المسجد. فتبدأ حركيتنا من المسجد وتدور حول المسجد عامرا بالقلوب المؤمنة تذكر الله وتصلي له وتتلو قرآنه وتتعلم الكتاب وتتعلم الحكمة. فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبحيازة الميراث يقوى المستضعفون فيصبحون خلفاء في الأرض أوصياء على الإنسانية. روى الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بسوق المدينة فقال : «يا أهل السوق ما أعجزكم ! قالوا : وما ذاك ؟ قال : ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم وأنتم ههنا ! ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا : وأين هو ؟ قال في المسجد! فخرجوا سراعا ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا. فقال لهم : ما لكم ؟ فقالوا : يا أبا هريرة ! قد أتينا المسجد ودخلنا فيه فلم نر فيه شيئا يقسم! فقال لهم أبو هريرة : وما رأيتم في المسجد أحدا ! قالوا : «بلى ! رأينا قوما يصلون، وقوما يقرأون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة : ويحكم ! فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم.

التـؤدة

المسلمون اليوم رخوة أجسامهم وأرواحهم، رخوة دولهم لا تقدر تمتنع عن عدوها. وللعدو درع من حديد تكتنف عنفا أصيلا في الجاهلية ولا تصل أن تكتمه. ففي يد الجاهلية أسلحة يحركها العنف وتلهبها الكراهية والعصبية ودواعي التكاثر. ويوكل المسلمون أكل الخراف ويقتلون. وبهذه القوة قوة الحديد يباهي عالم الجاهلية أمة المستضعفين كما يباهيها بزينته الحضارية. هكذا كان دأب الجاهلية ودأب السلام ولا يزال. وما بيننا وبين النصر إلا أن نؤمن بالله ونصلح العمل، ليفي الله بوعده فيمن على المستضعفين ويستخلفهم. ما بيننا وبين النصر إلا أن ننصر الله على أنفسنا وننصره على الناس، فنغضب لحُرَمه التي تهتك ولا نغضب حمية وتنافسا على الرئاسة، ونغضب أن يكون حزب الله مقهورا في دار الإسلام ويتحكم الطاغوت، ونتبع بعد ذلك شرع الله في إعداد القوة كما أمرنا حتى يُمسك الله بالزمان ويكون ولينا ووكيلنا.

وإن موكبا تقوده يد الله القوية وتنصره لبالغ مداه. قال الله تعالى : ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ، وَكَمْ أَهْلَكْنَا**

﴿قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾.

إن الجاهلية تستغني بأثاثها ورِئْيها، وإنما يفتن المسلمين هذا الأثاث الحضاري فيستبدلون ندي المسجد الذي تحضره الملائكة وتغشاه السكينة بندي كافر فيه الجهل حين يسمى ثقافة لأن هذه الثقافة تجهل قيمة الإنسان، وفيه الجهل حين يكون عملا لأن العمل الجاهلي عنف الإنسان المتأله المستعلى في الأرض يزعم أن الأرض له والسماء وأن عقله يحكمه في الأمر كله. فعنف ولا سكينة وجهل مُطبق بالغايات الإلهية. ويهلك الله كل قوم استحسنوا أثاثهم وَرِئْيَهُم ولو كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها.

هذا الأثاث الجاهلي الذي تتفوق به علينا الجاهلية درع من حديد في يد الإنسان الجاهلي ومفتاحه التكنولوجية، وهذه الثقافة الجاهلية الساكنة بين ضلوعنا لا تتطلع إلى مصير أحسن من مصير طبقة من الإنسانية محظوظة تخاف على خيراتها من سكان الأرض المساكين الجياع المتكاثرين بأعداد هائلة. ويتركب الجهلان في تصرف الجاهليين ويظهر حين يرمقون تارة الحل السلمي فينثرون للمستضعفين قبضات من مالهم وتسكن أحلامَهم صُورُ السلام المدمّر المطلق وهو الدرع الحصين الذي يقيهم هجمة الإنسانية الجائعة بعد أن يَتكاثر البشر تكاثر الجراد. إن هذا الإنسان المتأله، هذا البرومثيوس كما يعبرون، لا يرى في أفقه إلا العنف وأسباب

العنف، وله الغلبة في الأرض فيجرنا في دوامة عنفه، ويستخفنا الأثاث والرِّئْي، ويستخفنا وعد اكتساب مثله، وننسى أن بأيدينا الكنز الذي تبحث عنه الإنسانية، فإذا نحن قوم مسخ أشداء على أنفسنا واهنون أمام عدونا نكره الموت ونحب الحياة، أي حياة حياة الدابة خائعين بلداء.

وَصف لنا الله عز وجل عباد الرحمن، فهم : ﴿**يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً**﴾. إنهم مسالمون هينون لينون في حياتهم الخاصة وفي حياتهم الجماعية، بينهم الرحمة والألفة يوقر صغيرهم كبيرهم ويرحم كبيرهم صغيرهم. لكنهم أشداء على العدو حازمون مقاتلون. يقولون للناس حُسْنا وسلاما ما لم يستفزهم الناس استفزازًا يصيب مقاتلهم. هذا إذا كانت لهم جماعة، أما في زمن الفتنة فنشاهد أن التبلُّد هو رائدهم يدعون إلى السِّلم في المحافل وما بهم سِلم، وإنما خوف من الموت لا يفارق الصادين المعرضين عن ربهم الجاهلين لغيبه وسطوته ودنياه ببلائها وآخرته.

العمل الإسلامي بناء للأمة من أساسها، ويتطلب البناء رفقا، فرفقنا فيما بيننا توبة عامة تشمل رد المظالم لكن لا تحاسب على ماض كنا فيه جميعا مفتونين. ورفقنا تُجاه الناس دعوة إلى السلام إلا في حق من يظلمنا. ويقتضي هذا أن تكون لنا قوة، بل يقتضي

البعث الإسلامي بناء للقوة قبل كل شيء. إن الجماعة المؤمنة جماعة معها الله يحميها وينصرها كما تنصره، لكنه تعالى يأمرها أن تعد القوة.

وإن كانت القوة عند الجاهليين تطغى أهلها فيعنفون لأنهم يضعونها في غير موضعها، فقوة المسلمين ضابطها إنهم ربانيون مرمى نظرهم الجنة ولا تملأ الدنيا قلوبهم، فهم لا يتنافسونها. وإن لهم من التراحم والتكافل الجماعي قاعدة مادية للطمأنينة تعزز الحافز الروحي. ينمو الاقتصاد الجاهلي بخمسة في المائة وهو نمو المنتوجات المادية، أما الإنسان فينقص ضعفي ذلك وأكثر، ويزداد عدد الجرائم بأكثر من عشرة بالمائة في بلاد الإحصاء والكم المعجب به أهله، أما في بلاد الاشتراكيات المتكتمة فيطل العنف الجاهلي منها بأخبار متقطعة لا يكاد صوت يرتفع حتى يكموه.[1]

الربانية تحمل معاني ثلاث، أولهما الانتساب إلى الرب جلت عظمته والثاني انتساب إلى التربية. ويقول المفسرون بأن الرباني هو من يربي بصغار العلم قبل كباره. وربَّ يُرب وربى يربي معناهما أنمى وزاد. فالرباني رجل مؤمن محسن يربي الناس برفق ويزيد في معنوياتهم ويبعث لهم حياة روحية. هؤلاء الربانيون بهذه المعاني

1 ثم انكشف بعدُ ما هنالك فإذا الخراب الشامل، خراب الإنسان، وخراب الاقتصاد وخراب البيئة : أنقاض في أنقاض.

السامية هم بناة الإسلام غدا. والبناء طويل الأمد شاق عسير يعترضه عنف الجاهلية المتربصة من خارج ويعترضه عاداتنا الجاهلية العنيفة. وكل هذا يُلزم أن يكون مشينا على الأرض هَوْنًا مشي عُمّالُ دائبين يصلون الليل بالنهار لا يفترون.

فيكون معنى التؤدة هذا الرفق الرباني الذي هو حلية الأنبياء، ثم هذا العمل الدائب المستعصي على عوامل العنف الثابت لها. وعندئذ تكون التؤدة هي الصبر. وفي القرآن بشرى للصابرين، ووُصف الأنبياء فيه بأنهم صابرون. والصبر صبران، صبر يقفك أن لا تستخفك الفتنة، وفي هذا يقول الله عز وجل في قصة قارون الطاغوت الفاتن بزينة ماله: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾. الصابرون لا تستهويهم الزينة ولا تملكهم الدنيا. أَمَّا الصبر الآخر فهو مواصلة العمل مع التحمل في كل يوم وفي كل ساعة. قال الله تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

ويرجع الأمر إلى الإيمان والتقوى والجهاد، وما كل ذلك إلا بذل المال والنفس في سبيل الله، وسبيل الله حين ينشر لواء

الإسلام هو البناء الجماعي للدولة المَوَحِّدة حاملة الرسالة. ودعني من التؤدة كما يفهمها القاعدون تبلدا وكسلا ! هذا تعريف إيجابي للتؤدة لا يُعطيه التعريف السلبي بأن التؤدة هي عدم العنف. ويبقى لنا أن الله ورسوله أمرنا أمرا قاطعا أن لا نحمل السيف على بعضنا .

في حياة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أمثلة رائعة للتؤدة والصبر والربانية. أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفق فقال في حديث عائشة رضي الله عنها : «**يا عائشة ! إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه**»[1].

وبالرفق بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته. فروى البيهقي أن أبا طالب قال له صلى الله عليه وسلم : « يا ابن أخي ! إن قومك قد جاؤوني وقالوا كذا وكذا (حين اشتكوا أنه صلى الله عليه وسلم يسفه أحلامهم ويدعوهم للتوحيد). فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت. فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلِّمُه وضعُف عن القيام معه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم !

1 الشيخان وغيرهما

لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهر الله أو أَهْلِك في طلبه! ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى. فلما ولى قال له–حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم– يا ابن أخي ! فأقبل عليه فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا أُسَلِّمُك لشيء أبدا!».

هذه تؤدة الأنبياء وذلك صبرهم، تصميم وإردة لا تُفل، وتحمل للشدائد لا ينقطع معه السعي أبدا. أخرج الطبراني عن منبت الأزدي قال : «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية وهو يقول : **يا أيها الناس ! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** ! فمنهم من تفل في وجهه ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبه، حتى انتصف النهار. فأقبلت جارية بعُسّ (قدح) من ماء فغسلت وجهه ويديه وقال : يا بنية ! لا تخشي على أبيك غيلة ولا ذلة ! فقلت من هذه ؟ قالوا : زينب بنت محمد وهي جارية وضيئة».

وأخرج البخاري عن عروة رضي الله عنه قال : سألت ابن العاص فقلت : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم. قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا. فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى

أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟».

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي عن عروة أيضا عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثه أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : **لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن ياليل بن عبد كُلال فلم يجُبني إلى ما أدرت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب. فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملَك الجبال فسلم علي ثم قال : يا محمد ! فقال ذلك، فما شئت : إن شئت أطبق عليهم الاخشبين (جبلا مكة). قال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا**».

هذا رفق نبوي فيه الفلاح بقول لا إله إلا الله وفيه الملائكة وفيه صبر الداعي إلى الله على الأذى وعلى داعي النفس المحبة

للانتقام الغاضبة. وهذا هو معنى الربانية كاملة يحذوها الرجاء في أن تنتشر الدعوة وينمو الإسلام.

وصبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على أذى قريش قبل الهجرة ثم على الجهاد مع قلة ذات اليد وقلة العدد والمؤمنون في بقعة تحيط بها الجاهلية. وفي تاريخ تحمل الصحابة رضي الله عنهم للأذى صفحة مشرقة يذكر فيها مستضعف وارث عبد حبشي يدعى بلالا . أخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار وأُمه سمية وصهيب وبلال. والمقداد رضي الله عنهم. فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس. فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد ! أحد ! ».

خلف رسول الله أعبدة تسعى مُهانة معذبة مستضعفين في الأرض، لكنهم قالوا لا إله إلا الله فأفلحوا، وكان من فلاحهم الصبر والرفق والتحمل حتى فتح الله بهم الأرض واستخلفهم فيها وبدل خوفهم أمنا، وحتى أصبح بلال رمزا من رموز الإسلام،

يؤذن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعارض عمر بن الخطاب في شؤون الدولة بعد أن فتح سيفه وسيف أمثاله من عباد الرحمن الماشين هونا وسلاما في بلاد الله ليعبد فيها الله.

يقول الرسول الله عليه وسلم : «**لا علم إلا بتعلم ولا حلم إلا بتحلم**» والحكم هو التؤدة، وهي خصلة تكتسب بالصحبة والذكر حتى تذهب الأنانية وقسوة القلب وحتى يُنتزع الإنسان من العادة المخلدة إلى الأرض. وفي دولة الإسلام المنبعثة إذا لا بد أن تتركز الربانية في رمز الجهاد، في شخص القائد المجاهد. فبعلمه ينبغي أن يتعلم المسلمون وبحلمه ينبغي أن يتحلموا في دار الإسلام طبقة مترفة بجاهها، وفي دنيا الجاهلية يقترن طاغوت المال بطاغوت الجاه، تمتهن المستضعفين بإسلامهم، فهي العنف مجسما بين ظهرانينا وهي القسوة. ونفوس الخلق جبلت على الفطرة فهي جمعاء لكن تاريخ الظلم جعل فيها بذرة العنف وحب الانتقام. فإن لم يكن القائد المجاهد المتحرر من الترف مثالا للحلم وعبدا لله هينا لينا فمن أين تلتحم الأمة على توبتها ؟

كان النبي وخلفاؤه الراشدون يركبون الحمار ويردفون خلفهم رديفا. وكانوا يعالجون أنفسهم مخافة الكبر، لأن الكبر أصل البلاء كله وأصل الكفر. ويعصد عمر بن الخطاب العصيدة للمساكين بيده فهذا هو الحلم والعلم. أخرج ابن سعد عن حزام بن هشام

قال : «رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر على امرأة تعصد عصيدة لها فقال : ليس هكذا يعصد، ثم أخذ المسوط فقال : هكذا ! فأراها ». فأين نحن وطواغيتنا لا تسعهم الأرض كبرا !.

وخطب عمر الناس يوما فقال : «أيها الناس ! لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم فيقبض لي القبضة من التمر والزبيب فأظل يومي وأي يوم ! ثم نزل فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين، ما زدت على أن قمأت نفسك! فقال : ويحك يا ابن عوف ! إني خَلوتُ فحدثتني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين فمن إذا أفضل منك ؟ فأردت أن اعرفها نفسها!»[1].

لما ولي أبو بكر الخلافةخافت جاراته أن يخرج عن عادته، وكان امرأ يتكسب بتجارة بسيطة وله منائح يرعاها أحيانا بنفسه ويحلبها ويحلب لجاراته. قالت جارية من الحي بعد مبايعة الناس له: «الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال : بلى! لَعَمْري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه. فكان يحلب لهم، فربما قال للجارية من الحي : يا جارية ! أَتُحبين أن أرغي لكم أو أصرح، فربما قالت : ارغ، وربما

1 الدينوري

قالت : صرِّح ! فأي ذلك قالت فعل!»[1]

أخرج ابن سعد عن جُرموز قال : «رأيت عليا رضي الله عنه وهو يخرج من القصر وعليه قطريتان : إزار إلى نصف الساق ورداء مشمر قريب منه، ومعه دِرَّة له يمشي بها في الأسواق ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ويقول : أوفوا الكيل والميزان! ويقول : لا تنفخوا اللحم!»

أولئك أهل الحلم أهل الحكمة، «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا» جعلوا لأنفسهم حكمة فروضوها على الطاعة وسلكوا سلوكا إراديا قويا صامدا نحو غايات الإحسان وبالحكمة أحكموا أمر مصيرهم ومصير الإسلام وضربوا لنا مثالا حتى نعكف على تزكية أنفسنا لكيلا تطغى. قال الله في كتابه يعلمنا الكتاب والحكمة : «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغني» فهلُمَّ نطرح هذا الرِّئْي الجاهلي لنصوغ إنسانية طاهرة متزكية تنشر في الأرض السلام وتقول للناس حُسْنًا وتفعل بهم حسنا!

1 ابن سعد

الاقتصاد

التنمية الاقتصادية وثن يعبده المعاصرون. إنها وثن لانصرافها عن الإنسان بل لأن هدفها أن يزيد الإنسان غرقًا في أثاثه ورِئْيه. والجاهليون الرأسماليون أكثر نفاقا من الجاهلين الآخرين، أولئك يزعمون أنهم يبغون تنمية للإنسان مع التنمية الاقتصادية، أما هؤلاء فقد وطنوا أنفسهم على خدمة الهدف الاقتصادي الذي يطوي الإنسان طيا ويستهلكه استهلاكا وفقا للعقيدة المادية مفسرة التاريخ بالتفسير الجدلي العتيد ! الرأسماليون يؤسسون شركات «مجهولة الاسم» وتحت الاسم المجهول أسماء معلومة لرجال المال المحتكرين أصحاب الجاه والحكم والسيادة، وعند الجاهلية الأخرى شعار «استبداد الصعاليك» الذي يخفي تحته تحكم الطبقة الجديدة صاحبة الجاه والحكم والسيادة. وتحت هؤلاء يكدح الجاهلي ويستغل وتنصب له أوثان تسمى «ارتفاع مستوى المعيشة» و«الحد الأدنى للأجور» وما شابه. ويرجع الأمر إلى تكاثر على الدنيا يظهر في مفاخرة المعسكرين بعضهما لبعض بالبضاعة والإنتاج واستهلاك المستهليكن.

معسكران أو معسكرات لأن الأمر حرب وعنف ونزاع على ابتلاع المستضعفين في الأرض ولأن تعبئة الصين وعداوتها

للمعسكرين العتيقين فتحت بابا ثالثا للمساومة على أنصباء كل فريق من الهيمنة في الأرض.

لا شك أن الهدف الاقتصادي وإغراءه ودافع الثورة على ظلم المستغنين الأثرين كان حافز ثورة الشيوعيين، وكانت الثورة مولد تعبئة عظيمة لقوى المجتمع الجاهلي مكنته من هذا البناء الهائل السريع الذي نراه في روسيا ونراه في الصين. وهذه النماذج هي الأمثلة العليا للمسلمين المفتونين، لذلك فكلمة الساعة في بلادنا هي «الثورة» والوثن هو «التنمية الاقتصادية». وكأن الإنسانية لا يفصلها إلا خط واحد، من جانب الأغنياء وأصحاب الأثاث والرئي ومن الجانب الثاني المحرومون في عالم القلة. أقول كأن الإنسانية هكذا في نظر حقيقة الإنسان وقيمته السماوية، وإلا فإن أحداث العالم تجري على منطق العنف المبني على التقسيم الكمي للإنسانية.

إننا معشر المسلمين مندمجون في عالم الجاهلية بعد أن مسخنا في عقيدتنا وبعد أن فقدنا السمت الإسلامي بفقدان الإيمان. فلسنا نتميز في عين أنفسنا وفي عين العالم عن الإنسانية المعطَّلة المحرمة إلا بمستوى معيشتنا الذي يتراوح بين دخل 4000 دولار للفرد سنويا وبين دخل 20 دولارا، وهذا يقسمنا على الخط الكمي فيصنف طائفة من الحفاة العراة مشيدي البنيان مع الجاهلية

المماثلة بثروتها، ويصنف الآخرين مع صعاليك العالم. ونتميز عن الإنسانية المتخمة بأن أمراءنا وقادتنا أكثر منهم بطنة وسائرنا عائمون في الجهل والمرض والضعف لعموم الفقر وعموم الظلم.

كل ذلك من علامات الساعة، فإن أذن الله فستكون ساعة توبتنا وساعة يقظتنا لنتعلم أن الإنسانية ينبغي أن يقسمها خط الإيمان، فمن جانب أهل الإيمان والنور ومن جانب أهل الجاهلية والظلمة. فأهل النور والإيمان أصحاب إرداة تهدف لتحقيق الغاية الإحسانية لاكتمال الإنسان في فترة مروره على الأرض، يتحابون ويقصدون وجهتهم فلا يتظالمون ولا تمسك الدنيا بخناقهم. وأهل الظلمة الجاهليون إنسانية ضائعة تفتقر لمن يوقظها ويعطيها المثال الحي على أن الإنسان ليس دابة مآله التراب، إن الإنسان لو كان كذلك لما أمكن غير ما تقترحه الشيوعية من مثالية التساوي في الأرزاق، هي المبدأ وهي الغاية، لكن الإنسان سلوك عابر على وجه الأرض آئل إلى مصير سماوي في الجنة أو إلى دركات جهنم إن زاغ عن الطريق.

مَنْ يخبر الجاخهلية بذلك ؟ أم من يبلغها رسالة الله وهي لا تفهم إلا لغة الإحصاء؟ إن كلمة الإسلام تبقى وعدا نظريا حتى تقوم لنا دولة تختلف عن الجاهلية اختلافا كيفيا جذريا. لن تبلغ دعوة الإسلام آذان الجاهلية حتى تتمكن الدعوة الإسلامية أولا

من سمع قادتنا وأمتنا وتَقرَ قلوبهم، ثم يتمثل الإسلام في أمة لها درع من حديد قوية لكنها أمة لا تئن تحت ثقل الجهاز الاقتصادي ولا تجعل هدفا لها ارتفاع مستوى العيش. أمة باسمة سعيدة متوازنة جميلة تقول للناس حُسْنا، تقول لهم : هاؤُمُ الأمة المسلمة !

إن بناء الإسلام يطلب من كل مسلم بايع على الطاعة أن يشد الحزام ويشحذ الإرادة بالإيمان، ويصنع الإيمان في المسجد في مجالس الإيمان. ويقتضي أن يبذل كل مسلم ويتعب كل مسلم ليل نهار ويتقلل ولا يبذر. ولو أعطى كل مسلم صاعه من التمر وجر الجرير كما فعل أبو عقيل لتحولنا في بضع سنوات أمة تزري بالشعوب قوة وصحة.

إن التقلل تصور إيجابي للمؤمن صاحب الإرادة الصادق. التقشف يفرض من خارج ويكون شعارا سياسيا أو إداريا، لكن يقبع تحته ثعبان الغش والرشوة المتربص. وشعار التقشف تبرير لكل فشل اقتصادي. أما التقلل فهو مظهر المؤمن المتزكي، يسمى زُهْدا إن اعتبرناه اعتبارا خُلقيا واعتبرناه في حدود الحياة الفردية. فإذا أصبح جهادا جماعيا هدفه الفردي يندمج في الهدف الجماعي لتجميع رأس المال وللتكافل والتساوي على مستوى معيشي كريم يضمن الغذاء الصحي الساذج للكل والكساء والسقف الوظيفيين الجميلين معا في عُرف السمت الإسلامي، عندئذ يصبح له

مغزى إنساني وفاعلية حركية فريدة. أهذا مجرد شعار أن نزعم أن بالإمكان نزع الإنسان من الملكية بدل نزع الملكية الذي يؤسس المجتمع الشيوعي ؟ أيمكن حقا أن يكون العامل الإرادي عاملا حاسما في تحويل الإنسان تحويلا كيفيا في علاقته بالملكية ؟ وتقوم على ذلك دولة قوية ؟ قد يفيدنا في ذلك البحث عن ذلك تدبر حياة الصحابة تدبرا واسعا.

أخرج الحاكم أن معاوية بعث إلى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد ابن معاوية. فردها عبد الرحمن وأبى أن يأخذها وقال : «أبيع ديني بدنياي!». رجل له دين يفضله على الدنيا فلا تغريه، لعل هذا تعريف لائق بالصحابة الكرام. وهم رضي الله عنهم نتاج تربية، صحبوا وذكروا وصدقوا الله ورسوله فيما بايعوا عليه إذ باعوا الجنة بأموالهم وأنفسهم. وكان من تربيته صلى الله عليه وسلم أن حذرهم وخوفهم الدنيا فحذروها فلما ملكوها كانت لهم ملكا ولم تسيطر عليهم كما يسيطر الملك على صاحبه، بل صرفوها في وجوهها يبنون بها لأنفسهم بيوتا في الجنة.

لا شك أن الوضع اليوم غَيْر ما كان عليه، فالمسلمون مترفة إرادتهم، فهمتهم لا تتجاوز مستوى التنافس على المليكة إلا قليلا ممن لهم دين يفضلونه على الدنيا. ويوم تقوم قائمة الإسلام لن

يكون وازع القرآن وحده حافزا للتقلل، فإن الإسلام يجعل حقا بل واجبا على الإمام أن يحقق أمر الله الصريح الصارم بألا يكون المال والأرض دولة بين الأغنياء.

ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ورقى روحانيتهم حتى أصبحوا وكأن الجنة والنار منهم رأي العين. بلغ إيمانهم اليقين فهانت الدنيا في أعينهم لأنهم يقارنونها في كل لحظة بما يدَّخره الله للمتقين الصابرين الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة. كانوا يعيشون والغيب يكتنفهم فلا وزن للكم المادي في نظرهم إلا إن أنفقوا وبذلوا. أرأيت رجلا ينفذون فيه حكم الإعدام عشية أكان يلقي بالا لطعامه ولباسه ذلك اليوم ؟ أم تنصرف همته بكليتها لتلك اللحظة ولكل وسيلة يفلت بها منها ؟ هذا سلوك على الرهب، وقد كان الصحابة يعبدون ربهم ويدعونه خوفا ورهبا معا، فكانوا ذاكرين لهم ذمة وهمة فانبسطت أيديهم من ذهاب شُح أنفسهم. وكان همهم الكبير الخوف من الدنيا وانبساطها.

أخرج الشيخان عن عمر بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها. فقدم بمال من البحرين. فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم. فلما صلى رسول الله صلى عليه وسلم انصرف فتعرضوا له. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال : «**أظنكم سمعتم أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين** ؟ قالوا : أجل يا رسول الله ! فقال : «**أبشروا وأمّلوا ما يسركم ! فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم !**»

أخرج البخاري عن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه أتي بطعام، وكان صائما، فقال : قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كُفن في بدرة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه — وأراه قال : وقتل حمزة رضي الله عنه وهو خير مني — ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط— أو قال : أعطينا من الدنيا ما أعطينا — وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا ! ثم جعل يبكي حتى ترك طعامه!» وهاك من آيات التقلل في حياته صلى عليه وسلم وحياة أصحابه. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر رضي الله عنه وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال : «يا رسول الله ! لو اتخذت فراشا أوثر من هذا ! فقال : **مالي وللدنيا ! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم**

صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها»[1].

أخرج الطبراني عن سلمى امرأة أبي رافع رضي الله عنهما قالت: دخل على الحسن بن علي وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم فقالوا : اصنعي لنا طعاما مما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكله ! قالت : يا بَنِيَّ ! إذا لا تشتهونه اليوم ! فقمت فأخذت شعيرا فطحنته ونسفته وجعلت منه خبزة. وكان أدُمُه الزيت. ونثرت عليه الفلفل، فقربته إليهم وقلت كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب هذا!».

أخرج ابن سعد عن حميد بن هلال قال : لما ولي أبو بكر قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : افرضوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يغنيه قالوا : نعم، بُرْداه إن أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما وظهره (دابته) إذا سافر ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف قال أبو بكر : رضيت».

وعنه عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى جارية تطيش هزالا فقال : من هذه الجارية ؟ فقال عبد الله بن عمر : هذه إحدى بناتك ! قال : وأي بناتي هذه ؟ ابنتي ! قال: ما بلغ بها ما أرى ؟ قال عملك لا تنفق عليها. قال : إني والله ما أُغرك من ولدك ! فأوسع على ولدك أيها الرجل!»

---

1 أحمد وابن حبان

أخرج البغوي أن مولانا عليا رضي عنه خرج يوما على حمار ودلى رجليه إلى موضع واحد ثم قال : أنا الذي أهنت الدنيا !»

أخرج الإمام أحمد عن محمد بن كعب أن ناسا نزلوا على أبي الدرداء رضي الله عنه ليلة قَرَّةً، فأرسل إليهم بطعام سخن ولم يرسل إليهم بلحف. فقال بعضهم : لقد أرسل إلينا بالطعام فما هنأنا مع القر ! لا أنتهي أو أبين له ! قال الآخر :دعه ! فأبى، فجاء حتى وقف على الباب فرآه جالسا، وامرأته ليس عليها من الثياب إلا ما لا يذكر (لأنها بالية مرقعة). فرجع الرجل وقال : ما أراك بت إلا بنحو ما بتنا به ! قال إن لنا دارا ننتقل إليها، قدمنا فُرُشَنا ولُحُفنا إليها. ولو الفيت عندنا منه شيئا لأرسلنا إليك به. وإن بين أيدينا عقَبة كؤودا المخُف فيها خير من المُثْقل. أفهمت ما أقول لك ؟ قال نعم !»

أخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : «رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أكلت في اليوم مرتين فقال : **يا عائشة ! أما تحبين أن يكون لك شغل إلا جوفك؟ الأكل في اليوم مرتين من الإسراف ! والله لا يحب المسرفين!**».

وأخرج احمد عن الحسن قال : دخل عمر على ابنه عبد الله رضي الله عنهما وإن عنده لحما فقال : ما هذا اللحم ؟ قال اشتهيته ! قال وكلما اشتهيت شيئا أكلته ؟ كفى بالمرء سرفا ان

يأكل كل ما اشتهاه !»

أخرج البخاري في الأدب وأحمد عن عبد الله الرومي قال : دخلتُ على أمِّ طَلْقٍ بَيْتَهَا، فإذا سقف بيتها قصير. فقلت : ما أقصر سقف بيتك يا أم طلق ! قالت : يا بني ! إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عُمَّاله أن لا تطيلوا بناءكم، فإن شر أيامكم يوم تطيلون بناءكم»

يقرأ بعض الناس ممن فسد حسُّهم وأفنتهم الجاهلية عن فطرتهم، تلَوَّنُ لهم كما تلون في أثوابها الغول، خبر ربعي ابن عامر إذا دخل فسطاط رستم بثوبه الصفيف وفرسه القصيرة وهيأته المسكينة فينفرون من المظهر الرث ويقولون : أي هَمَج يسيء الأدب في مجلس الأمير ! ومثل هؤلاء لا يخاطبون. إنما يخاطب من يقرأ حياة الصحابة فتمتليء جوانحه إعجابا وفرحا ومحبة لمن كان طعامهم خشنا ولباسهم مرقعا وكانوا سادة أنفسهم فاستحقوا الاستخلاف في الأرض هينين متواضعين رحماء بينهم أشداء أقوياء على العدو.

أخرج الحاكم عن طارق بن شهاب أن عمر بن الخطاب قدم الشام وعليه إزار وخفان وعمامة، فلقيه الجند وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقال له أبو عبيدة : «لقد فعلت يا امير المؤمنين فعلا عظيما عند أهل الأرض ! نزعت خفيك، وقدمت

راحلتك وخضت المخاضة. قال : فصك عمر بيده في صدر أبي عبيدة فقال : أوه ! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! أنتم كنتم أقل الناس وأذل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله تعالى !»

نحس نحن الأمةَ المفتونةَ بمركب نقص أمام أصحاب الأثاث والرِّئي فننفق أموالنا في المحافل الدولية وفي السفارات وفي بلادنا ليكون لنا مظهر نعوض بالطواف به على أعين الناس هزالنا وتفاهتنا. وتهجم علينا الوسائل الجاهلية الثقافية الحضارية فتتحول في يدنا إذ نقتنيها وثنا هو هدف جهودنا، ويضيع الهدف الحق فما دام اشترينا مصنعا بكذا وكذا فلا داعي أن يكون المعمل آلة تطحن اقتصادنا وتأكله لقلة انتاجيته ! وإن شئنا أن نعلم أو نؤسس إدارة أو صناعة فالخبراء الجاهليون تشترى تقنيتهم بحر مالنا ونحتفي بما تلده أدمغتهم المريضة بأداوت الكراهية لنا وعدم الكفاية ونتتلمذ ونقلد فلا نقلد إلا العجرفة وسوء التدبير، ونبذر جهودنا وأموالنا. وسنبقى عالة متكففين حتى ولو صب في جيوبنا الذهب الأسود أموال قارون، بل بسبب ذلك نبقى عالة متكففين، لأن بعضنا يرتع في أموال المسلمين كما ترتع النار ويمتص دماء المسلمين، وتهمل الكفايات الأصيلة المبذَّرة التي عند أبنائنا. ويوم تقوم قائمة الإسلام يذهب الله بريح من

عنده وبأيدينا بالتبذير والأثرة، وتعز نفوسنا فنصك في صدور بعضنا كما صك عمر بن الخطاب ونصك في نحور أعدائنا إيذانا بأننا عزمنا على أن نتمثل شخصية المؤمنين المتقللين، الدنيا لهم مطية وهم سادتها، التقلل لهم مذهب هدفه القوة، والاخشيشان والتشمير سمتهم في ساحة العمل. ولقد ضرب الله لنا مثلا وعرض علينا آية لو كنا نعقل في شخص الصيني المكافح الفقير العزيز بفقره حطم صنم التكنولوجيا الوهمي وصنع واخترع وابتدع.

الجهاد

لا يتصور الناس إن سمعوا كلمة الجهاد إلا مشهدا واحدا من مشاهد الجهاد، ومجالا واحدا من مجالاته، فالجهاد عندهم قتال. وأكثر ما يعرف به الجاهليون أمة الإسلام أنها أمة الجهاد أمة الحرب المقدسة.

فأما أن يكون الجهاد عملا مقدسا لا ريب فيه، وليس لمبايعة القائد المجاهد غداة بدء العمل الإسلامي معنى إن ترجمت المبايعة إلى عقد مدني، لا جهاد في الإسلام إلا في سبيل الله، أي أنه لا جهاد بالمعنى الإسلامي إلى مقدسا. وأما أن يكون الجهاد يجمع كله في لحظة القتال فذلك فهم مبتور للتصور الإسلامي للجهاد.

إن الله تعالى ما ذكر المؤمنين في موقف التعريف بأخص خصائصهم إلا ذكر الجهاد بالمال والنفس. والجهاد مستمر أبدا وغايته حمل الرسالة وتبليغها. فإذا اعترض طريق التبليغ معترض أو هدد الإسلام مهدد فالقتال آخر وسيلة لصد المعتدي وكسر العائق. ويأمرنا الله تعالى أن نقول للناس حسنا وأن نفي بالعهد لمن عاهدنا وأن نسالم من سالمنا. وقال تعالى : ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾.

أمامنا في عالم الجاهلية قوم قاتلونا وأخرجونا من ديارنا فأولئك العدو وأولئك الجهاد الإسلامي قتالهم حتى يعطوا الجزية أو يفَنؤا. أما سائر البشر فلن يتعرضوا لدعوتنا لأنه لا دعوة لنا اليوم. فلنبدأ جهادنا ببناء الإسلام أولا حتى يقوم لنا كيان وحتى تكون لنا دعوة ورسالة.

إن الجهاد يستوعب كل مجالات العمل، فاقتحام العقبة الجماعيةُ أن نكون مع المؤمنين بمبايعة جهادية، وهذا يطلب جهادا. واقتحام عقبة الفقر يطلب أن نفك رقابنا من عبودية الحاجات الحضارية ونطعم المسكين. ولا يكفي في ذلك أن نتناول الأشياء فنرد من مال الغني على الضعيف. معناه أن الجهاد الإسلامي لن يكون عملية ميكانيكية تنزع الملكية وتسوي الأجور بسلطان حاكم. بل الجهاد الإسلامي يتناول الإنسان ليفك رقبته، وأول الرقاب احتياجا لذلك رقابنا. فأي الناس نحن ؟ وأي الناس نريد أن نكون ؟ وهل جهادنا لنغير ما بأنفسنا يقتضي أن نقاتل المترفين من أهلنا ليحل محل البنية الاجتماعية الجاهلية استبداد النخبة الإيمانية الإحسانية ؟ الجواب عن كل ذلك مصدره الفقه المنهاجي الذي نسعى لمعرفته. وإننا لفي وضعية ما سبقت فلا بد لنا من اجتهاد يكون فاتحة الجهاد.

من أين نبدأ وعي أنفسنا ووعي مستقبلنا الإسلامي؟ بدأ قوم

برسم طريق إلى الفتنة حين زعموا أن الدين في جانب والدولة في جانب ما ينبغي للدين أن يخاطبها.

ونبدأ نحن من الموقف الفطري، ومن الموقف الفطري ينظر المؤمن نظرة فطرية تعم الكون كله وتدخله في سياقه الحق ناظرة إلى الخالق الذي برى النَّسَمَة ووضعها في الأرض وخط لها الطريق إلى الخلاص ووعدها وعدا إن آمنت وعملت صالحا. هل سيصل الإسلام لدفة الحكم بجهاد رجال الدعوة يحاربون الحاكمية المترفة الغاشمة ؟ ذلك جهاد حيى الله رجاله لنياتهم الصالحة ورحم الله بلاءنا فيهم حين طوتهم الفتنة. إن بين ظهرانينا فراعنة صادين عن دين الله عابثين حائرين، ولولا أنهم يصلون أمامنا وينتسبون للإسلام ويحملون شعاره لدلنا الفقه المنهاجي على قتالهم. لكنهم اليوم من أدوات القدر الإلهي تتلاطم بهم أمواج الفتنة ويضربهم الله عز وجل بسوطه بيد عباده الصهاينة وببأس الجاهلية وببأس اليائسين من أبناء هذه الأمة المبسوطين على الرغام. فكيف سنقول لهم قولا لينا كما قال موسى وهرون لفرعون ؟ وماذا نقول ؟

مهما نقل فلن تكون دعوتنا إلا عاملا جزئيا من هذه العوالم المتضافرة المتضامنة الموجهة بيد حكيم خبير. كلها تدفع هذه الأمة إلى الإسلام وتخلق الحاجة لعدله وسلطته وتلح في ذلك بالفساد المتفشى. قادتنا والزعماء يحملون بنياتهم شعارات الإسلام ويقتربون

إلى أن تصفو نظرتهم ويذعنوا لله ويروا أن لا منجاة منه سبحانه إلا إليه فيصدقوا في طلب الإسلام وتطبيق الإسلام. ذلك حين يعافون خبث ماهم عليه وييأسوا من باطل أنفسهم فيتعلقوا بالحق.

لذلك اليوم نكتب غير حالمين ولا تائهين بإذن الله جل شأنه ونستفسح أبواب العمل الإسلامي ليرى الزعماء والقادة البديل الإسلامي للثورة ودوامة الانقلابية. أجهاد فكري هذا الذي نتحدث عنه ؟ لا جدال في ذلك، غير أننا نسميه جهاد دعوة فهو كذلك لأنه يدل على المنهاج النبوي الذي بدأ به أمر الأمة، يدل على الفلاح بذكر لا إله إلا الله كما دل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدل على السنة والاتباع والصحبة، ويدل بصدق على الصدق. ولن تلقى المؤمن الفطري مترددا في بدل النفس لو كان ذلك هو الجهاد في الفتنة ولو كان مجاهدون ؟ كيف والإسلام يخوض أهله فتنة مظلمة لا تستبين معها موضع قدمك!

إن الأمة لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، كما كان يقول سلفنا الصالح منذ أخذت الفتنة تحتل ديارنا. وقد صلح أمر الإسلام بجهاد ربانيين يدعون إلى الله على بصيرة.

الربانية تصور أضفناه لتصوراتنا المنهاجية القرآنية النبوية، وهو تصور عملي يبرز الصفات المتعدية غير اللازمة[1] للمؤمن من الذي

1 ننقل المصطلح النحوي ليدلنا على ما نريد مقابل الكلمة الفرنجية transitif التي فعل بها مثل ذلك

يتعدى خيره نفسه فيكون في الناس رحمة يؤثر فيهم بروحانيته وبجاهده يعلمهم بحكمة ويربيهم حتى يربوا ويزدادوا قوة وإيمانا وتماسكا. الرباني شخص جامع للخصال العشر يصل المحبة وولاية المؤمنين بالغاية التربوية الجهادية التي من أجلها بعث الله النبيئين. فإذا كان تصور السالك مقتحم العقبة يعطينا صفات شخص محايد، فإن تصور الرباني يدل على ما نريده من خروج السالكين من مشروع خلاصهم الفردي إلى العمل الجماعي بربانية تشمل الروحانية العالية والفكر المتعدي والخلقية الرفيقة. إنه المجاهد على بصيرة، فإن لم يكون المجاهد ربانيا فسمه إن شئت مناضلا ولن تأتيك منه حياة إسلامية، ولن تكون حركيته حركية إسلامية حتى ولو حمل شعارات الإسلام.

إن هذه الربانية ليست تصنع بالعمامة والمظهر ولا بالعبارات تلاك وتطن في الآذان. من طلب الحق واقتحم إليه عقبة نفسه اكتشف ما هنالك كما اكتشفه الغزالي لما صحب الرجال. وكتب الغزالي للناس يصف لهم الطريق ويدلهم على مقامات الجهاد الخاص ويشهد بأن الحق مع الصوفية. فإن صدقنا ما يزعمه الغزالي من أن سر الإيمان يحضنه الصوفية فلا سبيل للتأكد من قوله إلا أن نجرب نحن ما يقول. وإن ما نكتبه في هذه الصفحات ما هو فكر من الفكر بقدر ما هو شهادة نبعث من تجربة لما من

الله علينا بمحبة الكاملين أوليائه. ولا نؤول كتاب الله وسنة نبيه فيما نكتب لأنهما لا يحتاجان لتأويل. فعندما نتحدث عن الولي المرشد فإنما نتلو كتاب الله : ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً**﴾ وإنما نسرد حديث رسول الله : «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**». فأنى وجهت هذا الكلام فلن يحصل في يدك إلا هذا : لا بد لك من رجل إن رمت الهدى، مؤمن رباني يربيك.

لكي يكون الجهاد إسلاميا لا بد أن نحرر نقطة البداية لذا نكرر ما عرضناه تكرارا، هذا الرباني رجل صحب المحسنين وأحبهم وذكر ربه فشرح الله صدره وفتح له مغالق قلبه وآتاه فقها في قرآنه فله أسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خاطبه ربه: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾. فهو مطمئن له من تقواه ومن بشرى ربه ما لا تزحزحه معه المسلمات، فهو رفيق، وله من خفة الظهر حسا ومعنى ما يزيل عنه الكدح الأعمى فهو ينصب وإلى ربه يرغب ولا يفرغ أبدا من التقرب إلى ربه بالعمل الصالح. وللرباني أسوة رسول الله إذ خاطبه ربه ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ**

فَاصْبِرْ﴾ فهو يقتفي أثر نبيه، وهو متبع سني يتطهر ويصبر. وله في رسول الله أسوة إذ خاطبه ربه : ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**﴾.

فهو بذلك مثال ماثل شاهد يملأ العين ويملأ مجال الفكر والعمل بتؤدته وسمته ونورانيته. وهذا يعني أنه يربي بالقدوة أول شيء كما يربي الأنبياء. وإنه ما بعث الله الأنبياء إلا ليَمْثُلوا أمام الناس نماذج شاهدة غير غائبة للإيمان والتقوى، قال الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾. ويتكرر الأمر للمؤمنين أن يكونوا شاهدين بالقسط، والقسط هو العدل وهو التوازن وهو اقتحام العقبة بالعدل عن الهوى إلى الحق. فالرباني نموذج ماثل، وجهاده تربية ثم تربية ثم تربية، ونفهم التربية بالمعنى الشامل المتعدي وظيفة للرباني المجاهد الداعي إلى الله.

إلى أن يَبْتَعِثَ الله جل شأنه فينا قائدا مجاهدا ندين له بالطاعة ونجاهد معه طاعة وجهاد تطوع. يحمل رجال الدعوة في دار الإسلام عبء الدعوة كل حسب اجتهاده وحسب انتمائه الطائفي وحسب تنظيمه وحسب تصوره لحياة الإسلام. ويلقى رجال الدعوة العنت ويشردون ويقتلون كما شرد الأنبياءُ وقُتلوا ولنا في جهاد رسول الله وصحبه أسوة نرجع إليها لنستقي عزما

ويقينا، ولنستقي حكمة وننظر ألنا هذه الربانية وهذا التوفيق الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتضاه يقول للناس في جهاد دعوته قبل أن يفتح الله على المؤمنين : «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا !** »؟ ما بعث الله بعد محمد نبيا لكن أولياء سرج منيرة لهم من الله توفيق.

أخرج أحمد عن ربيعة بن عباد قال : «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : **يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا !** والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابيء كاذب! يتبعه حيث ذهب فسألتُ عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب!».

مجتمعنا مجتمع الكراهية النهمة القذرة والاشتراكية الخانعة سوق اختلط فيها الحابل بالنابل، بضائعها هذا الأثاث الجاهلي المكدس في المخازن والعقول، وجوها معتم مظلم يسير فيه المترفون وضحاياهم على غير هدى. ولن يتبين المسلمون طريقهم إلا بالكلمة الطيبة يرجعون إليها مع الربانيين الصادقن. ومن ادعى ربانية بغيرها فبم يدخل السوق؟.

لا يخفى حامل السر الإلهي حامل الرسالة والإذن لأنه وارث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وله من وراثته النور والبرهان. ويكذب المكذبون أولياء الله يمثلونهم ببعض المعوقين أهل الرجس

كما كذب المستكبرون أنبياء الله. الوليد بن المغيرة جاء[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه النبي القرآن، فكأنه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال : لِمَ ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض ما قبله. قال : قد علمتْ قريش أني من أكثرها مالا قال: فقل فيه يبلغ قومك إنك منكر له، قال : وماذا أقول ؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مُغدِقُ أَسْفَله، وإنها ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته! قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ! قال : قف عني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره! فأنزل الله فيه قوله : ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾.

---

1 ابن إسحاق عن ابن عباس

إن قومنا طال عليهم الأمد فقست قولبهم، وإن دعوتنا إلى الإسلام تنشد لقاء مع رحمة الله في توبة تستر الماضي المظلم وتفتح أبوابها لرفق الإسلام وتؤدته. وما أشبه حاجة اليوم بالبارحة ! يوم إن كان الجاهليون يدخلون في دين الله أفواجا بعد أن أعوزتهم الحيلة في الرَّوغان عن دين الله. إن أحضان الإسلام مفتوحة لضم أبناء الإسلام التائهين، وإن للإسلام لرفقا وعلو همة يكتشفهما التائبون كما اكتشفها معاصرو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه قصة إسلام حبر من أحبار اليهود، نوردها على طولها لما فيها من عبر وعلامات لمعرفة الرباني : أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام قال : «إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سُعْنَة قال زيد بن سعنة : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما، قال زيد ابن سعنة : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الحجرات ومعه علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي فقال : يا رسول الله ! لي نفر في قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعا ! فإن رأيت أن

ترسل اليهم بشيء تعينهم به فعلت ! فنظر إلى رجل إلى جانبه أراه عليا فقال : يا رسول الله ! ما بقي منه شيء ! قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه فقلت : يا محمد ! هل لك أن تبيعني تمرا معلوما في حائط بني فلان إلى أجل معلوم، إلى أجل كذا وكذا ؟ قال : **لا تسم حائط بني فلان** ! قلت : نعم ! فبايعني فأطلقت هميانى فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا. فأعطاه الرجل وقال : **اعدل عليهم وأغثهم**. قال زيد بن سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم في نفر من أصحابه فلما صلى على الجنازة ودنا إلى الجدار ليجلس إليه أتيته فأخذت بمجامع قميصه ورادئه ونظرت إليه بوجه غليظ. قلت له: يا محمد ! ألا تقضيني حقي ؟ فو الله ما عُلمتم بني عبد المطلب إلا مطلا ولقد كان لي بمخالطتهم علم ! ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفِلك المستديرة، ثم رماني ببصره فقال يا عدو الله ! أتقول لرسول الله صلى الله صلى الله ما أسمع ؟ وتصنع به ما أرى ؟ فوالذي نفسي بيده ! لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي عنقك. ورسول الله صلى عليه وسلم ينظر إلي في سكون وتُؤَدَة. فقال : يا عمر أنا وهو كنا أحْوَجَ إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه ! اذهب به

يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكانَ ما رُعْتَه. قال زيد : فذهب بي عمر فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعا من تمر. فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر ؟ قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكانَ ما رُعْتُك. قال : وتَعرفني يا عمر ؟ قال لا : قال : أن زيد بن سعنة. قال : الحبر ؟ قلت: الحبر ! قال فما دعاك إلى أن فعلت برسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلت وقلت له ما قلت ؟ قال : يا عمر ! لم يكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، وقد أخبرتهما، فأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ! وأشهدك أن شطر مالي – فإني أكثرها مالا –صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قال عمر : أو على بعضِهم فإنك لا تسعهم ! قلت : أو على بعضهم ! فرجع عمر وزيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسلوه وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهِدَ كثيرة، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلا غير مدبر. ورحم الله زيدا !».

إن القرآن الكريم كتاب جهاد قص الله فيه كيف كان أنبياؤه مجاهدين صابرين على دعوتهم، وقص كيف مؤيدين بالغيب.

وسيرة رسول الله تشخص أكمل التشخيص معاني الربانية، معاني الشهادة بالقسط، أي المثول والحضور بالنور الكامل والسمت والتؤدة والاقتصاد بين الناس. وانظر كيف تحرى الحبر حتى استيقن أنه الحق فتزكى وبذل وجاهد حتى مات شهيدا، ألا وإن الجهاد الذي تحتاجه الأمة في جهلها لإسلامها أن يقوم الناس من رجال الدعوة بالقسط ويعيشوا بحياة الإسلام حتى يراهم الناس فيتبعوهم، عملا وقولا، اليوم وغدا حين يعز الإسلام.

الفصل الثالث

كتاب العالم

«في هذه الصفحات التي كتبت منذ عشرين عاما استعراض للتجربة الشيوعية الصينية التي كانت يومئذ شغل المتقفين ينتظرون من نجاح ماو والماوية نموذجا يحتذى في العالم الثالث.

أما بعد سقوط الشيوعية في المعسكر الاشتراكي، وبعد معاناة صين ماو وما بعد ماو من كارثة «الثورثة الثقافية»، وبعدما تعيشه الصين من مناغاة للرأسمالية ونظمها،فالذي يبقى من الكتابة عن ماو وفلسفته وتجربة الصين هو الدرس من إديولوجية مادية عبأت ثورة هائلة غيرت وجه التاريخ ثم عجزت وسقطت. وتبقى محاولة النقد سلبا وإيجابا».

منها قائم وحصيد

قال الله جلت عظمته لنبيه ولنا : ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ**﴾ والقرية في المفهوم القرآني حضارة جاهلية كافرة : ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً**﴾. فأصحاب الأثاث والرئي قرية كافرة زمنية تقوم زمانا ثم يحصدها الجبار سبحانه ببطشه. وفي عالم اليوم قرى قائمة ينصبها الله لنا آيات لنتأملها ونتعلم منها كما نصب لنا في قرآنه أمثلة القرى التي حصدها.

أخبرنا الحق عز وجل أن آياته لا يتدبرها إلا قوم يعقلون. وفي المفهوم القرآني يلتقي العقل واللب في النظرة الفطرية، فيقبل المؤمن المحسن مشروع الله في الأرض وَقَدَرُهُ ويعلم أن هذا الكون خَلْقُ الله جعله فتنة، ويتعلم من الكون على الحد الشرعي يلتقط الحكمة أنى وجدها. وقد قرأنا كتاب الله وسنة رسوله في الفصلين السابقين وتعلمنا مباديء الفقه المنهاجي وأصوله، فإذا ألهمنا الله التعلم من الجاهلية القائمة وأخذنا منها حكمة لا من حيث كونها جاهلية بل من حيث كونها مددا من مدد الله، فنحن نوشك أن نبدأ بناء إسلامنا بالقسط غير مفتونين ولا متخاذلين، قال الله تعالى : ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ**

ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾. انتبه إلى عطاء الله للعالم وانتبه إلى أنه ليس محظورا علينا أن نأخذ عطاء الله من مأخذه الشرعي.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**». وكان يذكر بخير حلف الفضول حضره في الجاهلية، وكانت القبائل بمقتضاه تتضامن لمنع الظلم وأخذ الحقوق فنحن بين ضرورة تميزنا عن الجاهلية ومعاداتها وبين ضرورة التعلم من العالم، والحكمة العملية التي نحتاجها في يد الجاهليين. فهل يكون إسلامنا تزمتا مغلقا أم نتكيف بالعالم الجاهلي ؟ كلا ! لكن ننظر إلى العالم بالمنظار المنهاجي وننقده بالمعيار المنهاجي بالنظرة الفطرية، ننظر إلى الجاهلية وعالمها كما هي في حقيقتها تدبيرا من تدبير الله وعطاء منه غير محظور. ونتصرف وفاقا لشريعة الله، نأخذ الحكمة ونطرح الجهل والجهالة ونتزكى ربانيين لا رهبانيين ولا مذهوبا بنا.

إن العالم اليوم أكلة للجاهلية الرأسمالية، فلها الغلبة ولها معظم الأثاث والرئي، فلننظر أولا وأخيرا قتامتها وقذراتها فكل ذلك معروض علينا في صحف العالم، لكي نتعلم كيف نعاف

الجاهلية إذ يكون نتَاجها هذا الإنسانُ الشقي بنفسه المكشر عن أنيابه : الإنسان المستهلك.

إنها قرية قائمة لما يحصدها الله عز وجل، ونحن نأمل أن يهديها الله على يدنا لدينه معشر الأمة المستضعفة كما رجا الأنبياء لقراهم، فإنما نحن تابعون سائرون على سننهم وما بيننا وبين أن ندعوها كما دعوا إلا أن نهتدي نحن ونتأهل لحمل الرسالة. وإن قرية الرأسمالية وقرى الشيوعية مجال إن شاء الله لنشر دعوة الإسلام، فكذلك ننظر إلى القرى بلا حقد ولا كراهية، ومن عادانا قاتلناه بلا حقد، بسيف الله يوم يكون دعوة ويكون لنا سيف إن اعترضنا في دعوتنا معترض، وبالحكمة والموعظة الحسنة دائما.

إنها قرية ورثت العقلية الوضعية من القرن التاسع عشر، عقلية ضيقة جهدت جهدا كبيرا لتفرغ التصورات الإنسانية الأشد مساسا بالشخصية المعنوية للإنسان من محتواها، فلا ضمير ولا إرادة ولا أخلاق، إنما هو بشر يسير في دوابيته حسب علاقات تجارية نفعية تكتنفها الرغبة في الوجاهة الاجتماعية وتدفعها وتدفعها قوة التنافس. إنما هو بشر مكانته الاجتماعية يحددها تخصصه في العمل ويحددها إنتاجيته في خدمة رجال الصناعات المهيمنين على جهاز الحكم المسخِّر للإنسان.

جاهلية ذهبت بها العقلانية العاتية المعجبة بآلاتها إلى أن ترفض القيم الخلقية وتُكب على التحليل «العلمي» العملي الذي يعطى آلة جديدة أو طريقة جديدة. وحللوا الإنسان وأحصوه، وغرتهم التكنولوجيا السحرية التي تحقق المستحيل بمجرد الضغط على زر صغير، فما هالهم ما في جسم الإنسان من معجزات وما هالهم ما في الكون من آيات. أحصوا الإنسان فجمعوه فما وجدوا إلا دابة ملتهبة بنزغاتها البيولوجية، وأحصوا أيامه في الأرض ففرحوا لأن العلم الطبي وارتفاع مستوى المعاش زاد في معدل عمر الإنسان كذا وكذا سنة. فذلك هو التقدم وتلك هي الحضارة.

حضارة تباهي بأثاث المطبخ العجيب الذي حول اقتنائه تدور الهمم، وأصبح الطعام موضوعا للصناعة المكنية، وأصبح فنا. بيد أن الجاهلي الصناعي يأكل بسرعة ويأكل طعاما كثيرا ثقيلا فيمرض بسرعة. ويضيع عمر الدودة الأرضية بين الجزع من أخطار البطن ومن أخطار الطريق حيث تتسارع السيارات وبين الهلع من الوقت. الوقت من ذهب، والوقت من حديد، والوقت سيف يقطع الجاهلي الزاحف بكل قواه ليملك أحسن سيارة وأجمل امرأة وأوسع منزل وأكبر رصيد مالي. حتى إذا تم له من ذلك ما أراد أو كاد، جاءهم الموت من كل مكان.

فعنفٌ قتَّال في الشوارع، وعنف في أسواق المطالبات والمزاحمات السياسية، وعنف بين الأحداث، والقنابل المدمرة تنتصب ثماثيل للعنف الجاهلي.

الإنسان الجاهلي دابة غالبت القلة حتى اكتظت أسواقها طعاما وأثاثا، وحتى اكتظت بطونها طعاما وصدورها دخانا ينشأ عنه السرطان ولا يوشك علم الطب العتيد أن يخترع دواء لداء واحد حتى تنبع له عشرة أدواء[1]. ومع اكتظاظ البطن طعاما واكتظاظ الجسم أمراضًا يعيش الجاهلي في فاقة روحية لا تغني فيها الكنيسة فتيلا منذ أعرض الجاهلي عن دينه. ويعوض كل فاقته الروحية كما يشاء، فيملأ فراغه بالتسافد والدَّعارة، ويتعاطى المخدرات من كل نوع، ويتسابق مع المتسابقين ليروح ريح الهواء النقي يوما أو يومين في الأسبوع يخصصهما لخلاعته تخصيصا ما دام في أرضه هواء نقي، أو يزحف على البلاد المتخلفة سائحا يجلب معه القذارة الخلقية والقذارة وكفى مع ما يجلبه من فتات المال للأمم الجائعة.

والشباب الجاهلي شقي بكل هذا، فهو يثور ويكسر أوثان القيم المادية ويتوغل في الدوابية توغلا مقصودا يشكو قلة العون وقلة الناصح الذي يدله على معنى للحياة. هذا الشباب يرفض

1 وتأمل آيات الله في العصاة من ظهور مرض 'الإدز' أو 'السيدا'

التخمة المادية ويشعر بالفاقة الروحية وبالحاجة لقيم يجد أثرا لها في تاريخه ويعرض عليه تجار الروحيات عيِّنات معاصرة تستهويه وتغريه. فهناك حيوان «الهبي» الذي أخذ يتحول نحو المسيح يلبس المسوح ويدعو للدَّعارة المسالمة، لحرية الجنس باسم المسيح. وهناك تجار الروحيات من الهنود اليوك تروج لهم أسواق في عالم الغرب أيما أسواق.

ولتعويض الخواء الروحي يتطلع الجاهلي لتغيير ينقله إلى عالم ما بعد الحضارة الصناعية. فمركوس يصور عالما فيه الوفرة وفيه حرية الجنس. وآخرون يرسمون حضارة يتوقف فيها النمو الصناعي «nom growth culture» ويذهب استبداد الضرورة والتكنولوجية لترضى الحاجة الإنسانية للسعادة، ويكتب أحد أساتذة امريكة يقول[1] : «إنه من الواضح أنك إذا أردت أن تجعل التكنولوجية أكثر إنسانية فلن تستطيع ذلك في النطاق المحدود لإمكانيات الكتب والحضارة وكل الأوْعية العتيقة. لا بد لك أن تذهب بعيدا جدا. وفي هذا الاتجاه، فالأشخاص الذين يعرفون حقا التكنولوجية الإلكترونية والأفعال المردودة البيولوجية[2] «bio feedbyck» وأنواعا من الوعي لا تحتم عليك أن تقرأ ستة وثلاثين ألف كتاب في السنة هم أصحاب

1 Irwin thompson in «Time magasine» August 21. 1972

2 كلمة feedback اصطلاح سيراني cybernetique يعني رد الفعل المخزون المرصود travail asservi في الآلة. فتعبيره يشير إلى مصدر خارج الجسم البشري يتحكم في الفورات الغريزية، فيتضمن تطلعا للغيب.

الرياضة الروحية ! ففي الظاهر تبتعد عن الثقافة والتكنولوجيا وتتحول روحانيا ترفض العالم. لكنك في الواقع ترجع إلى قلب ثقافة ما بعد التكنولوجية».

ومعنى هذا في سياق مقاله الطويل أن الحضارة التكنولوكية المتطلعة لثقافة ترتكز على الإنسان لا على أثاث الإنسان يجب أن ترفض مديري الأعمال «managers» وترمى في أحضان اليوك الدالين على وعي جديد، المدركين للعلم الحقيقي.

ومعنى هذا بالنسبة للدعوة الإسلامية أن الجاهلي قد أشبع شقاء بحضارته فهو ينشُد شيئا لا يجده ولن يجده إلا في الإسلام. وتتكاثر في الغرب، خاصة في أمريكا، نوادي الرياضات الروحية الشيطانية، فطائفة يعبدون الشيطان ويسمونه باسمه ولهم قدم في السوق وآخرون يتتلمذون لليوك عبدة الشيطان العام.

كان الشهيد سيد قطب يدعو لأن يتحمل المسلمون دور أستاذية العالم. لنكن أساتذة العالم فالسر عندنا والعالم محتاج، لكن أين مؤهلاته ؟ إننا قبل أن تحق لنا الأستاذية للعالم لا بد أن نتعلم من العالم، لا بد أن نتعلم بهمة المؤمن حر العقل والإرادة، إنسان الفطرة، لا هذه التلمذة الخانعة التي يأخذ بمقتضاها المفتونون من أبنائنا أثاث الجاهلية وزينتها ويفوتهم أخذ الحكمة.

لا نغفُلن عن القيم التي بنت الحضارة الغربية واقفين عند

العوامل التي تنحر الكيان الجاهلي. إن الدرع الحديد الحصين الذي بنته الحضارة هو القوة التي نحتاج إليها، وإن أصل بنائه الضبط في الوقت والعمل، والصبر والمثابرة، والتعلم الدائم، والإبداع والتنظيم. وكل أولئك لا يقابلهن عندنا إلا الكسل الفكري ونهم لا يشبع يحاكي نهم الجاهلية وشراستها. إن للجاهلية شيئا لا نملكه، إن لهما اتجاها وعزما على تحقيق هدفها في السيطرة على العالم. تفعل ذلك للاحتفاظ بمثلها الأعلى وهو رفع مستوى المعيشة باستمرار. وللمسلمين اليوم هدف سلبي يسمى في أحسن صورة «رفعا لآثار العدوان». ومتى أصبح لنا هدف متعد غير لازم، ومتى أصبح لنا هدف ايجابي يخدم غاية وجودنا كان لنا الإتجاه والعزم، ويومئذ تقودنا يد الله وترعانا عينه التي لا تنام.

أما القرى الأخرى، فإنها متعددة الوجوه متلونة في أثوابها تلون الغول، فالتعلم منها عقبة يحب أن يقتحمها رجال الدعوة ويعدلوا عن الانتقاد لقذارة الجاهلية ورجسها انتقادا يحول بيننا وبين التدبر الفطري لآية الله الذي هدى عباده الضالين عملا ملأ ويملأ العالم صخبا وفكرا وثورة. فالجاهلية الراكدة في ثرواتها وأثاثها تملك التكنولوجيا وهي لنا بغية، وهذه الجاهلية الشيوعية الاشتراكية تملك ما نحن أشد حاجة إليه وهو الحركية وسر التعبئة والتأثير في الإنسان. وما علينا إلا أن نتأمل ابناءنا لنعلم في أي واد يهيمون.

وكان الإمام عمر بن الخطاب نهى عن اتخاذ لباس الأقوام الجاهلية ودل على الاخشيشان والتمعدد لكنه اقتبس النظام المالي ودون الدواووين على غرار ما كانت تدون الجاهلية الفارسية. إنه طرح الأثاث وأخذ الحكمة. وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلب العلم وأمر زيدا أن يتعلم لغة اليهود، وأمر عمر الناس بتعلم النجوم، ووصى مولانا علي بطلب العلوم والحكمة أينما كانت. لكننا لا نيأس من توبة المثقفين اليساريين من بني جلدتنا. إنه هكذا يفكر إنسان الفطرة المؤمن لأنه غر كريم، يطمع أن يهدي الله به ولو رجلا واحدا فيكتب مع الدعاة إلى الله، ويطمع أن يهدي الله به العالم أجمع. ولكي يكون تعلّمنا من الاشتراكيين تعلما فطريا يتلقى عن الله وعن عطائه لا عن الجاهلية باعتبارها كفرا وإلحادا، لا بد أن نتعلم أولا أن صولة الشيوعية ومضة ثم تنطفيء. وإن كانت الصين اليوم رمزا للقوة والإبداع فهي صائرة لا محالة إلى حيث صارت قبلها روسيا، مصير جبار في الأرض هدفه هو نفس هدف الجاهلية الأخرى، وما تغني الألقاب التي ينبز بها الروس خصومهم حين يسمونهم إمبرياليين وإقطاعيين[1].

فقد أصبحت روسيا بلاد إقطاع طبقي ومركز أمبراطورية استعمارية، ونستعمل هذه الألفاظ الجاهلية فهي تدل أحسن

1 وقد كان، والعظمة لله الواحد الديان.

دلالة على معناها. يبدأ الإقطاع الشيوعي بالاستبداد بالعقل. يقول زعيم شيوعي يوغوسلافي سابق هو ميلوفان ديلاس[1]: «يمارس الشيوعيون الاستبداد بالعقل بمهارة فائقة توليهم أعنة السلطة، فتدفع المادية الشيوعية المؤمنين بها إلى موقف لا يتمكنون فيه من اعتناق أية وجهة نظر أخرى، وإلا فهناك وسائل الإرهاب وتحطيم العقل البشري.

... وتواصل الشيوعية المعاصرة خلق أنصاف الحقائق محاولة تبريرها، وتبدو وجهات نظرها حقيقية غير أنها في الواقع مطعمة بالأكاذيب. وكلما كانت أنصاف الحقائق هذه متسمة بالمبالغة، وكلما كانت منمقة بالأكاذيب، كلما ساعدت على تعزيز الاحتكارية التي يمارسها زعماؤها على المجتمع... هؤلاء البيروقراطيون قد أخرجوا نبضات شعبهم الثقافية. لقد كانوا هم الذين ابتدعوا عبارة : «الانتزاع من الضمير الإنساني»- أكثر العبارات بعدا عن الإنسانية، وأخذوا يتصرفون طبقا لها كما لو كانوا يتصرفون في أعشاب وحشائش لا في أفكار البشر».

وهذا الأسلوب في معالجة البشر والتسلط على الضمائر تبرز طبقة من الخانعين وتعطيهم الصدارة وتبتر المجتمع من العناصر

1 كتابه «الطبقة الجديدة».

الحية. يقول كاتب روسي هرّب كتابه فنشر في الغرب[1] :

«إن النخبة البيروقراطية روعي في اختيارها الأسلوب البيروقراطي الذي ينتخب أكثر الناس طاعة واستعدادا للتنفيذ. وهذا الانتخاب المعاكس للطبيعة لأكثر الرجال طاعة من البيروقراطية القديمة وإقصاء العناصر الأكثر تحررا وجرأة عن ميدان التوجيه ولد أجيالا جديدة تزداد ضعفا وحيرة على الدوام.»

إن الشيوعات سائرة في درب الجاهلية الذي سارت فيه القرى من قبلها حتى حصدها الله. فمن حصدها الله. فمن مرحلة الثورة ينتقل الشيوعيون إلى مرحلة التصلب العقدي، وهي المرحلة التي تمر بها الصين، ثم إلى مرحلة الانتهازية وخلق عقيدة جديدة تنكرها الشيوعيات التي ما تزال في المرحلتين السابقتين فتلعن «المراجعين» الخائنين للمباديء الشيوعية. وهكذا يرتفع لغط الجاهلية الحمراء في نزاعها الشيوعي مع مثيلاتها أشد أعدائها ضراوة إلى جانب لغط الجاهلية السوداء، ويحتد الهياج المشترك في معركة الغلبة على الأرض والتكاثر. جاهلية تدعو إلى الملكية الفردية فيشقى من يملك بثقل حِمْله ويُسخَّر دابةً تنازع من لا يملكون، وجاهلية تنزع الملكية من الأفراد لتعطيها حقا كاملا لبيروقراطية منتخبة تستبد

1 Andrei Amalrik in «l'Union Soviétique sur vivra t-elle en 1984? 1970 p 68

بالفكر لكي تستبد بالرزق. وكل هذا آئل إلى خراب، وكله من آيات الله التي ينبغي أن نتعلم منها. إن الغافل لا يرى في الكون إلا مسميات كمية وأقواما وأعدادا وقوات تتطاحن، أما المؤمن فيرى في كل ذلك مدرسة ما خلقها الله إلا ليتعلم منها المؤمنون إذا اهتدوا وغالبوا الفتنة وانبروا ليحملوا رسالة الله التي من أجلها خلق الكون متعرضين لموعود الله وموعود رسوله.

في مأدبة اللئام

كلمة قالها قائد مجاهد في موقف جهادي، يقول بعض المؤرخين : إن طارق بن زياد لما عبر إلى بر الأندلس في أول فتح إسلامي لأوربا، حطب جنده قال : «واعلموا أنكم أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ! وقال : «وإنه لا وَزَرَ لكُم إلا سيوفُكم وإلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم». ونقول نحن الكلمة من موقف الضعف الذي آل إليه أمرنا، لكن نقولها بنية جهاد مُقبل غيرَ مُدبرٍ، لأن العلم الإسلامي لا يكون إسلاميا إن اكتفى بالدفاع والتزام خط التكيف بالعالم والتلمذة الخانعة له.

ونقول الكلمة بلا حقد على العالم، فلا نشتم اللئام لأن الشتم ليس عملا إسلاميا، ولأن المنظار المنهاجي منظار علمي يلزم صاحبه النظرة المجردة إلى خلق الله. إنك لا تشتم الجُعَلَ أن كان جعلا ولا العقرب أن لها حمة مسمومة توذي بها، لكنك تكنس الجُعَل لقذارته وتقاتل العقرب إن أتتك شائلةً ذنبها دون أن تحقد عليها. كذلك نحن حول مائدة العالم مع عباد الله الجاهليين، إنهم خلق الله ولسنا عليهم بمسيطرين كما قال الله لنبيه. ولما وقع رسول الله صلى الله عليه سولم في حفرة نصبها له العدو في غزوة أحد وأصيب حتى دَمِيَ وجهه قال : «**كيف يفلح**

قوم أدموا وجه نَبِيِّهم ؟ » فخاطبه الله قال : ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾.

إننا في مأدبة اللئام مضيَّق علينا مظلومون تطأنا الأقدام الجاهلية، ولعل العمل السياسي في موطن مثل هذا لا يعرف جوابا إلا الغضب المقاتل إن كانت القوة أو المراوغة الدبلوماسية بعد الهزائم النكراء. أما العمل الإسلامي فيقدر الوضع تقديرا إسلاميا تسبق فيه التؤدة العنف ويسبق فيه العلم المنهاجي الجهل بالمبدأ والمعاد. إن استخلاف الله لنا في الأرض ويوم نؤمن ونعمل صالحا يعني أن نكون أوصياء على خلق الله بالرحمة والرجاء في توبة العاصي وإسلام الكافر. إن هذا الخلق عيال الله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله**». يقول الصوفي : «لا تبغض يهوديا ولا نصرانيا، لكن أبغض نفسك التي بين جنبيك»، فلا يفهمه الخلي، لا يفهم أن أنانية المرء هي المِنوال الذي تُنسج عليه العادة ويتبلور فيه الاستكبار الكافر فإذا المرء جاهلي ينصرف على غير هدى. إن نفع عيال الله في الأرض في كنس الجعل وقتل العقرب، وإن لله شريعة عليها يقوم الإسلام في القلوب ومجال العمل العام. وشرع الله عين لنا أعداء شديدي العداوة لنا هم المغيرون اليهود، ثم ترك خيط رجاء ممتدا يصلنا بالرحم الإنسانية، فبهذا الرجاء

نحمل الرسالة الإسلامية للخلق، ووصايتنا عليهم وصاية رحمة لا وصاية تسلط. اليهود الخائنون لعهدنا هم أشد الناس عداوة لنا، ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر وخرج منها اليهود رجعوا إليه يسألونه أسفارا من توراتهم كانوا تركوها، فأعطاهم ولم يمنعهم. وأخبرنا الله أن أقرب الناس لنا مودة هم الذين قالوا : «إنا نصارى»، ولم يأمرنا أن نعانتهم لتثليثهم وكفرهم شهادة الله العلي العليم، بل أمرنا أن نَدعهم ونُسالمهم فقال : ﴿**وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يأمرون المجاهدين أن لا يتعرضوا لمن حبسوا أنفسهم في الصوامع.

رجعنا إلى التؤدة الإسلامية لنحدد معالم الطريق حتى لا تختلط علينا السبُل ونركب المركب العادي الذي لا يرى إلا قانون المدافعة بالعنف. وإن المدافعة بالتي هي أحسن كما أمر الحق عز وجل هي القوة وأن عاقبتها أن يصبح الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. إنه لا محيد لنا عن المزاحمة بالمناكب وبكل قوانا على مائدة اللئام، فإن لا نذكر الله كثيرا يستحل زحامنا نضالا كالنضال وتفتنا الأسوة برسول الله المجاهد في سبيل الله. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي**

رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾. لهذا نذكر الله كثيرا ونرجع إليه ونتوب في كل خطوات تفكيرنا لكيلا نحيد عن الأسوة الجهادية التي تعرف القوة ولا تعرف العنف.

ونريد أن نريد فهما للأسوة التي أمرنا الله بها في تدبر آياته قبل أن نعرض للنظر في مائدة اللئام. فهاك آيات جامعة تحدد موقف حامل الرسالة عندما يخاصم العالم في الله فيبغض في الله دون أن يحسم خيط الرجاء في أن يهدي الله به الخلق، قال عز وجل : ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾. فتأمل أخي المؤمن كيف عاداهم نبي الله ورسوله أبونا أول المسلمين عليه الصلاة والسلام،

وانظر كيف خشي أن يكون فتنة لهم فسأل ربه أن لا يجعله فتنة للكفار يصدهم عن دين الله إن لم يقم شهادة القسط كما أمر. ثم انظر الإلحاح على أن في إبراهيم رسول الله لنا اسوة عداوة الكفار ومودة للذين آمنوا.

بهذه الاسوة الحسنة نتأمل أكلة المائدة العالمية لنتقزز من نهم الجعلان وقذارتها وشر العقارب وسمها ونشمر ونأخذ العدة لنحمل رحمة الإسلام لأهل الأرض بعد أن نتخذ درعا من حديد وننطق نطقا صادقا نخاطب الناس بلغة يفهمونها ندعوهم ليشهدوا قوتنا وطهارتنا وتعاوننا وفكرنا المبدع، وندعوهم للحرية الحق نحو مصير الإنسان إلى الجنة وإلى رضوان الله.

كتب رجل اقتصاد فرنسي كتابا عنوانه «التسلط على العالم» ينشر فيه كيف يتنافس العملاق الروسي مع العملاق الأمريكي في تقسيم العالم والاستيثار بخيراته. كتبه من وجهة نظر المجموعة الأوربية الناشئة الطالبة لحظها من القسمة على مائدة اللئام. يفصل فيه التوظيف المالي والإيديولوجي للمعسكرين، والمغامرات النقدية بل حرب الفلوس بين اعضاء من يسميهم «البرجوازية الدولية» ويفصل فيه احتكار السلطة التابع للإحتكار الاقتصادي، ويسمي فيه الجهاز الإحتكاري تسمية تلخص الموضوع إذ يذكر : «آلة تفقير العالم» وهي كماشة ذات فكين، أحدهما ينهش عالم

رأسمالية الدولة. وكلاهما يتعاون مع نصف الآلة الآخر في الوقت الذي يئس فيه من الاستقلال بالعملية بالنظر للأرصاد النووية المقنعة. وهكذا يؤكل العالم وتذهب خيراته لتزيد المتخم تخمة وتترك العالم الفقير يتلقط ما يسقط من بين أضراس الكماشة المحتاشة لما على مائدة اللئام، وما كانت مائدة لئام إلا مكان الآلة النهمة.

يقول[1] :«هل يوجد في «العالم الحر» دولة تستقطب أهم تجارة العالم الثالث وتغمره بسيل منتوجاتها المصنعة؟ إن الأرقام تعين الولايات المتحدة الأمريكية، إنها تستورد 33% من «بوكسيت» العالم، و40% من النيكل، و41% من التوتيا (Etain) و50% من القهوة..... وتنتج الولايات المتحدة : 70% من المكنات الصناعية في العالم، و76% من سيارات العالم، و73% من بترول العالم، 68% من الآلات الإلكترونية في العالم و62% من المنتخبات الكيماوية الخ.

ويفسر الكاتب أن الولايات المتحدة تملك اقتصاد أوربا زيادة على ملكيتها الفعلية لاقتصاد العالم الثالث، ويفسر امتلاكها الفعلي أيضا لاقتصاد اليابان المزدهر، ويفسر فعل الأخطبوط المتسلط الذي لا يحد هوس امتلاكه إلا جدار الحديد الشيوعي.

---

1 La prise du pouvoir mondial par Jean Carral Denoel 1971 p 143

لسنا نسرد الوصف الكمي للجاهلية لنشكو فقرنا ولا لنيأس من إمكان ظهورنا على مسرح العالم نجدد للإنسانية أملا في الحرية ربما نشاركها السكن في الأرض، ونعطيها الحياة الحق بما هي دابة ترضى بدوابيتها مآلها التراب وبما نحن مؤمنون مآلنا الجنة إنما نؤكد أن الله عز وجل يسلط على كل داهية ليتدافع الناس فلا تفسد الأرض. ومن خلال دفاعهم يصنع الله لدينه وأمة نبيه. لا يغرنك ما تخزنه إسرائيل من متاع وعتاد ولا يغرنك ما يملكه أنصار إسرائيل من حديد ودولار فكل ذلك عبء ثقيل مائت في أيديهم إن شاء الله أن يبسط للإسلام بسطة. ﴿**وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

أما روسيا فإنها تعوض نقصها الاقتصادي «بالمقارنة مع العملاق الأمريكي» بالتسلط الإديولوجي وتعززه به. فالإديولوجية أقوى بضائعها وأرسخ ما تعتمد عليه في استعباد العالم. ومنا مفتونون يجرون لهذه العبودية ويتلهفون عليها. قال الكاتب المذكور[1]: «وفي هذه الحال (حال الضغط الاقتصادي العسكري الاستعماري) تؤول العقائد الشيوعية تأويلا كثيفا جدا ومستمرا جدا. وتجري العقائد تحليلات بعيدة جدا عن الواقع، وتبلغ تناقضاتها أنها لا تصلح للتأمل العقلاني. إنها تصبح إيمانا. فكيف يمكن أن نقبل

1 Ibid p 92

«الصعلكة الدولية» و«التماسك الطبقي» في المعسكر الشيوعي حيث نرى الجماهير العمالية نفسها تعلن عداءها للسوفييت ونرى أن القادة الشيوعيين لا شبه لهم بالعصاليك الفقيرة ؟ إن هذه الحذلقة اللفظية التي تشبه التعاويذ السحرية وهذه الشبكة من الإيمان يحقق «سماء» سياسة، نوعا من الدين جديدا حاضرا في كل ماكن ودنيوي، غايته أن يقَنَّع التسلط السوفيتي ويقويه.»

وعلى مائدة اللئام تفرض شروط وتقنن العطايا والفروض للدول الفقيرة بحيث تفقد هذه الدول حريتها، ويفشو الشك في الشعوب لأنها لا تعرف من هو سيد دولتها، إذ أصبح محتما أن يكون لكل دولة سيد من أحد العمالقة النهمين. وكلما قامت ثورة أو حدث انقلاب أو هيعة في العالم الفقير إلا والتفت الناس في العالم وأصغوا ليعرفوا من لهجة القائم الجديد إلى أي جهة انتماؤه. والمسلمون، وهم سبعمائة مليون أو يزيدون وفي أرضهم 80% من رصيد بترول العالم، وفي أرضهم خير كثير لا يفلتون هذا التسلط ومن جنوده السرية والعلنية. وأمامنا الصين الفقيرة كسرت قيودها ووقفت على أقدامها متحدية لسلطان العملاقين في عشرين سنة. ذلك لأنها رضيت بالفقر مذهبا، وهو أمر في غاية البساطة والرجولة معا. فلذا إما أن نتعلم كيف نكسر القيود وإلا فنحن المستضعفون المأكولون.

يقول كاتبنا[1]: «نشاهد بروزا لا يقاوم لحكومات غير ديموقراطية في العالم . غالبا ما تكون هذه الحكومات عسكرية وصلت الحكم بتأييد أحد الكبار. وهي أحيانا تقدمية تعتمد على الجماهير العاملة، لكنها في حقيقتها تتسم بسمة سياسية واحدة : إنها شمولية تسلطية عاملة طوعا أو كرها لصالح الولاية المتحدة أو روسيا».

وحين يبسط الله من تأييده ما قبض عنا لارتدادنا لن يكون للجاهلية سلطان على قائمة الإسلام . وما أعطاه الله لعباده الوثنيين بالصين عطاء غير محظور من الصمود والقوة سيعطينا أضعافه إن صبرنا وآمنا وتعلمنا من آيات الله نذكره كثيرا وندعوه.

ما بال أموالنا الطائلة تتسرب بين أيدي السفهاء من أبنائنا ؟

إن لنا مالا لكن لا نبذله إلا إرضاء لهوانا ولا ننصر به ربنا.

ولقد كان شكيب أرسلان رحمه الله يؤكد أن الشح هو داء المسلمين العياء، ويذكر في كتابه : «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟» كيف يبذل النصارى أموالهم لنصرة الكنيسة. ونحن نتأمل هنا كيف يبذل اليهود الصهاينة لنصرة دولتهم الطاغوت . فما هذه الطائرات التي تمطرنا وبالا وموتا إلا نتاج لعطاء منظم يخدم شباب «الصابرا» المشمرين المتعلمين الأقوياء. دعنا من لمز

---

1 Ibid p: 251

الضعفاء، فإن عدونا قوي بمعنوياته، قوته برجولة شبابه، وقوته بعطاء بنيه في الأرض .

قال قائل اليهود في أمريكا[1] : «إن حياة يهود أميركا تدور حول جمع المال لإسرائيل وما من مؤسسة يهودية في أمريكا إلا وتدين بمكانتها في المجتمع لمقدار عطائها لإسرائيل». وينظم الضغط على الناس جميعا بالإرهاب والكيد اليهودي ليعطوا . وشعارهم: «أعط إن أردت تجنب المكاره ! ». وتقص جريدة « ديلي ميل » قصة أمريكي أقسم أن يساعد إسرائيل بماله . وفي مأدبة عشاء حضرها ليعطي 2500 دولار التزم بعطائها، قام خطيب اليهود فأعلن أن فلانا سيعطي 25000 دولار، وقال : «أليس كذلك يا مستر فلان ؟!» فخجل الأمريكي وأعطى، وهكذا .

قبل أن نأخذ في تأمل النموذج الشيوعي الأخاذ لنتعلم، نزود القارىء بحكم لأحد كتاب الغرب عن روسيا ومستعمراتها في أروبا الشرقية، لنعرف مسبقا أن مآل كل شيوعية إلى خراب وإن كانت هذه الشيوعية صينية تزعم أن حمرتها لا تشبهها حُمرة وتُعجبنا برجولتها وقوتها.

قال[2] : «في الوقت الذي نرى فيه البعيدين عن روسيا

---

1 Jeune Afrique 18 Mai 1971

2 أنطوان دو مازه في كتابه «عائد من الجحيم» ص 292 وهو كتاب يفصح عن محتواه عنوانه

ينفذون أوامر موسكو نجد أن فريقا كبيرا من الشيوعيين الروس قد أدركوا فشل النظم الشيوعية بعد أن ظهرت في البلاد مشاكل اقتصادية وثقافية لم يستطيعوا أن يعالجوها بالشيوعية فأخذوا يبتعدون عن التعاليم الماركسية اللينينية . وقد بدأ ضعف إيمان القوم بالتعاليم الشيوعية يبدو على ألسنة زعمائهم في مناسبات عديدة، وأخذ الجميع بعد النقد يبحثون عن مبادىء جديدة تقوم مقام الشيوعية. أو بمعنى آخر : إنهم أخذوا يبحثون عن مبادئ جديدة تقوم مقام الشيوعية. أو بمعنى آخر : إنهم أخذوا كيفية الرجوع إلى مبادىء العالم الحر (وهذا ما تسميه الصين مراجعية ويسميه خرشوف لحاقا بأمريكا) من غير أن يخطوا خطوة مفاجئة فيعرضوا الحزب إلى نقمة بعض الطبقات. ويبدو أن حركة العلماء والفنيين والمخططين الداعية إلى تغيير الأوضاع السائدة في روسيا أصبحت حركة واضحة وعلنية. ومع أن أكثرية القائمين على هذه الحركة هم من كبار أعضاء الحزب الشيوعي فإنهم أصبحوا يشعرون بأنهم وطنيون قبل أن يكونوا شيوعيين، وأن واجبهم يقضي عليهم أن يخدموا بلادهم على حساب الشيوعية لا أن يخدموا الشيوعية على حساب بلادهم وحساب مصالحهم.»[1]

1 وقد أكدت الأحداث اليوم صحة هذا التحليل

قائد ثورة

هكذا يرجع الجاهلي إلى غيه الأول بعد جولة أقامت العالم وأقعدته. فقد كانت روسيا معقد آمال العالم المتألم حين ثارت وحين عبأت الجماهير وحين بنت قوة ضخمة وهي تنادي بأنها نصيرة العاني والمظلوم. وتبين العالم أن يد ستالين الحديدية التي قتلت الملايين وسط الصخب الشيوعي العالمي ما كانت إلا يد جاهلية مستعمرة تشكلت لما مات الزعيم لكنها ما تغيرت، وغزت أوربا الشرقية بالنار لتثبت سلطانها الاديولوجي. وعادت روسيا إلى قوقعة قوميتها فهي الآن تريد مزيدا من القسمة وتريد سلام الذئاب والدببة مع عملاق الغرب.

وأمام الرجعة القومية والرجعة الاستهلاكية والرجعية عن عالمية الشيوعية يبرز وجه قائد جديد هو ماو تسي تونغ. إنه آية جديدة من آيات الله، رجل يحمل شعلة ويوقد شرارا . نفخ في أمته الخانعة بالأمس الذليلة المزمن إعياؤها وعياؤها روح الكفاح فقامت وشمرت عن ساعد الجد. إنه نفس القائد الجاهلي التاريخي من أمثال جنكيز خان ونابليون، بيد أن غزوة هذا غزوة تتعمق في نفسية الإنسان وتصوغه صياغة جديدة ولا تكفي بالتسلط

القتالي . وإنها لغزوة بالغة عبرت حدود الصين مع أخبار هذه الحركة الهائلة وأخبار هذه الحركية المدهشة اللتان قلبتا الصيني القميء فأحالتاه رجلا مبدعا حرا يبهر بأخلاقه وخلقيته قبل أن يبهر بقوة قذائفه وصواريخه .

غزوة هائلة بليغة تمكن سلطانها من أكثر عقول أبنائنا حيوية فوجد استجابة من كل متعطش لرجولة لا يجدها فيما حواليه، ووجد استجابة من كل طالب للعمل الجاد للمساواة وللاستقلال.

وإن النظرة الإسلامية الحق هي وحدها الكفيلة بأن تنتزع من عقول أبنائنا الفعل السحري لشخص ماو وفكر ماو إذ تفتح أمامهم آفاق الإنسان وقيمته السماوية، وتقترح عليهم الحركية المنهاجية الإسلامية وما فيها من قابليات للعمل وتحقيق القوة والعدل والقسط في العالم. هذا ريثما تقوم قائمة الإسلام بإذن الله فيكون النموذج العملي المتفوق للدولة الإسلامية شمسا تسطع فيجزي شعاعها وهج الجاهليات .

إن ماو كافر جاهلي ملحد، وإن قومه لكذلك، وإن من تصلبهم الجاهلي لعمادا لانتفاضتهم. لكن لنتجاوز هذه النظرة الجزئية ولنضع ماو القائد في إطار موضوعي أمام المنظار المنهاجي. والإطار الموضوعي هو مشروع الله في خلقه، هذا المشروع الذي يدور حول الأمة المسلمة القائمة بأمر ربها غدا، القاعدة عنه اليوم

لأنها لا تتعلم من آيات الله ولا تضع الأمور مواضعها الشرعية، ومن ثم لا تقدر بمنظار الإسلام، أو قل إنها لا تتعلم ولا تضع الأمور مواضعها الشرعية لأنه لا منظار لها إلا ايديولوجية مستعارة تبتر رؤية العالم والإنسان تحسبه دابة، أو فكر جامد ينتسب إلى الإسلام على غير بصيرة مفتوحة فيلعن ويكفر ولا يقترح حلا.

هذا الماو عبد الله الكافر كما أنك عبد الله المسلم هو أولا قائد أمة منبعثة، فلنا في القيادة والانبعاث آية وتحد لأنه لا قيادة لنا ولا انبعاث. لا أقول إنه لنا اسوة نتبعها فإن أسوتنا أبونا إبراهيم ومن معه ومحمد صلى الله عليه وسلم ومن معه. ونكرر ونستطرد لأننا لا نتكلم لغة الفتنة المألوفة، نكرر حقا مهجورا، ونستطرد أثارةً من هذا الشَّجَى في نفوسنا من الحسرة يحركنا كما يرهق شجى الحلق الرجل فلا يفتأ يتنحنح ويتململ.

كان ماو برجوازيا صغيرا على حد تعبيرهم فتمركس ونزل عن ترفه وقاد نضال شعبه منذ نحو خمسين سنة كان أثناءها المفكر الرائد وقائد الجيش ورئيس الحكومة وباعث الثورة. وإن كان الصينيون اليوم يتساوى وزيرهم والسوقة في البساطة والفقر الإرادي، ويقوم السفير يغسل صحنه بعد الأكل كما يغسله الناس جميعا فذلك لأن ماو كان النموذج الرائد. سكن مع الناس كأحدهم في كهوف ينان وعمل بيده عمل الفلاحين وسكن

مع جيشه خيمة عادية وجالس المحرومين وواساهم بنفسه ثم أزال عنهم الضيم فأحبوه ورفعوه فوق الرؤوس. فما يفعله صواب وما يقوله أو يكتبه عقيدة لا تناقش. وهكذا اجتمعت همة شعب كان أحط الشعوب حول شخص أعطى المثال من نفسه وبدأ بها قبل أن يأمر غيره فتحول شعب مهزول إلى دولة رفيعة العماد، ناوأها الجبارون في الأرض وسخروا من ثورتها حتى برز لها ناب نووي ودارت أقمارها في الأفلاك، فتلعثم الساخر وخرس، ثم خطب ود الدولة القوية والقائد العظيم.

هذا القائد رجل جاهلية، لكنها جاهلية من نوع خاص، تتلمذ لماركس ولينين ولستالين من بعدهما، فتشبع بالفكر الشيوعي وحمل شعار المساواة وشعار استبداد المحرومين. ثم إنه لم يجد في الصين طبقة عامة بروليتارية وإنما وجد فلاحين، فأصبحت ثورته ثورة فلاحين وكان فكره فكر فيلسوف فلاح يمتاز بالبساطة في التعبير وبهذه الحكمة القديمة التي خلفها في الصين «لاوتسي»، وهي تعطي للفلسفة الشيوعية عمقا إنسانيا لا تجده عند القوم منذ ماركس. بل إن الفلاح الفيلسوف نسج فكرا إنسيا ذا صبغة شيوعية لا يعتمد على الدعاية والهاب الحماس بل يعتمد على التجربة والخبرة العملية، ويأسر القارئ ببساطته وقوته ووضوحه مثلما يأسر فكر أستاذهم الكبير ماركس بالصناعة والقوة والتمكن العقلاني.

لا شأن لنا معشر المسلمين بالفكر الإنسي والشيوعي لأن هذا الفكر يضعنا موضع الدابة. فلا يغرينا أن هذه الدابة المنشودة أقل ظلما من دابة الجاهلية الأخرى ما دام المصير واحدا، ولا يحتاج الفكر الشيوعي منا إلى مناقشة ولا نقد وإنما يحتاج إلى أن نطرحه طرحا بجملته، طرحا جميلا مطمئنا آسيا على ضياع الإنسان، ونمضي بعدئذ نتلقف الحكمة أنى وجدناها. وإن من رجال الدعوة الإسلامية من يجيء يقاتل الفكر الشيوعي كما يقاتله أصحاب الجاهلية السوداء ويبذل في ذلك الجهد الجهيد، فلا يبلغ نقده إلا أن يزيد أبناءنا المعجبين بهذا الفكر غبطة بمتاعهم لأن الفكر المنتقد أسس دولا عظيمة وأحدث في العالم، ولا يزال يحدث، دويا عظيما، وحرر شعوبا وبنى مصانع. ثم يزيد من غبطتهم بالمتاع الفكري الشيوعي ما فيه من تماسك منهجي ومنطق داخلي. وليس شيء أقدر على جلاء الحق من السلوك المنهاجي الإسلامي، فإنه العلم النبوي الذي يقابل ادعاء العلمية عند الماركسيين، وإنه الحق الواضح لمن اكتشف نفسه في التجربة الشخصية للحياة الإسلامية.

لعل مثقفينا المفتونين يتحجرون على منهجية عقلانية مغلقة فلا يستطيعون التحرر كما استطاع ماو تسي تونغ. فهم يرفضون التجربة ويرفضون الحق المحس إذا لم يجدوا له مصداقا في أسفارهم.

والحياة الإسلامية صحبة وذكر يتحول بهما المرء تحولا جذريا، ويرفض مثل هذا المتحجرون (الضغماطيون في تعبيرهم أي أصحاب العقيدة المؤمنون بها). ثم إن ما يطلبونه هم من الحق هو الحق الاجتماعي الملخص في نقطتين هما الغاية والوسيلة : المساواة والاستبداد الطبقي المبني على الصراع بين الكاسبين والمحرومين. ولن تنقاد هذه الفئة للإسلام قبل أن يفيء مساكين هذه الأمة الأقل ترفا إلى إسلامهم خلف قيادة مؤمنة ترفع لواء الإسلام وترفع معه همة هذه الأمة وتحقق العدل والقوة. والبساطة والعمق في دعوة الرسول الكريم : «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا !**».

لماو فكر تربوي ومذهب تعليمي، يصوغ فكره صياغة هادئة، فهو تأملات وتأكيدات في متناول الفكر العام وفي متناول حتى أكثر الناس بعدا عن العقلانية. إنه يخاطب قومه بما يفهمون. عند ماركس تشنج مأسوي وعنده إلحاد واستعلاء بطولي لا تخفيه الفصاحة في التعبير والتجرد العلمي الظاهر. أما ماو فهو الرزانة بعينها والثبات. وحيث كان لينين يغلي غليانا هو أشبه بطبيعة الجاهلية السوداء التي نبع منها، يجري فكر ماو وعمله في سلاسة أخاذة. وحيث كان ستالين يعبئ الجماهير بالإرهاب والسفك تجد ماو يقود شعبه برفق فكأنما يسري من نفسه لين ومحبة تكسو اليد الحديدية المحولة كساء من حرير.

في فكر ماو بساطة ووضوح، وفيه تبتسم وتطمئن بضرب الأمثال وتشخيص المبادىء في شعارات يفهمها حتى الأطفال. لا جرم أن يصبح هذا الفكر هو المدرسة العامة في الشارع والمعمل والمنزل، ولا جرم أن يصبح الكتيب الأحمر كتاب العقيدة ومصحفها، يحمل كما تحمل التمائم ويحفظ عن ظهر القلب، ويستشهد به الأستاذ ورجال السياسة والفلاحة في حقلها والجندي في معسكره.

فيلسوف معلم وشيوعية تربوية استبدلت تجهم الشيوعي الثوري بسمة منتصرة، واستبدلت عنفه تربية رفيقة ماضية عازمة. ذلك هو ماوتسي تونغ. وما كان لنا به من شأن لولا أنه ورفقائه حققوا عملا جبارا أفزع الجاهليات الأخرى بالمد الفكري والعملي الجديد المهدد لكل ما كانت بنته الجاهليات. وما كان لنا به من شأن لو كنا أمة قائمة قوية. ولقد فتحنا كتاب الله نقرأه فوجدناه كتاب جهاد وفتحنا سيرة الرسول فوجدناها سيرة جهاد، ونفتح كتاب العالم فيطالعنا فيه أول ما يطالعنا وجه القائد العظيم. وكتاب العالم كتاب ربنا فهو الفاطر عز وجل، وما العالم إلا مسرح يجلي لنا فيه ربنا آياته. فماذا نتعلم من الصين؟

ماذا يقول ماو وماذا يفكر؟. هذا كتيبه الأحمر إنجيل الصين جمع مختارات من فكره يقول : « من أين تأتي الأفكار المصيبة؟

هل تسقط من السماء ؟ لا ! هل هي تولد معنا ؟ لا ! إنها لا تأتي إلا من الممارسة الاجتماعية، من ثلاثة أنواع من الممارسة الاجتماعية : الصراع من أجل الإنتاج، الصراع الطبقي، والتجربة العلمية»

ويقول : «لكي تتم الحركة المفضية إلى معرفة حقيقية، يلزم في غالب الأحيان تكرار مستمر، فتتحول من المادة إلى الفكر ثم من الفكر إلى المادة. بمعنى أنك تتحول من العمل إلى المعرفة، ثم من المعرفة إلى العمل. وهذه هي النظرية الماركسية للمعرفة، النظرية المادية الجدلية للمعرفة».

هذا فكر ملحد ولا شك لأنه من الأرض إلى الأرض، فلذلك لا نكون لنا أسوة بالماوية، لكن ما هي الخطوط التطبيقية الإنسانية للمساواة على هذه القاعدة الكافرة ؟

نلقى أولا هذه الإرادة الحديدية المتجلية في الدعوة إلى الاستماتة في طلب الهدف وفي الدعوة إلى اعتماد على النفس. يقول ماو : « يجب أن نزيل من عقول إطاراتنا توهم أننا يمكن أن ننتصر انتصارات سهلة بوسيلة الصدف السعيدة دون حاجة إلى أن نصارع صراعا قويا ودون أن نشتري انتصارنا بالعرق والدم». ويقول «يجب على رفقائنا في الحزب أن يعتبروا كل الصعوبات وأن يستعدوا لمجابهتها بمنهجية وبإرادة لا ترتد. إن للقوى الرجعية

صعوباتها ولنا صعوباتنا. لكن صعوبات الرجعيين لا يمكن أن تنحل لأن هذه القوى الرجعية صائرة إلى الموت ولا أمل لها في المستقبل. إما صعوباتنا فيمكن أن تغلب لأننا قوى شابة صاعدة ومستقبلنا مستقبل منير» ويقول : « إن الذي لا يرى إلى الجانب اللامع من الأشياء ولا ينتبه للصعوبات لا يستطيع أن يكافح بنجاح لإنجاز الأعمال اللازمة للحزب فهكذا يرسم طريق الكفاح ويلهب الحماس.

ويعطي للكفاح اتجاها إذ يربطه بالشعب ويدعو لخدمة الشعب والتماس الخير من سواد الشعب يقول : «كل عضو من إطاراتنا كيفما كانت مرتبته خادم للشعب، وكل ما نعمله إنما نعمله في خدمة الشعب. فما هي العيوب التي لا يمكن أن نتنصل منها ؟». ويقول : «اخدم الشعب من كل قلبك دون أن تفترق لحظة عن الجماهير. ابتدئ دائما من مصلحة الشعب كله لا من مصلحة فئة ولا من مصلحة فرد. اجعل مسؤوليتك أمام الشعب مثل مسؤوليتك أمام أجهزة الحزب. هذه هي المبادئ التي نستوحي منها عملنا» ويقول : إن المعركة تعني أن هناك تضحيات، والموت واقع بيننا. وبما أن أهم ما يشغل قلوبنا هي مصالح الشعب فإن الموت من أجل الشعب تعطي لموتنا كل معناها. ومع ذلك فيجب أن نقلل إلى حد الإمكان من التضحيات المجانية».

ونلقى عند ماو دعوة إلى البطولة ونصرة المظلوم والتضامن مع مستضعفي العالم وهي دعوة أصبحت الآن عملا بالتسرب الشيوعي الصيني غازيا العقول ومتسللا بالسلاح والتنظيم في شتى بقاع الأرض. يقول : «إننا نحن الشعب الصيني مستعدون لقتال العدو إلى آخر نقطة من دمائنا إننا عازمون أن نسترد بمجهودنا الخاص ما فقدناه، وإننا لقادرون على أن نحتل مكاننا بين الأمم» ويقول : لكي تتحرر الشعوب المظلومة تحررا كاملا يجب عليها أولا أن تعتمد على صراعها الخاص، وبعد ذلك فقط تعتمد على المعونة الدولية. إن الشعوب التي نجحت ثورتها يجب أن تساعد الشعوب التي تكافح من أجل التحرر. هذا واجبنا الدولي».

ونجد عند ماو دعوة إلى البناء الاقتصادي بالاعتماد على النفس وبعدم التبذير الذي هو الصفة البارزة في اقتصاد الجاهليات الأخرى، يقول : «يجب أن لا ينسى الشعب والإطارات أن الصين بلد اشتراكي كبير، لكنه بلد فقير، وهذا تناقض كبير، ولكي يصبح بلدنا بلدا فيه رخاء وقوة لا بد لنا من عشرات السنين نبذل أثناءها مجهودا متواصلا. ومن هذه الجهود تطبيق سياسة السرعة والاقتصاد في بناء البلد، وهي سياسة تقتضي اقتصادا تاما وتقتضي محاربة التبذير.» ويقول : «أما ما يتعلق بنفقات الميزانية، فيجب أن يكون مبدؤنا هو الاقتصاد. يجب أن يفهم

كل أعضاء المنظمات الحكومية أن الرشوة والتبذير جرائم خطيرة جدا. وإن محاربة هذه الأمراض قد أعطت نتائج جزئية، ولكن لا بد من متابعة بذل المجهود. اقتصدوا كل فلس من أجل حاجة القتال والثورة ومن أجل بناء اقتصادنا. ينبغي أن يكون هذا هو مبدأ حساباتنا.»

ولعل ما أغنى به ماو الفكر الشيوعي هو رفقه في معاملة خصوم الثورة في داخل بلده. ويسمى هذا : « الحل الأصوب للتناقضات في داخل الشعب». وحيث كان ستالين يعدم خصوم الثورة نجد ماو يدعو لإعادة تربيتهم، يقول : «إن التناقضات بيننا وبين أعدائنا تناقضات الضد لضده، أما التناقضات بين العمال في الشعب فليست تناقضات متضادة، والتناقضات بين الطبقة المستغلة والطبقة المحرومة لها وجه ضدى ووجه ليس كذلك». ويقول : « إن كل مسألة اديولوجية وكل خصام داخل الشعب لا يمكن حلها إلا بطرق ديمقراطية، بالمناقشة والنقد والإقناع والتربية. ولا يمكن حلها بطرق الضغط والالتزام.»

والنقد والنقد الذاتي أهم وسائل هذه التربية، يقول : « يجب أن لا نفرح أبدا بنجاحنا الأول. لننقص من افتخارنا ولننتقد دائما عيوبنا كما نغسل وجوهنا في كل يوم لنبقى نظيفين، وكما نكنس بيوتا لنزيل الغبار». ويقول : « إننا نخدم الشعب ولا نخاف أن

يكون في عملنا نقص ولا أن يكتشف هذا النقص وينتقد. ويمكن لكل أحد أن يكتشف نقصنا. فإذا كان محقا أصلحنا خطأنا. وإذا كان ما يقترحه نافعا للشعب فإننا نعمل بوصيته». هذه حكمة إنسانية ما أحوجنا إليها دخلت في سياق ملحد جاهلي، ونحن القاصدون لأستاذية العالم أجدر أن نتعلم الحكمة ونستحي من الله أن يكون جاهليون أشد منا بأسا وأطول يدا في الأرض التي استعمرنا الله فيها فضيعناها.

الثورة الثقافية

تلتقي الطاقة الفكرية يعززها نموذج القائد القوي بطاقة الشباب فينتج عن ذلك حركية هائلة سموها «الثورة الثقافية».

كما أغنى ماو الفكر الشيوعي بهذه الرزانة وهذا الرفق في حل التناقضات بين أفراد الشعب أغنى الممارسة الشيوعية بهذه المؤسسة التي تسمى ثورة ثقافية. وقد جاء هذا من التجربة نفسها، فقد انتهت فترة الكفاح المسلح بانتصار الحزب الشيوعي وقيام دولته، والتفت حول ماو جماعته التي صنع لها كفاحُها الطويل إرادة حديدية وصنع لها وحدة وانتخب الأصلح للقيادة من بين ذلك الجند المقاتل الذي لم يقو كثير من أفراده على اقتحام «المسيرة الطويلة» كما يسمون هجرتهم انسحابا من أمام عدوهم وتحفزا واستعدادا للوثبة النهائية.

والثورة الثقافية لم تكن ظاهرة عفوية بل جاءت وليدة لأزمة كادت تنحرف بالثورة الصينية عن نهجها. فلقد تم النصر العسكري وتلاه صلح شامل كما يليق بالفكر الماوي في حل التناقضات الداخلية. ثم انصرف الثائرون إلى البناء الاقتصادي وشرعوا في «القفزة الكبرى إلى الأمام» يحاولون تصنيع البلاد بسرعة. وغضب خرتشوف على المذهب الصيني في قفزته وعير

الصينيين بأن أربعة منهم يشتركون في سراويل واحدة لفقرهم وأنهم سائرون إلى الهلاك، فسحب من الصين خبراءه وعلماءه، وأخفقت القفزة وانخفض المحصول الزراعي عدة سنوات متوالية فتزعزعت ثقة الجماهير في ماو وكاد ريحه يذهب. إن الزعيم في بلاد الشيوعية هو قبل كل شيء رجل الخطة الاقتصادية فإن أخفقت خطته فذلك إخفاق له ولإديولوجيته.

ولدت الثورة الثقافية من أزمة اقتصادية إستحقت سخرية خرتشوف وفتحت باب الهجوم على فكر ماو في الداخل. وفكر ماو وقدر وخرج بهجوم مضاد ففضح روسيا واتهمها بأنها «مراجعية» تهدف إلى اللحاق بالرأسمالية وتستبدل الخط الشيوعي بخط أمبريالي يجرى في مساق حضارة الرفاهية. وتغنى ماو، وهو الشاعر الموهوب، بالقيم الإنسانية وببطولة الشعب الصيني الفقير الذي سيبتدع حضارة جديدة وسيحرر الإنسانية. ومن ذلك الحين تحدث خصوم الصين عن الشيوعية الرومانسية الحالمة، وتسلى الرأسماليون بما ظنوه فشلا ذريعا لثورة الصين.

ومن بين نخبة ماو المناضلة الأولى برز رجال يعلنون أو يهمسون خلافهم مع ماو في عداوته لروسيا ولا يرون بديلا من الطريق الروسي. وتغنى الشاعر مرة أخرى يدعو لإبداع عبقري ضد العالم كله، فجرف التيار الرومانسي خصوم ماو ونشأت الثورة الثقافية

حركة عفوية يتصل فيها القائد بالشباب مباشرة فينطوي بينهما الجهاز الحزبي والجهاز الحكومي. وبدأ التطهير الصيني وبدأت تربية الخصوم كما يليق بالشيوعية التعليمية الصينية. أغلقت المدارس سنة ونيفا وهب ملايين الشباب يجوبون البلاد يهتفون ويصرخون حاملين في أيديهم الكتيب الأحمر يقرأونه ويتدارسونه. حملهم الحماس البطولي ونشوة الشباب إلى كل الآفاق فحاكموا أساتذة الجامعات وحاكموا الوزراء وحاكموا رئيس الجمهورية زميل ماو في الكفاح. والعجيب هو أن هذه الفورة ما سفكت دما وإنما انصرف عنفها إلى أسواق للمنقاشة لا تنتهي، وانصرفت قوتها إلى صهر الأفكار وتحويلها عن الإيدلوجية الثورية العادية إلى إيديولوجية بطولية تثور على الثورة نفسها.

وهكذا أصبحت الثورة العفوية نظاما ايديولوجيا. فمن نداء ماو إلى الجماهير، وإلى الشباب خاصة، وإلى من هم أصغر سنا بصفة أخص جاء شعار : «تكوين جيل من وارثي الثورة». وهو تكوين يتكرر بلا انقطاع في كل سنة وفي كل شهر وفي كل يوم. ويبدو كأن الوسيلة الروسية للتطهير، وهي البوليس السري، قد اخلفها في الصين وسيلة أكثر إنسانية إذ أن ضرب المعارضين بالمقارع والسيوف أصبح ضربا بالأفكار والخجل. هذا الرفق الموروث عن «لاوتسي» و«كونفوشيوس» يجارى حضارة الصين

وعلاقاتها الإنسانية المبنية على المروءة وماء الوجه، فإن أعظم شيء خطرا عند الصيني أن يفقد ماء وجهه. وهكذا ترجع المعاني الإنسانية تلتمس موقعا من حياة الناس بعد أن أجلتها العقلانية الماركسية عن مواقعها.

وضعت الثورة الثقافية أسس نظام جديد لا يعتمد على سلطة البيروقراطية وهيمنة الحزب، بل يعتمد على الشعب. نظام يعطي للعنصر الإنساني السليم في القاعدة الشعبية مقادة الأمر كله، ويخص بالمسؤولية أكثر الناس سذاجة وأكثرهم حماسا وهم الشباب. والشباب شديدو التعلق بالمثاليات فهم بذلك في الصين نقيض صارخ للثوري الماركسي العقلاني المتجهم كما عرفته الشيوعيات السابقة. ثم إن هذا النظام لم يجعل تحقيق المساواة من شأن الدولة المالكة بل وَكَلَ أمر توزيع الأجور لمجموعات العمل حتى يأخذ كل ذي حق حقه بيده، أي دائما بالإقناع والتربية وفقا لمبادئ الماوية. وهكذا استوى الصينيون جميعا في أخذ الضروري للعيش ونبذ البضائع الكمالية ونبذ المثل الأعلى للبرجوازية في طلب البروز الاجتماعي والتفوق الفردي. فكل شيء في المعامل والمعاهد والحقول خاضع لمبادرة جماعية يسبق إليها الفرد فلا يلتمس بذلك مجدا حتى يمجدوه ولا ربحا ماديا. وبهذه الروح نهضت الصين من كبوة «القفزة الكبري » وغلبت المجاعة واكتظت

أسواقها بالطعام، وجال في شوارعها قوم جدد عليهم أمارات الإرتياح لفقرهم وعليهم أمارات حياة جديدة رمزها الكتيب الأحمر في يد كل قائم وقاعد رجالا ونساء وأطفالا.

فإن تعجب فاعجب لشعب حياته في مصحفه ومن مصحفه.

وهي حياة باهرة حقا لأن الأصوات المعّيرة الساخرة خفتت ولأن عمالقة العالم أخذوا يخطبون وُدَّ الصيني الصغير المحير بنوعية ثورته وبفاعليته وسرعة ما يكسب القوة.

فكر وشباب، شباب وفكر ! أليس هذان العنصران جماع القوة ؟ أليس العلم هو الدافع للعمل إن لقي العلم عقولا مستعدة لما يترفها المال والجاه، ونفوسا حديثة العهد بالعالم متطلعة للمثاليات، وسواعد صلب عودها حارة دماؤها ؟

إن نظام الصين وثورته الثقافية «لحظة» تحول غريبة، هي أهم ما يعرضه علينا كتاب العالم حين نفتحه لنتدبره بعيون مجلوة بنور الإيمان وقلوب خافقة بمحبة الله ورسوله والمؤمنين. وهي لحظة تعلمية، قابليتها للتعلم أهم صفاتها. فالقائد العجوز احتفظ بطراوة عقله فلم يتحجر في «عقدية» روسيا وبعض مستعمراتها واكتشافه للشباب وطرائق استعمال حماسه وقابلياته نقل العمل الثوري من معناه الأول إلى معنى ثان دائم. كانت الثورة عملية تتم في المكان والزمان وتنتهي رغم ما كان يزعمه أمثال تروتسكي من

أن الثورة يلزم أن تبقى مستمرة. إنما كان يعني استمرارها عندهم امتدادا في المكان، أما تربية الأجيال لمواصلة العمل الثوري فما كان يتيحها الجو البيروقراطي السائد حتى اخترعها ماو. ومعنى الثورة منذ الآن تربية من البدء في ميدان النضال الثوري المؤسس ثم تربية مستمرة للأجيال الوارثة. وما كان اسهل اختراع مثل هذا لكن ما كان أبعد تحقيقه!

إن في الصين اليوم اضطرابا لا يزال، وإن في الثورة الثقافية لثغرات في التنظيم ينم عنها ما ينقل من أخبار بأن هناك فوضى وبأن خصام ماو الحالي مع بعض أصحابه بعد موت قائد جيشه، الوفي بالأمس المتهم بكل التهم، يرجع إلى هذه الفوضى في صفوف الحرس الأحمر وبسببهم. ولسنا نُقدِّر إلا التقدير المنطقي بأن الصين لم تبلغ ولن تبلغ أبدا التوازن الإنساني إذ لا قسط مع جاهلية وكفر. ولسنا ندري ما يحدث بعد موت القائد العجوز لكن هذا لا يمنعنا من أن نتعلم من هذه «اللحظة» الاستثنائية في تاريخ البشر. فلنتأمل هنا خطاب ماو للشباب ولننظر بعدئذ إلى نتائج الثورة الثقافية في ميادين العمل.

يقول ماو مخاطبا بعض الطلاب : «إن العالم لنا بقدر ما هو لكم، فهو عالمكم، إن لكم معشر الشباب حيوية وإنكم لفي ريعان التفتح مثل الشمس في الضحى. وإن الأمل لا يعقد إلا عليكم».

ويقول : «يجب أن نفهم كل الشباب أن بلدنا لا يزال فقيرا جدا، وأنه لا يمكن أن نغير هذا الوضع تغييرا جذريا في وقت قصير. وأنه لا نستطيع أن نبني دولة غنية وقوية إلا بأيدي الشباب والشعب كله يدفعها مجهود بضع عشرات من السنين. إن النظام الاشتراكي فتح لنا الطريق إلى مجتمع غد المثالي، ولكي يصبح هذا المجتمع حقيقة لا بد أن نعمل عملا شاقا».

ويقول : « إن كثيرا من الشباب ليست لهم خبرة سياسية واجتماعية يستطيعون بها أن يميزوا بين صين اليوم وصين أمس. من الصعب عليهم أن يدركوا أية معارك شديدة المراس جدا خاضعا شعبنا لكي يتحرر من نير الإمبريالية ورجعيي «الكومنتانغ». ولا يدركون الفترة الطويلة من المجهودات المتواصلة التي أدت إلى بناء المجتمع الاشتراكي الجميل. ولهذا يجب أن نواصل بين الجماهير تربية سياسية حية ومجدية. ويجب أن نخبرهم دائما بالحق فيما يرجع للصعوبات التي تحدث لنا وأن نبحث معهم الوسائل لحلها».

ويقول : «إن الشباب هو القوة الأكثر فاعلية وحيوية في مجتمعنا. إنهم أكثر الناس ولوعا بالدراسة وأقلهم تمسكا بالأفكار المحافظة، هذه صفتهم السائدة خاصة في فترة الاشتراكية. نتمنى أن تدرس بعناية كل منظمات الحزب بالتفاق مع رابطة الشباب أنجع الوسائل لاستغلال قوة الشباب وألا تتجاهل خصائصهم

معامِلة إياهم معامَلَةَ الآخرين. من الطبيعي أن يتعلم الشباب حكمة الشيوخ والكهول وأن يتأكدوا من موافقتهم قبل الإقبال على أي عمل نافع».

ويقول : «كيف العمل لمعرفة هل هذا الشاب أو ذاك ثوري ؟ كيف نميز ؟ ليس هناك إلا معيار واحد، هل هذا الشاب يحب أن يتصل بالعمال والفلاحين، وهل يتصل بهم فعلا ؟ فإذا كان يريد ويفعل فهو ثوري، وإلا فهو غير ثوري أو هو عدو للثورة. إذا كان يتصل اليوم بالعمال والفلاحين فهو ثوري اليوم، فإذا كف عن ذلك غدا أو أخذ يظلم الشعب فسيكون غير ثوري أو عدوا للثورة».

ويخاطب المثقفين الشباب قائلا : «قبل أن يرتمي المثقفون بكل قواهم في المعركة الثورية مع الجماهير يجب أن يعزموا أولا على خدمة الجماهير وأن يتحدوا معها. يحدث غالبا أن يكون للمثقفين آراء غير موضوعية أو فردية أنانية وأن تكون أفكارهم عقيمة وأن يكونوا مترددين في العمل. ورغم أن المثقفين الصينيين الثوريين يلعبون دورا أساسيا ويمثلون القنطرة إلى الجماهير فإنهم ليسوا جميعا ثوريين حتى النهاية. ففي اللحظات الحاسمة يغادر بعضهم الصف ويتحولون إلى موقف سلبي، وبعضهم يصبح عدوا للثورة. ولن يبرأ المثقفون من عيبهم هذا إلا في المعركة المستمرة التي تخوضها الجماهير».

ويقول : «يجب على رابطة الشباب أن توحد أعمالها مع الأهداف المركزية للحزب وأن تقوم بعمل مستقل يتفق مع خصائص الشباب. يجب على الصين الجديدة أن تسهر على مصالح شبابها، وأن تهتم اهتماما شديدا بتربية الجيل الجديد. يجب على الشباب أن يدرسوا ويعملوا. لكن بما أنهم في مرحلة نمو فيجب أن نعنى بدراستهم وعملهم كما نُعنى براحتهم ورياضة أبدانهم».

لعل من يحس أننا أكثرنا من سرد زعيم كافر، ولعل من يرتاح أننا قلنا في سياق إسلامي حكمة يتخطفها شبابنا خفية يبحثون عن حق لا يرون له أثرا في حياتهم البئيسة. إما نحن فنعتبر بآيات الله، ونتأمل الفكر الذي أصبح عملا وأصبح معامل وصواريخ وأصبح قوة وسيادة وحرية، وبكل ذلك أصبح دعوة عالمية عتيدة. وإن النظرة العلمية المنهاجية نظرة المؤمن المطمئن لتبصر حدود الفكر الجاهلي وبؤسه وإن يكن فكر الشيوعية التعليمية. ويبقى لنا درس إنساني رائع يرينا كيف تحركت أمة كئيبة محترقة كسول وكيف سرى فيها روح النضال والعزة، وكيف تكهرب شعب عتيق مائت بفعل طاقتي الفكر والشباب.

يصف دبلوماسي غربي قطن في الصين طويلا تحول الصين المعنوي يقول[1] : أرى أن الصين، رغم كونها ملحدة وعدوة للدين،

1 M. A. MACCIOCCHI, de la chine, Paris 1971 p. 135

تتصف بصفتين تشترك فيهما مع المسيحية في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر حين كانت كل الحياة تدور حول الكنيسة في أوربا، في ألمانيا وفرنسا، وحين كان الشعب يبني الكنائس الجامعة البيضاء يحدوه الإيمان. كانت التمثيليات الوحيدة هي التمثيليات الدينية كما هو الشأن هنا بالنسبة للتمثيليات الثورية وهي نوع من المسرح الديني. والتماثيل الوحيدة المقبولة هي تماثيل المسيح والقديسين وكانت تماثيل صارمة تخضع لقوانين لا تتغير (كما هو الحال بالنسبة لصو ماو في كل مكان). وكانت السياسة دينا (كما هو الحال في صين اليوم).

أما إعادة تربية المثقفين الصينيين ونقدهم لذواتهم... فليس عملية مؤلمة كما يُظن، لكنها تحرير للفرد، فبإعادة التربية يندمج المرء في الجماهير. فإعادة التربية بين الفلاحين والعمال، بين الناس البسطاء يحقق الحرية الداخلية والسعادة والرياضة الروحية. إن الانعزال عن الجماهير حال مخجل. لا يستطيع مثقف في الصين أن يشعر أنه مثقف إلا إذا استفادت الجماهير من الثروة التي يستطيع هو أن يعطيها، وإلا إذا اعْتُرف بكفايته في الإطار الجماعي... إنني لم أزر قط مدرسة من «مدارس 7 ماي» (وهي مدارس لإعادة تربية المتخلفين عن الثورة)، لكني أتصور بسهولة أن من يتخرجون منها لاشبه لهم بمن يخرج من سجون روسيا.

إنهم في الحقيقة رجال جدد من رفقاء «المسيرة الطويلة» مسيرة تتم في باطن الإنسان. وفعلا فإن هذه المدارس هدفها أن تُبقى على كل شيء وعلى كل الناس، وإن أكثر من 95% التي تحدث عنها ماو يرجعون إلى الجادة بعد خروجهم من هذه المدارس. من يملك فضيلة هذا الشعب ؟ أنني جلت كثيرا في العالم ويمكنني أن أقارن. إن الصينيين أصبحوا أمة لا تعرف الحسد والطمع ولا تعرف الأنانية. إنهم يرقعون ثيابهم ويوفرون ويستعملون أحقر الفضلات. إنهم صبورون لهم أناة في كل شيء.

...ستأتي الثورة الصناعية في الصين والمهم أن ملايين الناس سيكونون شاركوا فيها بنفس التضحية ونفس الوعي، إنهم يوفرون من التبنة الصغيرة أموالا طائلة يذخرونها لا لأنفسهم بل لأمتهم....إن الصينيين يعتقدون اعتقادا جازما بتفوق بلادهم الاشتراكية وبتفوقهم السياسي على العالم كله...وإن لهم نظرة إلى العالم قوامها العالمية، وأبرز شيء في عالميتهم إخلاصهم للقضية الثورية وتضحيتهم من أجل أقوام لا يعرفونهم.»

تربية من القاعدة

إن الجو الثوري الذي أحدثته الثورة الثقافية والحركية التي أتاحها هذا الجو لهي أشبه شيء بأتون الحداد. فكما أن الحديد لا يتشكل طوع الإرادة إلا إذا صُهر بالنار فكذلك العنصر البشري يستعصي على عوامل التحويل إلا إذا سلط عليه تيار عاطفي يلين عنجهيته فيصير أكثر قابلية للتحويل. لقد وقعت التصفية الشيوعية الروسية في جو عقلاني بارد وجو غصب شديد من جانب ملاك الأرض وانهار الوضع القديم. فكانت الذريعة الاقتصادية مطرقة كسرت الإرادات الفردية ولم تشلها، وكان الدم وكان الإرهاب والوشايات. إما في الصين فقد ارتفع الحماس العاطفي حتى بلغ أوجُهَ وتوجه هذا الحماس نحو مثاليات إنسانية بطولية تستقطب هممًا كانت خائرة وتعطيها ثقة قاعدتها نزع الملكيَّة من ظلمة المالكين القدامى. وبتلك الحماسة البطولية وبها لأن حديد الأنانيات طوعا وكرها وتجنبت الثورة الصينية مصير مثيلاتها البيروقراطية.

إن ثورة روسيا ما لبثت أن تحولت قضية إدارية في أيام ستالين وتبلورت هذه الإدارة المتسلطة في شخص القائد الفولاذي وحاشيته البيروقراطية، وكانت الصين سائرة في نفس الاتجاه رغم

فكر ماو حتى حدثت الأزمة وولدت الثورة الثقافية، فخرجت للناس الشيوعية التربوية..

وليس هناك أي إمكان لمقارنة هذه الشيوعية ولا أية منظومة فكرية ولا أي عمل ثوري كيفما كان بالربانية الإسلامية التي نبحث عنها لسبب جوهري هو أن البطولة الإنسانية بطولة نهايتها التنافس البطولي والمسابقة إلى المجد الأرضي. والرباني بما هو مرب وبما هو حكيم يتعلم كيف ينمي الإنسان بصغار الحكمة قبل كبارها. يعلم أن الإنسان في جاهليته وإسلامه يبقى على طبع نشأ عليه، ويعلم أن خيار الجاهلية هم خيار الإسلام، ومعنى هذا أن العنصر البشري بمقوماته الإرادية والطبعية وبصلاحياته للتعلم والعمل هو هو لا يتبدل من جاهلية لإسلام. فنفس الحركية نجدها تقود الإنسان للعمل أو تعوقه عنه، ونفس الآلية السيكولوجية تتحكم في الأفعال الإنسانية، وعن كل سبب نفسي أو واقعي تترتب نفس النتائج عند الجاهلي والمسلم. فنحن في بشريتنا سواء، وكما نأكل نفس الطعام فننتفع به يتشابه عملنا في علاقته بالعالم المادي وتتشابه خلجات نفوسنا حين تهفو إلى المثل العليا وحين تتجاوز الأنانية نفسها فتضحي من غير مقابل. وكل هذا يشكل الفتنة العظمى للإنسان. فلذلك يسأل أبونا إبراهيم ربه أن لا يجعله ومن معه فتنة للذين كفروا بأن ينظر الكفار النبي وأصحابه

فلا يجدوهم إلا بشرا كالبشر فيكذبوا. ولذلك يرتد أبناؤنا لأنهم لا يقدرون إلا على المقارنة السطحية بين الجاهلية والإسلام، وواقع الإسلام متخلف ضعيف. ما نحن وما الجاهليون ؟ وما مناط الفضل لنا أو لهم؟. نرجع للربانية لنتذكر أن الرباني رجل سلك المنهاج واقتحم العقبة واكتشف المجهول الكبير لعالم الجاهلية وهو عالم الغيب والإيمان بدار الآخرة.

وللرباني درس مفيد جدا في التربية الثورية في صين اليوم، إنها تربية من القاعدة، إن الفقراء الذين عاشوا حياتهم سالمين من عوامل التخريب النفسي والجسمي الملازم للامتلاك والاكتظاظ والتكاثر الظالم يعودون على المثقفين المترفين وعلى أصحاب الرئاسة بالحدَب الأبوي يعلمونهم ما هو الإنسان وما هي المساواة وما هي الحقائق الأولية للحياة الإنسانية. فمن كان قابعا في قصره أو مكتب رئاسته يتعلم من أين يأتيه طعامه وكساؤه حين يعمل بيده ويكتشف مشقة العيش وتعب الفلاحين والعمال وتلين نفسه ويتحول إنسانا جديدا.

في هذا القدر تتفق أهدافنا التربوية بالأهداف الجاهلية، ثم نحن أمة مؤمنة، إنسانية كاملة غير مبتورة وهم كافرون يحدهم الكفر في دار الأرض ويجهلون مصير الإنسان بعد الموت. إن الجاهلية تكتشف كل يوم اكتشافا جديدا في عالم الحس وتتوسع في رقعة

الفضاء لكنها غافلة عن البناء العظيم ساخرة ممن ينَبِّئها أن الإنسان خلق للخلود. ويفتن المسلمون بالجاهلية وعلمها وعملها الثوري لأنهم لا ينظرون إلى كل ذلك إلا بما ينظره به الجاهليون، أن بعقلية ممسوخة قررت قرارها النهائي بأن الإنسان حركة في الأرض تنتهي بالموت. ولن ترتفع عنا الفتنة إلا إذا سلكنا المنهاج النبوي وذكرنا الله حتى يستقر في قلبنا اليقين والمعرفة. وعندئذ ننظر إلى الجاهلية النظرة الصافية الحق، ننظرها كما هي كفرا ومسخا، وننظر إيجابيتها البشرية التي ينبغي أن نتعلمها.

للمترفين في بلادنا الإسلامية قلوب قاسية مثلما للمترفين في بر الصين، إنهم يجهلون كيف تطلع لقمة العيش من الأرض ويجهلون الجهد الدائم للفقير العامل والبؤس الأسود الذي يعيش فيه المحروم العاطل. إنهم في قصورهم الدافئة لا يذوقون ويل الحاجة ولا برد الليالي، ويطمس بذخهم الحس الإنساني والرحمة كما يطمس فطرتهم فيغفلون عن الله ويكفرون بالبعث فإذا هم مسخ كالقردة والخنازير وعَبَدِ الطاغوت. أما المسكين العامل الخشن العيش واليدين فحسه الإنساني لم يطمس ولا تنال منه العوادي، وفطرته سالمة لا تزال وإن كانت الفتنة العامة أصابت منه فإنها لم تمسخه كما مسخت المترفين. ذلك لأن يديه الخشنتين علمتاه قصور الإنسان وضعفه وعوزه فهو لا يتأله بما بيده من جاه ومال،

لأن نظرته إلى العالم نظرة مجددة لم تكدرها الثقافة الجاهلية فهو يحكم بمعيار الإيمان وإن يكن إيمانه كإيمان العجائز. ولعل ذلك أفضل الإيمان كما يفهم من كلام الجويني امام الحرمين.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل تلك اليد الخشنة ويكرمها[1] فإن لها عند الله حرمة. وشيوعية الصين تكرم اليد الخشنة وتضع فيها أمانة تربية جيل المترفين. وهذا إبداع الشيوعية المعلمة الصينية.

لقد استند ماو على فكر ماركس ولينين، وكان الأول فيلسوفا دعا أن تصبح الفلسفة عملا وأن تخرج من تأملاتها الأفلاطونية لتحول العالم. ووعد على ذلك وعودا وهمية ما لبثت أن تبخرت في ميدان العمل. واستند لينين على التحليل الهائل الفلسفي العلمي في اختراع حركية ثورية مماسة للعمل اليومي السياسي. وأغنى لينين الفكر الماركسي من حيث صاغه حكمة عملية تتعلم من التجربة. وبقي فكر لينين في خط جدلية مفتوحة «علمية» ملحدة لا تحكم على القيم إلا من طرف خفي مستخف أن ينعت الفكر الجبار بالمثالية. وما كان بدأه ماركس من إنسية تشكو استلاب العامل وتشبيعه ذهب مع ما يحمله الريح في ساحة العاصفة الهوجاء التي هبت على رؤوس البورجوازية الروسية

1 يخرج الحديث ويبين درجة صحته

فأسقطت أيضا الحريات وأسقطت حرمة الدماء البشرية والضمائر والعقول. وتتلمذ ماو للرجلين فكان أذكى الثلاثة في انفتاحه على واقع الفلاحين البسطاء، وتعلم بيده ما لم يتعلمه العقلانيان العملاقان.

كان ماركس أمام الفكر الثوري وكان لينين مفكرا وقائدا ثوريا. وبعد هذا مثل استالين، وكل زعماء الشيوعية من بعده، دور القيادة العملية الثورية بواسطة جهاز بيروقراطي فصل بين القائد والرعية فتثاقلت الثورة بمنجزاتها الاقتصادية القهرية وتثاقلت بمصالح الطبقة الحاكمة المالكة المطلقة القوة، وتثاقلت بطاغوت القائد المتأله. أما الإديولوجية فأصبحت آلة عقلية لتبرير مبادرات القائد الإرادية المتعسفة أو المفروضة من جانب التدافع بين الناس في الداخل والخارج.

وكان ماو فتعلم على طول الطريق بادئا من وضع بسيط من حيث الكفاية الفكرية ومن وضع بورجوازي صغير، أي من وضع اجتماعي يدعو للأثرة والركود، فخالط المساكين من القاعدة وتعلم بينهم الأمانة والصبر والإخلاص وكل القيم الخلقية الفطرية. وتعلم أيضا من العقلانية الماركسية فأخرجها بتربيته في صف الفلاحين الفقراء من أجوائها الفلسفية الجافة وأعطاها أبعادا إنسانية خلقية. ثم إنه بثورته الثقافية قلب مفهوم القيادة فأطاح بالحواجز

بين القائد والفلاح البسيط والعامل وتخلل صفوف الشعب واحدا منهم متعلما معلما مربيا متلقيا للتربية. وكان قبله مفهوم القائد الشيوعي ينصب على رجل يكتب ويخطب في سياق واحد، ذي بعد واحد كما يعبر مركوس، هو السياق الاقتصادي، فكان هو صاحب الخطة وصاحب القرار. وترك ماو المهام الفرعية للحكومة وتقمص دور المربي الشعبي بحق لذلك كان آية يجب أن نتعلم من ظهورها.

ففي فكر ماو أحكام أخلاقية تبهت من ألف الفكر الماركسي «العلمي» الذي لا يصدر أحكام القيمة. فعنده الخير والشر حقيقتان عمليتان، يقول الكتيب الأحمر : «ليس من الصعب على أي إنسان أن يعمل أعمالا خيرة، إنما الصعب أن يعمل خيرا كل حياته دون أن يعمل الشر أبدا. أصعب ما هنالك أن تخوض معركة شديدة لبضع عشرات من السنين كما تخوضها في كل يوم، وذلك في صالح الجماهير الكثيرة وفي صالح الشباب والثورة !».

وفي فكره أسس التربية القاعدية في ما يسميه : «الخط الجماهيري» إنه يعتبر الطبقة المثقفة مجرد عبء على الشعب، فإذا استعدت هذه الطبقة أن تتعلم بيدها وعشرتها للجماهير وبرهنت على ذلك بالانتقال الفعلي في كل اسبوع أو شهر للحقل والمعمل من مكاتبها وجامعاتها أصبحت صالحة لتكون مرآة تصقل أفكار

الجماهير قبل أن تعكسها إليهم مشبعة بالحكمة التي يتمخض عنها العلم بعد أن يتعلم العلم من العمل البسيط اليدوي. يقول «الشعب، الشعب وحده هو القوة المحركة، هو خالق التاريخ العالمي» ويقول : «إن الجماهير هي البطلة الحق، أما نحن فإننا غالبا ما نكون مغفلين لدرجة تدعو للسخرية. فإذا لم نفهم هذا فسيكون من المستحيل علينا أن نتعلم حتى أبسط المبادئ».

ويقول : « إن أربعة وعشرين سنة من التجارب (كتب هذا سنة 1945) علمتنا أن مهمة ما أو سياسة ما أو طريقة في العمل لا تكون مصيبة إلا إذا اتفقت مع حاجات الجماهير في وقت ما ومكان ما، وإلا إذا كانت تصلنا بهذه الجماهير. وعلمتنا أن مهمة ما أو سياسة ما أو طريقة في العمل تكون مخطئة إذا لم توافق حاجة الجماهير في وقت ما ومكان ما وكانت تفصلنا عن الجماهير. وإذا كانت أمراض مثل «العقدية» «والتجريبية العفوية» «والاستبدادية» «والتبعية» «والطائفية» «والبيروقراطية» والعنجهية في العمل أمراضا مؤذية تماما وغير مقبولة، وإذا كان واجبا على من ابتلوا بهذه الأمراض أن يتغلبوا عليها، نحسب ذلك أن هذه الأمراض تحول بيننا وبين الجماهير وتقطعنا عنها».

ويعرف ماو الخط الجماهيري في صيغته النهائية الجامعة هكذا: «يجب أن نذهب إلى الجماهير، وندخل في مدرستها ثم نعمم

تجربتها ونستنبط منها مبادئ وطرقا للعمل أفضل من الأولى وأكثر تنظيما ثم نرجعها للجماهير (بواسطة الدعاية) وندعو الجماهير لتتبعها كي تحل مشاكلها حتى تتحرر وتكسب السعادة».

وبعد الثورة الثقافية أسست مدارس لإعادة تربية المنحرفين عن الخط الجماهيري سميت «مدارس 7 ماي » تذكيا بيوم النداء لإعادة التربية. وما هذه المدارس إلا مراكز أكثر دلالة وأكثر تعميقا للتربية القاعدية الشاملة. وتعتمد هذه التربية على أسس ثلاثة (وهي تحاذي مبادئ العالم الاجتماعي تورين) : انتماء بطولي لشعب بطل مبدع حر متفوق على العالم، ثم معاداة ماض أسود ماضي تسلط الملاك، ثم النظرة الماركسية للعالم والإنسان على أساس وجود أرضي يحكمه الصراع الطبقي. وبمقتضى هذا فالدعاية تتركز في تذكير الأجيال الصاعدة بواسطة المسرح والتلفزة والسينما بظلم الملاكين القدامى وشقاء الفلاحين والعمال في العهد البائد ليكون كل ذلك موضوع كراهية وسخط. ثم دعوة لتحرير الإنسانية كلها بعد تحرير الصين وذلك يقتضي صراعا طبقيا لا ينتهي أبدا. وتجد عند ماو تأكيدا غريبا ينافي الأحلام الماركسية، وذلك حين يخبر قومه أن الاستبداد القيادي سيبقى طويلا طويلا جدا في مستقبل الصين.

أما التربية العملية بمخالطة الجماهير فلنستمع إلى رجل وقع

عليه فعلها. يقول أستاذ جامعي من علماء الاجتماع شهير جدا في الصين وخارجها[1] : إنني نموذج للمثقف القديم، وأنا ممن بعثوا لتعاد تربيته في مدرسة الأطر بجامعة كيانغسي... كنت قبل الآن آكل الأرز كل يوم دون أن أعرف من أين جاء،...فلما دخلت المدرسة التربوية تغيرت تغيرا كبيرا ومسست قرارة نفسي...كنت في الحقول في هذه المدرسة أحمل أكداس الأرز فوق كتفي، وأثناء الحمل كنت أشعر في ظهري وكلوتي ألما لاسعا. وفي هذا الموقف المؤلم علمني الفلاحون بلطف كيف أحمل الأكداس، وأحيانا كانوا يرقون لحالي فيحملونها عني. وهذا العطف من جانب الفلاحين أثر في تأثيرا شديدا، وهذا دفعني إلى التفكير في مشكل ثان : كنت في الماضي استعملت للنقل هذه الكراسي المرفوعة (تلك التي كان يستعملها المثقفون القدامى (Mandarins)، وكان ثقلها ينحط جميعا على أكتاف العمال. لكني عندئذ كنت عزمت على أن أحمل في هذه الكراسي، وكنت لا أسأل نفسي عن شيء يتعلق بالرجال الذي يحملون الكراسي، ولم أكن أفكر في أن أنزل من الكرسي المحمول. قلما أصبح لازما علي أن أحمل حملا ثقيلا كان الفلاحون يساعدونني بكرم. إن التربية لا يمكن أن تنفصل عن التغيير كما يقول ماو، وهكذا ربيت تربية جديدة ... فيما

1 Ibid. p. 85

مضى كنت أحسب نفسي عالما خطيرا وكان موقفي تجاه العاملين موقف ازدراء... من نخدم ؟ هذا هو السؤال كما قلت. لكي نغير المثقفين البورجوازيين الطريق الوحيد هو أن نجمعهم بالجماهير».

أحدثت الثورة الثقافية تغييرا أساسيا في الصين، فتشبع كل فرد كبيرا وصغيرا بمبادئ التغيير. وأصبح تسييس الجماهير هدف الجميع. والمهم هو أن نسمع حكم الأجانب عن الصين بعد الثورة الثقافية. هذه صحافية شيوعية ايطالية تصف لنا الصينيين الجدد، ولعل في شهادتها مغالاة تبررها الصداقة والرفقة الشيوعية. لكن الذي يزكي هذه الشهادة بارز في سماء هذا الكوكب وأرضه في السياسة العالمية الشاهدة بسيادة الصين بعد ذلتها، تقول[1]: تنبثق من الشعب الصيني جاذبية عظيمة هي جاذبية شعب نقي، شعب لا تلوثه الآثام كما نعبر نحن بمقولاتنا (تعني المقولات المسيحية). (إنهم نظيفون نظافة من تبرأوا من الابتذال، كما يعبر كوفر دوبارزو في جريدة اسبرسو 25 ماي 1969. إن لهم خفة باطنية كبيرة، هذا الوزن النوعي للحياة الروحية والإنسانية تشتمل عليه أجسام عليها ثياب مرتفعة وأحذية من القش أو المخمل الشعب الصيني كله. وهذا التفوق الكيفي الجماعي كفيل أن يشعرنا نحن الغربيين- ما عدا الفلاحين والمساكين واستثناآت قليلة- بأننا

1 Ibid. p. 132

ثقيلون قذرون، ويؤسفني أن أقول هذا).

إن الأخلاق هنا في الصين ترجع إلى أسبقية التسييس، ومعنى السياسة هو التضحية والشجاعة والإيثار والتواضع والادخار. وبعد عشرين يوما من مخالطتهم يشعر المرء بأنه قد غمره هذا المحيط من النقاوة. وحتى الساخرون من الصين تزعزعوا واعترفوا بذلك. قلت في نفسي أن تجربة الصينيين في أعظم مختبر وأعجبه في الدنيا يجب أن تتحقق في جو محفوظ من التلوث الخارجي والعدوى الخارجية : إنهم يجرون عملية زرع قلب جديد لملايين من الناس مع التغلب على ظاهرة النبذ. أليسوا يتحدثون دائما عن «قلب الثورة الأحمر» ؟ إن العالم مليء بالجراثيم : المراجعية، والمجتمع التكنولوجي، ومجتمع الاستهلاك، ولا ننس العدو الأول وهو الإمبريالية، وفي كل هذا يجب ألا يعتمدوا إلا على أنفسهم لينجحوا ويتفادوا التلوث والهزيمة....

إن الأناقة الباطنية والظاهرة عند الصينين كبيرة. إنها تفجأ الغرباء حتى أن بعض الدبلوماسيين — هؤلاء «الخيل الجياد» من البورجوازية الدولية — يحاولون تقليدهم لينافسوهم في الملبس والحركة ... ويقلدونهم في الأخلاق . فليس لدى الصينيين تكبر لكن لديهم خجل وتؤدة في الحركة وتواضع لم نعرفه قبلهم. إن الدبلوماسيين قد أعيدت تربيتهم دون أن يشعروا. ولكي يمكنهم أن

يعيشوا مع الصينيين يتكيفون بهم ليشبهوهم في حالهم وحركتهم. وهكذا يظهرون هم أيضا أدبا وصبرا في المعاملة.»

وراء هذا التحول عمل تربوي جبار، وراءه أيد خشنة وسخة علمت المثقفين أصحاب الأكف الحريرية أكف الجبارين المترفين طريق الجد. وراء عقل قائد شجاع ومثاله الحي علمهم الشجاعة والنتيه على العالم. ولولا روح الأقدام لما كانت ثورة ماو إلا كإحدى الثورات المبتذلة لا تبدع ولا تحول بل تضغط وتنتج تعبئة عسكرية تبني المعامل وتستهلك الإنسان طاقاته وإنسانيته. يقول ماو يوصي بالأقدام والإبداع : «يجب أن نطرد من صفوفنا كل ايديولوجية مبنية على الضعف والفشل، وكل نظرية تهول قوة العدو وتستصغر قوتنا نظرية مخطئة». ويقول : «إن كل قوة رجعية في تاريخ البشر عندما تشرف على نهايتها تقبل على انتفاضة آخرة ضد قوى الثورة. وغالبا ما يغلط الثوريون بمظهر هذه القوة التي يختفي وراءها ضعف داخلي. إنهم لا يرون هذه الحقيقة الجوهيرة وهي أن الخصم في طريقه إلى الزوال وأنهم على وشك الإنتصار».

وهكذا أقام ماو تربيته الجماهيرية على قواعد نفسية كان لا يتحدث عنها الماركسيون بل يتفادونها ويصمونها بأنها فاعلية «subjectivitiste» . فعنده أن الإنسان ذو إرادة وشجاعة وصبر

يميز بين خير وشر وأن بهذه الخصال الخلقية وبقابليته للتعلم من الخط الجماهيري يتحرك نحو التحرر مؤثرا هو في الظروف الموضوعية متئازرا كثلة واحدة مع العاملين والفلاحين كما تزعم الماكرسية العلمية من أنه كمية تضغطها ظروف الصراع الطبقي في حتمية بدون أمل في الخلاص إلا بالعنف الثوري القاتل والاستبداد الطبقي الذي لا يعرفون كيف هو وكيف يكون.

خبير وأحمر !

امتازت الشيوعية منذ نشأتها بأنها العقلانية المحض، فالعقل هو الرائد والمذهب علمي والتكنولوجية هي وسيلة الخلاص من القلة وتقدمها يحرر العلاقات البشرية بعد الثورة ويؤدي للوفرة التي عليها يعيش المجتمع الشيوعي االحالم. فالمناضل الشيوعي رجل عقلاني صاحب عقيدة وحماس، إنه مؤمن بدين ماركس متحمس يستهين الموت دفاعا عن مبادئه والمفروض فيه أن يكون تقنيا أو أن يعمل ما في سعه ليكون كذلك لكن النضال الشيوعي يستند على طبقة العمال وهي طبقة بعيدة عن أن تكسب الكفايات العلمية الضروية لإقامة دولة، لهذا كانت الدعوة اللينينية تحاول دمج «البرجوازية الصغيرة» وهي طبقة المتعلمين في وصف النضال وتعتبر مرحلة الاعتماد عليها مرحلة ضرورية لتحرير الطبقة الكادحة. فالمتعلمون يبعثون الوعي الثوري وهم بعد الثورة يبنون الاقتصاد ريثما يستوي الناس في التعلم. وهذا ما حدث في روسيا..

ولقد ظن كاسترو أن التكنولوجية تأتي في الرتبة الثانية بعد النضالية ووسد أمور الدولة والاقتصاد لمناضلين متحمسين لا خبرة لهم فتخبط في مشاكله ولا يزال. أما الصين فقد اتبعت الخط

العام ولاطفت المتعلمين، وألقى ماو شعار : «لتتفتح مائة زهرة» ويعني هذا الشعار قبول المبادرات الثقافية المتنوعة والاستفادة من اختلاف الرأي. فلما وقعت أزمة الخصام مع روسيا وما تلاها من تضعضع اقتصادي، تمردت الصين على العالم وأمسك ماو بالزمام امساكا قويا لما استجاب الشباب لندائه. فماتت المائة زهرة لما تفتح الكتيب الأحمر وأعطيت الأسبقية للحمرة النضالية فطرح الطلاب كتبهم وعكفوا على فكر ماو وأصبح المذهب في الصين هو الماركسية اللينية –فكر ماو، وكسب بذلك اسما مميزا عن سائر الشيوعيات. وتدل الحمرة الصينية على التصلب ضد العالم كله، فسلك الصينيون طريقا جديدة في الإدارة وقلبوا الأوضاع السابقة واستبلدوها بالخط الجديد.

كانت الثورة الثقافية ولا تزال نقدا عاما للوضع تقوم به القاعدة، وكشف هذا النقد أن الفكر البورجوازي القديم المتراكم عبر القرون لا يزال مخيما على العقول فتجنح البيروقراطية المتعلمة لخدمة طريقة الحياة والمعاملة الخاصة بالمجتمع القديم. وتناول هذا النقد الأفكار وحامليها معا، وحمل الحرس الأحمر شعار : «خبير وأحمر» كمعيار تقيس به صلاحية الناس للعمل الثوري. فالبورجوازية الصغير المتعلم المثقف قد يكون خبيرا لكنه يطرح أن لم يكن في خدمة الجماهير، وتعاد تربيته حتى يصير أحمر،

والمناضل الفلاح أو العالم الأمي يتعلم ليجمع بين الحمر والخبرة.

تحولت الصين بالثورة الثقافية مدرسة مادتها الوحيدة هي فكر ماو يتدارسونه كل يوم من الصباح إلى المساء ويستخرجون منه التوجيه الذي يكسب الحمرة والخبرة. فالطالب يقرأ ماو ليتعلم كيف ينبغي أن يتعلم، فالمهندس والعامل يقرآن ماو ليتعلما كيف يحسنان الإنتاج وكيف يسرعان به ويتقنانه. وبفكر ماو يتحاج الناس إذا اختلفوا، وبه يستشهدون. ومع الدراسة كان، ولا يزال، غليان، كأنما الصين معمل أو مختبر واسع الإرجاء يصنع فيه هذا «الخبير الأحمر» بشتى الوسائل التي يحددها فكر ماو، وهي : المناقشة والإقناع والتربية.

الخبير الأحمر يجب أن يبتدع ويجب أن يتعلم كيف يبتدع ليحقق «الموقف الممتاز للصين في العالم». إنه بطل، إنه فلاح وعامل تمرد على عبودية البورجوازية الصغيرة المستأثرة بالعالم والتكنولوجية. إنه يخضع اساتذة الجامعة والمهندسين والمديرين للخط الجديد، ويفرض عليهم أن ينزلوا للصف فيتعلموا بأيديهم المعرفة الحقيقية، ويسخر بالعلم النظري ويحطم صنم التكنولوجية. يحطمه بالإبداع والاختراع لا بالإعراض والجهل، فعند الأحمر لا تجد شعورا بالنقص أمام تفوق الرأسمالية والشيوعية الروسية، بل تجد فضولا واستعدادا للتعلم يمكنان العامل البسيط من تركيب آلة

صينية على نمط الآله المستوردة مع إرضاء الشرط الأساسي : أن يحسنها ويزيد في انتاجيتها.

الخبير الأحمر يتعلم كيف يعمل بحافز أعلى من الحفز المادي وكيف يزيد في الإنتاج فيتجاوز دائما الخطة الاقتصادية. ويتعلم كيف يخدم الجماهير دون التوقان إلى المنصب والبروز الإجتماعي يتعلم ذلك إذ يخرج من المدرسة الثانوية إلى المعمل حيث يظهر لرفقائه مقدرته وكفايته وحمرته أيضا، فإن لم يحكم رفقاؤه بصلاحيته لخدمة الشعب توقف عن الدراسة. مصيره مقترن بالرفاق وخدمتهم، هم يقترحون ولوجه الجامعة أو يمنعونه من ذلك وهم يلاحظون سلوكه كل يوم ليروا ما يقدر أن يعمل بيده وليعرفوا إن كان فيه تشوف ليصبح من النخبة. وهكذا تطهر القاعدة كل جراثيم البروجوازية الصغيرة الموروثة من ماضي سحيق، وتثبت الخط الجماهيري الذي يؤكد بأن الأفكار المصيبة تأتي فقط من الممارسة الاجتماعية وأن العوائق تأتي من «أوقيانوس الفكر البورجوازي الصغير».

كراهية الماضي البورجوازي في شخص الملاك الظالم دلفع عاطفي تتحرك به الجماهير نحو مستقبل لا قلم فيه، وتلوح وسائل الإعلام بالغول المزمن في الأرياف الصنية تذكر الصينين بماض مشؤوم وتحاول الثورة الثقافية أن تطوي عجرفة المثقفين من البورجوازية الصغيرة تنتقدهم انتقادا علنيا وترغمهم على نقد

أنفسهم أمام الجماهير وتدخلهم مدارس العمل البدوي حتى ولو كانوا رئيسا للجمهورية مثل «ليوشاوكي».

إن اكتساب التكنولوجية مسألة حياة أو موت لكل ثورة، وإن الصين بملايينها السبعمائة وفقرها الموروث كانت أحوج الثورات للخبرة، وكانت الخبرة ملكا لطبقة نظيفة اليد أنيقة في قمصانها البيضاء وتقليدها القردي للغرب ومعيشته. فلما احتلت الثورة مقاعد الحكم مال أصحاب الخبرة للسلطان وعاموا على النخبة المناضلة فغمروها وانقلبوا بيروقراطية منحرفة على الخط النضالي. وتعذر تطويرهم المعنوي قبل الثورة الثقافية أي قبل الخط الجماهيري، قبل أن يهب العامل والفلاح ليتعلم من هذا العلم النظري ما يعزز به قدرته على الإبداع. وبواسطة الكتيب الأحمر وما يحمله من فكر ويرمز إليه من تعلق عاطفي بالقائد العبقري سرت شيئا فشيئا روح جديدة في طبقة المترفين البيروقراطيين. سرت فيهم هذه الروح لما أمسكوا باليد مسكا رفيقا قويا معا وزج بهم في الصف ليتعلموا. وهكذا اندفعت القاعدة الحمراء لاكتساب الخبرة وأرغمت الطبقة المثقفة على تطوير نظرتها للأمور.

طبقة كسبت الخبرة لما كانت تتاح للأغنياء فرص التعلم، وطبقة ناضلت لأنها محرومة منبوذة. هذا شأن الخلق والمدافعة والتدافع قانون الحركة الإنسانية على الأرض. وتسمي الشيوعية

هذا التدافع صراعا بين الطبقات، وتهدف الماركسية للقضاء على الطبقية. والذي حدث فعلا في روسيا هو أن «البرولتاريا المستبدة» ما لبثت أن تحولت عقليتها إلى عقلية بورجوازية صغيرة على حد تعبيرهم فهناك المدير والوزير بسيارته الفخمة وقصره، وخرشوف يفصل ملابسه في إيطاليا، أدواق كأدواق العهد القديم وسلوك طبقي كذلك السلوك. ويرسم خط التطور منحنى الإنهيار على مجرى تحدث عنه ابن خلدون بسداجة وبدون الجمل العقلانية. ويحاول الصينيون أن يحافضوا على الخط الجماهيري ليهدموا الطبقية فاهتدوا إلى الثورة الثقافية كمؤسسة مستمرة تجدد دائما الشعور وتجدد دائما الضغط الاجتماعي الموجه نحو قمع حب الظهور واللصوق بالأرض والعمل اليدوي المبدع. لا تساءل هنا هل يدوم هذا أو لا يدوم فقد علمنا الله عز وجل، وهو الخبير البصير بعباد، أن الإنسان في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإنما يهمنا تدبر هذه اللحظة المتوترة للجمع بين الحمرة والخبرة بالمحافظة على مرمى الطموح البطولي في تحرير العالم ضد النزعات الفردية التي يغديها اقيانوس الفكر البورجوازي الصغير وضد العالم كله.

دخلت الفلسفة المعمل، أي دخلت السياسة رؤوس العاملين، ولنؤكد مرة أخرى أن السياسة والفلسفة في قاموس الثورة الثقافية

تعني التضحية والعمل البطولي وتعني تحرير الإنسان من كونه جزءا في تركيب اجتماعي أعمى مصمت ليصبح عضوا واعيا في مجتمع متحفز لإنقاذ العالم متفوق ممتاز. ودراسة الفلسفة في المعامل ترجع فقط إلى دراسة الكتيب الأحمر تحت شعار : «أسبقية السياسة على الاقتصاد». وعند ما يدرس الفلاح والعامل الفلسفة والسياسة يتحول تحولا كيفيا ويتم في وعيه انقلاب عميق إذ يذهب عنه هاجس التفوق الأرستقراطي للمتعلمين. إنه يتعلم بضعة أفكار واضحة بسيطة فإذا هي تحوله عاملا أكثر انتاجية وفلاحا أشد محبة للتعاون والتضحية.

وفي سياق هذه الثورة في «البنية العلوية» يتخذ شعار الحركات الثلاث التي وصفها ماو (صراع الطبقات، الإنتاج، التجربة العلمية) دلالة عملية، فيرتفع الإنتاج في الحقول والمعامل ويشكل (اقتحام البرلتاريا لعالم الاديولوجية) عاملا حاسما في تغيير علاقات الناس بعضهم ببعض وعلاقتهم بالدولة والحزب . فالخبير الأحمر شخص له كرامة إنسانيته مصونة يعمل ليل نهار ليصل إلى المثل الأعلى البطولي، يشترك في الحملات الثقافية فيخط شعارا جديدا بفخر على زملائه كدليل على تحوله الثقافي أو يصنع آلة جديدة أو يخترع طريقة للعمل توفر الجهد وتزيد في الإنتاج. وهكذا نجد الحمرة والخبرة لا يفترقان، الأيدي تعمل عملا مقتنعا كعمل المأجورين بل كعمل المالك الحريص البخيل.

وفي مقابل « الستخافونية» الروسية يزري الخبير الأحمر الصيني بالعامل الروسي المثالي الآلي. كل ستاخانوف يظل عاكفا على قطعته التي يصنعها لا يرتفع رأسه ولا يزيغ بصره الساعات الطويلة كأنما هو آلة من الآلات. ويضرب الرقم القياسي في الإنتاج لينال الأوسمة والفخر. أما الخبير الأحمر فهو بطيء في حركته لكنه دؤوب صابر ومبدع ومفكر وإنسان، يشارك في التخطيط والتدبير ويتطلع للقيم العليا ولمصير العالم.

حققت الثورة الثقافية التحول المعنوي للمواطن الصيني فحولت مع ذلك قدرته على العمل وكان «الكولي» الصيني مضرب الأمثال فيما مضى للكسل والجبن والقذارة والسرقة.

وجاءت الثورة فحررته من الاستغلال، ثم برز الكتيب الأحمر فكهربه وأحدث فيه انقلابا جديدا، فهو اليوم يحقق المعجزات كانت النظرية الاقتصادية للتصنيع تؤكد أن توزيع العمل وتوزيع الخبرات والكفايات والاختصاص والتسلسل الإداري وتجميع رأس المال بالقروض الخارجية أو بالقسر الاشتراكي هي الطريق الوحيد. وجاء الخبير الأحمر فحطم كل هذه النظريات وانتزع نفسه من سلطان القانون المزعوم. كان في القمة مديرون وخبراء ومهندسون لهم الأجور العالية والتسهيلات والمتعة وكان في القاعدة عمال كالأرقام، يتساءلون في ذلك الرأسماليون والشيوعيون القدامى.

وأعرض ماو عن كل ذلك واقترح طريقا جديدة للتصنيع، ليكن تجميع رأس المال ناتجا عن إبطال الملكية الفردية إبطالا قانونيا كما تفعل سائر الشيوعيات، لكن لتبطل العلاقات الإنسانية الإدارية التي ورثها شيوعيو روسيا من العهد القديم ولم يستطيعوا التنصل منها، ولتحل محلها علاقات تساوي بين الخبير والمدير وبين العامل، ولنطلق سراح القابليات الفردية للإبداع وليحل محل السلطان الإداري حافز خلقي يدور حول الفخر بالعمل المنجز باتقان.

وكان أن تعلم العمال والفلاحون فكر ماو المحرر وتذاكروا في السياسة بمعناها النضالي وتناقشوا كل يوم نقاشا فلسفيا وعلميا وتطبيقيا حتى زالت الفروق بين حملة الخبرة وبين القاعدة العاملة وحتى أصبح للكل نصيب من المواصفة العامة للثوري النموذجي الجامع بين الحمرة والخبرة. وهكذا أصبح الصيني الجاهل الكسول بالأمس أكثر الناس مهارة وأكثرهم وعيا بعمله وقيمته البطولية. قال تشي كويفارا لما عاد من الصين : «يستطيع العامل الصيني أن يصنع كل ما يستطيع أن يضعه أي العامل آخر، ويستطيع زيادة على ذلك أن يصنع ما لا يستطيع صنعه إلا العالم الصيني».

والقائد العبقري من وراء المجهود الجماعي يلهب الحماس ويشجع المبادرات المنتجة ويزور المعامل أو يكاتبها يحث على

السير في الخط الجديد خط الجماهير. كتب إلى أحد المعامل يقول: «ابنوا الاشتراكية حسب هذه المبادىء : ابذلوا كل الجهود وامشوا دائما إلى الأمام : الكم والكيف والسرعة والاقتصاد». وأصبح ذلك شعارا لكل المعامل. وكاتب العمال يقول : «إن المساكين هم الأكثر ذكاء وإن الأرستقراطيون هم الأكثر غباء».

وتعلم المساكين المتواضعون عندما أخبروا أن لهم إنسانية وبعد أن رأوا الزعيم القائد واحد منهم يعمل بيده ويأكل طعام الفقراء فتقمصوا الروح النضالية ثقة بأنفسهم جاءت من ثقتهم به ولم تعد تفزعهم الأغوال التي يخيف بها المثبطون عزائم كل أمة مستضعفة، التكنولوجية عريت عن سريتها وهم صعوبتها والنظرية الرأسمالية في وضع الخبراء في مركز الإدارة اضمحلت فلا مكان لفساد التقنوقراطية المستبدة، وذهب أيضا الوهم الشيوعي بأن قوى الانتاج هي العامل الحاسم في التنمية الاقتصادية. ومن القلة والفقر طلعت الخبرة وطلعت أجيال واعية تضحي بنفسها من أجل المجتمع. وذهب أيضا الوهم الشيوعي المعاد بأن البنية التحتية الاقتصادية ونظامها هي المتحكمة في اتجاه المجتمع وهي الوسيلة للتحرر الاشتراكي والشيوعي، فأثبتت الممارسة الصينية تبعا لفكر ماو بأن القوة الحقيقية هي القوة الثقافية فيقول ماو : و«إن للعمل السياسي أهمية حيوية لعلمنا الاقتصادي»، وتصدقه النتائج الباهرة في كل الميادين.

إن التعبئة الصينية برهنت على أن الحركية الاجتماعية تبدأ من جمع الأنظار والأفكار والهمم حول قائد يملك ثقة الناس بمثال حياته وعمله، وبرهنت على أن الناس يبحثون عن أنفسهم دائما فإذا وجدوا أنفسهم في مشروع يثبت لهم قيمتهم ويفتح لهم المجال ليعبروا عنها صنعوا المستحيل، وكان المستحيل في حق الصيني الكسول الذي يضرب بهوانه المثل أن يقوم رجلا كالرجل فأحرى أن يقوم بطلا عملاقا متفوقا على العالم في ضميره هو وفي واقع الناس. اعتمد الصيني على وسائله الخاصة كما قال القائد، وكان للجماهير مبادرة ونجاعة في العمل ذكاء وابداع كما قال، وتجرأ الصيني على نقد كل النظريات السابقة في الاقتصاد والعمل وبدلها بممارسة جديدة برهن نجاحها على أن الخبير الأحمر أقدر وأجدر بقيادة العالم. وفي كل يوم وساعة يتحرك الصيني ليغير العالم وفق برنامج يقترحه شعار القائد القائل : «صراع ثم نقد ثم تغيير».

القوة

أن يتعلم شعب كامل ويكسب المهارة والوعي الحافز لبذل الجهد، هذه هي القوة وهذا مظهرها لأن الراكد لا يتعلم ولا يعمل.

أن يتحرك شعب بكامله من موقع المهانة ليصبح أمة متماسكة معبأة متحضرة، هذه هي القوة وهذا مظهرها لأن الضعيف المنهزم لا يتحرك ولا يتحفز لمكرمة وإنما يستأخر في ذنابي القافلة لا يحلم إلا بإزالة آثار العدوان عليه وإلا باللحاق بالركب الحضاري.

أن يتعلم شعب بكامله كيف يستخرج من أرضه رزقه معتمدا على وسائله الخاصة تائها على الأجنبي محققا للمعجزات الاقتصادية والإنسانية، هذه هي القوة وهذا مظهرها لأن الشعب المتفرق المريض الفقير في وعيه المبتور في عاطفته ورجولته لا يبدع ولا يستقل أبدا.

وكل أولئك قوة يعرضها علينا كتاب العالم كتاب الله المعروض على مساحة الأرض لنتدبر آيات الله ونتعلم. يعرضها علينا في الصين عرضا قويا يلفت النظر بالتناقض الشديد بين ماض وحاضر وبين صعوبة تحريك الأعداد الهائلة من البشر وعمق الحركة الواقعية فعلا وأهمية آثارها.

وليس أمام الجماهير الإسلامية السبعمائة مليون، مثل الصين

عدا، إلا أن تتعلم أو تموت. إن ماضينا مجيد جدا وغني جدا حتى حال المجد والثروة التراثية حاجزا بيننا وبين نموذجنا الخالد، فبعث الله لنا عبادا له يتحدون رجولتنا ويتحدون ضعفنا بالهجوم العنيف المقاتل المحتل، وتألبوا علينا واتفقوا وضيقوا علينا طباق الأرض والسماء، فما تحركنا إلا لمطالبة خانعة بالعدل الدولي. وبعث الله عز وجل أمامنا شعبا ميتا مهينا يضرب لنا به الأمثال ويشير لنا إلى الرجولة والمروءة والقوة حتى نخجل من فسولتنا وانحلالنا وضعفنا، واحتل الصينيون سدة العز بين الأمم وبقيت ملايين المسلمين الفرديين الجغرافيين غثاء باليا لأننا لا نحب أن نتعلم ولا نعرف كيف نتعلم ونمكث في جدالنا العقيم نتساءل : من أين نبدأ ؟

مع ضعفنا وتخاذلنا وتألب أعدائنا علينا نجهد ونتألم في قوقعتنا المستعارة قوقعة الإيديولوجيات المشركة نحرفها ونقص من أطرافها ونلفق لها «أصالة» تليق بقوميتنا العتيدة. ولا يلبث حبل العمل أن ينقطع بانقلاب جديد يلفق تلفيقا جديدا. ونحن بهذا في دوامة الجهل والضعف والعنف لا نبرح. ولو كانت لنا فكرة واحدة مستقلة أصيلة حقا لا نفتح لنا باب التعلم من مصادر التعلم وبالأسلوب الخصب للتعلم. ها نحن أولاء ملايين لا تحصر عدا وهذه في أرضنا ثروات فماذا عملنا ؟ لا نعمل غدا كما لم نعمل الأمس واليوم لأنه لا منهاج لنا.

إن من يسكنه الشعور بالنقص تجاه الجاهلية لا يتجرأ أن يتعلم من الناس، ومن استقل من عاديات العادات وصدق في وجهته يتعلم تعلما مفتوحا لا يتخفى ولا يلفق. إن هذه الآيات في العالم تذكرة يعرضها الخالق سبحانه الأخذ بناصية كل من على الأرض ليذكرنا بالعهد الذي أخذه علينا أن نؤمن به وننصره، وليذكرنا بموعوده أن ينصر من ينصره ويستخلف في الأرض من آمن وعمل صالحا، ويضرب لنا الأمثال بجاهليين لهم إيمان ما ولهم به عمل ما أكسبهم القوة كما أكسبتنا ردتنا وشكنا كسلا ضعفنا به.

كانت الفلسفة التي أصبحت عملا تسأل عمن هو الفاعل التاريخي فوجدته في شخص المحروم المستغل المستلب. ولقد علمنا الله بأن الفاعل التاريخي هو المتواضع الذي لم يتكبر عن دعوة الأنبياء فآمن وجاهد. وعلمنا أن المستضعفين في الأرض هم الأقوياء متى آمنوا وهم الوارثون للأرض متى عملوا صالحا وفق إيمانهم، ولكن لا تنفتح لنا أبواب الحياة لجهلنا العلم النبوي، ونتهافت على الفكر الفلسفي الجاهلي فتنقطع بنا الحبال، وإن دعوة الله على حالها قائم بها العلماء العاملون أولياء الله، وإن موعود الله ينجزه لنا أن استجبنا وتحررنا من تبعيتنا للناس تتقاذفنا التيارات ويضرب الله لنا المثل بدعوة في الصين لقيت مؤمنين بها فحققت المستحيل، وخرج من الضعف والهوان العز والقوة.

إن الحركة نحو البعث لا تبدأ بالمظاهرات الدبلوماسية ولا بالمناقشات السياسية التي لا تنتهي، إنما تبتدأ بأخذ الزمام بقوة وعزم. في الثورية الجاهلية صراع طبقي عنيف وفي الإسلام رفق التوبة العامة، لكن هذا الرفق لا يعني أن مترفي الأمس ستزول فتنتهم بلمسة حريرية. إن جدية العمل وضرورة الحزم من أهم ما يمكن أن نتعلمه من صين ماو، يقول الزعيم : «إن الثورة ليست مأدبة شرفية، وليست تصنع كما تصنع القطع الأدبية أو اللوحات الفنية أو أشغال التطريز. إنها لا تصنع بما يناسب كل ذلك من الأناقة والهدوء والرقة. ولا باللطف والعطف والتأدب والحشمة والسماحة. إن الثورة تحرك وعمل عنفي تطيح أثناءه طبقة اجتماعية طبقة أخرى».

إن التؤدة النبوية منهاج سلوكي أوله قوة الصبر والتحمل وأخره قوة المضاء والانضباط معا. والعنف قوة غير منضبطة فهي تجمح بصاحبها فيركب الشطط. والثورة الصينية قامت بالصراع العنيف صراع الطبقات ثم لما تم لها ما أرادت وقبضت السلطة تحول العنف الداخلي إلى عنف لفظي وعملي موجه للخارج وكان انضباط الصينيين في معالجتهم للتناقضات بين الشعب وحفاظهم على الثروة البشرية التي يمثلها قدماء البورجوازيين بواسطة إعادة التربية رافدا مهما لتجميع قوى البناء. الإسلام لا يقوم فيه بعنف

إلا الدول التي تدول، أما الخلافة النبوية الموعودة التي آن أوانها، وأما التجديد والخلافة للمسلمين في الأرض فهي صيغة الرحمة التي تفتقر إليها الأمة المشتتة البئيسة، وستطلب هي الإسلام وتسعى إليه، قادتها وسائرها وتتصالح عليه. وإنه قد تجاوزت الأحداث القادة المسلمين وبلغ يأس الأمة دركته السفلى أو كاد، وعاف الكل هذه المهانة وهذا العنف الذي يقتل المسلمين في ديارهم بأيديهم ولا يستطع يكون قوة ترد غائلة العدو الهاجم المتألب.

وإن من الضعف تخرج القوة، ومن الخوف من العد ويتخلف الوعي بالذات والوعي بالضعف والوعي بضرورة اتخاذ القوة. فمنذ قامت الشيوعية في الصين على قاعدة صراعية وحرب أهلية تأصل في الصينيين الشيوعيين روح المعركة والقتال، فلم ينقصوا من تعبئتهم يوم كان لهم النصر، بل حزموا أحزمتهم أشد مما كانت يكافحون في واجهتين كفاح الليل والنهار، يبنون البلاد ويستعدون لقتال عدو خارجي محتمل. وكان الزعيم يهيب بقومه للتمسك بالقوة، وكانت نخبته من الجيش الأحمر النواة التي اجتمع حولها الجهاز الحزبي. فأعطاه الحزب وكل الشباب يتعلمون مبادئ الثورة ويتعلمون في نفس الوقت مباديء استعمال السلاح والاستعداد الجسمي.

إذا طلبت أمة الحركة والحياة فعليها أن تتعبأ للمعركة، ومعنى

التعبئة الاستعداد النفسي وإعداد القوة لدرء العدو. في الشعوب الميتة وفي الشعوب المكتظة المائتة بموت مشابه يتخصص طائفة من الناس في مهنة الجندية، أما في الأمة التي تحمل رسالة فينبغي أن يكون كل من له يدان وعضلات مستعدا متدربا للجهاد ممارسا للعمل الجهادي في كل يوم على قدم الاستنفار العام. وهكذا كان المسلمون عندما كانوا أمة وقبل أن يصبحوا دولا وراثية. الصين مثل ضربه الله لنا للأمة حاملة الرسالة، لهم رسالة ظلمانية كافرة يقوون على حملها ما لا نقوى نحن على حمل حقنا الذي نزل من عند ربنا لكي نخجل من تفاهتنا. إن كان الصينيون الحمر لم يستطيعوا أن يجعلوا الأمة كلها جندا إلا بإدماج الجيش في الأمة إدماجا كبيرا فلأن الجيش كان له ماض نضالي مجيد ولأن تربية الجيش لم تكن تربية عضلات وعقول بل كان أيضا تربية ضمير وخلق كانت مدرستها كهوف ينان وصحاري كيانغسي التي جابوها محاربين متقشفين أبطالا.

لنا جيوش ورثت عادة القعود وأسيء اعدادها إذ هيئت لخدمة الراية والتراب تهيئ الآلات المستعبدة، أهم ما يعلمون الجندي المسكين أن يرفع اليد بالتحية للضابط السيد ويهتف بالشعار، ولجيوشنا مترفون هم المتألهون من السادة الضباط، لهم عنجهية الضابط الجاهلي وليست لهم كفايته، ولهم حاجات لا تنتهي لها

علاقة بالشهوات ولا علاقة لها بأمر القوة وأمر الروح المقاتل. لهذا ينهزم جنودنا هزيمة هي صورة لهزيمتنا جميعا كفاء لاسترخائنا وترهل أجسامنا وعقولنا حين فقدنا العقيدة والروح. الجندي المسلم الآلة مستضعف من المستضعفين الذين سيستخلفهم الله في الأرض مع أمتهم وسيحررهم من وطأة المترفين فيحملوا القوة لخدمة الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

لا نعجب أن كان قادة جيوشنا نسخة من مثقفينا المترفين، إنهم تخرجوا من مدرسة واحدة هي مدرسة الجاهلية. وهي مدرسة تعصر من ضمائرهم حياة الرجولة والصدق والإيمان كما تعصر من أجسامهم مقومات الشهامة بما تطرحه عليهم من فكر دوابي ومن عادات نجسة. فإذا حدث إن أفلت عنصر من عناصر جيوشنا من سلطان الكماشة الجاهلية المردية واستعمل القوة لنصرة الحق وابطال الظلم في بلاد المسلمين، فإنه لا يهتدي إلا إلى انقلاب لا يرى ماو وراءه لأننا لم نعلمه إلا علم الجاهلية، فيرتجل ويكون اسمى ما يصل إليه أن يصبح بطلا من أبطال التاريخ يتظاهر في العالم مع رؤوس الدول إلى أن تأتيه الهزيمة الشنيعة فتذله.

في دار الإسلام طبقة عسكرية هي مظنة القوة ومناط العمل القوي غدا يوم ينبعث الإسلام، شريطة أن ينزل الضابط إلى الصف ويدع عنه الطغيان ويرأف بالجندي المسكين ويعلمه ويربيه

من حيث يتعلم هو منه ويتربى. وإن نظام جيوشنا الموروث عن الجاهلية التكاثرية نظام استعباد وقتل للأنفس والهمم، وما يمنعنا أن نجدد إلا أننا قوم أموات فلا يمكن الميت تغيير ما به. وأمامنا أمة حية في الصين حررت الإنسان فتحرر الجندي والضابط وتساويا في إنسانيتها واحرقت تلك الأشرطة وتلك الأوسمة، وقوى الانضباط في الجيش وتغيرت العلاقات تغيرا كيفيا. وانصرف الجند لخدمة الأمة عنصرا حيا فعالا يعدى الناس كلهم بنشاطه وحيويته وبساطته.

يشبه ماو الجندي في الشعب بالسمكة في الماء، فالسمكة لا تحس غربة في الماء لأنه وسطها الطبعي ولا تجد حرجا في التحرك، وهي أيضا لا تستطيع أن تحيى مستقلة عن الماء خارجة منه مستعلية عليه. فما ينبغي للبندقية أن تتحكم وإنما عليها أن تطيع. يقول ماو : «إن مبدأنا هو إن الحزب يأمر البنادق ولا يقبل أن تتآمر البنادق على الحزب». وكارثة أمتنا المبعثرة أنه ما لدينا حزب واحد منذ أن تنكرنا لحزب الله الذي يجمعنا بل لنا أحزاب هي بعض ما ابتليتنا به. وليست هذه الأحزاب بحيث يليق أن يطيعها جندي شريف، وليس الجندي حتى وأن ربوه على تحية الأشرطة والأوسمة من الهوان بحيث يأتمر لمن ليس لهم ضمير ولا نظافة ولهذا يأخذ جنودنا السلاح وينقلبون عن الظلم ثم يضعفون

عن حمل الأمر فيترفون وينقلب عليهم زملاؤهم. وإن الانقلابية لسيف مصلت علىمترفي هذه الأمة المسكينة يسوقهم كرها ليفيئوا إلى أمر الله.

إننا بحاجة إلى قيادة جهادية قوية تحمل برهان صدقها بيدها، يسكن القائد المجاهد خيمة الجهاد ويأكل طعام الجندي المسكين ويلبس ملبسه ويطوي بذلك ما بين القيادة والإنسان من أوسمة وأشرطة. وقد فعلت الصين هذا وهم كفار فياخجلتنا إذ لم نقدر على سلوك سنة نبينا الذي جعله الله لنا اسوة. ولو قد كنا مؤمنين وكانت لنا قيادة مؤمنة تجلس على الحصير وتأكل الشعير إذا لوجدت جيشنا قوة ترفع عماد الدين وتسمع مطيعة بالصدق واليقين.

يصف ماو كيف تكون الجند المقاتلون الحمر، يقول : «هذا الجيش قوي لأن الرجال الذين منهم ينضبطون بنظام واع. إنهم تآخوا وهم يكافحون لا من أجل مصالح خاصة ولا من أجل فئة معينة بل يكافحون من أجل الجماهير الواسعة ومن أجل مصلحة الشعب بكامله. إن هدف الجيش إلا وحد أن يكون بجانب الشعب الصيني بقوة وأن يخدم الشعب الصيني من كل قلبه».

إن وضوح المقصد وصدق القيادة في طلبه هو الذي يكون لحام الجماعة المجاهدة. لنسمع كيف يرى ماو الجيش المحرر، يقول: «لقد التقينا هنا آتين من كل أقطار لنا هدف واحد مشترك...

ينبغي لأطرنا أن تهتم بكل مقاتل وينبغي لنا كلنا في صفوف الثورة أن يحنو بعضنا على بعض وأن يحبه ويساعده».

كان الجيش الصيني ككل الجيوش يعرف نظام التجبر من أعلى، فمر عليه عشرات السنين يربيه القائد العبقري ولا يزال يطلب مزيدا من التربية والتوعية، يقول : «إن مبادئنا الثلاثة الكبرى للعمل السياسي في الجيش هي أولا : الوحدة بين الضباط والجنود، ثانيا : الوحدة بين الجيش والشعب، ثالثا : تحطيم القوى المعادية».

وشيئا فشيئا تعلم الضابط المعرفة الحق بيده وكف عن كبريائه وطرح الأشرطة والأوسمة ولبس لباس الجندي وتعب مثل تعبه وأكل طعامه وسارت في الجيش المعاني الإنسانية والإخوة والتعاون.

لماو وللصين معه شعار القوة وهو «إن النصر على أطراف البنادق»، وهو شعار يلخص دعوة ماركس وانجلز أن يكون للبرولتاريا جيش يكون رأس السهم في الثورة ويحميها. وفي التجربة الصنية كان الجيش هو رأس السهم وهو الآن حامي الثورة. وتتجلى حمايته للثورة في المشاركة العملية للشعب في كل الميادين. إنه ليس جيشا قاعدا في تكناته يتدرب في الفراغ، بل هو الجيش المكون للثالوث الثوري : الحزب والشعب والجيش، إن للجندي وعيا بذاته وأهميته، وذلك الوعي أغناه عن شارات

الرتب العسكرية. إنه إنسان فاعل في كل الميادين، فهو كان المحرر الذي هزم العدو وهو اليوم العمود الفقري للثروة الثقافية والتربية العملية. إنه يقرأ الفلسفة ويدير المعامل والمزارع مثلما يحفر الحقل ويسوق عربة الأرز ويدرب تلاميذ المدارس ويعلم في الجامعات كما يعلم الفلاح الأمي بالأمي بالأمس. إنه عامل أساسي في البناء الثوري وحامل لأمانة التربية. بيده سلاحه الذي صنعه مع العمال وبقلبه سلاح معنوي سياسي، سياسي بمعنى التضحية وخدمة الشعب لا كما يمارس المترفون السياسة خداعا وتلبيسا.

الجندي يخوض مع القائد العبقري معركة طويلة جدا هي معركة التربية. يقول ماو يخاطبهم : «يجب على رفقائنا أن يدركوا أن إعادة التربية الإديولوجية أمر بعيد المدى ينبغي أن نصمد لتحقيقه بالصبر والدقة. يجب أن لا نظن أن بضعة دروس أو اجتماعات تستطيع تغيير اديولوجية تكونت في عشرات السنين. لا يمكن أن نقنع إلا بالحجة وليس بالغط. إن الضغط نتيجته الإخضاع لا الإقناع ولا تقبل بوجه الضغط بالعنف. هذه الطريقة يمكن أن نستعملها مع العدو لا مع الرفقاء والأصدقاء.

وهكذا نرى أن القوة في الصين قوة عضلات فقط بل هي قوة عقيدة وفكر قبل كل شيء، فإذا خدمت الأولى الثانية اجتمع وازع السلطان بوازع معنوي فكانت طاقة لا تغلب.

الفقر والعفة

لعل الإنسان المعاصر أشد الأجيال بخيبة المسعى الإنساني في الأرض وبعث كل هذه الحياة الصاخبة. إن الأثاث الحضاري والرئي والتخمة ما زادت عقلاء هذا الجيل إلا أسى وحسرة على ضياع الإنسان وضعفه. إنه يشعر بأنه مبتور ناقص وتعلم أن كل الأوهام «اليوتوبيات» التي ولدها الفكر البشري لا تعوض نقص الواقع الإنساني وقصوره وقذراته، وتعلم أن أوهام الذين يتنبأون بيوم فيه يغير الإنسان مجرى التاريخ تغييرا كيفيا ليحقق سعادة الإنسان إنما كانوا شعراء هائمين وإن كانوا يدعون العلمية مثل ما إدعاها ماركس.

الإنسان المعاصر الذي يشعر ويعبر عن خيبته إنسان جاهلي عاقل، إنه يجهل العظيم النبأ الذي جاءت به الأنبياء وهو نبأ البعث وخلود الإنسان. يجهل هذا النبأ العظيم منذ تدهورت المسيحية إلى دين كنسي لعبت فيه أهواء الكهنوت حتى مجه الناس وتحرر من الرحمة المسيحية فعنف فتشخص فيه شطرا الجهل، هذا الإنسان الجاهلي العاقل يلتمس كمال الإنسان فلا يستطيع أن يتصور للإنسان كمالا إلا على صعيد الحياة البهيمية، فالإنسان الكامل عنده هو الفلاح القديم الذي كان ينتج طعامه وكساءه

وجل حاجاته، والإنسان المبتور الشقي ما كان كذلك إلا من جراء تقسيم العمل وطغيان الآلة ورأس المال على الإنسان، فهو منذ اليوم مستلب مشيا.

لعل الجاهلي المعاصر العاقل يدرك بحاسة مطموسة ما أخبرنا به الله عز وجل من أن الإنسان في كبد وفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ولعله إذ يتدبر التجربة الصينية إنما يسألها عن هذا الفلاح القديم في نظره، ما تفعل به وهل ستحتفظ له بالفقر النظيف البطولي المتجلى في الثورة الصينية وتجنبه كارثة الحضارة الآلية الباترة للإنسان. فنلتقي نحن وهؤلاء الجاهليين في المرقب، نحن نتعجب من آية الله في عباده الصينيين لنخجل. نتعلم وهو يبحث عن اليوتوبيا المستحيلة.

ألبرتو مورافيا أكبر الكتاب والمفكرين الإيطاليين المعاصرين. زار الصين منذ سنوات في فجر الثورة الثقافية وليس هو شيوعيا ينشر الدعاية ولا مغفلا يحسب الرماد نارا. لذلك تحدث عن الظاهرة الإنسانية الفريدة في الصين محتفظا بشكه في مصير الثورة الصينية متسائلا هل تبلغ التجربة الصينية أن تحرر الإنسان حقا وهل تستطيع أن تكسب تكنولوجية وحضارة صناعية دون أن ينزل ثقل كل ذلك على الإنسان فيبرته ويشيئه ويقتل بذلك أمل البشرية في الخلاص والكمال، كما يرى هو الكمال في نموذج الفلاح القديم.

يقول الجاهلي العاقل في مقدمة كتابه على شكل حوار[1] :

س : أين يوجد الآن أكثر أنواع الفقر إنسانية ؟

ج : يوجد في الصين فيما أرى، ولكن في الصين الآن بالطبع، في هذه اللحظة بالذات. فليس من المؤكد أن تريد الصين أو أن تستطيع تحويل اليوتوبيا، التي تمثلها وتجسدها اليوم على نحو موقت إلى واقع دائم، كما أنه ليس من المؤكد أيضا أن تبقى صين الغد خاضعة لنفس الظروف التي تخضع لها اليوم. فاليوتوبيا لكي تكف عن أن تكون مجرد يوتوبيا وتتحول إلى واقع لا بد لها من الدوام,

س : قل لي الآن، أين يوجد أكثر أنواع الثراء لا إنسانية؟

ج : في الغرب على ما أعتقد».

ويتساءل الكاتب ما يحدث إن تمت في الصين الثورة الصناعية وتراكمت رؤوس الأموال ورفعت الرواتب وأنشئت صناعة خفيفة تسمح بإنفاق الرواتب. أيمكن للصين مع كل هذا أن تتفادى مصير الدول الغنية الأخرى ؟ ويجيب قائلا : «اليوتوبيا يجب أن تصبح وعيا قبل كل شيء. وطالما وجد هذا الوعي فسوف يكون الحل هو خلق الإحساس بأن الثراء خطيئة وجرم وزلة».

ويحن الجاهلي العاقل بعد هذا للمثالية وللدين، وإن كان لا يعرف من الدين إلا التاريخ الكنسي. يقول : «لقد نجحت

1 ألبرتو مورافيا : «ثورة الصين الثقافية» ترجمة وحيد النقاش

المسيحية «لعدة قرون» في أن تجعل من الفقر الحالة المثلى للإنسان وتلك نتيجة لا يستهان بها حتى اليوم. وذلك لأنني كما ينبغي أن تضع في اعتبارك، لا أتكلم عن كل هذا في المطلق، خارج حدود الزمان والمكان، وإنما نسبيا، وفي علاقته مع الزمن والعالم الذي نعيش فيه. فالحالة التي كانت تقترحها المسيحية كانت محددة بصفة «مثالية»، وأعترف بأن ذلك كان حكما مسبقا عليها بالفشل (يتحدث الرجل عن رهبانية الأديرة) أما هذه المرة فيجب أن لا نجعل من الفقر «حالة مثالية»، ينبغي أن يصبح الفقر الحل الوحيد بالنسبة للإنسان، حالته الواقعية والعادية».

عم يبحثون عندما بهرهم الصيني النظيف الأنيق في سروايله المرقعة ترقيعا فنيا؟ إنهم تذكروا قساوستهم الرهابنة فما وجدوا عندهم هذا التقلل الجماعي الذي يدعو إليه الإسلام والذي يطمحون إليه عند صين الغد، وهيهات ! وما نستطيع نحن المسلمين أن نتعلم من آيات الله في الآفاق ومن عطائه غير المحظور إلا إن رسخ فينا النموذج الكامل لمحمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الذين كانوا فقراء أغنياء كاملين حق الكمال، لا بالكمال الأرضي المعاشي لكن بامتدادهم إلى الآخرة وعيشهم فيها بالشوق وبذكر الله وبالروحانية التي يخلقها الله من الطينة البشرية فتخلد نسورا بين يدي الحق ويخلد الغافلون في الآخرة

حطام جهنم إلا أن يغفر الله، وهذا ما لا تشم الجاهلية ولا تلامذتها الخانعون المترفون رائحته.

ويصف الكاتب الإيطالي مجتمع الاستهلاك الغربي فيصور عملية «التبرز الحضاري» بواسطة الاستهلاك ومن أثر الاستهلاك، ويصور استهلاك الحروب وتبذير للإنسان خيرات الأرض تهيئا للحروب. ثم يصف العهارة الجنسية يقول : «اليوم، هنا، في هذا العالم بالذات، الحب والعلاقات الجنسية غريبة بعضها عن بعض، بل هي أيضا متعارضة ومتعادية. لم يعد «الفعل الجنسي» شيئا آخر سوى الإنتاج...أما الحب فعلى العكس...إنه الحب، إنه الإبتكار والبحث والإشراق والسمو والتلاقي والخيال والتأمل. إنه كل شيء ما عدا الإنتاج».

لقد أدهشته النظافة الخلقية في الصين الجديدة، أدهشته كيف أصبحت المرأة إنسانا مكرما محتشما حييا وقد كانت بالأمس بضاعة بخسة. وأدهشته العفة وتلق إلى مثاليات الغرب الشاعرية. ولعل سرده لأوصاف الحب المتعاقبة المتلاحقة ينم عن تقززه من انحطاط المجتمع المنتج المستهلك ومن أهدار الإنسان الجاهلي لكرامته وكرامة جنسه بإقباله الدوابي على الشهوات، ويحلم أن تلد الصين مجتمعا فقيرا عفيفا نظيفا دائما، يحلم في تحفظ شاك، ونجزم نحن بأن الجاهلية أبدا، وأن ما يبدو في الصين من ظواهر

القوة والعفة والسمو الخلقي لن يقوى على مقاومة الثروة الآتية وسيطغى الإنسان في الصين إذا استغنى وسيلحق ركبهم الجاهلي بدرب الجاهلية جاهلية الخطوط المؤدى إلى حيث صارت القرى التي حصدها الله بكفرها وظلمها.

لا يغرنا أن قرية الصين في هذه اللحظة من لحظات تحفزها وتعبئتها قرية فريدة في أسلوب عملها وفي كيفية عملها. لا يغرنا ذلك عن معرفة المصير الذي يترقبها، كما لا يغرنا الجهل بالأعراض عن آيات الله في الآفاق التي يقص علينا نبأها على صفحات العالم المعاصر، كما قص علينا نبأ القرى الغابرة في صفحات كتابه لنتدبر ونتعلم.

فماذا نتعلم من الجاهلية ومن صين ماو؟ يسهل علينا التدبر إن حملنا المنظار المنهاجي وفصلنا تدبرنا على محور الخصال العشر المنهاجية.

1. شعب وقائد، شعب كان متفككا مائتا إلى أن تيقضت أريحية نخبة من الشيوعيين أصحاب العقيدة التحررية ومن خلال نضالهم برز قائد عبقري كان ولا يزال مناط التعلق العاطفي للشعب، وحول شخصه تتبلور المثل العليا وإرادة العمل. عبادة الشخصية هم التعبير الجاهلي عن تعلق الناس بالقائد، وهو تعبير يدل دلالة واضحة على أن شخص القائد أثرا في تحريك السواكن

من الفكرة التي يحملها. أما القيادة الإسلامية فيلزم أن تكون خلافة للرسول ودرجة لصحبته وتكون طاعته من طاعة الله ورسوله. وقد تكونت في مجتمع الصين الجديدة علاقات اجتماعية جديدة هي علاقات زمالة في الكفاح ورفقة، فإلى ماذا تصير بعد موت القائد وانقضاء الكفاح البطولي ؟ أتبقى حوافز التضحية ونكران الذات وخدمة الجماعة ؟ إن صحبة الإسلام والطاعة والنصيحة والمحبة أجدر بالبقاء على الأيام لأنها تمتد إلى الآخرة.

2. التصور الماركسي للعالم والإنسان أنتج مشروع الشيوعية البطولي المأسوي. هدفه التحرر من الظلم وغايته العيش الرخي في أحضان الشيوعية المنتصرة. وتتخذ الغاية من العمل الشيوعي في الصين أبعادا إنسانية تربوية لكنها كغاية كل الشيوعيات لا تتجاوز معاني الأرض أبدا. فالجاهلي يجهل قيمة الإنسان ولا يرقى إلى تصور خارج عن نطاق العلموية الوضعية التي تحصر الإنسان في دوابيته. وهنا لا يمكن أن نقارن مقام الإسلام بموقع الجاهلية إلا كما يقارن النور بالظلام والحياة بالموت.

3. بهرت الصين الجديدة ملاحظيها بشجاعة الصيني بعد جبنه وأمانته بعد ندالته ونشاطه بعد كسله. هذا التحول الشامل من عادات الانكماش وهذه الحركة الدائمة في الأفكار وحول الأقطار تنم عن الروح الجديدة المحركة للملايين السبعمائة. وتتعلم

من نهوض الصينيين للعمل وصدقهم فيما هم فيه أن الإنسان الراكد لا ينبعث إلا بجد العمل والقوة الموجهة. من كان ذا همة تقبل المبادرة وتقدر عليها سارع إلى العمل، ومن أثقلته عاداته فإنه يزج به في ساعة العمل وينتقد ويرغم على نقد نفسه. فإذا حمل على كتفيه من كان مترفا منعما علمه التعب ما هي الحياة فنبذ عاداته. ويوم ينشر لواء الإسلام لا بد أن يكمل صدق التربية بوازع السلطان صدق التربية بوازع القرآن.

4. في المجتمعات الراكدة لا توجد ثقة بشيء، الإنسان شحيح خائف لا يهمه إلا أن يضمن لنفسه أكبر رخاء، فيمسك ما بيده ويزاحم بقوته كلها على التملك فينشأ مجتمع الكراهية المتناحر على المتاع والمتع. الجاهلية الرأسمالية تنظم هذا القتال على الملكية تنظيما فوضويا، وتستقر الفوضى على أساس صراع دائم مقبول معروفة قوانينه بين المحظوظين الأذكياء، والعمال الأقوياء بقدرتهم على الإضراب، وكل أشحاء أنانيون. وتكسر الاشتراكية الشيوعية أنانية التملك بنزع الملكية، وينيخ طاغوت الدولة بكلكله على الناس. وبين طاغوت الدولة وفوضى اللبرالية لا تزال الجاهلية تبحث عن حل فلا تجد ولا يغطي حماس الصيني المضحي بنفسه في سبيل المجتمع الأنانية المتأصلة التي لا يمحوها إلا المنهاج النبوي والتزكية الإسلامية.

5. من السهل أن تحمل شعار «العلم والإيمان» كما يفعل بعض زعمائنا، لكن الصعب حقا أن تعلم أمة جاهلة بأسرها كما فعلت الصين. الفلاح الأمي منذ الآلاف السنين تعلم برغبة زائدة وتعلم علما هو رمز المترفين وهو الفلسفة. كانت فلسفة بسيطة واضحة لكنها أعطته شعورا جديدا بكرامته وزادته ثقة بنفسه، لأن مبدأها الأول هو أن المعرفة الحق تأتي من الممارسة ومن العمل اليدوي اليومي. سبق الإيمان العلم في الصين، آمنوا بالشيوعية بعد أن أمسكت الزمام وأطعمت الجائع وحررت العبد، فانطلقوا يتسابقون في فك رموز الكتيب الأحمر وحملوه يلوحون به في كل المناسبات. ولقد قال سيدنا عبد الله بن عمر : أوتينا الإيمان قبل القرآن. فإذا تعلمنا المنهاج النبوي الذي يعملنا من أين نبدأ وكيف نكسب الإيمان انبعثت لنا حركية خليقة أن تدلنا على سبيل التعلم ومن التعلم ينبثق كل الخير.

6. السياسة في الصين هي العمل المطلق، لها الأسبقية على كل نشاط، لكنها لا تعني التخبط وتسخير المغفلين والكذب بالوعود الهائلة. السياسة لدى الصيني كشف للحقيقة الإنسانية الأولى التي تراها الشيوعية وتميها استغلالا طبقيا وتسميها القرآن تكاثرا وظلما. فإذا انكشفت هذه الحقيقة ووصف طريق التخلص من وباء الظلم تحررت الإرادة وتحررت الطاقات ولنخجل نحن

المسلمين أن أراد الوثنيون وعملوا ونجحوا على ضلالاتهم وتبلدنا نحن وقعدنا عبيدا لكسلنا لم نتعلم كيف نزيل عنا ظلم الظالمين.

7. يرى الرأسماليون أن الحرية الفردية تجد صيغتها المثلى في حرية التملك، والمثل الأعلى للحرية في نظر الشيوعيين هو حلم زوال الدولة وتوزيع الرزق مع الرخاء العام. والجاهليتان ما انفكتا على ما يظهر من تباين في المبادئ متشابهتين حذو القذة بالقذة. وماهم روسيا إلا أن تنتهب حظها من خيرات العالم مع مثيلتها وأن ترفع «مستوى المعيشة». وتزعم الصين أن مذهبها العمل التجريبي تحرر من أشكال الجاهليات الأخرى ومن محتواها. وينبغي أن يتعلم كيف يجدد تحرره بشكل جديد من أشكال العمل هو «الثورة الثقافية»، تلك ميزة لا شك فريدة، ولقد حطمت هذه الثورة أصنام الاحتكار التكنولوجي وحطمت العادات، لكن هل مست الإنسان في صميمه، وهل غيرت حقيقته فنقلته من معنى دابة إنسانية إلى معنى العبودية لله في دار الخلد ؟ إن المسلم إن سعى للمسجد فإنما سعى لبيت ربه سيده، فسمته بذلك سمت مخلوق سام فريد لا شبه بينه وبين الجاهلي إلا السحنة وخلق الرحمن الإنسانية، ثم إن ذلك حي وهذا ميت.

8. يدعو زعيم الصين للجد والحزم، وتجد في كلامه قسوة أحيانا. ومع ذلك فأهم ما يميز أسلوب العمل الصيني هو الرفق.

وما استغنت الماركسية بعد لينين كما استغنت بالفكرة الماوية في حل التناقضات الداخلية بالصلح والرفق. لهذا فلعل إعادة تربية المترفين لميدان الكد مع العمال والفلاحين بدل رفعهم للمشانق أهم ما يمكن أن نتعلم من الصين ليؤمنا الموعود. وسنكون أمة الرفق وأمة التؤدة النبوية وسط عالم العنف. ولنا أيضا درس في رفق الجيش الصيني وكسره لوثنية الشارات والأوسمة مع القوة والاستعداد الدائبين.

9. رأينا أن مفكرا غريبا تأمل طويلا فقر الصيني ونظافته الخلقية وحامت حول ما رآه آمال في تحرير الإنسانية المثقلة ببضائعها المشيئة المسخرة ومن تقلل الصينيين المفروض بفقر البلاد تغذى الشعور البطولي، ومن أجله اختارت الصين طريق الاعتماد على النفس في بناء اقتصادها. وتوقدت العزائم وبلغت الإرادة أوج مضائها عند الصغير والكبير، فأبدع كل إبداعه وصنعوا آلات أكثر اتقانا من آلات أرباب التكنولوجية ابتداء من الصفر وبوسائل الفقير المدخر لكل قطعة ولكل مسمار ولكل قرش. وهذا لنا درس كبير.

10. للصين شعار حركي يشير إلى اتجاه العمل الثوري. ذلك هو : «الصراع – والنقد- والتغيير». ومعنى هذا أن الطبقة المسكينة تفتح أعينها لتعيد حكمها على العالم ثم تقبض على المبادرة لتغيير

العالم. يجاهد الصيني ليحرر الإنسانية فذلك مرمى طموحه وغاية جهوده. وأمة الإسلام في غدها المشرق الذي أظل زمانه ستتحرك بنية جهادية خلف قيادة جهادية يبدل الله جل جلاله بها قياداتنا المترفة، فتفتح الأمة أعينها لتتميز عن الجاهلية والكفر، ولتربي الأنفس وتقدح الإرادات وتتوحد على الحق لتحمل لواء الجهاد الدعوة والقيام بالقسط وسط عالم حائر. ولن يعوقها عن القيام ما يظهر من ضياعها على مائدة اللئام ومن خلفها وضعها فإن الله هو الخالق الباعث تقدس اسمه.

الفصل الرابع

طريق إلى التجديد

تهافت الفلاسفة

مضى القرن الأول من الإسلام فكان عصر البعثة الإسلامية عصر النورانية والتربية ثم تحول عصر الفتنة العظمى يزيد من نكرها قرب العهد بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وجلال الصحابة الكرام الذين طحنتهم رحاها رضي الله عنهم أجمعين. ويوضح لنا كل ذلك أن الإنسان ضعيف خلقه الله ضعيفا، فهو يقتحم العقبة إن بعث الله له نبيا فصدقه واتبعه، ولا تنتهي العقبة إلا بالموت. فالمؤمن ينصب وإلى ربه يرغب وهو مسؤول عن أعماله بنياته لا بنتائج اجتهاده. فإن طال عليه الأمد بعد البعثة النبوية فقد يقسو عليه قلبه وقد يكون آنئذ أشد الناس حاجة لمن يجدد له إيمانا وتربية. ولهذا تعاقب أنبياء الله في الناس يجددون لهم حتى ختم الله الرسالات بنبيه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم. وهو أخبرنا بأن الإيمان يبلى فيتجدد بلا إله إلا الله، وأخبرنا أن الله يبعث لهذه الأمة من بعده مجددين على رأس كل مائة سنة. وهكذا رسم لنا خطى اللقاء الدالين على المجدد. فهو رجل قبل كل شيء شخص مفرد كما يليق بالنموذج التربوي، وهو لا يملك أن يجدد إلا إن كان صاحب الكلمة الطيبة التي هي أعلى شعب الإيمان. فمن كان يملك أن يقول للناس : «قولوا لا إله إلا الله

تفلحوا» ويفلحون إن قالوها كما أفلح من اتبع الرسول، فذاك مجدد فيه مزيتا التعريف النبوي.

في آخر القرن الأول ظهر مولانا عمر بن عبد العزيز فكان رجل التزكية والصحبة والذكر والعبادة، التزم أحضان شيخه-قبل أن تخترع المصطلحات الصوفية-وهو سيدي عطاء ابن حيوة، حتى اكتمل رجلا. فأعاد الله به للأمة المفتونة لألاء العدل وإشراق الإيمان. ثم انطمست تلك الشمس في عين الفتنة الحمئة.

ومضى الثلاثة القرون من بعد ذلك فتقعد الفقه الشرعي كما تقعد نظام الحكم دولة عاضة كما أخبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وذهبت معاني الخلافة النبوية وحلت محلها ملكية وراثية تتسمى بالاسم وتحمل الرموز وتتمرد في قصورها على شرع الله. وتوسعت الدولة في الأرض فقل المؤمنون وتحولت الجماعة مجتمعا وعز الصاحب المحسن وعزت التربية الإسلامية، وانزوى المؤمنون أهل القرآن والسنة الكاملة فسموهم صوفية وعبادا. أما الدولة المقعدة فكان لا بد لها من عقيدة مقعدة. ومن هنا نشأ «علم التوحيد» ومن هنا نشأ «علم الكلام».

كان الإسلام إذعانا لأمر الله القائم به المؤمنون ومشاركة في عبادة الجماعة المؤمنة وحياتها العامة بالطاعة. وكان الإيمان يأتي الناس قبل القرآن، يأتيهم من الصحبة ويعديهم من مجالسة

المؤمنين في مجالس الذكر والعلم التي سماها الصحابة «مجالس الإيمان». فلما ورد على الإسلام أقوام يسألون ويتفرعون في السؤال ويشكون ويبذرون بذور الفلسفة المشككة، طلع علماء المسلمين بعقدية جافة حولت العقيدة من السياق الإنساني المتكامل عاطفة وعقلا ومحبة إلى جانب العقل، فمنذئذ يجب على المسلم أن يعتقد كذا وكذا. كل ذلك قمين أن يتناسب مع النظام في الدولة وأن يدمج الدين في العمل العام لما أصبح الدين جزءا من العمل لا كل العمل. واستقى الناس العقيدة من درس التوحيد لا من القرآن مباشرة.

ذهب ذلك الفيض النوراني الذي عاش في ظله الصحابة الكرام من الحياة العامة وانزوى في المساجد والرباطات، وبرز العلم الشرعي في ميادين القضاء وصرف شؤون الدولة. وتشعب العلم النبوي الموروث شعبتين، علم ظاهر هو علم السلوك العبادي والمعاملات وعلم إيماني تربوي سمي أصحابه صوفية.

فأما علماء الظاهر فاختلفوا في جزئيات الشريعة وانتهى الأمر في انتصار المذاهب الأربعة، واختلفوا في الاستدلال على الكليات فظهر المعتزلة وانتهى الأمر إلى انتصار عقيدة الأشعرية.

وأما أصحاب علم الباطن فكان منهم الشيعة الذين رفضوا كل ولاء إلا الولاء لأهل البيت من الأئمة المطهرين، وظهرت

علوم الصوفية أصحاب التزكية والذكر يأخذ الناس علمهم ميتا عن ميت ويأخذون علمهم عن الحي الذي لا يموت كما يقول إمامهم الجنيد رضي الله عنه. وللقاصر المنكر للتحديث الذي يختص الله به أولياءه كما للباحث عن طراوة الإيمان أن يرى في قول الإمام انكارا للإبتعاد عن المعين الإلهي للحق وهو القرآن والاشتغلال بالكلام. ولطالب الحق أن يتدبر علوم القوم عله يجد من أنفاسهم ربح المحبة الإلهية وذكر الله به يتميز من لهم بالإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة.

ومن بين أنصار الشيعة النبوية الصادقين وأهل الطريق نشأت رؤوس الفتنة الباطنية من المعطلة أعداء الدين ومن أصحاب التأويل. ما منهم إلا من يلتصق بأهل الحق ويظهر بمظهرهم.

أما الفلاسفة فقد اتخذوا لهم إماما جاهليا هو أرسطو، أعظموه لما رأوا آلاته العقلانية اللماعة في نظرهم. ومارس الفلسفة رجال مؤمنون فتفعلوا تفعلا شديدا في محاولة الصلح بين العقل والغيب، ومارسها آخرون في قلوبهم مرض فدسوا الكفر والإلحاد في صيغهم وأشكالهم الجاهلية، وبثوا في المسلمين بذور الوثنية العقلانية حتى نبغ منهم مجدد القرن الخامس الإمام الغزالي رحمه الله.

نشأ الرجل في بيئة الفتنة المتعددة الوجوه والألوان، فدولة وراثية اتخذت القرابة النبوية واجهة للاستبداد أدركها الغزالي وهي

في طور الانهيار، وفكر جاهلي طاغ متأله يمثل أشباه «إخوان الصفا» وانشقاق في الأمة مزمن يندس في شطريه الرئيسيين دعاة الباطل المتلبسون بالحق من باطنية كافرة ومتصوفة متسولة طفيلية منافقة.

درس الغزالي علوم عصره فنبغ في كلها وكان له صيت ومجد علمي. لكن همته كانت لا تقف عند حد وتتطلع للحق والسعادة واليقين. ما أقنعته الفلسفة الجافة الشاكة المشككة وما أقنعه المنقول الملفوظ من علوم زمانه. تكونت له إرادة فاستحق اسم مريد وذهب حيث يذهب المريدون يلتمس إسلاما حيا ويفتش عن رجل مؤمن يعلمه. وقص علينا الغزالي كيف أتاح الله له محبة «متبوع مقدم» على حد تعبيره وكيف ذكر الله بين يديه وكيف انكشف عنه حجاب الغفلة، وكيف جاءه العلم اللدني الذي يلوح به أحيانا ويفصح أحيانا وإن كان لم يبلغ في ذلك ما بلغه المتأخرون.

إن الغزالي وجه بارز من وجوه المؤمنين الداعين إلى الله المجددين، ومن فلاسفتنا المعاصرين من يتهمه بأنه كان سببا عظيما من أسباب تدهور المسلمين لأنه صرفهم عن الحياة العامة ودلهم على الخلاص الفردي التزكية الفدرية. ونخشى أن يكون تهافت هؤلاء أكثر من تهافت الفلاسفة الذين سبقوا الغزالي وعاصروه فاستحقوا

منه نقدا حارب فيه عالم المسلمين خصومه بأسلحتهم.

يفيدنا ونحن نبحث عن طريق للتجديد في عصرنا هذا عصر الفتنة المنتشرة كانتشارها ذاك أو أشد أن نختبر معالم التجديد عند الإمام علنا نتعلم من تاريخنا درسا. إن الفلسفة في عصرنا ولدت أجيالا من الفكر سميت علوما واستقلت وترعرعت حتى قويت بنظرياتها ومنجزاتها الجبارة. فيبدو أن للفلسفة بهذا المفهوم الواسع في عصرنا سطوة لم تكن لها من قبل، ويبدو أن مشروع نقد الرياضيات والمنطق والإلهيات مثلما نقد الإمام مشروع لن ننتهى منه لو شرعنا فيه حتى يفوتنا العمر وتفوتنا فرصة لقاء كلمة الحق. ونصرف جهودنا وجهادنا لتعلم الحكمة من بين وثنيات العقلانية.

وإن لقاء كلمة الحق لعمل فطري سنده الوحيد هو القلب الصادق المؤمن المتزكي. كتب الغزال كتبا كثيرة وبسط في إحيائه طريق التزكي وطلب الآخرة، اشتد في ذلك على نمط السلوك بالمجاهدة، وطلب الأسوة من رسول الله وصحبه طاويا أربعة قرون ونيفا، لكنه ما انفك تلميذا لأجيال الصوفية الذين سبقوه. أخذ عنهم الزهادة وأخذ عنهم الخلوة التي قد تمتد العمر كله. لكنه قال كلمة الحق وبلغها أحسن التبليغ حين دلنا على أصحاب الحق وأعلن أنه وجد الحق مع الصوفية بعد بحث وطلب جادين.

وقال كلمة الحق حين أثبت تباين العقل والغيب وأرشد إلى ضرورة خضوع العقل للغيب الذي هو طور ما فوق العقل. وقال كلمة الحق حين حدثنا عن تجربته بصدق وقال : «حدث لي كذا وكذا ورأيت كذا وكذا» ومثل هذه الشهادات قليلة في تاريخنا، لأن كثيرا من أصحابها يكتمون الأسرار مخافة فتنة الناس. ولو قد فعل كل جيل ما فعله أمثال الغزالي وسيدي عبد العزيز الدباغ الأمي والإمام الشعاربي لاحتفظ المسلمون باللب الذي لا تسعه السطور إلا إشارة ويسعه قلب العبد المؤمن الذي تصحبه فيصيبك من صدقه ما يصيبك وتتعلم منه إن ذكرت الله صادقا في طلبك.

قال الغزالي[1] : « ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها. والقدر الذي أذكره ينتفع به. إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سير أخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة. وليس وراء

1 المنقذ من الضلال ص. 131

نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

وقال1 : «اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفا بصحة الطريق. ومن لم يدركه بنفسه قط فينبغي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدا. ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات».

وجاء الغزالي بعد هذا الكلام بشواهد على إمكان التجربة الشخصية من القرآن والسنة وأخبار الصالحين من الصحابة والتابعين. وهو يدعو كما نرى إلى الصحبة والصدق في الطلب ويرجع للقرآن معرضا بعلماء الرسوم الذين يسميهم «المتوسمين من العلماء» وهم الواقفون عند الحرفية المنقولة الذين لا يعنيهم من الحق إلا رسمه.

بكل هذا يكون الغزالي رجلا يقول لا اله إلا الله ويدل عليها فله من سمات المجدد أمارات علمناها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وله من تأييد الله له حيث نفع به أجيالا عظيمة من المسلمين وخلد له في الصالحين ذكرا.

أما غناؤه في الإسلام وأثره في إحياء الأمة وبعثها من ركام الفتنة فغاية حاول بلوغها بوسائله وفي حدود ظروفه، فإن كان لم يبلغ أن يجدد الإسلام فينقل عمل المسلمين من المشروع الفردي

للمشروع الجماعي فمرد ذلك لانفراد الدعوة التي قام بها ولغياب الوازع السلطاني. فقد كان الخلفاء من بني العباس سادرين في غفلتهم لم يلقوا بالا إلى ما يعلمه الإمام من شروط الإمارة ولم يستجيبوا. وكان من رفقه رحمه الله أن عقد فصلا في كتابه «فضائح الباطنية» عنونه كما يلي : «الباب التاسع في إقامة البراهين الشرعية على أن الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته في عصرنا هذا هو الإمام المستظهر بالله حرس الله ظلاله».

في زمن فتنة خرج الغزالي من عزلته وخلوته بعد تردد وكتب إحياءه فضمنه نقدا لأحوال العامة والخاصة، ونقد الملوك والأمراء ونعى عليهم ظلمهم. فكان كتابه إرشادا خلقيا بقدر ما كان دعوة عامة لإصلاح الأمة. دعا رحمه الله إلى العلم والرفق وذكر في كل صفحة بضرورة تمريض القلوب وتطبيبها، ووضع أصبعه على موطن الداء المزمن منذ عصره، والذي استفحل منذئذ بالتكديس التاريخي لتراث الفتنة، وعندما افتقد أطباء للقلوب فلم يجد إلا طلابا للدنيا. قال [1] : «فإن الأطباء هم العلماء» للقلوب وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يتلفت إلى علاجه. فلهذا صار الداء عضالا، والمرض مزمنا. واندرس العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها، وأقبل الخلق على حب الدنيا

1 إحياء علوم الدين ج 3 ص, 20

وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادادت ومرآت».

وقال[1] : « بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفسد الملوك لفساد العلماء. فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم».

هكذا نرى أن الفتنة في عصرنا هي الفتنة دائما. ونرى أن ديدان القراء هم دائما عبدة الطاغوت، كان صنفهم يومئذ من العلماء وهم اليوم من علماء الرسوم ومن «المثقفين» ميتي العقل والهمة. ولا يزال الملوك والأمراء ومن في معناهم كما عرفهم الغزالي.

لم يلق الإمام استجابة من الناس، ولم يلق قيادة جهادية تتقبل الدعوة وتحملها كما حمل الأنصار الكرام دعوة رسول الله وجاهدوا عليها حتى انتصر الحق. وصبر الإمام طويلا ينتظر من أمثال المستظهر أن يهبوا لنصرة الإسلام فكان كنافخ في رماد. فلما طال به الانتظار وأعيته سبل الرفق، يبرهن تارة على أن المستظهر حق وينسب الفساد للملوك والأمراء تارة، حزم أمتعته ليرحل إلى مجدد العصر الكامل الذي لم يكن له علم الغزالي وكان له توفيق الله وكان له القلب الطاهر قلب المجاهدين في سبيل الله. إنه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. رباه الصوفية وأحيوا قلبه بصحبتهم الزكية. وذكر الله فخرج رجلا صادقا مجاهدا بعثه

1 إحياء علوم الدين ج 3 ص, 54

الله رحمة فأحيا الأمة كما سيبعث الله لنا إماما يوقظنا من الغفلة ويجدد لنا ديننا. فوعده الحق، وترقبه صدق، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

وتوفي ولي الله تعالى المجاهد أمير المسلمين قبل أن يلحق به حجة الإسلام وإمام العلماء. فرحمهما الله ورحمنا.

لقد قوي الرجلان على الفتنة واقتحما العقبة بصحبة الصادقين، ذاك ملك الدنيا فأهانها كما أهانها مولانا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهذا خاض تيار الفتنة من بين المرتزقة من ديدان القراء المتملقين ومن بين ملوك وأمراء متسلطين يفتي بأن أموالهم حرام كلها أو جلها، ويفضح نهب الوزراء وأرباب الدولة لمال المسلمين ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيض الله له وبه رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وخاض الفتنة كما خاض شيخه وهو السيد الكريم محمد بن تومرت. فبعد وفاة المجاهد العظيم ابن تاشفين عادت أمور الأمة لغي وفساد واستحال جهاد أمير المسلمين مزاحمة على الملك، وما قامت، خلافة نبوية دائمة بل قامت دولة بنت القصور وأفسدت الأمور فسلط الله عليها سوط العذاب بيد رجل لا زال التاريخ يجهله وإلى الشعوذة ينسبه، أعني محمد بن تومرت الذي تجد في كتب التاريخ من القدح فيه تحاملا فظيعا.

كلمات تخرق السكون

تمضي ثمانية قرون على المسلمين منذ الغزالي استمر فيها انحسار الإسلام عن ميدان العمل إلا في بقعة واحدة من بقاع دار الإسلام هي بلاد الدولة العثمانية. ثمانية قرون قيض الله فيها عباده الكافرين من التتار فاقتلعوا جذور الحضارة وأفنوا المسلمين، وأصاب الله بفتنتهم المظلوم والظالم جزاء وفاقا للأعراض المسلمة المنتهكة في القصور ولحرم الله التي أهينت. فلولا كان من المؤمنين أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض لما أنجى الله بفضله حشاشة من هذه الأمة. وإنها لأمة رسوله الحبيب، حقت لها شفاعته ولحقتها عناية الله بأهل بيته المطهرين.

ومن أهل البيت سلمان الفارسي ومنهم جند الله من المماليك العجم الذين كانوا يتلون آيات الله ويذكرون الله ويعظمون أهل البيت من أمثال الشيخ أحمد البدوي رضي الله عنه الذي كان الظاهر بيبرس يخرج للقائه بجنده يعظمه ويتبرك به. فلا عجب أن محق جند الله المؤمنون جنده الكافر. ولا عجب أن أسلم التتار على يد أهل البيت رجال الطريق الصوفية.

وكانت آية الله التالية بعد اندحار التتار ثم إسلامهم أن بعث الله من هؤلاء العجم البداة أمة مجاهدة كان درة عقدها ولي

الله تعالى المجاهد في سبيله سيدي محمد الفاتح العثماني.

لا عجب أن يكون ذلك كذلك، فإن محمدا العثماني كان امرءا صاحب الأخيار، ولم يفتح القسطنطينية إلا بإذن شيخه السيد الجليل « آق شمس الدين» أمره بأن يصوم وجنده ثلاثة أيام، ثم استفتح بالتكبير والتهليل، وخرت من بعد ذلك أسوار الجاهلية، وارتفعت في أنحاء أوربا الدولة أصوات مؤمنة دعت إلى الله ورفعت كلمته، إلى أن أترفت الدولة بطغيان المتكبرين، وإلى أن ابتعث الله عبده الكافر مصطفى كمالا فعاث في الأرض فسادا. وإن الله ليخضد شوكة الكفر في بلاد محمد الفاتح، وإن الأمة المسلمة العظيمة في بلاد الترك لا تزال قلوبها مؤمنة بربها ذاكرة لاسمه مترقبة ليوم يرفع فيه اللواء لتحمل الرسالة كما حملتها عدة قرون.

وفي القرون الثمانية ازدهرت حضارة في الأندلس حلق مجدها للثريا، وكان لها العلم وكانت لها القوة، ثم تحول كل ذلك فأصبح أثاثا ورئيا مما يحمله سيل التاريخ فيلقي به في المتاحف محنطا فتهفو عقول المسلمين لذلك المجد ولتلك الحضارة ولا تعتبر بالكارثة العظيمة التي جرها المترفون ملوك الطوائف على أمة الإسلام المستضعفة. ووطئ المسلمون في الأندلس بأقدام الجاهلية وضرسوا بأنيابها، وسيموا الخسف وأرغموا على الردة. فيا لهف نفسي

على المسلمين يومها ويا لهف نفسي على فتية عصرنا كالفراشات أغراهم لهب الجاهلية فهم فيه يتهافتون ! وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، له الخلق والأمر ولا اعتراض على قضائه. لكننا ندعوه وندعو أنفسنا، وا إسلاماه! .

ركد المسلمون بعد هذه القرون تحت تراث غني جدا وتحت عادات متراكمة جدا ترجع كل قوم لعصبياتهم فهي تربة خصبة للفكر الجاهلي والعنف الجاهلي، مستعدة، كانت، للاستعمار الذي بذر ويحصد. فأما العلماء فمقلدة يسدنون جثة الميراث الفقهي، وأما الحكام فعناصر من العث المزمن داؤه المعضل دواؤه، وأما الصوفية فصيروا الرباط زواية، وتمكن بذلك أصحاب البدع وأدعياء المرقعة والمسبحة من عقول الأمة وأموالها. يأخذون ولا يبذلون، ويهون عليهم أن يلبسوا الشارة ويتمتعوا بالأدعية مادام الأمر دعة وكسلا، وما دامت مفاهيم الزاوية أبعد الأفكار عن معاني الرباط والجهاد. عاد الصدق تدليسا وعادت الإرادة والطلب أحبولة لصيد المغفلين. ومن بين كل هؤلاء أنى لك أن تميز الصادقين ؟.

وقامت الدعوة الوهابية فهدمت الأضرحة وخربت التكايا وحرمت السبح. وكان ما كان مما لست أذكره، فلنحن إلى الجمع والصلح أحوج منا إلى غيره، وما يهمنا إن كان من المسلمين من

ينكر مقام الرسالة وينكر التوسل بجاه محمد صلى الله عليه وسلم وينكر أن يذكر اسمه بلفظ السيادة. إننا في حاجة لبعث إسلامي وإن كان لقاء الدعوة الوهابية بالقيادة المقاتلة قد حرر البلد الطيب وحماه من الأجنبي فلا يزال المسلمون يترقبون فيض القوة الذي يحررهم من الشرك حقا تحريرا يفرق بين الجاهلية والإسلام ولا يجعل بأس طائفة على طائفة يكفر هذا ذاك.

نعبر هذه القرن عبورا سريعا لنجد الفتنة في القرن الرابع عشر كالفتنة في عصر الغزالي، ولنترقب أمارات التجديد الموعود وآثاره بيننا.

وجد محمد عبه هذه الفتنة وتربى في أحضانها، فحفظ القرآن والتقى في فجر حياته بخال له صوفي مجرى أفكاره ونفخ فيه محبة العلم وطلب الحق. وكان هذا اللقاء أول عهد الشيخ بالصوفية وأول لقاء يذكره مدى الحياة. ولقي بعدها رجلا جاء من الشرق هامت حوله وحول دعوته العقول المسلمة منذ ما يقرب من قرن هو السيد الأفغاني. وتدور حوله اليوم شبهات لا شأن لنا بها إذ يكفينا أن نتبصر في عمل صاحبه وتابعه الشيخ محمد عبده.

استقر جهاد الشيخ آخر الأمر على محاولة إصلاح الأزهر وإصلاح التعليم بعد نضاله بجانب أستاذه وبعد خصامه له.

بدأ هذا النضال بدعوة الأفغاني الذي احتك بأوربا في مستعمراتها فأتى يبشر أمة الإسلام النائمة بمصر أن الموتى يبعثهم الله إن تحركوا بحركة كحركته. وكان الرجل داهية ذكيا، وكان قليل الورع طويل اللسان، فتبعه عبده وانفتح للشيخ الأزهري نافذة على العالم تفظي بضوئها من الجمود القديم، ورحل إلى أوربا مع أستاذه في مشروع بطولي لم يدرك الشيخ عدم جدواه إلا بالتجربة المريرة الطويلة، فعبر عن ذلك وعن أسفه على الجهود الضائعة إذ تمنى في أخرياته أن لو كان له عشرة مريدين يربيهم تربية صوفية، وإذن لكان لحياته مغزى ! وهيهات فما يربي التربية الصوفية إلا رجل ذكر الله بين يدي الصادقين حتى انكشف له ما انكشف للغزالي وأمثاله !

كان الأفغاني رجل سياسة خالط في مصر محافل الماسونيين، وإن لرجال السياسة اللابسين لها لبسوها لمعرفة بدخائل الأمور وحدسا يميزون به بين السمين الذي يتيح غنيمة وبين اليابس الذي يوهمك بطراوته ليمتص دماءك. فما بال الأفغاني يرتمي وسط الماسون ؟ وما باله بعد أن عادى محفله يؤسس محفلا ماسونيا للمسلمين ؟ أم ما بال تلميذه بعد ذلك يؤسس جمعية رغم أنها تقرب بين الأديان؟

إن دين الله لواحد، فأما أن نوحد اليهودية المحرفة التي

أحالت دين الله الموحى به لنبيه موسى بضاعة مفتراة ونوحد المسيحية المطهرة التي جعلوها وثنية ثالوثية بإسلام المناسبات الذي انحسر عن العمل وأصبح نفاقا اجتماعيا فذلك جائز. وأما أن نظن أن دين الله يكون دين الله والعقول والأيدي تتناوله بالتأويل والتقليل فعسير فهم ما يبعثه خاصة من لدن رجل عالم تربى بالأزهر.

سافر الرجلان لباريس وأسسا صحيفة تحمل اسما إسلاميا براقا هو اسم «العروة الوثقى». وكان للصحيفة صدى وكان لها وللفكر الذي نشرته أبعد الأثر في النهضة العربية المعاصرة لندع ما اقترفه الشيخ عبده رحمه الله من تأويلات للغيب ومن تأويل في القرآن فإن ذلك مما يغفره الله إن شاء لمجتهد لم يفتح عينه من نومة القرون إلا على وهج الجاهلية في أوربا عالية مستكبرة تناطح النجوم بعجرفتها العلومية في أواخر قرن الفلسفة الوضعية فبهرته. ولنتأمل هذا الفكر الجديد الذي في الصحيفة حيث فكر الأفغاني ببيان الشيخ. هذا الفكر سيطر على التلميذ مدى حياته رغم خصامه لأستاذه. وهذا الفكر هو الأصل لكثير مما نراه من نزعات القومية ومن سوء فهم للإسلام في عصرنا. ولئن كانت فلسفة عبده الكلامية في «رسالة التوحيد» كلمة جديدة بعد سكتة القرون، فإن الصحيفة الباريسية كانت تحمل كلمات كثيرة

حديثة العهد بجاهليتها صيغت لآذان عربية مسلمة. وقبلها كنت لا تسمع هذه الغنة القومية في الكلمات الإسلامية.

افتقد الأفغاني وتلميذه الشيخ في واقع المسلمين روح الجماعة فما سمعوا نأمة، وحدثوا قراءهم عن المجد الغابر وعن دولة المسلمين الذين : «دمروا بلادا ودكدكوا أطوادا ورفعوا فوق الأرض أرضا ثامنة من القسطل (غبار الحرب) وطبقة أخرى من النقع (هو القسطل)، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة. وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا، إلا اعتقاد بالقضاء والقدر»[1].

كان تحليل المستشرقين لتدهور الإسلام يعيد الأسباب للعقيدة بالجبر، وتنسب كسل المسلمين ووهنهم إلى سلبية العقيدة. فجاء رد الصحيفة عنيفا مزمجرا يثير نقع القوم الأولين، يرجو بذلك أن يجدد للراقدين حياة. رجل صفحات العروة على هذا النمط من ذكر الأجداد الفاتحين الأقوياء.

ولعل تعيير الأحياء بالأموات، وتعيير الحاضر بالماضي كان يثير إيمانا ويجدد عزما، لو دخل في سياق إسلامي منسجم مع داعي التربية وتطبيق الجسم الإسلامي المريض. لكنه لم يثر إلا

1 العروة الوثقى، 4 رجب 1301 - فاتح ماي 1883

حمية وعصبية كان منها هذه النهضة التي حمل لواءها الشيخ رشيد رضا في مناره، وتحولت عبر فكره دعوة إسلامية أكثر وضوحا من دعوة الشيخ عبده وأستاذه. كان الجيل الثالث مع السيد رشيد رضا يسمي الدعوة سلفية، وأهم معالم هذه السلفية الرجوع إلى العهد الأول، وهذا شيء جميل لأنه لا يقف مع النقع والقسطل وإنما يحاول أن يستمد من المعين الأصيل. بيد أن هذه السلفية إنما بنيت في الواقع على أساس فكر الشيخ عبده فصاغته صياغة «تناسب العصر» وأولت القرآن وتخففت عن ذكر الغيب، وجردت العقيدة الإيمانية بالله ورسله وملائكته وجنته وناره من عالم الإنسان لتضعها في عالم تأملي بحيث يتاح لها أن تحاج المستشرقين تدافعهم عن الإسلام بمنطقهم. ورحم الله الأستاذ رضا وجازاه بنيته عن المسلمين، فقد جاهد جهاد المؤمنين. ولسنا ندري ما يتحمل من نصيب في توجيه إسلام الجيل الرابع جيل العقاد. كان جيلا مفتونا رجع بعضه للإسلام ليتغنى «بالعبقرية النبوية» ضمن العبقرية العربية ولا غيب ولا روح. وهؤلاء مسلمون أقرب إلينا من أصحاب الجامعة الملحدين الأكمه منهم والأعمى. هم أقرب إلينا وإن يكن منهم عبد الرزاق وخالد محمد خالد.[1]

أدرك محمد عبده أن النفوس والعقول في دار الإسلام مريضة

1 ثم تاب خالد من بعد

فما وصف العلاج وإنما انتظر أن تدفع العقيدة المسلمين لعمل جاد. ولم يسأل أين العقيدة ؟ لم يضع السؤال على صيغته الحق: هل نحن مسلمون؟ فقد كانت من المسلمات عنده وعند من جاءوا بعده أننا مسلمون ضربة لازب، وأن الإسلام ليس إلا الإسلام الفردي، ولا يجمع الجماعة إلى العصبية كما ينص على ذلك أصحاب الصحيفة بإلحاح شديد. تقول الصحيفة[1] :

«ولكي أقول، وحق ما أقول، أن هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم. وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة (هكذا)، ويعود الأمر كما بدأ وينشطوا من عقالهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في إنقاذ بلادهم، وإرهاب الأمم الطامعة فيهم وإيقافها عند حدها».

إن هناك أمراضا وعللا، وستذهب إن أنشأنا علاقة عصبية تساعد رباط العقيدة وتدعمه، ولتبق حقائق الإيمان عند العلماء الراسخين ! هكذا نفهم وهكذا فهم الجيل الرابع.

خصصت الصحيفة مقالها الرئيسي في أحد الأعداد[2] لتتحدث للمسلمين عن التعصب ومزيته، ومعنى التعصب في لغة العصر القومية ووصف العصبية في الحديث النبوي أنها

---

1 نفس العدد

2 28 جمادى الثانية 1301 - 24 أبريل 1884

منتنة. تقول الصحيفة : «فالتعصب وصف للنفس الإنسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه... هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب وأقام بناء الأمم. وهو عقد الربط في كل أمة بل هو قوة الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد، وينشئها بتقدير الله خلقا واحدا كبدن تألف من أجزاء وعناصر تدبره روح واحدة ...كلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب ورثت الأطناب، ورقت الأوتار، وتداعى بناء الأمة إلى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية إلى الفناء، بعد هذا يموت الروح الكلي (يقصد روح الجماعة) وتبطل هيئة الأمة وإن بقيت آحادها فما هي إلا كالأجزاء المتناثرة. أما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون وأما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الآخرة. سنة الله في خلقه : إذا ضعفت العصيبة في قوم رماهم بالفشل».

وهكذا فتركيب الأمة المسلمة كتركيب سائر الأمم، رباطهم العصبية بقوام المزاج الصحيح. وبعث الإسلام لن يكون إلا بتجديد عصبية كما ذهب ريح المسلمين لفقدان العصبية، وفي هذا الوادي هام المسلمون ويهيمون.

يرحم الله الشيخ الأزهري فإننا لا نتهمه في إخلاصه، ونعذر

قصوره عن مرتبة المجددين، فقد فاته صحبة الرجال وما يبقى لنا إلا تأسفه آخر حياته على عشرة يربيهم بدلا من الملايين التي خاطبها من منبره بباريس خطابا ملتهبا بالحماس والغيرة لا يتعدى مع ذلك نطاق الفكر لعصره ولا يطلب إلا لحاقا بالأمم على نسق بنائها وبحافز التعصب على غرار حوافزها. ووراء كل هذا الجهاد حنين إلى النقع والقسطل والمجد الغابر، ولا تزال هذه الأمة تنتظر من يجدد لها إيمانها بلا إله إلا الله ويبدئ لها نشأة جديدة بالتربية الصوفية التي انتهى إلى ضرورتها الشيخ الجليل رحمه الله رحمة واسعة ورحمنا. وقد آن الأوان والله المستعان.

من يجدد ؟

في السنة الأولى من القرن الرابع عشر ارتفع نداء من دار الفكر حرق سكون الفكر الإسلامي المزمن. وكان صوتا جديدا حقا وإن كان لا يتميز عن الجاهلية إلى بماض مجيد وعصبية تناطح العصبيات. وذهب قومنا العرب كل مذهب من بعد الشيخ عبده ونبغ منهم من ثار على الدولة العثمانية المريضة فزادها مرضا وضعفا، ونبغ منهم الملحدون وأصحاب الإسلام القوي العبقري. وفي دار الإسلام ببر الهند برز رجل يحمل القلم ويتحدث عن الإسلام بنصاعة وقوة يثبت بذلك أن الإسلام ما كان قومية ولا عصبية ولن يكون، وإن الله عز وجل لا يرضى لأمة رسوله أن تحمل لواء التفرقة العنصرية في أية حلة جاءت وتحت أي شعار.

هذا هو الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي صاحب الجماعة الإسلامية بباكستان. تحرر من الفكر «الإسلامي العصري»، الذي حمل رايته السيد أحمد خان كما حمل رايته الأستاذ رشيد رضا في أرض العرب وفي كل أرض، تحررا جزئيا. بقي لديه الجهل المطبق بالتربية الروحية والصحبة، وعمم الشكوى من الصوفية ولم يستثن إلا أصحاب الرموس من أمثال ولي الله تعالى سيدي أحمد السرهندي وسيدي ولي الله الدهلوي. وكان صاحبنا لا يرى العصر إلا بنور

العقل، فهو يدعو لما يسميه «بالقومية الفكرية»، يعتبر الإسلام فكرة واقتناعا عقليا منطقيا، وينسجم هذا في ذهنه وكتبه مع الإيمان بالله وغيبه ومع التمسك الشديد بالسنة، فيما نقرأ.

وإن من العسير جدا أن تقول لمعاصريك كلمة لا تدري أتنفع وتلم الشعث أم تجرح وتسبب الفرقة. سيما والمسلمون اليوم أضعف ما كانوا، فهم في غنى عن التنافر والتدابر. لسنا ننكر فضل الرجل وسابقته في الدفاع عن الإسلام ولن يضيع الله أجر المخلصين. لكننا نبحث كما يبحث رجال جماعة المودودي، على ما قص في أحد كتبه، عن روحانية الإسلام الأول : أين هي وكيف تكتسب؟. وقد رد المودودي على أصحابه أن حنينهم إلى الزوايا وأصحابها إنما هو قناعة بالركود والجهل، وأن عقد الرباط مع الله في وسع كل امرىء يتخفى بنوافله ويتلو كتاب ربه، وكتب في هذا كتيب سماه : «تذكرة دعاة الإسلام».

الإسلام كقومية فكرية يستلزم صحبة فكرية وجماعة فكرية. ذلك ما كنت تفهمه من الكتب السابقة للسيد الجليل. وإن كان في خلال كتبه يتبين أن عند الرجل إدراكا لمقومات الخلق الإسلامي والجهاد منافية لأصحاب الإسلام الثقافي السياسي أمثال جماعة النبهاني صاحب «حزب التحرير». في كتاب «تذكرة دعاة الإسلام » تحدث السيد المودودي عن الإسلام الفردي

والجماعي وعن مقومات الجهاد حديثا يسلينا عن ألم الدعوات القومية ويمسح نكاثها، ثم لا يضع إصبعنا على نقطة البداية بل يدع لكل امريء أن يجتهد ويربي نفسه.

ليس في كتب الشيخ الوقور ما ينم ولو من بعيد على أنه ولو مرة في هذه الشهادات التي قدمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثته، وفصلها لنا القرآن، والتي تتلخص في أن العبد إن تزكى وذكر اسم ربه فصلى يحبه الله ويكمله ويلحقه بالملأ الأعلى ويصبح سمعه وبصره، ويخلده مع النبيئين والصديقين. هؤلاء الصوفية شهدوا ولا يزالون يشهدون أن ما وعد الله المتقربين إليه ينجزه لهم وعدا غير مكذوب إن سلكوا الطريق وعثروا على الرفيق. هؤلاء الصوفية شهدوا ولا يزالون يشهدون أن الله عز وجل يفتح على عبده المتزكي في دار الدنيا فيرى ويسمع ما لا يراه ولا يسمعه الغافلون، ويلهمه الله عز وجل ويحدثه تحديثا ويوفقه توفيقا. هؤلاء الصوفية أطوارهم غريبة : إن تقواهم وزهدهم وأخلاقهم وكرامتهم المتصلة الواصلة بعالم الغيب خبر متواثر وواقع حاضر، لكن ما بالهم قابعين في الزوايا، وما بالهم لا يعرف الدخيل منهم والأصيل؟.

ومن كان طالبا للجهاد يتعذر عليه أن يهتدي إلى جلية الأمر حتى ولو كان أمامه مثال الجماعة المؤمنة من «رجال التبليغ»

المجاهدين الذين يحاكون بتقللهم وصبرهم وهجرتهم الجماعة الأولى. ومن كان كالشيخ المودودي العامل في حقل الدعوة منذ خمسين سنة أو يزيد، فإنه يجمع لنا علما غنيا باجتهاده ويؤثل لنا تجربة عملية سياسية، فيها الكفاح والنضال والإخلاص، لكن فيها أيضا ما يقتضي أن تتخزب الجماعة وتنتخب امرأة ضالة أو كافرة لرئاسة الجمهورية.

لنأخذ من السيد المودودي علمه، ما نتعلم منه ونعتبر بعد اعتبارنا من كفاحه بأن الإسلام المتحزب مع الأحزاب، يقبلها ندا ويقبل أسلوب عملها أسلوبا، لا يؤدي إلا لانشقاق المسلمين وضياعهم في غيابات الفتنة. مالم نوضح للشعب فرق ما بين الديمقراطية اللائيكية التي تتمذهب بها الأحزاب وبين الشورى التي هي مذهب الإسلام.

يقول السيد في وصف الجماعة المؤمنة بعد أن ذكر الصفات الفردية للمسلم يلخصها في حديثه صلى الله عليه وسلم حيث قال : « أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرة، وأن آمر بالمعروف وأنهى

عن المنكر.» يقول بعد هذا[1] : « وعلاوة على الصفات الفردية المذكورة آنفا، فإننا نحتاج إلى نوع آخر من الصفات والأخلاق لتأسيس حياتنا الجماعية والمحافظة عليها، إنه مما لا غنى لنا عنه لإحكام نظام جماعتنا والزيادة من تماسكه ونفعه، أن يكون بين أعضائنا التحاب والتواثق والتعاون وأن يكونوا معتادين للتناصح والتواصي بينهم بالحق والصبر ليتقدموا بأنفسهم، ويقدموا معهم غيرهم في سبيل الدعوة. إنه لا غنى عن هذه الصفات لنظام أي جماعة في الأرض، وإلا فلو تخلق كل فرد في ذاته بأعلى ما يكون من الصفات الجميلة والأخلاق المحمودة، ولكن بدون أن يكونوا مرتبطين بينهم متخلقين بالصفات الجماعية المذكورة، فإنهم لا يستطيعون أبدا أن يقوموا في وجه الباطل ويقارعوا أهله مقارعة الند للند.»

ما أحسن هذا الكلام وما أبعدنا عن دعوة العصبية ومماثلة الأمم في نشأتها وتكوينها ! إن هنا حديثا عن المحبة والتواصي والتناصح، وفيه تميز الباطل عن الحق يسمى باطلا يقارعه الحق الإسلامي. هذا كلام مشرق، وفيما يتلو من هذا الفصل يذكر الشيخ بأن كثيرا من المسلمين يتحلون بصفات صالحة لكنهم لا يقوون على تكوين جماعة. ويقول : «وأقول إن الذين قد ارتقوا

1 تذكرة دعاة الإسلام، الترجمة العربية ص, 48.

إلى الأعلى منزل الصلاح الفردي، فإن غاية ما جاءوا به أن أثروا بسيرتهم على بضع مآت أو بضع آلاف من الأفراد ثم مضوا إلى ربهم تاركين وراءهم آثارا تدل على تقدسهم وعلو سيرتهم، ولكن لا يكفي هذا الطريق لأن تتم به أعمال اجتماعية كبيرة».

جلي جدا أنه يعني المشايخ الصوفية من أمثال من يذكر فضلهم في كتابه «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه». ما رأى إلا أصحاب الزاوية الصالحين ولم يعرف المجاهدين المؤمنين عمار الرباطات الصوفية، وهو يؤرخ حياة جهادهم ! وهكذا يتعذر على علماء المسلمين الأجلاء في عصرنا كما تعذر عليهم فيما مضى إلا قليلا الجمع بين الصلاح الفردي والتزكية الفردية وبين الحياة الجماعية والجهاد الجماعي، والكتاب المذكور يقدمه عالمنا بوصف واسع للجاهلية وخصائصها ويذكر كيف بلي إسلام المسلمين وكيف أنشبت فيهم الجاهلية رجسها، ويصف جاهلية عصرنا ليمهد لحديثه عن التجديد في العصور الإسلامية الماضية وعن خصائص المجدد. وذكر من المجددين عمر بن عبد العزيز والأئمة الأربعة، والغزالي وابن تيمية والشيخ السرهندي وولي الله الدهلوي والشيخان أحمد وإسماعيل الشهيدان. ونحن نضع معه السؤال عن المجدد، وكيف هو ومن أين يأتي وما يعمل وكيف يعمل، إن كان الشيخ قد اهتدى إلى أن تكوين الجماعة لا بد من مجدد يجمع

القلوب والهمم على المحبة والتواصي بالحق فقد أصاب واهتدى، لكن من يجدد ؟ وما هو التجديد؟

يذكر المودودي الفرق بين من يجدد في الدين وبين تجديد الدين فيقول[1] : «التجديد لا يكون عبارة عن التماس الوسائل لمسالمة الجاهلية ولا هو عبارة عن أعمال خلط جديد من الإسلام والجاهلية، بل التجديد هو تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل على إحيائه خالصا محضا على قدر الإمكان ومن هنا يكون المجدد أبعد ما يكون عن مصالحة الجاهلية، ولا يكاد يصبر على أن يرى أثرا من آثارها في أي جزء من الإسلام مهما كان تافها».

وفي نفس الصفحات يعرف الأستاذ المجدد بذكر خصائصه ويضع برنامج التجديد وخطواته. وهو تارة يشير إلى ضرورة أن يكون المجدد ذا روحانية عالية « مزاجه أقرب إلى مزاج النبوة». وتارة ينسى الربانية والتربية الروحية فيجعل وظيفة المجدد أن يبعث «العقلية الإسلامية الخالصة». وبهذا يكون الأمر عنده فكرا في فكر. وليس يدرك معنى الروحانية من لم يسلك إليها الطريق ولم يقتحم إليها العقبة فيجلس تلميذا بين يدي رجل يعلمه المحبة ويعلمه الإحسان ! على أن الرجل رحمه الله وأمثاله من علمائنا

1 موجز تجديد الدين وإحيائه ص, 52 وما بعدها.

جبال راسخة من الإيمان رحمهم الله ورفع مقامهم.

يقول الأستاذ : « إن المجدد لا يكون نبيا، ما في ذلك شك، ولكنه يكون في طبعه ومزاجه أقرب إلى مزاج النبوة. ومن الخصائص التي لا بد أن يتصف بها المجدد: الدهن الصافي، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج، والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد من تأثير الأوضاع الراهنة والعصبيات القديمة الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف، والأهلية الموهوبة للقيادة والزعامة، والكفاية الفذة للاجتهاد ولأعمال البناء والإنشاء. ثم كونه – مع ذلك كله – مطمئنا قلبه بتعاليم الإسلام، وكونه مسلما حقا في وجهة نظره وفهمه وشعوره، يميز بين الإسلام والجاهلية حتى في جزيئات الأمور، ويبين الحق ويفصله عن ركام المعضلات التي أتت عليها القرون. فهذه الخصائص التي لا يمكن أن يكون أحد مجددا بدونها. وهي الصفات التي تكون في الأنبياء والمرسلين مكبرة مضاعفة».

لنمض مع الرجل فنقرأ أن من المجددين من يكون كاملا وهو مقام لا يبلغه أحد في نظر الأستاذ منذ ظهر الإسلام إلى الآن، وقد كاد في نظره أن يكونه عمر بن عبد العزيز. وللأستاذ بعد هذا كلام جميل في حاجة المسلمين إلى رجل مهدي الأمة في

انتظاره، وله نقد صالح للعقيدة الشعبية التي تتصور أن المهدي سياتي من تكايا الصوفية بعمامته وسبحته يقارن العلماء أوصافه بما عندهم من أخبار عنه، وتخر لرؤيته الدبابات العدوة. ويقول بعد هذا : «فالذي أقدره وأتصوره أن الإمام المنتظر سيكون زعيما من الطراز الأحدث في زمانه بصيرا بالعلوم الجديدة بصر المجتهد المطلع، ويكون جيد الفهم لمسائل الحياة، ويبرهن للعالمين رجاحة عقله وفكره وبراعة تفكيره السياسي، وكمال حذقه لفنون الحرب، ويبذل كل أبناء زمانه الجهد في تقدمه وارتقائه. وإني لأخشى أن حضرات المشايخ ورجال الدين هؤلاء هم يكونون أول من يرفع النكير على رجحانه إلى الوسائل العصرية وعلى طرقه المحدثة للإصلاح».

ويفصل الأستاذ بعد هذا شعب التجديد كما يلي ملخصا من نصه :

1. تشخيص أمراض المجتمع الإسلامي الموروث وتبين مواقع الجاهلية في حياة الناس وكيف سرت عدوى الجاهلية إلى المسلمين.

2. تعيين مواضع الفساد التي ينبغي أن تعالج بالشذب والضرب لكي تزول غلبة الجاهلية. ويحدد في هذه النقطة ما نعبر عنه نحن باللفظ المأثور : العمل بوازع السلطان.

3. اختبار المجدد نفسه وتعيينه حدود عمله، وتقديره قوته

ومقدرته، واختيار الناحية التي يرى نفسه قادرا على إصلاح الأمر منها» هكذا بلفظه.

4. «السعي لأحداث الانقلاب الفكري والنظري، أي تغيير أفكار الناس وطبع عقائدهم ومشاعرهم ووجهة نظرهم الخلقية بطابع الإسلام. وإصلاح نظام التعليم والتربية، وإحياء العلوم والفنون الإسلامية، وبالجملة بعث العقلية الإسلامية الخاصة من جديد!»

5. محاولة الإصلاح العملي، وذلك كإبطال التقاليد الجاهلية وتزكية الأخلاق وإشباع النفوس حبا لاتباع الشريعة من جديد، وترشيح رجال يصلحون أن يكونوا زعماء من الطراز الإسلامي

6. الاجتهاد في الدين وتغيير طرائق التمدن القديمة « يضمن للشريعة الإسلامية روحها ويمكن الإسلام من إمامة العالم في رقي المدينة الصحيح!»

7. «الكفاح والدفاع » لنصرة الإسلام «ومعناه مناضلة القوى السياسية الناهضة لاستئصال الإسلام».

8. نزع السلطة من أيدي الجاهلية لتقام خلافة على منهاج النبوة كما جاء في الحديث الشريف.

9. إحداث الانقلاب العالمي الذي يسود فيه الإسلام وحضارة الإسلام العالم كله.

كل هذا لا نجد فيه ذكرا للروحانية القوية لصاحب التجديد فإن أهم خصائصه في نظر الأستاذ الكفايات الفكرية العملية والتفوق على الجيل بعمق الإدراك ووضوح الرؤية. ولا نجد في هذا أثرا للربانية التي ننشد فيها الكمال الروحي أساسا وفيها الكفاية الفكرية المتعلمة وفيها الرفق المربي. ولقد كتب المودودي غير هذا كتبا تناول فيها البحث عن السبيل لإحياء الإسلام، وكلها تنصب على التجديد الثقافي وتغيير العقلية كما يعبر، وبجانب هذا دعوة للتمسك بالشريعة والمنهاج النبوي. ولو عرفنا ما هو المنهاج النبوي وعثرنا على ربانيته وسمته وتؤدته واقتصاده لكنا خطونا خطوة نحو التجديد. ويكثر المودودي من استعمال مفهوم «الانقلاب» وهو مفهوم أجنبي عنا لأنه نشأ من الممارسة الجاهلية ففيه ريح العنف وريح الإظطراب.

ونتعلم من عالمنا الجليل إيمانه بأن القيادة المشخصة في رجل ضرورة أساسية لتجديد الإسلام. نتعلم منه وإن كان ينقصه التجربة الشخصية التي تعلمه معنى المنهاج النبوي. ونتعلم منه انتظاره لرجل مهدي يصلح الله به أمر هذه الأمة حتى يظهر الإسلام على الدين كله كما بشر بذلك القرآن الكريم، يقول : « إذا كان الأنبياء السابقون قد بشروا أممهم —كما بشر خاتم النبيئين صلى الله عليه وسلم أمته بأن الإسلام ليكونن دين العالم

كله قبل أن تنتهي فيه حياة النوع الإنساني، وإن الإنسان بعد أن يجرب خيبة الأنظمة الوضعية ويعاني عواقبها الوخيمة، يضطر في آخر الأمر إلى أن يفيء إلى النظام الذي وضعه الله تعالى للحياة، وأن هذه النعمة ينالها الإنسان بفضل زعيم جليل القدر يعمل على شاكلة الأنبياء وينفذ الإسلام في صورته الأصلية تنفيذا كاملا». قال : في صورته وأين معاني القلب وطبه وطهارته وتربيته مما نجد فقهه عند أمثال الغزالي؟ رحم الله الجميع.

وبعد فإن الله جلت قدرته لا يبخس المجاهدين أجرهم، وليس ذنب المودودي عالم المسلمين المجاهد غير القاعد أن يكون تراث المسلمين ثقيلا وأن يكون من بين من يسمون صوفية من اعترف بفضلهم في التاريخ وحاربهم في الآن ومن هم أدعياء وقاصرون.

الإمام البنا

يذكر السيد أبو الأعلى المودودي أن المجدد الحق قد لا يعلم أنه مجدد وقد يدعي ذلك المقام كما ادعاه الشيخان السرهندى والدهلوي. وقد برز في القرن الثالث عشر رجال جددوا للناس من أمور الدين، فكان الشيخ محمد بن علي السنوسي علم ذلك القرن وانتشرت رباطاته في أنحاء افريقيا، وربى المؤمنين وعلمهم وفاض خير السادة السنوسية على هذا القرن فكانوا في ساحات الجهاد المقاتل رجالا كما كانوا في جهاد الدعوة والتربية. وبرز في القرن الماضي الشيخ المهدي السوداني جدد للناس إيمانا وقوة وجهادا في الوقت الذي كان الأفغاني ينشر أخبار جهاده في الصحيفة بلهجة حيادية متفرجة. وكان المهدي رحمه الله من هؤلاء الصوفية المحيرين بأصالتهم وغرابتهم، لكنه جاهد واستحق بذلك ذكرا في الصالحين، وأن ما نقل عنه من أخبار وما آل إليه اتباعه من بعده لتاريخ إسلامي لما يكتب. ولما يكتب أيضا تاريخ المجددين المجاهدين سيدي أحمد بن عرفان والشيخ إسماعيل الشهيدان اللذان حاربا انجلترا في الهند بعد أن خنعت البلاد كلها تحت وطأة الكافر.

كل أولئك كانوا صوفية كما كان رجال الجهاد والتجديد في

تاريخ الإسلام. وبالروحانية العالية كان عمر بن عبد العزيز رجلا، وصلاح الدين وابن تاشفين والملك الصالح المكير. وكان أولى أن نتدبر عمل السنوسية العظيم وتربيتهم لولا ما يعطينا الإسلام الفكري عند عبده والمودودي من دروس هي في إيجابيتها أقل إفادة منها في سلبياتها. ولن يفوتنا شيء من جهاد الصوفية وتربيتهم وعلمهم إذ سنجد كل ذلك في أبهى صوره عند رجل لم يدع تجديدا ولا مقاما ولا ادعاه له أحد، وإنما نزل على هذه الأمة كما تنزل الرحمة، خفيف الحاذ في تواضع الأنبياء وروحانية الصديقين وجهاد الصادقين. هذا الرجل هو علم هذا القرن وإمامه سيدي حسن البنا رحمه الله رحمة واسعة ورضي الله عنه.

قضى البنا عشرين سنة في جهاد الدعوة ومجاهدة الفتنة، فأنار أثناء ذلك القلوب وأنار العقول وجمع الله به مؤمنين، وربى الله به شبابا خرجوا على الناس بسمتهم وإيمانهم وصدقهم، والإسلام في غربته، وضربوا مثالا للنجاعة في أمة متخاذلة فاشلة، وضربوا مثالا للقوة في أمة ضعيفة عنيفة، ونشدوا العدل في أرض طغى فراعنتها وامتصوا أموال الناس ودماءهم وأعراضهم. وكان الخطب عظيما على كل مسلم في الأرض لما قتل الطاغوت الفرعوني إمام الإخوان المسلمين وحين تكالب على الجماعة من بعد ذلك الطاغوت البطولي الظالم المظلم يقتل ويشرد.

وليس تمحو يد الظالمين ما سطرته العصابة المؤمنة في تاريخ هذه الأمة المعاصر من جهاد وصدق، وسيشع لنا من تجربة الإخوان المسلمين نور يومض لنا مشيرا أن الإسلام ممكن وأن المؤمنين هم الرجال إذا حدب الأمر ودعا داعي القتال، وهم الرجال إن عز العاملون ودعا الأمر لبناء الاقتصاد. وهم الرجال لرحمة البائس الفقير والعناية باليتيم والمحروم. فقد كانت للجماعة يد بيضاء في كل ساحة للعمل، ويحمنا الله بفضله حتى لا يضيع الدرس من بناء الإمام وجماعته بين جهل الجاهلين وتأويل المؤولين.

وأول درس من حركة البنا هو أن دعوته لم يكن يدعمها فكر ناضج لأن البنا بدأ دعوته بثقافة معلم ابتدائي لا يسعه بها إن يطاول قدوم مصر وفراعنتها الثقافيين، ولم يكن يدعمها جاه ولا مال لأن الشاب الصالح في الثانية والعشرين من عمره بدأ الدعوة في مدينة هو فيها غريب فقير، ولم يكن يدعمه سلطان إلا سلطان الروحانية الصافية التي بها يقول العبد : ربي ! فيجيب الرب عز وجل : عبدي !

كان صوفيا صحب الرجال وبايع الشيخ وتتلمذ للذاكرين وسافر مع الذاكرين وزار أضرحة الأولياء، وجالس المؤمنين، وحظي بدعوات الصالحين، وفصل كل ذلك في مذكراته.

وكان بعذئذ مربيا صوفيا وضع لجماعته مأثورات يتلونها وظيفة

في مجالس الذكر، واتخذ لهم وردا وألح في كل مناسبة على الرابطة الروحية بين أعضاء الجماعة.

وهذا ما لا يكاد يدركه حتى أصحاب البنا أنفسهم لأن من رفقه رحمه الله ومن حسن اجتهاده أنه كان يعرف جماعته بأنها جماعة إسلامية ثقافية رياضية وما يشبه هذا من ضروب النشاط ويجعل النعت الصوفي واحدا من نعوتها من بين صفات أخرى يفهمها الناس بلغة العصر على أنها حركة وجهاد وعلم ونشاط ومشاركة في الحياة العامة.

كان من رفقه رحمه الله ومن حسن اجتهاده أنه تنصل من جل المصطلحات الصوفية ليتجنب مواطن الغلط في ذهن أصحابه ومريديه الذين لا يعرفون من الصوفية إلا تكايا الانعزال وحرفة أصحاب الأسمال. ورجع رحمه الله للكتاب والسنة فيما يخطب ويكتب ليتكلم بلغة جهادية هي لغة القرآن طاويا تاريخ الإيمان والإحسان في زمن الفتنة الذي أصبح الصوفية أثناءه، القاعدون منهم، يتحدثون بلغة المناقب وتأمل كرامات السابقين، يكتبها اللاحقون بغير دارية فتفوتهم العبرة في حياة الأولياء من حيث تزكيتهم لأنفسهم وطلبهم لربهم بالفرض والنفل والاستقامة على الطريقة.يقول البنا رحمه الله في مذكراته تحت عنوان «رأي في

التصوف»[1] : «وطرأ على هذه الحقائق (حقائق الإيمان والإحسان) ما طرأ على غيرها من حقائق المعارف الإسلامية، فأخذت صورة العلم الذي ينظم سلوك الإنسان ويرسم له طريقا من الحياة خاصا: مراحله الذكر والعبادة ومعرفة الله، ونهايته الوصول إلى الجنة ومرضاة الله.

وهذا القسم من علوم التصوف، وأسميه «علوم التربية والسلوك» لا شك أنه من لب الإسلام وصميمه، ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها، والطب لها والرقي بها، لم يبلغ إليها غيرهم من المربين...

ولكن فكرة الدعوة الصوفية لم تقف عند حد علم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيرا لها وللناس، ولكنها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها. فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة، ليدخل من هذا الباب باسم التصوف والدعوة إلى الزهد والتقشف والرغبة في الحصول على هذه النتائج الروحية الباهرة. وأصبح كل ما يكتب أو يقال في هذه الناحية يجب أن يكون محل نظر دقيق من الناظرين في دين

1 مذكرات الدعوة والداعية ص, 15.

الله والحريصين على صفائه ونقائه.»

ودعا الشيخ البنا بعد هذا للالتقاء العلماء والواعظين بالصوفية ليبحثوا عن منهاج ليردوا الأمة إلى سواء السبيل، وتفاءل خيرا. لكن من يسميهم بعض الناظرين «صوفية الحقائق» هؤلاء الذين يتكلمون الكلام المعمي ويدخلون الشك في عقائد المسلمين لا تزال لهم سوق رائجة كما للمحترفين الأدعياء. أولئك بضاعتهم ورقات خلفها رجال الله العلماء يقرأونها قراءة محرفة بنفوس عكرة فيقرأون كفرا وينطقون كفرا، وهؤلاء، بضاعتهم الاسم والشارة والمسبحة والعمامة. وكل يسبحون في فلك الكسل والجهل والمرض المزمن في هذه الأمة، مرض حب الرئاسة والظهور.

وكأني بمن يقرأ مذكرات البنا وإخباره عن زمان إرادته وسلوكه الصوفي يعتقد أنه يقرأ تاريخا طواه البنا يوم قام للدعوة، وإنك لتقرأ ما كتبه الإخوان المسلمون في مجلاتهم وكتبهم فلا تقرأ عن الصوفية إلا أحكاما سلبية تنبئ عن إغفال روحانية البنَّا ومصدرها ومصرفها في النظام التربوي للإخوان[1]، وكان يبدأ بمبايعة تتضمن قراءة الأوراد والوظيفة إلى جانب الشروط الجهادية العامة.

بعد نحو عشر سنوات من قيام الدعوة نشر البنا منهاجا

1 ثم نشر الشيخ سعيد حوى رحمه الله في آخر ما نشر كتبا قيمة عن الربانية ما أجدر أن يتأملها بعمق الغارقون في «الإسلام الفكري» الثقافي.

يلخص ما كان فصله في رسالة التعاليم. يقول[1] : الواجبات العشر: **1** حمل شارتنا **2** حفظ عقيدتنا **3** قراءة وظيفتنا **4** حضور جلستنا **5** إجابة دعوتنا **6** سماع وصيتنا **7** كتمان سريرتنا **8** صيانة كرامتنا **9** محبة إخوتنا **10** دوام صلتنا.

وكل هذه الواجبات يجمعها مفهوم الصحبة والجماعة وهي تفصل شروط الصحبة والجماعة. فترى كيف ذهبت مصطلحات الصوفية في التعبير عن آداب المريد مع الشيخ والفقراء وحل محلها تعليم أكثر تفتحا على الحياة العامة وأكثر جمعا لمعاني المحبة والنصيحة والتضامن والولاء الجماعي. كان الانتماء الصوفي يعرفه الناس بهيئة المريد ونوع خرقته أو سبحته، وكان من المشايخ من يلبس المرقعة لمن يراه من مريديه ميالا للتكبر ليكسر غلواءه ويسمون ذلك «خرقا للعادة» يبرهن بها المريد على هوان نفسه عليه، وربما بلغ ببعض المشايخ الصادقين أن يحمل مريده على لبس الأسمال والتسول في السوق ليخرجه بذلك عن عادته. ويتسامع الناس بذلك فيتخذها بعضهم حرفة فلا يتميز لك الصادق من الكاذبين.

فجعل البنا حمل الشارة علامة على الإنتماء وذلك اهتمام بالسمت واهتمام بتمييز الجماعة عن سائر الناس ومذهب في

1 المذكرات ص, 213.

التربية أجدى وأنظف وأكثر تلاؤما مع المطلب الجماعي الجهادي. فمن حمل الشارة وحفظ العقيدة وتلا الورد والوظيفة في مجالس الإيمان يصل فيها إخوانه ويحبهم ويعضد دعوتهم أدته الشارة الرمزية لموطن الصادقين واندمج مع المؤمنين. لكن جل الناس لا يقدر على ذلك ويقف عند الشارة.

وهذا هو الدرس الثاني من تجربة الإخوان المسلمين. لقد رأينا في حياة الشيوعيين الصينيين كيف أمكن للقيادة الشيوعية بمحن «المسيرة الكبرى» أن تَبْلُوَ الصادقين الصابرين حتى تجمعت لهم نخبة صهرتها ليالي الجبال ونهارات الصحراء. وكان «المريد» الشيوعي يوضع لأول وهلة بحيث يبرهن عن صدقه، فإن كان مطلبه في الالتحاق بالصف الشيوعي أهون عنده من بذل النفس وبذل الجهد نبذته الجماعة. وفي آخر المرحلة بعد الكفاح الطويل والأهوال الجسيمة حمل الشارة الشيوعية أبطال وراءهم تاريخ نضالي جبار. ولسنا نجد حرجا في مقارنة المؤمنين الطاهرين بالمقاتلين الكافرين، فإنما الناس بشر وإنما خيارنا في الجاهلية خيارنا في الإسلام.

كان أول واجب من واجبات المبايع المسلم من جماعة الإخوان أن يحمل الشارة. وهو واجب يمكن ضبطه في كل جلسة وعند كل لقاء، ولا يمكن ضبط الصدق في العقيدة والتلاوة والمحبة والصلة

إلا ببرهان الصدق العملي. وكان أصحاب البنا الأولون لما كانت الدعوة في مهدها رجالا من الذين صحبوا شابا طاهرا تميل إليه القلوب وتحبه وتتشبه به وتلتمس عنده القدوة. فلما تحول الشاب زعيما خطيرا تقوم له الدنيا وتقعد حمل الشارة أقوام بعقلية مطالبة واندس أقوام من العدى تحركهم نيات سياسية غرضها أن تنسف الحركة الإسلامية. ومن أولئك وهؤلاء تركب الاضطراب العنيف الذي آل إلى إرهابية كما تؤول كل حركة شيب فكرها ومنهاجها بعناصر الاستعجال وعناصر التخريب.

الدرس الثاني مما نتعلمه من الإخوان المسلمين أن تجميع الأعداد الهائلة : بسرعة قبل أن تعطي برهان صدقها ودون أن يطلب منها إلا مظهر حمل الشارة أسلوب أشبه بالأسلوب الحزبي السياسي المعتمد على التظاهرات الاضطرابية.

كانت ظروف طاغية وكان عمل الشيخ الجليل وأصحابه عملا صادقا تعوزه التجربة وتغنيه التجربة في آن واحد. لا شك أن ما بناه الشاب المجاهد وما أصابه من نجاح وتوفيق كان كفاء لصدق الروحانية وكفاء لعمل الليل والنهار وكفاء للمحبة التي وصلت قلب مؤمن زكي بقلوب مساكين كانوا يعملون في بحر الظلمات قبل أن يرتفع لهم نور الهداية في طلعة البنا. ولا شك أيضا أن مسيرة الجهاد الإخواني سحبت من ورائها أثقال سلوك

جماعي تقوم بإصلاح الخطإ فكان تجريبية إلى حد ما، تلوح لك ثغراتها من خلال شكوى البنا مثلا من صديقه القديم السكري الذي ولاه أمور الجماعة فما نهض لها، وتلوح لك من خلال الفكر الإخواني الذي ما تميز فيه المنهاج الإسلامي عن أساليب السياسة تميزا كاملا. وهكذا تجد، إلى جانب التطهر ونبذ النموذج الغربي للسلوك، دعوة إلى الوطنية القومية في رتبة معا بجوار العمل بالشريعة المحمدية.

يكتب للإخوان المسلمين تلخيصا للمنهاج العلمي ما يلي[1] : الموبقات العشر : **1**. الاستعمار **2**. الخلافات السياسية والشخصية والمذهبية **3**. الربا **4**. الشركات الأجنبية **5**. التقلبد الغربي **6**. القوانين الوضعية **7**. الإلحاد والفوضى الفكرية **8** . الشهوات والإباحية **9**. فساد الخلق وإهمال الفضائل النفسية **10** . ضعف القيادة وفقدان المناهج العلمية.

المنجيات العشر : **1**. الوحدة **2**. الحرية **3**. تنظيم الزكاة **4**. تشجيع المشروعات الوطنية **5**. احترام القومية **6**. العمل بالشرائع الإسلامية **7**. تثبيت العقائد الإيمانية 8. إقامة الحدود الإسلامية **9**. تقوية الفضائل الخلقية **10**. اتباع السيرة المحمدية.

الدرس الثالث لنا من الإخوان المسلمين هو أن العمل

1 المذكرات ص, 213.

الجهادي إذا لم يؤسس على فكر ناضج سابق للعمل يتعلم من الممارسة، فإنما يكون الأمر تجريبية تحمل معها عناصر ضياعها إذ تنفتح لكل هوى وتحسب أنها تتعلم من الأخطاء بمجرد أن هنالك أخطاء عولجت في وقتها. وعند السيد المودودي منظومة فكرية أشد تماسكا وأوسع مجالا، لكن مكان الروحانية النورانية يتبين لك بمقارنة نتائج الأعمال. ولقد وقى الله الصادقين من عباده الإخوان المسلمين ما كادهم العدو ورزقهم الشهادة وحسن المآب، ولا يزال عمل البنا وأصحابه خميرة شعورية ونموذجا عمليا يصرخ فينا أن الإسلام الفكري إسلام مبتور وأن ذكر الله وصحبة أهل الله هي المنهاج إن أقامها العلم على منهاج الجهاد والدعوة على بصيرة.

وآخر درس نتلقاه من عمل البنا هو أن المترفين أصحاب المنصب والثروات لا يتحركون إلا في آخر الركب ويلتمسون مع ذلك الصدارة والرئاسة ويفسدون العمل الصالح بنياتهم المترفة. كان أتباع البنا الأول من المساكين، من العمال والفلاحين، يبدأون بتواضع تلمذتهم للشيخ بتعلم الوضوء والصلاة ويجمعون القروش ليبنوا لله بيتا. ولقد كاد البيت يكون أمة منبعثة لولا أن هب مترفو الفكر والمال والجاه يجرون خلف الزعيم الناجح ويرهقون جهاده. وكان رجل دعوة ليس له أن يستعمل وازع السلطان ليعيد تربية

المترفين كما فعل ماو الكافر من بعده. وكانت المطالبة السياسية بديل الأسف عن تلك التربية المتكاملة التي أنشأها مجدد هذا القرن وإمامه رضي الله عنه وجازاه عن المسلمين خيرا.

غضبة القطب

كتبت منذ بضعة أشهر[1] تأملات حول فكر قطب رحمه الله فاستحقت كلماتي تعليقا من صحيفة إسلامية عزيزة علينا وكان تعليقها في أسطر صغيرة قليلة مؤداه أن صاحب الكتاب جاء «بفكر مغربي» ينقد «فكرا شرقيا»، ويفعل ذلك «بصوفية متطرفة». ويكفي من الإشارة عنوانها، ويكفي هما وحزنا أن يكون وعي العاملين في الدعوة الإسلامية لا يعدو خطوط الجغرافية والقومية ولا يفهم أن اجتهاد المجتهدين يلعن من يتلقونه وحيا منزلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويكفي هما وحزنا أن يكون فكر الإسلاميين يفضل على التعلم المتواصل بالتفتح لكل تجربة ولكل ممارسة ولكل علم عملي يأخذ كلا بعين حديدية وعقل ناقد ركودا مع الموروث المقدس. ولعمري أن لنا من المكدسات المقدسات ما كان يغنينا عن فكر قطب وأمثاله لوكان قطب ذا عقلية راكدة.

إذا كنا يبلغ بنا الجهل والعطالة أن نظن أن الفكر الإسلامي نما وزكا وترعرع ونور وأثمر وبلغ أوج كماله في فكر سيد قطب فإنما نقبر بذلك آمال المسلمين ورجاء العالم الذي تغنى بهما سيد

1 أنظر كتابنا «الإسلام بين الدعوة والدولة».

قطب، وإنما نحكم على أنفسنا بالغباوة إذا كنا نواجه الشيوعيين الحذاق المتطلعين لنواميس هذا العالم الصاخب بتقليد مطمئن لجهاد رجل كيفما كان هذا الرجل حاشا المعصوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ولئن شئنا أن تتفتح أذهاننا للفكر المتحرر الناقد المجتهد فلنبدأ بتفتيح قلوبنا للإيمان حتى نصبح أهلا للتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم. وما سبيل ذلك يا ترى ؟ إن ربكم يقول : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا».

فإن كنا نفكر بأشكال مفرغة مسبقة، ونحكم على من يدعونا لذكر الله الذكر الكثير بأنه صوفي متطرف، ولا نحاول فهم معاني التصوف لنعرف معنى التطرف فأحسن لنا جميعا أن نصطلح على أن خيرا منا شهيد الإسلام سيد قطب الذي خاصم الجاهلية وصب غضبه على الطاغوت المفتون الفاتن. وأولى لنا أن نتصالح على أن الإسلام يجهله بنوه وأن القطب الجليل بذل مهجته وكرس عمره ليعلم المسلمين معاني العزة بالله ومعاني الجهاد والشهامة.

ولكل منا بعد ذلك أن يعتبر أن الإسلام في أوج عزه وذروة كمال فكره أو يبحث عن منهاج عملي تكون معالم طريقة ماسة بواقع المسلمين على الأرض كمساسها بالمثل العليا التي أشاد بها شهيدنا جميعا رحمه الله.

صوت ارتفع في الجو الحالك أيام كان الاستعمار لا يزال ضاربا أطنابه في كثير من بلاد المسلمين. وغضبة مؤمنة على ظلم الطاغوت وتعسفه بلورت الروح الجهادي الذي حرك الإخوان المسلمين على صيغة فكر مقاتل يقذف حمما وشواظا من نار على عدو الإسلام. وكان فكر سيد قطب رحمه الله قمينا أن يكون مقدمة لمرحلة جهادية جديدة للجماعة لو كان مع الفكر عمل تربوي يوازيه ولو لم تكتسب الظروف المعادية كثافة خلطت المزاحمة السياسية مع نصاعة البيان القطبي.

ما تقول في مجاهد كان ولا يزال لسان الإسلام الناطق بعد نكبة إخوانه المجاهدين؟ وما نقول في رجل بذل نفسه ونحن قعود باردون متدفئون بدفء الاسترواح والكسل؟ وإذا قلنا فهل يكون قولنا نقدا يستقبله المسلمون بذهن لا تجمح به العاطفة ولا يثيره الولاء الأفلاطوني الوهمي؟

تلك أسئلة يجيب عنها كلها جيل ألف الأحلام وتأملات الأبطال الأمجاد بأن فكر سيد قطب فكر تحده جغرافيا حدود القومية العرقية ويحده تاريخيا حيث يتناطح بحر الظلمات الجاهلية ببحر الغضبة الكبرى تناطحا حاسما سينجلي عن قيام الدولة الإسلامية لمجرد أن صحنا في أنفسنا وفي الناس أن الدين الإسلامي هو دين الله الكامل وأن الحاكمية الظالمة يجب أن نتمرد عليها ونقاتلها.

ولقد تم الأمر أو كان قد!

إنه كان الملايين الناعسون الحالمون بحاجة إلى رجة كبيرة تثير الانتباه. فكانت الرجة هي مقتل المفكر الإسلامي العظيم لفتت أنظار المسلمين للدعوة القطبية، ونفع الله بكتبه أجيالا من المسلمين. قرأوا ظلال القرآن وقرأوا الكتب الأخرى فأعداهم حماس الشهيد واستوثق من قلوبهم حسن بيانه وصدق لهجته. وهذه مأثرة عظيمة وخطوة مهمة في نشر الوعي الإسلامي. وإذا ذكرنا الرجال بأعمالهم، ولا تقاس الرجال إلا بما حققوا لأمتهم من خير، وجدنا أن إحياء الإسلام في عصرنا يرجع الفضل فيه للشيخ البنا، ووجدنا أن الفتنة لما عامت على الشيخ وجماعته خنقت صوت الدعوة إلا صوت السيد المجاهد، فله فضل بث الكلمة الطيبة إن لم يكن له أثر الإحياء بعد الموت.

إن لغة سيد قطب هي لغة الغضب، وهو غضب محمود لأنه غضب لله ولدين الله. وإذا كنا ندعو للتؤدة النبوية الصامدة الصابرة على العمل المثابرة عليه، فإن الغضب لله لا بد أن يكون عنصرا من عناصرها. وما كانت لنا الأسوة بإبراهيم ومن معه إلا أنهم غضبوا على قومهم فقاطعوهم. وأن غضبة آل إبراهيم وإبراهيم عليه الصلاة والسلام أفضى ذكرها في القرآن إلى الرجاء في قوله تعالى بعد ذكر الغضبة والمقاطعة : ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ**

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا كانت الغضبة تؤدي إلى الرجاء والمحبة ومن ثم إلى الصبر والمثابرة في الطلب فهي غضبة إيجابية لأن الجهاد الحكيم يكتمها في رحمة الدعوة وتؤدة النبوة. وإذا كانت الغضبة لا تصيب تؤدة وطول نفس فإنها إنما تخطط للثورة والفورة العنيفة، وعندئذ يغيب مفهوم الفتنة وما أوصانا به النبي من التؤدة والحكمة فيها، ويعمم مفهوم الجاهلية فيشمل العالم جميعا.

إن صوت الإسلام ارتفع قويا أخاذا في فكر سيد قطب، فإذا فهمنا أنه رجل دعوة أفرغ ما في فؤاده من إيمان وما في عقله من تصور لنتعلم من إيمانه وعلمه فنوشك أن نتقدم في طريقنا، وإن فهمنا أن «معالم في الطريق» اجتهاد نهائي رسم خطوط العمل وحركية المنهاج حتى لا مزيد، فإنما نعكس نية رجل من المسلمين، وندخل في خط النظر البطولي، ونرجع إلى الوراء نسبح لله بحمده ونلهج مغتبطين بتراث نحنطه إلى جانب أكداسنا الموروثة.

لنتعلم من سيد قطب غضبته ولنخاطب المستضعفين الوارثين غدا بلهجته العاطفية، لكن لننظر أي طريق وضعت لها المعالم.

في مقدمة الكتاب يتساءل الكاتب[1] : «فكيف تبدأ عملية

1 «معالم في الطريق» الطبعة المغربية ص. 13.

البعث الإسلامي؟

إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة وتمضي في الطريق ... تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعا. تمضي وهي تزاول نوعا من العزلة من جانب، ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة. ولا بد لهذه الطليعة التي تعزم هذه العزمة من «معالم في الطريق»، معالم تعرف منها طبيعة دورها، وحقيقة وظيفتها، وصلب غايتها، ونقطة البدء في الرحلة الطويلة.. كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعا.. أين تلتقي مع الناس وأين تفترق ؟ ما خصائصها هي وما خصائص الجاهلية من حولها؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها ؟ ثم تعرف من أين تتلقى في هذا كله وكيف تتلقى ؟ هذه العقيدة لا بد أن تقام من المصدر الأول لهذه العقيدة : القرآن، ومن توجيهاته الأساسية، ومن التصور الذي أنشأه في نفوس الصفوة المختارة التي صنع الله بها في الأرض ما شاء أن يصنع، والتي حولت خط سير التاريخ مرة إلى حيث شاء الله أن يسير».

إنه برنامج جميل حافل يضع للبحث النقطة المحورية التي هي معرفة الفاعل التاريخي الذي سماه الكاتب «طليعة تعزم العزمة وتمضي في الطريق». ويضع للبحث علاقات الإسلام المنبعث

مع الجاهلية وضرورة «العزلة من جانب والاتصال من الجانب الآخر». فهذه استراتيجية الحركة. ثم يضع البرنامج نقط البدء ومراحل السير في الرحلة الطويلة» ولغة الخطاب وأسلوب العمل ومخالطة الناس. وكل ذلك نقط أساسية نحن بحاجة للتعرف عليها بمعالم واضحة.

لنبدأ أولا مع سيد قطب بالمجتمعات الإسلامية المعاصرة التي ينبغي للطليعة أن تقودها. إنها مجتمعات جاهلية خارجة عن دين الله. لأنها تقبل حاكمية العباد. يقول الكاتب1 بعد أن عدد جاهليات العصر : «وأخيرا يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها «مسلمة». وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ولأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا... فهي تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، وتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها وكل مقومات حياتها تقريبا... وإذا تعين هذا فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة : إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره»

كان المرحوم أرسلان يسمى إسلام معاصريه «إسلاما جغرافيا»

وتخفي العبارة حكم الكاتب وتصوره للمجتمعات الإسلامية، أما سيد قطب فيحكم بجاهلية كل المجتمعات المعاصرة. وليس يهمنا أن نعرف هل هذه الجاهلية في اعتقاده جاهلية كفر بقدر ما يهمنا أن نعرف كيف نعالجها. كان الغزالي والبنا ينظران إلى الأمة نظر الطبيب إلى المريض، مريض مفتون يحنو عليه طبيب رحيم يمرضه ويصابره حتى يقتلع من جذور الفتنة والمرض، وكانا مربيين. أما سيد قطب فالناس في نظره جاهلية ومصدر جاهليتهم هي هذه الحاكمية الظالمة الخارجة عن حكم ربها.

فبهذه النظرة لا نجد في تاريخ الإسلام مسلمين بعد مقتل مولانا عثمان بن عفان لإن الحاكمية كانت للناس منذئذ ولا تزال. الأولون حرفوا من حاكمية الله جزءا، والمعاصرون حادوا عنها جميعا، لكن الحكم ينبغي أن لا يختلف لأن حكم الله لا يقبل التبعيض. وعلى هذا الأساس فكل ما يقترح الكاتب لعلاج الحالة منطقي جدا، العائق الوحيد لقيام الدولة المسلمة هي الحاكمية فمتى تسلمت الطليعة المسلمة الحكم فقد قامت الدولة، وقبل ذلك فالثورة والتمرد هما التعبير الإسلامي لمحاربة «المجتمع الجاهلي» نحن منه ونعيش فيه. يقول[1] : إن إعلان الربوبية لله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل

1 نفس المصدر ص. 81.

صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض».

لقد حلل الشهيد الجليل حياة الصحابة وسماهم «الجيل القرآني الفريد»، وعاش في ظلال القرآن سنين طويلة وفي أرجاء السيرة النبوية. وملخص نظرته في حياة الصحابة أن القرآن كان النبع الصافي الذي منه استقوا، وأنهم استمعوا لآيات الله باستعداد للتنفيذ لا بقصد التلاوة والتأمل وأن كل ذلك جعل لهم «عزلة شعورية» فصلتهم عن بيئتهم الجاهلية. ويستخرج الكاتب من ذلك درسا أساسيا هو أن شخص الرسول ليس وجوده ضروريا إذ لو كان ذلك لبطل أن الإسلام دين الله لكل الأجيال من بعده. وإذن فما بيدنا إلا القرآن الكريم، وإذا أردنا أن نكون جماعة مسلمة فما علينا إلا أن نحرر ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله. فإذا تساءلنا كيف نفعل ذلك وتصفحنا كتب الناطق المسلم وجدناه يعرض علينا ببلاغة النموذج الخالد في نشأته وحركيته دون أن يدلنا على مكان الصحبة في كل ذلك ولا مكان التزكية والذكر وبعث الروحانية. يقول[1] : «وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام، ينبغي أن يتجه الاهتمام أولا إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله في أية صورة من

1 المصدر السابق ص.116.

صورها التي أسلفنا وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة. وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقادا وعبادة وشريعة، وهي التي ينشأ منها المجتمع المسلم، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده... أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول، وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم».

ولا يحب الشهيد أن يضع لنا معالم في الطريق أخص من هذه التأملات للنموذج الخالد وأخص من الحث على ضرورة التحرر من الجاهلية وتحرير الضمائر من العبودية لغير الله. وكأن كتاب المعالم يرفض أن تكون ثم أية معالم للطريق غير ما تضعه الحركة التجريبية الواقعية من معاير. ولا يحب الكاتب أن تسبق النظرية الممارسة أبدا ويحتج بقوله تعالى: ﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾.

وإذا كان القرآن المنزل حسب حاجة الجماعة الأولى هو الوحي وهو الفيصل في وقائع معينة فإن القرآن كفيل أن يربي

لنا عقيدة وأن يعلمنا بتأمل النموذج الحركي المشخص في الجيل القرآني الفريد كيف نتحرك. ويحث الكاتب الإسلاميين على أن يستعدوا لرحلة طويلة يفصل خطواتها كما يلي[1] : «هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وأن تتم خطوات البناء على مهل وفي عمق وتثبت». فإذا انتظرنا أن نعلم كيف نجدد عقيدة وبناء فلا نتلقى إلا الجواب الدائم وهو أن الحركة تولد المنهاج وأنه لا مجال للنظرية السابقة. ولو قبلنا هذا المنطق وقبلنا أن المسلمين في عصرنا جاهليون لبقي لنا إشكال يرجع إلى اختلاف ظروفنا وظروف الذين عرفهم المسلمون من كونهم صحابة وعرفهم الكاتب بأنهم جيل قرآني فريد، ويرجع إلى ضياع الجهد في كل محاولة نظرية مثل محاولة الكاتب نفسه. لنقرأ رفض المعالم ولنعرف مكان الرجل الممتاز بين رجال الإسلام الفكري في سلسلة عبده وأبي الأعلى وقطبنا المحبوب. يقول [2] : «إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان...يكره بطبيعته أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي لأن هذا يخالف طبيعته وغايته». وهذا كلام لا غبار عليه، لكن بعد هذا : «وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كبير».

1 المصدر السابق ص.51.
2 المصدر السابق ص.54.

إن من بين كتاب الدعوة الإسلامية من يشكو في أيامنا هذه ركود الفكر الإسلامي على الكثرة العددية لما ينشر. ولعل أهم أسباب الركود إحجامنا عن النظر بالعين الأخوية الناقدة لكل ما كتب في الإسلام بعد الوحي والحديث المصحح، ثم لعل إحجامنا هذا نفسه جاء من قلة ثقتنا بالله، ثقة لا نزال ننتظر أن يربينا عليها مجدد يبشر الناس بنوارنية لا إله إلا الله ونورانية الصحابة لأهل لا إله إلا الله في زمن الفتنة .

الاجتهاد

مفتونون نحن غير جاهليين، وإن كان من بيننا أهل الردة ومن قادتنا فإن الأمة المستضعفة لا تزال هي أمة سيدنا محمد سليم اعتقادها ولا ينال منها الطاغوت الجاهلي المتكالب عليها المتألب إلا إشارة بالرأس المائل من الظلم المترقب لرحمة الله الذي جعل متسعا في رضاه لمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

لا نقاش في أن تحرك الركب الإسلامي رهين بالوعي الواضح لواقعنا، فإننا إن ذهبنا نحسب أننا مسلمون حقا فلن نهتدي إلى الطريق بل نطمس معالمها قانعين بالفتنة الموروثة جادين بفكر مفتون نحو واقع أشد فتنة. لكننا إن حكمنا بأن مجتمعاتنا جاهلية خارجة عن دين الله فقد كفرنا جميعا بحكم أنفسنا، وحكم الله أن لا عدوان إلا على الظالمين وحكم رسوله أن نرفق ولا نعنف خاصة في زمن الفتنة والهرج، وإن حكمنا بأننا جاهليون فربما نطمس معالم الحياة المتجددة طمسا لا رجاء معه لوضوح وسير، إذا كنا جاهليين فما لأحد ذمة و لا لأنفسنا، ولخير مع ذلك أن نحطم ونكسر ونثور ونتمرد وندمر.

نعم، هذه الجاهلية خالطتنا كما فتنتنا في فكرنا كما فتنتنا في حسنا. ونعم إن ضرورة تحررنا منها والتمييز عنها أسبق

الضروريات. ونعم أن مفتاح الخلاص في كتاب الله يجب أن نجتهد لنعثر عليه. فإما توبة من فتنة تعم الناس جميعا وتستر ويلات الماضي ومآسيه وإما أن نعلن أن الإسلام مات ونبحث عن عالم غير عالمنا وعن مجتمع غير مجتمعاتنا لنبذر فيها بذرة جديدة.إما توبة تكون هي الرفق وتكون هي التؤدة ترأب الصدع وتمحو الفتنة وتفتح باب الجهاد في اتجاه التباين المطلق مع الجاهلية، وإما حشر للمحكومين الجاهليين بأنهم ضحايا لواقع موروث يحز الضمائر مثلما يحز الرؤوس مع الحكام الجاهليين بأنهم ورثوا الفتنة فكانوا أعلامها وطواغيتها. وفي هذا نتشوف للإمام المهدي يحمل السيف ويقطع دابر القوم الكافرين.

إن الأمة لا تزال مسلمة، وفتنتها عن إسلامها تدهو تاريخي تكثفت أثناءه مبادئ العمل الإسلامي وأساليبه وأنغمت الآفاق الفكرية والروحية تحت قيادات عاضة. وما وحدت هذه القيادات الصفوف ولا مهدت للقوة إلا في فترات متقطعة على يد رجال استثنائيين يشرقون في سماء الإسلام يجددون الدين ويعزون المؤمنين فإذا ماتوا رجع الأمر كما كان دولة دائلة ومعارك بين المسلمين هائلة خصاما على السلطان أو خصاما على الخلافات المذهبية. وسلمت من بعد كل هذا عقيدة الأمة في مجموعها إلا هذا الزبد من ذرارينا الملحدين، ومن جيل هؤلاء مثقفونا وقادتنا وهو جيل

تتفاوت معرفته للإسلام واعتقاده من الملحد الكافر إلى الورع التقي وقليل ماهم، لكنهم يوجدون في دواويننا وجامعاتنا ومدارسنا إلى جانب الملاحدة وإلى جانب الفاترين.

إننا مسلمون فرديون مفتونون وإننا بحاجة إلى تجديد يبصر المسلمين الفرديين بمنهاج العمل بعد أن يجدد لهم إيمانا. فأما تجديد الإيمان فقد دلنا على وسيلته من له الوسيلة والفضيلة، ويكمن السر في الكلمة الطيبة يجيئنا بها من يقول بسلطان وراثته لنبيه : «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** !» وهو المتبوع المصحوب،وهو ولي الله الذي يغضب ربه على من عاداه ويؤذنه بحرب. وفي تاريخ المسلمين أعظم الأدلة وأوضحها على مكان المجدد في بعث الأمة وإحيائها. وقد صحب عمر بن عبد العزيز إماما أنار له جوانب قلبه كما صحبه صلاح الدين وابن تاشفين ومحمد الفاتح والمكير وكثير من رجال الإسلام المجاهدين. وفي تاريخ الإسلام أمثلة للرباني حامل الكلمة الطيبة يخرج من رباطه ليحرر الأمة ويقودها للفلاح.

بيد أن الذي لا نجده في تاريخ الإسلام هو ذاك المجدد الكامل الذي يسلك بالأمة منهاجا يخرجها من دائرة الدولة إلى دائرة الخلافة النبوية. ونرى بداهة أن الخروج من دوامة الحكم العاض يقتضي اجتهادا فكريا إلى جانب الربانية بل تكون النظرية والفكر

عنصر! من عناصر الربانية. إن من سبقونا من المجاهدين كانوا لا يحبون أن تسبق النظرية الممارسة مثلما يوصي سيد قطب، فكان جهادهم جهادا تجريبيا يواجهون كل يوم بمشاكله ويعدلون ويصلحون ولا يتجاوزون الخط العادي مدى حياتهم وفي نطاق مهمة شخصية يؤدونها. ولما لم يكن لهم منهاج للعمل متكامل تدول من بعدهم الدولة وينسى الجهاد وينسى التجديد.

الاجتهاد طلب للجهاد ولأساليب الجهاد ومبادئه، لنفهم الكلمة بهذه المعاني الجذرية حتى لا يتقلص مفهوم الاجتهاد ويتحدد في دائرة جزئية. إن الله تعالى جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا، فاجتهاد الشرع اجتهاد يرتبط بالأمر والنهي والحلال والحرام والحقوق، وأما اجتهاد المنهاج فهو البحث عن المسلك الإيماني في ظرف متغير ومع أجيال لها خصائصها في عالم متطور.

الفقه الشرعي الإسلامي غني كل الغنى لو وجد مجالا للتطبيق. لكنك لا تخلق أمة بسلطان القانون وحده ولا تجدد إيمان الغافلين إن سردت عليهم ما فرضه الله وما حرمه، وسردت عليهم «توحيدا». كان سيد قطب رحمه الله ورضي عنه يرفض رفضا باتا في كتبه أن يضيع رجال الدعوة جهدا في اجتهاد الفقه الشرعي قبل أن تقوم الدولة الإسلامية. ونِعمَّا يقول لو كان كلامه يوضح الفرق بين نظرية الجهاد، أو ما نسميه بالفقه المنهاجي،

وبين اجتهاد الفقه الشرعي. لكنه رحمه الله يعمم. أما الأستاذ الجليل أبو الأعلى المودودي فقد كانت ظروف دعوته خاصة، إذ حضر ميلاد باكستان، وفرح بالدولة الإسلامية حاسبا مع الناس جميعا أن الإسلام قومية أقوى من القوميات وكفى. وشارك علماء المسلمين الذين اقترحوا دستورا إسلاميا واقترحوا قانونا إسلاميا للدولة الوليدة. وكان كل ذلك اجتهادا شرعيا، أما الاجتهاد المنهاجي، أما وضع معالم الطريق فقد اقتصر على تعليم للإسلام الفكري مع المحاولة الطيبة لبدء حركية إسلامية مخلصة. وانتهى الأمر إلى تكوين جماعة تشبه حركيتها إلى حد بعيد حركية الأحزاب السياسية. وليس يهتدي الإسلام الفكري لأكثر من هذا.ولسنا نعيب الثقافة الإسلامية التي يعد السيد المودودي قطبها إلى جانب قطبها الشهيد رحمهما الله.كيف وهم أساتذتنا ! درسنا كتبهم فما تجدد لنا إيمان حتى صحبنا رجلا لقننا الكلمة الطيبة ودلنا على ذكر الله ومحبته.

وكانت النهاية أن تحول حماس المسلمين في باكستان نشوة سياسية، وتعثرت الدولة إلى أن تصدعت وانشقت وضحك منا المشركون. ما سبق قيام الدولة فهم للمنهاج التربوي الذي ينقل كل فرد من إسلامه المتقلص إلى آفاق إسلام جماعي يدور على المحبة والطاعة والنصيحة. ولعله كانت السلطة في فترة من فترات

باكستان بيد مسلمة مخلصة لكن هذه السلطة ما عرفت كيف تنظم البعث الإسلامي مستعملة وازعي القرآن والسلطان. إنها ما عرفت ذلك وأبى لها أن تعرف وقد تخرج قادة بلادنا المسكينة الممزقة من مدرسة الإسلام العصري

إن رفض الاجتهاد المسبق منطق ما عليه سؤال إن كان الاجتهاد يعني بناء القصور في السحاب، يعني تخطيط دولة على الورق. لكن رفض الاجتهاد إعراض عن الجهد وغرور إن كان معنى هذا الاجتهاد اكتشاف الإسلام اكتشافا جديدا، اكتشافا يعلمنا من نحن أولا، وهل نحن مسلمون أو جاهليون، ويعلمنا في نفس الوقت المصدر النبوي البشري للهداية، ويعلمنا كيف دخل الناس الإسلام أول ما دخلوه استجابة لدعوة الرسول، ويعلمنا غرابة حياة الرسول وصحبه والغيب الذي كان يغشاهم صباح مساء. ويعلمنا بعد ذلك كيف نرجع نحن من موقعنا الراهن لحياة الإسلام كما اجتمع الصحابة من أشتات القبائل وكونوا أمة مؤمنة وجماعة مجاهدة.

إن رجال الدعوة الأجلاء من أمثال الشيخ محمد عبده والمودودي وسيد قطب يذكرون النموذج الخالد في كتبهم ويوصون بالتمسك بالسنة والسير على هدي النبوة. لكنهم لا يشرحون لنا كيف نفعل ذلك، أما سيد قطب فيرسلنا إلى القرآن ويوصينا

أن نتلقاه «بنية التنفيذ» كما تلقاه الصحابة، فإذا فعلنا كنا صالحين وكنا مؤمنين ومجاهدين. ولو كان لنا نية تنفيذ لشريعة الله لما احتجنا إلى وصية ولكنا السابقين لمرضاة الله. وأما المودودي فيعطينا برنامجا أوسع من هذا في كتابه «تذكرة دعاة الإسلام»، يدعونا لربط العلاقة بالله بالذكر والنفل والخلق الحسن.

نعم هذا كتاب الله هو الثابت المطلق في وسط متغيرات الإنسان وظروف حياته. وهو مصدر الهداية لا شك. وربنا يعلمنا في أول سورة المصحف أن للقرآن مفتاحا، فمن جاء بلا مفتاح فلا يتدبر الآيات ولا يتلقى الأمر بنية التنفيذ. هذا المفتاح هو الإيمان بالغيب : ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾. إذا كنت متقيا تؤمن بالغيب فلك في القرآن هدى، وإلا تكن فما تزيدك التلاوة إيمانا. وكان سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أهدى بلاغا حين أخبرنا متحدثا عن نفسه وإخوته: « أوتينا الإيمان قبل القرآن».

وربط العلائق بالله هو التقوى وهو الإيمان بالغيب، ولا إيمان إلا بمحبة، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : «**لن تؤمنوا حتى تحابوا**» وحيث قال : «**ثلاثة من كن فيه ذاق حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما،**

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يعود في النار». ولقد كان الغزالي والبنا رحمهما الله تعالى يدلان أصحابهما على أن القلوب تمرض وأن لهذه القلوب أطباء. وبهذا يضعون قدم المريد على أول الطريق. نعم إن المنهاج الصوفي قد يحتاج إلى تكميل لكي يطابق المنهاج الجهادي، لكنه بربانيته يدلك على منبع الإرادة وأصل الحركية الإيمانية لأنه يقفك أمام الموت ويحدثك بمنهاج القرآن عن النبإ العظيم وعن مصيرك ثم يرشدك إلى الهداية وإلى الولي المرشد. المنهاج الصوفي وحده يكشف لك مشتبكات الآيات في قرآن ربك وفي ملكوت الله في الآفاق وملكوته في نفسك. وهو وحده يحدثك عن الغيب ويزج بك في عالم الغيب حتى يكون لك إيمان يقيني بالغيب وينفتح لك بذلك باب الفهم في القرآن، وتسلك الطريق لتحقق قابليات كمالك الذي من أجله خلقت، حيث يكون الله تعالى جده وتبارك اسمه ولا إله غيره عينك وسمعك ويدك ورجلك. المنهاج الصوفي يدلك على المحجة البيضاء التي تلحقك بموكب الأنبياء خالدا في رضى ربك، ويجمع لك شتيت الجهد ويقرب لك المطلب البعيد العزيز، إذ يجمع همتك على محبة متبوع ناصح ولي مرشد. وأنت بعدها أما أن تجد نفسك في ظروف فتنة ما كلفك الله بمناهضتها وحدك وأفسح لك مجال الفرار بدينك، فتسلك سبيل الخلاص الفردي،

وأما أن تتسامى إلى مقام وراثة أولي العزم من الرسل فتلتمس جهادا وتجتهد لخلاص الجماعة وتصل الصحبة بالجهاد.

وسائل يسأل : كيف يكون الناس جميعا صوفية ؟ ومجيب المنهاج يذكره أن الاصطلاح التاريخي ووسائل التربية وكسر النفس التي علقت بالصوفية متعلقات زمانية اجتهادية. والاجتهاد المنهاجي يثبت على اللب ويجدد الأسلوب ومنطق الخطاب.

من تعابير سيد قطب رحمه الله : «الجيل القرآني الفريد»، تعبير يعرف به جيل الصحابة الأبرار . وفي التعبير عدول عن المعنى الروحي الإنساني للصحبة إلى المعنى الفكري للتفرد بالخطاب القرآني، وفيه إعجاز للأجيال اللاحقة يشبه إعجاز قول الملحدين بأن جيل الصحابة فلتة لا تعود. ونحن نسمي الصحابة نموذجا خالدا لخلوده بالتجدد طبقا لأحاديث النبي المؤيد بالوحي حيث قال[1] : « مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره»، وحيث قال[2] : خير أمتي أولها وآخرها وفي وسطها الكدر»، وحيث بكى أصحاب رسول الله مقتل جعفر وعبد الله بن رواحة فسألهم صلى الله عليه وسلم : ما يبكيكم ؟ قالوا : ومالنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل فينا ! فقال[3] : لا تبكوا، إنما مثل

1 الترمذي في جامعه.
2 الحكيم الترمذي في كتابه «كتاب ختم الأولياء».
3 الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

أمتي مثل حديقة، قام عليها صاحبها، فاجتث رواكبها وهيأ ساكنها وحلق سعفها. فأطعمت عاما فوجا ثم عاما فوجا ثم عاما فوجا، فلعل آخرها طعما يكون أجودها قنوانا وأطولها شمراخا ! والذي بعثي بالحق ! ليجدن ابن مريم في أمتي خلفاء عن حواريه !

فإن الإسلام ما مات وإن هذه الأمة محتد الفاضلين أولياء الله وما فضلنا القرن الأول إلا بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولنا إن نحن جاهدنا جهادهم وابتغينا إلى ربنا الوسيلة وتأسينا بسنته فضل الإيمان بشرى رسول الله بأننا الطائفة القائمة على الحق حتى يأتي أمر الله.

إن عنوان هذا الكتاب يبشر بالحدث القريب الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتعرض لموعود الله وموعود رسوله تقوى ورباح. ولا يتم الفقه المنهاجي إن لم يكن من مقوماته الاعتقاد الجازم بغد الإسلام الموعود في كتاب الله وسنة نبيه، كما لا يتم التجديد الذي أظل زمانه إلا إن نقلنا من الحكم العاض إلى الخلافة على منهاج النبوة بمنهاج النبوة، منهاج البشر الذين بعثهم الله ولم يبعث ملائكة، بعثهم بالحق أنبياء ورسلا، وأورث ربانيتهم ونورانيتهم أولياء هذه الأمة أهل الله أهل القرآن.

ولئن كان فكر العصر أعشته الإيديولوجية المبشرة بقانون التطور وقانون الاقتصاد، الحابسة للإنسان الجاهلي في معركة

تناقضات قوى الإنتاج مع علاقات الإنتاج، فإن بشير رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال ناطقا بلسان النبوة أن قد حان الوقت ليرفع الله الحكم الجبري وينزل الخلافة على منهاج النبوة، وقانونه المقدر يخدم قضاءه المحتوم، فلا مرد لحكمه، ومن فضله علينا أن يحركنا لنقرأ على هذا الجيل حديث نبيه إذ قال [1]«إن أول دينكم نبوة ورحمة، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم يكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم يكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي، ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض، يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطر إلا صبته مدرارا، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئا إلا أخرجته».

«هذا بلاغ ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب» صدق الله العظيم.

1 رواه مسلم والترمذي وابن ماجه بصيغ مختلفة، واللفظ للشاطبي كما نقلناه من كتاب المودودي «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» ص. 58.

التنظير

يتطابق حديث رسول الله المبشر بالخلافة على منهاج النبوة مع بشارته بأن الكدر الذي شاب وسط هذه الأمة ذاهب وتعود الأمة إلى سابق خيرها، وإن التجديد المنهاجي يكسب فاعليته بالأبعاد الإيمانية الغيبية التي تعطي للرجاء معناه الجدري فيصبح ترقبا وانتظارا. فأما الذين عابهم الشيخ المودودي الذين ينتظرون مهديا هابطا بسيفه وفرسه من السماء فإنما رجاؤهم وترقبهم نوع من الأحلام الخرافية تتعايش مع الخمول والكسل. وأما الرجاء الإيجابي فيقتضي جهادا عمليا لا يفترق عن الجهاد الفكري وعن التنظير المنهاجي.

لمن ننظر منهاج البعث الإسلامي وعلى من نعرض الإسلام؟ إذا حكمنا أن مجتمعنا مجتمعات جاهلية، أو حكمنا أنها مسلمة لا عوج لها، فتنظيرنا للبعث الإسلامي إما أن يعود بنا إلى نقطة انطلاق من الصفر، ولا بد عندئذ من رجل واحد يقول ربي الله ويدعو الناس إلى لا إله إلا الله ليخرجوا من الكفر إلى الإيمان، ومن الجاهلية إلى الإسلام، وإما أن يعود بنا إلى إسلام سياسي مناط عمله تجميع الناس في أحزاب سياسية وتجميع الدول في مجموعات وأحلاف والناس كما هم لا يشعرون بأنهم أغيار غرباء عن الإسلام.

وكلا الموقفين تعرفهما ساحة العمل الإسلامي. أما منطلق التنظير المنهاجي فهو أن المسلمين جسم مريض يسمى مرضهم العام فتنة، وهذا الجسم بحاجة إلى تمريض وتطبيب وتربية بمعنى التربية الجذري أي بمعنى التنشئة والتنمية معا.

إن هذه الملايين الكثيرة من المسلمين الوراثيين هم مضمون الأمة، ويختفي عنا هذا المضمون الهزيل تحت أشكال تسمى دولا وتسمى أنظمة حكم وتسمى مجتمعات إشتراكية أو ملكية أو أميرية. فإذا جئنا نغير الشكل دون أن يدخل في حسابنا تغيير المضمون فإنما نستبدل لباسا بلون آخر نضعه على نفس الجسم الهزيل المريض. وليس مهما في نظر الحق والواقع أن نرفع شعار الإسلام إلا بقدر ما يكون الشعار وحمله جزءا من عملية تربوية هدفها تغيير الإنسان ليصبح مسلما مؤمنا، ينقل بالتربية من وضع الفتنة والغفلة عن الله إلى مقام الإسلام والإيمان والإحسان.

تنشر اليوم كثير من الكتب عن الإسلام، أغلبيتها الكبرى أدب إسلامي ينظر إلى الجيل الخالد بعين الإعجاب والتحسر، وفي كل صفحة يعرض جهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي كل صفحة يعلن أن الإسلام سبق لكذا وكذا من أنظمة الاجتماع أو اكتشاف العلم وفي هذا الأدب الإسلامي عزاء وسلوى وفيه أيضا تذكير لأجيال نسيت الإسلام، وله أثر حسن

لأنه يخاطب عاطفة المسلمين وإن كان هذا الخطاب لا يتجاوز عتبة الاعتزاز القومي إلا قليلا. لكن المهم في نظرنا هو أن هذه الكتب الكثيرة ما نشرت إلا استجابة لرغبة القارئين، فوجودها ينم عن تطلع المسلمين إلى الإسلام، ووقوف الكاتبين عند حد التمجيد والاستذكار يخبر عن فقر الفكر الإسلامي في ميدان التنظير الهادف إلى بناء المخطط لجهاد عملي واقعي قريب ممكن غير بعيد ممتنع.

ومن بين هذه الكتب الكثيرة طائفة مما كتبه الإخوان المسلمون، بل إن جلها من إنشائهم، وتدور جميعها من بعد سيد قطب في فلك الإسلام الفكري. فإذا تجاوزت قطبا واقتبست نفحات علوية من الإمام البنا تحدثت عن ضرورة التربية ثم لا تخبرنا عن مبدئها ومعادها، ولا تتجاوز عقلية المطالبة الناشئة عن وضع الحصار الذي اضطر إليه رجال الدعوة الإسلامية لتنظر انبعاثا متعديا غير لازم يبادر إلى العمل ويفتح مجالا للتربية والجهاد.

جل ما تقرأه إذا تحدث رجال الدعوة المسلمون عن مبادئ استراتيجية العمل الإسلامية مبدأ حفر الخنادق في واجهة الأعداء المحاصرين للدعوة، فهناك العدو التقليدي وهو التبشير المسيحي وهناك طاغوت الحكم وهناك العالم الجاهلي. وفي الواجهة المقابلة مسلمون لهم مشاكل وبينهم مخاذلات، فأسبق شيء إليهم أن يحفروا

خندقا لمصابرة طويلة طويلة. وتقتضي المحاسبات الإستراتيجية أن تعتبر قوى المجاهد بجانب قوى العدو، وفي هذا الحساب يذكر مجد الإسلام الذي تآمروا عليه ويذكر فضل الأولين، ويؤول الأمر إلى حب وشوق وإعجاب «بالجيل القرآني الفريد». وكل هذا ناتج طبعا عن محنة المسلمين في عصرنا، وكل هذا يرينا البعث الإسلامي بعيدا ممتنعا.

اللهم لا خير إلا خير الآخرة، اللهم إن النصيحة للمسلمين تقتضي أن نجهر بإسلامنا وإن نجهر بالحق كما نراه. فلا يأخذن إخواننا ما نكتبه إلا مأخذ الظن الحسن بالمؤمنين، وخير لنا أن نعتبر ببعض الذين ينشرون تبشيرهم بالإسلام الاشتراكي وبالاشتراكية الإسلامية ويزكون سعي المفتونين إذ يزعمون إن الاشتراكية مرحلة ضرورية لإحياء الإسلام. لنعتبر بهؤلاء ولننهض لنعرض الإسلام على إخواننا المفتونين فهم ضحايا يستحلون الجرب الآكل لأجسامهم، ولو عرضنا عليهم المنهاج الإسلامي بوضوح وقوة وتعد لعرفوا به الدواء وعرفوا به داءهم.

لا شك أن في واجهة الجهاد الإسلامي قوى متضافرة لها دخيل من بين ذرارينا، لكن الوقوف عند استعظام قوة الخصم فشل مسبق، ولينصرن الله من ينصره، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت، وإن الله مع المؤمنين.

انظر إلى الإمام البنا، إنه ما كان يتحدث عن «المرحلة الطويلة» وعن الأجيال المعدة للتضحية كما كان يفعل سيد قطب رحمهما الله، ولكنه كان يختم كلامه بقوله تعالى: « ولتعلمن نبأه بعد حين». وفي الآية شحنة من الرجاء والتوقع القريب. هؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله أولياء، وهجروا شرع الله واختصموا إلى الطاغوت، فهم لا يلتمسون حلا إلا عند الفكر الجاهلي ولا نموذجا إلا في الجاهلية. وقد ثبط الله عزائمهم بقهره فآبوا خاسرين، وقد ابتعث الله من بين عباده الكافرين دولا أولي بأس يعذب بهم في الدنيا أجيالنا المفتونة ويخضد بهم شوكة الفتنة حتى لتسمع اليوم نبرة الأسى في صوت قوادنا المتهدج إذ يلفظون شعارات الإسلام. وما بينهم وبين الإسلام إلى التوبة، نعرضها عليهم وندلهم على أنها باب العمل المفتوح دائما إن قبلوا شروطها واستطاعوا أن ينبذوا ذهبهم ودبدبهم وقبقبهم وينزلوا من القصر إلى خيمة الجهاد مع المستضعفين الوارثين. وإنك لتسمع من قادتنا من يلهج بالإسلام لهجا، لكن عميت عليه أنباء الإسلام فأمره اشتراكية قومية يسبح الإسلام في لجتها سبحا.

فلكل هؤلاء ينبغي لرجال الدعوة أن ينظروا، ينبغي أن يذكروهم بفضل الأولين في سياق يفتح الآفاق لتجديد الجهاد، وينبغي أن يرسموا الغد كما يصفون لهم النموذج الخالد، ولن يفيد شيئا أن

نتيه إعجابا بالسابقين أن لم نقرن جهادهم بالخط الجهادي الخالد الذي سنسير فيه غدا بعد ارتفاع الكدر ورجوع الخير إلينا من ربنا.

لا بد مع التربية وتطبيب القلوب من فكر يسبق الممارسة، وإن كان الفكر يضع منهاجا من شأنه أن يحطم الكبرياء ويرجع الناظر إلى موقف الفطرة، فإن هذا الفكر يحمل في طياته داعي التعلم من الممارسة كما يليق بإنسان الفطرة الذي يعجب من كل شيء، ويتعلم من كل شيء آخذا العلم من ربه الخالق لكل شيء. وهذا الفكر المنهاجي يتضمن مبدأ العلم والتعلم ومعناه تخطيط الفكر المسبق للممارسة وتطعيم الممارسة للفكر.

والمنهاج النبوي الذي نعرضه لا يقصر ضرورة التعلم على فئة من الأمة دون فئة ولا يحصر ميدان التعلم في الممارسة الإسلامية دون غيرها. فكتاب الله مصدر جهاد المسلمين وسنة رسوله، ثم بعد ذلك ومعه هذا العالم الحافل بالنشاط والتجارب والنظريات عطاء من ربك غير محظور.

ثم هل يمكن أن ننظر للانبعاث الإسلامي دون أن نعتبر الجرب الفكري المنتشر وباؤه فينا، وأعني الفكر الماركسي ؟ وهل يمكن أن ننظر لإسلام الغد غير ناظرين للجاهلية المذهبية المتحدية للعالم في هيكل روسيا الفولاذي وفي تربية الصين العتيدة[1] ؟ دعنا

1 كان ذلك وهما عاش عليه العالم سبعين سنة،ثم انهار ذلك الصرح وخرت الشيوعية على وجهها.

من خزعبلات البنية التحتية التي تشع البنية الفوقية، ودعنا من خزعبلات الحتميات التاريخية، فإن كل ذلك أصبح هراء منذ عرف الصينيون السياسية بأنها تضحية وخدمة للجماهير، أي أنها عمل إرادي في أقصى ما يمكن من الذاتية.

دعنا من تفاصيل الفكر الماركسي وشعبه فإنما يستحق منا الرثاء لإنسان الجاهلية الذي لا يعرف ربه فلا يعرف مصيره بعد الموت، ولا بأس علينا من تحليله للتاريخ التكاثري هذا التحليل الخبير فقد يفيدنا أن نتعلم منه رداءة الإنسان وهويه إذا سقطت همته بسقوط إيمانه بالله إلى حيث تتحكم فيه قوانين الصراع الطبقي.

تعلمنا من الصين أن البنية الفوقية هي العامل الأول في البناء، وتعلمنا من أولئك الفلاحين والعمال الصينيين إن «أسبقية السياسة» شعار عقدي يفعل في الناس فعل السحر. وإذن فلنعرض منهاجنا النبوي عرضا حركيا يوقظ الوعي في ضمير الحاكم المفتون وفي ضمير الأمة الغارقة في أوحالها.

من رجال الاجتماع فرنسي يدعى تورين Alain Touraine عرض ثلاثة مبادئ[1] يلخص فيها حركية العمل الاجتماعي، وخاصة عمل التجمعات المطالبة بحقوقها مثل تجمعات العمال. مبادئه الثلاثة تمكن كل مجتمع من حل مشاكله بتعريف نفسه

1 Alain Touraine, Sociologie de l'action Paris, 1965.

تعريفا واضحا. ومعنى تعريف النفس الوعي بالذات. مبادىء جاهلية ننظر إليها لنقيسها بمعيارنا المنهاجي. فنحن أولا نريد جماعة لا مجتمعا وحركية الجماعة غير حركية المجتمع، لكننا معا نحتاج لوعي ذاتنا.

1. المبدأ الأول : مبدأ الانتماء «Principe d'Identité» فالمجتمع الجاهلي يعي انتماءه للشعب أو التجمع العمالي أو غيرهما انتماء مطالبة ومصلحة وأمن وحقوق. في المجتمع تضمن أسباب العيش وبالإنتماء للمجتمع تصان الأرزاق.

ونحن المسلمين، قادة ورعية، نشعر بالضياع على مأدبة اللئام، فنحن نؤكد لأنفسنا أننا ننتمي للقومية المجيدة لكننا في الواقع لا انتماء لنا لأن ريح الغلبة تميل بنا ذات اليمين وذات الشمال، وحتى على مستوى العادة الذي تعيش في نطاقه الجاهلية لا نعرف من يصون حقوقنا فنبذل له الولاء. وعلى هذا فلنا مثلما للجاهلية عقلية مطالبة لكنها مطالبة طياشة كما يناسب مجتمعات منحلة.

والبديل الإسلامي لهذا الوضع الالتفاف حول قائد مجاهد نوليه حبنا إن برهن لنا مسبقا عن أهليته وصدقه، ثم يقودنا ويربينا حتى تستيقظ منا الضمائر وتستنير القلوب بالإيمان ويتحرر العقل ونكون أمة واجب لا شعب مطالبة، حتى نكون جماعة بانية مجاهدة. فصحبة وجماعة إذن، وقوامها المحبة والطاعة والنصيحة.

2. المبدأ الثاني : مبدأ التعارض «Principe d'opposition» الذي يميز مجتمعا ما أو كتلة ما، هو تعارضها مع مصالح المجتمعات والتكتلات الأخرى.

ونحن المسلمين نشعر شعورا مريرا بعداوة العالم لنا، فتميزنا عنه تميز سلبي، تميز مطالبة وأسى على الظلم الحاضر والماضي، وتميز نقص لأننا شعوب متخلفة، وتميز هزيمة لأن بلادنا المقدسة تطأها أقدام نجسة. وفي داخل كل هذا تميز خاص برجال الدعوة الإسلامية وتعارض، إذ يرون غيرهم جاهليين ويتقمصون دور التضحية التاريخية المكيدة المضطهدة من جانب الصليبية والطاغوت الحاقدين.

والبديل الإسلامي لهذا هو الإيجابية التي تعبر الخصلة الثالثة من خصالنا العشر، وهي الصدق. فتميز جماعة المؤمنين لا يقف عند تعارض الكفر مع الإيمان بل هو تميز الإنسان الحي عن الإنسان الميت وتميز المجاهد المتجدد الجهاد عن إنسان العادة. ومعنى التميز عن العادة الارتفاع عن مستوى الشعوب الجاهلة لقيمة الإنسان الكافرة بالله واليوم الآخر والارتفاع عن مستوى عادة القعود وعادة الاسترواح والترف في المتاع المادي أو الإغراء الثقافي. إنه تميز إقلاع وتميز استمرار جهادي. وتصور لنا حركة المسلمين الأولين مع أبينا ابراهيم ومع سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام

قوة الصادقين التي لا تقاوم وحركية الجماعة المجاهدة المناهضة للجاهلية، لكن المطمئنة القادرة على حمل رسالتها الراجية أن تكون بينهم وبين العالم مودة، والله قدير والله غفور رحيم.

3. المبدأ الثالث : مبدأ الشمولية «Principe de Totalité»

إن أي مجتمع أو تجمع حركي ينبعث استجابة لفلسفة أودين أو إيديولوجية. ونكمل مفاهيم صاحبنا بالمفهوم الماركسي للشمولية، وهي تفسير الإنسان والتاريخ والمبدإ والمعاد تفسيرا محيطا بكل نشاط الإنسان عارفا بقوانين الاجتماع وبضروب الاستغلال التي تستلب الإنسان وتحرفه عن مصيره. ولكل فلسفة أو مذهب جاهلي تصورها للعالم والإنسان، وتجتمع كلها في لون الدوابية التي تسمى للتشريف بلسانهم «إنسية».

ونحن المسلمين المفتونين غفلنا عن الله وانخرمت صفوف الصلاة في المساجد كانخرام صفوفنا أمام العدو لما ذهبت عقيدة الجيل الحاكم وفترت عقيدة الأمة تلوي عنقها نحو المتاع المادي والقيم المادية كغاية لها.

والبديل الحق لكل هذا الباطل ذكر الله الذي لا ينفصل عن مبدأي الانتماء والتعارض، أو قل ذكر الله مع الصحبة والجماعة ومع الصدق. وبذكر الله والتقرب إليه بالفرض والنفل تجلى القلوب ويشرق نور الإيمان، وبذلك يتحول المسلمون المفتونون، أفرادا

في حضن جماعة، وجماعة في صحبة قيادة مجاهدة، من وضعهم الراهن غير المستقر إلى مقام أولى الذمم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يتبايعون على نصرة الله فينصرهم الله.

إن مقادة الإنسان لا تعدو هذه النقط الثلاثة، وإن تنظير البعث الإسلامي إن عرفنا وضعنا الراهن بوضوح وعرفنا كيف نحول انتماءنا وكيف نتميز عن الشعوب والجماهير لنكون أمة حاملة رسالة تبشر العالم بأن الإنسان ليس دابة وتبرهن على صدق رسالتها بواقع إسلامي يزري كماله وجماله بمجتمعات الجاهلية، إن كان التنظير شموليا على هذا النحو ودل على نقطة البدء وهي الصحبة والجماعة، والجماعة بصحبة، فقد بان الطريق للعمل. ومن عند الله بعدئذ يأتي المدد فيرتفع الكدر ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تتدرج من تحقيق الأهداف الإسلامية للمقاصد الإيمانية فالغايات الإحسانية.

التنظيم

جاءت مبادىء صاحب الاجتماع مطابقة لخط الخصال الإيمانية الإحسانية وانحسر الفكر الجاهلي في تقليب الأفكار تقليبا علميا، واستفدنا نحن حكمة تعلن دمغ الباطل حين يقذف بالحق.

ووقف بنا الشعور بحاجة التجديد الإيماني إلى اجتهاد يلح علينا أن الجهاد الإسلامي مفتاحه رجل يقول لا إله إلا الله وإلى تنظير يلح علينا أن الصحبة والصدق المفضيين إلى تحرير الإنسان من جهله وجهالته ترسم خط السير. وثالثهما الحاجة إلى التنظيم. ذلك لأن العنصر النظري الثقافي، أو قل بلسان الإيديولوجية، إن البنية الفوقية إن كانت تحدد القيم وتعلم التصور الشمولي وتفرض معايير العمل فإن البنية الاجتماعية تستعصي على التغيير ويقاوم الناس مستندين إلى العادات الاجتماعية كل محاولة للتجديد. فمن هنا يلزم أن نكتشف دخيلة العلاقات المجتمعية قبل أن نشرع في تغييرها ونتمكن من وضع علاقات جماعية إطاعة لحركية التغيير بدلها.

وبما أن علاقاتنا الموروثة، علاقات التاريخ المفتون، لم تغير منها الظروف الحاضرة إلا المظهر واللون وعززت طبيعة الاستغلال

والاستعباد والتسخير فيها، فينبغي أن نفقه أن تصالحنا مع الأوضاع الراهنة بإسلام نسبي لا يشبه تفاهته كمقصد إلا رجوعنا إلى علاقات ما قبل الاستعمار. وينبغي أن نفقه أن التغيير الإسلامي الجذري الذي نريده إن كان من الحكمة والضرورة أن يقبل فترة انتقال من الأوضاع المفتونة إلى مقامات النظام الجماعي فواجبنا أن نتيقظ لكيلا تطول المرحلة فتنعكس المطالبات الاجتماعية على حركية التغيير ويمسخ الواقع المجرور القوة الناقلة أداة للحركة الدائرة التي لا تبرح مواقع الفتنة والتبعية للجاهلية.

إن عالمنا عالم تتضارب فيه عقليتان تنظيميتان، إحداهما تنظم المجتمع على أساس حرية الفرد في زعمها، والأخرى تنظمه على أساس خدمة الجماعة في زعمها، وبين النموذجين الجاهليين لقاء محتوم على صعيد القمع الاجتماعي. ولا يختلف التنظيمان إلا من حيث أن مجتمع الإيديولوجية يمارس القمع بسذاجة تتمثل في عنف ستالين، وأن مجتمع الفوضى يتثاقل تحت ممتلكاته وحاجاته التي لا تنتهي فيضطر لمزاولة قمع علمي يتمثل في التسخير السياسي ويتمثل في الآلة القانونية التي تخنق الفرد قبل ميلاده وتضع في عنقه أوهاقا فلا يتحرك إلا بمقدار ولا يتصرف إلا وفق قانون مسبق وضعته ضرورة مجتمع استهلاكي تستعبد كماشته الاقتصادية عمل الإنسان ووقت الإنسان وضمير الإنسان.

التنظيم الاجتماعي الجاهلي بنيته قائمة على ضرورات المشروع الاقتصادي، فعند جاهلية الكثرة والتكاثر يستعلي قوم بالمال والتكنولوجية فهم طبقة برجوازية كما يعبرون، وطبقة أخرى ورثت استعباد القرون فهي كادحة عاملة، وتتخاصم الطبقتان وتتقاتلان ثم تصطلحان على رفع مستوى المعيشة، وهم الليل والنهار المطالبة والمنازعة. وعند مجتمع الثورة تجد الجماهير تنظم غداة الثورة تنظيما جادا بوازع التعبئة الثورية، بالتهديد والموت في روسيا، أو بالتربية وإعادة التربية في الصين.

التنظيم الاجتماعي الجاهلي قائم البنية على علائق اقتصادية تطابق قوى الإنتاج أولا تطابقها وتوفر البضاعة المادية للمستهلكين، وكل من في بلاد الجاهلية لا تعريف له إلا أنه مستهلك، فهو بمعيار الإسلام مسخ، ونحن بمعيار الجاهلية متخلفون. فأيا ما التفتنا نحن الأمة المستضعفة طلع علينا الأكلة على مأدبة اللئام بوجه المقاتل القوي الطاعم الكاسي وهم صف معبأ متحد متضامن منظم، ونحن لا نظام لنا.

فحاجتنا إلى تنظيم الأمة غداة عودة الإسلام كحاجة الجيش إلى تعبئة صفوفه غداة القتال. لنا بنية اجتماعية موروثة، وهي بنية فتنة مسخت البنية الجماعية الأولى. فنحن مجتمع ويجب أن نتحول في ظل الإسلام غدا جماعة. ويجب أن تكون بين المؤمنين

روابط جماعية بدل العلاقات الاجتماعية. في الفصول السابقة رأينا أن روابط الجماعة منوالها المحبة، والطاعة بالمبايعة العامة سداها، ولحمتها النصيحة لله ورسوله والمؤمنين. فهذا نسيج فريد ... نظريا!

أما عمليا فالشوط بين بنيتنا المهزولة وبين بناء التعبئة طويل يبدو، والجهاد لتحويل المسلمين الحاليين عن شحهم وأنانيتهم وعادتهم لا بد أن نشمر له تشميرا بعيدا. ولعلنا إن كشفنا عن داء مجتمعاتنا المريضة كشفا موثوقا به وعرفنا الوصفة النبوية لعلاجه أن نقرب الشوط وأن يجلو لنا الجهاد.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه فيخبر أصحابه ويخبرنا معشر الذين يلقون السمع وهم شهداء بما سيقع لأمته العزيزة، ويوصي بالسلوك المنجي من الفتن. فكان فيما أخبر به مآل الأمة في زماننا وضعفها وهزيمتها وهوانها على أكلة المائدة اللئام. قال صلى الله عليه وسلم « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها. قال : قلنا : يا رسول الله ! أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن. قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت !»[1].

1 الإمام أحمد وأبو داود والبيهقي عن ثوبان.

وذكر الله تعالى المشركين في القرآن فقال : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» فهم يحرصون على حياة أي حياة، أي أنهم يقنعون بالحياة الدوابية البيولوجية ويلتصقون بالأرض وقيمها. فلما خبت جذوة الإيمان في قلوب المسلمين انحطوا إلى مصاف الذين يحرصون على حياة أي حياة ولو كانت حياة هوان. وبهذا الحرص يفر الجندي من القتال ويشتغل المترف بشهواته غداة المعركة وتباع الذمم للعدو ويخون الساسة والقادة وربائب الجاهلية دينهم وأمتهم حرصا على حياة أي حياة.

وبذلك كنا غثاء كغثاء السيل، والصيغة تدل في العربية على المرض والقلة كما تدل المادة على الهزال والضعف. وهذا التبن البالي والقاذورات التي يحملها السيل لا تماسك بها ولا قوة لها. وليس يزيدها كثرة العدد إلا إلحاحا في الإشارة إلى مكان الداء. فها نحن أولاء سبعمائة مليون نسمة، كثيرون كثرة الصينيين ! لكن يا أسفا على المقارنة ! إنه لا يذكر كثرة الخبراء وقوتهم في عددهم ذلك إلا ضآلتنا وجهلنا وضعفنا!

أفنجنح إلى عصبية نقاتل عليها كما أوصانا محمد عبده، أم أن الغثاء والقلوب الجبانة تتجدد لها حياة بالقومية والاشتراكية ؟ كلا ! فإن المرض لا يبرأ إلا بتطبيب ماهر، وإن القلوب الخاوية اليائسة الحريصة على حياة أي حياة لا تُحْلَى إلى بحقنة الربانية

ولا يذهب وهنها فتعبأ لبذل النفس والنفيس إلا بما أصلح قلوب الحواريين والأصحاب، فمن الشك والتخاذل السائدين في مجتمع الكراهية والهزيمة لا نقلة لنا حتى نعيد بنية الأمة الغثاء بحيث يقودها وينفخ فيها من روحه من ذكروا الله حتى أتاهم اليقين.

إن الانقلابية والاشتراكية تموجات تمر على سطح المجتمع الغثائي ولا تبلغ من الناس إلا الأذان وإلا طاعة منقادة خائفة. فعلى سطح مجتمعاتنا المفتونة نشاهد غليان فتية رفعت الحمية القومية تغدوها الإيديولوجية من غضبهم، ثاروا على الاستغلال من جانب المترفين وثاروا على هزيمة الأبطال المستكبرين. فلما تسلطوا على الأمر بحق شجاعتهم ومغامرتهم بحوافز العصبية والشرف القومي والتحرر العالمي استعملوا سلطان فكرهم وسلطان يدهم ليكيفوا المجتمع الراقد المائت مع أهدافهم في البعث القومي ومزاحمة أمم الأرض على مائدة العالم. ولا تستجيب الأعداد الغثائية لنداء ولا تتحرك لتعبئة إلا بمقدار ما تشتد نبرة الصوت وتحمر الحدق.

ونتيجة هذه التحركات الثورية من بعد التحركات التي سبقتها في عهد الاستعمار وفي عهد الاستقلال السابق للثورة والانقلاب أن المجتمع الغثائي فقد توازنه السكوني الموروث دون أن يجد توازنا جديدا يستقر عليه فتتكون له ظروف العمل والبناء. في أسفل

السلم الاجتماعي الغثائي مسلمون عقيدتهم لا تزال صافية قوية كعقيدة العجائز أو يشوبها شوائب ترجع للجهل والعادة أكثر مما ترجع للكفر المفلسف، وفي أعلى السلم طبقات من الناس تتصارع على السلطة فطالع هابط، وما منهم إلا من يفقر الأمة المغلوبة الواهنة ليعد العدة في أبناك الجاهلية إما لغد الانقلاب وإما لتدمير أعداء الثورة يوم تحين الفرصة.

لا توازن هناك وما يغني أن يكون للغثاء توازن، وترتفع درجة التوتر بين طبقات مجتمع الكراهية وأحزابه وأجياله على السطح المترف بجاهه وثقافته وفي الساحة متفرجون لا يشتركون في حركات المسرح، وفيهم تكمن بذور الإيمان، وهم المستضعفون الوارثون.

فمن كان من المسلمين في زماننا يرثي لحال الإسلام بصدق ويجتهد فلا يجد مجالا للجهاد فذلك معقد أمل للغد. ومن كان صادقا في غضبه على ظلم الظالمين وهب يثور ثورته وينقلب انقلابه باحثا عن شهامة ورجولة فذاك قوة الإسلام المذخورة ليوم تتفتح فيه عينه على الحق المنزل والحق العلمي والحق الواضح الذي هو أننا لن نحرك هذه الأمة أبدا إن لم نخاطبها بلغة تفهمها وإن لم نجتهد ليعود نبع الإيمان بالله واليوم الآخر إلى صفائه في القلوب.

وإن هذه الأمة ليست هي هؤلاء المترفين المخنثين الذين يجلسون في نواديهم يثيرون جدلا حول العدل الاشتراكي، جدلا من جدل

الصالونات،وحشو أحدهم جهل وارتياب في ضميره وعقله، وفي نيته مشاريع ليتسلق هام الشعب المحتقر في صميم اعتقاده الصالح ليكون عتبة الصعود، ويبذر أموال المسلمين المستضعفين. وليست الأمة هي هؤلاء المتورطين في الثورة القومية والاشتراكية يتظاهرون في منتديات السياسة العالمية ومع قومهم أحلاس الخبائث وفراعنة الاستكبار.أولئك طبقة تقشر ويعاد تهذيبها حتى تجد، إن صدقت وأعطت البرهان، مكانها في أحضان الأمة التائبة.

إن إسلامنا العزيز وبعثتنا غدا لعزة وعد الله بها المؤمنين لن تغير الأمة حرصا على توازن أي توازن بل سيغير منكر الاستكبار الترفي. ونحب أن نذكر أن الترف في لساننا مقولة منهاجية حركية تشخص مرضا، ولا نقصد بها ثلبا خلقيا، وتمحو طبقية الظلم لتحل محلها بنية جماعية إسلامية إيمانية إحسانية، فأئمتنا غذاهم الربانيون المؤمنون المحسنون، وولاء الجماعة لا ينفتح إلا لمن هاجر وأعطى برهان الصدق على ذلك برهانا مستمرا في كل صباح ومساء. والمسلمون بعد ذلك في توادهم وتراحمهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

هذا البناء العضوي هو تنظيم الجماعة وإنه لتنظيم مراتب الخدمة ونفع الناس، وإنه لتنظيم أدوار أرضية يمثلها مؤمنون لهم روحانية كشفت لهم عن الغيب فازدادوا إيمانا ويقينا وعلموا أن لا

خير إلا خير الآخرة، فهم لذلك يعملون ولرضى ربهم يسارعون ومغفرته. هذه رحمتنا بيننا غدا يوم تقوم قائمة الإسلام إلى الإمام المجاهد ولاؤنا ولجماعة المؤمنين، وإلى الله مرجعنا فنحن له في كل حركة عابدون. وأما مبدأ الرفق تجاه العالم الذي يعوض في شرعة الإسلام مبدأ المعاداة، كما يعرضه تورين، فهو الدليل والشارة على أننا أمة متميزة عن الخلق كما يليق بأمة تحمل رسالة الرحمة. عندما يستخلفنا الله في الأرض فلن تكون خلافتنا سوى خلافة رعاية، فإن الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله كما جاء النطق النبوي الشريف، ونحن نرغب إلى ربنا ليحبنا فلا نستعلي في الأرض ولا نطغى.

الإسلام غدا يطرح نماذج السلوك والتنظيم الاجتماعي، ويجتهد وينظم تنظيما ربانيا قوامه النخبة الإيمانية الإحسانية وهي نخبة خدمة وطبقية ايثار وبذل.

ولنأخذ من مصنوعات العصر نموذجا تصوريا لنقرب بنية العمل الإسلامي كما قربنا ضرورة التعبئة الجماعية إذ شبهنا موقفنا بموقف الجيش المحارب، الطائرة ينظرون بنيانها ويهندسون ويخططون، فذلك مقام الاجتهاد والتنظير يقوم به رجال الدعوة الإسلامية. ويشرف مهندسون على بناء الطائرة تحت إمرة رئيس، فذاك هو القائد المجاهد. فإذا تم تركيبها وصنعها وضع المحرك مكانه

ومليء وقودا كان لابد لتحرك الطائرة من قائد يعرف الوجهة ويحسن لمس الآلات ويعرف أسرارها ويسهر على راحة المسافرين، ويحرص أن يلزم كل مكانه وأن يؤدي كل موظف وظيفته. فالقائد هو الإمام الخليفة الرائد، والمحرك هو قلوب هذه الأمة يحييها وقود الإيمان، والعاملون لتجهيز الطائرة وتنظيم مراتب المسافرين وخدمة الرحلة كلها هم الربانيون. وكل أولئك تربطهم راوبط الهجرة لهم يقين بأن الطائرة تملك أن تقلع وأن الوجهة المتفق عليها المقصود إليها بقيادة القائد هي الله، وأن التضامن العضوي والتعاون شرط لنجاح الرحلة.

فهكذا المسلمون في الأرض مرتحلون إلى دار النعيم، إبان فتنتهم يجهز كل واحد رحلته في مشروع الخلاص الفردي، فإذا نشر لواء الإسلام كانت الرحلة الجهادية الرائعة التي تقلع بالأمة فيكون إقلاعها وحسن هيئتها بلاغا للناس جميعا وتبليغا للرسالة الخالدة المتجددة.

إن الله عز وجل لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، فهو يعلمنا بمصير الأمم ويعلمنا بكل صغيرة وكبيرة من آياته في الأرض وفي أنفسنا. وقد يكون عجزنا عن التعلم من النظام الرمزي الذي شرعه الله لنا في الصلاة ناتجا عن غفلتنا ومنتجا لها. ضرب الله لنا مثلا للنظام في الصلاة، وهي أهم

أمورنا، فالمسجد مجمع لنا ينبغي أن نأخذ عنده زينتنا وأن نجمره ونعطره ونوقره ونجلس فيه مجالس الإيمان. ولكل مسلم مكانه في صف الصلاة أمام المحراب أمام الله، ولا تصح الصلاة في الجمعة والجماعة إلا خلف إمام شرطه ذكورة في روحانيته وعلم يعقل معه التكليف العظيم ويعرف معه أركان الإمامة وأركان الصلاة. وعلمنا الله آداب النظام في صلاة الجماعة لكيلا ينخرم صف، وعلمنا أن نظام الصلاة الجماعية يرفع أجر المصلين سبعا وعشرين درجة.

وفي الآفاق علمنا الله أن النظام ناموسه الأكبر، به تتماسك الكائنات وبه تحيا الأمم المائتة. وسندخل المسجد إن شاء الله آمنين يوم الفتح الأكبر يوم الإسلام غدا.

الفصل الخامس

من القلة إلى التقلل

العدل

استعملنا مفهوم الإقلاع لتمثيل حركية الإسلام المنبعث وحركيته، وأصحاب الفكر الاقتصادي يستعملون هذا المفهوم حين يتحدثون عن إقلاع اقتصاد أمة متخلفة في حركته للتصنيع ومغادرته لمعيشة القلة. ولعل عنوان هذا الفصل يفهمه القارئ عروجا عن هدف الإقلاع الاقتصادي وهو التصنيع المؤدي للكثرة. ونشير هنا إلى أن الكثرة لا تعني القوة بمزية وتعطيها الكثرة وتعطيها الصناعة وحدهما، ونشير إلى رحلة المسلم قاصدة لما وراء الكم وقد تكون الكثرة الاستهلاكية أهم ما يترفه عن مقصده. فلذلك ينبغي أن يكون بناؤنا الاقتصادي يرعى هدف الكم في إطار المقصد الإيماني والغاية الإحسانية لكيلا يترف جهاد الإسلام في الهدف الاقتصادي كما تترف الجاهليات الواحدة تلو الأخرى ريثما يأتي دور الخبراء الحمر. ولن تكون جماعة الإسلام غدا مجتمعا استهلاكيا، وإن الخلافة على منهاج النبوة رهن استمرارها بنجاح الأمة الحية المجتهدة في الإفلات من دوامة الاقتصاد الاستهلاكي.

بلوغ الهدف الاقتصادي هو وعد الإيديولوجية في دعوتها ونجاحها في تحقيقه برهان تزعم أنه يزكي علمية المذهب وصلاحيته. ويشكل الوعد الاشتراكي من كونه وعدا ومن كون وسيلته

دكتاتورية وتعبئة منظومة عملية ناجعة تمارس في ظل عمليتها كل التسخيرات التي تربط الإنسان بعجلة الإنتاج. فلذلك تنجح الثورات الشيوعية ولو بعد حين في تصنيع البلاد وإعطاءها القوة. أما بلاد الفوضى المنظمة فإنها تعرض علينا نموذجا مختلفا، في هذه البلاد استقرار سياسي وعادة موروثة في حفظ الحقوق وحكمة قومية خلفها العنف التاريخي، ويشكل كل ذلك منظومة تشجع التعايش في ظل المطالبات والمنازعات الاجتماعية بين العمال وأصحاب المال.

ولما استيقظ المسلمون على واقع العالم بوخز الاستعمار ولسعه وفتكه وجدوا الشيوعية والرأسمالية تتنازعان السلطان في العالم ووجدوا أن موضوع النزاع خيرات الأرض وأن وسيلة الصراع القوة التي يعطيها التصنيع. وتتلمذت أجيال المسلمين للفكر الجاهلي، فكان جل همها بلوغ الهدف الاقتصادي. فكانت تجربة اللبرالية في بلاد المسلمين نسخا سطحيا للنظام الرأسمالي، ولم تستقر اللبرالية في بلاد المسلمين ولن تستقر أبدا لأن رأس المال الحاكم بأمره في بلاد الجاهلية الرأسمالية أشد ضراوة وأوسع فتكا في بلاد مجتمعها منحل ضعيف. في أرض الجاهلية حس مرهف بالحقوق وميدان مفتوح للعدل يخفف من سلطان رأس المال، أما في بلادنا فإن رهافة الحس بالظلم لا تجد ميدانا للعدل ينفس عن

المحرومين وطأة طاغوت المال. فيزداد عندنا الغني غنى والفقير فقرا، وإذا استنسخنا تنظيمات مطالبية كالنقابات فإننا نستورد شكلا فارغا نضع عليه اللافتات التي من ورائها طواغيت يستنقون من دم العمال والمحرومين ويعرقون ما أبقاه طاغوت المال. إن كان يستقيم لعالم رأس المال أمر فذلك لأن العنف التاريخي ربى الناس وهذب لهم نظاما اجتماعيا استقروا عليه، ونحن عنفنا بالأمس وعنفنا اليوم خلف لنا غليانا مظهره تفاوت الفرص بين من يملك ومن لا يملك، فيرتفع قوم بجاه المال يرشون به الحاكم ويحرم آخرون ويتركون. وفي هذا المثلث الموبوء يترف الغني بما ابتزه ويترف الحاكم بما ارتشى ونهب، ويترف المحروم بالظلم الواقع عليه، ففي قلبه بغض وغيظ فأنى له أن ينتج !

والوعد الشيوعي يخاطب المحرومين بأفصح لغة يفهمونها وهي لغة الرزق ولغة العدل ولغة استرجاع السلطان من يد المستأثرين المتسلطين إلى يد الطبقة الكادحة. والثورة الشيوعية عند قيامها تنزع الملكية وتسوي بين الناس جميعا وتصنع وتعطي القوة للقومية الشيوعية. وإذا كانت هذه الشيوعية خبيرة وحمراء معا وكانت شيوعية مجددة كما هو الحال في الصين فإن لغة الخطاب الإديولوجي تكتسب في ميدان التطبيق جهارة وإغراء حتى تصك آذان العالم. وفي بلاد المسلمين آذان تسمع وعقول تفكر وتدبر

يحذوها المثال الشيوعي بعدله ومساواته ويتحداها ظلم المترفين الظالمين. فلهذا ينقلب المنقلبون ولهذا يتمرد الشباب، ولا يبغون عند الشيوعية تفسيرا للعالم والإنسان ولا يبغون عندها فلسفة، إنما يأخذون كل ذلك الغلاف الإديولوجي لمكان المحتوى الملفوف فيه وهو العدل الاجتماعي ورفع الظلم، ولمكان العمل البطولي المنفتح في وجه من يناصر المحرومين ويعلن الثورة على الظالمين.

ولن تقوم ببلاد المسلمين شيوعية أبدا لأن الأمة سليمة، لا تزال، في عقيدتها ولأن الوعد الإسلامي يخاطب هذه القلوب المسلمة بقوة حتى ولو كان ذلك على صعيد تأمل التاريخ الحي تاريخ عمر بن الخطاب وأمثاله. ولئن ظهر في أفق البلاد الإسلامية قوم زعموا أنهم شيوعيون وتحدوا بذلك نفاق وعجز من يخفون حيرتهم برفع شعار الاشتراكية الإسلامية فإنما هم سحابة صيف، وسيأتي الله جلت عظمته برجال يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

إن المسلمين في حالة فقرهم وضعفهم لا يستطيعون أن يخطوا لأنفسهم منهاجا عمليا للحياة يتمثل في الواقع المحس، يتمثل في إيجاد عمل للعاطلين، وإيجاد طعام للجائعين وكساء للعرايا وسلاح للمقاتلين. عالة نحن نتكفف الناس على مائدة وعدنا

الله أن نكون خلفاءه عليها إن آمنا وعملنا صالحا. ونستورد أسلحة وطعاما كما نستورد إيديولوجية، فأما الأسلحة فلا تعمل في أيدينا لموضع الجبن وخوف الموت في قلوبنا، وأما الطعام فيتجر به المترفون ويبقى الجائع جائعا والمحروم محروما، وأما الإيديولوجية فدمية تتنكر في أيدينا بما وضعناه عليها من ألوان نموه بها مصدر لعبتنا الفكرية، وتكون الإيديولوجية عند الناس عقيدة وسلاحا للقتال، وتكون عندنا انحلالا خلقيا وعنفا فوضويا.

إن المسلم في عصرنا أحق الناس أن ينعت بأنه «إنسان مظروف»، تتحكم ظروف فتنته في فكره وحركته فلا يعي نفسه أبدا إنسانا حرا، تتحكم فيه حاجات الاستهلاك التي ورثها من معاشرته للحضارة الجاهلية، فالبزة والسيجار والسيارة وما إلى ذلك حجته الوحيدة على أنه انسان. وتتحكم فيه قماءته وعدم ثقته بقيمة لم يشهد له الأساتذة الجاهليون بأنها قيمة حضارية. وتتحكم فيه عاداته، فإن كان محروما فعادة الكسل والغيظ المكتوم العاجز عقاله، وإن كان مترفا فتوقانه لتقليد الإنسان الجاهلي المثقف المتحضر يغرقه في هم مقيم خوفا من أن تفوته «المودة» أو يرى وفي رقبته شناق لا يتناسب والبزة العتيدة. ومظروف أيضا الثوري الصادق لأنه ينظر إلى نفسه وقومه وإلى العالم بعين مستعارة، ويجتهد اجتهاده فلا يبلغ إلا أن يعبد تمثالا جاهليا أو

وثنا فكريا يفتح له باب العالمية الاشتراكية يحسب ذلك تحررا ويحسب العمل من أجله رجولة ويبذل نفسه وعصارة فكره ومنتهى حيلته في ذلك.

مظروف ومستلب، وفي لغة الإسلام ممسوخ، كل من يقترح على المسلمين سبيلا غير سبيل المؤمنين. وما سبيل المؤمنين أن يستحيلوا ملائكة في السماء لا حاجة لهم ولا جسد ويتحدون قوانين الاقتصاد تحديا لا يقدر عليه غيرهم. إنما سبيل المؤمنين في علاقتهم بالأرض والجسد واقع يلح القرآن الكريم في إثباته والاعتراف بمشروعيته وتقنينه. فواقعية الإسلام اعتراف كامل بحاجة الجسم وحاجة الجماعة المسلمة للشرعة التي تنظم علاقتهم في الإنتاج والتوزيع، وتنظم ملكية الأموال والأرض وتعطي للعملية الاقتصادية وظيفتها الأولى في إطعام الجائع واليتيم قبل أن تصرف الهمة المسلمة لاقتحام سائر العقبات.

في حدود المعنى الوجودي والغاية الوجودية للإنسان، وفي حدود المقاصد الإيمانية والعمل لليوم الآخر، يأمرنا الله عز وجل بالعدل في أموالنا ويوصينا بالتكافل بيننا، وقد جعل في شرعته مكانا لتنظيم تعاملنا كبيرا، وتجد الله تعالى يأمرنا بالصلاة في قرآنه فلا يفصل لنا عدد الركعات ولا مواقيت الصلاة، فإذا تعلق الأمر بالملكية وتنظيمها فصل الله تفصيلا فيه معاني الحدب على حقوق

بعضنا إزاء بعض، وفيه الاعتراف الضمني بأن المسلم ما هو ملك يمتنع على المغريات. يقول الله تعالى : ﴿**وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ... وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾.

الهدف الإسلامي للاقتصاد عدل، والمقصد الإيماني من الاقتصاد قوة مثلها الله برباط الخيل إشارة لضرورة إرهاب العدو وردعه بأقوى الأسلحة، والغاية الإحسانية من الاقتصاد نموذجية تبرهن للعالم أن الإنسان يستطيع أن يخرج من دائرة الإنتاج والاستهلاك.

أول درجة من درج المنهاج فك الرقبة وإطعام اليتيم والمسكين، فذلك هو هدف العدل. وأول الفقه المنهاجي في الدعوة إلى الإسلام أن نقول للمسلمين المفتونين ما يأتي به الحل الإسلامي من عدل، وما دخل الناس أفواجا في دين الله إلا انتجاعا لعدل الإسلام. وجعل الله تأليف القلوب على الإسلام مصرفا من مصاريف الزكاة، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم فأصبحوا دعاة للإسلام لا يدعون لجنة ونار وإنما يدعون لنبي يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ولقد طبعت النفس على محبة

من يحسن إليها، فلذلك جعل فاطر السماوات والأرض ومن فيهن من الرباطات الإجتماعية الأساسية العدل في العطاء والكرم. وإن معنى أن يكون تأليف القلوب مصرفا من مصاريف الزكاة أن الله عز وجل يعلم أن من الناس من لا يسلم إلا انتجاعا للخير، وإن كان مولانا عمر بن الخطاب منع من جاءه يزعم أنه من المؤلفة قلوبهم ويريد عطاء فحالة مفردة والشرعة القرآنية ماضية إلى يوم الدين.

فإذا دعونا إلى الإسلام دعوة عامة فينبغي أن نعرض إسلاما يعدل ويسوي ويرد المظالم، وإذا قام الإسلام غدا فإنما قاعدة الإقلاع النموذجي هو رفع المظالم وإعطاء الخير. إن الفلاح لا ينتج إذا كان الحقل ملكا لغيره، وإن العامل لا ينتج وإن الناس لا يخلصون في بذل الجهد إلا إن كان جهدهم واضح المنتوج وكان حق العامل والمالك عدلا وتساويا.

غداة قيام الإسلام يجب أن تعاد المظالم لتستقر الأنفس قبل أن يطلب منها أن تتعبأ للجهاد. من كان بيده ملك اغتصبه بنوع من أنواع الاغتصاب، الظاهر منها والمتستر، رد الملك إلى أهله، ومن كان يملك أرضا لا يعمل فيها فإن في الإسلام ما يبيح أن تجعل الأرض لمن يحرثها، ومن كان له فضل مال فإن رسول الله أمر أصحابه بإنفاق الفضول حتى ظنوا أنه لا حق لأحد في

فضل زائد على حاجته الضرورية. ومعنى توزيع الفضول في الفقه المنهاجي لعصرنا تجميع لرأس المال على أساس جماعي تكافلي يضمن حق الفرد وحق الجماعة، فأول الفضول وأشدها وباء مال مكنوز توعد الله من كنزه بأشد العذاب، فهذا يجب أن توضع له قوانين تسيله وترده لأيدي التداول. والفضول بعد ذلك كل مظاهر البذخ المستنزفة لدماء المساكين. ففي ظل الإسلام لن تستورد السيارات الضخمة ولن تبنى القصور. وفي ظل الإسلام يشبع كل جائع من حيث يردع أصحاب التخم عن عاداتهم.

وقبل أن نستطيع نزع الإنسان من الملكية بوازع الإيمان حتى يملك ما يملك وليس له هم إلا شراء الآخرة بالدنيا، لا بد أن نستقر الاستقرار الإسلامي على حق الملكية الخاصة للأرض بشرط المصلحة العامة. وإن لنا لمتسعا في الضرائب التصاعدية وفي سائر التقنيات الاقتصادية ما يخولنا أن نجمع بين مزايا الاقتصاد الحر ومزايا الاقتصاد الموجه إن اجتهدنا وجاهدنا. وعلى أساس العدل العام تتقيد المصالح الخاصة وتتهذب بوازع السلطان أولا. جاء الضحاك ابن خليفة يشكو لعمر بن الخطاب أن جاره محمد بن مسلمة لا يترك الماء يصل إلى أرضه عبر أرض جاره، فسأل عمر مانع الماء هل في عبور الجدول لأرضه ضرر، فلما أجاب أن لا قال عمر : « والله لو لم أجد له ممرا إلا على بطنك لأمررته !».

المصالح العامة يقدمها الإسلام على غيرها لمكان العدل، فحتى الميراث الذي قننه الله تعالى تفصيلا أمرنا أن نعطي منه أولي القربى واليتامى والمساكين إن حضروا، ومعنى الحضور لا يختص بمكان القسيمة، وبهذا فإن هذه الملايين من المنبوذين العرايا الجاهلين في حكم اليتم والمسكنة، وإنها لمظلمة أية مظلمة أن يرث المترف ملايين من أبيه ولا يعطي اليتامى والمساكين من ذاك المال، إنه مجافاة للحق وخروج عن أمر الله وتنفير للقلوب من الإسلام لا تأليف.

والناس، كما أمر رسول الله شركاء في ثلاث، في الماء والكلإ والنار، وإن في هذا لمجال لاجتهادنا في نشر عدل الإسلام.

وهناك مظلمة عامة حصلت وتحصل في ذمة كل مالك للنصاب بأرض المسلمين وهي الزكاة. فالزكاة ضريبة واجبة يقاتل مانعها، ونتاجها مادة يبارك فيها الله تعالى ويزكي بها تكافلنا الجماعي. وهذه المظلمة يجب أن تكون من أول ما يستخلص من المظالم غداة قيام الإسلام.

لا نطلب إلى المسلمين أن يبذلوا جهدا لا يقدر عليه غيرهم، لكن لا يمكن أن نطلب إليهم بذل أي جهد قبل أن يبرهن لهم السطان الإسلامي غداة قيامه أن الناس سواسية في الرزق وأن الأمر جد. ولئن قدر الصينيون الخبراء الحمر أن يلغوا حافز الربح

المادي من نظام الإنتاج، فلنحن أحق بها وأهلها يوم يستيقظ في قلبنا الإيمان ثقة بالله وبمن ولاه الله فعدل في القسمة.

إن هذا الإنسان ضعيف، وإن الله بارئه شرع أن يتألف قلبه على الإسلام، وإن رسوله سيد الرعاة رأف بالخلق وتألف الناس على الإسلام وأعطاهم من الدنيا ما به رجعوا إلى ربهم.

أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابيا فغضب واستقل العطاء، وهم به بعض المسلمين ليقتلوه، فمنعهم الرسول من ذلك وزاده حتى رضي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم1: « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها. فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واستوى عليها. وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار!»

ألا إننا معشر المسلمين المفتونين نافرون عن ربنا، ولهو عز وجل أرفق بنا وأعلم، وإنه جعل لنا شرعة العدل وهدانا لمنهاج العدل حتى ينال كل المسلمين من قشام الأرض وخيرها ما به تستقر نفسه وما به يلتم جرحه المزمن وحزازته المكبوتة من ظلم الظالمين. وما يصلحنا إلا توبة الإسلام ورفق الإسلام وعدله الحازم.

اليقظة والانضباط

في المال حق الزكاة، وفيه حق زائد على الزكاة، وفيه فضول يجب أن تنفق وشرعة الله واسعة لاجتهاد المجتهدين. لكن بيننا وبين تحويل الأموال في دار الإسلام من اتجاهها التكاثري لمصلحة طبقة الإقطاعيين أو الإداريين أرباب التقنوقراطية الاشتراكية عقبات أهمها فساد الإنسان وخراب الضمير.

من أين تأتي البنية الاقتصادية المريضة في بلاد المسلمين يوم يصبح لواء الإسلام عاليا؟ إن ضرورة العدل كقاعدة للإقلاع قد يبدو تحقيقها مستحيلا لأن الإدارة في دار الإسلام أكثر الإدارات فسادا. فلعل الأيدي التي تجمع الزكاة أيد سرقت وتعودت السرقة في عالم لا تقطع فيه يد السارق، ولعل قاضي المحكمة الذي وكل إليه أن يرد المظالم لأهلها قاض مرتش ألف الفساد في بلاد لا يقتل فيها ويصلب ويقطع من خلاف من حارب الله ورسوله وأفسد في الأرض. فمن أين نبدأ ؟

إن أهم أساس تنظيمي للاقتصاد تشريع يحطم الوضع الممسوخ ويعوضه بقانون عادل. وإن أسبق ما يغير فيه التشريع الوضعي الممسوخ في دار الإسلام أن تعاد الحدود الرادعة للفساد الإداري . وأي مجهود لبسط قاعدة العدل أمام الانبعاث الإسلامي يتسرب

بين أيدي السارق والمرتشي إن لم يكن وازع السلطان أول قوة تفجأ المجتمع المفتون بحزمها ومضائها.

يتسرب الضعف للجهود الاشتراكية في دار الإسلام من كونها تنخنس من الثورية المزعومة نظريا إلى إصلاحية ضئيلة يزيدها ضآلة وضلالا جبن القادة وفساد الإدارة. وما هكذا يفعل رجال الثورة الجاهليون ! إنها عندهم تعبئة و«حالة طوارئ»، وإنهم يأخذون بالشبهة ويجندون الشعوب في حراسة يقظة لكيلا تغتال الثورة ويمضي أمرهم بجد وينتهون إلى هدف.

ما للمسلمين نفير يتعارفون بنشيده لكن لهم أذانا تعرفه قلوبهم وتحن إليه، فإذا أذن مؤذن الإسلام غدا فيحمل كل من في قلبه إيمان سلاح اليقظة ويوضع الميزان برفق الربانية لكن بقوة العدل ومضاء الإرادة المؤمنة، ويبدأ التحرك الإسلامي في جو الغبطة ومشاركة المستضعفين في الأرض، فرحتهم بالإسلام تزيدهم رغبة ووعد الإسلام بالعدل يعطيهم قابلية لتمثيل الحزم في الشارع والبيت. إن كان شيوعيو روسيا يشجعون الجاسوسية بين الناس فإلى فساد التجسس أوصلهم الحرص على الثورة واليقظة لكيلا تغتال الثورة.

وما ينبغي للمسلم أن يتجسس لكن عليه أن يفضح من ظلم الأمة ولو قلامة ظفر وعليه أن ينضبط فلا يجعل التوبة فوضى

وثورة وعنفا. وبين نار الرادع الشرعي وحزم الأمة المستضعفة يجد رجل الإدارة والقاضي وكل من له سلطة عاملين قويين ليغير من سلوكه وينفذ أمر الإسلام ويحفظ الحقوق والأموال.

الإصلاح الإداري لا يعني أن نهضة الإسلام تتوقف على حسن الإدارة وحده، فذاك وهم مخطئ تمام الخطإ، لكن صلاح الإدارة شرط لا يرتفع للنهضة والحياة. إن اليد المنفذة في جماعة المسلمين يجوز أن تكون يدا غير متوضئة عند الضرورة ويجوز حتى أن تكون يدا غير مسلمة، لكن لا يجوز في قانون الله الذي به تسير الأمور كلها أن تكون يدا غير أمينة وإن القطع ورادع الحدود لا يكفي وحده لإصلاح الإدارة بل لا بد من يقظة الأمة كلها ومراقبتها في الغدو والرواح لرجل السلطة.

هذه اليقظة جزء من المهمات الجماعية التي يشهدها مفهوم النصيحة والتواصي بالحق والصبر. وإقامة العدل ليست وظيفة الحاكم بقدر ما هي وظيفة المحكوم. فلذلك يتشخص التساوي بين المسلمين تحت نظام إسلامي في الحق كما يتشخص في الواجب. للحاكم المسلم المؤمن الذي أعطى برهان صدقه كل يوم حق الطاعة وواجب النصيحة في صرف وازع السلطان إلى وجهة العدل، وعلى المحكوم واجب النصيحة باليقظة لكيلا يغتال العدل وله إن فعل حق التمتع بخير الإسلام وعدله، فإن لم يفعل بطلت

الحركية الإسلامية وعطلت الجماعة واجبها في القيام بالقسط. ومن معاني القيام بالقسط في مستوى الهدف الاقتصادي السهر المراقب لحركات الشريك في الرزق بالصدق والنصيحة والتوجيه تواصيا بالحق وتواصيا بالصبر. فصبر عن حق الغير يحملك عليه رادع الحد ويقظة الجماعة وصبر على الكد يحملك إليه استبشارك بعدل الإسلام وبأن جهدك لن يستغله غيرك وأن حقك لن يضيع.

إذا وضعت قوانين تقضي بإنصاف المحروم، وهي موضوعة فعلا في بلادنا وضعا للزينة، فإن مجرد وضعها لا يغير من واقع الأمر شيئا. ذلك لأن الحق يضيع إن لم يكن وراءه طالب، ويزداد ضياعا إذا كان الجهاز الإداري متعفنا، فإذا اجتمعا أصبح العدل الإداري شعارا على المنصات السياسية فارغا.

فمشكلتنا الأولى العائقة للإقلاع الاقتصادي هي نفس المشكلة العامة المجتمعة في العنصر البشري. إن هذا الإنسان قشة بالية كأنما أبلتها حضارة تليدة وتاريخ مجيد بعد أن استنزفت كل عناصر الحياة فيها. إن هذا الإنسان غثاء لا يتحرك بنفسه وإنما يحركه السيل فهو مع مهوى المياه لا يمتنع وينفعل ولا يفعل. وكأنما هذا الغثاء البشري ضغطه ظلم الظالمين فألف على مر العصور أن يكون عبدا مستغلا خادما، وإن كان فيه غضب ونخوة فهو يكتمها وينفس عن كبده باللعنة الصامتة الناطقة بسوء حال هذه

الأمة، بأسمالها وجهلها ومرضها.

لا يكفي إذن تشريع إدراي يرفع المظالم ويقيم الحق، بل لا بد أن يدمج التشريع العادل في سياق يقظة تبعثها حياة الإسلام بروح إسلامية يحرر الرقبة ويقتحم العقبة. في مناهج السياسة وأساليبها يتخذ التهييج المكانة الأولى، فمن أراد أن يكون له أتباع وأن يجمع الناس ليحشرهم في مشروعه صاح وأوعد وشكا الظلم وزعم الدفاع عن المحرومين إن كان في صف المعارضة، فإن كان من الصف الآخر هيج الناس ضد «أعداء الشعب» وتعالت الأصوات في بلد الديموقراطية، في مهدها الجاهلي أو عند مجتمعات الكراهية في دار الإسلام، ويتخذ التهييج في بلاد الحزب الواحد شكل الفوران الثوري الحماسي ترتفع حرارته بانخفاض ثقة الناس في العمل الاشتراكي.

وبين ضرورة اليقظة الجماعية وضرورة الانضباط والصدق يخط الإسلام برفقه مذهب النصيحة، فلا هيجان ولا كذب، والهيجان إنما يعتمد على الكذب. لكن الصدق من القائد المجاهد يحيي بحياة الرجاء وبحياة العدل المفتوح مجموعات المسلمين المستضعفين حتى يشاركوا في إنهاض أمرهم ويشاركوا في الدفاع عن لوائهم . وإن هذه الأعداد المهملة المظلومة من مساكين المسلمين ويتاماهم كانت رقابها موهوقة في يد الفتنة المزمنة، ثم طوقها رق مخز في يد

الاستعمار وهي اليوم في عبودية الطاغوت القومي أو الطاغوت المستنسر بالسلطان الجبري. ولقد نشأت على الكذب وهانت عليها القيم حتى لتوشك أن ترجو مخرجا من أوهاقها. وكل هذا ضعف، ومن الضعف تأتي القوة أبدا إن كان الإيمان. فمتى دعا داعي الإيمان بصدق وأعطى الحق بصدق كان ذلك كفيلا أن يبعث من مجراه الجبري هذا الغثاء فيتحول جندا منظما يقظا منضبطا.

حدث في الثورات الشيوعية وفي الإنقلابات المبرقعة أن قام مظلومو الأمس ينتقمون لأنفسهم، في الفوضى الثورية أو بوسيلة القمع المنظم. وكان هذا الشكل من اليقظة لائقا بالجاهلية فهي جهالة عنف، صفتان لا تنفك عنها. وامتازت الثورة الصينية التربوية برفقها على الناس، وحلت تناقضاتها الداخلية كما تعبر الإديولوجية بإعادة التربية واستردت الثورة إلى صفوفها أكثر من خمس وتسعين بالمائة من النقضاء الطبقيين للجماهير الحاكمة. وكان في الصين رجال أعمال وصناعة نزعت الدولة منهم أموالهم نزعا رفيقا، إذ عوضتهم إيرادا حسنا، لكنه إيراد لا يستطيع أن يشتري في الصين إلا الضروري من الطعام والكساء، فما أمام أصحاب المال إلا أن يندمجوا طوعا أو كرها في الجماهير.

وإن من طبيعة الضعيف المضطهد أن ينفجر إذا وجد قوة،

فلكيلا نخلط الفقه المنهاجي بالتهييج السياسي، ولكيلا يشتبه علينا الجهاد في أرض الفتنة لإنقاذ إسلامنا ينبغي أن ندرك جيدا أن مستقبل الانبعاث الإسلامي يتوقف على انضباط المسلمين خاصة غداة القيام بقدر ما يتوقف على يقظتهم الجماعية. ويندس في صفوف العاملين من يتربص الدوائر، فلذلك يقتضي الموقف مهارة قيادية كبيرة تنظم إيقاع الحركة المنبعثة وتوجه سيرها في انسجام ورفق حتى لا تكون الفوضى. ومعنى هذا أن التدرج القانوني واللجام الإداري يكونان في يد القائد المجاهد بمثابة مصراعي الباب يفتح هذا بقدر ويغلق الآخر بقدر ما يسمح أن تتنظم الحركة فلا تنخنق ولا تفيض.

مكان القائد المجاهد في بعث اليقظة وضبطها كمكان قائد الجند، درس تعبئته بالنظر للمأمورية الجهادية بعد أن درس عنصره الإنساني فعلم الجاهل وعالج المريض.

الركود أحد أمراض الأعداد الغثائية الكارهة للموت الحريصة على حياة أي حياة. وعكس الركود الفوران والفوضى. وبين طرفي الخسار استواء الانضباط المقبول بعد الضبط المفروض. والمرض الثاني هو مرض العطالة، وهو مرض من أعراضه الكسل وانعدام المهارة وعدم التحكم في الوقت.

يعرف كل من نظر في حال الناس ونظر في شؤون الاقتصاد

ولو نظرة غير خبيرة أن أركان النهضة الاقتصادية ثلاثة : تشريع عادل ينظم العمل الاقتصادي، وتعبئة المال، وتعبئة الرجال.

فتحدثنا عن ضرورة يقظة الضمائر لمراقبة الجهاز الإداري وإصلاحه، وتحدثنا عن ضرورة مشاركة الأمة كلها في السهر على عدلها، وتحدثنا عن ضرورة انضباط الرجال لئلا يتحول البعث الإسلامي ثورة وفوضى، وكل هذه تعبئة جزئية لا تكفي لإيجاد شروط الانطلاق الاقتصادي. لا تكفي يقظة الضمير والمشاركة السياسية، لنستعمل هذا الاصطلاح الجاهلي كما يفهمه الخبراء الحمر تضحية وخدمة، وحدها، بل لابد من الجانب العلمي الذي عليه يقوم العمل وبه يقوم العمل وهو قابلية الأفراد للمساهمة في بناء الاقتصاد باليد والعقل والوقت.

هذه القابليات قليلة جدا في بلاد المسلمين بالنسبة لحاجتهم على كثرة المثقفين حاملي الإجازات عندنا. ففي الوضع الراهن تنقصنا الخبرة نقصا فظيعا لسببين اثنين : أحدهما مترتب على عقلية قديمة تفضل التكوين الأدبي على الخبرة العملية خاصة إن كانت هذه الخبرة تتوقف على العمل اليدوي. والسبب الثاني عملية الاستنزاف الاستعماري التي بمقتضاها علمونا وأقنعونا أن الخبير الأجنبي رجل ناجع فاعل موثوق بإنجازاته وأن الوطني لا خبرة له وإن حمل الشهادات. ولطالما تأكد لنا بالتجربة ذلك حتى

أصبح لنا عقيدة وعقدة، ويئس الخبير الوطني من نفسه وهاجر لأرض الجاهلية بأعداد ضخمة يبغى أجرا أعلى ويبغى جوا للعمل تصان فيه كرامته ويشعر بأنه مكان للثقة.

فنضيع ضياعين : أحدهما أننا نعطي الأجنبي أجرا مضاعفا عدة مرات لقاء وهمنا بتفوقه، والثاني أن الخبير الأجنبي لا تصدره لنا بلاده إلا لقلة كفاية أو بنية نسف أخلاقنا واقتصادنا وأدمغتنا.

فهل يستطيع الإسلام في انبعاثه أن يجمع جيلا من الخبراء المؤمنين ؟ لا شك أن واجب الهجرة إلى الله ورسوله يقضي أن يسرع أصحاب الخبرة من المؤمنين لأرض الانبعاث، وأن في أرض الإسلام رجالا مغمورين في هذا الطور الغثائي من تاريخنا يترقبون كما تترقب الأمة بأجمعها نداء الإسلام وأذانه. ثم إن الإسلام غدا لن يكون جزيرة منفصلة عن العالم، بل سيتعاون مع الناس تعاونا مصلحيا بشرط أن لا يغطي اصطلاح التعاون الكسل الوراثي والغفلة التي يصادق عليها ترف المترفين ومجاملتهم لمن يحسبونهم شيئا من سكان عالم الجاهلية.

إذا لم يفسح لكل إنسان باب العمل بقي عاطلا، وإذا كان يظلم في القسمة كان عمله المتراخي أشبه شيء بالعطالة، وإذا تضافر عليه الظلم وقلة المشغل مع خمول الهمة المجتمعية كان مثالا للكسل وهبطت إنتاجيته هبوطا يصرح بما هو فيه وبما ينتظره من

هوان ووهن من يكره الموت يكره العمل ويكره الجهاد ومن يحرص على حياة أي حياة يقنع بما دون الجوع والعري من أسباب الحياة أو يصرف همه كله ليجمع أكثر مما جمع جاره. فالجاهلية التكاثرية يتجلى حرصها على الحياة في الكدح الدائب التكاثري ومجتمعاتنا الراكدة يكتسي قعودها عن العمل وكسلها فيه لباس التزهد الذي أصبح عادة موروثة.

يحفز الجاهلي طمعه وحبه للظهور وإرضاء شهواته وحاجاته المتجددة ويحفز رجل العقيدة للعمل أمله في خدمة الصالح العام مثلما نرى عند الصينيين. وكلا الرجلين يعمل وينتج وبالإنتاج تروج السوق، فسوق للاستهلاك في عالم الجاهليات الاحتكارية وسوق قوة في الصين وتحرر واعتماد على النفس.

وفي بلادنا تعيش الأعداد الهائلة في وقت أزلي طويل لا يعمره إلا جلسات الكسل ولا يحدده إلا ظلمة الليل ووضح النهار، وكأن الوقت يصرف الناس على هواه، فوقت بارد يدعو للانكماش، ووقت حار يحبب الظل، ووقت واسع لا ينبغي أن يتحجر بميعاد ولا أن ينضبط بميقات. وإن وقت الكسل مرتبط بمكان الكسل وعلاقات الكسل، فوقت دولان الدولة يكسل فيه الحاكمون بمتعهم فلا يدبرون إلا أمر شهواتهم ويكسل فيه العاطلون حيث لا جدوى من عملهم، ومكان الكسل حيث يستحوذ الظالم على

الأرض وما عليها ومن عليها، وعلاقات الكسل تقيد أيدي الناس لأن أكثر الناس حيلة وكذبا ومكرا هو الذي يرتفع به المجتمع وهو الذي يتاح له أن يمضي الوقت في الاسترواح ولعب الأقداح.

سلم القيم

خلق الله الآدميين متفاوتين في قوى الجسم والعقل متفاوتين في ارتفاع الهمم. فمن الناس من لا يوضع عليه أبدا سؤال الغايات الإنسانية، لا يضعه على نفسه ولا يسمعه إن وضعه عليه غيره إلا بأذن غير صاغية. ومن الناس من يلح عليه نداء المطلق ويقضي العمر باحثا عن تحقيق جوهريته والخروج من سجنه سجن العادة والحياة الدوابية. وكل واحد من الناس يسعى على الأرض تحركه حوافز تتفاوت مراتبها : فإنسان يستجيب لداعي العدل في القسمة والعدل في المتعة والعدل في الفرص المتاحة وهؤلاء أغلب الناس وعامتهم، وإنسان يبذل للجار والرفيق ويفيض الخير على غيره بداعي المحبة والأريحية أو بداعي الواجب العقدي.

وتتفاعل هذه الحوافز داخل المجتمع فتكون عقلية خاصة وعادة خاصة في المعاملات، وتتفاوت المجتمعات على سلم القيم استعدادا لتغيير حالهم إلى أحسن منها، فالمجتمعات الراكدة تعمها المطالبة بالعدل وتختار قيما مستعارة من حضارة أهل الكثرة فيتعذر عليها من إمكاناتها، ولأن المطالبة مع الركود والقلة تنتهي إلى غيظ مكتوم أو متفجر معلوم على ظلم يتشكل ويتلون. وأما المجتمعات المصنعة الجاهلية فإن سلم القيم التي تحفزها سلم

متع وجاه وزيادة في الدخل ورفع لمستوى المعيشة. ومن شأن العقلية الاجتماعية أن تغمر التشوفات الفردية وتستعصى عليها، فالأفراد الذين يتحركون بحوافز عالية يحسون بالغربة بين مواطنيهم فينكمشون على سلوك فردي متطهر منابذ للوسط أو تكون لهم قوة فيدعون إلى تغيير المجتمع ويرفعون راية الثورة على الأوضاع. وأحيانا تتضافر عوامل الوعي الطلائعي مع تفشي الظلم وقلة المعاش فتولد مجتمعا مضطربا متهيئا للثورة.

وهذا هو وضع بلادنا الإسلامية، فإن فيها غليانا على السطح في طبقة واعية تعتمد على تهييج الجماهير، والذي يؤسف هو أن هذه الطبقة الواعية منحرفة القصد لسوء ما علمها أساتذة الفكر الجاهلي. إنها تريد حرية وتريد عدلا وتريد تساويا، لكن حريتها وعدلها لا يتجاوزان سلم القيم الأرضية الاقتصادية، ولهذا فدعوة هذه الطبقة لا تتجاوز المذهب الاقتصادي العلمي.

ومن ثم فإن اقتناعها بالمذهب الاشتراكي العلمي يشمل اقتناعا بآلية التغيير اللينينية الماركسية . وهذه الآلية الثورية عمادها التطور التهييجي، يبدأ بمرحلة تجميع القشرة الواعية من المفكرين، ثم تبث هذه القشرة غضبها لتوعية المحرومين بالظلم الواقع عليهم، ثم تتبنى الصراع الطبقي وتخلقه خلقا، وتنتظر أن تسوء الأوضاع التي ثارت عليها وتساهم في النزول بها إلى أسفل دركات الفساد

لكي تجني الثمرة ناضجة عندما تنغلق أبواب العمل ويجيء وقت الوثبة الحاسمة على الحكم.

هذه قيم هابطة، قيم الغضب والحقد الطبقي، قيم النزاع على الخبز وقيم الحرية المادية التي تنتهي عند التصنيع والبناء الاقتصادي. وهذا الغضب والحقد هو المحرك النفسي الحقيقي للثوار لا الحتمية «العلمية» الماركسية. إن فكر اليهودي الفيلسوف فصل تطور التاريخ وأدرك أن حالة قوى الإنتاج ومدى تطورها ينعكس في علاقات الإنتاج، فعلى رتبة تطورها يكون أسلوب الإنتاج ونظام الملكية. هذا واقع لا جدال فيه بصفة عامة، لكن ثورية الفلسفة إنما جاءت من ربط كل ذلك بنفس الإنسان وشعوره بالظلم، وجاءت من الصياغة الجدلية لتطور الصراع الطبقي. وتشكل الفلسفة الثورية شبكة عقلانية تفهمها كل العقول بجهد متعمق يملأ آفاق المثقفين أو بكيفية مبسطة تدخل عقل العامل المسكين فتستعمره ويصبح إمكان تعلمها ووضوح منطقها قيمة في حد ذاته.

الذي يواجهه المسلمون في الوضع الراهن، وضع ما بعد خيبة الاشتراكية أو وضع ما قبل الانقلاب الاشتراكي، هو سلم القيم الشيوعية، فبعضنا جرب اشتراكيته الملفقة فلم تغن شيئا ولم تحل مشكلا، وبعضنا لما يجربها فهو لا يزال يتوقع الخلاص الاشتراكي

وكلانا لا ينفك يهفو إلى مجتمع شيوعي يحمل اسما تقبله الأمة المسلمة.

مأساة المسلمين الراهنة وحيرتهم بين القيم الشيوعية لا يفرجها إلا فضح هذه القيم التائهة بإنجازاتها الاقتصادية بقيم أعلى منحها محتدا وأكثر فاعلية في ميدان الإنتاج والقوة. ولا يمنع رجال الدعوة الإسلامية ولا يثبط من عزيمتهم صعوبة التباري مع سلم القيم الديالكتيكية المادية المشخصة في دول متعددة متنوعة، ولا يفت في عضدهم أن ليس للإسلام ركن واحد قام فيه الاقتصاد وقام فيه الاجتماع على قيم إسلامية.

من رجال الدعوة الإسلامية من يدفعه اقتناعه بأن المجال الاقتصادي موضع لقيم نسبية آلية فدعوته إلى الإسلام دعوة روحية محض، وكثير منهم يشعرون بأن صراع الحق والباطل يجب أن يتم أولا على ميدان المعركة الذي فرضته ظروف القلة التي نعيشها وفرضته قوة المذهب الماركسي في هذا الميدان متغذيا من سوء هذه الظروف وإلحاح مشاكلها ومن نماذجه الناجحة القوية. ويكتب رجال الإسلام في الاقتصاد الاسلامي يساهم كل بما عنده فمن يذكرنا بعدل عمر ابن الخطاب ومن يشرح الماركسية وينتقدها ويرفضها.

ونحن نعتقد أن القيمة الاقتصادية قيمة نسبية آلية ونعتقد

يقينا أن نظام رب العالمين لا تقاس به أنظمة الحالمين. لكننا نسمع ربنا جل شأنه يخبرنا أن أموالنا هي لنا قيام، ويأمرنا ألا نوتي السفهاء أموالنا فنفهم الأمر على عمومه ونعرف الحق أمر الله تعالى إذ نرى تبذير السفهاء لأموال المسلمين تبذيرا لا يقاربه تبذير الصغار القاصرين. فإن كان هؤلاء يلزمهم الحجر فإن أولئك أحق أن تنزع منهم أموالهم لتكون لنا قياما.

وفي قراءة ورش : ﴿**أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَماً**﴾ فهي قيم ولا بد للدعوة الإسلامية أن تضعها موضعها في سلم القيم. وهذا هو موضوع الفقه المنهاجي، أن يصنف القيم ويدل على الغايات قبل الدلالة على المقاصد والأهداف.

تنتظم حول الهدف الاقتصادي كل الحوافز وكل الطاقات عند الاشتراكيين، فمن أجل الهدف الاقتصادي يتحرك الإنسان ويتحرك المجتمع كله ومن أجله وطبقا له يجري تغيير البنية الاجتماعية والأنظمة السياسية، ومن أجله وطبقا لمقتضياته يعبأ الإنسان ويطوى الإنسان ويستلب الإنسان ليصبح دابة فاعلة منتجة لها حركات على إيقاع حركة الآلة ولها دؤوب وسرعة كسرعة الآلة. وهذا التنظيم يعطيك آخر الأمر إنسانا نموذجيا هو ستاخانوف في بلاد الشيوعيات أو العامل «المتلير»[1] في بلاد الكثرة الاحتكارية.

1 السائر على نظام حركة العمل الذي ابتكره الأمريكي تايلور.

نرى الشيوعية التربوية في الصين ترفض أن تطحن الإنسان في رحى الاقتصاد فتبتدع قيما أعلى وبذلك تكذب الحتمية الشيوعية المادية وتنقل أسى اليهودي الفيلسوف على الإنسان المستلب في العمل المستعبد إلى الواقع اليومي، ونراها على هذا النحو تجدد للإنسان الفرد شرفا وسط مجتمعه وتعطيه قيمة يكتشفها إذا قرأ «الفلسفة» وشارك في «السياسة»، ويكتشفها إذا خرق ناموس التقنية وابتدع وأبدع.

فهل أعطت الصين للإنسان قيمة أعلى من قيمته الترابية الدودية الاقتصادية ؟ كلا! فالجاهلية جاهلية لا تبرح، والإسلام وحده يقترح علينا قيمة الغاية الوجودية للإنسان وطبق هذه القيمة ومن أجلها وتبعا لها ينبغي أن تنتظم القيم الأخرى على سلم الإسلام والإيمان والإحسان. وفي هذا السلم مكان للاقتصاد يعرفه الإسلام ويشرعه الله لخلقه وينظمه نظامه الأزلي الذي لا تتخلف نتائجه، إن أموالنا لنا قيم، كانت قيما في عصر النخلة والجمل، وهي اليوم لنا قيم في عصر الاقتصاد والتكنولوجيا.

كان صاع التمر الذي جر عليه أبو عقيل الصحابي الجرير طول الليل لينثره في صدقة المسلمين قياما وقيمة. كان صاع التمر الضئيل وصعوبة العمل بالحبل طول الليل دليلا على أن الإنسان إذا حركته الحوافز العالية أقدر على العمل وأكثر صبرا عليه، وكان

ذلك دليلا أن على القيمة المعنوية التي حركت أبا عقيل ليساهم في الصدقة ويشتري رضى الله ورضى رسوله هونت عليه البذل إذا كان بذل صاع التمر ثمنا لاستحقاق العضوية في الجماعة المؤمنة وبرهانا على أن أبا عقيل قيمة تستطيع الجماعة أن تعتمد على إخلاصها وأن تقوم أمورها عليها.

لا نحتاج في عصرنا لأكثر من صبر أبي عقيل وبذله إن أضفنا إلى ذلك عقلا متفتحا للعلم متحررا من وهم امتناع التكنولوجية علينا متحررا من عقلية الركود الأنانية المعرضة عن الجماعة.

قيمة العامل في بلاد الجاهلية المتكاثرة، شيوعية وغيرها، هي قيمة الأجر الذي يعطاه، وقد قنع الإنسان الممسوخ بهذه القيمة واندرج في سلمها التكاثري فلا يطالب إلا بزيادة الأجر ليزداد متعة. وقيمة عمل أبي عقيل وإن كان أجرها المادي ضئيلا صعدها الحافز العالي، وباركها أنها سعي من أجل الجماعة وبذل وقربة لله.

لا حديث للماركسية إلا قيمة المال وقيمة العمل وفائض القيمة وما إلى ذلك مما يؤكد لكل مرتاب أن الاقتصادية الماركسية والفلسفة الثورية ونظام المطالبة الصعلوكي تهافت حول قيمة واحدة هي قيمة الدابة الإنسانية في حال عركها في الرحى الإنتاجية وفي حال تفكيرها وفي حال نظامها الثوري. ولذلك ترى «قدماء الشيوعية» يلتفتون إلى الصين بعجب ثم برهب ونصب

إذ يكتشفون أن المروءة الإنسانية ومعاني التضحية والشجاعة والإيثار هي التي تقترح على الجماهير الصفراء عوضا عن القومية الاشتراكية البطولية وحدها المتصلبة بعلميتها الماركسية اللينينية.

وأعجب من هذا أن الخبراء الحمر يعملون منذ الثورة الثقافية ومنذ ألغي الحافز المادي، حافز الأجور، أكثر مما كانوا يعملون من قبل، والأعجب أن العامل يخترع ويسهر وأن الفلاح ينحني على حقله طول النهار وطرفا من الليل ثم لا ينسب لنفسه مزية إن ارتفع الإنتاج لكن ينسبه لجماعته.

ينظر إلى كل هذا الشيوعيون وأنسباءهم الجاهليون المحتكرون فترهبهم الصين ويخطبون ودها بعد أن أعياهم الافتراء على الصيني المنحل المتفكك الأوصال الجائع العاري. ومم يخافون يا ترى ؟ أيخافون من القنابل الذرية فهي أحقر من أن يحسب لها حساب أمام أسلحة الجاهلية السابقة ؟ أم يخافون من كثرة عدد الصينيين فالمسلمون أكثر منهم عددا ولا يحسب لهم حساب؟

إن الذي تخافه الجاهلية القديمة بجزئيها هو سلم القيم الذي يسود الآن بلاد الصين إثر الثورة الثقافية. إنهم يعلمون أن الإنسان يحن دائما بدرجة من الدرجات إلى الارتفاع عن المستوى الدوابي، ويجب أن تخاطب أريحيته وتحترم قيم الرجولة والمروءة والبطولة. وكل هذه قد فرغ منها مجتمع الإجرام الغربي ومجتمع الطبقية المترفة

الروسية، مجتمعان يحنان إلى التغيير وتوشك الدعوة الماوية أن تتغلغل في العالم المصنع تغلغلها في بلاد المسلمين الضعفاء.

صراع العالم صراع قيم، هي قيم تكاثرية، غنيمة الصراع خيرات العالم المادية، وعلى هامش هذه القيم تعيش قيم طفيلية سطحية كقيم السمعة السياسية وقيم الخطب الأممية وما إلى هذا، ومن كل هذه القيم لا نأخذ نحن الجد وإنما نأخذ الهين اليسير، فلا القومية بلغت بنا أن ننمي الاقتصاد ونتحرر من الاستعباد ولا الاشتراكية أعطتنا سلاحا ورجالا نحرر بهما بلادنا. وفي بلاد الصين رجال يجرون الحبل ويسهرون النهار والليل فيتجاوزوا صراع العالم بقوة الحافز وشدة العزم، وأرهبوا العالم بإيديولوجية متعلمة مربية، إديولوجية أعطت برهان نجاعتها في هذه الصواريخ وفي هذه الأقمار والقنابل والإبداع الذي سيبهر العالم أكثر مما بهرته جدية السير.

كانت الماركسية الحالمة واللينينية المصارعة تحلل واقع المجتمعات المستعدة للثورة وقابليتها لإنجاز العمل الثوري على ضوء الحالة النفسية للقاعدة الشعبية. فإذا كانت القاعدة الإنسانية سوى الضغط سطحها حتى أصبحت صالحة لتعكس تيار الغضب الطلائعي فذلك هو إبان زرع معاني التضحية والتضامن الطبقي وتجاوز الحياة الفردية من أجل حياة الجماعة ومن أجل نجاح

القضية الحزبية. إذا كان الإنسان قد جهلت قيمته على مستوى الرزق وجهل حقه في الكرامة واستغل عمله وظلم ظلما شديدا فسبيل إثارته أن تزرع في وعيه قيم غير موجودة ليتطلع إليها ويبذل في سبيل نيلها روحه ويثور ويقاتل، وعلى هذا الأساس قامت ثورة ماو، وكان الحقد الطبقي دافعها، وهذا قدر مشترك بين كل الجاهليات.

وقد دخل الآن سوق القيم العالمية بضاعة جديدة رأينا كيف أعجب بها الكاتب الإيطالي وتذكر يوتوبيا عالم الإنسان الكامل إنسان الفقر والعفة. ولعل هذا الكاتب الجاهلي يحسب أن إنسية الشيوعية الصينية وعاطفتها كما كان يصفها الخصوم هي كمال الإنسان. وكيف للناس أن يعلموا أن قيمة الإنسان أعلى بما لا يقاس وأن للإنسان جوهرا خالدا بعد موت الجسد ؟ من أين لهم أن يعلموا ذلك ونحن المسلمين لا نعلم لأنفسنا قيمة إلا على سلم التصنيع والتخلف الاقتصادي نزن أنفسنا بميزان الاقتصاد كما يزننا الغير!

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ صدق مولانا العظيم. وصدق من دعانا إلى أن ننتزع من حلبة المزاحمة على القيم الجاهلية بتغيير ما بأنفسنا تغييرا يكفل لنا أن نأخذ جد الأمور لا سفسفها ونرفع مرمى نظرنا لنتجاوز في الخطو

مواقع خطى الجاهلية، ينشد المسلم كماله الروحي من حيث يبذل ومن حيث يتعلم ومن حيث يتقلل ليدخر صاعا من تمر وساعة من نهار ليغني بها جماعة المسلمين. صدق من دعانا إلى أن نكون أساتذة العالم فنحن أحق بها وأهلها إن عشنا على ضوء قيمة الإنسان الإحسانية ليهون علينا تحقيق الهدف الاقتصادي.

التحويل الثقافي

قبل أن تقلع الطائرة لا بد لها أن تتخذ وضعا خاصا مسامتا لخط السير ولا بد لها أن تعدل عتادها ونظامها وفقا لهدف الرحلة. وإن إقلاع الإسلام لا بد أن يغير من أجله قادة الجهاد عقلية الأمة وعتادها ونظامه وفقا للغاية الإحسانية ووفقا للمقصد الإيماني والهدف الإسلامي، وقد رأينا أن قاعدة الأمن الاقتصادي أساس عليه تعتمد نهضة كل حركة لأن حامل الرسالة رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فقبل أن نكلفه بحمل الرسالة لا بدا أن نهيء له أسواقا تضمن له حاجاته الضرورة، وإنه بدون طعام لا تقوم أجسام وبدون أجسام لا تقوم أعمال.

من أهداف التنظير للبعث الإسلامي وهدف الاجتهاد وهدف الفقه المنهاجي أن نعرف كيف ندمج العمل الاقتصادي في سياق البعث العام، وأين نضعه وكيف نؤسس حركيته. إذا حصل في نية القيادة الجهادية رفع لواء الإسلام وجمعت الإرادة التنفيذية إلى روحانية الدعوة فأول مهمة لها أن تلتقي هذه الإرادة المركزة وهذه النية بإرادة المجتمع الراكد في أعماقه المضطرب في سطحه، والعقبة الرئيسية أمام هذا اللقاء هي عقبة الثقة، أو قل عقبة انعدام الثقة، فمهما كان صدق القائد ومهما كانت قدرته على العمل وعلى

الاقتناع فستبطئ عنه الاستجابة وستتخلف عنه إلى حين ضمائر سجينة في سياج عقلية راكدة أو عقلية فوارة. والعقلية عادة فكر وعادة حكم والثقة انفصال عن العادة وحركة نحو الجديد.

هذا التناقض بين ركود العقلية الواقع وبين تحرر الإنسان ومشاركته وثقته حله الصينيون بزعزعة الثورة الثقافية للعقلية السابقة في انسجام مع خط العدل الجماهيري. ونحله نحن بتحويل روحي قاعدته عدل رد المظالم، ومع التحويل بعملية التوبة تبدأ عملية التحويل الثقافي.

الفرق بين طائفة من الناس مندفعة نحو هدف ما بقوة لا تنضبط وبين حركة الجماعة العضوية البانية المنظمة قد يكمن في إمكان التفاهم الفكري بين القيادة والقاعدة بقدر ما يمكن أن يكمن في إحكام الخطة والنظام فالمسلمون غداة بدء الرحلة أشتات موزعون بين عقلية الأمي الغريب عن هذا العالم وبين عقلية أمي الفكر الذي تعاورته الآراء المتضاربة المتناقضة، فعقله هواء، وبين المثقف المترف في ثقافته، ومن العسير أن يتفاهم كل هؤلاء فيما بينهم وأن يتفاهموا مع القيادة الجهادية لأن كلا ينطق بلغته ويجري في مهيعه الفكري بعقليته المتحجرة على الجهل البسيط أو على الجهل المركب العزيز بعقلانيته. إن لكل جند تعبئة كما له قيادة، لكن حركة العمل لا تمكن إلا بتربية فكرية أدناها

أن يحفظ الجندي صيغ الأوامر لكي يستجيب وفق الإرادة القيادية في انسجام تام مع فريقه، وأعلاها أن يتحرر عقل الجندي من أساره، ويعي نفسه ويعي جماعته وعيا جديدا ويعي قيمته ومهمته في الحياة فيسلك حسب ذلك منضبطا حريصا على الصالح العام. وبما أن التعبئة الإسلامية ليست تجنيدا إجباريا يعطينا مجموعة عمال آليين بعقلية مجتمع ستاخانوفي، فإن التربية الفكرية اللازمة لنا هي تربية تحرر الفرد وتفتح له آفاق التعلم وآفاق الإبداع وآفاق الجهاد اللائق بالمسلمين.

أغلبية الأمة المسلمة رجال ونساء وأطفال ورثوا الأمية وورثوا عقلية خرافية، ومن يتلقى منهم تعليما فإنما ينحصر تعليمه في مجال ضيق ثم إذا أتم تعليمه رجع إلى أميته فتجد الموظف يكتب ويقرأ لكنه أمي لا يتعلم ولا يبتكر وتجد المعلم والتقني قد انحسر فكره وتحجر وكف عن التعلم وكف عن النمو. وإما يكون التعليم تحويلا بعيدا ينقل المرء من عالمه الوطني إلى عالم الحضارة الأثاثية يعيش فيها بجوارحه ويرصد لها ماله ومالا يقترفه نهبا، ويعيش فيها بفكره مستعبدا عابدا لأوثان عقلانية تمسخه عن دينه أو عقلانية سياسية تمسح بها فأخذ يظن أن الحق له وحده وأن له بسطة العلم تخوله أن يحتقر الناس جميعا ويسخرهم إذا عجز أن يكون ثوريا أصيلا مثل وثن الثورة كويفارا الذي كان يخدم الناس ولا يسخرهم.

وهكذا الناس طائفتان : فطائفة مترفة بثقافتها، وأخرى ليس لها من العلم إلا قليل بقدر ما يركبها به الغرور فتتوقف عن التعلم وتعود في حساب الأميين الخرافيين. وكلا الطائفتين بحاجة إلى تحرير من الجهل البسيط والجهل المركب. فبعد تحرير العنصر الإنساني تحريرا نفسيا يعيد له الثقة بالقيادة لا بد من تحرير فكري يمكنه من أن يربط بالناس وبالعالم علاقات منطقية، وتجعله واعيا لقيمة عمله مدركا للأسباب والمسببات، وتجعله أكثر فاعلية في شغله.

وفي الطائفة المثقفة فريقان أحدهما نوع استعصى على الانقراض بمحض المعاناة الدفاعية عن نوعه وهو فريق المعاهد الدينية كما يسمونها، والفريق الثاني وإن كان ظهر وليدا غريبا أصبح صاحب السلطان ورب الميدان وهو فريق «العصريين». هؤلاء يسخرون من أصحاب المعهد الديني كما يسخر كثير منهم من الدين نفسه، وأولئك ينسحبون شيئا فشيئا عن مواقعهم ويتشبهون بالعصري على قدر ما يناله هذا من حظوة ونجاح اجتماعي. ومع تدهور الأمة وابتعادها عن الإسلام في الحياة العامة والخاصة بارت بضاعة المعهد الديني واختلط الأمر إذ أتى تلامذة المعهد الديني بتفرنجهم الفكري وتنكرهم للدين أكبر جريمة ارتكبها المثقفون في دار الإسلام. كان الناس ينظرون إلى العالم المسلم نظرة تقديس ونظرة

نموذج يقتدى به، فلما تفسخت أخلاق بعضهم وما استحيوا من الله إذ أنكروا الله رآهم العامة فخاب ظنهم في الناس وخاب ظنهم في الإسلام.

مثقفونا فريقان : عقول مكونة تكوينا منطقيا هم أصحاب الثقافة العملية وهم أصحاب الحول والطول، قضيتهم إن كانوا منحطين قضية استعلاء أناني يترقب المناصب ويفتضح بخلاء الذمة وسوء السيرة، فإن كانوا أعلى من ذلك فإنما قضيتهم التحرر السياسي والتنمية الاقتصادية، ونعم القضية لو كان غاية ما ترسمه أن تكون أمة الإسلام أمة حرة حقا بالمعاني الإيمانية الإحسانية.

وقضية علمائنا وتلامذة المعهد الديني قضية إحياء الإسلام، لكنها قضية لا تسمع ولا تقبل لأن من بين أصوات من يدافعون عنها أصوات ديدان القراء المنافقين، ولأن عقلية بعض علمائنا لا تزال عقلية خرافية لا تتسع لمنطق العمل أو تتصور العمل تصورا صبيانيا، وأعرف من الناس المنتمين لهذه الفرق من يعتقد أن بعث الإسلام له مظهر وحقيقة ومخبر تجتمع كلها في منع الخمور وسدل الخمار، ومن يزعم لنفسه وللناس أن الإسلام ينبعث في أسرع من لمح البصر لو ولي الحكم جماعة من أمثاله.

قضيتان لا تلتقيان في ذهن المثقفين، مثقف يعتقد أن الدين أفيون الشعوب، ومثقف لا يحسن أن يعرض قضية الإسلام العرض

الكامل الذي يدرج الأموال التي جعلها الله لنا قيما وقياما في سلم حقائقه. فلا لقاء يرجى بين مثقفينا إلا بتحويل ثقافي يتم على صعيد التوبة العامة. وإن لمثقفينا لطاقات سائبة مسلوبة مستلبة مبذرة لما لم تجد منهاجا يجمعها. وكما أن الانشقاق السياسي في الصفوف صيغة عملية لغثائية الأمة الذاهبة مع السيل فإن الانشقاق الثقافي صيغة عملية للجهل المركب، ويلم شعث ذلك كله فقه منهاجي يضع الأمور مواضعها.

التجديد الإسلامي جهاد يمتنع عنه ويتعسر عليه هذا العنصر البشري المتحجر على عقلية لا تثق بشيء ولا تطمح إلى شيء إلا طموح مطالبة. الناس يحبون أن يتمتعوا ببضائع الاستهلاك لكنهم لا يستعدون ليعرفوا لها مصدرا غير المصدر السهل اليسير، لا يحبون أن ينالوا هذه البضائع بالكد والتعلم الضروريين لصنعها، يعوقهم عن ذلك الكسل الذي هو من صفات الركود ومن خصائص العقلية المتحجرة. فضروري أن تعبأ العقول من أجل تجديد كامل، وضروري أن يحول تفكير الأمة تحويلا نحو عقلنة علاقاتنا بالناس والطبيعة، ونحو تنظيم وقت العمل وعلاقات العمل.

عند الجاهلين أملت ضرورة عقلنة علائق الإنسان بالطبيعة وبالإنسان تنظيمات ضيقت معه شيئا فشيئا على المعاني الإنسانية في الحياة اليومية حتى كاد الإنسان الجاهلي أن ينحصر دوره على

الأرض في وظيفته الاقتصادية، فما تسمع إلا ساعة العمل وقدر المردودية وارتفاع الإنتاجية. وإننا الأمة الضعيفة العائشة في القلة لمحتاجون إلى كثير من كل ذلك ريثما نقبر العقلية المتخلفة. وإننا إن واجهنا قلتنا وضعفنا بإرادة إيمانية يعضدها الوعي بجدوى العمل والعلم التكنولوجي والتنظيم العقلاني لعلاقاتنا بعالم الاقتصاد فستتحول قلتنا كثرة ولا يبقى لنا خلال ذلك ومعه إلا أن نجتهد لكي تكون كثرتنا قوة تخدم غاية حمل الرسالة لا تكاثرا يردينا مع الجاهلين.

فريقان من مثقفينا وطائفة كبيرة من الأمة تراكبت في ذهنها القيم واصطرعت الاتجاهات، فقوم لا رغبة لهم إلا في التقنية والعمل المنتج والدخول في عالمية الاقتصاد، وقوم لا يبين لهم في ظلام الفتنة طريق إسلامي لبناء القوة، وسواد الأمة لا يتحرك بحداء هؤلاء ولا يجد أسباب الثقة بالآخرين. في بلاد القومية الاشتراكية تجند وسائل الإعلام وتجند سياط الحكم لتقنع الناس أن التنمية الاقتصادية ثورة من أجل هدف أسمى هو مجد الشعب القومي. وكم من شعب إسلامي غرته الشعارات وخدعته عن قيمه الإسلامية المغفول عنها وشمر عن ساعد الجد ليخدم القضية الاشتراكية، حتى إذا ظهر أن الاشتراكية تنهزم في ميادين القتال كما تنهزم في ميادين الإنتاج رجع الناس إلى انكماشهم واقتصر

اشتراكهم على طاعة سلبية.

وفي بلاد الكراهية الأخرى من بلاد المسلمين حيث تتدفق أموال هائلة يتهافت المترفون المتسلطون على عمل الكادحين ويربحون من حيث يخسر الآخرون، وبذلك يسود المسلمين شعور بالظلم والقلق والاضطهاد لا يشجع على تحويل العقلية الكسول إلى وعي إنتاجي.

كل هذا الذي كتبناه يصور مشكلة عدم التفاهم بين المسلمين وبالتالي عسر تعليم الجاهل وإعمال العاطل. الإرادات مشلولة والأفكار معطلة في ملهاتها المألوفة. لا يتفاهم الناس بأفكارهم لأنهم لا يتفاهمون في أسس كيانهم، تضطرب بهم دعاوي القادة والزعماء فطورا ينتمون للقومية والاشتراكية وتارة هم متوسطيون، طورا يلتمسون حلفا مع الشرق إذا لم يجدوا وسيلة للتحالف مع الغرب، وطورا هم مسلمون يبغون وحدة الإسلام وتارة عالمهم قاري لا توحده ولا يهم أن توحده العقيدة.

عدم الاستقرار العاطفي سبب ونتيجة معا لعدم الاستقرار الفكري، والاستقرار أرضية ضرورية للبناء. إنما يستقر العقل على قاعدة كيانية واضحة، وعلى نظرة للإنسان والحياة والمصير توحد وجهة الأمة، وسبب عدم التفاهم بين المسلمين نشأ عن اختلاف تصورهم للكليات، ومن هذا نشأ اختلاف تصورهم للجزئيات

العملية، الكليات التي يعتقدها القادة والمثقفون المحظوظون في الأمة هي الجاه والرتبة الاجتماعية والمال يخفونها في كليات التغيير السياسي ومجد القومية وبناء الاشتراكية. والكليات التي تؤمن بها الأمة إن كانت غير جلية من أثر الجهل وعشرة الجاهلين فمنظرها في العدل العمري المفقود المنشود وفي عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أجلى من كل شعار.

هذا الانشقاق الفكري المترتب على الانشقاق العقدي يقسم العالم الإسلامي تقسما طبقيا عبر الحدود الجغرافية المفتراة على دار الإسلام، فالمستضعفون هم بعقيدتهم متلاقون والمترفون بعقليتهم متشابهون. ومع تفاوت البلاد الإسلامية من حيث النماء الاقتصادي فهي متقاربة جدا من حيث عدم النماء الإنساني، ولا يغرنك كثرة حملة الشهادات في بعض البلاد وقلتها في الأخرى، فليس حامل الشهادة رجلا تحول نظره ضرورة من الفردية المستهلكة إلى الجماعية المنتجة المضحية. وإذا كنا ننتظر من مثقفينا أن يحولوا الأمة كلها تحويلا ثقافيا فسننتظر طويلا لأن مثقفينا يفكرون في مسارب المطالبة، لا تأتي منهم فكرة سياسية أو اقتصادية إلا ردا على فكرة الخصم ومحاربة له ومطالبة بكرسيه. المثقفون المسلحون ينقلبون على الخصم لكن لا يحولون عقلية الأمة، والمثقفون الآخرون يتصارعون في حلبات الفكر الاشتراكي

المستورد بعقول صنعتها أيد أجنبية صنعا عائدا لا يتاح معه أن ينفعوا الأمة.

عقلية المطالبة تقابلها حرية القيام بالواجب، وهي حرية الأحياء الذين تسود الثقة علائقهم ويحدو الطموح في الحياة العليا جهودهم. ويقابل ركود الطبقية السائدة في دار الإسلام تحدي العصر في شخص أصحاب الثورة الثقافية الذين تحولوا من دركة أحط بكثير من مهواتنا وانبعثوا بشعور جديد وروح جديدة.

قد يتصور بعض الناس أن التحويل الثقافي عملية تتم إن عبأنا وسائل الإعلام ونظمنا التعليم وأنفقنا في ذلك ما يكفي لنمحو الأمية وندخل كل الأطفال المدرسة ولنرفع مستوى المدارس. هذه جهود تنفع في جو الثقة والعدل أي في جو الاستقرار العاطفي. أما إذا جندت وسائل الإعلام والمدارس في جو اضطراب وظلم فلن يخدم تعليمك إلا أهدافا مترفة ثم لا يكون تعليما مجديا ولا حتى منتجا من حيث الكم لأن العاملين في الحقل مأجورون مغبونون وهم ينشرون في الأجيال عدوى اليأس والإعياء.

التحويل الثقافي يعني انتقالا من عالم تصوري إلى عالم غيره جديد حي، لا أقول انتقالا نظريا بل انتقالا عمليا، انتقال الفكرة من تأمل في الصحف إلى عالم الواقع،وانتقال العزمة القيادية إلى تطبيق يومي، وانتقال الخطة الاقتصادية من عالم التخطيط والإرادة

إلى دنيا الأرقام الإنتاجية. وكل هذا إنما يمكن إن تحول من بيده السلطان إماما للصلاة يصلي مع الناس جميعا على البساط لأن الصلاة لا تجوز على الكراسي والعروش. وبتحوله يمسك الرجل بالرجل يبث فيه إيمان قلبه وحرارة ولائه وإرادته بنفس الحركة التي يبث فيه العلم، ويتلقى الآخر بثقة ما لا يصله إلا خبرا باردا عن طريق وسائل الإعلام بلهفة الذي يريد أن يتعلم ويحرص على أن يتعلم ويؤمن أن التعلم عمل. وهكذا يسري العلم سريان الإيمان ومعهما الجدوى والفاعلية.

التعاون الجماعي

التنمية الاقتصادية قد تكون مفروضة بعامل خارجي، كمثل التي فرضها الاستعمار، ويكون منتوجها غنيمة للأجنبي ولا تنمي الإنسان. وقد يكون هذا العامل داخليا لكنه في صالح إقطاعية وطنية تستأثر بالمنتوج ولا تنمي الإنسان. ثم إن سوق رأس المال العالمية ترغب في تصنيع البلاد المعطلة إن كان فيها أمن لا تخاف معه على مالها، والمال المستورد قد يحرك الأرض ويبني هياكل اقتصادية لكنه لا ينمي الإنسان.

ما من بلاد المسلمين إلا ورث من حقبة الاستعمار جهازا اقتصاديا ما، ومنذ عشرات السنين تعلم المسلمون كيف يخدمون الجهاز الاقتصادي طلبا للرزق بعقلية المنتجع لا بحرية المشارك في بناء الجماعة. ما غير من ذلك الاستقلال السياسي وما غير من ذلك جهد الاشتراكية الضائع. فاقتصادنا اليوم اقتصاد طائفة دون طائفة، إن كان إقطاعا فإقطاع وإن كان اشتراكية فطبقة التقنوقراطيين الذين يجهرون للأمة أن الأرض لها وما عليها ويخافتون تواصيا وعملا بغير ذلك. لا تكاد تجد فرقا بين من يعمل انتجاعا واعتمادا على حذاقة المالك وعمله وتقنيته وبين التقنيين المدجنين في خدمة جماعة لا يؤمنون بمبادئها ولا يحبون أن يتعاونوا معها.

إن مشكلة الاقتصاد المتقدم في بلاد الصناعة العودة بالإنسان العامل إلى درجة من إنسانيته بحيث يساهم في الاقتصاد، في تدبيره وفي تخطيطه وبحيث يرفع عنه ضغط العمل المسلسل وضغط التوقيت التايلوري، وبحيث يعود إلى عضوية جماعة إنسانية ليس أجنبيا عنها. ومشكلتنا نحن الضعفاء مساهمة أيضا لكنها مساهمة تأتي من علم الجهل والقلة وعدم الجدوى. مشكلتنا أن نرفع العامل إلى درجة من الفاعلية والإنتاجية بوازع جماعي لا انتجاعي بحيث يشترك في البناء بوعي المالك لما يبنيه الحريص على إتمامه وإتقانه، وبحيث يساهم بفكره ليبدع وبماله ليجمع المال وبولائه ليتعاون في السهر على المصلحة العامة يقظا منضبطا. مشكلة أولئك مشكلة ترجع إلى إفراط في العقلنة وإفراط في الإنتاج، ومشكلتنا ترجع إلى تفريط في ذلك وإلى انعدام وشيجة الوعي الجماعي الذي نراه يزهر ويثمر في بر الصين.

عالم الجاهلية يحضن إنسانية لا رحمة بينها ولا تعاون، وعندما يتحدث فلاسفتها عن مجتمع تعاوني فإنما يخبرون عن العنقاء المغرب يطلبونها وهي ممتنعة أبدا. ولقد بقي بين المسلمين أثارة من بر ورحمة وتعاون لكنه تعاون فردي وبر فردي فيه معنى الصدقة وليس فيه معنى التكافل. أوفر منه بر النصارى الذي ينظمون صدقاتهم ومساهمتهم من أجل الدعوة وأوفر منه صدقات المتطوعين من

الجاهليين التي تأتينا لعنة لفاقتنا الكسول كلما أوفدوا لنا من يوزع الدقيق وينقذ الغرقى.

هذه الأثرة من الشعور بالرحمة ومن البر أطلال للتعاون الجماعي الذي لا نراه إلا مثالا في الخيال، وإلا نموذجا فريدا في حياة المسلمين الأولين. وإن التعاون الجماعي وظيفة طبيعية إن وجدت جماعة تربطها صلات عضوية، وإن هذا التعاون إن توسعت دائرته ونظمت حركته لهو الوسيلة الوحيدة لبناء اقتصاد إسلامي يواكب نموه نمو الإنسان. وحركة البعث الإسلامي وفق الحركية المنهاجية تتكامل بين وازعي السلطان والقرآن، وبين داعي الصدق الذي يتجلى أثره التعاوني في خصلة الاقتصاد النبوية وداعي الطاعة الذي يضم جهدا إلى جهد حتى يكون جهدا جماعيا توجهه إرادة واحدة موحدة بانية موثوق بها.

التعاون الإسلامي الجماعي يقوم على قاعدتين عقديتين : أولاهما أن نصيبك من الدنيا ما بلغك رضى الله، فكل ما تملكه ترصده للجهاد الإسلامي وتجنده في خدمة الغاية الإحسانية والمقصد الإيماني، والثانية أن المبذر والمسرف يوشكان أن يترفهما المال وأن تترفهما المتعة فلذلك يجب أن تتقلل من الدنيا وتجعل لك منها وقاية من الورع في المكسب ومن القصد في النفقة بحيث لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا.

وتلتقي المساهمة وهي مقولة نقابية في لسان المطالبة المصنعة بمعاني التقوى التكافلية الإيمانية في وحدة الجهاد الإسلامي بمحو الطبقية المستأثرة وبدمج الأجيال المتنافرة وبإعادة قيمة العمل اليدوي وبالاعتماد على النفس في البناء الاقتصادي. وكل ذلك هو محتوى التربية الباعثة ومن وسائله التحويل الثقافي الذي يقرب بين النظرات ويوصل الثقة بين الناس.

هذه اليد التي تعمل وتتسخ بالتراب ويخشن ملمسها بمعاناة الفأس وآلة الصناعة هي اليد القريبة للحرية والتحول والقدرة على التحويل، وقد رأينا كيف تعاد تربية الشيوعيين في الصين بمزاولة الأعمال اليدوية والشاقة الوسخة في صف المستضعفين العاملين. ورأينا كيف تذهب عنهم الكبرياء وكيف يكتشفون رحمة المساكين بالضعيف المقهور وكيف يساعدونه ويتعاونون معه. وبتحويل وظيفة اليد من مزاولة النعيم ولمس الحرير إلى وظيفة اليد النافعة يقع التحويل النفسي والثقافي ويلتقي المتخاصمون على صعيد البساطة الإنسانية كلهم ضعيف يحتاج للتعاون مع الجماعة.

وإن اليد التقية التي تمتد بالصدقة لا يكمل تقواها إلا بمناولة المسكين يدا بيد ليزول فارق الاستكبار بالغنى ولكي تكون المناولة رمزا لقوة التعاون. ولا يحب الإسلام أن تمتد الأيدي بالصدقة لتتعطل أيد أخرى عن العمل، فلذلك جعل اليد العليا خيرا من

اليد السفلى ولذلك قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدا خشنة كانت يد محترف وكان الأنبياء يعملون بأيديهم ليتأسى بهم الناس فلا يكسلوا وجرى على سنتهم أهل التربية الإيمانية الإحسانية فكانت لهم سنة قوة مثل التربية السنوسية التي كانت تتضمن الاحتراف باليد وكسب مهارات يدوية يتبارى في ميدانها الشيخ مع مريديه.

اليد في اليد رمز للتعاون إذا كانت الأيدي عاملة ماهرة، إذا كانت خبيرة ونشيطة في خدمة عقيدة، ومجموعة من الأيدي يؤيد بعضها بعضا تشير إلى القوة قوة التآزر وقوة السواعد المتآخية، فإن تيقظت الضمائر نشطت الأيدي وإن انضبطت الحركة بانضباط الإرادة اكتسبت الأيدي مهارة، فذاك انضباطها.

في البنية الاجتماعية الطبقية، سواء في ذلك تقنوقراطية الرأسمالية وبيرقراطية الآخرين، يشرف خبراء بعيدون عن ميدان العمل الفعلي على جماعة المنفذين يتخذون قراراتهم على الورق ويزيدهم التأمر استعلاء، ويضاف ضغطهم على العاملين إلى مضايقة ظروف العمل المحروس، فلا يجد العامل إلا مخرجا واحدا هو أن يصبح ستاخونوفيا بطلا جزءا من آليته أو متيلرا يتحرك «كالأتومات» المرصودة. واخترعت الصين عملا على قدر الإنسان حين رأت مآل البيرقراطية وفرضت العمل اليدوي والتعاون الفعلي

في الورشة والحقل بين رجال الخبرة الفنية والعمال ورجال الإدارة. كل يتناول الآلة ويتعب ويعرق، فإن كان برجوازيا عدوا داخليا للطبقة كلف من الأعمال الشاقة ما يكشف عنه وهم الأنانية ورد إلى التعاون بقهر السلطان ورحمة الرفاق الكادحين.

بدأ شقاء الإنسانية بالعمل، كما بين ماركس، مع تقسيم العمل إجابة للحاجات المتنوعة، ومع تعدد العمل وانقسامه انشقت وحدة الإنسان المتعاون المتكامل النشاط، والعمل اليدوي يرد هذه الوحدة ويقرب بين الناس فلا يكون للأمير ميزة إلا بكونه أقدر على التعاون وعلى العمل من غيره وتعتبر فيه ميزة التفوق الفني بعد ذلك فقط.

في مجتمعنا الراكد وفي كل المجتمعات الاستغلالية يعرف الرئيس بلين يديه وشموخ أنفه كما يعرف المجرمون بسيماهم، وتظهر أنانية المدبرين واستكبارهم على المنفذين أكثر ما تكون فضيحة في البلاد المستعمرة سابقا، فقد كان الرئيس الأجنبي يحتقر الوطنيين ويركلهم وله وحده الرأي، فلما ورثه الخبير والمدير من بين أبناء الوطن المستقل تقمص دور الرئيس المتأله.

بهذه العقلية التي لم تستطع مقاومتها شعارات الاستبداد الصعلوكي في روسيا ولا شعار المواساة في البلاد الأخرى سندخل عصر الإسلام غدا، وإن مشكلتنا أن ننزل الأمير ليعمل بيده مع

المساكين ويتعاون معهم ويشركهم في الأمر. وقد يظن بعضهم أن التوبة العامة التي هي عتبة العصر الإسلامي هي استتابة طبقة لطبقة، قيام طائفة نقية بتلقي توبة طائفة كانت مجرمة، ويؤول الأمر بهذا الاعتبار إلى وصاية طائفة مترفة بتنزهها على الناس، ويطلب إلى الأمة أن تقوم على خدمة جماعة طفيلية. وما الأمر كذلك، وأخطر الأخطار أن تسرق طائفة متأمرة أمر الجماعة المتعاونة المتضامنة. كلنا خطاؤون وكلنا كنا مجرمين، ومن رفض التعاون معنا فليس منا.

وسيكون التعاون شاقا لبناء الإسلام، المهام خطيرة معقدة ونجاحها يتوقف على قوة التوجيه وضبط التنفيذ وهذا قد يدعو الأمراء حديثي العهد بالتعاون أن يلتمسوا سلطة في شموخ الأنف.

ثم إن المشغلة شاقة عسيرة لأن وسائل الإنتاج متأخرة ولأن الطاقات الآلية قليلة فيضطر ذلك العمال لبذل جهد بدني شاق لا يقدر عليه المثقفون الخبراء. وهنا ينبغي أن تظهر كفاية الأمراء التربوية إن استطاعوا بتواضعهم ومحبتهم أن يلطفوا مشقة العاملين ويضاعفوا من حماسهم، فإنه لا يطلب إليهم أكثر مما يقدرون وفي حق كثير من الناس لن يكون العمل اليدوي إلا رمزيا لارتخاء الجسوم ورخاوة الأيدي ريثما نتعلم الاخشيشان والتمعدد وكبح النفس فنتعاون مع إخواننا.

لا عهد لنا بالتعاون فلا مناص لنا غدا من أن نتعلم كيف نتعاون فمن لقاء المسجد اليومي، مرات في اليوم، وعلى صوت قائد يجلس على البساط في خيمة الجهاد يبدأ التعارف وتنشأ بذور المحبة والتعاون. ومن هنا تنطلق عملية تربية متبادلة، فنرفع العامل من وحدته التي تتجهم له فيها الحياة لنشركه في المجلس ونشركه في الرزق حتى لا يبقى ساكن القصر وساكن الكوخ، والشوط بعيد بينهما والنفس لا تحب المساواة، لكن التربية تتحمل معنى الرفق ومعنى التقويم بالسلطان معا.

وبالتعاون في العدل نرفع الغني المكثر من بواره المترف إلى درجة حب المساكين ومشاركتهم في العمل والطعام والمسكن. ومن كان متعلما شارك الجماعة في تعليم الجاهلين، ومن دراهم الجماعة المتعاونة تتأصل أموال ضرورية لبناء الاقتصاد.

التربية الجماعية تضرب الشح ضربات، تارة بقوة السلطان وتارة بقوة الضغط الجماعي، وقد شرع الإسلام أن من غشنا فليس منا. ويتخذ معنى «فليس منا» شكلا تطبيقيا في حد الله المنزل على الذين يفسدون في الأرض، فمن منع الزكاة قوتل وقتل، ومن امتنع عن التعاون نبذ وهجر ومن كاد حركة الإسلام قطع وشرد.

إن انبعاث الإسلام بشرى لقلوب هذه الملايين الكثيرة من

المسلمين، والبشرى لا تقتضي أن يكون البناء سهلا مفروشة طريقه بالورود. إن هذه الملايين نسيت التعاون ونسيت الاعتماد على النفس بعد أن مزقت أوصالها كل ممزق وبعد أن رقدت كل طائفة في مذهبيتها أو قوميتها. وفي دار الإسلام عناصر للبناء الاقتصادي عتيدة لكنها عناصر غثائية لا تتماسك ويذهب بها السيل. لنا موارد طبيعية هائلة ولنا خبراء ولنا مال كثير، ومع ذلك فهذه العناصر تبذر تبذيرا، مواردنا يستغلها مال أجنبي بينما تذهب أموالنا للأمي الدافئ في حجر الأبناك الأجنبية تتناولها اليد الخبيرة الواثقة بنفسها فتوظفها عندنا وتربح ثم ترمي لنا بفتات ربوي نطعمه سما لا نقوم معه إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس.

ولنا خبراء وعلماء وأدمغة خام مهجورة في مدننا وقرانا، وهي سائبة ضائعة لا تجمعها آصرة قضية قوية تخدمها وإنما يشدها إلى بلادها عمل مأجور هزيل أو تقطع الحبال فتنقذف في بحر العالمية المذهب.

على مناضد رجال الحكم في دار الإسلام مشاريع لتوحيد المسلمين توحيدا سياسيا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة أي بمعنى التكتل الاقتصادي، ويظن قادتنا المساكين أن التوحد بين الشعوب المشعبة في بساطة وحدة الهراوات كما يقص القاصون، تربطها

بحبل تسميه دستورا موحدا فإذا هي رزمة لا تنكسر. وهيهات ! ولو تفيدنا التجارب المرة لتعلمنا أن نلتمس طريق الحق لنقوض به دعائم الباطل ! التعاون الاقتصادي بين البلاد الإسلامية ضرورة محتومة، والتعاون بين دار البعثة الإسلامية الحق وبين المسلمين في أقطار القوميات إلى حين ضرورة محتومة، إن لم يدفعنا إلى ذلك خشية سوء المنقلب فلا أقل من أن نعتمده حسابا للربح وضمان الحق. وسيكون تعاون الدولة الإسلامية في مهد انبعاثها مع سائر المسلمين تعاون اقتصاد يحمل معه دعوة، وسيتعلم المسلمون في الأرض من التجربة المظفرة بإذن الله الذي سيستخلف المؤمنين الصالحين ويؤيدهم كيف يتحرر الإنسان من أنانيته وكيف يرتفع عن مجافاته للعامل ويندمج في الجماعة المرحومة التي لا رحمة إلا معها.

إن إقلاع الاقتصاد الإسلامي قد يبدأ في قطر الانبعاث لكن لا يتم بناء الاقتصاد الإسلامي ولا يستوي استقلاله إلا بتوحيد دار الإسلام توحيدا قد يبدأ بتوحيد الاقتصاد. ففي المساحات الكبرى المتكاملة فقط يمكن أن تتجمع الأموال والموارد والعنصر الإنساني في مشروع ابتكار تكنولوجي متفتح على مستقبل حرية الإنسان على الأرض بحرية الإسلام وبتحرير الإسلام.

الاقتصاد المتغذي على عطاء خارجي اقتصاد محضون في

القطن هش يدغدغ حاجات المستهلك ولا يستنهض همته لمشروع رجولي، وغدا يوم يدعو داعي الإسلام للجهاد سيكون الجهاد الاقتصادي تقللا يكمل المؤمنون بواسطة مذهبيته ما في عناصر الإنتاج من نقص ببذل الإنسان واجتهاد الإنسان وابتكاره وتعاونه حرا يعيش بالضروري ليضمن غدا لأمته الخير والقوة والنصر، إن الله لمع المؤمنين. ومن كان الله معه فمكانه أن يكون لله عبدا وعلى نفسه سيدا يسقوها إلى الرباح سوق الذي لا يفرغ من عمل إلا لينصب في عمل غيره.

اقتصاد القوة

التطوع المنظم، التطوع بالمال والتطوع بالعمل والتطوع بالتعليم، هو وسيلة من لا وسيلة له في بناء الاستقلال الاقتصادي. نرى في بلاد الجاهلية أن من شبع واكتسى وأمن على غده عوادي الزمن يلين قلبه ويعطي ماله وعونه عن طواعية. المسيحيون ينظمون جماعات إسعاف وإحسان فدافعهم ديني عقدي. وهناك جماعات أخرى لا دين لها وهي تتطوع وترحم البائس وتنظم مساعدة المعذبين في الأرض. وفي بلاد الإسلام اليوم تتحول حتى جمعيات الإحسان التطوعية وكرا للغش والسرقة، ويدل ذلك على أن التطوع مستحيل في بلادنا على حالها الراهن. وسبب ذلك شيئان: أولهما أن التطوع لا يعيش إلا في ظل الطاعة، سواء كانت هذه الطاعة طاعة عقدية كما ينبغي أن يكون الأمر في جماعة المسلمين يطيعون أمير المؤمنين أو كانت طاعة مجتمعية في ظل قانون يعطي لكل حقه وحريته كما يتصور هو الحرية. والسبب الثاني لاستحالة التعاون والتطوع في بلادنا اليوم هو أن الناس لا يأمنون على غدهم ويخافون الفقر ويعتمدون على الغش والهرب بالحقوق إيثارا لأنفسهم على الجار المتربص والشريك الفاغر فاه.

فبانعدام الأمن وبانعدام التكافل الاجتماعي لا يمكن أن ينظم

التطوع جهود الناس ويوجه تعاونهم. وهذا يرجعنا إلى ضرورة قاعدة العدل كمنطلق للبناء الاقتصادي، ومن العدل تكافل المسلمين بحيث تتساوى دماؤهم وأموالهم وذممهم ويأخذ المحتاج نصيبه من الزكاة أخذا عزيزا.

الإنسان ضعيف كل الضعف في جو الوحدة الغابوية، فإن أعطيته ضمانا على رزق يومه وغده أطلقت سراح أفكاره من الهم ومن الحزن وأعطاك ما تشتهي من ذات نفسه، إن برهنت له على صدقك يبذل ما تحب أنت أن يتعاون معك ببذله طيعا. وعندئذ يكون لديك رجال أقوياء طائعون متطوعون يمكن أن تواجه بهم مشاكل الاقتصاد ويمكن أن تحول بهم وبتعاونهم المنظم ضعف البلاد قوة وفقرها غنى.

التهييء للتطوع تهييء نفسي يجيب حاجة الإنسان أن يستند إلى قوة يثق بها ويحبها ويرضي حاجته إلى الأمن على الرزق. وهذا ما تعطيه إياه المبايعة للقائد المجاهد في دار الإسلام المنبعث وما يلي ذلك من العدل التكافلي. فها هو هذا الإنسان قد تحرر من الخوف واستعد للعطاء والنصيحة وقام ليسهر على عدله يقظا حازما فهل يكفي هذا التحرر السلبي القاعدي لتعبئة جماعة مجاهدة ؟ لا يكفي ذلك، بل لا بد أن تعطي للطاقات المحررة وجهة وتقنعها بقضية وتربيها حتى تتحمس للقضية وتتبناها

وتستميت في سبيل تحقيقها.

تقول للناس : هذا إسلامكم وهذا لواء نبيكم دافعوا عنه، فهذا شعار عام قد يحرك حماسا كثيرا لكن لا يتحول هذا الحماس طاقة فاعلة منتجة. إنما الذي ينفع هو أن تجعل الأسبقية للتفقيه المنهجي فتدل الناس على دائهم أولا : تدلهم على داء المسخ بسبب الإعراض عن الله وتدلهم على داء الغثائية بسبب الخوف من الموت والحرص على حياة أي حياة، وتدلهم على داء الذلة التي لبسناها بخواء قلوبنا ثوب عار بدلا عن ثوب العزة الذي يكسوه الله عباده المؤمنين المجاهدين. ثم تجمع للناس هذه الأدواء في تصور واضح للفتنة حتى يعوا الفتنة كيف تأكلهم وما أين أتتهم ويثقوا بأن العزة لله ورسوله وللمؤمنين وأن علاج الفتنة يكون بالرفق اليقظ وبالتؤدة الناصحة المجاهدة.

لا بد أن يرتبط في وعي الأمة هدف الاقتصاد بالمقاصد الإيمانية، فإذا عمل العاملون الجاهليون ليكون لهم اقتصاد يخرجهم من القلة إلى الوفرة، فنحن اقتصادنا نريد أن يتجاوز بنا القلة والوفرة معا ليكون ما نعده من درع حديدية وما نقتنيه من طعام وسلاح قوة للمؤمنين في الأرض جميعا. إن الاقتصاد في عين الجاهلية المترفة المتخمة وفي عين صاحبتها المترفة بتلهفها على البضاعة والقوة اللتين لا تتيحهما القلة والتخلف غاية الغايات

وأهم ما يثقل كاهل الإنسان ويصده عن تحقيق غايته الوجودية.

ولا بد بعد هذا أن نربط المقاصد الإيمانية بغاية الإحسان فإذا قلنا : اقتصاد من أجل القوة فإن هذه القوة يمكن أن تسخر في وجه غير الوجه الذي يخدم غاية الأمة في حمل رسالة رب العالمين إلى خلقه أجمعين. فنحن ننشد القوة لنرهب عدو الله وعدونا ونطرده من طريقنا إلى الناس نبلغهم بشرى الإسلام ونحررهم من طاغوت الكفر.

هذه الكثرة الغثائية مكونة من القذى المتعفن ومن الهباء الضعيف الواهي ومن القش المسوس ومن بين كل ذلك عناصر سالمة صحيحة. وفي لقاء المسجد وبتربية المسجد ومجالس الإيمان بالمسجد تسري صحة العناصر السالمة في سقم القذى وتسري قوة القلوب المؤمنة في القلوب الخاوية الضعيفة وتأخذ اليد الرحيمة الربانية باليد الأخت المسكينة ويتم التعاون ومن التعاون تنشأ وحدة ومن الوحدة كيان إسلامي قوي له من ماله وعمله واقتصاده قيم وقيام. هذه الدراهم المعدودات في جيب المحروم وهذه الأكداس من الذهب في صناديق الغني تلتقي، ويلتقي جهد العقول والسواعد مع ساعات كانت ضائعة مبذرة في الملاهي والعبث أو في الكيد أو في الكسل. وينضبط كل ذلك فيكون طاقة متكاملة سماتها التقلل والادخار والابتكار الذي يخرج القوة

من الضعف ويحقق ما يحسبه الكسول مستحيلا.

إذا عمرت قلوبنا بالمحبة والإيمان وتحررت أفكارنا بممارسة القرآن فلن نخجل أن نظهر بمظهرنا الحق أمة مسكينة تلبس المرقع ريثما تدخر ما به تبنى القوة وتأكل طعام المجاهدين المنقطعين ضحية لأصحاب مأدبة اللئام.

إننا في فتنتنا نعيش فوق ما يحق لنا، انسحب الاستعمار بعد أن أزاح عنا أوهام الزهادة دون أن يعلمنا مواطن القوة ودون أن يعلمنا الاعتماد على النفس وحزم البطون، ما كان ذلك يصلح أموره لذلك زرع فينا بعشرته وزرع فينا بتعليمه وثقافته التي تلقيناها بالعين المنبهرة والنفس المتلهفة عادات خربت رجولتنا وأوهنت عزائمنا. ما مصدر فقرنا ؟ أرضنا في مجموعها أرض غنية بمواردها، ولنا أموال ولنا سواعد ولنا عقول ونحن أكثر عددا من شعوب القوميات الجاهلية. وكان كل ذلك لو تجمع كفيلا أن يذهب عنا الفقر، وكان العدد وتنوع المناخ واتساع الرقعة كفيلا أن يجعلنا أقوى الأمم لو تعاونا.

إن مصدر فقرنا في كون عددنا كما غثائيا لا يتماسك ولا يتعاون، ونحن كذلك لأننا فتات تاريخ مجيد لكنه كان تاريخ تدرج وتدحرج على درب الفتنة الطويل، فلن يحولنا من الضعف والوهن إلى القوة والمنعة إلا التجديد للإنسان في عقيدته وعقليته بالتطبيب

والتمريض. وهذا التحويل الكيفي هو وحده يجعل اتحادنا وحدة، وليس يخفي الاتحاد السياسي الكمي إلا وهنا على وهن يظهر بمظهر التعاون والوحدة قبل أن يجد الجد فيرجع كل إلى أحط مقوماته وهي العصبية القومية.

إذا حصلنا على صدق التعاون في قطر الانبعاث الاسلامي ومهده فإن الصدق في نفسه قوة، وإن الدرهم الذي يأتيك صدقا وتعتمد عليه وعلى صاحبه في كل المهمات لهو أجدى من آلاف تجمعها مرة من مصدر لا تعرف نيته ووجهته. صاع التمر الذي نثره أبو عقيل في صدقة المسلمين مساهمة صاقدة يمكن أن تعتمد عليها، فإذا عمت إرادة التعاون والمساهمة وصدق المؤمنون فعطاؤهم للدرهم والعرق والوقت يعطيك أساسا للعمل الاقتصادي تبني عليه نظامك وخطتك مطمئنا إلى أن المعين لن ينضب مجراه.

في مجتمع راكد تنبني الخطة الاقتصادية على المصالح المتبادلة في مصلحة المالك إن كان شخصا أو دولة وعلى مصلحة العامل أو قل على اضطراره. أما في مجتمع يريد الحياة ويتحرك بحافز طلب القوة وبشجاعة حامل الرسالة وبذل الصادقين فالخطة الاقتصادية لا بد أن تكون طموحا ولا بد أن تستدعي إلى جانب موارد الطاعة موارد التطوع. زد على هذا أن الإسلام المنبعث غدا لا

يأمن كيد العالم ولا يأمن أن يحاربه العالم غير واثق بأن الإسلام يبلغ رسالته رحمة لا شوكة، وما يتصور العالم الإسلام إلا جندا مقاتلا فاتحا. وإن الإسلام لكذلك إن كاده الكائدون ووقف في طريق دعوته الكافرون.

فما بد من أن يعتمد المؤمنون على قوة الله بعد أن يعدوا كل ما عندهم من وسائل ذاتية. وإذا خطوا لاقتصادهم تخطيطا فينبغي أن تعتمد الخطة على ما في اليد، وليس في اليد إلا دراهم الصادقين وجهدهم وجهادهم الذي لا يني. ولعمري إن قام العدل وتحرر المسلمون من خوف العوز في ظل التكافل، ليأتين من التطوع ما ينسيك في يوم الله غدا يوم الرحمة الإسلامية تطوع الصيني العنيد الشجاع الخبير في مرقعته ونظافته.

إن قاعدة التخطيط الاقتصادي أن تختار الأمة هدفا مؤقتا على قدر ما تستطيع رصده من جهاز مالي وإنساني، ثم أن تحدد المنهاج التقني الإداري الذي من شأنه أن يسرع إلى تنفيذ الخطة. وما يعطيه التطوع للخطة الإسلامية من قوة ينبغي أن يظهر في قدرة الأمة المنبعثة على تخطي العوز التكنولوجي وقلة الموارد وتشتت رأس المال، وفي قدرتها على تطوير الخطة الاقتصادية للشريعة الإسلامية التي تبيح الملكية في حدود المصلحة العامة كما تجيز ملكية الجماعة للطاقات الاقتصادية الأساسية بمقتضى أن

الناس شركاء في الماء والكلإ والنار، وتشمل هذه الثلاثة معظم طاقات الإنتاج.

لكي نطوع وضع الملكية لدواعي التخطيط والتنظيم والزيادة في الإنتاج ورفع مستوى الإنتاجية لا بد أن تتضافر قوة الطاعة وقوة التطوع معا. اخترع الشيوعيون التخطيط الاقتصادي وكان يسيرا عليهم عقلنة الاقتصاد لأن للدولة وحدها الحق في كل الممتلكات ولها التصرف المطلق. ويحس الرأسماليون بنجاعة التخطيط الاقتصادي منذ رأوا المأثرة الصناعية الستالينية فيقول عنه ديكول الفرنسي إنه واجب ملح! L'ardente obligation du Plan. لكن التخطيط في ظل الرأسمالية يصطدم بالمصالح الخاصة فيؤول ذلك إلى تصالح بين المصلحة العامة وشبكة المصالح المستغلة.

التخطيط في نفسه قوة لأنه توجيه كل الطاقات وجهة واحدة ولأنه يسبق مصلحة الأمة على مصلحة الأشخاص. طبقه الروسيون وأتباعهم بنجاح حسده عليهم الآخرون وقلدوهم أو حاولوا التقليد. على أن تطبيق الشيوعيين للخطة لم يسلم إلا جزئيا من آلية السوق وطلب الربح من الإنتاج، وذلك لأن العامل الروسي الأكثر إنتاجا يحظى بمكافآت زائدة فكأنه يمتص من المصلحة العامة جزءا لمصلحته الفردية. وعلى هذه المحرضات الأجرية قامت المعركة الإيديولوجية بين الخبراء الحمر وإخوانهم

الذين علموهم بانسحاب الخبراء الروس من الصين فجأة أن يعتمدوا على أنفسهم وأن يوقظوا العامل بوعي جديد ليعمل بمقابل واحد هو استحقاق الرضى عن النفس بمشاركة الجماعة في حمل رسالة تحرير العالم.

قوة الطاعة للمسلمين في أن يشرعوا لأنفسهم قوانين تفصل ما أجمله الحديث الشريف في موضوع الشراكة في الثلاث الطاقات وفي بذل الفضول وفي نزع ملكية تعرقل المصلحة العامة كما رأينا في واقعة ابن مسلمة مع عمر. وقوة التطوع في أن يفتح باب البذل لمن يحفر الطرقات ولمن يعلم الجاهلين ولمن ينثر صاعه في بيت مال المسلمين. وتجتمع قوتا الطاعة والتطوع في تحمل المسلمين إذا حملوا كل تنظيم أو إجراء من شأنه أن يجعل الطعام أقل تنوعا وأن يجعل الكماليات بضاعة مفقودة وأن يردنا إلى مذهب التقلل والاخشيشان والتمعدد.

ألا ترى قوة الصينين، ونكثر من التذكير بآية الله التي جعلت لنا نحن الأمة الغثائية لنخجل من وهننا، وجدوا أنفسهم معرضين أمام أنظار العالم ووجدوا أمامهم عدوا متحفزا للهجوم وعدوا محتملا، فصور لهم القائد العملاق عدوهم نمرا له ناب ومخلب وله ضراوة وعداء لكنه إن بارز رجالا فإنما هو في حكم نمر الورق. ولما سمعت خطاب القائد آذان واعية على قلوب متأججة من

فعل «الفلسفة» والسياسية» ومن فعل العمل اليدوي المربي لم تحتفظ من الخطاب إلا بشعار «نمر الورق» فكل عدو في عينها لا بأس منه لأن الشعب المحقور بالأمس أعد قوته ابتداء من القشة والمسمار والهنة من المعدن يدخرها ويصنعها ويبتكر ويصنع القنابل والصواريخ.

هكذا نحن غدا سنكون أمام أنظار العالم، بيد أن قوتنا لن تأتي من تعاوننا وتجندنا وتخطيطنا وجهادنا الإنساني إلا بما يزكينا به القوي العزيز من تأييده. إننا أمة مؤمنة تؤمن بالغيب، وتنزل على هذه الأمة الملائكة في ساحات القتال ومواطن السلم، وبذلك فقوتها تختلف اختلافا كيفيا عن قوة الجاهلية. هي تعنف ونحن لا نعنف وهي تقاس قوتها بالعدد والكم ونحن نقاس مع إعدادنا للعدد والكم بالقوة الغيبية، فإن يكن منا عشرون صابرون يغلبوا مائتين، تتضاعف قوتنا بما لا يحصى.

قوة الكم الجاهلي في حقنا باطل وضعف، فهي قوة ربوية ونحن لن تقوم لنا قائمة أبدا بالكم الربوي، وعد الله لا يخلف الله الميعاد. قال الله عز وجل : ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾. فنبذ الربا شرط أساسي لقوتنا، فإن فعلنا فسيأتينا من الله عون لا نحتسبه، وسيرزقنا الله من فضله لا إله غيره.

لقد وعد رسول الله أن ستأتي خلافة على منهاج النبوة يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض وتؤتيها السماء من قطرها والأرض من بركاتها. فإن بعث الله لنا خليفة رسوله فبوجهه نستسقي الغمام وبوجهه نتعرض لبركات ربنا. إن الجاهلية لا تعرف للرزق إلا موردا واحدا هو ما يحصل عليه العقل البروميثي والساعد الهرقلي من الطبيعة، أما في حقنا فإن الأرض لله يورثها المستضعفين المؤمنين، وهو الذي ينزل الغيث وهو الذي يرسل الرياح لواقح فيصيب برحمته من يشاء. وإن وراء قانون الله في الجغرافية وقانونه في الأرض والسماء لقانونا غيبيا يحق به الوراثة لهذه الأمة يوم انبعاثها.

تنمية الإنسان

منذ أدى الصراع الدولي إلى استقلال الشعوب بدأت أنظار العالم المصنع الغني تتركز على الأقطار المحرومة المستعمرة بالأمس والتي يكون تكتلها وكثرة أعدادها خطرا على مستوى العيش في البلاد الغنية. وبرزت للوجود على يد الصهيونية العالمية المتحكمة في دفة الثقافات مذهبية ثقافية تختص بما أسمته العالم الثالث. وتهتم بتنميته وتدحرجه ذات اليمين وذات الشمال بين جاهليتي السود والحمر، بين من يستعبدون الإنسان جهارا وبين من يستعبدونه تحت ستار الإيديولوجية المسدول على عصبية القومية وعلى مطلب السيطرة على العالم ورفع مستوى العيش.

ثقافة التنمية الاقتصادية تفرعت وتنوعت وراجت سوقها حتى أصبحت ميدانا لتنافس رجال الاقتصاد من المعسكرين، هؤلاء يقترحون تنمية على أساس قرض بربا قليل أو عطاء مجاني يكون مهر المعاهدات، وأولئك يقترحون أساس قرض وعطاء يشابه الأول مشابهة القطط في الظلام كما يقال. وفي هذه الثقافة دراسات علمية وأرقام وإحصاء تعين نتائج تحليل ملفوف تارة في لفظية إيديولوجية وطورا في ظروف العوز المحلي. وفي هذه الثقافة دراسات عن تجارب الأقوام الثائرين، كيف نظموا حكمهم وكيف

تدحرجوا في تنميتهم الاقتصادية.

هذه الدراسات تقترح علينا نماذج ومبادئ قد تكون فيها حكمة لكنها تحشر في سياق من التعاون الدولي وتعتمد على الخبير الأجنبي والمال الأجنبي. فلئن قبل الحل المستورد مع الثقافة المستوردة بعض قادتنا المفتونون اليوم فسنرفضها غدا لسببين، أولهما أن الخبير الأجنبي والمستشار الأجنبي الذي تصغى إليه آذان قادتنا اليوم في أمور الأمن والخوف بطانة سوء له علينا دالة بما في عقله من خبرة نتعبدها لكسلنا ووهننا وبما في يده من مال هو القضاء على ذمتنا وحريتنا معا. والسبب الثاني هو أن هذه الثقافة المستوردة لا تقترح علينا إلا نماذج جاهلية لتنمية كمية، تفضي لاقتصاد تكاثري استهلاكي ينتهي عنده ومعه دور الإنسان، وتسلسل معه حياة الإنسان في دورة الإنتاج والاستهلاك فإذا هو دودة تسعى !

دودة تسعى، وفي الأرض ترعى ! هكذا هو الإنسان الجاهلي ولا محيد له عن دوابيته مهما سعى بحثا عن إنسيته وعن قيمته الوجودية في جمالية الفن وفي بطولية الإنجاز العلمي والصعود على الصواريخ. إذا ما ضاق الجاهليون بدوابيتهم وناءوا بحمل مصانعهم وقذارتهم الملوثة للبر والبحر فإنما يهتدون إلى فكرة واحدة، هي أن الإنسان ينبغي أن ينمى دراكا مع تنمية الاقتصاد.

ومعنى هذا أن الفكرة التي يهتدي إليها الجاهليون، الحكماء منهم، هي أن المطلب الاقتصادي الذي خدمته حذاقة الإنسان وكشوفه العلمية وتكيفه مع ناموس الطبيعة مطلب لا يسعد الإنسان تحقيقه بل يشقيه شقاء مثل شقائه قبل ذلك بالفقر والعوز. ففيم كل هذا العناء!

إنها فكرة بديهية لكنه أيضا اكتشاف عبقري، وككل البديهات والاكتشافات العبقرية المنقطعة عن الله بقيت فكرة تنمية الإنسان ضرورة أرضية محضا تدور في دوامة التكاثر الجاهلي والتبذير الجاهلي وعبودية الجاهلية لما تولوه من مُثل غايتها مداعبة هذه الأنانية الطاغية بشهوتيها. كان الإنسان فقيرا يعيش في القلة ففرض ذلك عليه أن يجتهد ليغلب القلة. وكان التصنيع العلمي جواب الإنسان عن تحدي القلة. بيد أن ثمن التنمية الاقتصادية يبذله الإنسان نصيبا من حريته كبيرا، ويبذله نصيبا من راحته ونصيبا من صحته. فهو يجب أن يتكيف مع الآلة الصانعة، ويجب أن يتكيف مع وقت الصناعة، ويجب أن يتكيف مع ظروف المناخ المتلوث من جراء الصناعة. ويبلغ الأمر غايته في البلاد التي تجاوزت مرحلة الثورة الصناعية أن يتحول الإنسان رأسا من حالة التكيف الجزئي إلى حالة التسخير الكلي فيكون آلة إنتاج واستهلاك لا شيء غير ذلك، يكون آلة إفراز حضاري وجهاز هضم حضاري.

ويصف هذا التشييء وصف عارف اليهودي مركوس، وحق له لأن الفكر اليهودي رأس البلاء وموقد الفتنة وشعلة الجاهلية. ويقول مثلنا الدارج لمثل ما يفعله مركوس من نقد للجاهليات ونكاية بها : «باع القرد وضحك على من اشتراه»! فمن فلسفة اليهود ومن مذهبيتهم الاشتراكية الشيوعية ومن تحليلهم لنفس الإنسان الممسوخ امتزجت عناصر هذه الحضارة الممسوخة. ألا وإن أقبح المسخ المسخ القردي فلا هو إنسان ولا هو دابة وبهذا يكون مثلنا الدارج ذا دلالة مزدوجة، فما مسخ الجاهليين قردة إلا تمسكهم بالمثل اليهودية، مثل الذين غضب الله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

تنمية الإنسان تصورها ماركوس تحررا من القلة بتطوير الآلة تطويرا علميا حتى يصبح لها حركة ذاتية، فبذلك تخدم الآلة الإنسان ويتفرغ الإنسان لممارسة شيوعية حالمة. وتصور مركوس نماء الإنسان في «أتوماتية» تنفتح على جنة فرويدية تاريخية يتفرغ فيها الإنسان للذاته الجنسية في حضارة إباحية ألبسها بائع القردية غلالة من الجمالية والعاطفية كما يفعل سماسرة التدليس. وقد تطورت الآلة وأصبح لها حركة ذاتية وبنى العقل البروميثي عقولا إلكترونية لتخدمه، وتراكمت رؤوس الأموال وتراكمت البضائع في بلاد التكاثر فهل تحرر بذلك الإنسان ؟ لا يجد الأمريكيون اليوم

وأقرانهم في الجاهلية إلا مشاريع يلهو بها الفكر البشري والخيال البشري عن قذارة البر والبحر وعن ظلم ثلثي سكان المعمور يرزحون تحت وبال الجبارين. مشاريع اكتشاف المريخ والزهرة وزحل بعد اكتشاف القمر تجند المال والأفكار والعقول الإلكترونية لشيء آخر غير تنمية الإنسان. وياليتهم اتجهوا لتنمية الإنسان كما يفهمون التنمية توفيرا للخبز والكسوة! إن فقر الفقراء لعنة على الأغنياء في جاهلية وإسلام، وإن الفقر كفر، كاد أن يكون كفرا وكَانَه في حق أبنائنا المعجبين بالجاهلية المصنعة المنماة في نظرهم.

مركوس يقترح أن تثور البرولتاريا الهامشية التي يكونها المحرومون في الأرض وتنتزع الآلة من يد الجاهليين الحاليين لتحقق في الأرض الوفرة الأوتوماتية والدعارة. والكاتب الإيطالي موارفيا رأيناه يعجب بالنموذج الصيني ويتطلع إلى الإنسان الكامل في نظره المتمثل في الفلاح الذي يجمع بين الفقر والعفة. ولا يتحقق مع الجاهلية إلا دعارة وسط حرمان، وهامش الحرمان هو ثلثا الإنسانية.

ما بالنا ونحن المستضعفون نصنع في الخيال أحذية للعالم ونحن لا نستطيع خصف نعلنا البالية، ونريد للعالم خيرا نحن عاجزون عن تحقيقه لأنفسنا؟ لا ننس أننا المستضعفون فبذلك نستحق الوراثة إن كانت فينا خصائص الوارثين. إن الوارثين خلفاء في الأرض وإن هذا الخلق أجمع هو عيال الله وإن أحب الخلق إلى الله

أنفعهم لعياله. فالبر الشامل للإنسانية هو رائد الإسلام كلما قام للإسلام قائمة، نريد للإنسانية أن يعمها الخير وترتفع عنها لأواء الجوع كما نريد أن يرتفع عنها بأس الظلم. إن الله تعالى أمرنا أن لا نكره الناس على ديننا وأمرنا أمرا جازما أن نحمل رسالته إلى العالم قائمين بالقسط بين الناس شاهدين بالحق.

على مائدة اللئام شعوب مكتظة متخمة مريضة على حفظ مستوى معيشتها بل على رفعه باستمرار، وحول هذه المائدة إنسانية هامشية يزداد فقرها يوما عن يوم وتزداد أعدادها ويزداد عويلها. ويخترع أصحاب الوفرة التكاثريون مذهبية تحديد النسل ويخترعون مؤسسات لمساعدة الأمم المحرومة مخافة اضطراب التوازن الاستغلالي على الأرض، ترمي هذه المؤسسات لشعوب القلة فتات المائدة صدقة تشجع الكسل وتفت في الهمم وتوطد علاقات السيد المستغل بالتابع الضعيف. ومع التوازن الاستغلالي، وفي العبارة تناقض يغني عن شرح نوعية التوازن، توازن الرعب النووي.

وهاتان لعنتا وهم الجاهلية الدائم، فتزداد الجاهلية خوفا وهلعا من تكاثر الإنسان الجائع المحروم على الأرض ومن سيف القنابل المصلت على رأسها في كل ساعة. ومع الخوف والهلع يزداد عنفها وجهلها بمصير الإنسان وكرامته وتجاهلا لذلك سيما إن كان هذا الإنسان ملونا غريب السحنة واللغة.

وإن الإسلام هو السلاح للعالم لو كان للإسلام قوة اقتصادية، لو كان له درع من حديد ولو كان له طعام يقيم أجسام المسلمين الضعيفة ولو كان للإسلام خبراء مؤمنون وسواعد مؤمنة يصنعون القوة.

إن المسلمين في الأرض يبلغون ربع الإنسانية غدا، وهم يتكاثرون بسرعة، وبالكثرة الإيمانية يباهي بنا رسول الله الأمم يوم القيامة، فيجب أن نتكاثر، لكن كثرتنا الحالية كثرة غثائية، فلا مزية لنا بالعدد. وقد غزتنا مذهبية تحديد النسل ودخلت في الخطة الاقتصادية المستوردة المستنبتة في دار الإسلام. لكن ذلك ما نقلنا ولن ينقلنا من الغثائية إلى التحول الكيفي الذي به نكون أمة قوية بإيمانها وعملها. وإن تحديد النسل حين يتخذ مذهبا اجتماعيا لهو حل الكسالى، إذ هو مجرد بتر لأجيال متلاحقة لئلا تزاحمنا في الطعام والكساء، وهو أيضا حل المغفلين والانهزاميين. فأي أمة لا تستطيع أن تكبس المجال الحيوي وتقتسم فيما بينها القليل مما عندها ريثما تربي سواعد جديدة تصنع لها الوفرة، وريثما تربي عقولا جديدة تصنع لها القوة فهي أمة إنما تدخل في منطق اللئام الذين أتلفوا معادن الأرض تبذيرا، بره وبحره وهم يتلفون الماء والهواء. ولولا أن ماء البحر لا ينفد لكنا نرى الآن جاهلية التكاثر تحتل الأرض لتستأثر بأنهارنا، ولولا أن الهواء قسم مشترك

على البسيطة لكنا رأيناها تستأثر بالحياة دوننا. فإذا لم تر لذلك سبيلا ولا إليه ضرورة فهي تدعو الإنسانية لتحديد النسل وهو أقرب الحلول وأسهلها فتجري الدول المتخلفة في ركاب حضارة الأثاث جري التابع تنقطع أنفاسه على طول الطريق. ويساقط التابعون ويقل عددهم ليتمكن السيد في الأرض بعدده كما هو متمكن منها بعُدده.

إن الحل الإسلامي، حل الرجولة والقوة، هو أن نتكاثر عددا ونتحول كيفا في نفس الوقت[1]. فإذا كانت كل يد تولد نعلمها أن تحمل الآلة سعيا لكسب القوت، وإذا استطعنا أن نفسح للجيل الجديد من ذات نفسنا فنعلم كل فرد وندبر له مكانا يستقر فيه فإن كثرتنا قوة عندئذ وعتاد نواجه به مستقبلنا الزاهر حتى يكون على الأرض مقابل كل جاهلي مؤمن يدعوه إلى الله يحاوره بصحة جسمه وقوة شخصيته واستنارة فكره وطمأنينته وسط الخوف وفاعليته في رعاية عيال الله على الأرض.

إن تحديد النسل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمان، فقد رخص لبعض الناس في العزل، وسمى العزل في أحاديث أخرى «المؤودة الصغرى». وإن الله في كتابه أمرنا أن لا

1 هذا هو الطرح المتحدى في موضوع الانفجار الديموقارطي : أن لا يكون التكاثر العددي عائقا للتنمية والتحول الكيفي. وانظر كتابنا «الإسلاميون والحكم»

نقتل أولادنا خشية إملاق. فبذلك يكون مذهب تحديد النسل كفرا بنعم الله واعتمادا على غيره، وليست النسم التي نتعرض لها إلا أولادا لنا سارعنا إليهم خشية الفقر. وتبقى رخصة الامتناع عن الحمل خاصة بالأسر فأيما امرأة ضعف جسمها عن تحمل توالى الحمل عليها أو أصابها مرض دائم أو في معنى ذلك فأمرها إلى ضميرها. وإن الجسوم مريضة في هذا العصر فلا حرج على المرضى.

حالنا قلة في الأرزاق وكثرة في العدد وكسل وجهل في الأيدي والعقول وشح في النفوس، وإذا شئنا القوة فلنعالج الجهل والكسل والشح بالطب النبوي المنهاجي وعندئذ يكون لنا من قوة المعنى ما يؤهلنا للقوة في كل الميادين. إن من يتلقى الفقر والقلة تلقيا سلبيا قد يدعي الزهد ويحترف الزهادة، وبالاحتراف يعالج فقره. لكن القوي هو من يتفاعل مع القلة ويغالبها ليوفر الجهد اللازم لبناء القوة، ومن الموارد الشحيحة يستخرج رزقا كثيرا بالابتكار وبالتقلل.

الزهادة احتراف والزهد قوة وعبادة والتقلل مذهب رجولي إرادي يوسع دائرة الزهد فيجعلها تعم الجماعة وتصبح لها ناموسا في الحياة. إن الزاهد الفردي يخاف فتنة الدنيا على نفسه فيطرحها، والجماعة المؤمنة ينبغي أن تتقلل لتجتنب الفتنة والترف في الأثاث

والمأوى ولتفسح المجال من ذات نفسها ومن ذات بطنها وشهواتها لأجيال كثيرة تعيش على الضروري وتكون قوية تستحق أن يباهي بها رسولها الأمم يوم القيامة.

أما ترى كيف يعجب السفراء المترفون في الصين بالصيني النظيف البسيط فيقلدونه في اللباس كما يقلدونه في الرزانة والسمت؟ وتقرأ فيما تقرأ من حديثهم عن الصين إعجابهم بهذه السروايل المرقعة، ببساطتها ونظافتها وبالخياطة الفنية حول الرقعة! هذا تقلل مفروض وبه استطاع زعيم الصين أن يدمج في إيديولوجيته عقيدة أن الكثرة عدة وأن الكثرة لا تعوق تنمية الإنسان بل تيسرها.

الجاهليون ينشدون تنمية الإنسان لما خاب أملهم في التنمية الاقتصادية التي استعبدت الإنسان أكثر مما كان مستعبدا.وهم يعلقون كل آمالهم على مستقبل حضارة استرواحية Civilisation de loisir تقوم فيها الآلات بالخدمة ويتفرغ الإنسان للهوه، فتلك تنميته إن لعب بفكره في ميادين الثقافة والفن وبجسمه في ميادين الشهوة والمتعة.

وهيهات أن يقنع الإنسان أبدا وأن يرضى بقيم أية حضارة ما لم يطمئن إلى الحقيقة الأولى في الوجود. وسيبقى شقيا بحضارته وأثاثه وهمه وخوفه من الناس وبأس العدو والمنافس ما لم يسلم

وجهه إلى الله. فإن فعل فسيرتفع عنه السأم والملل وسيقبل على شأنه يرعى الإنسان متحررا من أنانيته وعبياته، وإنما يعلمه ذلك المؤمنون، غدا في ضحى الإسلام المشرق. وفي أحضان الإسلام زينة ومتعة وفرح، فإن التقلل لا يعني التقشف المعطل، بل يكون مع التقلل حسن السمت وإبداء النعمة في حدود الشريعة، فلا قصور ولا ذهب ولا حرير لكن مأوى المجاهدين وكسوة الأبرار وطعام الصحة والقوة. لا يستأثر أحد على أحد بل نقلد الإمام صفا مرصوصا ونتبعة ويكون لنا قدوة كما كان رسول الله قدوة لأصحابه يلبس مثلما يلبسون ويشاركهم الطاعم ويشاركهم فرحة العيد لا يتميز عنهم إلا بما يوقرونه ويحبونه. ويالها من جمالية تلك الوحدة الجماعية في التكافل والتجالس وتلك الفرحة في ساحات المصارعة والسباق والتدرب على السلاح. وهذه هي الوظائف الاسترواحية للإنسان النامي، الإنسان المؤمن.

أمراض التكاثر

المجتمعات الإنسانية في رحلتها الأرضية تبدأ من القلة، فيتكون المجتمع حول مطالبة للمالكين، تتجمع قبيلة لتغزو جاراتها وتأخذ ما بيدها، وقد يتكرر الغزو ويتوسع وينتظم حتى تقوم دولة غازية رباط قوتها هو القلة التي نشأ فيها أفرادها. وقد حلل ابن خلدون كيف يتطور الجيل الثاني ويتخذ عادات حضارية يسترخي معها جسمه وإرادته ويترف عزمه في أثاث الحضارة، وفصل كيف يتفسخ الجيل الثالث إلى أن تدول الدولة وتذهب ريحها ليخلفها من يسميهم طوينبي «البرولتاريا الخارجية». فالقوة مرتبطة بالقلة دائما، وهذه بديهة تشاهد مصداقها في الحياة اليومية حيث يكون ولد الفقراء أصلب عودا من رفيقه المنعم. وهي حقيقة على مستوى المجتمعات وإن كان يسترها عنا اليوم ما نراه من مواكبة الحضارة للقوة، فيخيل إلينا أن أقوى الناس هم الجاهليون أصحاب الأثاث والحضارة لما نرى من سلاحهم وعنفهم. ولو نفذنا فكرنا إلى عالم الجاهلية التكاثرية لوجدنا أن المجتمعات المنعمة مجتمعات مريضة تراكمت عليها أمراض التكاثر فما تحت الدرع الحديدية وما وراء القنابل النووية إلا أجسام نخرة وعزائم خائرة، ما تحتها في الحقيقة إلا ... نمر من ورق!

ذكي هو فيلسوف اليهود مركوس! إنه عاشر الجاهلية بعد أن انتزع نفسه منها بفكر وراقبها، فوصفها أعظم الوصف وحكم أنها زائلة، والتفت فما رأى رجولة تربجى إلا مما سماه «البرولتاريا الهامشية». أولئك السود الأمريكان وهذه الشعوب من العالم الثالث كما يصفه جليسا مأدبة اللئام هم وحدهم القادرون على اتخاذ موقف يعارض مجرى الجاهلية ويقطف ثمرة حضارتها ليحولها إلى فحولة انعدمت عند الإنسان الحضاري المترهل الشائح.

هذه العقول التكنولوجية الجبارة التي تغزو المريخ وتبهر عيون المتفرجين على الصواريخ وعلى معارض الاختراع ماذا تخفي عنا من حقائق الإنسان الجاهلي؟ وهذه الأجسام الرياضية البديعة التي تضرب الأرقام القياسية كل عام في شتى أنواع الرياضة وفي الصراع والسباق أي حقيقة بشرية وراءها؟

إن الله جل شأنه خاطبنا نحن الإنسانية قائلا : ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ فأخبرنا أن التكاثر ملهاة لنا عن الأمر المحتوم يصدنا عن مصيرنا إليه بعد مثوى أجسامنا في القبور. ونفهم من خطابه عز وجل مطلق اللهو بالتكاثر، نفهم منه أن الكم والتسابق الكمي والاستعراض الكمي ظواهر سطحية تحتها حقائق الإنسان، فليست كثرة الطعام ووفرة اللباس تعني صحة وعافية، وليست كثرة المال والعدد والسلام تعني أمنا، وليست

كثرة المدارس ونشر الثاقفة تعني تهذيبا للإنسان، وليست الأسلحة المتنوعة الهائلة تعني شجاعة. ولو كان للجاهلي صحة وأمن ونماء للإنسان، وشجاعة كما يتصور المغفلون لما أغناه ذلك شيئا بالنظر لمصير ما بعد الوت، فالجاهلية مغبونة مرتين، مغبونة في دنياها لأن تكاثرها يخفي أمراضا ستطيح بها وتجتثها من جذورها، ولأن وهم السعادة الأثاثية ألهاها عن طلب الأخرة وألهاها عن الحق الذي من أجله خلق الإنسان. الجاهلية أهلتها مظاهر القوة عن القوة ومظاهر السرف والتبذير عن الغنى الحقيقي وألهتها المخترعات والأثاث عن تنمية الإنسان ولو تنمية أرضية نظيفة.

قد يرى الملاحظ السطحي أن الحضارة العلمية رفعت مستوى المعيشة بما لم يسبق له مثيل ورفعت معدل عمر الإنسان ورفعت مستواه الثقافي ورفعت معنويته بتنظيم العالم ونشر معاني الحرية والمساواة واحترام حقوق الإنسان. ويؤيد كل هذا إحصاآت ناطقة كما يليق بعالم تكاثري أن يكون أنطق شيء فيه أرقامه.

إن من مآسى الجاهلية ما لا تسعه الأرقام ولا يقبل صيغة العدد، خذ مثالا لذلك ضيق النفس وتعفن الأسرة والفسق والحقد الطبقي والخلل العقلي الذي لم يبلغ حد الإجرام وما إلى ذلك. وهناك المآسي التي تفصح عنها الاحصاآت، وتعطيك الجاهلية كشفا عن عدد الجرائم وتعطيك كشفا عن عدد المنتحرين وعن

عدد المدمنين والمخدرين كما تعطيك صورة عن مرض النقد وعن التضخم المالي وعن المسابقة المجنونة بين الأجور والأثمان.

وأفصح ما تكون الأرقام دلالة في ميدان الصحة النفسية والبدينة. فعلى مرآتها تنعكس مضاعفات الطاعم الوفير ومدلول المستشفيات للمجانين والمرضى. هذا الجاهلي يأكل من سبعة أمعاء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمرض على قدر ذلك. ولا فخر لنا إن كانت مستشفياتنا ومن فيها أقل عددا بالنسبة لهم، فلنحن أكثر مرضا في فتنتنا وإنما نتدبر الجاهلية المريضة بتكاثرها لمكان التقلل والقوة الذي نريده لغدنا.

نشرت مجلة أمريكية[1] إحصاآت قالت فيها : إن 13% فقط من سكان الولايات المتحدة سالمون من الأمراض الجسمية، وإن تشريح 200 جثة من جنود الأمريكان الذين قتلوا في كوريا أظهر أن 80% منهم مرضى بالقلب، وإن 30% ممن عمرهم بين 55 و64 سنة يموتون بالسرطان وأن 80% من سكان أمريكا مصابون بنوع من أنواع السرطان يعلمون ذلك أو لا يعلمونه، وإن واحدا من كل عشرة أمركيين متخمين يقضي حياته في ملجإ المجانين وتزداد النسبة كل يوم.

هذا ثمن الاستهلاك الحضاري والتخمة والبطنة وهو باهظ

1 .Time magazine , march7,1967

تكفي فداحته لنا واعظا لنتخذ العدة حتى لا نسقط في دورة الحضارة التكاثرية.

ينفق الأمريكيون أموالا قارونية في صنع الأدوية مثلما ينفقون على صنع الأطعمة المولدة للسرطان ومثلما ينفقون على صنع الأسلحة النووية، هذه يعدونها ليخربوا العالم وتلك يصنعونها فيخربون بها أجسامهم وعقلوهم. إنهم عبيد لتقنيتهم بما فيهم حذاق الاختصاصيين ومهرة الأطباء. كلهم في أغلال الشهوة وأطواقها المسماة رفاهية ولذة ومستوى معيشة. فإذا برزوا لميدان الرجولة افتضح جبنهم، وقد تفرج العالم على جبن المتخمين في فتنام فكانوا يفرون ويلتحقون بالملاجىء السياسية كأنما هم أبطال ضامهم ظلم منافسيهم السياسيين.

إن قوة سلاح الأزرار قوة حقيقية ما في ذلك من شك يصنعها إنسان خرب متدهور لكنه متعلم حاذق[1]. فهل تثبت قوة العقل الصانع مع خراب الجسم والنفس وخراب الذمة عند من يبيع الشعب كله ليحصل على مخدر؟ كلا ! فالمصير الجاهلي مرسوم، وهو أيضا مصيرنا إن سلكنا طريق الجاهلية التكاثري.

وما قوم الشيوعية الخرشوفية منا ببعيد! فاللحاق اللحاق بركب

1 وجاء الهجمة الشرسة بقيادة الولايات المتحدة على المسلمين بالعراق ليكون المسلمون موضوعا لتجربة حرب الأزرار.

الاستهلاك! هذا شعار كل جاهلية ثائرة وإن كانت شعارات الصين الحمراء اليوم ترتفع بنداء للرجولة والاستقلال وتحرير العالم فما هي إلا مرحلة استثنائية يليها تصنيع شامل ويلي ذلك تراكم رأس المال والصناعة الخفيفة الاستهلالكية ويبدأ خط المنحنى في الإهواء إلى موضع الدودة الجاهلية على الرغام.

إن علاقة المؤمنين بالأرض علاقة يحددها شرع الله ومنهاجها. إن لنا أموالا هي قيم وقيام وإن الله أخرج لنا زينة هي لنا خالصة يوم القيامة، أي أنها لا تأخذنا إليها بل نحن نأخذها متاعا إلى حين، متاعا موقوتا مملوكا غير مالك، ونخلص بعد ذلك إلى ربنا يوم القيامة.

لن يكون الإقلاع الاقتصادي ممتنعا علينا غدا إن شاء الله، لكن الذي يعسر علينا ويطلب جهاد الليل والنهار وهو أن نحافظ على الخط الاسلامي في السلوك. فما من ثروة نضمها إلينا إلا وتحمل تهديدا لمصيرنا مع ما تحمل لنا من قوة. العلوم التكنولوجية إن ملكناها قوة وخطر معا، قوة إن عرفنا كيف نسخرها لننافس سلاح الجاهلية وابتكارها، وخطر إن خدم هذا التنافس وهذا الابتكار غاية غير غاية السلام في الأرض وحمل الرسالة لتحرير الجاهلية من جهلها وجهالتها. رأس المال الضروري لإقلاعنا نجمعه بالتعاون وإضمار البطون فهو لنا قوة إن ملكناه ولم يملكنا،إن

ملكناه صرفناه في تبليغ رسالة ربنا بالإحسان إلى الإنسان عيال الله في الأرض، وإن مَلَكَنا تكدس علينا فأردانا في حمأة الاستهلاك والترهل والمرض والإجرام والعته. وهذه الأيدي العاملة الخبيرة والسواعد المتطوعة والتخطيط العلمي إن اجتمعت قوتها على تغذية جائعنا وكسوة عراتنا وتربية عائلنا وتعليمه، وأدت الى تخطيط جماعة فرحة بربها محبة للبشر الذين ستحمل إليهم الرسالة نظافة في سمتها وقوة في أجسامها وجمالا في منهاج حياتها وتماسكا في فكرها ونورانية مطمئنة فهي لنا قوة، فإن حملت الأيدي السلاح لتستبدل ظلما بظلم وشراهة بشارهة فذلك خرابنا.

إن الإسلام يتألف القلوب على الإسلام وإن تنميتنا الاقتصادية وقوتنا لا معنى لهما تماما إن لم تخدما الغاية الإحسانية، فإن ائتلافنا فيما بيننا يكون من أسبابه إطعام الطعام ومجالسة المؤمنين على موائد القناعة الصحية، وإن تألفنا للناس على إسلامنا يريد أن نطعمهم ونعلمهم ونحررهم ونضمن سلام العالم لهم، فإن تكدست لنا أموال فسنصرفها في مشروع لا ينتهي وهو تحرير الإنسانية كافة، من قبل إسلامنا أحسنا إليه وزدناه إحسانا ليثبت، ومن لم يستجب لدعوتنا أحسنا إليه وزدناه إحسانا حتى يستجيب. ونحن بهذا يومئذ خلفاء الله على عياله حقا. وإنه لا معنى لتنميتنا الاقتصادية ولا لقيام الإسلام إن لم نضرب للعالم مثلا للإنسانية

المؤمنة التي تملك زمام أمرها ولا تملكها عجلة الحضارة ولا يصرعها سلطان الاستهلاك. إن أستاذية العالم التي خلقنا من أجلها وبعث الله لها أنبياءه بعد رسله وأولياءه بعد أنبيائه ثمنها رباطة الجأش وامتلاك النفس أمام الطعام وأمام الزينة فلا نأخذ منهما إلا ما يقيم صلبنا. فإن أسرف الإنسان في طعام وزينة كان ذلك لصلبه تقويضا لا إقامة، واستحق مقت الله الذي لا يحب المسرفين، فأنى لمن ببغضه الله أن يحمل الرسالة أو يعلم الإنسانية!

ما أهوى بصحة الجاهليين وعقولهم ورجولتهم إلا الاسترخاء الحضاري الإسرافي، يإكلون كثيرا ويبذرون كثيرا ويفسقون فسق الذبابة ويخرجون عن الحد بطلب سعادة خيالية في المخدرات. كل مجهودات الجاهليين تهدف لامتلاك أكبر عدد ممكن وأكثر الأنواع الممكنة من البضاعات، وتتنظم مجتمعاتهم حول محورين اثنين هما الإنتاج والاستهلاك. وينتجون وهم لاهثون جريا مع حركة الدولاب الصناعي آفتين أولاهما بضائع تفتك بالعقول والجسوم والذمم وثانيتهما فائض ربح يعاد فيوظف في الإنتاج. وكلما كانت نسبة النماء عالية كان ذلك أدعى لفخر الدولة وغبطة المستهليكن وعلى قدر نسبة نماء المال الموظف ونماء حجم الصناعة ترتفع نسبة الأوبئة الاجتماعية ويرتفع شقاء الإنسان.

هذا هو عالم التكاثر وينبغي أن يتجنبه الإسلام المنبعث بأن

يكيف حاجاته حتى لا يجره تسلسلها إلى حتمية التقنية والإنتاج. كان ماركس يؤكد أن المجتمع لا ينتج إلا ليستهلك وهذا منطق دوابي لا غبار عليه قاعدته الحاجة وقضيته الكبرى إرضاؤها. والإنسان الجاهلي الدوابي لا محيد له عن العلف وطلبه وطلب تنوعه ولا عن الأثاث والزينة وهما غاية من لا يؤمن بالآخرة. وفي نظر ماركس أن التحرر من العوز يكون بالسيطرة على العمل وتحريره من ضرورة الحاجة الخارجية التي يجيب عنها الإنتاج المادي، وفي نظره أن هذا التحرر هو دولة الحرية الموعودة في المجتمع الشيوعي. لكن الفيلسوف اليهودي لا يقترح على الإنسان الحرية الحق، وأنى له ذلك وهو الملحد الكافر، وما الحرية الحق إلا أن يملك الإنسان زمام نفسه ويقلص من كمية حاجاته ونوعيتها. هذا الموقف الإرادي موقف الاستعلاء على الحاجة والقناعة بالضروري والتقلل من الدنيا كمذهب اقتصادي جماعي يبدو لنا سهلا...نظريا. لكنه عند التطبيق أعوص من كل عويص. يعترض تحقيقه تمنع الناس إن أردت نقلهم من عادة الامتداد والذوبان في المتع، ويعترضه هذا الغول الهائل هذا الكائن المنفصل عن الإنسان المتحكم فيه الذي يسمى اقتصادا إنتاجيا. يعني التقلل كمذهب اقتصادي ابتكار نظام إنساني مناقض تماما لنظام الاقتصاد الجاهلي. وإنها لمغامرة لا يقدر عليها إلا القلوب المؤمنة الشجاعة المعتمدة على ربها،

وقد يكون من اللازم أن يتدرج الاقتصاد الاسلامي غدا في معارج الاستقلال عن الاقتصاد الإنتاجي ويتعلم عبر الطريق وبإرادة إيمانية إحسانية مسبقة كيف يكيف الطبيعة وفق حياة الكمال الإنساني بدل أن يتكيف هو عبدا للآلة الصانعة وضحية للأخطبوط الصناعي الذي خلقه بيده، ولئن كانت مرحلة التصنيع على غرار النموذج الجاهلي ومعاناة الآلة والوقت والمردودية والمنافسية أمرا ضروريا في طريق الإسلام فسيكون ردءا لبلاء كل ذلك العدد الإسلامي واليقظة والتعاون وسطوة الروحانية المجاهدة.

إن علاقة المؤمنين بالأرض والرزق علاقة فطرية نابعة من الموقف الفطري موقف الربانيين المعترفين بربوبية خالقهم وخالق الكون المسير له المتحكم فيه. جهاد المؤمنين لبناء الاقتصاد ولإعداد القوة كجاهدهم لتبليغ الرسالة لن يكون جهادا منفردا مخذولا بل سيكون جهادا يزكيه الله ويعينه الله رب الإنسان ورب السماء والأرض ورب النواميس الطبيعية التي جعلها لنا فتنة، فإذا آمنا به وعبدناه وقصدنا وجهه سخرها لنا وسخر لنا كل شيء.

هذه آيات ربنا البينات تخط لنا كنه علاقاتنا بربنا ومخلوقاته، يقول عز من قائل : ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ**

فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

أتدري من هم المقوون الذين جعل الله لهم شجرة النار تذكرة ومتاعا ؟ إنهم المسافرون المقرورون المحتاجون لدفء. وتلك صورة المسلمين في حالة ضعفهم اليوم وهوانهم على أنفسهم وعلى الناس. وإنهم أحوج ما يكونون إلى شجرة النار التي يصهرون عليها درع الحديد وسلاح الجهاد لغد الإسلام المشرق على الدوام. وما لنا سبيل لرزق ربنا تدر علينا سماؤه وتخرج بركاتها أرضه إلا أن نسبح باسمه العظيم! فذلك هو المنهاج النبوي، أن نذكر الله في صحبة المؤمنين.

الفصل السادس

التربية والربانيون

التربية والتغيير

هل تجري أحداث التاريخ على دروب الحتمية السببية وهل للإنسان يد في تغيير مجرى التاريخ ؟ إن الماركسية، وهي أكثر الفلسفات الجاهلية تماسكا في منطقها الداخلي، تعرض التاريخ وكأنه ضغط على الإنسان وحتمية خارجة عن إرداته. وتستفيد الفلسفة الماركسية من الدراسات المجتمعية ومن تصرف الجماهير على مدى التاريخ البشري لتطرح لنا صورة عن الإنسان الفرد المندمج في نسيج اجتماعي يتحرك ويتغير حركة اجتماعية وتغيرا اجتماعيا تحت سلطان ماهيات كثيفة اسمها علاقات الإنتاج. وهذه العلاقات مخلوقة تسعى وتتلون حسب تطور القوى الإنتاجية وبتلون أسلوب الإنتاج.

وبهذه النظرة، فالعالم الخارجي بما يضعه رهن إشارة الإنسان من موارد وبما يرثه الإنسان عن الأجيال السابقة من أدوات عمل ومن تكنولوجيا، وهو المتحكم المطلق في مصير المجتمعات. وتعاون الناس إنما يتم حسب تطور التنظيم المجتمعي القائم على أسلوب الإنتاج، وكلما اكتشف الإنسان أسلوبا جديدا للإنتاج تغير تنظيم مجتمعه وتغيرت بذلك أشكال تعاون الناس وسط المجتمع.

الإنسان في كل هذا موضوع ينفعل مع عوامل التغير، فهو

مفعول به وهو مرآة للعالم الخارجي. وتلخص الشيوعية قانون التغيير هكذا: «ليس وجدان البشر هو ما يحدد كيانهم، بل على العكس، كيانهم الاجتماعي هو ما يحدد وجدانهم». وتجري أحداث التاريخ مترددة بين طرفين (ديناميكيين) ماديين هما النقيضان الطبقيان المجتمعيان السائران في مجرى حتمية الصيرورة الاجتماعية.

الإنسان الفرد بهذه النظرة نواة اجتماعية، والمجتمع أيضا نواة اجتماعية مصيرة غير صائرة وإن كانت هي تصنع نفسها بنفسها، وتكرر حياتها بنشاط الإنتاج. تقول الجدلية الماركسية أن الإنسان ذات وموضوع معا، فهو الفاعل والمفعول، لكن خصائصه كفاعل منوطة بموضوعيته ككم مصير يتحكم فيها التطور التاريخي الطبقي.

أخزاهم الله فما لنا حاجة بجدليتهم، ولا يهمنا أن تكون الفلسفة الماركسية ذريعة تبرر العمل الثوري الشيوعي. الذي يعنينا أن هذه الفلسفة الذريعة هي روح السم الذي احتل منا العقول والأفئدة، فأخزاها الله، والقنوت على الكافرين ليس من قواعد الحجاج العقلاني، لكننا لا نحاجهم في باطلهم ونقنت على الكافرين لأن القنوت والدعاء قوة المؤمن وعتاده قبل أي قوة، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله لعلى العلي العظيم.

إن الله عز وجل أنبأنا بقانون التغيير، فبه نأخذ لنغير ما

بأنفسنا حتى يتغير ما بنا. ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ صدق الله العظيم. وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المرء يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. ففرقان الله يدلنا على مصدر التغيير وهو سلطانه عز وجل فهو المغير، وإنه جعل سببا للتغيير ما نحدثه نحن في أنفسنا من تحول. وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أن التحول النفسي من الإيمان للكفر يحدث بعامل التربية فنفهم أن التحول المعاكس يحدث أيضا بالتربية.

التغيير الاجتماعي يحكمه قانون الجزاء الإلهي، فالقوم الكافرون، أهل القرية الظالمون، يمدهم مدا ويملي لهم إملاء ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ويفتنهم عز وجل بزينة الدنيا: ﴿**لَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾. أما أهل التقوى فإنهم يغيرون ما بأنفسهم من فساد فيغير الله ما بهم ولا يمتنع عن يده القوية أن يرفعهم بعد ذل ويستخلفهم في الأرض وهم فيها مستضعفون. وإن قانون التغيير الإلهي قائم على التربية، تربية بشر لبشر تربية

تعيد الناس إلى الفطرة ويربيهم بها ربانيون هم رسل الله ثم أنبياؤه بعد رسله ثم أولياؤه بعد أنبيائه.

إن الله عز وجل قيض للغافلين عن ذكره شياطين تؤزهم أزا وتقترن بهم اقترانا فيضلون عن السبيل. ومن هذه الشياطين ومعها في عالم الظاهر شياطين العقلانية الملحدة التي فتنت أجيالنا، فإن لها قوانين تفسر بها التاريخ علمية منطقية، وإن لها حكمة في مجال التربية البشرية ومعرفة بالنفس الإنسانية العاطلة من الإيمان، فتغلف الحكمة في باطل الإيديولوجية وتبرر العمل الثوري القومي الجاهلي بالإيديولوجية والحكمة ومن وراء كل ذلك تطلب تنمية بضائعية ليزداد بطن الدابة امتلاء وممكنات متعتها تنوعا.

وتتحدانا منجزات الإيديولوجية التبريرية على صعيد التغيير كما تتحدانا الحكمة المجتمعية المربية الساخرة على العالم من بر الصين. ولا مخرج لنا من منطق الإيديولوجية إلا بطرحها جزافا، لكن نريد مخرجا إيجابيا نحن نلتمسه غدا بتغيير أنفسنا ليغير الله ما بنا فنكون نحن نسخر منهم كما يسخرون.

إننا معشر الأمة المتفتتة في قومياتها وعصبياتها الجاهلية نجهل معاني التربية إلا ما علمناه الجاهليون، وننكر الربانية والربانيين لكثرة ما عبث الأدعياء بسمت المؤمنين ودسوا على الناس بالزهادية والمظاهر المنافقة.

التربية في مفهوم القرآن والحديث تغيير باطني لنفس الإنسان، ومعناها في اللغة تنمية وتقويم. بيد أن نوعية التربية تختلف باختلاف الغاية التي نرجوها للذي نربيه. فالجاهلية تربي أبناءها، تنمي جسمهم وعقلهم وآدابهم المجتمعية، لغاية هي الاندماج في المجتمع وإغناؤه بالمهارة المنتجة للبضاعة والابتكار المنوع للبضاعة والمشاركة المستهلكة للبضاعة. وهي في ذلك منطقية محادية لخط سيرها الوحيد على درب الدوابية. وإذا أرادت الجاهلية تغييرا بالدافع الثوري الطالب للقوة أو بالدافع الحضاري المساير لتطور البيئة الاختراعية فإنها تربي الإنسان تربية مغيرة، فتخصصه في المهنة وتخصصه في العلوم وتخصصه حتى بالنظر لظرف عمله فتراها مثلا تدرب رواد الفضاء على حركات وعلى حياة وغذاء خاصة. ولا تتجاوز الجاهلية مستوى الاستهلاك إلا في ظروف مرحلية مثل ظروف الصين، ثم لا تبلغ أبدا إلا مطلب البطولية والتمييز والاستقلال كرد فعل شجاع على تحدي الخصوم.

أما التربية الإسلامية، تربية الغد الإسلامي، فلن تكون مستحقة لاسمها إلا إن تناولت الإنسان فأودعت قلبه إيمانا وعقله حكمه وجسمه صلابة. فبالإيمان يكتسب حركية تختلف في كيفها عن حركية الجاهلية وترمي لغاية هي من وراء الحس ومن وراء زمن الدنيا ومن خلالها أيضا، وبالعقل الحكيم يكتسب المؤمن

جهازا مدبرا مجتهدا يخوض به الفتنة ويقتحم عقبتها ليكيف لحياة الاسلام ولمدنية الإيمان هذه البيئة الموروثة الممسوخة، وليغالب تيار الجاهلية بالتمهيد لنورانية الإسلام لتغزو دار الفكر ساطعة من الثقافة الإسلامية المستقلة ببوارق الإيمان والإحسان. وبالأجسام الصلبة المخشوشنة، أجسام الرجال، ينفذ المؤمنون خطة جهادهم لا يسكنون لزينة الدنيا إلا استجماما وإعدادا لرغبة جديدة ونصب جديد في طريقهم إلى دار الكرامة في الدنيا وعند الله.

التربية تغيير لنفس الإنسان، بعث لإرادته بتصفية رؤيته لنفسه ومصيره وللعالم، وتحرير لعقله ببث روح الإيمان بالغيب وبالتربية المتكاملة يصبح الإنسان هو الفاعل التاريخي الذي يؤثر فيما حوله، فمهما كانت درجة تقنيته ومهما كان الوسط الطبعي الذي يعيش فيه ومهما كان جنسه وعرقه وبنية مجتمعه فإن التربية تحول طاقته بمثل هذا، وقد آن للفلسفة الجدلية المادية أن تعترف منذ ارتدت الفلسفة المادية من مواقعها كعامل مغير لتصبح فقط مبررا لتغيير عملي تجريبي ثوري، ومنذ برزت متفوقة على النماذج الأولى شيوعية «ماو» المربية.

وإذا قلنا إن التربية تغيير للإنسان استنادا لتعليم الله ربنا وآمنا بأن النفس التي هي جوهرة الإنسان مقر التغيير وموضوع التربية فإنما نقول بلسان العصر : إن الكيان السيكولوجي للإنسان

الملفوف في الوسط يتصاعد على العاوئق البيئية ويؤثر في العالم بدافع باطني غير الدافع الخارجي المتحدي له المسلط عليه.

وأول مكونات البيئة التي يربى فيها الإنسان هو مجتمعه وفي العبارة تكرار لأن التربية لا تتصور إلا تفاعلا بين أشخاص بينهم علاقات اجتماعية. المسلمون أعداد كثيرة، ويزعم اليهودي دركهايم أن كثرة العدد وتزاحم السكان يؤدي لتنافس بين الناس ينتج عنه التقدم الحضاري، وما نتج عن تكاثر المسلمين تقدم، حتى ولا تقدم حضاري، وإنما نتج من باعثهم، أو قل من كابتهم، النفسي وهو الوهن غثائية خامدة. فتكاثر عددنا حجر عثرة في سبيل نهضتنا ما دام في مجتمعنا مرتع للعادة في غياب العامل التربوي المجدد الباعث. العادة هي ناتج ترسب السلوك الكسول على مر الأجيال، ويتلقى العادة مذهبا للسلوك جيل كسول بعد جيل فإذا جمعت الأعداد الكبيرة من أصحاب السلوك العادي لم يتحصل لك إلا غثاء. وكثرة عددنا عائق للتربية بالنظر إلى أن الأجيال الشابة تجد أمامها سلفاً أثِراً جاهلاً فتثور عليه إذ لا تجد عنده أهلية لتتلقى منه التربية. فكثرة الثائرين من الشباب وسوء تنشئتهم وافتتانهم بالنموذج الثوري الاشتراكي الذي يهفون إليه ويعظمونه في نفوسهم عقبة كؤود أمام التربية الإسلامية غدا.

ومن مكونات البيئة درجة تطور الصناعة، فقد كان يكتب

ماركس : «إن طاحون اليد يعطيك مجتمعا يحكمه سيد، والطاحون البخاري يعطيك مجتمع الرأسمالية الصناعية» فلئن كان تحليل اليهودي يبين عاملا مهما من عوامل تطوير المجتمعات وتغييرها فإن التربية الإسلامية ستلقى في طريقها تحديا كبيرا لتطور ميادين العمل وتيسرها وتعمم الشغل. إننا أمة لا صناعة لنا، ومن ثم فلا عمل للأيدي العاطلة، وبالتالي فلا أمل في تربية وتغيير إن لم يصحب عملية التربية، بل إن لم يكن من وسائلها، تشغيل الأيدي وإشباع البطون.

وثالثة العراقيل في وجه التربية الإسلامية الاختلاط الثقافي أو قل المسخ الثقافي الناتج عن غزو النماذج الجاهلية لعقولنا وقلوبنا. قد يفتر عنا هم ما نجده أن نعزو فتنتنا لتألب الجاهلية ضدنا ولغزوها الفكري لنا، وتلك ملهاة تبريرية، فما دمت طعمة سائغة لا تمتنع على آكل وما دمت فريسة سهلة فمن الغباوة أن تنتظر رحمة الجاهلية. إنهم يغزوننا فكريا وعمليا لأن الداء في نفوسنا ولو كان لنا استقلال فكري واستقلال نفسي لاستطعنا أولا أن نتعالى على بضاعة الجاهلية، فإنها حاملة رسالة الجاهلية إلينا. لسنا نقرأ كتب الجاهلية ولسنا نتبنى مذاهبنا إلا في سياق تهافتنا على البضاعة المغرية في شكل سيارات وفي شكل شِناقات لرقابنا من شتى الأحجام والمواد. ولنحن أشد تفاهة مما نظن حين نبرر هزائمنا

بأن الجاهلية تتألب علينا وتغزونا. أفما نرى أن أفخم ما تنتجه مصانع الجاهلية نستورده نحن قبل أن يتناولوه هم ؟ أفما نرى أن دعايتهم تخلق عندنا نحن قبل غيرنا حاجة لما يدعون لاقتنائه. فلو كان بنا أثر من حياة أو حتى أثر من مروءة وشهامة لاستعصينا على البضاعة الأجنبية ولكسبنا بذلك منعةعلى أفكارها وثقافتها. ولو جاءتنا الجاهلية حافية عارية أفَكُنا نتلفت إليها وإلى ثقافتها ؟

وهكذا نرى كيف تتداخل عراقيل التربية في بيئتنا وتتضافر فتكون لنا عقلية مطالبة ونفسية حرمان عاجز يشعرنا بأننا كثيرون كثرة فشل لا كثرة نجاح فلا استعدادا بيننا للتعاون. وأثرتنا تخلق طبقات متكارهة وأجيالا متنافرة. فمن أجل تسوية الطريق للتربية الإسلامية ينبغي أن يسبق عدل إسلامي بوازع السلطان تنظيم الجماعة المتطوعة بوازع القرآن.

ونرى أن قلة ذات يدنا عامل مثبط للتغيير الإسلامي ينافسه بقوة نموذج التغيير الاشتراكي، فينبغي أن نزيل هذه العرقلة لتحقيق التربية الإيمانية، بالتقلل في جماعة لا يحكمها سيد، وبرفع المظالم لينمحي أثر الإقطاع وتفاوت فرص العيش، وبالتعاون داخل قطر الانبعاث الإسلامي ومع سائر المسلمين، تعاونا يجمع طاقات الأيدي وطاقات الفكر وطاقات الدريهمات المتعاونة حتى تكون لنا وفرة تعطي القوة.

ونرى أن اختلاطنا الثقافي مترتب عن عاملي الكثرة السكانية والقلة الاقتصادية، فينبغي أن نصحب الجهاد العدلي بجهاد تحويل النفوس بوازع القرآن وتنوير الأفكار بنوره.

هذا وإن أغلبية الناس يتأثرون بالعامل الخارجي ويستجيبون لداعي العدل والتساوي أكثر مما يستجيبون للدعوة النظرية، ولهذا يؤلف الإسلام القلوب بالعطاء المادي. لكن من الناس من ينبعثون بحافز باطني إيماني وهؤلاء هم عامل التربية الإيجابي، وهم الفاعل التاريخي أصحاب الإرادة والهمة والإيمان. إنهم الربانيون الذين في قلبوهم بذرة الإيمان والإحسان. فهم قادة التربية الإسلامية غدا، وهم خميرة الحياة وسط هذه الكثرة الغثائية، وهم يجب أن يسبقوا لضرب المثل وبسط اليد بالخير وبسط الوجه بالبشاشة والرفق وبسط مجالسهم لذكر الله وترتيل آياته.

وهكذا يكون أمامنا فاعل تربوي هم الربانيون، وبإزائهم سائر الأمة. فلكي تنجح التربية ينبغي أن نعلم بأي جهاز علمي يتزود الربانيون وبحثنا عن منهاجهم التربوي سيؤدينا إلى البحث عن حقيقة الربانية وعن أصل الربانيين ومصدر الحركية التي تسير بهم لتحقيق الغاية الإحسانية للأفراد ولجماعة المؤمنين.

الفقه المنهاجي

في كل صفحات هذا الكتاب ذكر للمنهاج النبوي وتدليل عليه بالنص الشرعي وبالبرهان التاريخي. ونعني بالفقه المنهاجي البيان العلمي الذي يكون حافزا مجليا لرؤية الأهداف والغايات ولوعي الموقف وسلوك المنهاج المنقذ برغبة وطلب. ولعل هذه التعريف قريب من تعريف معنى الإيديولوجية عندما يستعملون اللفظة استعمالا إيجابيا لا عندما يتراشقون بها يتهمون بعضهم بالتدليس الفكري لتبرير العمل الإرادي التعسفي. ونحن نهجر الجاهلية ومفاهيمها بقدر ما يتناسب مع ضرورة مخاطبة الناس على قدر عقولهم. ونحن نهاجر إلى الله ورسوله نلتمس الهدى، ونستن من شرع الله منهاجا لعملنا الاسلامي الطالع علينا يومه غدا.

إن الربانيين أشخاص بأعيانهم يوجدون اليوم في دار الاسلام حيث يعلمهم خالقهم الذي فطرهم ليستجيبوا لنداء دينه غدا، إنهم قابلية اجتماعية لهذه الأمة المسكينة المرحومة المستضعفة الوارثة غدا. إنهم لا يتعارفون، ويضغطهم الواقع المفتون فينكمش بعضهم في ركنه وبعضهم يقول ربي الله فيشنق أو يزج به في سجون الطاغوت القومي.

هذا النداء الذي آن له أن ينطلق والذي سيجمع أذانُه الربانيين المستضعفين ليتحملوا عبء التربية بأي لغة يخاطبون؟ وفي أي عالم وبأية وسيلة سيبلغهم النداء؟ وبم يخاطبهم النداء من مبادئ يحللون على ضوئها مجتمعهم المفتون ويرفقون بمقتضاها ويبذلون؟ هذه أسئلة تحدد شكل الفقه المنهاجي ومضمونه. وقد كتبنا ما شاء الله إجابة عنها، ونعود هنا لننظر إلى المنهاج النبوي في اقتحام عقبة التربية ابتداء من تربية المربين الربانيين ثم إلى تربية سواد الأمة، فمنهم المحسنون المؤمنون السابقون، ومنهم من يدخلون في دين الله أفواجا فنسبح عندئذ بحمد ربنا ونستغفرهإنه كان توابا، وإنه بالتوبة ورفقها ينفتح باب الفقه المنهاجي.

المسلمون اليوم في موقف الحيرة وفي موقف الإعجال من ضرورة حل هذه المشاكل التي يترامون بين أمواجها لا حيلة لهم إلا اقتباس الاشتراكية ريثما تصعد موجة أخرى من الشباب أدركت إخفاق الاشتراكية القومية في دار الإسلام فتريد قومية شيوعية تخلع العذار. بعض الدول الإسلامية أسيرة في عصبيتها القومية تحسب إسارها موقفا ثوريا متحررا، وبعض الدول في موقف ما قبل الثورة أو قل ما قبل الانقلاب. وإذا قلنا «الدول الإسلامية» فإنما نعني جهاز الحكم في دار الإسلام الممزقة. في مجموع البلاد الإسلامية المسلمون في موقف ألم وحسرة وغيظ تتوالى عليهم

الضربات فتزيدهم يأسا، فضربات من بين قومهم المترفين وضربات من عدوهم الماهر الماكر الآكل لفريسته سائغة هينة.

المسلمون في دار الفتنة تنحر عظامهم العنصرية القومية، ويأكل قلوبهم غضب المحروم على الظالم، ويخرب جسمهم الحرص على حياة أي حياة، وتعشش في عقولهم أفكار مخدرة، بعضها يوهمهم بأحلام المتعة الحضارية واستمرارها جزاء ترفعهم على بني جلدتهم وعيشهم على مستوى الترف الجاهلي، وهؤلاء هم سادة المجتمع الكراهي القاعدين على كراسي العدوان، لا اختلاف بين عقلياتهم إلا اختلافا في لون القناع الإيديولوجي وشكله. والمخدرات الفكرية في حسبان طائفة المثقفين المحرومين من طلبة ومحترفين ثوريين هي هذه الإيديولوجية الشيوعية التي يأخذون قوالبها المنطقية فيستعمرونها بمضمونات حقدهم العنصري أو ألمهم القاطع من مضاضة ظلم الظالمين. وكل هؤلاء بمعزل عن جسم الأمة المسلمة الرازحة تحت نير فتنتها بهم ونير فتنتها بالعوز والفقر والمرض والجهل.

وتتجمع الفتنة وتنصب روافدها في مظهر بشري يشخص حاضر المسلمين البغيض، إنه هذا المستوزر وهذا الموظف وهذا الحاكم الذي يعيش في عرصات قصره، فإن لم يكن له قصر فقصير. وتكثر حاجاته ويكثر بذخه وتبذيره فيذهب اليتيم والأرملة بعد

أن ينهب مال المسلمين ويرتشي ويسرق ويكذب.

وللفتنة مع هذا المظهر حركية مخربة، إنها حركية الحقد والغضب العاجز، وينتج عن هذا العجز الغاضب شلل في إرادة الأمة فهي عرضة جاهزة لكل دعوة، وهي مستعدة راغبة في التغيير أي تغيير. إنها لا تملك فسحة للاختيار فكل من دعاها وهي منهمكة منهوكة لبت نداءه بموقفها السلبي العاجز والقلب لا يستجيب أبدا. والتغيير المقترح دائما بل المفروض دائما تغيير يستبدل أشخاصا بأشخاص وفق قانون الغاب المنبني على صراع العنف والدهاء في خدمة الغضب أو الأنانية أو في خدمتها معا. هذ التغيير المفروض دائما، المتقبل بسلبية، يدخل في دورة مفرغة لا نهاية لها هي دورة الانقلابية. والانقلابية تغيير سطحي لواقع سطحي، لا تربي أبدا لأنها لا تجد مشدا تمتلك به قلوب أمة مسلمة لا يحب قلبها الشرك ولا الجاهلية، ويفتضح عندها مكر القادة المترفين إذ يلوحون لها بشعارات ممسوخة تمزج الحق بالباطل وتدعو لاشتراكية قومية إسلامية.

واقعنا بغيض كريه ونحن نجهل إسلامنا، ومن بيده السلطان لا يعلمنا الإسلام لأنه يجهل الإسلام، ولا يربينا بالإسلام لأنه لا يربي بالإسلام إلا من كان ربانيا. فإلى أين المفر من الوهن ومن الظلم ومن الدورة المفرغة دورة العنف والكراهية؟.

هنا ينادي الإسلام بالتوبة والرفق، ويخاطب المسلمين بلغة العقل أولا ريثما يتعلمون لغة القلب. يخاطبهم بلغة العقل أن انتماءنا للجاهلية وذوباننا فيها أمر واقع لا تغطيه الأسماء إلا عن عين الجاهلين. إننا ننتمي للجاهلية بفكرنا لأننا ننتمي إليها بشهوة نفوسنا. آية ذلك أننا أول المستجيبين لكل هيعة في بلاد الكفر وأننا إذ ندعو لعصبية القوميات فإنما نؤيد دعوتنا ونبررها بأن أوربا ما تقدمت إلا بعد أن تقلصت إلى مجتمعات عصبية قومية. فتدخلنا الجاهلية من جانبين، من عصبيتنا القومية نفسها ثم من تبريرنا لها بواقع جاهلي كافر. يدعونا داعي الإسلام أن وهمنا القومي وانتماءنا للجاهلية لن يتغير بتغيير الأسماء والوجوه والشعارات لكن يتغير بطرحنا للجاهلية ورفضنا لكل ولاية إلا ولاية الله ورسوله والمؤمنين.

داعي الإسلام يحررنا من التبعية ويحررنا من اليأس إذ يفتح لنا باب التوبة، لنرجع إلى ربنا برفق ولكي نتولاه فيتولانا. إن الإسلام وحده يغير الله به ما بنا من مكروه حين نغير ما بأنفسنا من أعراض وغفلة عن الله.

نحن الآن ننتمي لعالمية مقلدة، مثلنا الأعلى جاهلي، ودواعي التقليد في نفوسنا هي دواعي الإعجاب بالسيد المتفوق، ومظهر تقليدنا تبعية خانعة. والإسلام يرفعنا إلى عالمية المسؤولية عن

أنفسنا ليربطنا نحن الأمة الممزقة بين القوميات رباط الولاية والمحبة، ثم يرفعنا إلى عالمية المسؤولية عن الأرض ومن عليها. فحركة التوبة إلى الله حركة تغيير تربوي رائدها التطلع لقيادة العالم عبر الجهاد للاستقلال عن الجاهلية استقلالا يوحدنا بعد ما فرقتنا فتنة التاريخ وقصرتنا في القوميات.

ولابد للتوبة أن تنقلنا من إسلامنا الفردي الذري إلى إسلام جماعي، ولكل جماعة رباط تنظيمي ضروري. فنحن اليوم ننتمي لدول لها قيادات بعضها يتنكر للإسلام علانية ويضطهد كل حركة إسلامية، وبعضها يخدر الإرادة الإسلامية عند الأمة بنصب شعارات هي بديل المسخ للإسلام المحرر من الطاغوت.

فإذا أردنا فقها منهاجيا لغدنا فلا بد أن نعلم من نتوب على يده كما نعلم كيف تكون التوبة ومم تكون التوبة.

وهنا عقدة الفقه المنهاجي بأكمله، فإذا أعطتنا البديهة أن في الأمة يكمن الربانيون كقابلية اجتماعية ويكمنون في المساجد والسجون، فإن السؤال المحوري هو، من يخطو الخطوة الأولى نحو الإسلام ؟ والسؤال يتضمن أننا رغم ما نسمعه لا نزال في موقف عداء أو موقف فتور تجاه الإسلام في كل دار الاسلام.

من يخطو الخطوة الأولى ؟ أهو الامام المهدي المنتظر كما يتصوره العامة نازلا من السماء بسيفه؟ كلا! فإن الله عز وجل

أنبأنا بلسان نبيه أن سيحل بيننا عيسى بن مريم رسول الله يعدل بعدل الإسلام، ونحن نؤمن بآيات ربنا وغيبه. لكنه سبحانه علمنا بما وضعه من نواميس في الكون وفي نفس الإنسان أن التغيير التاريخي إنما يتم بحوافز بشرية ووسائل بشرية. وحتى الأنبياء والرسل عليهم السلام كانوا رجالا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويقاتلون ويُقتلون، ويجاهدون حياتهم لنصرة أمر الله. فليس أكثر منا غباء إن انتظرنا أن ينبعث لنا نداء الإسلام من صُور الملائكة في سماء!

ها نحن أولاء بشرنا بالإسلام وقرب ظهروه وحلول أوانه منذ هذه الصفحات الكثيرة، أفترانا ندخل في مساومات الإيدولوجية ويوتوبيتها؟ كلا فإن وعد الله ورسوله حق، وما بحثنا عن منطلق الحركية الإسلامية ضربا من الفضول. وإن معرفتنا أن لله ناموسا سببيا في الكون هي التي تهدينا سبيل البحث والطلب. لقد قامت دعوات إسلامية مجاهدة منذ هجم الجاهليون المستعمرون على دار الإسلام في هذا القرن الرابع عشر الذي ستشرق علينا شمس الإسلام من مغربه. وكان قادة هذا الجهاد الإسلامي رجالا مؤمنين ذاكرين كان منهم في الهند وكان منهم في السودان وفي شمال إفريقيا وكان للبنا رحمه الله جهاد متكامل، وجهاد تربوي برهن للمسلمين نجاحه أن الروحانية العليا في شخص القائد هي موطن

القوة وموطن الرجولة ومنها تقتبس الأفئدة المقبلة على الدعوة كل طاقات العمل. شهيدا الهند ومهدي السودان ومشايخ السنوسية والبنا رجال مثلنا رغبوا إلى ربهم بعد أن رباهم رجال ليسوا مثلنا إلا في رأي العين. إنهم خريجو هذه المدرسة المحمدية مدرسة الصحبة والذكر. ثم إن هؤلاء المجاهدين لم تعلن عن قيامهم أصوات الملائكة. وإنما درجوا على الأرض كما يدرج غيرهم متمسكين بأسباب السعي البشري، ومروا من الأرض كما مر غيرهم من أهل الله الصالحين يؤيدهم روح الله وتسطع على محبيهم نوارنية ينكرها معاصروهم ويعزون أثرها لمصدر يصوره هواهم وكيدهم. فقد كان المهدي في نظرهم مشعوذا وكان البنا عميلا. هؤلاء الرجال لم ينزلوا من السماء كما يتصور الناس المعجزة، بل هم حققوا في أنفسهم معجزة فصعدوا لسماء الطهارة الروحية وخرقوا عادات الغفلة وحجاب الترف. وهم بذلك معجزة تسعى بقدمين.

أننتظر معجزة تنقذنا من ورطتنا؟ نعم! ننتظرها بكل تأكيد؟ وإن لم نكن ممن يؤمنون بغيب الله ويرون إعجازه عز وجل في تدبير أسباب العالم كما يرونه في كشف عالم الغيب لسكان عالم الشهادة لما صح أن ننتسب لإيمان. درجنا منذ حين نتأمل مصدر الفاعل التاريخي نستعمل تصورا شائعا يفهمه معنا من لا ينظر إلا للأسباب، فوجدناه في ذلك المؤمن المتحرر عقله بحرية روحه المريد

المجاهد. وهذا منطق مشروع غير مدفوع، بيد أن الحق المطلق هو إطلاق إرادة الله سبحانه إذ هو المهيمن القادر المريد وهو الفاعل وحده لا شريك له. فهو جل ذكره يغير ما بالناس ويده القوية ماسكة بناصية كل شيء. وخطابه التكليفي لنا بالعمل والجهاد نصيبنا من فضله إذ ينسب لنا عملا هو ميسره ومدبره.

على ضوء الإيمان والإحسان يكون معنى انتظار المعجزة ومعنى الرجاء انفتاح على عالم الأسباب بكل ثقة وانطلاق، ومع هذا الانفتاح ومن خلفه اعتماد على الله ربنا يسهل معه الصعب وتذوب معه العراقيل. ومن يرى هذه النواصي الكاذبة الخاطئة التي تسير كواكب مذَنّبة في مدارها حول الجاهلية وقيمها لا يرجو منها خيرا ولا يأنس عندها ميرا. فإذا اعتبر إلى ذلك أصابع الرحمن التي تقلب قلوب عباده وتذكر من أين خرج للإسلام عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين حتى عز بهم بعد أن عزوا به يسلم أن انتظار المعجزة في زمننا أشبه بانتظارها قبيل ظهور صلاح الدين. كانت يومئذ الفرقة الذرية وكان الناس يومئذ فتاتا إنسانيا خلفته فتنة الفاطميين وكان العدو الإسلامي الغازي في أوج قوته واتحاده وتألبه. فلما أراد رب الحركة والسكون عز وجل أن يمن على عباده المستضعفين اليائسين ابتعث للأيوبي رجلا اسمه رمز خالد هو «قطب الدين» فجدد للأمير الأيوبي عقيدة وصحب الأيوبي

الأخيار والصالحين فصلُح وصلَح به الدين.

وإن حالة المسلمين اليوم حالة استيئاس، وقانون الله في كونه أن يأتي نصره لرسله وأتباعهم عند الاستيئاس، وينجي الله من يشاء ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين. فتنة اليوم لا تختلف عن سابقتها إلا شكلا، وهي هي والمسلمون اليوم كالمسلمين قبيل أن يجمعهم الله على يد عبيده المماليك الذاكرين لربهم، وقبيل أن يجمعهم على يد عبده الصالح الأيوبي الكردي لينصرهم على التتار وعلى كفار أوربا الصليبيين.

قد يحلل لنا محلل تاريخ انبعاث المماليك والأيوبي فينسب انفجار الطاقة الإسلامية لغير أسبابها جهلا وغفلة، وقد نبحث نحن عن ظواهر الأسباب الحالية لنحرر من أي وجهة يطلع علينا وجه قائدنا المجاهد المنتظر المرجو تأملا وترقبا لأمر الله، وفي كلتا الحالتين يمتنع علينا أن ندرك تدبير الله تعالى إلا بمقدر ما نتلقى آياته بالقلب الصادق والعقل الفطري المتعجب من كل هذه المعجزات التي نعيش معها. فمعجزة كبيرة أن نسمع صوت البعيدين وأن نطير في جو السماء كالطير، ومعجزة أعظم منها لو كنا نعقل أن يكون على الأرض سبعمائة مليون مسلم وتغلبهم شرذمة من اليهود. تقول إن من وراء اليهود الكفر كله يتألب، فأجيبك أن المعجزة المعضلة أن قوميتنا التي استبدلنا بها أخوتنا

الإسلامية عجزت حتى عن التألب نعرة وحمية أن أهين مسجد الله الأقصى.

عوامل استيئاس تحمل بشرى نصر الله الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. وإنه الإسلام أو الطوفان لولا أن سبقت كلمات ربك، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. وكلمة ربنا للمستضعفين أن يمن عليهم ويورثهم الأرض فإن الأرض لله يورثنا من يشاء من عباده، وموعوده للمستيئسين من المؤمنين أن ينصرهم ويهلك عدوهم بأمر من عنده وبأيدينا.

الربانيون

إن وضعنا لسؤال بدء الحركة وقيادة الجهاد بحث لمكان وازع السلطان من العمل التربوي. رأينا من أن عراقيل التربية تجتمع في أصول ثلاثة، هي الكثرة العددية المشتغلة بالتنافر والتباغض والكيد المتبادل ضحية للفئة المترفة المستغلة، وهي القلة التي يعيش المترفون بمقتضاها وسببا لها في البذخ، فيكون بذخهم ونهبهم العائق الأول لتدبير معاش كريم يحرر الرقاب الكثيرة من كفر الفقر، وهي آخر الأمر وأوله ووسطه الخلط الثقافي والفتنة العقدية التي يجرها ذيلا من أذياله.

فأولئك جميعا مسخ مثلث، مسخ قردي قوامه التقليد ومظهره الطيش اللاهي، ومسخ خنزيري قوامه الدوابية التي انحدر إليها مترفونا ومظهره بطون مكتظة بالحرام تلعنها بطون خاوية ملايين، ثم المسخ الطاغوتي بمقتضاه يستعبد بعضنا بعضا ويلعن بعضنا بعضا وبأسنا بيننا شديد، قلوبنا شتى فلا تطلع علينا الإيديولوجية بجديد.

ضغط المحرومين وثورة الأجيال الشابة مناط الثورية المحررة حسب ناموس الإيديولوجية. وإن هذا الضغط وهذه الثورة لمظهر من دفع الله الناس بعضهم ببعض، وهو دفع جدلي كما تعبر

الفلسفة، ولولاه لفسدت الأرض. ونرى أثر هذا الضغط مضافا لأثر الضغط الخارجي يجعل كثيرا من قادتنا يلفظون بالإسلام ويتابرون في عرض شعاراته. إنهم يفعلون ذلك إجابة عن الضغط العام وتعبيرا بالكتابة عن فشل الاشتراكية في دار الإسلام. فهل هؤلاء هم الربانيون الذين نريدهم ليعيدوا الإسلام للمسلمين ويربوا أجيالهم على الإيمان والإحسان؟

عراقيل التربية الإسلامية تتلخص في التدهور والتخلف الاقتصادي والمسخ الثقافي، ولا تبدأ حركة التغيير إلا إن أمسكت دفة الحكم يد مؤمنة تستبد ولا تعجز. وهذا فرق ما بين السلطان المغير والسلطان المتدهور. قادتنا إن لفظوا بالإسلام وقرأوا على الناس القرآن فكلام من كلامهم وجزء من خطاباتهم السياسية. والسياسة مذهب جاهلي في مسك السلطة وتصريفها والاحتيال عليها بطشا أو كذبا في غالب الأحيان. قادتنا لهم إرادة سياسية وأساليب سياسية وأهداف سياسية كلها تنظر لجمهور الراضين والساخطين ناخبين كانوا في ظل الديمقراطية وزمهريرها أو راتعين في جنة الاشتراكية بل جحيمها. والربانية إرادة مؤمنة تنظر إلى الله بالقلب المحسن وإلى الناس بالرحمة والمودة والرفق المربي.

يريد الإسلام لانبعاثه ربانيين يبدأون الحركة. إنهم رجال ينتقلون من فتنتهم لمنهاج ربهم وينتقلون من ترفهم ليقتحموا

عقبة خلاصهم. لا ينبرون لحمل شعارات الإسلام خدعة سياسية ولا حتى بديلا عن مذهب فاشل، لا يتحركون بوازع خارجي بل يتحركون مبادأة بإيمان بالله متجدد، ويقطعون أسباب ماضيهم تائبين إلى ربهم. يخرجون من الأثاث والقصور ويجلسون في خيمة الجهاد وفي مساجد المسلمين شاهدين بوحدانيته، منسلخين عن أنانيتهم. أولئك إن بدأوا التغيير بأنفسهم كانوا خليقين أن يلحقوا بالأئمة المجاهدين المجددين أمثال عمر بن عبد العزيز ولي الله وناصره وصلاح الدين وابن تاشفين ومحمد الفاتح والملك الصالح عالمكير. ذلك موكب الصالحين المجاهدين التائبين، وما كانوا كذلك إلا لأنهم صحبوا رجال الدعوة وذكروا الله حتى خرجت الدنيا من نفوسهم. فلما تغير ما بأنفسهم غير الله بهم حال المسلمين وربى بهم أجيالا من المؤمنين.

رجال نفتقدهم، لا يعجز ربنا أن يبرزهم من صفوف النواصي الخاطئة الكاذبة على كراسي الحكم أو يبتعثهم من سواد هذه الأمة الخصبة غير العقيم.

فإذا برزوا وأعطوا برهان صدقهم بأن طرحوا ماضيهم وأحمالهم، ثم أعطونا برهان كفايتهم القيادية طبعا مستقرا وفكرا وعلما وعزيمة ماضية وربانية رفيقة، حق لنا أن نسير في ركابهم وينبعث من الأمة ربانيوها باستبشار المنبعثين ثم سائر المسلمين دخولا في طاعة

الله ورسوله. وعندئذ تؤول إليهم مقاليد الأمر، فأول واجبهم أن يمارسوا الربانية تربية رفيقة، وأول الرفق أن يضع الحقائق في نصابها فيكونوا أصحاب الرأي المستقل لا تهزمهم هيعة ولا تضعفهم ميعة.

ربانية القائد المجاهد أن يمارس وظيفته مربيا للأمة، ولا تربية إلا بإزاحة العراقيل، عرقلة الكثرة الفقيرة بإفشاء العدل والخير، وعرقلة المسخ الثقافي بفرض وجهة مسلمة. إن ربانيته لن تستطيع اقتحام العقبة إلى قلوب الناس وعقولهم إلا إن أعطاهم الخير وأفشى العدل، وإنه لن يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك إلا أن استبد بالتوجيه التربوي استبداد الخلفاء الراشدين.

الاستبداد التربوي له نماذج في الثورات، المعاصرة منها والغابرة، نتائجه وأسبابه أن الأمة منحلة سائبة يستحوذ فيها على الإرادة السلطانية رجل قوي فيحول الأمة تحويلا كاملا. كان ستالين نموذجا للاستبداد القهري العنيف لتربية من نوع خاص تربية زاجرة قاتلة، لكنها فعالة من حيث النتيجة الصناعية لا الإنسانية.

ونموذج التسلط الإرادي لا يصلح عليه حال في دار الإسلام أبدا، وآية ذلك أن استبداد مصطفى كمال الملحد الكافر ما أصلح أمة المجاهدين في تركيا بل عاث فيها فسادا، فساد كفره وزندقته وإلحاده وفساد مبادئه الحركية وإديولوجيته السياسية التي

عارضت عقيدة الأمة فانكسرت على نصال المقاومة المؤمنة، وقد آن أن يستأصل الله جذورها فينبعث المجاهدون في دار الإسلام بتركيا لفرحة الإسلام غدا.

الاستبداد التربوي الرباني لا يعني أن يحكم القائد المجاهد بهواه، لأن شريعة الله سنت لنا المنهاج وشرعت لنا الشورى بين المسلمين وشرعت لنا الاجتهاد والأخذ بالإجماع فيما يعرضنا من أمور الأمن والخوف. ويعني هذا الاستبداد صرفا عازما ماضيا لسلطان الحكم في إنهاض الساقط وإقامة المعوج ومحق المخلفات الجاهلية. ولا يعني الاستبداد التربوي كنس الناس ومحاكمتهم بل يعني فتح باب التوبة المؤدي للطاعة تدريجيا مع رد المظالم وإفشاء العدل.

هذا الرفق الملازم للاستبداد التربوي ضمانة للسير على المنهاج في بعث الأمة من فتنتها، وهذه الربانية في القائد المجاهد ضمانة أن لا يصبح البعث الإسلامي قضية يناط حلها بالإجراء الإداري بل بها يكون البعث قضية تربية أولا وقبل كل شيء، قضية يتضافر على نصرها عاملان : هما وازع السلطان ووازع القرآن.

أمامنا نماذج التجديد الثوري الشيوعي، فبعد معارك لينين النظرية منها والعملية التماس لصيغة تنظيمية متجددة تشخص معنى الثورية المستفيدة على مر الأحقاب من معارف الإنسان

في ممارسته لمشاكل الطبيعة ومشاكل المجتمع، هبطت التنظيمات في روسيا وهي هابطة غدا في الشيوعيات الأخرى إلى استبداد جهاز. إنها الآن ثورية جهازية حدودها إرادة الطبقة الحاكمة ومعيارها اجتهاد القيادة المركزية.

تطور الحركة المجددة إلى جهاز مغلق على نفسه ظاهرة في تاريخ البشرية عامة. ومن الانغلاق الجهازي يتحول الاستبداد المربي إلى استبداد مصلحي في خدمة الطبقة الحاكمة. على هذا الدرب سارت كل الدول التي دالت مهما كان صدق مؤسسها ومهما كانت المنظومة الفكرية التي سارت على هديها. ما وصف ابن خلدون وما وصف غيره من فلاسفة الاجتماع والتاريخ إلا هذا التطور الهابط. وإن ربنا عز وجل علمنا أن قانونه الكوني الحاكم في شؤون من يريد إهلاكهم هو ظهور الطبقة المستكبرة المترفة تفسق في القرية فيحق عليها قول الله.

الربانية إن ذكرنا مقوماتها قائمة على إخلاص الوجهة للرب العلي ثم هي رفق في التربية تربي بصغار العلم قبل كباره. فمن حيث إخلاص الوجه لله تعالى يكون الرباني راعيا لخلق الله خليفة له مراقبا خائفا من سطوة مولاه وسيده، ومن حيث التربية بالرفق والعلم صغاره قبل كباره يكون الرباني مربيا في كل حالاته، مربيا بمثال سلوكه مربيا بكلمته مربيا بفكره.

سيأتينا في طريق الإسلام غدا الرباني، فلا يكفي أن يستبد بالتوجيه التربوي لتؤدي الربانية وظيفتها الحيوية، بل لا بد أن يجتهد ليشاركه في الأمر ثلة من الربانيين على مثال روحانيته وخلقه وعلمه. هؤلاء هم رجال الدعوة وتعاونهم مع القائد المجاهد نسميه ثنائية بين الدولة والدعوة، ثنائية وظيفية إذ يربي القائد بوازع السلطان أكثر شيء ويؤسس على صولته تربيته، ويربي رجال الدعوة بوازع القرآن أكثر شيء وبتعاونهم مع القائد المربي يجمعون سلطان الوازعين.

المؤمنون المحسنون رجال نبذوا الدنيا فلا سلطان لها عليهم، الأمر هكذا نظريا، أما عمليا فإننا أولا لا يمكن أن نعرف المؤمن المحسن من كثرة صلاة وقيام لكن نعرفه ببرهان الصدق يثبته لنا كل يوم وكل لحظة، وإننا ثانيا نعلم ضعف البشر فهم غير معصومين. وليس ثمة ما يجعلنا في أمن من أن تتحول جماعة الربانيين جهازا مستبدا، لهذا يلزم أن ينظم هذا الاستبداد التربوي وهذه الربانية تنظيما يفتح عملهما على الغاية الإحسانية بداية ونهاية.

ففي البداية نحن تائبون من فتنة ومن مسخ، فمن المحسن منا ومن الرباني ؟ ولا شك أن التطوع سيكثر طلابه بالعقلية الموروثة عقلية التسارع إلى النجعة ومظنة الجاه والمال. وهنا الامتحان لنعرف الصادق والكاذب والمحسن في بدايته! فلا يكفي أن يعلن

المرء استعداده للتطوع لنصدقه ونقلده وسام الربانية، كلا! بل لا بد أن يتجرد لسلوك جماعي قوامه المحبة والطاعة والبذل والصدق، وهذا التجرد يجب أن نراه سمتا في شخصه ويجب أن نراه خدمة دائمة للمؤمنين ولقضية المؤمنين. ثم هو بعد هذا لا يرث صفة الربانية حقا مسرمدا، ومتى أحب أن يخدمه الناس أو كف عن خدمة المسلمين فقد بدت آثار الاستكبار ويحق عليه وحده القول فتلك نهايته.

من أي الآفاق يجيئنا الربانيون ؟ أما الرباني الأول فيأتي من عند الله القادر القوي على طريق الطلب القلبي لا على طريق التبرير السياسي لسعي فاشل. ومن هذا المصدر نفسه يأتي الربانيون. إن النخبة الظاهرة بمعاييرها المفتونة هم هؤلاء المثقفون الذين يملأ بعضهم أرض الإسلام فسقا واستكبارا ويملأها الآخرون صراخا وغيظا ويتروى الآخرون في تفاهة وظيف معبود أو في مسجد الحوقلة.

هؤلاء جزء من الأمة الحاملة بجنين الربانية، من أحشاء هذه الأمة يخرج الله عباده المصطفين. والناس كما طبعهم الله ثلاثة، أما خامل منزو، وأما منبعث عن حافز باطني إما يطلب حقيقة وجوده فيهديه الله للإسلام أو طائش مع تيار الهيعة الجاهلية وثالث يتبع ويقلد ويدخل فيما يدخل فيه الناس.

شبيه بهذا ما فصله باحث اجتماعي أمريكي[1] في سياق تصنيفه للناس في مجتمع الجاهلية المتطورة. فعنده طائفة المتحركين بحافز الحفاظ التقليدي «tradition-directed»، وطائفة يتحركون بحافز باطني مرده للتربية وهم المجددون الدافعون للحركة الاجتماعية «inner-directed»، وطائفة التابعين الذين يدخلون فيما يدخل فيه الناس «other-directed».

إذا طابقنا هذا التصنيف مع واقع الطبقية المفتونة في مجتمعنا الموروث. وجدنا أن السابقين القادرين على حركة مستقلة لن يأتوا من طبقة السياسيين المثقفين فهؤلاء أساتذتهم يهود أوربا وزعماء الصين، ولن يأتوا من طبقة ديدان القراء المبررين «للإقطاعية الإسلامية» أو «الإسلام الاشتراكي». ولا يبقى بعد هؤلاء إلا صنفان من الناس، مستضعفون عاقهم الطاغوت عن تبليغ رسالة ربهم وعاقهم فساد البيئة عن ممارسة دعوتهم لخلو الميدان من الوازع الثاني، وآخرون من شبابنا أعطوا ثقتهم لطبقة المحترفين للثورة فاغتاظوا بصدق وألحدوا في دين الله لما علمهم المحترفون أن الإسلام هو ظلم وأن السجن هو المصحف والعمامة.

المستضعفون في الأرض من عامة المسلمين رجال ونساء وقاهم الله شر الفتنة فعاشوا في القلة والفاقة ولم يترفوا في مال وجاه،

1 David Riesman la foule solitaire,Paris 1964.

ومن كان له منهم سيطلب جاه ومال وقاه الله بعزة في نفسه أن يكون مع الأرذال. هؤلاء تكمن فيهم قابلية الربانية خاصة في أبنائهم من الشباب المثقف الذي لا ينتظر إلا أن يزاح عنه طلسم التقدمية الذي سحرهم به كهنة الاحتراف الثوري. وسيكون من المستضعفين ورثة ربانيون، ومن قلوبهم إن تطهروا بالتوبة والتزكية وذكروا اسم الله وصلوا مختبين تفيض نوراينة الإسلام على الفضاء الإسلامي وعلى وجه الأرض القاتم بجاهليته.

إن في بلاد المسلمين طائفة العلماء، سموهم علماء الدين منذ انفصل الناس عن الدين. هؤلاء العلماء نخبة الأخيار يختفي في صفوفهم فسقة فجرة كما يختفي الخبث في الحديد قبل أن تصهره النار. وفي صفوفهم عقلية الإسلام الفردي ويأس الزاهدين وانتظار قيام الساعة لفساد الوقت، إنهم حملة العلم النبوي الذي هو العلم الحق لأن به يدرك الإنسان كماله ويعلو من دوابيته التي تخدمها العلوم التجريبية التي نؤلهها ونعير بها علماء الملة.

علماء المسلمين يكونون جهازا مغلقا يحمل في طياته أسباب عدم صلاحيته لحمل رسالة الربانيين إلا بشرط انفتاحه. إنه جهاز مغلق وراثة من عصور كان فيها طائفة العلماء طبقة اجتماعية إدارية، وإنه ازداد انغلاقا منذ طغت الفتنة وخلف أجيال المسلمين رهط من عباد الديمقراطية والاشتراكية.

كان في دولة آل عثمان علماء موظفون يشكلون جهاز مغلقا إن لم يكن حاكما فهو في خدمة الحكم. ولم يؤثر عنهم أثر يذكر في الاجتهاد المجدد وإنما كانوا يتكيفون بحاجات الدولة ويغيرون أشكال الفقه ولا يجددون به حياة. فلما تسلط المارق مصطفى كمال على دولة الإسلام عذب العلماء تعذيبا مرا وأهانهم إهانة الجبابرة الأنجاس. وكان ذلك الهوان منبها للعلماء وعاملا في هدم الجهاز المغلق. فعز العلم وسرت فيه الحياة وهو في استخفائه، وعز بالعلم الإيمان، وتجمع حول العلماء مستضعفو الأمة وشبابها فارين من وجه الشرك الكاسح.

وعامة العلماء في دار الإسلام رجال أبرار إذا استثنينا من ذكر وقد يكون الاستثناء قاعدة الانتخاب غدا في يوم الإسلام. لن نسأل علماءنا ما فعلوا بالإسلام في اليوم الغابر، لكن نطلب إليهم التوبة مع التائبين، ونسألهم أن يضيفوا إلى ربانية العلم بصغار الدين وكباره ربانية التقوى والرفق والخدمة، ونسألهم أن يعطونا كل يوم برهان صدقهم بحيث نراهم علماء عاملين، علماء عمالا قائمين بالخدمة. فإن فعلوا فهم الربانيون بحق ورثة الأنبياء وهم عماد الأمر كله.

خصوم الاسلام

شرطنا أن يكون العلماء عاملين وعمالا ليستحقوا أن نعدهم ربانيين. والمفهوم العادي للعمل عند العلماء هو العمل العبادي، فالعالم العامل رجل يتقي ويخشاه ويؤدي فرضه ويتقرب لله بنفله. هذا المفهوم لا يعدو الإسلام الفردي، ولا تستفيد الجماعة من تقوى المتقين ما لم يصلهم من المتقين خير. ثم إن العمل العبادي أمانة فردية ومسؤولية أمام الله عز وجل، فالجماعة لا تستطيع معرفة إخلاص العابد ودرجة تقواه. الحد الأدنى من العمل العبادي الذي تحاسب عليه الجماعة المؤمنة كل مسلم وكل فئة من المسلمين هو الصلاة والاجتماع عليها في المسجد والآذان لها والزكاة تؤدى لوقتها. أما التقوى التي موطنها القلب فلا سبيل للاطلاع عليها. ولئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنع بمظهر الطاعة ومظهر الإسلام ويخبرنا أنه لم يؤمر أن يشق صدور الناس، فإن سيرته عليه الصلاة والسلام مع المنافقين كانت تتسم بالرفق والحذر معا، وكان عمر بن الخطاب يعلم الناس ألا يغتروا بصلاة مصل ولا بمظاهره إن لم يكن له في العمل الجماعي يد.

معنى هذا الكلام أن لخصوم الإسلام صفات كوامن في الصدور تتجلى في فئات من الناس يعادون الإسلام عداء ظاهرا

أو يندسون فيه ويكيدون له أو يخذلونه في أشد المواقف حرجا. لخصوم الإسلام صفات نفسية تتجلى في السلوك الفردي وفي العقلية الاجتماعية وتتشخص. وإن منطق القرآن، وهو المنطق الرباني التربوي يحارب الكفر والنفاق والظلم وهي صفات نفسية دائمة وأمراض يصاب بها الإنسان. أما الإنسان المتصف بالظلم والكفر والنفاق وسائر الأمراض فهو محط عناية الله يفسح له فسحات الرحمة في دعوة رسله ويدعوه ليغير ما بنفسه فيصبح بين عشية وضحاها ولي الاسلام ونصيره.

الجاهلية تتشخص خصومَها أفرادا بأعينهم وتناصب العداء خصوم الثورة وتفتك بهم، أما الإسلام في زمن الفتنة فيربي برفق الربانية ويحافظ على الناس ويحارب أدواء النفس، ويرجو دائما أن ينصر الله الإسلام غدا بخصومه اليوم. سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أفضل ؟ فقال : «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**». فالناس في المنطق الرباني أوان أودع الله فيها خيرة ومروءة، فمادة الإسلام يوم انبعاثه هم أهل المروءة والرجولة من المتنكرين لإسلامهم ضحايا الفتنة والجهل بالله.

شرط واحد ليدخل أهل المروءة المفتونون في مرتبة الأخيار من المؤمنين هو أن يفقهوا. والفقه في الدين ليس هو حفظ العقائد

والصفات ولا دراسة الفرض والسنة دراسة فكرية أكاديمية. إنما الفقه أن يدخل الإيمان في القلب وأن تنكسر الأنانية الطبقية وأن تجفى العادة الماسخة للنفس. الفقه المنهاجي الذي به يصبح ذوو المروءة من خصوم الإسلام اليوم أنصارا له غدا يبدأ بالتعليم لما نجهله من حيوية الإسلام مدخلا لمن لهم الاهتمام بالسياسة، وينتهي بالنسبة لهم وللآخرين بالوقوف على النبإ العظيم نبإ البعث والنشور ونبإ الجنة والنار ونبإ سر خلق الإنسان ومصيره وقيمته عند الله.

وإذا كنا قد كتبنا أن الربانيين لن يفدوا علينا تائبين من صفوف الساسة المحترفين الثوريين فذلك لأن نبأهم العظيم نبأ البشارة الماركسية سمم عقولهم ونفوسهم حتى لا مطمع فيهم للطبيب النطاسي. ونرجو أن يكون حكمنا هذا سوء ظن نستغفر الله منه. وإذا كنا كتبنا أن ديدان القراء لن يكون منهم ربانيون فذلك لأن النبأ العظيم هم المخبرون به على المنابر وفي المحافل، فيعظون وما يتعظون ويفسقون، وإن أدوى الداء النفاق، ولا نفع لرجل الدعوة أن يجلس إلى الملحدين يلتمس لهم هداية من أن يحاول معاناة المنافقين. ويوم يقول الإسلام سيندس المنافقون قابعين يتربصون، ﴿**قُلْ كُلّ مُتَرَبّص فتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَاب الصّرَاط السَّويّ وَمَنْ اهْتَدَى**﴾. وكما كان في الإسلام

الأول منافقون غطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجناح الستر والرحمة فسيبقى لهؤلاء الخصوم وجود في الأمة أبد الدهر، هم خميرة الفساد، وأشدهم نكاية بالإسلام ديدان القراء، حفظنا الله ربنا من سمومهم.

خصوم داخليون يجب على الربانية المنبعثة أن تحافظ عليهم وترفق بهم حتى تنكفيء الفتنة، ويجب أن ترييهم ولا تيأس من أن ينصر الله الإسلام بأبي جهل بن هشام جلاد الصحابة وعدو الله ورسوله. وخصوم خارجيون هم اليهود الصهاينة أهل المسخ والخزي وهم المستحوذون على الفكر الجاهلي ومساربه الإعلامية وهم المحركون للدمى الجاهلية بالكيد القديم، وهو سحر ثقافي أبلغ أثرا وشر عملا من سحرهم القديم، وهو تحريف للقول ورثوه عن جدودهم الملعونين الكافرين الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.ومع الصهاينة خصوم للإسلام كثير، وينبغي للمسلمين أن يحذروا العدو ويتيقظوا لكيده، لكن الخطر الشديد الذي نخاف أن يعرقل إيجابية الدعوة الإسلامية غدا كما يعرقلها اليوم يكمن في هذا النواح المتواصل على مظالم الماضي والحاضر دون أن يصحبه مبادرات تكذبه وتبطل أثره. إن كان رجال التبشير ورجال الاستعمار خلفوا لنا سما لا يزالون يغذونه بضاعة نحن نشتهيها وثلبا للإسلام ونحن أكبر مثلبة للإسلام، كنا قبل التبشير والاستعمار، فما يقاوم

هذا السم إلا التشمير لدخول ميدان الجهاد والتعبئة لصنع جهاز صناعي بقلوب مؤمنة تصنع أيضا دعوة ومدارس ومبرات تطعم وتربي مثلما يطعم ويربي التبشير.

الخصوم الخارجيون هم العالم كله، فإن وعينا هذا العداء بقلوب حية فلن يزيدنا عداء العالم إلا مضاء واستشهادا في سبيل الله، أما إن صعدنا فيه النظر من موطن الذلة وبعقلية التبعية فنظرنا فشل يهيء فشلا. نفوس تخاف الموت وتحرص على حياة أي حياة تستحلي المسخ القردي بل وتحكي توابث القردة في عدم استقرارها، وتفضل ذلك على حل الشهامة والاستقلال. وما رجولة الصينيين واستعلاؤهم على العالم، ثم ما أنتج لهم وعيهم ذاك من قوة وتطاول لمركز القيادة العليا إلا مثال نصبه الله لنا عتابا، كما انتصب في المسجد الأقصى عدونا الألد أخزاه الله تحديا يقتل من يحرصون على حياة، يقتلنا مدبرين مقهورين وكان موعد الله لنا لو آمنا به وجاهدنا صفا مسلما كأنه بنيان مرصوص إحدى الحسنيين. وإن إحدى الحسنيين جزاء ما يذخره الله إلا لمن قاتل تحت لواء الإسلام، إما من قاتل تحت لواء عصبية عمية فإن هزائم دنياه عربون لخزيه بين يدي الله يوم الدين.

وهذا يرجعنا لخصومنا الحقيقيين وهم الأنانية والعصبية، ثم الطاغوت العقلاني الثقافي، ثم العادة الدوابية. وهكذا نجد خط

البيان المنهاجي لتدهورنا في العقبة التي لم تقتحمها وهي عقبة وصفناها ونعود لنتذكرها. على مستوى الفرد يكون الاستكبار والأنانية حجابا مظلما وجدارا سميكا يمنعه من اقتحام العقبة لخلاصه، وخصلة الصحبة والجماعة تربى في قلبه أسا سليما لارتباطه بالجماعة، وهو أس الإيمان الذي هو محبة، وبالمحبة تنكسر الكبرياء، وتنكسر أيضا بالجلوس على البساط في مجالس الإيمان وخدمة المؤمنين. أما على مستوى المجتمعات الإسلامية فعقبة الأنانية والاستكبار مظهرها العصبية القومية. هذه النتنة الخبيثة التي مزقتنا وجعلتنا نهبا مقسما تقطعنا الجاهلية بمخلب وناب. فإذا قاتلنا العدو حملنا له راية القومية نعبدها لانهزامها. فإذا فرغ منا العدو فرغنا نحن إلى إخواننا المسلمين نهينهم من حيث نظن أننا ننتصر لأنفسنا. وإن أنفسنا لخبيثة عفنة بخبث قوميتنا، ولن يغير الله ما بنا حتى تنتسب إليه وإلى رسوله وإلى ملة إبراهيم حنفاء لله غير مشركين به، ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ صدق الله العظيم، وإن كلمته تنطبق علينا، وإن من الشرك شرك ظاهر وآخر خفي، ومنه نوع يجمع الشر كله هو شركنا يوم ندعو للقومية والاشتراكية والإسلام كتلة واحدة مشركة، أو نشرك وثنية طاغوتنا في شعار مع الله والوطن. ألا وإن التوحيد هو شهادة أن

لا إلا إلا الله وأن محمدا رسول الله. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ،لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم،إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَام**﴾.

فمن وثنية الطاغوت وشرك العصبيات، ومن عجزنا عن اقتحام الظلمة العقلانية الثقافية وعقبة العادة، نتوب إلى توحيد ربنا بالألوهية والعزة ونشهد قائمين بالقسط مع الله وملائكته وأولى العلم القائمين على الحق. وإن الدين عند الله الإسلام، وإن الإسلام تربية شاهد بالقسط، شاهد لله بوحدانيته، عالم رباني.

لا نبرح أول خطوة على المنهاج وأول خصلة من خصاله العشر، فإن الصحبة والجماعة إكسير الحياة وطريق النجاة. وإن الخصم الأول للإسلام بل الخصم الوحيد للإنسان والإسلام والذي لا يتغير الإنسان إلا بتغيره هو النفس. ففي النفس تستوطن الأمراض الاجتماعية والأمراض الشخصية الباطنة، وعلى ساحة العمل الاجتماعي يتعامل الناس بالعقول والجسوم والتدافع بقهر القانون ونفوسهم مريضة في ذاتها متنافرة فيما بينها، ونتاج ذلك مجتمع الكراهية جاهليا ومفتونا. وفي النفس خصوم الإسلام من استكبار وعصبية وشهوة بضائعية ومسخ ثقافي.

والتربية الربانية تضرب النفس الأمارة بالسوء وتغسلها

وتسوطها حتى يزول ما علق بها من شرك وجبروت.

الربانيون أولياء الإسلام وأولياء الله وشهادتهم بالقسط وتطبيبهم للنفوس المريضة تهزم الخصوم النفسية فتتغير النفوس ويتغير ما بنا. وبصحبة الربانيين والاندماج في جماعتهم يبرأ عليلنا ويشفى غليلنا إن عرفنا من إليه نلجأ وإن تعلمنا أن نتعرف على صدق الصادق من برهانه. وبصحبة الأمة كلها للجماعات الربانية يتهيأ توحد المسلمين بعد الفرقة وجهادهم بعد قعود الفتنة، حول الرباني الخادم للمؤمنين العامل الأجير القائد الأمير.

سواد الأمة الإسلامية فلاحون ساذجون وشباب متحفزون، هم أقرب الناس لفطرة وأسلسهم قيادا وأنفعهم عتادا. هم أسبق الناس غداً نهضة لنصرة الإسلام، وهم أول جند لوائه وهم البشرى الخافقة في سمائه. أصحاب المروءة منهم والهمة ينبعثون بالحافز الباطني انبعاثا لا تحسبه كبرياء المتمكنين في الأرض اللاصقين بها ولا عادات الترف القاتلة للرجولة ولا هذه الغشاوة الثقافية التي يضلل بها خصوم الإسلام المحترفون سذاجتهم. وهم أمة كثيرة تتلقى القائد المجاهد الإمام ودعوته تلقيا عاطفيا صادقا إن جاء يحمل معه برهان صدقه. بيد أن هذا اللقاء يتم في عرصات القلوب ونترات العقول ويوشك أن تحرف تواصله ومواصلاته أمراض النفوس المزمنة عاهتهم. يصول القائد المجاهد بسلطان

الحكم ويسخره لخدمة الإسلام، لكن هناك جهاز حكم قوامه خلق الله الكثيف الحاجب للعواطف المستجيبة بكبريائه. ويصول القائد المجاهد بنورانية قلبه وفكره، لكن حقائق الأرض اليومية وعلاقات المستضعفين الوارثين غدا بدعاة الإسلام وأدعيائه كثيفة بكثافة قلوب خلق الله الجالسين فوق الناس فتوشك أن تسد تيار المحبة وتيار التعليم والتربية بين الإمام والمأمومين.

فهل ينطبق وازع السلطان بيد الإمام وسطوة الأمة المستضعفة على طاغوت الكبرياء في أشخاص المترفين كما تنطبق المكنة الكابسة فتمحق كلا على كل؟ كلا! فقد علمتنا ربانية رسولنا الرؤوف الرحيم أن نرجو الخير من خصوم اليوم في غد التوبة ومستقبل الأجيال. أو ما رأيناه لما جاءه ملك الجبال يقترح أن يطبق الأخشبين على كفار مكة الذين طردوه وآذوه يرد الاقتراح برجاء أن يخرج الله مؤمنين من أصلاب الكافرين؟.

رفق الإسلام بخصومه ربانية مربية تحسب حساب الضعف البشري وحساب الفتنة الماضية والحاضرة وحساب التربية المفتونة وحساب العادات المتجذرة منذ الصبا وحساب الفراغ الهائل والفوضى المظلمة الماضية والحاضرة. ومن كل ذلك تتعلم كيف تنير المنهاج ليسلكه الناس عن طواعية وعن طاعة مدخلها رفق التوبة. ويخرج من كل ذلك الخير المرجو – بمعنى المنتظر– فإن

الله عز وجل يخرج من أصلاب الكافرين أولياء الإسلام أولياء الله بالتناسل الحيوي مثلما نسل الكافر الأكبر السلطان «أكبر» ولي الله تعالى وولي الإسلام الملك الصالح عالمكير، أو بالإنسلاخ عن الكفر وبالتوبة مثلما أسلم عدو المسلمين بالأمس عمر بن الخطاب وحبيب الله وحبيبنا أبد الدهر.

رفق الإسلام بخصومه رفق الطبيب الذي يجس النبض ويأسو الجرح وينحني على المريض بالكلمة الطيبة، وينقذ إلى الحياة مائتين ويرجع للصحة جسوم الهالكين المتعفنين. إذا فكرنا في أهمية التطبيب وصفات الرفق والحنو والتفاؤل والإخلاص الضرورية للطبيب، وإذا فكرنا في عظمة الربانية وقداسة طهر الربانيين ودورهم الحيوي في غد الإسلام فسنجد في أنفسنا رهبة وإكبارا للأمر وسنبحث له عن مرشح عظيم. هذا المرشح البديهي هم علماء الإسلام.

فنسأل المرشح أولا، أو الأحق أن ننقذه نحن ليستعد للجواب، يوم الامتحان غدا في صف العاملين العمال لا جوابا جداليا لفظيا. نرى مواقع الفتنة في تاج عز الإسلام ودرة مفرقه علمائنا الأفاضل. ونصرح لهم بالنصيحة بعد أن نلفظ من اعتبارنا ديدان القراء الفسقة الذين حملوا القرآن ثم لم يحملوه. هؤلاء خصوم للإسلام أشد خصومه وأكثرهم استعصاء على العلاج.

أما سائر الأفاضل المبجلين ورثة العلم النبوي المنقذ للإنسانية فنطرح عليهم أولا سؤال عتب، فنحن الرعية سواء ورعاتنا منهم في الفتنة. نسألهم عن العقبة واقتحامها، وعن الكبرياء العلمية ومهديتها، وعن الجماعة أين ينبغي أن يجلس منها العالم : أعلى منبر الخشوع ومراقبة الله يوم الوعظ وحيث انتهى به المجلس يوم الخدمة أم في برج الجمعة لتعيير الأمة بفسادها وعلى أرائك المترفين يوم الزينة؟.

ونسألهم عن الأمانة العظمى التي حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا، نسألهم هل الأمر عندهم إسلام وإيمان وإحسان ولن يجادلوا في ذلك، لكن نسألهم كيف يدخل الإيمان في القلوب وما هي الصحبة وما هو الذكر فإن بعضهم لا يذكر الله إلا قليلا، حوقلة يائسة أو رقية سياسية يدرأ بها بأس غيره إذ لم يستطع إن يدرأ بذكر الله الكثير وبصحبة الأخيار بأس نفسه؟

ونسألهم عن الصدق ما مطلعه وما برهانه، وعن الشح بالدرهم والقنطار وعن الكنز للأموال وعن السمت والتؤدة، وعن الاقتصاد والتخمة، وعن القعود تعلة لا رجاء؟

نسألهم ما حكم الله في كل ذلك؟ ثم نسألهم السؤال العملي سؤالا يجيبون عنه غدا يوم ينشر اللواء وتذهب اللأواء : ماذا أعددتم لحمل الدعوة، وأين الربانية تخرج للميدان باسطة يدها

ووجهها وقلبها للتائبين؟ أكانت لكم توبة تستأنفونها آناء الليل وأطراف النهار؟ ألجنوبكم اليوم تجاف عن المضاجع تدعونه تضرعا وخفية، تدعونه بجهادكم وتشكرون له بأداء حق الأمانة التي طوقتم بها وبما أخذ عليكم الميثاق الأنبياء ليصدقن من دعاهم لصدق وليؤمنن به وليعزرونه؟.

القيام بالقسط

نسأل علماءنا الأخيار فإن أجابوا إعراضا عن اللغو وفعلا للزكاة بالمعنى المنهاجي وبذلا وصدقا وتؤدة وجهادا عرضنا عليهم فهما للجهاد غير الفهم الموروث المنقرض بانقراض السيف وحامله وبانهزام المدافع القومية وسدنة دباباتها. وعرضنا عليهم أن يتجلببوا بلباس التقوى خشية في القلب وعلما كيفيا لا كميا عسى أن يتأهلوا للإجتهاد بتأهلهم وتعلمهم للربانية ليربوا بها.

إن أمر التربية لا يقتصر على وعظ منذر مبشر في زمن الفتنة وإن الإنذار والتبشير وجهان لنطق الداعي إلى الله، لكن الدعوة ملاكها التربية، والتربية نموذجية تسعى يراها الناس سمتا جميلا ويجدون عرفها أخلاقا نبوية وروحانية عبقة سماوية وعلما يأسو ويثلج الصدر ويجدد الإيمان.

التربية من الفتنة والتربية من المسخ تأثير مفروض بسلطان نوارنية الربانيين وليست تدخل في رباط الطاعة ولا في بذل التطوع. أغلبية الناس لا يحولون سلوكهم بالحافز الباطني مبادأة وتوبة من سوء إلى خير، بعضهم يحتاج لمنبه وموقظ، وبعضهم يحتاج لصورة أبوية يشكل سلوكه على مثالها، وكثير تفتت شخصياتهم فلا قيام لها إلا بتضافر النموذجية الأبوية النوارنية وتأنيب الرباني الطاهر

الشاهد بطهارته على تلوث المتلوث وضعف المنحل. إن التربية ما هي عملية طاعة يؤتيها الناس قادتهم اطمئنانا إلى العدل وانتظارا لمردود الطاعة في استقرار الحال وتحميل المسؤولية أهلها، وما هي تطوع من جانب أو من جانبين. وإنك لن تجد أحدا يأتيك يسألك أن تربيه أو يعترف لك بحاجته لتربية، إلا أن يكون من أصحاب الهمة من الذين يطلبون تربية خاصة هي تربية الروح المستحيلة بدون شيخ عارف تسلمه نفسك.

وإن التربية من الفتنة ومن المسخ ما هي العملية الحِرَفية التي بمقتضاها يتولى أستاذ مفتون حراسة أطفال أو شباب في ساعات التعليم. والتربية في الأسرة ليست أيضا هي التربية المغيرة لأن الأسرة منغمسة في تيار الفتنة فأنى لها أن تنشىء أفرادا يفلتون من الفتنة وهي تترقبهم من خلال عادات الأسرة مهما كانت متطهرة ومن خلال اتصالات الشارع والمدرسة والسوق.

الطاعة للسلطان السياسي وتأثير الأستاذ المعلم وتأثير الأسرة في المجتمع المفتون روافد ثلاث ومسارب تتمكن بفعلها العادة وتتضافر مجهوداتها لتُمركز ثقافة متكاملة تخاطب العاطفة والعقل المكتشف والعقل الاجتماعي فإن كان في الأسرة بقية من إيمان أو عند الأستاذ أو الحاكم فإنما يبقى خطاب الإيمان في حيز جزئي سرعان ما تهوي به عوامل التعرية الاجتماعية في مكان سحيق.

في بلاد أمريكا الجنوبية سلطان حكم مستبد ولها مدارس كثيرة وأسر محافظة على أخلاقية كاثوليكية، وهي أمم لا تتغير وإن كان السلطان يملي على الناس سلوكا معينا والمدرسة والكنيسة. إنهم بالطبع لا يتصورون فتنة ولا مسخا كما نتصور، لكن نقارن بواقع نحن سائرون على دربه إن لم نجد منهاجا نسلك منه. وبلاد أمريكا الجنوبية هي بلاد الانقلابية منذ قرن ونصف، تعيش في دورة أبدية معروفة : رجال القوة من الجيش يقلبون حكومة فاسدة وينشؤون مجموعة جديدة تمارس الحكم وتغير رجال الإدارة، لكنها لا تلبث أن يظهر عوارها ويفتضح فسادها فينهض لقلبها ضباط يطمحون لمثل ما ناله إخوانهم، أو يسرع هؤلاء لقلب الحكم اغتناما لفرصة. وتتعاقب الانقلابات على مدى قرن ونصف ولا يحدث تغيير. ونحن بلاد المسلمين سائرون على هذا الدرب وإن كان يخيل لمن حارب ظلم الإقطاعية فانقلب عليها باشتراكيته أن الأمر قد تم وأن التغيير قد بدأ.

مرد هذه الدورية الانقلابية إلى أن الاستبداد الانقلابي استبداد غير تربوي، إنه تسخير للسلطة في خدمة طبقة اجتماعية. في تلك البلاد النائية كما في بلادنا بين ظهرانينا عادات قديمة وطبقات إقطاعية نمط حياتها ودرجة بذخها الاجتماعي هما المعيار الذي به تقاس الرجولة. فأيما جهد في السياسة أو التعليم أو الاقتصاد فإنما

يرمي لإيصال من بيده القوة إلى نمط الحياة والبذخ المثاليين. وريثما تصل فئة إلى ما تصبو إليه تزحمها فئة أخرى متطلعة يتسابق كل إلى مكانه في سلم الطاغوت الطبقي.

وللخروج من دورية التقليد والاستبداد الظالم لابد من استبداد تربوي يجمع عاملي السلطان والقرآن في يده، ويخاطب العقل الاجتماعي بمنطق الربح وفي استبدال الطاعة الاجتماعية المفتونة المسخرة بطاعة جماعية مغيرة، ويخاطب العاطفة والعقل المتأمل في المصير بمعاني الرجولة والشهامة والإيمان الدافع للجهاد المنجي من مسخ الكفر. هذا الاستبداد المربي مظهره أولا في الموقف الإرادي للقائد المجاهد القوي الآمر بسلطان القوة تزكيه صولة النموذجية النوارنية، ورمزية وثقة يستحقهما ببراهين الصدق ونتائج العدل المقدم عربونا على النية المستقبلة. ومظهر الاستبداد التربوي بعد هذا في موقف الربانيين إذ يعطون المثال بتطوعهم وجهادهم واستقلالهم في نمط الحياة والفكر والسلوك الفردي والاجتماعي، لحياة الإيمان والإحسان.

إن الدورية الانقلابية حركة وهمية على خط التاريخ وهي في الحقيقة حركة مستديرة تتم دورتها في شهور أو سنين، لكنها في نهاية دورتها لا تخلف إلا يأسا وتجربة لا تفيد لتشابه نتائجها، إن الدورية الانقلابية تغيير وهمي بما يصحبها من قعقعة سلاح واستبدال

وجوه بوجوه وخطب بخطب وربما تشريع بتشريع. وكل ذلك زبد على السطح لا يحرك ساكن المجتمع ولا يتحمى جموده ويأسه ولا يخاطب منه إلا واجب الطاعة تحت السيف وواجب الكدح تحت السوط. ومثل الدورية الانقلابية كل التغييرات السياسية في بلادنا ما دامت تدخل في إطار التناوب الديمقراطي الموهم بتغيير أو في إطار الألعوبات الانتخابية أو المطاردات المذهبية.

إن التغيير لا يحدث إلا بفعل الإنسان الإرادي، تقع إرادته تحت ضغط التدافع الطبقي كما تصور الماركسية وتحت دافع الطموح للبطولة الفردية الزعامية، أو بباعث أسمى من هذين هو باعث القيام بالقسط وحمل رسالة الحياة.

قام في ألمانيا رجل واحد معتوه هو هتلير. قام في وقت تدهور فيه اقتصاد بلده وتضاربت فيه الاتجاهات واحتاج الموقف لتغيير، وكان للرجل طموح بطولي تخدمه فكرة واحدة هي العنصرية وقدرة على الخطابة تجلب أهواء السامعين والحاضرين. فكرة واحدة كونت دعوة إلى القوة والتفوق، حملها رجل واحد ضد التيار العام، وطاردوه وقاتلوه حتى انتصر وحتى حمل بحماسه شعبه كله للقوة، هنا وقع تغيير لمكان الخطاب الذي مس الكبير والصغير والغني والفقير وعبر قشرة الطبقية. وحيث تكون الدعوات جزئية لا يفيد الطموح البطولي شيئا، وآية ذلك أبطال القومية في بلادنا

خلفوا بعدهم رمادا لأن دعوتهم لم تخاطب الأمة في كيانها وإنما خاطبت طبقة سطحية، وما عدا سعيهم غليانا على السطح.

وبعد الحرب العالمية الثانية نهضت ألمانيا وتغير الشعب الألماني بدافع صراع طبقي قومي لم تحلل حركيته الإيديولوجية. بعد هزيمة ألمانيا شعر كل ألماني وكل ألمانية بالخزي الواقع على قومية كانت بالأمس متألهة، وتحفز الكل ونهضوا لمنافسة العدو الطبقي القومي، وكان لهم ما أرادوا. وفي بلاد المسلمين لا يتغير إلا شكل هزائمنا لأن وعينا لأنفسنا وعي متفتت ذري فردي لا نشعر بإطار يجمعنا ولا بآصرة تربط مصير بعضنا ببعض. وما تعني القومية في ذهننا وشعورنا شيئا لأنها عنصر دخيل اخترعه المفتونون في شكل مجدد وأوقدوا جذوته بعد أن كاد الاحتلال الأجنبي يوحدنا في أمة مستعمرة يربطها جميعا رباط الإسلام.

رواد القومية وطلاب البطولة طائفة على سطح هذه الأمة وعلى هامشه فهي لا تستجيب لهم ولا لدوافعهم وإن كانت تطأطيء الرؤوس طاعة مفروضة غير مقبولة. والنداء الوحيد الذي تسمعه كل الآذان فتصغى وينفذ لكل القلوب فتهتز هو الإسلام. والذي ينادي باسم الإسلام ويؤذن لقيام الإسلام وينتصب ضد التيار كله مثالا للدعوة الإسلامية هو القائم بالقسط.

عرفنا الرباني بأنه المؤمن المحسن المتقي ربه الرفيق في التربية

وظيفته أن يربي الناس تربية تحولهم من الغفلة للذكر ومن التشعب للجماعة ومن العادة للصدق. وإنه لا ينهض بهذه الوظيفة إلا بقدر ما يقوم بالقسط شاهدا به شاهدا على الناس مغريا إياهم بتفوق نمط سلوكه أن يتبعوه ويحبوه ويسيروا بسيره ضد التيار مقتحمين معه العقبة، شاهدا بدعوة قسط وعدل لا شاهدا طبقيا.

لا تزال في أفئدة المسلمين أثارة من تعظيم الربانين ومحبتهم، وللعامة من الناس تصور واضح للربانية.إنه تصور ينبني على المظاهر والألقاب، فكان اسم الشريف أو السيد موضعا للتعظيم ولا يزال لمكان أولي القربى من قلوب المسلمين، وكان اسم عالم لقبا يعظمه الناس ويكبرونه، وكان اسم الشيخ والولي عنوانا للكمال والطهر ومدعاة لاحترام المسلمين. وأثناء فتنة المسلمين الطويلة احترف المحترفون وظيفة العالم والشيخ وادعوا النسب الشريف، وصحب كل هذا التدليس اعتناء بالمظاهر، بطليسان العالم وعماماة الشيخ ومرقعة الصوفي. وبين احتراف المشعوذين وصدق المستضعفين من أهل العلم والصلاح ضاع الإسلام واختلطت مفاهيمه، وحتى المظاهر أصبحت مسخرة عند الناس منذ اكتشفت الناس أن المخبر خراب عند كثير من الأدعياء أصحاب الطيالسة والمرقعات. فلا ثقة اليوم بحاكم لجلاء طغيانه أو إلحاده ولا ثقة بمن يدعي الربانية لكثرة ما كذب المشعوذون. وباعتبار أن سواد الأمة بكونها

الشباب فلا مطمع في أن يغتر المسلمون بالمظاهر، أو يغريهم لابس العمامة إن لم يأت ببرهان صدقه أو الحاكم الداعي إلى تغيير إن لم يأتهم بخير مما أتى به أبطال القومية. نعم هنالك زبائن أو قل ضحايا لتجار الإيديولوجية كما هنالك مثلهم من المغترين بالزي، لكن هؤلاء قلة والحاذقون هم الكثرة يميزون بين القائم بالقسط صدقا وعدلا وبين الذي يحكي الكرام بزيه ولغوه وفي ثيابه صِلٌّ وثعبان.

في هذه السوق الحامية ببلادنا سوق المذهبيات، تعرض اشتراكيتها على كل الألوان وتمارس قوميتها كما شاءت أطواقا في الأعناق أو حلفا مع الرفاق أو انحطاطا وما ثم من راق، مسلمون قائمون بالقسط. إنهم رجال خرجوا من مدرسة الاضطهاد القومي لميلاد جديد. أناخ عليهم الكفر بكلكله أعواما طويلة، وصهرتهم نار الفتنة حتى انكسرت قوقعة العلماء وتفتت جهازهم، وعذب المشايخ حتى أصبح لا يرغب مشعوذ في لبس العمامة. وحول هؤلاء تربى جيل قائم بالقسط شاهد بإسلامه على المسلمين جميعا في بقاع الأرض. إنهم علماء تركيا ومشايخها الربانيون وشبابها الطاهر المتطهر. لقد كسر طاغوت الكافر الناقص وزبانيته من بعده كل خبث الدعاية والاحتراف وبقي صامدا في الميدان الصادقون. وفي شوارع تركيا وحدها تجد القائمين بالقسط ينهون عن المنكر قتالا

إن اقتضى الأمر رغم طاغوت الحكم الجاهلي.

في دار الإسلام بتركيا وبؤرة فتنته رجال مؤمنون ونساء، والأمر ثَم تربية مغيرة صاعدة، وفي سائر الأرض مسلمون لا يزالون ينتظرون قائمين بالقسط منذ أخمد الطاغوت القومي العربي، إخمادا ظاهرا، ذلك القبس الرباني المشخص في تلاميذ المجدد العظيم حسن البنا. وبين الإخوان المسلمين اليوم من يميل مع صبا نجد وعقلانية العلماء النجديين فهم في حاجة لمن يقوم بينهم بالقسط قيام الشيخ الجليل رحمه الله ورضي عنه، في حاجة لمن يجدد لهم وردا ووظيفة ورابطة حتى لا ينسوا مأثورات شيخهم. إنهم اتخذوا قدوة لهم شهيد الإسلام سيد قطب، وبعضهم درج إلى مصاف المثقفين المحتكين بالإسلام أمثال مالك بن نبي. ومتى كان الإسلام الفكري قياما بالقسط وربانية؟ وإن الإسلام الفكري كان يجري مع التيار حين قام المجاهد العظيم المهدي السوداني مقتحما العقبة ضد التيار كله، فكان الإسلام الفكري ينقل أخباره في صحيفته كما تنقل لنا الأخبار وكالات الأنباء بموضوعية باردة أو بلمزات خفية محرفة. ذلك كان رجلا قائما بالقسط ومن معه رحمهم الله.

ولما هجمت فرنسا على الجزائر في أواسط القرن الثالث عشر، نكصت الدول الإسلامية عن المقاومة وقام ضد التيار رجل صوفي عرفه الناس باسم الأمير عبد القادر. وهو رمز خالد للجهاد

والربانية. ذلك هو العالم العامل وذلك هو الرباني الكامل قدس الله روحه. ولن تجد في تاريخ الإسلام قائما بالقسط إلا من أرباب القلوب من الذاكرين الصادقين العلماء العاملين الذين طرحوا العادة وخاطبوا الأمة بعمق ووجهوا لها دعوة تعني مجموعهم ووقفوا هم مصداقا لما يدعون إليه ونموذجا ورمزا.

عن عسعس بن سلامة أن النبي صلى الله عليه وسلم [1] كان في سفر ففقد رجلا من أصحابه فأتي به، فقال: «إني أردت أن أخلو بعبادة ربي وأعتزل الناس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فلا تفعله ولا يفعله أحد منكم قط**: قالها ثلاثا. **فلصبر ساعة في مواطن المسلمين خير من عبادة أربعين سنة!**».

هذا فرق ما بين الإسلام الفردي وإسلام الشهادة بالقسط، وهي الصبر في مواطن المسلمين والقيام أمامهم مثالا للصبر ومثالا للإيمان. ولهذا بعث الله أنبياءه ورسله، ولهذا يوفق الله أولياءه الربانيين. قال تعالى:﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾.

والقسط عدل والقسط قسمة، وإن ميراث رسول الله خدمة

1. رواه أبو داوود

للإسلام وبلاء وغناء فكل من دعا للإسلام بخدمته وبلائه وغنائه فهو الرباني. عن مالك بن أنس أنه قال[1]: كان عمر يحلف على أيمان ثلاث : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد. والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدا مملوكا. ولكنا على منازلنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته. والله لو بقيت لهم لأوتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه!

فبنموذجية الربانيين القائمين بالقسط الذين لهم البلاء والغناء والقدم في مناهضة التيار وفرض نمط الحياة والأخلاقية بسلطانهم المعنوي وبسلطانهم الحكمي العادل عدل عمر في رعاته كعدله في ولاته تتجدد التربية وتتعمم وتتجاوز نطاق احتراف الأستاذ المعلم وعجز الأسرة السابحة وسط الفتنة.

1. رواه الإمام أحمد

الأم

هما أبوان يحافظان على الفطرة أو يمسخانها بتربية منحرفة. أول ما يراه الطفل من أنماط السلوك سلوك أبويه، وأول نموذج يعترض آفاقه هو نموذج أمه. فيرجع صلاح النموذج أو فساده لصلاح الأم، وأول تأثير وأقواه تأثيرها. لذلك فإن كانت هذه الأم ضحية للفتنة ذاهبة مع التيار رضع الإبن مبادئ الفتنة ومحبة العادة المنحرفة إلى غفلة أو كفر عاطفة في مهده وحنو على صدر أمه وتوجيها إن رقد أو ركض أو تعلم حقيقة جوهر وعرض.

إن المرأة شطر الأمة الأسلس قيادا الألين عريكة. وهي أشد الناس تمسكا بعادة وحفاظا على موروث. ذلك وتسلط الرجل عليها يجعلانها ضحية الفتنة الأولى وموطن الداء المزمن لأن منها يتسلسل الميراث الموبوء للأجيال الناشئة. كان للمرأة المسلمة في عصرنا نموذج سلوكي منحدر أخذته عن جدتها وأمها، فلما عششت الجاهلية في عقلية الرجل وذهبت مروءته واضمحلت حتى نخوته وغيرته عرض المرأة لبلواه وحملها على الانسلاخ من عقليتها الموروثة، وأغراها بزينة الجاهلية، وهي ضعيفة لا تمتنع عن داعي الزينة، برزت من خدرها وطاوعت الرجل المفتون لعبة في

يده ممتهنة وأما ترضع أبناءها من لقاح لا تدري أهو من نكاح أو سفاح فسولة مسترخية.

وكانت المرأة زوجا وأما فتخطفتها الفتنة بإغراء الزينة المنكشفة المكشوفة وبإغراء النموذج الجاهلي للمرأة المساوية للرجل المطالبة بحق يخرجها عن أنوثتها ولا يضعها موضع الرجل، بل يتضع بها عاملة مكروبة أو موظفة مرهقة بين أعباء البيت ورهق الوقت الإداري. وتضيع البيت وتنزع مسؤوليتها لتكون رجلة معصوصبة متحزمة في ظاهرها عرضة للأوباش وضحبة لطاحون الفساد الاجتماعي. أما الزوج والأطفال فيتعلمون بالتقليد والمنافسة على حياة اللهو أن يتخذوا لأنفسهم بديلا عن الزوج والأم. وهكذا يسري الانحلال في الأسرة وينصرف كل إلى شأنه ويلتقي رجل وامرأة في بيت كئيب فارغ به صبية ضائعون. أما الأب والأم فيتشاكيان أو يتشاتمان إن كان بأحدهما رمق مما تبقيه الشؤون الخاصة وأما الأطفال فتقع عليهم نماذج السلوك المنحلة ويتركون بلا تربية في البيت تؤصل لهم مروءة وإيمانا، لُقطة في الشارع لكل ما هب ودب من قاذورات المجتمع المتحضر بتقليد الرجل الجاهلي الدابة والمرأة الجاهلية المحلِّسة لارضاء شهوة ولحمل أثقال.

هل نطلب إلى المرأة، وهي الضعيفة الضحية، أن تقوم ضد التيار وتقوم بالقسط في بيتها أمام أبنائها؟ أم تقتصر تربيتها على

إعداد لخادم تطبخ طبخا جيدا وتعلم كيف تغذي الطفل وتنظفه؟ كلا! فإن مشكلة المرأة أبعد من ذلك. إنها أولا مسألة عدل وتوزيع للرزق. إن المرأة البدوية تجد توزانا بين عملها في شؤون العيش وبين حقوق أهلها وفق ما يسمح بذلك الجهل والفقر والمرض المتفشية فينا. لكن المرأة الحضرية عاطل في الطبقات المترفة ودمية وضحية محلاة بقلائدها، وفي الطبقات المستترفة مطية لغواية الرجل ولغواية التنافس المجتمعي، وفي طبقات المستضعفين جائعة عارية لا مكسب لها إلا أن تمتهن وتنتزع من بيتها لتقذف عرضة لعوادي الأيدي القذرة.

ظلم واحتلال من جانب المترفين الحاملين لجرثومة الجاهلية والفسق يجعل المرأة ضحية موافقة أحيانا عاجزة دائما. ومنذ أصبح الرجل لا يطلب منه بلاء ولا غناء ولا قدم في نفع الأمة، بل يخشى جانبه يتقى مكره وظلمه ودهاؤه ويقسم له من غنائم الغارات نصيب ضاعت الأسرة.

النصفة والعدل الاجتماعيين مطلب أساسي لأي تحويل، ونصفة المرأة من خصمها الكبير وهو الرجل شرط لإحداث جو الطمأنينة والأمن على الرزق الضروريين لتعيش المرأة في كنف حريز ولكي تتفرغ لاداء وظيفتها الكبرى، ألا وهي تربية الناشئة.

المرأة في أسوة المترفين أداة استهلاك ودمية محلاة بقناطير

الذهب والحجارة. وانحراف المرأة في هذه الأسر أوضح دلالة على المهوى الذي تردت فيه المرأة المسلمة المحافظة بالأمس لما غزاها وهي الضعيفة، نموذج صور السينما التي قادها إليها الرجل، وإلحاح هذا أن تكون له زوجة عصرية تكشف الجسم، والتسابق العام للظهور بمظهر الحضارة الجاهلية. ومع الانكشاف والتبرج الجاهليين وما يتبع ذلك من تفسخ مخز تستهلك المرأة الغنية في دار الإسلام ذهب العالم وجواهره قناطير مقنطرة. يستورد لها الحكام ليهلوا بها ويطيعوا رغبتها، لأنها الحاكمة بأمرها كما هو الشأن في المجتمعات المتفسخة، ذهب العالم وجواهره باستنزاف خزائن الدولة، وتتكدس الحلي في بيوت أمة ليس بها رجال يدخرون المال ليصنعوا طائرة تقاتل العدو واقتصادا يطعم البائسين الملايين.

هذه المرأة المكللة المدللة نصفتها أن تعلم مع مثيلاتها وأمثالها من أين يأتي الخبز وكيف تحرث الأرض ومن أين يستعذب الماء في البادية ومن يحمل على ظهره ويخبز ويحلب البقرة.

ودون هذه متطلعة إلى موضعها امرأة فتحت عينها على الفتنة فركبت الحافلات تزاحم فيها الرجل وغشيت السنما مع أبيها وأخيها ورضعت لبان الهلكة فيما يقذف به الشارع أو يقذف به المذياع والتلفاز. هذه هي المرأة الحضرية المتعلمة الموظفة أو أختها الجارية في موكبها. يجتمع النساء في مجالسهن يتناقلن فيما يتناقلن،

وأهم ما يتناقلن ما جد عند فلانة وفلانات من فساتين وحلي، ولكل منهم في كل يوم مطالب تأتي على راتب الموظفة ومثله معه من رزق الأسرة، وإذا أعجز إحداهن أن تنفق مما في اليد على عطور باريس وحرير إيطاليا فلها مندوحة فيما يثقل كاهل الأسرة ليشتت شملها آخر الأمر. ومع كل هذا، ووقودا له، العرض المهتوك بالليل والنهار، لكن من تخاطب وقد نسيت فسولة الرجل معالي العرض مع نسيانه معاني الإيمان؟.

هذه هي المرأة المترفة في متعتها، إنها قائمة قاعدة بشعار واحد ومطلب واحد يستولي على فكرها وينهك تحقيقه المال والذمة، إنه مطلب الزينة. ومن وراء الزينة بيوت خربة وجيل محروم. إنها كارثة عظيمة!.

أما المرأة المسكينة ربيبة أسرة عدا عليها الزمن وفل منها العائل، فهذه مضطرة لدخول معمعان التكسب. إنها ضحية المدينة وضحية الحقول، وهي في المدينة أشد إرهاقا. تعيش أيامها تحاذي اللاهيات العابثات لا تجد عن عشرتهن محيدا. وفي كل يوم يتفتت من عزيمتها على قدر ما تنوء به أنوثتها من دواعي المنافسة في معرض المكتب أو معرض المشغل. إن المرأة في معرض أبدا وقد خلقها الله لتكون كذلك في سياق المتاع والزينة التي أخرجها لعباده. لكن المجتمع الفاسد يتيح الفرصة للغرائز الدنيا أن تتفتح

في مجالاته، فيستحيل مجال العمل مجالا للأمر الذي يستحوذ على الأذهان. إن في مكاتبنا حيث تكون المرأة مع المرأة والنساء مع الرجال معارض للفتنة، فتنة متعددة الجوانب مفسدة للذمم عائقة للإنتاج.

وإذا كانت إدارتنا معروفة بالكسل والعجز فذلك لأن وقت الرئيس والمرؤوس ينقضي في التبرج لنساء الإدارة والنظر في معرض الفتنة.

والنساء منذ خرجن من وظيفتهن الفطرية وعُلمن الاستبداد على الرجل لما هان وماتت مروءته، ومنذ اتخذن للزينة المحرمة لا للأمومة،دخلن في سوق باخسة لحقوقهن، وظلمهن الرجل من حيث ظنن أنه أعطاهن المساواة معه، إنهن في زمن الفتنة هذا عنصر غير قار، إنهن رهن إشارة الرجل لعبة بين يديه أن مل أن يكون هو، بفسولته أو بداعي ثقافته المحررة للمرأة، ثورا تحرث هي عليه في حقول غوايتها.

وبينهما ينسل نسل لا شرقي ولا غربي، الأم تبرجت تبرج الجاهلية الأولى فلا تقيم الصلاة ولا تنتهي عن فحشاء ومنكر، وهي غشيت المنتديات والملاهي ومجالس العطالة وأخلت البيت والرجل أعجبه مجتمع الجاهلية يوم كان فيه ثاويا، فتعلم الخلاعة وحملها معه لأمثاله جرثومة فكرية يزاول حياته على ضوئها

وشخصا قائما هو وصاحبته الجاهلية السيدة يقبل يدها تقليدا للجاهلية وهو تقبيل مذلة في الواقع لا تقبيل تقليد.

الزوج الجاهلية، ونسميها زوجا للإحتشام، نموذج هابط النصف بهذه الأمة بما جني شبابنا الذي بعثناه لأوربا وأمريكا يتعلم رذائلها من حيث كنا نرجو أن يحمل إلينا علما. جاء بها أفعى رقطاء زرقاء ملكته كما ملكه الفكر الجاهلي فسلمها قياده وسلمناه نحن، عن طواعية المترفين وغم أنف المستضعفين، زمام أنفسنا فهو يقودنا برأي أساتذته ممتزجا برأي عقليته وهواها وما «تبتكر» من «النصائح» تحملها إليه من «مجالسها» مع أبناء عموتها. إنها تكون ومثيلاتها الكثيرات ببلدنا واجهة غازية تنفذ فيما بين اللحم والعظم. إنهن الجاهليات في بلدنا متضامنات يشددن مدجَّنيهن بيد متمسكة بدوائر عواصمهن. وتعطاهن أسمى الوظائف محطات لتخريبهن وجاسوسيتهن ومكرهن المضاعف بضعف الأنوثة والدجانة ولو ترى إذ يعتلي بعض المتحللات منهن كراسي الأستاذية في معاهدنا! فتلك مخزاة أصبحنا لا نكاد نتلفت إليها لأن الهم ينسيك بعضه بعضا!

هذه «العقائل» يمتصصن المال والرجولة منا مصا، وهن مثال يحتدى لمن في طبقة مدجَّنيهن. أما نسلهن فمسخ المسخ والكفر الصريح. وهن لهم الناصحات الدليلات على مضان الزينة والمتاع

في عواصم أوربا حيث يطير مترفونا كل أسبوع بأسرع مما تحلق علينا طائرات أخرى تقتل العناكب الغثائية وتخرب. وهن «العقائل» يزدن على بنات الحي عتوا في المطالب وإسرافا يكملن به نقصهن في عين أبناء العمومة إن اقترن بجنس دون، فإذا برهنت إحداهن بخدمة وطنها ومصالحه حتى تعتبر كالجندي في بعثته فقد ذهبت عنها لعنة النزول لمستوى المدجن.

أولئك هن التلميذات وهؤلاء أستاذاتهن، وتسيل الدعارة من أعلى كما يسيل القطران المشتعل يحرق ما في طريقه. ولا يزلن نساؤنا ينتظرن محررا يعطيهن النصفة فهن رعية مستضعفة على كل حال.

لكي تأمن المرأة على رزقها جعل الله لها صداقا حقا لها مخلصا وجعل لها عند الطلاق متاعا وتمتيعا بالمعروف حقا على المحسنين. وإنما حياة الأسرة ما بين النكاح والطلاق فإن صينت المرأة بالعدل الإسلامي العام ووفرت لتقوم بوظيفتها قائمة بالقسط في بيتها، وإن ضمن لها وزاع السلطان ما يمكن أن تغمطها نزوات الرجل من حق فقد وضعت أسس الأسرة القارة.

حق لها أن ترث نصف ما يرثه الرجل اقتضاء لاستقلالهن في التملك وقضاء لواجب الرجل في القوامة. وحق لها أن يعطاها صداقها ونفقتها بالمعروف ما دامت زوجا أو مرضعة، وحق لها

إن طلقها الرجل أن يمتعها متاعا جميلا. وقد يجري بعض الفقهاء المسلمين في مهيع تقليدي فيعتبرون المتاع عند الطلاق أمرا مندوبا إليه ولا يعدونه واجبا. وبما أن الله جلت قدرته جعله حقا على المحسنين أي واجبا عليهم، فهذا الإيجاب ينظر إلى عاقبة الطلاق فيكفل لها رزقا حسنا إن انقضى صبرهما على العشرة، ويجعل المتاع بالمعروف اعتبارا ماديا يدخله المطلق في حسابه لكيلا يطيش ويظلم. وحق للشريعة في الإسلام المنبعث أن تعتبر المتاع في سياق التكافل وضمان الحقوق، وأن تحسبه بما يكفي المرأة خزي الضياع والتشريد من بيتها.

إن دعاة الكفر يزعمون المزاعم ويطعنون في المقام المشرف الذي خصصه الله ربها للمرأة في الإسلام، يتكلمون في الطلاق والحجاب ويتكلمون في الميراث المشطور. ويجيبهم المدافعون بالحجج والبلاغ اللفظي، وهم دعاة الكفر، يسمون الإسلام رجعية ويتمسكون بمزاعمهم خاصة في التشريع الإسلامي للأسرة يتملقون بذلك أحلام الداعرين وأهواء المستعبدين للمرأة.

لقد وصفت في هذه الصفحات حال المرأة في بلادنا وصفا لا يبلغ الحقيقة ولا معاشرها، وما بي أن أثلب المرأة أو أنقص منها، إنما همي أن اشير إلى موطن التخلي عن المسؤولية مسؤولية قوامة الرجل على المرأة. فإنها أمانة بيده جعلها له رعية، فإن داستها

الأقدام وامتهنتها الأيدي والأعين حتى غاض حياؤها وذل جمالها وتلوثت أمومتها فذلك الرجل ضيعها.

وصفت واقعا مكروها حقيرا يجب أن نغيره، وفتنتنا بالنساء السائبات في شوارعنا جزء من فتنة صنعناها بأيد مترفة مقلدة مسخ. إننا دفعنا المرأة المسلمة، وهي كانت لأجدادنا أما مقدسة وزوجا مكرمة وأختا مرفوعة، إلى مسارح اللهو وعرضنا مفاتنها في صالات الرقص العمومي وعلى السنما والتلفاز. وإن قوامة الرجل على المرأة تعني استبداد تربويا به يبدأ التغيير التربوي من داخل الأسرة. وزاع السلطان في الإسلام المنبعث يفرض على الرجل قوامة لا يهتدي إليها في فتنته. ولعلنا نضطر لأعمال المرأة خارج بيتها زمانا ريثما نبتكر حياة جماعية لا تخرج فيه المرأة من خدر عزها إلا أداء لواجب من فروض الكفاية التي لا يقوم بها إلا المرأة. وشيئا فشيئا نتعلم كيف ننظم اقتصادا يخدم غاياتنا الإحسانية ويرفع المرأة إلى فطرتها لتتحمل مسؤولية الحافظية لغيب الرجل. وغيبه هو أسرته ونسله وعرضه وسكونه لجزئه الحيوي وهو المرأة. يقول ربنا:﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾ فلا صلاح للمرأة إلا بحافظيتها، وماذا تحفظ إن ضيعت البيت وضيعت النسل؟

كان نساء الصين قبل الثورة أمثولة للرخص، كن لحما على

وضم، وكن عابثات مهينات. وتراهن اليوم عاد إليهن الحياء وعادت إليهن العفة ونزعن ثياب الزينة وتساوين مع الرجل في الفقر كما تساوين معه في الجد. ولا درس لنا في بلاد الجاهلية عالم الأنوثة الدوابية. إن للمرأة في كتاب الله وعدا بالخلود في نعيمه كوعد الرجل. وإن الله اقترح عليهن نموذج نساء النبيء ليحذون حذوهن ويلحقن بالصالحات قال عز وجل: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً،وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾

تربية من فشل

في تاريخ الإسلام عصور فشل كما في تاريخ كل أمة، بيد أن فشل المسلمين يتخذ شكلا تربويا فيه العبرة ومن ورائه رحمة الله الذي لا يهلك هذه الأمة كما يهلك القرى بطشةً جبارة. عندما تهبط همم المسلمين وينحدرون إلى أحط دركات الترف يخافون الموت ويحرصون على الحياة وينغمسون في ملذاتهم غافلين عن ربهم لا قدرة لهم على حمل رسالة القسط والشهادة به بين الناس ولا إرادة. وعند ذلك يبعث الرب عز وجل تربية لهذه الأمة موقظا ومنبها لتهب من غفلتها وتخجل من فشلها.

إن فشل المسلمين في عصرنا فشل ذريع يفضح الفرقة القومية كما يفضح الغثائية الفردية. إن هذه الملايين تنبض قلوبها بولاء لله ورسوله ما في ذلك شك. والولاء الإيماني يتجه بالمؤمنين نحو اقتحام العقبة وعبور دار الفتنة بالجأش الربيط والبأس والشدة على الكافرين والرحمة بين المؤمنين. هكذا يتجه الولاء الإيماني إلا إن اعترضه عائق يترفه ويحبسه عن غايته ثم يرده ويحبط جهده. لو سألت كل مسلم على حدة لوجدت في قلبه إسلاما وإيمانا لا يحسن أن يعبر عنه حديثا على لسانه ولا سلوكا في حياته. فالعائق الأول لاقتحام العقبة ولتحقيق القوة هو الجهل بالإسلام كيف

يخرج من عالم القابليات إلى عالم الواقع. وقد فشل دعاة الإسلام في محاولتهم لخرق هذا العائق ولإخراج قابليات الأمة، بعضهم لبث يترقب أن تحيي له الصحبة الفكرية والجهاد الفكري أمة مفتتة بين قوميات تعد بالخبز والزبد وبين خطيب الجمعة ينذر بانقضاء الزمان وقيام الساعة لهذا الفساد الغالب، وبعضهم كانت الفتنة وطاغوت الحكم أضخم من جهاده ومقومات جهاده، فحارب بالسيف أو استبطن الفتنة ليطهر البلاد منها فما غلب رفقه عنف الجاهليين.

الشعور بالفشل يلون عقلية الأمة في حالها بلون قاتم يائس، وتوالي الهزائم عليها وتوالي كذب القادة في وعودها، وانغلاق المنافذ يزيد الشعور بالفشل تعمقا ويزيد الهمم اتضاعا. وفي هذا ينشغل كل بخويصة نفسه، فعابد منزو ومحوقل وموقد للفتنة راتع فيها ومستضعفون خاضعون مقهورون. وعلى سطح الفشل الساري مجموعة من المهرجين المهيجين، لا يبدئون ولا يعيدون، ويخبئون الفشل المتسلسل في خطب قومية أو بطولات عالمية تلتهم ما بيدنا من مال، ما أبقاه منه سرف القادة في قصورهم وسفاراتهم الخارجية وأكثرنا لغطا في مجالس الأمم. ماذا تحت الستار يا أيها الغثائيون؟!

ورثنا حضارة إسلامية لا نزال نتنازع عليها، فهي حضارة

عربية يدعيها القوميون العرب، ويخاصمهم عليها الفرس لأن عقول الفرس كانت بانية الحضارة، وينازع الكل سيف الجندي التركي الذي دافع عن الحضارة. ولما ذهبت القوة الحضارية ولم يبق منها إلا «فلكلور» نعرضه على الأمم وسمة لفشلنا وإفلاسنا التاريخي من حيث نظن أنه وسام لمجدنا الغابر، تقلصت الأمة الغثائية إلى مواقعها القومية وتفتتت وحدتها الثقافية حتى ألغت كل رباط يربطها بالإسلام. قبل اختراع القومية العربية كان للعرب انتماءات فرعونية وفينيقية وأشورية. وكان الانتماء لهذه الأثريات لباسا اكتسته لبرالية الربع الأول من القرن العشرين الميلادي تقليدا لتركيب مجتمعات الغرب. وفشلت هذه الانتماآت لأنها إنما كانت تغطي نفس البضاعة وهي الغثاء التاريخي، عبرةُ الله لنا إن كنا نعقل.

ثم اخترعوا القومية العربية وانضوى المسلمون في ركنهم تحت لواء عصبياتهم فانقسم الفشل وتضاعف بانقسامه، ثم اجتمع الفشل الرعبي في ندآآت الأبطال التائهين الفاسقين استعدادا للضربة القاضية ضربة اليهود الثانية التي من ورائها رحمة الله. فلنا معشر الأمة المسلمة في كل زاوية من زوايا الأرض فشل نستره بالعويل أو الخطب المزمجرة أو الحفلات الصاخبة. لنا في أندوسيا فشل اقتصادي تغطيه بنايات الرأسمالية الدولية في العاصمة

ويفضحه في شوارعها وضواحيها العرايا الجياع المشردون. ولنا في بلاد قومنا العرب فشل مطلق تغطيه آمال النفط ويفضحه الصهيوني في القدس الشريف وفي حرم أبينا إبراهيم عليه السلام. ولنا في باكستان فشل سياسي كان كذلك لأن أمة الإسلام بباكستان توحدت على أساس غير تربوي وغير قابل لخلق القوة الإسلامية من الغثاء الإسلامي. ولنا بإيران فشل مذهبي لأن قومنا العرب امتهنوا قوم مولانا سلمان على مدى الدهر وأنكروا على من أحب آل البيت تشيعهم وانفصل المسلمون طائفتين لكل منهما فشله وكفره، فلا أمل أن يثق غثاؤنا السني بغثائنا الشيعي إلا بتربية من فشل، تربية منهاجية تعود بنا إلى منبع الإيمان في كتاب الله وسنة رسوله بقيادة الربانيين المعلمين شديدة القُوى ذوي المِرة.

جاءت هزائمنا لميقات معلوم هو ميقات الطاغوت القومي المفرق لجماعة المسلمين. كانت هذه الهزائم ولا تزال ولن يذهب عنا الحزن حتى نفهم عن الله آياته وتربيته. وهي فادحة فاضحة جزاء وفاقا لرغبتنا عن العدل ولرغبتنا عن شرف حمل الرسالة والشهادة بالقسط بين الناس. لما استفحل الطاغوت القومي سلط الله علينا بذنوبنا أخبث أعدائه في أقدس بقعة لنا وعلى نسق نخجل منه لو كان بنا رمق من مروءة إن خمدت جذوة الإيمان.

وهكذا وقع في ماضينا المفتون، وفي ظروف تشبه ظروفنا شبها شديدا. كان ذلك في عهد بلغ فيه بذخ الدولة العباسية وتبذيرها وظلمها أوجه. وبلغت فيه قصور بغداد أبهى زينة تكون للمترفين. وبلغ فيها تشتت الأمة في قوميتها شأوا بليغا. في هذا القرن السابع الهجري بعث الله عباده التتار على دار الإسلام بعد أن كانت الهزيمة الأولى على يد الصليبيين من قبل ثم جهاد ولي الله المجاهد صلاح الدين درسا غير كاف.

جاء جنكيزخان فوجد أمة فاشلة. وغزا مائة ألف فارس همجي حضارة الإسلام كلها فما وقف في وجههم واقف، ودخلوا عاصمة بغداد وبها مليون ونيف نسمة ذبحوا منهما 800.000 ذبح الكباش. وكانت المرأة التترية تقاتل فتدخل بيتا لا يمتنع فيه عنها ممتنع حتى تحز رؤوسهم جميعا.

كان أخبث الهمج يدوسون حرم الخليفة المترف وينتهكون أعراض المسلمين. وكان درسا إلهيا قاسيا، خذل سبحانه أمة خذلته وعصت أمره. فما نهضت لفرقتها وأثرة حكامها وفساد أخلاق مترفيها لمقاومة ولا هزت رأسا لجهاد وأنى للفاشلين في اللذات أن يجاهدوا!.

حتى لم يبق ببلاد الإسلام إلا طائفة من المؤمنين كانوا عبادا لله ما لهم قومية يستعلون بها على الناس ولا لهم عصبية يأكلون بها

الآخرين. إنهم هذه الفئة من المماليك ببلاد مصر. كان لهم جند يسبحون الله حين كان قضاة بغداد وعلماؤها يتملقون الخليفة المزعوم المستأسد على خدم قصره ببغداد. وكان جندا ربي على القوة والإيمان فنهض للقاء عدوه وكانت هزيمة علمنا الله بها في ذلك الجيل ولكل الأجيال أن الله انما يتقبل من المتقين. لكن نسينا وعدنا فعاد الله علينا بسوط تأديبه.

فشلنا عود على بدء، وإسلامنا وحده ينقذنا ويربينا للقاء عويصات مستقبل الإنسانية بعد اقتحام عقبة حاضرنا.

كان بلاط الخليفة المزعوم وكرا للشهوات ومنبتا للرذيلة، ومن حوله كان طاغوت القومية العربية قد أنهى عمله التخريبي في تفريق الأمة. وها نحن اليوم لنا بلاطات تزري ببلاط الهررة المستأسدة بذخا وفسادا، وحفنة قليلة من اليهود النجسين تدوس حرم الله وحرم المسلمين. ولا تحدثنا أنفسنا بجهاد نحن العرب إلا دعاية فاشلة، وما يمسنا شيء إلا عاديناه بفشلنا، فديمقراطيتنا فشل وهي في بلاد الجاهلية نجاح، واشتراكيتنا فشل وهي المذهبية المعبئة لكل متخلفي العالم الثوريين على صراط الجاهلية بلا روغان وحتى طائرات اشتريناها تمائم لنرقي بها هزائمنا وما معها من دبابات تفشل بين أيدينا ويسري إليها من غثائيتنا.

يعزو المفتونون منا، علنا جهرا أو خفية ونفاقا، فشل الأمة

المسلمة لإسلامنا ذهابا مع ما تهمسه إليهم شياطين الجاهلية أو ما تصرح به وتكتبه وتمنطقه. وهو كذلك والله! ما فشلنا إلا بإسلامنا حين ضيعناه، وحين اتخذنا لأنفسنا شخصية قومية جاهلية وتلقينا الدواء من العقول الصهيونية الدساسة كما تلقينا من طائراتها الوبال. هذا نمطره بالقوة وذلك نفغر له فأنا متهللين مسارعين إليه غير معاجزين فيه. يكفي أن نذكر باليهودي العالمي الحاذق الداهية في شخص أستاذ مترفينا ومتنبئهم وصديقهم القومي الحميم عدو الله ورسوله والمؤمنين المسمى رودنسون. يتتلمذ له مثقفونا الفاسقون قرناء الدمى الأوربيات الزرقاوات، ويتيه إعجابا بنفسه من حظي منه بأسطر يضعها مقدمة لثرثرته الفاسقة. وهو هو عدو الله كتب في حياة رسولنا المعظم الحبيب حديثا أودعه سم الحقد اليهودي وعصارة المكر والدهاء المتولن كالحرباء. وجاء كتابه ذلك بما لم تستطعه أوائل أعداء الله ورسوله من المستشرقين ولا أواخرهم، إذ سخر رصيد اليهودية المجادلة على مر العصور ليثبت أن محمدا كان صادقا في إخباره عن الغيب غير كاذب، لكن صدق مرضي يفسره علم النفس الفرويدي ويفسر ما لقي من نجاح علم الاجتماع الماركسي. وهكذا يتعلم أشباه الرجال أحلام العصافير المدجنون من ذرارينا كيف كان الفشل بذرة في كيان هذه الأمة، يلقنون ذلك في كل صفحة من صفحات كتب اليهودي

العبقري، وعبقر بلاد من بلاد الشياطين موطنها هذه الأيام في أرض القدس الشريف. حين يكتب عن الرسول الكريم فإنما يعلن عن علامات الفشل، وحين يكتب عن رأسمالية المسلمين فهو يتسقط ضعف الأمة في فتنتها ليثبت أن المسلمين أمة مرابية غشاشة فاشلة في الحقل الاقتصادي فشلها في ميدان النبوءة وحين يكتب القذر عن أصدقائه القوميين العرب على ضوء الماركسية التي يتبنى فلسفتها حين يصادف التحليل الماركسي هوى عنده ويزعم أنه ينقدها إن كانت لا تساير مكره، يربت على أكتاف الأصدقاء برفق ويلوح لهم بالنماذج الشيوعية اللماعة وينصح بالردة الجماعية مشيدا بمثال ألبانيا الضائعة ومثال كافرها القائد عدو الله، وما من صفحة إلا تؤكد أن الإسلام فشل وأن المسلمين لا وزر لهم إلا بضاعة اليهود العالمية الثقافية.

إن هزيمة الإمام المهدي السوداني لا تعد فشلا لأن الرجل ومن معه من المؤمنين ماتوا شهداء غير مدبرين وكانوا أعزاء بإسلامهم، ولا يعد فشلا تغلب الكفر الطلياني على الأمة المسلمة بقيادة المشايخ السنوسية، ولا يعد فشلا تشريد الإخوان المسلمين، ولا يعد فشلا حتى الخيبة الانتخابية لجماعة الإسلام بباكستان، لأن كل هؤلاء إسلامهم صحيح وإيمانهم. لكن الفشل الإسلامي الذي رأيناه حتى تحت أقلام مثقفينا القلائل ممن ينتمون للإسلام

لا يزال ينتظر بعثا ربانيا. ففشل الساسة وفشل المثقفين، فشل الفكر والإرادة يرفضه شبابنا المتوثب الضائع في الفوضى. وإن لنا لمنابع للقوة كفيلة أن تذهب عنا مرض الغثائية وتجمعنا أمة واحدة حرة يكفي أن يقوم رجل واحد بيده السلطان وبقلبه إيمان وإحسان فينادي بالصلاة الجامعة، ويستبد غير عاجز، وإذا فشلنا أضحى قوة ونجاحا، وإذا نحن أهل لتحرير العالم بعد تحرير أنفسنا.

الحرية والمسؤولية

إن التربية تأثير يتشربه كيان الفرد والجماعة تشربا من رموزه ونماذجه. وهذه أمتنا شعوب متفرقة وقبائل تشربت الفشل وربيت عليه ابتداء من طفولة الطفل المطروح للعوادي في غياب الأمومة والحشمة وغياب الأبوة القوية الناجحة، ثم مرورا بالنماذج الهابطة في الشارع والمدرسة، ثم عندما يتيقظ المسلم الناشئ في الفتنة للحياة العامة تستقبله أشد النماذج نكرة وأحقها أن تقنعه بأنه عضو أشل في جسم نخر بظلمها في محاكم القضاة المرتشين وبفسولتها في تلمذة المثقفين المسخ لسادتهم وعمومة وأمومة زوجاتهم، ثم بتقلبها الحربائي على ألوان الإيدولوجيات السياسية. وآخر الأمر يجد المسلم الناشيء نفسه نكرة عددية في خضم الغثاء له الحرية أن يتسكع في ملاهي الإقطاعية اللبرالية وسنمات الاشتراكية العتيدة، وله الحرية أن يكفُر أو يفسُق ويَطعم أو يَجوع ويموت أو يحيى بهمة لقيطة. ويجد نفسه عليه مسؤولية واحدة، مسؤولية ضغط بالهراوة أن يسير مع الركب لاغيا بشعاره أو ممجدا لفجاره.

بهذا الوعي يجابه شبابنا الحياة، وبهذا الوعي يقادون في مسارب الفوضى العَتيمة، حتى إذا سنحت الفرصة واعتلى أحدهم

على الرقاب كفر وفجر مقتديا برؤوس الفسق وتسلى عن ثوريته واعتراضه بالأموال ينهبها رشوة من المساكين أو غنيمة من مال المسلمين، وتسلى عنها بأعراض المسكينات تعلم صغيرا أن يهينها تشبها بمثال السنما فهو اليوم كبيرا يقتنصها بسلطان الحضارة المفلسفة المحررة للمرأة.

النماذج الهابطة أولتنا تربية على الفشل، وأورثتنا تخاذلا إغراء الجاهلية ثقافتها وأثاثها، فلانعي حريتنا الا نهبا للذات ومسؤوليتنا إلا فرصة للإثراء متواطئين مع طاغوتنا.

ولعمري إن تعفننا وانمساخنا وفشلنا بلغ من الرذالة ما أصبحت تعافه حتى النفوس العادية. وإن ببلادنا رأيا ممزقا بين أنصار الحريات : هؤلاء يدعون، قبل مرحلة الانقلاب الاشتراكي، لحرية اختيار ممثلة في انتخابات هزلية، ولمسؤولية قوامها اللعب على حبل التوازن مع الأحزاب السياسية على هامش الأمة وسطحها وعلى حسابها كما يقولون. أما الآخرون ببلاد الانقلابية فهم زعماء تحرير الإنسان تحريرا واحدا هو عندهم الغاية والنهاية، تحرير الاشتراكية من ولاء الله لولاء الزعيم ومسؤولية التقليد للاشتراكيات الناجحة[1] بأصالة قومية خلاقة!.

1 يجادل اليوم تلامذة الاشتراكية العلمية في زعمها،وبعد انهيار صرح عالم الشيوعيةبأن ذلك الانهيار

وما تنتظر الأمة إلا قيادة طليعية تصدقها وتسلس لها القياد إن جاءت ببرهان صدقها وعنوان رجولتها. إن الفاشلين يكذبون على الأمة ويمنونها الأماني، وإنهم والله لا يرون أمامهم إلا ظلاما في ظلام، وما عهد ذلك الوعيد الموقوت لإسرائيل ببعيد! اعرضوا على الأمة وجها مؤمنا غير منافق ثم قودوها لحرية الرجال ومسؤولية الرجال، قودوها لحرية اقتحام العقبة ومسؤولية اقتحام العقبة.

إنكم يا قادتنا وهذه الأمة من ورائكم تغررون بها لا ترجون لله وقارا ولا تستعدون للقائه إلحادا وبوارا، إنكم على رقابكم طوق العبودية لشهواتكم فهي منبع فشلكم. وإن برقابكم ربقة ثانية أشد مسكا بزمامكم وأشد سلطانا على نفوسكم المريضة، إنها ربقة التبعية للفكر العالمي الناجح في نظركم. هذه هي أمتنا الغثائية تخاف الموت وتحرص على الحياة. وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وصف غثائيتنا ما أنكر انتسابنا إليه ولا طرحنا من حماه، فلا تخافون الموت الذي يحول بينكم وبين شهواتكم وقصوركم فحسب بل تخشون أكثر من الموت أن تضيع سمعتكم أمام الملإ الجاهلي، فبعضهم يتقرب لآلهة الشرك الإيديولوجي يحاذيهم بتسوله لسلاح لا يعتم أن يفشل في أيدينا الغثائية، وبعضهم يتعبد آلهة الدوابية الحرة، يشعر بمسؤوليته عن الديموقراطية، مظاهرها وطقوسها لانيتها العادلة، ويشعر بمسؤوليته

في اتباع الخط العالمي على الأسلوب العالمي، فأنتم وايم الله ركاب الجاهلية بين ظهرانينا،وأنتم لنا بئس الرمز وبئس النموذج.

إن عليكم أمام الله مسؤولية يوم يكون المؤمنون أحرارا تحت ظل الله، أفيزج بكم إلى جهنم وأنتم لا تشعرون. وإن لكم من ورطاتكم في الدنيا وخزيكم أمام عدوكم لعذابا وهوانا فلا تجعلوه عربونا لهوانكم وخزيكم يوم يعرض الناس على ربهم. ومن يسمع منكم نبأ الآخرة كما يسمع تلامذة رودنسون نقد أبيهم الروحي بمنطق الإسلام لا بمنطق الجدال ويستهين بوعيد الله لكل متكبر جبار فإن علينا مسؤولية النصيحة الرفيقة وله حرية أن يتحمل ما حُمِّل حتى يقرع عليه الباب صاعقة من أمر الله أو أمر الناس، وما هي من الظالمين ببعيد؟.

إنه لا معنى للحرية ولا للمسؤولية في مجتمع سائب فاشل كمجتمعنا، إن كان للناس في جاهليتهم الحضارية مفهوم للحرية الفردية في بلاد الفوضى المنظمة ومفهوم للمسؤولية أمام الجماعة في بلاد الإيديولوجية، فنحن ما يصح أن يكون لنا مفهوم للحرية والمسؤولية لأن فوضانا لا نظام معها يرجى ولأن استبدادنا الإيديولوجي حرباء لها حربائيتها تلون ومن حيرتها وفشلها تلونات، فتغدو علينا بشعار يمحوه شعار الليل، وبكلام بالليل يمحوه كلام النهار.

إن الحرية سلوك وإن المسؤولية سلوك، وما دمنا نحن لا سلوك لنا إلا في حلبة الكلام إذ نحن أبطالها، فلا حرية لنا إلا أن نسبح بحمد الزعماء والأمراء ولا مسؤولية علينا إلا أن نستمع لخطاباتهم عن الحرية والمسؤولية.

لا سلوك للفرد منا ولا للجماعة بل تخبط عشوائي، فلا حرية لنا ترجى ولا عبء ينتظر من الفاشلين أن يتحملوه. خلقنا الله عز وجل لمشروع عظيم وسلوك يصلنا إلى الحرية من سلطان العالم وسلطان نفسنا الساقطة بنظرها للعالم، ويصلنا لاستحقاق مسؤولية خلافته تعالى في الأرض، فجاء حكامنا وبدلوا نعمة الله علينا كفرا، ووعده لنا بوعود كاذبة خاطئة.

الحرية والمسؤولية تلخصها كلمة التوحيد لا إله إلا الله. إنها برنامج الحرية من طاغوت المتألهين وإنها مسؤولية أمام من نوحده عن قيامنا بأمره واتقائنا لوجهه الكريم. وحرية قادتنا يلخصها شعار القومية الاشتراكية المنافقة بادعائها الإسلام. فلنا حرية القتال القومي بين الكردي المسلم والعربي المسلم، ولنا حرية التناحر بين البنجابي المسلم والبنغالي المسلم. ويمنعنا من الجدوى أننا اشتراكيون ومن الفاعلية أننا مسملون ومن ثم فنحن أمة فاشلة.

لا يقترح القادة على الأمة التي عافتهم بما عافت انحلال

الأخلاقية وتفسخ الذمم وعار الهزيمة إلا ناموسا مشركا جبارا يخلط علينا معالم إنسانيتنا وعزنا من حيث يوهمنا أنه يكمل لنا مقومات النهضة والقوة. اعتبر مثلا البرنامج الإيديولوجي الذي اقترحه معتوه من قادتنا ذهب الله بجسمه بعد أن ذهب بنوره هذا الفيلسوف الزعيم ببلادنا أندونسيا وضع برنامج التحرر شركا بالله على شكل عقيدة خماسية سماها : «بانتجا سيلا». ما وسعه أن يجهر بالكفر في دار الإسلام فأخفى ذلك إذ دمج في عقيدته الألوهية. عقيدته خمسة لا واحد، هي : الإله، والإنسية والقومية، والديمقراطية، والعدالة الاجتماعية.

خمسة أكثر من واحد ! والشرك له المجد في عالم الجاهلية وفي عالم رؤوسنا! ورؤوسنا لا يجرؤون أن يجعلوها «بروميثية» جاهرة كما فعل عدو الله بتركيا فلذلك يضيفون الإنسية وما بعدها إلى الألوهية إشارة إلى تحررهم من عقيدة التوحيد وإضاعتهم لمسؤولية تخطفوها بزعامتهم المهيجة البطولية.

ومثل هذا الشرك وأشباهه لغة شعاراتنا التي سيستبدلنا الله بمخازيها عزا تحت ظل ألوهيته، غدا القريب بحوله وإرادته لا بحولنا.

إن الحرية الإباحية ما تتمناه النفوس الخبيثة، وإنها أيضا أقصى ما تكونه الحرية في بلاد الفوضى الانتهازية. ذلك لأن المسؤولين

لا إرادة لهم يستقلون بها، فلاهم يستبدون على أنفسهم ليخلقوا رجولة يستبدون بها على رعيتهم استبدادا تربويا ربانيا، ولا هم يطلبون إن كانت لهم إرادة إلا بطولة قومية إشتراكية يتوراثونها طلابا وغلابا.

فشل لن يربينا منه إلا إرادة قائد مؤمن قوي، وعبودية ما أخرجنا منها إلا سلوك قيادي مستقل يرسم الهدف فيسبق إليه ويلفت الأنظار بصدقه ويلفت القلوب بصفائه، ثم يستبد مربيا حرا مسؤولا.

في غياب الرمز الإسلامي الضائع منذ الإمام علي وفي ضآلة النموذج العام للمسلمين الراسب في بلادنا من بقايا الملكية العاضة رسوبا شاهدا بفتنتنا الإسلامية الأولى فتنة التسلط على الحكم، هذا الفراغ يملأه نماذج الحرية الجاهلية والبطولة الجاهلية. مدراسنا معاطن للفتنة تطبع على قلوب أبنائنا صور البطولات في تاريخ الجاهلية، ولا تسمى جامعةً أيُّ مدرسة لنا إلا إن درست فلسفة اليونان وحضارة تروما ن. فالنموذج الأعلى في أدمغتنا هو الجاهلي البطل نترجم من موقع فشلنا بطولته الموروثة استخداء أمام كل صعلوك تقذف إلينا به الجاهلية أستاذا في جامعاتنا أو مستشارا خبيرا لقادتنا. وأحيانا نكون نحن أبطالا لنا من البطولة كفرها، ولنا من استقلالها التحرر الإباحي، ولنا من رجولتها

ومروءتها البهلوانية العالمية لاعبين على الحبال لنوهم قومنا بأن حركتنا حرة مستقلة.

وعلى قلوبنا تنطبع نماذج النجاح الجاهلي، فأكثر ما يسلك على ضوئه قاضينا أن يتفقه في قانون الكفر ليتسنم المناصب فتكون له حرية الارتشاء ومسؤولية الردع للمظلومين كيلا ينتصروا على الخصم المترف. وأكثر ما يسلك الآباء والأمهات تقليدهم الحر للنموذج الجاهلي وتعبدهم للرمز الجاهلي انهماكا في العبث بل الخلاعة والدعارة كمذهب اجتماعي منسق. وعلى الهامش قوم فاشلون فشل المظلومين المستضعفين، ما نالوا نصيبا من الثقافة المسمومة وقاهم الله شرها، أو قاوموا التيار فكانوا من الأخيار.

وهؤلاء هم الوارثون، ينشؤون غدا إن شاء الله في ضحى الإسلام المشرق نموذجا للتحرر والمسؤولية يستبدون استبدادا تربويا[1] لا يتصالح قيد شعرة على الاتجاه يستبدون استبدادا لا معنى بغيره للحرية ولا للمسؤولية. سيكونون قائمين بالقسط إذ يردعون الفتنة وأوكارها ردعا مربيا غايته الاستتابة والحد، إن أعيت الحيلة، وإن أضحى للإسلام تمكن في الأرض يجعل ذلك حكمة وموعظة حسنة. وسيقومون بالقسط يقظين متعاونين حتى تسري

1 حيثما تحدثت عن «الاستبداد التربوي» فإنما أعني به السلطة الأخلاقية التي تفرض حضورها واتجاهها بالسلطان المعنوي والسلوك النموذجي،يكون سلطان الحكم في خدمة الحق والأخلاق والعدل سائرا في ركاب الشورى،لا الاستبداد السلطوي القهري الحاكم بهواه.

إلى الأفئدة كلها رحمة الربانية ورفق التربية ومحبة الحرية الإسلامية والمسؤولية الإسلامية. في البيت يفرض الربانيون نموذجا، وفي المحكمة وكرسي السلطان وأبوة الأستاذ، يستبدون بصلاحهم ويستبدون بحصارهم الثقافي يصدون أعلام الجاهلية ويطردون إعلامها من الأسماع والعقول.

إن حرية الإسلام ومسؤوليته لها معنى واحد، هو أن نسير إلى الأمام بيقظة ومضاء تقتحم كل عقبة ونستحلي كل مر ونقوى على كل مكروه. إذا اجتمع لنا اثنا عشر ألف مؤمن اقتحمنا القدس ولو بهروات لا نحسن صنع خير منها لنلقى إحدى الحسنيين، ولن يغلب اثنا عشر ألف مؤمن من قلة، وعدا من نبينا غير مكذوب. وإن قل الزاد حفرنا أرضنا ولو بالأظافر لنستنبت طعام الحرية هنيا مريا بديلا لطعام الخزي والمذلة المتمثل في قمح أمريكا.

وإن أعوز الدرهم طرحت لنا الفلاحة خاتمها الفضة بعد أن تطرح أختها المفتونة بالأمس قناطيرها من الأحجار والمتاع الأصفر.

تلك هي الحرية وتلك هي المسؤولية، وهو تصور ما يعرفه الجاهليون سواء من ينصبون وثن الحرية حجراً مشرفاً على برهم وإباحية في أخلاقهم وفوضى متحدية لنظامهم، أو الآخرون المستعبدون للدابة الإنسانية تحت نير الاقتصاد تجره جراً وتلهث

طالبة الحرية فيجيب عن لهاثها جهاز القمع الإيديولوجي.

إن الحرية والمسؤولية أول الجهاد الإسلامي وأول شرط لاقتحام العقبة. إن الله عز شأنه لما سألنا عن كنه اقتحام العقبة، وعجزنا بجعل عبوديتنا له واسترحمناه دلنا أن اقتحام العقبة هو أولا فك الرقبة. ولنترك الفقيه الشرعي يجتهد لنا في تفسير استعباد أسرى المحاربين الجاهليين اجتهادا حرا ينسينا تفاهة جيل الإسلام الفكري الذي خاض بحرية!، معارك مع المستشرقين ليثبت أن العبودية في حق الكافر كذا وكذا، وأنه لا عبودية في الإسلام وما أشبه هذا من الترهات. إنهم مسخوا الإسلام إذ بتروه من المغزى العظيم الخالد لاستعباد الكافر الأسير كما مسخته الفتنة إذ استعبدت أحرارا وباعتهم في سوق النخاسة كما باعتهم الجاهلية بالأمس مسروقين من إفريقا، وتبيعهم اليوم جزافا ونحن في جملتهم منذ لم يبق لنا إيمان محسن يفك الرقاب تقربا لربه، وشوكة مجتهدة تحب الموت كما يحبون الحياة، وتأسر الكافر وتستعبده بقيد الله لتربيه وتضع حكم الله عليه موضعه، حكمه الخالد تبارك اسمه، وخاب دعاة الوهن والتبرير.

ليرد فقيهنا الشرعي على بهتان جيل الإسلام الفكري وما واكبه من ضلال ريثما نفرغ نحن من تدبر آيات ربنا ننقب عن منهاج أنبيائنا.

فك الرقبة عمل عظيم يتم بين فاعل ومفعول، بين الباذل العالم الرباني وبين من يحس بالعبودية وآلامها ويترقب المحرر. وما الأمة إلا رقبة مرهوقة في عبودية العادة والغفلة والأنانية، وما تحريرها يمكن إلا بالمنهاج النبوي، منهاج اقتحام عقبة الأنانية المشققة وعقبة الغفلة الحاطة للإنسان في محط البهائم عن مقام حريته في رضى ربه وعقبة العادة المقلدة.

فك رقبة الأمة تربية شمولية تتناول الروح فتبعثها حية من موات، وتتناول الفكر فتنفي عنه السم بإكسير القرآن والجسم الفاشل بفشل روحه وعقله فتسترجله وتستخشنه. وإنه لا إسلام بلا تربية، وإنه لا تربية إلا ببث روح الاستقلال وضبط النفس والثقة بموعود الله ورسوله. ومن يبث ذلك إن لم يكن وجه القائد المجاهد يقف أمام الصف للصلاة، وأمام الجيل رمزا ونموذجا لمعاني الاستقلال والانضباط والثقة بالله حتى يكون موضع ثقة المسلمين المشتتين في قومياتهم. وإن هذه النواصي الكاذبة الخاطئة لا تقدر على ذلك إلا بإعجاز من الله. ونحن المعجزة تنتظر، فمن المعجزات ما يفك رقبة عن جثتها ومنها ما يهدي بالحق إلى الحق على يد أهل الحق أحباب الله.

الفصل السابع

التعليم والتعلم

التربية والتعلم

أتى المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد افتقام نفاقهم فعلمه الله كيف يعاملهم وتعلمنا نحن كيف نقتفي أثر نبينا. جاءوا رسول الله يحلفون على صدقهم كما يحلف قادتنا، فقال الله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**﴾. وقد أصابتنا مصائب بما قدمت أيدينا وكان جديرا بها أن تربينا ونتعلم منها لنستأنف عملا من خوضنا القومي واضطرابنا السياسي على درب الجاهلية.

كل من ينشدون تغييرا لواقعنا يقلدون الإيديولجيات في حركيتها، وإن لسوقها لرواجا وإنها لأشكال وألوان. وكل من ييأس مما يراه من فشلنا يعرض إعراض الممتعض أو إعراض المحوقول، أو يعظ وعظ الزاجر. قوم منا لهم عنف الثوريين واحتقانهم وكفرهم، وقوم يتراشقون بشديد القول وخفي المكر، وقوم ينتظرون فرج الله لا يجدون مخرجا، ويعافون واقعنا لكن لا يهتدون إلى منهاج يعرضون به عن الجاهلية يعونها مسخا، ويقبلون على الفتنة والمفتونين ليعظوهم وعظ المربي المعلم وليقولوا لهم قولا بليغا.

المنافق له في أسلوب الفكر والعمل وجهان كما لنافِقَاءِ اليربوع والجرذ ثقبان. ونفاق في الإيمان يصحبه نفاق من نوع آخر نفاق سياسي لا يثبت معه لهم قول ولا وعد، ويضاف إلى النفاق جُرذية الجبن والسقوط الخلقي، فلا يستحق من جمع الثلاثة منك إلا إعراض المعادات أو إعراض الاحتقار أو إعراض الهجر. ذلك إن لم تكن على المنهاج التربوي النبوي. ولقد كان المنافقون في زمن النبي والإسلام في أوج عزه وجوها معروفة وذمما ساقطة يفضحها انخذالها عن المسلمين كلما حزب الأمر. فما قتلهم رسول الله إبقاء راجيا لتوبتهم وسلوكا تعليميا لكيلا يقال أن محمدا يقتل أصحابه، فإنهم كانوا ينتسبون إليه.

ألا وإن منافقينا منا كالجلد الأجرب لا محيد لنا عنهم. وهم أشد الناس استكبارا وأكثرهم امتناعا عن التعلم. فنحن اليوم في وقت الدعوة نعرض عنهم إعراض المستقذر لبلواهم لكن الرحيم بهم الواعظ لهم، ونقول لهم في أنفسهم القول البليغ لا نريده تهييجا وسبا، لكن نريد أن يبلغ منهم مبلغا عسى أن يلتفت منهم ملتفت إلى نفسه يستنقصها وينتقدها ويكرهها، ليبحث لها عن بديل، ويربيها من رذيل، ويتعلم من القول البليغ. وغدا في يوم الإسلام سنتناول منافقينا باليد لنزج بهم في ميدان الشغل عسى أن نخلق فيهم الحاجة إلى التعلم ومن ثم إلى تغيير العقلية والاتجاه

والموقف.

دعوة الإسلام تربية وتعليم، وبلاغ وتبليغ، تبشير وإنذار. فالتربية فعل فاعل بسلطان نموذجيته وسلطان بلاغه وصولة دعوته. التربية تأثير يفرض نفسه على الناس يعلم عاطفتهم ويعلم عقلهم ثم يتناولها من مجرى العادة إلى مساق الوعي الإرادي والسلوك الإرادي طاعة منتزعة لسلطان الرمز والنموذج. والتربية بهذا لا تنفك عن المربي بل هي إشعاع منه يتشربه المتعرضون له طواعية أو رغما. الفاعل المربي في فتنتنا الغالب على عواطفنا وعقولنا هو النموذج الجاهلي، إنه هذا القائد المنفتح على المذهبية الجاهلية وهذا الأب وهذا الأستاذ وهذه الأم الغارقون في تيار النفايات الحضارية الأثاثية والسموم المستوردة كتبا وصحفا وسينما. كلما درجنا من البيت أو إليه تلقانا صوت الفاعل المربي وصوره وتحريضه، وكلما سمعنا إذاعة أو محاضرة أو درسا، وكلما تحدث بعضنا إلى بعض أو جلس إليه، وكلما تحرك منا متحرك أو سكن ساكن وقع علينا فعل التربية. ونستعمل في كل هذا كلمة التربية بمعنى سلبي في نظر الأخلاق.

أخذ المفتونون من أجيالنا الأولى اتجاها منحرفا بتأثير الجاهلية الراجعة بطبعها وطبعنا وفشت منهم إلينا تربية متسلسلة. فالإباحي يسقط علينا وباء مثاله المنحل فيجد في نفسنا استجابة لأنها عبدة

للشهوة، والظالم يسقط علينا ظلمه فيجد في نفسنا من يقلده تقليدا للاستكبار، ومن يحقد ردا على الأنانية بمثلها، والزنديق يسقط علينا كفره فتتلقاه عقولنا فلسفة وعقلانية ملحدة، وليس للأمة نموذج موحد يعرفونه جميعا ولا ينكرونه، ويعظمونه ويحبونه، ويسيرون معه من دار الفشل إلى دار الحياة والقوة. الفاعل التربوي في فتنتنا فاعل محرف، هو المرآة الإنسانية المتعددة الأسماء والأدوار العاكسة لقيم الجاهلية وحياتها. ولقوة الجاهليين وكثرة أثاثهم ومعرفتنا بتاريخهم ورجالاتهم، ولفراغ في أفئدتنا وعقولنا ننفعل للنموذج الجاهلي، بل ونحبه ونكبره ونتشبه به ونفنى في ذاتيته ونذوب.

فبهذا نحن قوم مسخ وقوم فاشلون، وقوم يظلم بعضنا بعضا ويستعبده ويحتقره. على رأسنا أشخاص بعقول ملفقة ونفوس في ترفها مغرقة، ربتها الجاهلية بمعنى حرفتهم، فهم يدوسوننا بالأقدام اقتداء بما كان يفعل بنا المستعمرون. ونحن المستضعفون الوارثون مضى علينا زمن كنا نعجب بقدرتنا، ونفخر أن لنا رجالا دكاترة، حتى بان لنا أنهم جبابرة. وأحسوا هم أن دنياهم المترفة سطح عائم على بحر هذه الأمة، فلذلك عادوا يتشبهون بقومهم نفاقا ويزعمون أنهم تغيروا منذ باتوا قوميين. وننظر نحن فندرك أن لباس القومية مسخ ثان ونفاق مضاعف. لأن هذه القومية لا تنهى عن

فحشاء ولا منكر، ولا تحد ظلما ولا تسلح يدا ولا تربي يدا تحمل السلاح. ونحن أمة لنا قيم سماوية نشمئز من الفحشاء وننكر المنكر بمعايير متأصلة في قلوبنا إيمانا وعزة بالله ونسبتنا لرسوله صلى الله عليه وسلم.

فنحن وهم في منعرج الطريق، والأمر بيننا نزاع، فمن جانبهم السيادة الجاهلية التي يخدمونها وهذا الأثاث وهذه التكنولوجيا التي يتيهون بها علينا. ومن جانبنا قلوب الأمة كلها لم تمتها الغثائية وإنما أمرضتها، ومن جانبنا قلوب المستضعفين وحنين الشباب إلى طهارة لا يجدونها في جرذية المترفين، ومن جانبنا أيضا حيرة هؤلاء وقرفُهم من فراغ حياتهم، وإن كانوا يتلهون عن ذلك بدُماهم الأوروبية وأموالنا المسلوبة ومتاعهم القذر.

الوضع يقتضي تربية من انحراف، تربية نحو الربانية، نحو تكوين المؤمن الرباني. والتربية استبداد في جوهرها، استبداد روحي فكري نموذجي. المسلمون حائرون مشتتة هممهم وليس في الميدان إلا تلامذة الجاهلية ما في جعبتهم مهما ارتقوا عن مرتبة الإقطاعيين إلا فكرة واحدة وعقيدة واحدة هي التنمية الاقتصادية وإن هم دعوا لتنمية الإنسان فإنما يدعون لإنسية مثل دعوة سوكارنو، ولها بديل «إسلامي» عتيد عند بعضهم! والأقوال التي يسمعها المسلمون لا تَبلغ ولا تُبلِّغ لأنها صخب منكر وشعارات خلقة

جوفاء. ووسط الصخب يتسرب صوت الإسلام من خلال الطبقة الحاكمة ليستقر في آذان المستضعفين وأفئدتهم يذكر بالكرامة الضائعة.

إن القول لا يستبد مهما كان بليغا إلا إن استند إلى سلطان وازع، وما كان قول الرسول للمنافقين بليغا إلا لأنه صوت صاحب السلطان بعد كونه صاحب البرهان.

فالصوت المعلم المربي بالاستبداد، المربي بوازع السلطان هو الكفء الوحيد لقوة النموذج الجاهلي المائل بنا. لذا فالدعوة إلى الإسلام بالكلمة البليغة وسلطان الفكر والروح قبل قيام هذا الأمر تبقى في دائرة محدودة، ولا تعم التربية الإسلامية إلا تحت ظل اللواء المنشور. إن قرآننا هو القول البليغ وهو العلم وتبليغه هو التعليم. وقد نفذ إلى قلوب المسلمين الأولين بنورانية النبوة وبقاصم المعجزات النبوية. لكن الإسلام بقي في دائرة محدودة، ولبث رسول الله صلى الله عليه وسلم يبحث عن قوم يحملونه إليهم حتى يبلغ رسالة ربه. حتى إذا بايعه الأنصار على الطاعة والنصرة واجتمع في يده الوازعان استبد استبدادا مربيا وقوم من انحراف وطهر من رجس.

كذلك يعود الأمر وبذلك يصلح كما صلح أوله. إن الإنذار والتبشير والبلاغ والتبليغ تعليم يسنده صدق الداعي ونواريته لكن

لا تقوم قائمة الدعوة إلا بسلطان وازع. وقد عبر عن هذا ابن خلدون تعبيرا غير بيّن إذ ذكر أن الأديان لا تقوم إلا بعصبية، وعدم البيان في كتابته لكلمة «العصبية» لأن الإسلام دين الله الحق لا يقوم إلا على كسر العصبيات وإبدالها بولاية الإيمان ومحبته وطاعته ونصيحته.

إن التربية يقوى مفعولها بقوة موقف المربي وبقوة الهيبة التي في قلوب الناس له. وإن في بعض بلاد الإسلام، مثل تركيا، لهيبة عظيمة لرجال الدعوة الإسلامية، ذلك لمكان هذه المشانق المنصوبة وهذا التكفير القاتل الذي طهر الصفوف وأيقظ في الناس محبة إسلام كان عاديا يوم كان مباحا فأصبح عزيزا مطلوبا بالمهج لما اقترن إعلانه بالموت. أما في باقي ديار المسلمين فرجال الدعوة والبلاغ في موقف ضعيف جدا إما بقلة حكمتهم في التربية أو بانسدال ستار الحديد عليهم والمشانق أو بقعودهم أن صح أن نسمي رجال دعوة من لهم قابليات معطلة يائسة.

مفهوم التربية والتعليم السائد تحت نظام القوميات هو السير مع ركاب العصر ومسايرة التقدم، وأعلاه مسايرة التقدمية. ولا أثر للوعي بانحرافنا إلا بمعيار القومية. فإن كانوا يريدون من التربية والتعليم أن تحول الناس فإنما يريدون التلفيق بين الأصالة القومية ومسايرة العصر. وإن لهم السلطان في الأرض يعلمون

الناس فيتعلمون، ويسقطون عليهم نماذج السلوك فيهيمنون على الأفكار والآمال، فأنى وليت لا تسمع ولا تبصر إلا ما يرغمك على مسيرة واحدة هي المسيرة القومية. ومن القوميات ما يتطهر بدعوى الإسلام لكننا لا نثق أبدا بإسلام يبدأ شعاره بالقومية والاشتراكية ويكون الإسلام شركا لهما.

إن تعليم القوميات المنظم تعليم فاشل بالإضافة إلى كونه تعليما ممسوخا ضالا. التعليم المكفر الناجح هو التعليم العفوي أو المقصود الذي يصاغ مصاغ التسلية، إنه تعليم السينما والتلفزة والمذياع والجريدة والكتاب الخليع. أما التعليم المدرسي ففاشل فشلا ذريعا، إنه تسلط على الناشئة بمناهج ليست مسلية فتكون للناس المفتونين بها رغبة فيتعلموا منها، ولا للناس حافز قوي يدفعهم للتعلم. إنما الأمر أكداس تقترح للحفظ الأكاديمي بتهديد الامتحان ليس غير.

وأيا ما كان الأمر فالإسلام يرزح تحت ثقل هذه المؤثرات المحرفة وفتنتها. عند أبنائنا رغبة في بضاعة السينما والمجلات الداعرة فهم منها يتعلمون وعلى نموذجها يسلكون. ولهم رغبة إن عقلوا في نشاط وحركة فلا يجدون إلا نموذج العنف الجاهلي يحذون حذوه فيثورون ويعترضون، وتضيع أخلاق الأولين وجهود الآخرين وأخلاقهم معا، لأن المطالبة المعارضة في صفوف الشباب تتضمن

الثورة الشمولية على مجتمع ولد الظلم.

والقوميات لا تستبد استبدادا مربيا إنما تستبد استبدادا رادعا لا يعنيها من التغيير إلا مظهره، أو لا تعرف منه إلا ذلك، أو كل ذلك وكونها لا تقدر على تغيير. وكيف تقدر وشعار الديمقراطية لا يطرح أبدا ولو في ظل الانقلابية. إنما الفرق أن ميوعة الديمقراطية الإقطاعية الشاملة تتحول إقطاعا اشتراكيا تعييه مناوشة الضمائر لتقبل بضاعة الإيديولوجية، وهي ترفضها في شكلها ومحتواها.

التربية تعليم وتعلم، فهي تعليم بالنظر لإرادة الفاعل المستبد القاصد إلى تغيير، فإن وجد تعليمه رغبة من جانب الناس تقبلت العواطف والأفكار والمثل العليا ووقع التغيير. وإن رفض الناس دعوة المربي فلا تكون استجابتهم له إلا رضوخا. وهنا تكمن مأساة جيلنا وحيرته. فالأمة في مجموعها لا ترغب في كفر وإنما ترغب في إسلام، تمارسه على شكل من الأشكال، أو تحن إليه بعقيدة، أو هي في حيرة وتمزق بين عالم وعالم، لا يتلقيان في ضميرها، وتريد أن يتصالحا لكيلا تضيع قيم الحضارة القومية وقيم الكمال الإنساني المبهم في صورة مشوق إلى ذاتية أصيلة أو انتماء أحق بالتقدير من الانتماء القومي.

تمزق الأمة بين أجيالها وبين طبقاتها يرجع لعوامل الفتنة وأهمها الظلم والأثرة، من لهم السلطان لا يحققون عدلا، ومن يعيشون في

الحرمان يحنون إلى عدل. ومنهاجية الانبعاث الإسلامي أن تبسط قاعدة العدل لتبني عليها تربية ولتخلق في الناس رغبة في التلقي والتعلم من القائد العادل.

إنها أزمة ظلم ومن ثم أزمة ثقة، أما هذه العوائق من المغريات المسمومة مما تحمله وسائل الإعلام، ففيها قابليات لا نهاية لها لبت القول البليغ التربوي في الأمة يوم يصبح السلطان للإسلام. إنها اليوم أدوات للإعلام والتعليم المحرفين، إذ لا يقف الأمر عند الإطلاع المجرد، بل يتلقى الناس ما جاءهم من دار الكفر بإجلال ويعتقدونه كمال الحضارة وكمال الثقافة، وهي غدا كتب وإذاعة ومسرح وتلفاز في خدمة الإسلام. العالم من حولنا يبعث كلماته وصوره وإعلامه تتبارى في مساومة الإيديولوجيات والثقافات الخليعة، ولا بد لنا غدا من حصار يعزلنا عن التيار المحرف.

كان للنبي صلى الله عليه وسلم عزلة قبل بعثته، ولكل الذاكرين خلوة إلى ربهم ينتزعون بها أنفسهم من مغريات الدنيا ليربطوا بربهم رباط التقوى. ويتحدث سيد قطب عن «العزلة الشعورية» الضرورية للمسلمين. فأما عزلة الفرد الطالب للكمال الإنساني الراغب في التعلم بحافز عال فهي عزلة خاصة تدخل في نطاق التربية الفردية. وأما عزلة أمة بكاملها فلن تمكن بعزل آلي من الظاهر، إذ كل ممتنع عزيز. وإنما تمكن بنفث روح جديد قوي

في الأمة يأتيها من جانب الربانية القائدة، من جانب نماذجها المقترحة بالمثال والمقترحة بالتخطيط. وبقوة هذا الروح ترغب الأمة في المصير الرفيع تحت ظل الإسلام وتتعلم كيف تصير إليه معاكسة تيار الجاهلية كله ما ترسب منه فينا وما يبلغنا من إغرائه عن طريق موجات الإذاعة بعد محاصرة موجات البضاعة. وبقوة هذا الروح تُغير المدرسة ومناهجها والجامعة وعقليتها والأمة ولغتها في سياق واحد قوي بقوة الإرادة المستبدة بسيفها ومصحفها ونورانيتها وربانيتها. طاعة وتطوع وتعليم يستمد نجاعته من العدل كما يستمدها من الرغبة في التعلم.

لغة القرآن

لغة التربية الإسلامية لغة يفهمها الأمي والقارئ، هي لغة الرمز والمثال، لغة العدل والنوال. أما لغة التعليم ومطلب التعلم فهو القرآن ولغته، وبلاغته ونبرته. إن هذا الدين هو قرآن الله، وإن تاريخ هذا الدين في قرآن الله، وإن حكم هذا الدين يعرضه كتاب الله. إنه خطاب الرب لعبده، خطاب جاء بلسان عربي مبين لا ينفصل إيماننا عن بيانه، ولا يتميز تاريخنا إلا بممارسة على الأسوة لأبينا إبراهيم ومن معه ولمحمد صلى الله عليه وسلم ومن معه، ولا تشريع يمكن لإسلام الغد إلا بإحكام لسان البيان.

إن أول الإسلام قول بليغ، وأول الإيمان محبة للداعي، وآخره ذكر وصدق. فالذكر هو كتاب الله يتلى بلسانه ويستضاء بفرقانه والصدق هجر لعادة، والعادة قعود ينهض منه القرآن.

نزل الله أول آية من كتابه المبين أمرا بالقراءة، والقراءة جمع من شتات وإحياء من موات. إنها جهاد يرجعك من العادة إلى الفطرة. إذ تقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. فإذا كنت لا تعلم اللسان العربي المبين، اللسان الشريف باختيار الله له حاملا لخطابه، أو كنت أميا غير قارئ فإن لك حظا من عادة القعود، وحاجة لجهاد وتعلم حتى يصبح اللسان العربي

لسان الإسلام وجامع الأمة القارئة الراقية إلى فطرتها.

لنا معشر العرب ولوع بلساننا العربي وهو لنا خزانة الثقافة وصيغة الجد والطرافة. وهو لنا أدب منقول وشعر مكرر غير مملول. العربية لغتنا القومية ومفخرتنا، وغايتنا الثقافية ومعجزتنا نرمي بالبهتان من اتهمها بالعقم، ونتصفح آثارها في حرب وسلم وحق لنا أن نهتم بلغة قومية ونستهدف لها تجديدا تساير به العصر.

لكن هذه اللغة القومية عقيم من كونها قومية. إننا معشر العرب ننسبها إلى أنفسنا فنغلق علينا آفاق الإسلام، ولا ننتسب نحن إليها لكي نعز بعز الإسلام. إنها لغة كان يتكلمها جاهليون بجزيرة العرب فلما شرفهم الله بالإسلام وشرف لغتهم بتحميل خطابه أصبحت إعرابا إلهيا وبيانا. ولولا ذلك لا انقرضت في الغابرين.

إن العربية إنما حييت واستعصت على الدهر بحياة القرآن. وعلى قومنا إن أرادوا الحياة أن ينتسبوا للقرآن وللسان العربي باعتباره لغة القرآن، ففي ذلك عزهم وبالقومية مذلتهم.

القرآن لغة حياة ولغة جهاد لا يفهم خطابه العربي بفصاحة لسانه إن كان القلب منه أعجم، وإنما يفهمه أن أضاف إلى فصاحة اللسان فصاحة الإيمان. وقد أخبرنا الصحابة الكرام أنهم

أوتوا الإيمان قبل القرآن. فسمعوا آياته باكين خاشعين قارئين مجتمعين، وسمعه قومهم الجاهليون وهم في مثل فصاحتهم اللسانية فشهدوا بإعجازه وبلاغة كلامه وعجبوا لكنهم ما بكوا من خشية ولا اجتمعوا من فرقة.

القرآن لغة قراءة أي لغة جمع، فهو للفرد جمع للهمة من طغيان الذي لا يتعلم ولا يميز ما يخطه القلم الإلهي المعلم، وهو للأمة جمع مستقرئ لا جمع حاشر. وإن معظم الأمة في عددها وأعظمهم إيمانا ذوو قلوب فصيحة قارئة قبلتها بيت الله تتوجه إليه الأجسام وقبلتها الكلية كتاب الله. وإن كانت ألسنتهم لا تفصح بالعربية فإن لهم على القرآن غدوا ورواحا يتلونه ويستعذبون خطابه ويناجون به ربهم في الصلاة والذكر.

استغلق القرآن علينا معشر العرب على فصاحة ألسننا لانغلاق قلوبنا عن الإيمان، وعرتنا نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء فادعينا الصلاحية التي لا تكون إلا للمتقين. ادعينا الكرامة العربية ولا كرامة إلا للمتقين، وادعينا العلم ببضاعتنا اللفظية ولا علم إلا للمحسنين. والتقوى والإحسان لا تعرف حواجز اللغة فتكون وقفا على وارثي لغة العرب إنما تقف عند حواجز القلوب. ونحن قلوبنا قومية ما تنتسب للقرآن. وما يعير العرب بكل هذا إلا عربي من ذروة سنامها لو كانت تغني عروبة. فما ننطق عن تحامل قومي

لكن عن غيرة إسلامية.

الأمة الإسلامية متفرقة واهنة ولا يجمعها إلا القرآن العربي المبين، قرآن القراءة والفطرة والتعلم من الجهل والطغيان. إننا أمة العز لو جعلنا منا اختيارا وعزما إلى ربنا الرُّجعى قبل أن نرجع إليه خزايا من فرقتنا. ولقد حدنا عن الجماعة الإسلامية لجماعات القومية فحق علينا وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من حاد عن الجماعة قيد شبر مات ميتة جاهلية، إلا أن يعفو الله الغفور الرحيم.

تجمعنا في قوميتنا على قواعد العرق واللغة، ولم يعد يربطنا بالإسلام إلا إيمان مكنون في القلوب يعلمه الله عز وجل ويحاسب عليه، ونعلمه نحن من انعدام آثاره، لأن رسول الله علمنا أن الإيمان محبة وعلمنا القرآن أن جزاءه وراثة الأرض والاستخلاف فيها. ويربطنا بالإسلام محبة للقرآن تظهر عندكم إخواننا الناطقين بلغاتكم إخباتا وخشوعا، ونتجرأ نحن العرب على قرآننا يؤوله كفارنا ويلعبون به، ويغنيه الآخرون بأصوات مترهلة فيها رنة الفشل والأنوثة.

فإذا دعونا للاجتماع حول القرآن ولغته، فإنما ندعو للجماعة الشمولية التي أساسها الإيمان السابق للقرآن ثم القراءة بمعنى الاجتماع على الفطرة من الطاغوت ثم القراءة للغة واحدة هي

لغة الإسلام، وهي العربية التي فتن بها قومنا أدبا وشعرا وعجزا وفقرا. فإذا أصبحت لغة الإسلام نطقت بلغته وهي لغة القوة والعزة، والغنى والقدرة.

العربية بلا قرآن تعطيك العروبة بكل أمراضها المعروضة على العالم. إنها لغة الفرقة والكراهية، وما على الأرض اليوم قوم ينطقون بلغة واحدة أشد تباغضا وتباعدا وتقاتلا من قوم العروبة. يتواثبون على الزعامات القطرية وتخدمهم الفصاحة العربية حين يتنابزون بالألقاب وحين يلعن بعضهم بعضا. لغتهم لا تتسع لمعرفة ولا تسعفهم في مشروعهم الذليل مشروع مسايرة الركب. لا تتسع لذلك ولا تقدر عليه كما لا تقدر أيديهم على صنع إبرة يرشقونها في جسم العدو الجاثم في القدس، وإن كانت العروبة البطلة قد صنعت صواريخ في عالم الخيال وهددت بأحلامها قوما أولى بأس شديد.

دعوها يا قومنا فإنها منتنة، ولئن فعلتم ليدعن إخواننا في الأرض قومياتهم، ولننطقن بلغة واحدة موحدة هي لغة القرآن لغة الجهاد والجماعة والعزة، ولغة التقوى والمعية مع الله. ولئن لبثتم في معيتكم مع عروبتكم ليبعثن الله عليكم عدوا أشد بأسا الصهيونية لترجعوا عن الطغيان.

اللسان العربي إن نطق بلغة القرآن لسان جميل بديع يزينه

شرف الخطاب الإلهي وينير له السبيل إيمان سبعمائة مليون مسلم يتوحدون عليه فيجعلونه لسان حضارة وعمل. وإن في اللسان العربي لثروات وإن له لإمكانات عز أن توجد في لسان غيره.

لغات المسلمين القومية لغات ذليلة على صورة الغثاء البشري، إنها لغات متخلفة تتسكع على موائد الثقافات الأجنبية ولغاتها، ولكل منا ثقافته الحضارية، فإذا اجتمع المفتونون منا فبلغة الجاهليين يتفاهمون، وإن اجتمع المسلم الصادق بأخيه كان اللقاء لقاء جسميا وعاقتهما عن التواصل فرقة اللسان، إلا أن يرطن أحدهما لصاحبه بلسان ثقافته العالمي. وما جاءنا هذا الذل إلا من فرقتنا.

وإذا دعونا للاجتماع فلسنا ندعو إلى اجتماع ثقافي على لسان موحد فقط. لكن ندعو لاجتماع على القرآن وجهاده وأخوته بين المؤمنين وطاعته وشريعته. فإن الانتماء للقومية متركز في النفوس وللعربية من تخلفها الحضاري ما لا يؤهلها لتكون لغة ثقافة للعالم الإسلامي. فإذا كانت الخلافة الإيمانية الباعثة ونادى المنادي فما يؤهل العربية للتوحيد الثقافي إلا إرادة المسلمين في الأرض للحياة والعزة يصوغون من لسان القرآن أداة لغوية تتضمن ثقافة المؤمنين. يصوغونها بالهمة الجمعية والمجهودات المتعاونة.

إن اللغة هي الفكر وإنها هي الرمز الحامل للمعرفة. فترسبت في

تاريخنا أحقاد بين قوميات كانت عامل الفرقة التاريخي، وانقسمت الوحدة الإسلامية دويلات ثم اشتدت أسباب العداوة فأعرض عن اللغة العربية من كان تبناها إذ كانت لغة وحدة حضارية. ومع تقلص الإسلام من الحياة العامة وتشعب الفكر بتشعب مصادر المعرفة ذهب الرمز الموحد وحوربت لغة القرآن حتى طردت الحروف العربية من دولة المارق التركي، إجهازا على أثر الإسلام في الحياة العامة ومحاولة لمحق الإسلام من القلوب بطمس العقول وفصلها عن مصدر الهداية والمعرفة الإيمانية.

والتفتت الحضاري بعد التفتت الإسلامي صحبة اللغة العربية من كمالها القرآني إلى لهجات عامية ليس سببا لها عجمة الألسنة فحسب لكن هبوط المستوى الفكري العام بين المسلمين. وتسارع تدهور المسلمين الثقافي لما ضعف الرابط الإيماني وعادت الجاهلية غازية منتصرة فانسحبت اللغة العربية من ميادين العمل، وانزوت في مكتبات العلماء بأدبها البديع وبلاغتها المعجزة في القرآن والحديث، وانزوت في دواوين السلطان أداة طيعة وموضوعا للتحريف العامي بعد أيام الوزراء أصحاب الأقلام.

كانت لغة العرب في الجزيرة قبل الإسلام لغة خطابة وشعر، لغة العاطفة الرقيقة ولغة الفخر والعصبية والأمجاد. فلما اصطفاها الله جل شأنه وأودعها خطابه للخلق، ولما حدث بها النبي صلى

الله عليه وسلم وأصحابه وأجيال المؤمنين من بعده، اكتسبت قداسة وتبلورت في البيان القرآني المعجز. فكانت في الصدر الأول من الإسلام لغة قوة وإيمان، ثم في العصور التابعة لغة حساب وديوان ولغة علم وعرفان. وما عجزت قط عن التصرف المنطلق في حاجات التنظيم الحياتي ولا عن التصرف المحلق في أجواء العاطفة والشعر. وتفتت المجتمع الإسلامي، وهو نفسه فُتات الجماعة الإيمانية في عهد الخلافة الرشيدة، وجلس على أرائك القصر عرب أمجاد سيقت إليهم قصائد المدح، وجلس على كرسي الحكم رجال لا ينطقون بالعربية إلا قليلا ولا ينتسبون إليها إلا من كونها لسان القرآن، فسيقت إليهم قصائد العربية في ساعات الأنس وتمكنت عندهم اللهجات القومية، ومن هذه اللهجات تسربت العجمة إلى العربية فأصبحت عامية لها مساس بحياة الواقع، بينما انقطعت العربية وبقيت محلقة في الفراغ هجرها حكام قطريون قوميون وهجرها العلم بعد ذلك اللمعان الأخاذ.

وبقي المسلمون يرتلون قرآنهم، والعرب الذين هجنت ألسنتهم يحنون إلى فُصحاهم وجرْسها البديع، واحتفظوا منها على اللفظ وأخذوا به أخذا شديدا، كما يؤخذ المرء بتحفة يرفعها على الرف ولا وظيفة لها إلا أن تكون جميلة لماعة. وعلى مر القرون نَمَت إلينا لغة العرب باستعارتها الخلابة وتراثها اللفظي الضخم. وكانت

الفجوة عظيمة بين معاني الحياة الواقعية وبين الواقع اللفظي التاريخي الذي تحمله ألفاظ متبلورة لا تتطور إلا بتعاقب أصباغها البديعة. فإذا كتب العالم بعد عصر التوسع العلمي خاطب معاصريه بلغة القرون السابقة، وإذا فكر المفكر عاقه النطق عن أداء معانيه أداء حيا ولم تسعفه العربية المبلورة.

مرضت العربية بمرض المسلمين وزالت عن مقامها، ولما استيقظت القومية العربية من سبات الإسلام عالجت أولا لغتها لتعبر عن المعاني العصرية، وتقدم الركب موارنة الشام، ثم أعقب محاولاتهم الجم الغفير من العرب، المروضين للغة العربية على تحوّلٍ أدبي يعلن تحولا حضاريا. كان أبرزهم أكمه العرب، ما نطق بالفصحى إلا ليحارب القرآن ويهتف بحضارة اليونان الوثنية. ومنذ ذلك أريدت العربية على مهنة مهينة هي خدمة القومية العربية، فجاءت عجفاء جرداء في جرائدها، وجاءت عجماء غير مبنية على لسان الساسة وفي كتب المترجمين.

ولا تزال العربية تبحث عن طريقها كما نبحث نحن المسلمين. لا تزال الكلمة العربية والجملة العربية تحدث في أذن السامع إيقاعا جميلا، ولا تزال الصيغ العربية والأشكال اللفظية تسير في تسلسلها اللفظي بيانا في شعر الفحول وتحت أقلام الكتاب الفصحاء. وإذا قرأتها خبرا في صحيفة أو علما منقولا قرأت لغة

هجينة يشم منه نفح الترجمة وريح الجسم الدخيل.

ثقافة قومنا العرب اليوم ثقافة لفظية كما كانت في عهد جاهليتها الأولى. وفي كل جاهلية تتهجن الأفكار وتنحط الثقافة، ففي العهد الغابر عهد الغارات والمعلقات والعصبية المفاخرة كان فكر الجاهلي، جموحا عاطفيا صاغ أداة تعبر عنه، وكانت أداة جميلة لكن جمالها لا ينسينا انحطاط العرب وهمجيتهم قبل الإسلام. وفي جاهليتنا الحاضرة حملنا لغة القرآن شاهدا على انحطاطنا لأننا هبطنا بها من عز الخطاب الإلهي وعز الجهاد الإيماني الرامي لوحدة الإنسانية في حرية الإسلام، إلى لفظية عاطفية أبلغ ما نسمعها تهاجيا وتفاخرا وحنقا وكراهية. كان للجاهليين الأولين معلقات تقرأ ثم ترفع، أما اليوم فلنا معشر العرب في كل يوم سيل من الألفاظ في جرائدنا وإذاعاتنا تخاصم فتفجر شأن المنافقين. ونفتقر لفكرة واحدة من ذاتنا لا تكون عاطفة كراهية وتبعية للسيد الجاهلي فلا نجدها. نعم إن لنا لأدبا كثيرا يدعي الأصالة ويدعو إليها، ولنا «مقامات» إيديولوجية يسب فيها أبو زيدها عدو العرب، ولو كشفت عن وجه أبي زيد لما طلع عليك إلا وجه مفتون على قلب غافل أو مجنون. ولو تدبرت حديثه لوجدته مسخا مترجما أو دعوة ممسوخة. وإن من الترجمة ما يتناول العقول بكاملها، فلا يخرج من عقل مترجم إلا فكر مترجم.

إن اللغة العربية لغة الإسلام المنبعث، وإنها لأجمل اللغات وأقواها، وإنها للغة الوحيدة الخالدة، ولن ينال منها أعداؤها من القوميين العرب، فهي محفوظة بحفظ الذكر. وأنك لترى فتنتهم في أنفسهم، يفتضح انقسامهم الجوهري بتنافر مصطلحاتهم وإخفاق محاولاتهم لإحياء اللغة في مجال العلم. ويوم يكون للمسلمين عمل إسلامي تتجند قرائح مؤمنة مزودة بفكر مؤمن حر مستظل بتقوى الله وبهدي كتاب الله، وستفصح اللغة القرآنية عن وحدة القلوب ووحدة الفكر والعمل بوحدة اللغة. وإن كانت تبدو لنا عقبات أمام توحيد اللغة بين كل المسلمين، فإنما الإيمان اقتحام للعقبة وما للمسلمين لغة إلا لغة القرآن، وإنهم لأغراب في لهجاتهم كغربتهم المفروضة عليهم في القوميات الجاهلية.

الثقافة والتنمية

أما بعد أن وضعنا شرط الحافز المتلقي للتربية المرغب في التعلم، ووضعنا شرط الأداة فسننظر في حال تعليمنا ونقصه ووسائل النهوض به في سياق التعبئة الإسلامية. ولعل النهوض بالتعليم لا يكون نتيجة للتعبئة فقط بل يساهم أيضا في تقديم هذه التعبئة وريادة الآفاق للنشاط المتجدد. ولعل النهوض بالتعليم على يد الربانيين المربين هو الذي يحرر الأداة اللغوية من أوشابها وهو الذي يكمل نقصها ويفسح لها المجال العملي.

إن رجال التعليم هم النخبة الثقافية، إنهم أساتذة الجامعة وطلابها ومديرو المدارس ومعلموها. وكل هؤلاء موظفون يتحركون بعقلية الموظف، ونعرف أن عقلية الموظف عقلية أجير تقيس هي إنتاجها ويقيسه المراقبون قياسا كميا. وفي آداب الوظيفة على شكلها المنقول من الجاهلية ونظامها نداء متواصل للضمير المهني ومراقبته، فإذا كان نداء الضمير المهني ينبعث من مصدر يبرهن على عدم كفايته وينتمي لجهاز عرف بخيانته، فإن الموظف، حتى ولو كان عالي الثقافة، ينحط إلى سلوك مريض بعد أن تصالح مع نفسه بأن جو الفشل العام لا تصلح معه حركة ولا تؤثر فيه النصيحة.

وبهذه العقلية أيضا يفكر الجهاز التعليمي ببلادنا، فالوصولية والرشوة قاعدتان لا يشذ عنهما إلا المستثنون من الرجال، ويزكي وجودهم في جو التفسخ العام الأمل الواسع بأن نواة الربانيين لها بيننا وجود، وما ننتظر إلا أن تمطر بمطر الإيمان. إنها بذرة مندسة تحت الأرض، فإذا أمطرت السماء خيرها زكت البذرة ونمت وشقت الأرض على صلابتها، وترعرعت وأينعت ثم أثمرت بإذن ربها.

فكذلك أخيار مثقفينا غدا يوم تزول اللأواء. إنهم اليوم مستضعفون يسخر منهم، وهم في الحق شهداء بالقسط وسيوحدهم الوعي الصادق، وسيتحررون من جبن النفاق السائد الغالب.

تعليمنا المفتون كم وحسابات وأعداد تتكاثر. وفي مدارسنا ملايين الشبان والأطفال يوكل أمر تنشئتهم لجسم تنخر فيه الارتزاقية وتقلبه كما تشاء أيد نجسة وعقول رباها الرجس، هي أيدي الخبراء الزرق وأفكارهم، وأمثالهم وتلامذتهم الفاسقين.

تعليمنا كم وعدد ورجال الحكم يتحكمون في العدد فيوظفون على قدر ما عندهم من أجور، لكنهم لا يتحكمون في التربية لأنهم لا يتحكمون في نفوسهم. وفي جامعتنا ومدارسنا انفصلت كل صلة بين التعليم، الذي تشهد على تحصيله الامتحانات

شهادة مزورة بتزوير الضمائر، وبين التربية والقيمة الخلقية. بل أصبح تعليمنا يمتاز بالإنحلالية جريا على نمط الشباب الجاهلي المعترض الثائر. وهو تيار لا يحصر لأن لنا به صلة دائمة متجددة يفد علينا زعماؤهُ الزرق أو سفراء الفسق من أبنائنا.

وبما أن المطلب الوحيد في ذهن شبابنا هو التحرر من الظلم بالثورة للتفرغ بعد ذلك إلى تنمية ثورية، فإن من معاني الثقافة وشروطها كسر التقاليد كلها، خاصة الأخلاقية. الثقافة من أجل التنمية مبدأ النظام التعليمي وهدفه، يقصده الحكام خطة كمية يحاولون الترويض عليها بالوعد والوعيد، ويقصده الموظفون الثقافيون رسالة يحملونها جيلا بطوليا عارفا ثوريا بالكلام والفسق الذي ليس لهم منه فطام. أما الموضوع المسخر، الطلبة والتلاميذ، فهم يقصدون عدلا لا يتسع له المستقبل الذي ينتظرهم. لذلك يثورون، ويسير عنفهم في خط الجاهلية، فإن لها الغلبة على العقول. والأغلبية من ضحايا الثقافة الهجينة الماردة شبان أغرار تنفتح فيهم رياح التمرد من ثعابينها الجامعيين فيطربون للحن ويهتفون بالنشيد، إلى يوم يكتشفون أن الزمار كذاب مزور وأن ثوريته تنتهي حين يرضى بمنصب في الجهاز المثلوب.

وعند ذلك يقف الشبان موقف الحيرة وينضمون للحركة العامة التي لا تزال، وهي حركة المطالبة بالرزق. وفي كل سنة

يتكاثر الجمهور المظلوم الواعي بالظلم الواقع عليه ببركة الثقافة المنمية الفاشلة، وذلك أمل الإسلام بعد أن تقر الأنظمة بفشلها لبراليتها أو اشتراكيتها.

هذا الجمهور المحتك بالثقافة ما له من مقومات العمل إلا علم ضئيل ينوء تحت حيرة تتناول الكائن بأجمعه. مثقفونا ادعاءً وأنصاف مثقفينا والمحتكون قوم كسحتهم الأفكار الخليطة، وأقعدتهم عن الرجولة بما بثت فيهم من شك في أنفسهم يغطونه بالتنكر للأجنبي، وهم في الحقيقة معجبون ذائبون في النموذج الغالب. شخصيات منشقة تائهة مع التيار العنفي الهدام. وترتع في الأذهان وعود اشتراكية غامضة، وكلما برهنت انقلابياتنا الاشتراكية عن فشلها ازداد تقرب المثقفين المحرومين من الوعد الشيوعي. فلتلك الشخصيات انشقاقان أحدهما في الرؤية للمستقبل لا يبين لهم على ضوء الحاضر الحالك ولا على ضوء إيديولوجية غير قارة. والانشقاق الثاني مصدره انفصال هذا الرهط عن جسم الأمة انفصالا فكريا وعاطفيا معا، لأن عاطفة الأمة في غضبها على الظلم عاطفة إسلامية لا تدين بالولاء لوعود الإيديولجية اليهودية.

المثقفون الأغراب بيننا نحن الأمة المستضعفة منهم قادتنا الحاكمون ومنهم الخبراء المنظمون بتقليد الزرق، ومنهم المعلمون

والأساتذة الجهابذة. وفي شخصياتهم تمزق وفي عقولهم وهن الدخلاء، وسلوكهم بين المسلمين سلوك منافق إلا من جرؤ على تحدي الإسلام، وكثير ماهم. هذا حالنا اليوم، وغدا يأخذ الأمر رجال الإسلام المؤمنون الربانيون. والرباني رجل كامل متكامل لا ينفصل علمه عن عمله، ولا عقيدته وتقواه عن سلوكه، فهو نموذج قائم بالقسط مرب في كل حالاته معلم بصغار العلم وكباره رفيق يعالج لنا الأمراض النفسية والعلل الثقافية التي تشل حركتنا.

ومن هذه العلل فشل تعليمنا.فمن بلادنا ما تجد فيه حملة الشهادات العليا يتسكعون في الشوارع، ولا مؤهل لهم إلا تلك الورقة، فإن دخلوا لميدان الإنجاز العملي عجزوا وبدا عوارهم. ومن بلادنا ما يفتقر لمتعلمين فإن استورد المتسكعين من جيرانه اكتشف أن نتاج القومية في ميدان الثقافة أشد فشلا من نتاجها في ميدان الحرب، ويدفعه تسرعه لاستقلاله بتعليم قومي ضعيف أو يرتمي في أحضان الخبراء الزرق.

إن التنمية الإنسانية الربانية من جملة وسائلها وأهدافها التنمية الاقتصادية. وهذه الاقتصاديات علم دقيق وتكنولوجيا وضبط، ويتعقد ويغمض علم التنمية الاقتصادية حتى لتخاله سحرا جداوله أرقام ورموزه إحصاآت ومؤهلاته يقظة فكرية منظمة، وإفشاء للتعليم خاصة التعليم التقني.

ولقد تغيرت نظرة الناس إلى التعليم بين العهد الذي كان التعليم فيه وسيلة ثقافية لتهذيب الإنسان وعهد التنمية الاقتصادية الذي يعد التعليم توظيفا للجهود الاجتماعية في مقابل مردود منتج في شخص مهندسين يصنعون المكنات، وأطباء يحافظون على صحة الأجسام، وأساتذتة يكررون العملية ويضاعفونها.

وتوضع في نقطة الانطلاق مشكلة بالنسبة للبلاد المتخلفة، بأي الإنماء يجب أن نبدأ ؟ أنبدأ بحفر الطرق والسدود وما يسمى بالبنية التحتية للاقتصاد ؟ أم نبدأ بتهييء الإنسان وتعليمه؟ وإذا كان لنا مال فلِمَ نكرسه ؟ أننفقه على المدارس والجامعات أم نخصصه لبناء المعامل ونجمعه في رأس المال؟

إنه مشكل يوضع في خط النظر الرأسمالي للاقتصاد المبني على التوظيف الرأسمالي. أما في بلاد الثورة والتعبئة، فإما يكون الأمر كرها وتحكما في المال والجهد، وأما يتطوع الناس بجهدهم ودرهمهم كما يحدث في بلاد الشيوعية التعليمية.

إنه لا بد من بنية تحتية للاقتصاد تسبق التنمية وتمهد لها لكن الأهم هو تغيير العقلية وتطويرها لتتصرف في عملها تصرفا منتجا. ويحصي المحصون أن القدر المتماثل من المال يزيد في إنتاجية المجتمع إن وظف في التعليم أكثر مما يزيد فيه إن أنفق على الطرق والآلات والمصانع.

ونعلم من تجربة بلادنا الإسلامية أن التعليم موكول إلى الموظفين المكونين تكوينا أجنبيا، وكان من المنتظر أن يغيروا عقلية مجموعاتنا الناعسة. لكن الذي يحدث أن العلم المجلوب من بلاد الجاهلية يغير عقلية المعلم والمتعلم في اتجاه واحد هو اتجاه نحو الاستهلاك ومن هنا نحو المطالبة. وإنما يأتينا ذلك من الفشل العام الناتج عن بنيتنا الاجتماعية وفساد الضمائر والاضطراب في المبادئ والاتجاه. فالمثقف لا يحصل على ثقافته إلا بالتكفيء معرضا عن قيم أمته الأخلاقية، وما يحتك به من نشاط الجاهليين وجديتهم سرعان ما يتبخر عنه تأثيره إن انغمس في وسط مجتمعه بعقلية مستعلية محتقرة. فبضعفه العقدي أو بتقززه من الجمهور المتأخر الجوعان الجاهل، وبما يحسه الجمهور ويكرهه من استعلائه وغربته، لا يستطيع المعلم العصري أن يفعل في تغيير عقلية الأمة إلا تغييرا سلبيا. يرونه طاعما كاسيا يفضل عليهم في الرزق والسكن بما لا يقارن، ويشاهدون كسله وعدم جدواه، فما منهم إلا من يتطلع لشهادة مثل شهادته تؤهلهم لكسل أنظف من كسل العامة.

والمال الذي نخصصه للتعليم ينفق على مثل هؤلاء الموظفين، وهم زمرة من المستهلكين غير المنتجين. وبينهم في كثير من بلادنا خبراء أجانب يمثلون بالنسبة إليهم ما يمثلونه هم بالنسبة للأمة. هؤلاء الخبراء يأخذون أجورا أعلى ويعيشون رخاء أوسع. وبذلك

يجتمع على المعلم الموظف عاملا الكسل المتكبر والغبن اللاحق به. وتجرى مطالبته للمساواة مع الأجنبي في خط الوجهة العامة، فكل يطالب بتغيير، وكل يتصور التغيير تصوره الخاص.

ويترقب الناس التنمية الاقتصادية وتأثير هذه الأعداد المتعلمة في مدارسنا على الفقر والجهل والمرض بيننا، فإذا الذي يرونه هي مشاريع البناء العمراني الماثلة من عدم. هذه سدود عظيمة صممها مهندس اشتراكي أو مهندس غيره وأنفق عليها مال أجنبي، وسهرت على تشييدها عقول أجنبية، وذلك طبعا بمساهمة مهندسينا. فنحن طرف مساهم ما لنا مبادرة إلا مبادرة طلب العون وتلقيه. فلذلك لا نستطيع تغيير عقلية أمتنا ما دام ليس لنا بشؤوننا استقلال.

ولكي نغير ما بنا من تخلف اقتصادي يجب أن نغير ما يحكم أنفسنا من مبادئ وما يوجهها من حوافر في إطار تغيير جذري. فليس الأستاذ المعلم ولا الطبيب المعالج ولا المهندس الفني إلا آحادا في مجتمعنا المتفكك. فبتفككنا لا يجدون حافزا ولا مشجعا على العمل. من كان منهم ذا صبر ورجولة قاوم التيار وأنى له وحده ! ومن كان يبلغ به الحنق أشده فهو ثائر محرك للثورة، أو يحمل بضاعته إلى الأرض تأجره عليه وتعرف مكانه. ومن العجب أن تجد بأمريكا المستنزفة لعقول العالم علماء مسلمين يصنعون

الذرة ويرسلون الصواريخ بينما أمتهم تفتقر لمن يصنع لها إبرة حرة غير هجينة. ما لهم ذنب إذ هم آحاد منفصلون عن الأمة بثقافتهم أغراب عنها لا يفهمونها ولا تفهمهم، إنما الذنب للنظام الفاشل، والعقلية الفاشلة التي تسودنا.

ينبغي للبعث الإسلامي أن يقتصد، بما لديه من وسائل مالية وبشرية، اقتصادا منهاجيا، فيعبئ العقول بتعبئة الإرادات المتحررة الهادفة لقوة. فإذا عرف الأستاذ المعلم والطبيب والفني هدف العمل ومقصده وغايته فرض كل منهم سلوكا نافعا في حقله فالمعلم يعي وعيا صافيا دوره الإنساني الجهادي وعيا مختلفا عن وعي الموظف الأجير، فهو يتناول رزقه جزاء عمله لكنه ينصح ويضاعف عمله بالتطوع، ويأخذ على نفسه أن ينفع كل تلميذ وطالب ويصنع منه رجلا. يصبح ذلك عنده رسالة شخصية كأنما يتوقف نجاح الأمة على مجهوده وحده، وكأن كل طالب وتلميذ عنصر أساسي وقيمة وحيدة لا بديل لها. وهكذا يفعل الطبيب بمرضاه وأصحائه والفني بمن يواصلهم من مساعديه ومن الناس أجمعين.

الفلاح في بلادنا يمتنع عن التغيير ولا يحب بديلا عن أسلوب زراعته، ومثله المحترف بالحرف اليدوية أو العقلية. وإن تلعم الفلاح وقرأ كان أقرب أن يغير أسلوبه ويرفع من إنتاجيته، وكذلك المحترف

باليد. أم المثقفون فهم محترفو الفكر، وهم بعقليتهم الطبقية وتقاليدهم الجامعية، بل تقوقعهم الجامعي، أكثر استعصاء على تغيير عملي وإن كانوا دعاة التغيير المنظرين للاشتراكية. إن للجامعة جهازا يتناظر فيه الأقران والأجيال كل بباهي بأوراقه ووراقته، وبحبال الوصل التي نشهده بالجامعة الأم في أوربا وأمريكا. وهم في برجهم العاجي منقطعون عن سواد الأمة بعاداتهم الاستهلاكية الباهضة، وبسلطتهم الحاكمة بأمرها في مصائر الطلبة. هؤلاء الطلبة رعيتهم ينظرون إليها من أعلى وفي ساعات الخطب المنبرية، على أعواد الفتنة لا على أعواد المسجد، والحظي منهم من يلتفت إليه حضرة الأستاذ ويكلمه.

فأول ما يجب أن نغيره نحو تنمية الإنسان واستقلال المسلمين بعقولهم إعادة تربية الجامعة. ويتصور العقل أنه كما يغير سلوك الفلاح بإقرائه، يمكن أن يتغير سلوك المثقف برده إلى صف الفلاحين ليذوق حياتهم وبداوتهم وفقرهم، وليتعلم من صبرهم على العمل وتعاونهم ورقة قلوبهم. من الممكن تصور هذا مجرد تصور، أما وقد أصبح مذهبا تربويا برهن عن نجاحه بشهادة المثقفين «المستهلكين» لفضائل الثورة الثقافية بالصين، فإنه الرفق الذي يحبه المؤمنون.

إننا في غدنا الناجح نحتاج لمثقفينا ونحتفظ بهم ونعتمد عليهم،

ومن استعصى علينا سقناه سوقا رفيقا للعمل المنتج حقا، لأننا نتغذى بحب الشعير فينمي أجسامنا، ويفرز لنا المثقفون اللفظيون أو المثقفون المحترفون غذاء عقليا يسمم نفوسنا.

لهذا فالثقافة الباعثة لن تتحقق ازدهارا في الاقتصاد وقوة وبأسا إلا بالاستقلال الشمولي، بتغيير ما بالنفس. وتتذكر أسبقية السياسة في بر الصين، السياسة بمعنى التضحية وخدمة الجماهير. فلا شأن لنا غدا أو نعلمَ من نحن في خدمته، وما حظنا من المساهمة في الخدمة. وأن الأيدي الرخوة الناعمة لا يعلوها إلا فكر رخو منحل أما الأيدي الخشنة فهي تعلم الفكر رجولة وشدة، وهي تصنع الاقتصاد وتصنع العقول وتغير النفوس. وكفى بالله وليا وكفى بالله شهيدا.

التعليم المتخلف

أزمة التعليم أزمة عالمية، تعرفها البلاد المصنعة على شكل احتجاج الطلبة واعتراضهم، وتعرفها بلادنا المتخلفة على شكل نقص في الأطر وعدم جدوى. وأزمة التعليم هذه أزمة كم وكيف معا عندنا، فمنذ تيقظ الناس للمصالح المترتبة على التعليم وما يعطيه من شهادات أقبلوا على المدارس يبغون شهادات، وفتحت حكوماتنا مدارس بسرعة تحت ضغط الإقبال وبداعي التنمية البشرية لملء الوظائف وتزويد الجهاز بعاملين متعلمين. العدد الكبير من الناس يطلبون التعليم المدرسي في البلاد المتخلفة، ولذلك تطالعنا ظاهرة عامة هي ظاهرة ارتفاع عدد الأطفال في المدارس منذ استقلال البلاد المتخلفة ارتفاعا هائلا. وهكذا ظهرت في هذه البلاد المدرسة القومية يسندها طموح القومية في الاستقلال الثقافي بعد الاستقلال السياسي.

لكن عائقين اثنين يعرقلان سير المدرسة القومية، هما قلة المال والرجال، فأما المال فلا تجد الحكومات القومية محيدا عن رصده للتعليم بكميات تتكاثر بتغير نظرة المجتمعات التقليدية للمدرسة، كانت لهم منها وحشة حتى شاهدوا أن المتخرجين منها لهم القدم والحظوة، فتزاحموا عليها واحتجوا إن أعوزتهم المدرسة. وأما الرجال

فما كانت القومية وعاطفيتها وعصبيتها كافية لتخلق في المعلم حافزا يضاعف عمله ويضاعف إنتاجه مضاعفة كيفية. فابتاعت بالمال وقت الموظفين وما يبتاع المال في هذا المجال إلا قليلا.

وكان للاستقلال السياسي نشوة دعت دولا حديثة العهد بالإدارة والتنظيم، قليلة الخبرة بمنطق الحركة الاجتماعية، لا تميز بين الوسائل والأهداف، أن تشرع في دساتيرها إجبارية التعليم وتعميمه، وترجمته إلى اللغة القومية في بعض الأحيان، أقول ترجمته لأن القوميات المتخلفة لا تطلب عند اللغة القومية ما نطلبه نحن عند لغتنا القرآنية. وبرز للوجود مشروع التعليم والإجبار والترجمة مترنحا بين أهداف غير واضحة ووسائل مبعثرة تتسرب بين الأيدي التي لا خشونة بها والضمائر التي لا أمانة لها. وعرفت كل الشعوب حديثة العهد بالاستقلال السياسي حماسا شديدا للمدرسة يتقدم أو يتأخر حسب درجة الوعي القومي. وتطوع الناس لبناء المدارس، وأزهرت المدن والبوادي حجرا تعليمية أو مدارس كاملة جاهزة. والتطوع القومي يستطيع أن يبني بالحجر بيوتا لكن لا يستطيع حماسه مهما بلغ، ولو كان حماسا قوميا اشتراكيا، أن يبني رجالا يعلمون في المدارس القائمة حيطانا. وكان الموقف السياسي يقتضي تأثيث المدارس الحماسية بأشخاص يمثلون دور المعلم كما اقتضت ضرورة التنظيم المادي المقلد لنماذج المستعمر أن تؤثث

الحجرات بأثاث خشبي تعليمي يستورد بالمال الباهظ أو تستورد الأيدي التي تصنعه، لكيلا يتغير شكل المنضدة وما إليها ولو قيد أنملة، لأن كل ذلك أتقن صنعا ودرس دراسة علمية لا ينبغي لنا إلا أن نجتني ثمرة جهودها سهلة هنية.

فلما تجهزت المدارس بأثاثها البشري وأثاثها التقني الصنمي، دخلت في نظام الجهاز التعليمي دخولا مشهودا. واحتفل الناس بمدارسهم التي أنفقوا عليها المال من قلة والجهد من شغل، وهتفوا بالسيد الذي «دشنها» وساقوا بعد ذلك بنيهم ليصبحوا رعية للجهاز التعليمي، يرقون درجة اجتماعية بمجرد جلوسهم على ذلك الآثاث الغريب عن بيئتهم، ودرجة ثم درجات ببركة الجهاز وبركة المعلم الذي ورد من المدينة حيث جرت أحداث جسام جاءت بالاستقلال، وكان المعلم ممثل العصرية والبطولية القومية، أحد رجالها.

يدرك الفلاح ببديهته أن ما في اليد خير مما في الغد خصوصا إذا كان الغد مجرد وعد لا تدري صدق صاحبه وما بلوته. فدفع ابنه للمدرسة وحرم نفسه وأسرته من يد عاملة تسعى مع الساعين لجمع السنابل ورعي البقرة. وما كان له أن يفعل غير هذا، لأن الحماس الجماعي للمدرسة يعضده سلطان الحاكم الساهر لتكون المدرسة عامرة. وسرعان ما انتقض البناء من قاعدته. لقد كانت

هذه الجدران سميكة، وكان الأثاث المستورد جيدا، لكن العامل البشري هوى ولم يصدق على محك المزاولة اليومية لأمانة عظيمة، فلا الحكم سهر ليحضر المعلم في مدرسته حضورا جسميا، ولا الجهاز استطاع أن يراقب المعلم ومردوديته. وما كان لذينك أن يستطيعا ولهما من شؤونهما الخاصة شاغل.

وضج الناس أول الأمر واحتجوا وانتظروا، ضجوا من ضياع أبنائهم المجندين على أثاث الخشب طول اليوم في انتظار الأثاث الآخر، وضجوا من أخلاقية البطل العصري المحزم في سراويله الأفرنجية. فلقد أعدى القرية وأخزى المهنة. وبعد الضجيج الممل أرخى الحاكم وأرخى الجهاز زمام الإجبارية والتعميم، ونقل كل ذلك إلى ميدان المماحكات السياسية اللفظية. أما الفلاح فاسترجع ابنه ليرعى البقرة ويجمع السنابل، فأبى هذا وجاول والده بعادة تعلمها من مثال معلمه، وأرهقه مطالبة ليكون البيت المسكين الطيني في نظافة حجرة الدرس وشهاقتها وجمال أثاثها. وهكذا كان نتاج المدرسة مشكلة اجتماعية عويصة.

وعلى مدارج السنوات، وبين القرية والمدينة، أفلتت أفواج من الأطفال بصدفة معلم مخلص أو مدير جاد، وصعدت مراقي التعليم. وما من فوج إلا وفي جنبه آثار المرض الجهازي، تستفحل كلما صعد في سلم الدرس، بلقاء أساتذة أشد احتكاكا بالجاهلية،

وأشد تفسخا في الأخلاق. وهكذا صنع جيل التعميم. أما الترجمة إلى اللغة القومية فلا حديث لنا عنها بغير ما يخجل القومية ويفضح عجزها.

وأما الجهاز التعليمي فهو المرآة الصادقة لفساد المجتمعات القومية. أتحدث عن هذا الجهاز وحق لي أن أتحدث، فقد كنت جزءا من أجزائه وعاصرته وخبرته عن كثب، وبلوت عجائبه. فإذا نطقت فما أنطق عن تطلع ثقافي ولا عن رواية بلغتني لكن عن تجربة مباشرة.

الجهاز التعليمي فاسد ببلدنا، ولست ادري ما حاله بدار الإسلام كافة، لكن أحرر وأقرأ ما ينبئني أن الداء الغثائي لا يخص قطرا دون قطر. أعرف من مديري المدارس من يعطي العطلة الدائمة لمعلميه، ويقاسمهم الراتب آخر الشهر، وآخرين يأخذون نصيبا مفروضا من كل معلم لقاء التغاضى أو ضريبة حالة. وأعرف مراقبين تربويين يوظفون بالرشوة، ويعطون رتب الاستحقاق بالرشوة. وأعرف من نجح في مدارس المعلمين ونجح في الامتحان المهني، ورجلاه لم تطا قط مدرسة المعلمين ولا مجلس الامتحان. ولا تسع الأوراق قصة فساد جهازنا التعليمي وهو جزء ضئيل جدا من الداء العياء الذي ينخر جسمنا. وكيف لا يزداد الجهاز فسادا والمحاكم لا تعدل وترتشي، وهكذا دواليك.

إن لنا عادة يومية نسميها مدرسة ونسميها تعليما، ومن يغدو للمدرسة ويروح فلا يغدو إلا بهمة فاترة وعزم خائر، سواء في ذلك الطلبة والمعلمون. فمن المعلمين رجال لهم شهامة ونظافة، يتألمون لما يرون ويسمعون. ومن حسن العبرة أن الطلبة لهم حساسية دقيقة، فمهما بلغ بهم إغراء الفتنة وإغراء النموذج المتفوق بثقافته اللفظية، فهم لا ينسون أبدا المعلم النظيف الصادق، وهم يكنون له أكبر الاحترام، فإذا كان لهذا المعلم قدم في العلم واتساع في الأفق، فإنه كثيرا ما يلد ضمائر شابة تقاوم التيار وتحن لحياة الطهارة.

وهنا بذرة الربانية في شخص المعلم المؤمن وشخص الطالب الحامل للقابليات الطيبة لا يميتها التسمم الإيديولوجي، وتتيقظ غدا للجهاد الإسلامي إن شاء الله.

في عقول مترفة بقيادتها وأخرى تذهب ضحية التزوير تختلط الوسائل بالأهداف، وتصبح الوسائل مقصودة لذاتها، أو تخون فيتهدم البناء كله. إن المدرسة يقصد من بنائها إيواء التعليم، فتعود عند الخلط بناء مشيدا باهظ التكاليف، وعاملا اجتماعيا مهما جدا في بث الحرمان والشعور بالحرمان، فهذا أكثر جوانبها إيجابية في منطق التغيير. والمدرسة مفهومها أن تكون مؤسسة للتربية والتنمية الشمولية للطفل واليافع، فتعود مع الخلط مؤسسة

للترويض والتدجين وتغذية الطموح الفردي المستأثر المستعلي في خدمة الجهاز، وعوض أن تخرج جيلا يخدمون الأمة تخرج أجيالا لها بينها تناسب وتوالد في حلقة مفرغة مدرسية تدور حياة أفرادها حول المدرسة والثقافة الأكاديمية، ولا يصل منها خير للأمة في أسفل. وبمثل هذه المدرسة وما تلده من مجتمع سطحي تنبت عقلية الانقلابية الدائرة المفصولة عن الأمة.

ووسيلة المال تصبح مع الخلط هدفا، ويتبارى الحكام في أيهم ينفق على التعليم أكبر نصيب من ميزانيته. ويقارنون نفقاتهم بنفقات المجتمعات المنظمة، ولا تصح لهم مقارنة. في مجتمع متحضر منظم قوانين لها القداسة، ورجال نشأوا في ظل القانون، وتحت ضغط اجتماعي يقظ ومراقبة للإنتاج وتنافس على المجد والشرف. فأيما مال أنفقوه على التعليم صرفوه بحكمة لهم تليدة، ووضعوه حيث يكون أعظم إنتاجية وأوفر مردودا، ونسَّقوا العمل بحيث لا يتسرب لهم مجهود ولا يضيع. أما في بلاد القوميات المتخلفة، فالمال يتسرب بين الأيدي بأسرع مما تتسرب مياه الطل في صحرائها. وما تناوله منها الإجراء فإنه في عينهم نفحة الغبن وحظ المحروم. ومن يعمل بعقلية المغبون لا يأت إنتاجه إلا شهادة لاحتجاجه، ولا يشارك في العمل إلا خداعا ومماطلة.

إن إحصاآت التعليم ببلدنا غرور وتغرير، ولسنا نرجو تحسنا

لجهاز التعليم ولا رفعا لإنتاجيته بغير التحويل الجذري الذي يقلع البلاء من أصله، فليس التعليم دولة وحده مستقلة، ولا يمكن أن يختص التعليم بوظيفة التغير عن العوامل الشمولية، أعني عوامل العقيدة والتفقيه المنهاجي والقيادة الجهادية.

تقول إحصاآتنا إن كذا وكذا بالمائة من الأطفال يلتحقون بالمدرسة، وليكن 70% مثلا ممن هم في سن الدراسة. فإذا قورنت الأعداد بالأعداد القديمة زمن الاستعمار بدا كأنما ربحنا ربحا عظيما، لكن وراء الأعداد الإحصائية ما يمكن أن يترجم عنه الإحصاء وما لا يمكن. فالإفساد الخلقي والتلحيد وطمس الذاتية آثار كيفية لا يعبر عنه الرقم. وبعد ذلك تبذير في المال والجهد مرده جميعا لعدم كفاية أنظمتنا القومية وعجزها عن تطهير الضمائر والأيدي فمن التبذير ما أشرنا إليه من بناءات شاهقة ينصبونها وسط الفلاحين المساكين سبة لفقرهم وبضاعة حضرية تسلب ألباب أبنائهم فيحتقرون الكوخ والبقرة وثوب الصوف لأنهم احتكوا بريح الحضارة وأثاث الحضارة. وتقول الأرقام إن في بلادنا المتخلفة على تفاوت في مراتبها يتسرب عدد هائل من التلاميذ أو يكررون السنوات الدراسية، وذلك يجعل تكاليف التعليم باهظة جدا.

وكما تنتج معامل الأمم بضائع رخيصة تغزو أسواقنا لأننا

إن بنينا مصنعا أنفقنا عليه بسخاء سلف القوميات هرون الرشيد، فيفشل عن المنافسة وتدور دواليبه تأكل من رأس المال لا مردودية لها بتاتا. كذلك تعليمنا إذا قارنا مردوديته بمثيلاتها في العالم المتقدم. من كل 1000 تلميذ يدخلون المدرسة الابتدائية في أحد أقطارنا يتبخر 904 قبل نهاية السنة السادسة، فلا يكمل الدراسة في ست سنوات إلا 96 من ألف. أما الباقون فمنهم من هجر المدرسة هجرا نهائيا، ومنهم من تعثر وراء الركب يكرر مرة ومرتين وثلاثا. ومن تدبيرنا وحكمتنا أننا نساعد الدولاب فتقرر أجهزتنا التعليمية طرد كل تلميذ كرر مرتين وفشل في الامتحان، كأنما الأطفال هم مصدر الفشل.

وهكذا فإن الدولة في القطر المذكور تنفق نفقات تبلغ 13 سنة تعليمية عن كل ستة أطفال. أو بعبارة أخرى فإن نسبة التوظيف إلى الإنتاج (input/output) في هذا القطر 2,2. وهذه النسبة في بلد يملك عقولا ورجالا ونظاما تهبط إلى 1,003 (اليابان).

والأدهى من هذا أن من يتم تعليمه من الأطفال في ست سنوات يرجع فينغمس في وسط راكد أمي فلا يستطيع أن يحرك هو ساكن ذويه بل يتردى فينقلب أميا بعد سنوات أو شهور، وهذا بعض جهودنا الضائعة، ولنا جهود ما أشبهها بمن يحرث في البحر يتوهم ويوهم الناس أنه يشتغل فيما يفيد.

هذا التعليم المتخلف تعليم أجنبي لا يندمج أبدا في الأمة ولا يحرك ساكنها. إنه تعليم نخبة غريبة عن الأمة، هي نقلت شكله ومحتواه من أرض الجاهلية وجعلته سلما أفقيا شاق المراس سريع التزليق تحديا للطالبين. فينبري الجمهور الغفير يطلبون الشهادة النهائية التي تخولهم أن ينتموا للطبقة المثقفة الحاكمة، فأغلبيتهم الساحقة تجرفهم عوامل التسقيط على كل المستويات ويلفظهم الجهاز، ومن وصل منهم القمة بعد أن بذروا عليه أموال المسلمين، فإنما يصل كسيحا ممسوخا، تؤهله تلك الخصلتان ليعد في تلك النخبة العتيدة.

جهاز التعليم في بلادنا جسم غريب مستورد وآلة لتفقير البلاد ومسخ العباد. وهو في نفس الوقت آلة لصنع الوعي الثوري الجارف، لأنه ظلم مركب، ظلم في المبدإ إذ يحمل إلينا قسرا كفر الجاهلية في صيغ مناهجه وفي شخص معلميه الجاهليين وتلامذتهم، وظلم في المعاملة لأنه وقف على من يملكون الوسائل ليغشوا مدارس خاصة بالمترفين أو يتلقوا دروسا خاصة. الصدفة وحدها والمال تؤهل الأطفال ليتعلموا ويبقى على الهامش عناصر بشرية ذكية في البادية والمدينة يعرض عنها الجهاز. ويزيد الطين بلة أن المدرسة منعزلة بشكلها ومحتواها عن الأمة ومنعزلة أيضا عن الأجهزة الإعلامية، فهذه في شغل لبث الوسوسة السياسية واللهو

المجوني. هي في شغل عن تتبع المطرودين من المدرسة والأميين تعلمهم وترقي مداركهم. وكيف لها أن تفعل ومحركها هو الطارد، وكيف لها أن تفعل والناس لا يرغبون في تعلّم. وقد قال الحديث الشريف : لا علم إلا بتعلّم، ولا حلم إلا بتحلّم. وللعلم حدود، كما للحلم حدود، تلك يصنعوها من حيث يصنعون هذه.

وسائل الإعلام

وسائل الإعلام حبل يصلنا ببعضنا كما يصلنا بالجاهلية وصلا محكما مستمرا. فبالفكر يبدأ التغيير وبه تتوطد العقائد، وهو الحَكَمَةُ المعنوية والآلة الفعالة التي بها يتحارب أرباب المذاهب والاتجهات. الإعلام كلمة يحملها إليك المذياع وصورة ناطقة في التلفاز وصفحة من صفحات الجريدة والمجلة والكتاب. ودنيا الإعلام زاخرة بالأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لها سوق لا تبور، ولها أذواق ترضي كل غرور. إنها جماع الثقافة ومجمع نماذجها.

في المدرسة تعليم منظم تكرهه للنفوس رتابته وتقنياته ومحتواه، أما وسائل الإعلام الحرة فتتلقفها الناس وتتعلم منها. فهي التعليم المستمر وهي التربية بالنسبة لعامة الناس صغيرهم وكبيرهم معا.

كنا نحن الأمة المتدهورة نحو الغثائية لا نعلم من هذه الوسائل إلا الكتاب. وكان للكتاب قداسة وحرمة، لأن الكتاب أولا هو كتاب الله يحمل بين دفتيه الهدى والرشاد. وكان للكتاب قداسة لأن العلماء الربانيين ما كانوا يخطون إلا قرآنا من قرآن الله وحديثا من خبر رسوله. ولما غزتنا الفلسفة الإغريقية بعد الصدر الأول خط كل في كتبه باطلا أو حقا لا يتميز المبطلون في تفعلهم

للصيغ الكهنوتية عن باقي الفلاسفة الجاهليين. وكان لكل جديد لذة وانصرف الناس عن الكتاب والسنة والفروع الشرعية الضرورية إلى الخوض في العقيدة، وبذلك اختلطت على المسلمين منابع الهداية وتكدرت ثقافتنا كدرا حاول تصفيته أمثال الغزالي والإمام الأشعري.

وورثنا مع ما ورثنا هذه الثقافة المخلوطة، وكانت جزءا من فتنتنا لأن علماءنا الربانيين في كل جيل حافظوا على الصفاء الأول، وقاموا على الحق لا يضرهم من خافلهم. أما اليوم فبلوانا في عقولنا أشد البلوى. وقد انضاف إلى الكتاب صحف ومجلات وأصوات وصور يرفعها إلينا الهواء. وإن ما تحمله كل هذه من ثرثرة وعلم لخليط مغر متقن الصنع، يستهوي بالتنوع والانتقال من جد لهزل ومن لون للون. ولا تزال التكنولوجيا الجبارة تحسن الآلة ومضمومنها، فهاك التلفاز الملون، وهاك الأقمار الصناعية التي تصلك ببث المحطات العالمية، وهاك المهارة الفنية عند الصحافيين والمذيعين والمتبرجات والمتبرجين على الشاشات.

السينما مدرسة الفتنة الكبرى، وخلفها ومن حواليها رسل الشيطان إلى عقولنا. وما كانت رسل الشيطان إلا لأن وسائل الإعلام في أيدي شياطين الجاهلية وشياطين الفتنة. يذهب الناس للاسترواح واللهو فتعجبهم الحياة التي تعج بها الأفلام، وهي

حياة أول سماتها الانحلال الدوابي لأنها تدور جميعا على الفسق وهو ما يسمونه ثقافة جنسية وأدبا وتمثيلا. وبالإعجاب بالحياة الحيوانية والتمرس بها تسري عدوى الجاهلية في عمق أعماقنا. ولئن كان الجاهليون أنفسهم يشكون من عنف أحداثهم لأن السينما تعرض عليهم نماذج عنيفة، فإنهم لا يرون الشر إلا في الجرائم عند الأحداث، أما الوباء الخلقي فقد اندمج في السلوك العام، أما نحن فوقع السينما وما يواكبها من الإفرازات «الثقافية» الحضارية وقع نحسه في شموليته المفسدة. فعالم السينما عالم أنيق ثري يقلع من قلب أحداثنا كل محبة وانتماء لعالمهم الفقير في أسماله. وحياة السينما في الأضواء والنوادي والمتبرجات والعصابات الإجرامية تستلب الأحداث من حياتهم الواقعية الكئيبة فيعيشون في الأحلام. وما كان من السينما في نظر الجاهلية ثقافيا اجتماعيا ناقدا، فتعوق صياغته وشكله وغرابة دنياه عن بيئتنا ومشاكله عن مشاكلنا أن يتعلم منه أحداثنا غير المضمون السلبي.

في المدرسة تعليم متلف كئيب، وفي المجلات والسينما إغراء، في المدرسة نظام ورقابة، وفي وسائل الإعلام الحرة عفوية واختيار حر. ولعناوين الصحف المختصة صحف الجرائم والفسق، جاذبية مثلما لإعلانات الأفلام. فلكل هذا الإغراء يقبل أحداثنا بلهفة على التعلم من حيث يتعرضون للمسخ تعرضا اختياريا وهو

مسخ لا يختلف عن مسخ البرامج المدرسية المشحونة بالبطولات الجاهلية، والفلسفة الملحدة في طبيعته، وإن كان هذا يتخذ أسلوبا بيداغوجيا ذلك يعرض بضاعته عرضا صريحا. وبين المسخين تعلم جيل مفتون من بعده أجيال أشد فتنة الوقاحة قبل الغضب الإعتراضي، والفساد الخلقي قبل الفساد الثوري.

عندما يدرس خبراء جهازنا التعليمي، بحضور أساتذتهم الزرق أو فيما بينهم فهم لذلك كفاء، مناهج التعليم ليجعلوها ملائمة للقومية مترجمة أصيلة، يرصفون أسماء فلاسفة الجاهلية ليكون فكرهم قاعدة للتكوين العام، ثم يضيفون إلى اللائحة اسم الغزالي وطه حسين متجاورين ليمكن مقارنة الفلسفة الأم بفلسفتنا القومية ويلعن اسم الغزالي اسم الجاهليين واسم جاره في المنهاج المدرسي لعنا لا تدركه العقول المطموسة. فهذا مساهمتنا القومية في ميدان المدرسة والكتاب. أما في السينما فلخلاعتنا القدح المعلى على خلاعتهم مهما كانت منمقة، ونحن نصدر نساءنا ليرقصن لهم رقصة الداعرات، أجسادا في سوق الرقيق العالمي، وصورا ملونة على أفلامنا القومية الشهيرة.

نلاحظ ونحن على أبواب عهد الحياة الإسلامية أن نظامنا التعليمي ومناهجه ومدارسه رخيصة من حيث إنتاجها باهظة التكاليف عند النفقة. ونلاحظ أن الإمكانات التكنولوجية التي

يتيحها الاكتشاف العلمي تطور التعليم المدرسي في بلاد الجاهلية وتعطيه نجاعة أكثر فتجتمع عندهم الوسائل التقليدية بالوسائل التقنية فترتفع مردودية التعليم المدرسي ارتفاعا عظيما حتى لا يقصُرَ عن كل ألف تلميذ إلا ثلاثة لا يتممون تعليمهم الابتدائي. أما عندنا فضعف المعلم وفساد الإدارة لا تستقيم معهما تقنية ولا ترتفع معها فاعلية، فيضيع من كل ألف طفل أكثر من خمسمائة وخمسين قبل الشهادة الابتدائية. وإن استعنا في مدارسنا بوسائل الإعلام، فهي آلات مستوردة باهظة الأثمان تناقض تناقضا صارخا جهل الذين يستعملونها وفقر الذين تستعمل من أجلهم بعد أن دفع ذووهم ثمنها.

أصبح العالم المتطور يضاعف مجهود البشر بطاقة الآلة، وفي ميدان التعليم يستعملون الوسائل السمعية البصرية للتوضيح وإنشاء حركية جديدة في مجموعة الأطفال والطلبة أكثر تفتحا على الواقع العملي من حركيات الأسلوب التقليدي المتركزة على شخص الأستاذ وكلمته ومبادرته. وفي عالمنا السريع عالم التخصص والحاجة المتواصلة للمخترعين، تتيح الوسائل المكنية في المدرسة اطلاعا أوسع على العالم وعلى تجاريبه، وتخاطب الخيال والذاكرة معا. فبذلك تنبه ملكات الناشئين، وتوجه فكره نحو إدراك للمعلومات شمولي يسرع بهم للنضج أكثر مما تفعل المنهجية

التعليمية التقليدية، والتفكر المنطقي المدرسي.

فيظهر لمن يهتم بتغيير العقلية الراكدة تنوع الاستعمال الممكن لمنتجات العلم في ميدان التعليم. وقد وصل التطور عند الجاهليات أن صاروا يكلون إلى العقول الحاسبة بعض مهمات التعليم. وما ذلك إلا مظهر من مظاهر الأتوماتية العشوائية الباحثة عن طريقها في أرض الفوضى المنظمة. ولعل مشكلة تطويرية مماثلة تعترض طريقنا يوما ما. أما الآن فمعركتنا مع وسائل الإعلام، كيف ندمج في النظام المدرسي منها ما ندمج، وكيف نروض الباقية لخدمة أهدافنا وغاياتنا؟

إن أحوج ما نحتاجه هو النموذج الإسلامي النابض بالحياة، إنه الرمز الذي يشخصه في الحياة اليومية نماذج إنسانية وتعبيرات فنية وقيم ثقافية. فالرمز والنموذج الرباني الجامع لهمة الأمة عند إرداتها للنهضة به هو الرجل الذي ينفصل عن قافلة الفتنة فيقول ربي الله، وينطق بقوة ويريد بقوة من موقف قوة يكتسبه من صدقه ببرهان صدقه. لكن وسيلة التربية والتعليم هي الاتصال الإنساني بين النموذج وموضوع التغيير. ولا يكفي في الاتصال مثول جماعة الربانيين وشهادتهم بالقسط، بل لا بد من هيمنة الرمز والنموذج على حياة الناس اليومية، بحيث لا يسمعون إلا ما يذكرهم بالله والجهاد في سبيله، ولا يرون إلا ما يحرضهم على المحبة والطاعة

والنصيحة. وبحيث تكون لهم حياة نموذجية رائدة في كل الميادين تعلم حياتهم العادية وتوقظها وتدفعها لتحقيق المستحيل.

وهنا يتبين لنا الدور الحاسم الذي يمكن ويجب أن تلعبه وسائل الإعلام. إنها تضاعف الطاقة التربوية للربانيين وتيسر الاتصال وتعممه، وتسرع بالحركة. فخطبة الإمام الخليفة يوم الجمعة بلاغ عام وموعد للقاء يتلقى فيه جند الله العاملون المجاهدون الأمر الجهادي. وإن كان هذا الإمام الخليفة رجلا ربانيا وارثا فإن خطبته ستكون على سورة ومضمون خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت هذه الخطب أحداثا مشهودة، تأخذ الناس ببلاغتها كما تأخذهم بصدق الخطيب. فقد كان صلى الله عليه وسلم يخطب حتى يحمر وجهه ويغضب وينظر كأنما يحذر من عدو يراه ويسمعه، لنسم هذا الصدق وهذا الغضب المروي عنه صلى الله عليه وسلم انفعالا مؤثرا، ولنتدبر أي وسيلة للإقناع وتعبئة الجهود تمثلها الاتصالات الحديثة بالتلفاز والمذياع والتمثيل.

إذا صفا لنا وجه الأيام وأمطرنا الله برحمته، فإن كنا لا نستطيع لتّونا أن نصنع بأنفسنا آلات إعلامية، فلا بأس أن نستوردها بالمال ريثما نتعلم ونصنع. وعندئذ لن نستورد أفلاما مسمومة ولا وسائل سمعية-بصرية مبرمجة معها متاعها الجاهلي، وإنما نشتري الآلة نحن نُعلّمها الإسلام ونودعها نتاج القلوب الطاهرة والعقول المؤمنة.

سنطرد من وسائل إعلامنا شياطين الوسواس الخناس، وسنحملها رسالة القلوب الربانية المحبة لأمتنا وللعالم أجمع. إن لنا ممثلين محنكين تعلموا فن القول وصناعة الإنفعال، فإن تناولت قلوبهم رحمة الهداية ورقة الخشوع وتبتلوا لله حتى صفت مرآتهم، فإن تمثيلهم سيتحول صدقا، وسيبعثون لهذه الأمة الغثائية ميراثها من النموذج الخالد ومستقبلها من الغيب الموعود. وسيكون بصحفنا ومجلاتنا ذكر الله المشيد بقيمة الإنسان بقيمة الإنسان الخالد بدل التهافت السياسي، وسيكون بها المتانة والتقوى بدل الخلاعة والغثاثة.

إن بلاد الله الثورية تنتزع أمتها من فوضى الإعلام الاستراحي، وتجند كل صوت وكل ملكة وكل قدرة لخدمة الهدف الثوري. هناك ثقافة ملتزمة بالخط الثوري، بمقتضاها يعاد النظر في التاريخ ويعاد النظر في الإنسان وعلاقته بالكون وعلاقة بعضه ببعض، وطرق تفكيره وتعبيره، فما تنبس نابسة ولا تتحرك رطبة ويابسة إلا وِفْقَ الخط المفروض. هذا الالتزام الثقافي حصار للعقل والعاطفة تلهبه وسائل الإعلام استبدادا لكيلا يحيد عن الوجهة. وبهذا تصبح وسائل الإعلام وسائل تكوين وتطوير.

لروسيا فنها الواقعي الستاليني الذي يرفض مغامرات الفنانين الفوضويين. وهذا الرفض مظهر دقيق للخلاف الجوهري بين

التصور التقليدي للفن والتصور الثوري المغير. ولا تزال روسيا متخلفة في التعبير الفنى باتهام زبنائها الجاهليين، لكن اتهامهم لا يمنعهم من الإعجاب بالأفلام الرائعة التي أنتجتها الجمالية الواقعية الفنية.

ويزور الزائرون بلاد الثورة الثقافية فيهولهم الانطلاق المتموج الهائل الذي أسفرت عنه حركة الحرس الأحمر، إنها شعارات على كل الجدران، وسيل من الكتابة والتعبير الفني. ويصف الواصفون أفلام الصين الملتزمة وآداب صحافتها وسمت اجتماعاتها الجماهيرية بأنها صبيانية مبنية على الانفعالية البدائية. إن الأدب الملتزم في بلاد الجاهلية الثائرة أدب بدائي في معاييرهم الثقافية المترفة، لكنه أدب رجولة وفاعلية، لذلك فإنهم لا يقاومون تأثيره ولا يفسرون كيف يَأْسُرُهُم التعبير البدائي بقوته وبساطته، لأنهم لا يميزون بين التمثيل الفني الصناعي وبين التمثيل الصادق لحياة منبعثة.

تلك الجاهلية نصبها الله في ثورتها تعليما لنا بضرب الأمثال. وإن لنا لآدابا قومية وعقولا وفنانين قوميين لن تحولهم الثورة رجالا، وإنما يبعثهم الإسلام ليشرفوا بالأذان لصلاته على المنارات وبالتكبير والتهليل، وعلى أعواد المسرح والشاشة وفي المذياع والصحف بالموعظة الحسنة والجدل الجميل.

ويذكرنا تقدم وسائل الاتصال والإعلام في عصرنا بتخلف

عقليتنا وقصور فهمنا للإسلام، ولا يزال من علمائنا الأماجد من يكر ويفر يحرم ويحلل بالحجة الغامضة والقريحة الراكضة مع الألفاظ.

ولم ينتظر الإسلام يوم انبعاثه أن تأتي الإشارة من جمود بعض الفقهاء. فإنهم إن كانوا يظنون بأنفسهم الصدق، فخليق بهم أن يضعوا أنفسهم في مظنة الفحولة التي لا تأتي الأمور من أطرافها بل تمسك بها مسكا قويا، يا يحيى خذ الكتاب بقوة. وما عقلية التحريم والتكفير على غير حجة إلا سلاح دفاعي عن مواقع العجز والحيرة.

وسائل الإعلام أداة حركية هائلة سائبة اليوم بين ظهرانينا متروكة لفوضي الإدارة المترفة ومبادرات الابتداع الفني الممسوخ. وإنك لتخجل مما تفرزه اشتراكيتنا القومية في أفلامها وإذاعتها ومجلاتها خجلا فيه مرارة الشعور بفسولة قوميتها وحياء من السقوط الخلقي والعري المعروض وما بين السطور والصور والسرد القصصي من علامات تفسر انهزامنا وضياعنا.

وسائل الإعلام أداة للتربية الشمولية والتعليم المستمر المتكامل، وإن أدمجنا وسائل الإعلام العامة في الجهاز التعليمي المدرسي حتى يصبح في يدنا أداة موحدة للتربية لنحصل على مقاليد العقول والأفئدة. تلك تعلمها الحكم الصائب المميز للجاهلية من

الإسلام، والنظرة الناقدة التي تستخلص الحق من الباطل، والقوة والرجولة من الغثاثة والانحطاط، وهذه نلقنها الإيمان بالنموذج الحي الواصل بين المؤمنين، ونلقنها القرآن حياة مجسمة لا مجرد سرد متغنج.

تطوير التعليم

من حاجات النهضة الإسلامية دمج وسائل الإعلام في الجهاز التعليمي. وهو مطلب تهدف إليه الجاهلية الفوضوية فلا تصل إليه، ولا يمكن تحقيقه في واقع الأمر إلا في سياق مغير. ورثت الجاهلية الجامعية نظاما تعليميا من القرون الأولى الناهضة، من أعلامه روسو وديوي وأقرانهما. وكان لهؤلاء الأعلام باع طويل في تطوير التعليم وتقنيته، وفي معاملة الأطفال ومعاناتهم. وعندما ابتدع العقل اليهودي العبقري علم النفس، جدّ في عالم التربية والتعليم اهتمام بنفسية المعلم والمتعلم، وجدت محاولات لملاءمة الكيانات البشرية المتغيرة بالأهداف التعليمية المتنوعة. ودرس علم النفس التربوي مشاكل نمو الطفل في حلقات عمره، ومشاكل اليفاعة والشباب وحوافز التعلم ودواعيه وعوائقه الخارجية والنفسية.

ولعل أيامنا هذه أكثر الأزمان حيرة أمام انحراف الأحداث وأكثرها اهتماما بتطوير التربية والتعليم. وإن كان الاهتمام بالتطوير منصرفا إلى التعليم أكثر من انصرافه لإصلاح الانحراف. وإذا استثنينا الشيوعية المربية الخبيرة بالصين فلا نكاد نسمع شكوى الجاهلية الأخرى من انحرافها إلا إحصاءً وإصلاحا إداريا رادعا، أما التعليم ومشاكله فيحتل الصف الأول في العناية.

ذلك لاتصال التعليم بالصناعة ورفع مستوى العيش، ولأن العقول المبتدعة المجددة لنوعية البضاعة ضرورية للمجتمع الاستهلاكي وللعقلية المتصارعة في حلبة التوازن النووي.

ينفق على التعليم في بلاد الله ما بين 20 و30 بالمائة من مجموع النفقات العامة. وكأنما يكون ارتفاع النفقات العامة على التعليم معيارا للجهد المبذول لتحسينه وتطويره. وذلك يمشي في نسق مع المنطق الكمي. أما في بلاد التربية المغيرة، فإن الاهتمام بالناشئة لا ينفصل عن الاهتمام الكلي بالإنسان كما لا تنفصل التربية المغيرة للنفوس عن التعليم المغير للعقلية. تلك تنشل العادات السيكولوجية من مربضها، وهذه تنشل العقل من عاداته. وفي بلاد التربية المغيرة، بلاد الإسلام غدا يوم الفرحة إن شاء الله، لن تكون النفقات العامة إلا جزءا من المجهود المبذول لتطوير التعليم وإصلاح الانحراف. إن مع الطاعة تطوعا ومع النفقة المفروضة بذلا زائدا لا حد له إلا مهارتنا في استثمار ما لدينا من خبرة وإرادتنا للمساهمة في الجهاد. إذا ذكرنا بهذا، وفرغنا من الاقتناع بضرورة دمج كل الوسائل لصنع آلة واحدة موحدة للتغيير التربوي التعليمي، فلننظر من ماذا نغير التعليم ونطوره وفي أي اتجاه.

أول ما يجب أن نطوره ونغيره هو علاقة المعلم بالطفل والأستاذ بالطالب. العلاقة الحالية علاقة لها عيبان، أولهما في نفس المعلم

وعقليته التي يؤدي بها وظيفته، إنه موظف مأجور لا يشعر أن له في العملية كلها مسؤولية، إلا المسؤولية الإدارية المتآكلة. والثاني عيب ناشىء عن الأول وهو الجفوة العاطفية بين المعلم والتلميذ. فجو المدرسة جو بارد ثقيل مرهق، وقليل من المعلمين من يحب مهنته ليحب بها الطفل. أو من يحب الطفل ليحب بحبه مهنته. ويعبر الطلبة المهتزون المعارضون عن هذه الجفوة وعن العقلية المأجورة وما يصحبها من فشل بنفورهم من استعلاء الأستاذ وبعنفهم عليه، حتى يرغموه على سلوك إنساني يحترم كرامتهم.

ومن العقلية المأجورة والجمود العاطفي يتركب جمود أكاديمي حاربه طلبة الجاهلية المعترضون. فلما نجحوا عوضوه بعلاقات جديدة بين الأستاذ والطالب، فمن جانبه الخنوع للإرادة الجماعية «الديمقراطية» ومن جانبهم التحلل الخلقي، والتحدي للأخلاق والذوق السليم والأدب العام في قاعة الدرس. وقد نقل طلابنا سلوك زملائهم ونماذجهم الجاهليين، فأساتذتهم أشد خنوعا، ومن تأبى منهم استعدوا عليه بزملائه من الكافرين الزرق، وحاربوه حتى ينقاد للفتنة إذ لم يكن من قادتها. وهكذا يتسابق الأساتذة أيهم أكثر مروقا وأسبق لموبق.

والتغيير الصيني في الثورة الثقافية بدأ بتمرد الطلبة استجابة لنداء الزعيم، وكسر الحماس الطلابي عقلية الجمود الأكاديمي ونفسية

الاستعلاء الطبقي في صفوف المثقفين. بيد أن الوقاحة الفوضوية حل مكانها الانضباط الثوري والآن أخذت تبدو علامات تنذر بأن ذلك الانضباط لم يكن وازعا كافيا لصد الشباب عن أسباب الفوضى.

وغدا في ظل الإسلام لن يكون للطالب ولا للمعلم مكان غير المكان الذي شرعه الله ولا مبادرة غير الجهاد المنضبط في موقف كل واحد من الصف. إن الله عز وجل علمنا في قصة موسى عليه السلام كيف ينبغي للمتعلم أن يتبع معلمه ويصبر معه، وأمرنا أن نعزر الرسول ونوقره ونحبه. وقد كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم معلما، ما بعث إلا لذلك، وكان نموذجا كاملا وأهلا للتوقير والتعزير والمحبة. فمن هذه النموذجية ينزل الوقار وتنزل السكينة على المتعملين والحشمة. فالمعلم المؤمن المجاهد ينبغي أن يكون نموذجا حيا باسطا ذراعي المحبة لمن استرعاه الله من أطفال المسلمين وشبابهم، باسطا وجه الحياء والوقار، وعلم الربانيين ورفقهم. وعلى الجانبين بعد ذلك، بل لهما حقا ورحمة، أن يرتفقا برفق الإسلام فيوقر الصغير الكبير ويرحم الكبير الصغير.

لا بد من تربية المربين وتعليم المعلمين أولا، وعلينا أن نحدث على مترفينا ضغطا ينزلهم من الأبراج العاجية دون أن نخل بالمبادئ الخلقية وسيلة وغاية. إعادة التربية كما مارسها الصينيون ابتكار

عظيم، وعلينا أن نسلك منهاج الرفق لنغير بنية المجتمع الراكد الغثائي بما يشبه موجة البشرى لا موجة الثورة الثقافية، ومن البشرى ما يزفه شديدو القوى ذوو المرة فيعلمون ويربون ولا ينتكس تعليمهم وتربيتهم لفوضى عنيفة.

ثم إن تنظيم مدارسنا وإدارتها وبرامجها بحاجة لتغيير وتطوير. فالعقول الكليلة لا تستطيع تجديدا في أسلوب العمل لعدم ارتباطها بغايات واضحة وأهداف معلومة مخطوطة. فتتخذ الشكليات والتقاليد مكان اللب والمقصود. والمعلم نفسه في هذا التعليم المتخلف شكل وأثاث، مؤهلاته أشكال للامتحانات والملكات محكية عن النموذج المترجم، وينتظر منه الجهاز التعليمي أن يحكي صورة رجل بلباسه ويوبخه الرئيس إن دخل المدرسة بلا شناق في عنقه أو أخل بطقس من الطقوس البيداغوجية العتيقة. لأن الإخلال بها وطرح الشناق أخطر الأخطار في نظر الجهاز، أما الفاعلية والإنتاج، وأما إفادة التلاميذ فحسابها عند الإحصاآت الناطقة الفصيحة.

في دنيا العقلية المأجورة والمحسوبية والشكل الفارغ ينتخب للإشراف على المدارس وإدارتها من لهم العتاقة والبلى لا من لهم الكفاية والبلاء. ومتى أحرز الموظف التعليمي علة منصب إداري إشرافيٍّ أصبح له حق في احتلال مركزه كما يحتل الجيش الغازي

أرض العدو. فله أن يعمل بجد فيترسب جده في الهزل العام والعبث العام إلى أن يُعيبي بخذلان أهل المهنة، وله إن كان من نوع آخر أن يعيث في الأرض فسادا على غرار طبقته من المترفين.

ويعلمنا التنظيم الجاهلي، حتى الفوضوي منه، أن المستهلك للخدمات أولى بانتخاب من يخدمه. وتعلمنا الشيوعية المربية أسبقية «السياسة» بمعنى التضحية والخدمة. لذلك ففي ظل الإسلام ينبغي أن يكون للوظيفة معنى غير الذي تعرفه الجاهلية. فالموظف حمل على الأمة ضربة لازب إلى أن ترتشي أعضاؤه هرما، وتبلى همته وذمته، والخادم الأجير ينبغي أن يعطي حساب عمله وبرهان صلاحيته في كل يوم يشهد به من يخدمهم.

هؤلاء المديرون الموظفون، ويصحف أهل العربية القومية المريضة فيسمونهم «مدراء» وذلك أشبه بانتمائهم لطبقة السفراء والأمراء، أصحاب إقطاع يجب أن يعاد النظر في ترشيحهم للرئاسة وفي كفايتهم وخدمتهم، في إطار مراجعة عامة للنظام الإداري الفاسد. وليس عند الجاهلية درس نستفيده، فهي تشكو من عدم جدوى أجهزتها الإدارية مثلما نشكو، وإن كان الفساد يبدو أكثر وضوحا بجسمنا الهزيل.

مناهج التعليم المترجمة تخدم قضية التغريب والتكفير مع قصورها عن تحقيق الأهداف التعليمة. وهي مناهج ثقيلة عشوائية وضعها

الواضعون من خبرائنا الداجنين في خط النظر الكمي، فكأنما يتوقف نجاح تعليمنا على كثرة وتنوع المواد التي ندرسها، أو كأنما يقصد من ذلك تعجيز المتعلمين وإرهاقهم. وفي كثير من الحالات يعجز المعلم نفسه عن فهم المنهاج المدرسي فكيف بالتلاميذ.

إن ميدان التنظيم المدرسي والتقنية التعليمية ككل ميادين التكنولوجية مجال فسيح لجهادنا البنائي. علينا أن نهجم بشجاعة على المهمات العويصة فلا يثبطنا وهم امتناع التكنولوجيا عنا. وحينئذ يمكننا أن نتعلم كيف نبتكر لأنفسنا نظاما وتعليما بدراسة نجاح الجاهليات وفشلها. لا يحد ابتكارنا عائق إن استقلت إرداتنا وعقولنا وجعلنا الاقتصاد إلى الغاية مبدأنا. فللجاهلية المؤثثة تجاريب غنية في حقل التعليم لن ننقلها ونترجمها لأن وسائلها من آلات ومتاع ينتجونه ولا ننتجه، ولكن التعليم الآلي المبرمج يتناول الذاكرة والفكر ولا يخاطب الإرادة، ولا يوقظ الفكر الناقد. فلا نكون أتباعا لآليتهم ولا لعقلنتهم علاقات المدرسة إلى حد يفقد معه الناشئة معاني الصلة الإنسانية والتراحم والحشمة.

يرفع الصينيون شعارات الاعتماد على النفس وشعارات التطوع لاقتحام معاقل التكنولوجيا. ولنحن أحق بشجاعة ورجولة، فلذلك ننتزع أنفسنا من سلطان الثقافة الأجنبية ونبتكر جهادا تعليميا مربيا يمارس معه المعلم أبوته ويحنو على أبنائه، ويحمل

إليهم في المدرسة ما تحمله إليهم وسائل الإعلام غدوا وعشيا من بشائر الحياة وإشارات العمل والجد والمثابرة.

المعلم ضحية لدولاب الفتنة، والمدير وكل الجهاز التعليمي، كما نحن ضحايا رئيسنا ومرؤوسنا. هكذا ننظر إلى المستقبل في خط نظر التوبة العامة التي ترفع المظالم وتجب ما عداها بتجديد النية والعقد والمبايعة.

المعلم، ورجل التعليم بصفة عامة، لا يتصل بالحياة إلا اتصالا مهنيا محدودا، وأحيانا يسكن بادية هو فيها غريب، دفع إليها وهو يتأفف وسكنها وهو يتقزز من خشونة العيش وجفاء الناس. الناس لا يحبونه لسوأة حملها إليهم، ولا يثقون به إلا مثلما يثقون بأمثاله مراوغة ومداراة. إنه لا صلة تربط المعلم ببيئته، وهو لا يحس بانتمائه للمستضعفين من الفلاحين. فإذا تغيرت العقلية العامة، وأصبح سكن البادية وخشونتها ورجولة المستضعفين وصبرهم وهو سبيل الخلاص العام، لزم أن يتعلم رجال التعليم كيف ينزلون إلى مستوى أخوتهم، وكيف يعملون باليد وكيف يحملون على الظهر سابقين ليضربوا المثل، ويمحوا عار الفتنة الإقطاعية التي لهم فيها أصبع أو ظفر بوجه من الوجوه.

هذا تكوينهم العام، أما التكوين العقلي فتتيح لنا التقنية التلفازية مضاعفة الخبرة النادرة عندنا. إن لنا أجهزة ابتعناها

للمتعة واللهو، فلتنطق هذه الأجهزة بالحكمة حاملة لمعلمينا في مدارسهم مع تلامذتهم ومع الناس إرشادا عاما. ولتحمل إليهم خاصة تعليما مهنيا ودروسا يسمعونها ويرونها مع التلاميذ ليحيكوا حولها نشاطهم.

كان تكوين المعلمين والتلاميذ عملية حرفية تربي كل فرد على حدة داخل مجموعة من المتعلمين. فيكون لكل منهم صلته بالأستاذ وخط سيره على قدر ذكائه ودوافعه. فلما استعملوا التلفاز أصبح الأمر كأنه إنتاج عمومي للثقافة وتكوين مجموعي. في العالم اليوم محاولات عديدة متنوعة للإستفادة من التلفزة في ميدان التعليم دون التعرض لأخطار تعليم آلي لا شخصي. ولا يزالون يبحثون عن وسيلة لتحقيق هدفين متناقضين كانت المدرسة بلا تلفاز تحققهما بحرفيتها، هما التعميم ليأخذ كل طفل نصيبه من التعليم، ثم التربية الفردية والعناية بكل شخصية على حدة.

ويحصي المحصون أن تعميم التلفزة في مدارس جهاز تعليمي ما يكلف زيادة في النفقات التعليمية تقارب سبعة بالمائة بين ما يبلغ إنتاجها زيادة في التحصيل تقارب خمسين بالمائة. بيد أن العقبة في وجه تطوير التعليم تكمن في المعلمين أنفسهم، لأنهم يقاومون كل جديد يغير ما ألفوه، كما يقاوم المشرفون على الجهاز هذا التجديد بنفس العقلية. إن التجديد يريد تجددا في

أسلوب التفكير وأسلوب العمل، ولكل طريقة جديدة في التعليم تقنية يكسل المعلمون عن تعلمها ويخاف المشرفون منافسة خبير يحل مكانهم ليسهر على تطبيقها. وهكذا نرجع إلى ضرورة النظر في كل مشكلة من مشاكلنا في سياق تغيير عام يجرف الغثاء بعد اليأس من علاجه، ويبعث حياتا في جسم الأمة وعافية.

لقادتنا اليوم مشاريع «عظيمة» لإصلاح التعليم كما لهم مشاريع إصلاحية أخرى في مثل العظمة وكل ذلك آئل إلى فشل ما دمنا نفكر بعقلية ذرية لا تصل الأسباب بالمسببات في حركية البنية العامة. وما لهذه الأمة إلا مشروع واحد منقذ هو مشروع الحرية والتحرر من التقليد وسلطان العادة ثم اقتحام عقبة الابتكار والتجديد الشاملين العامين.

التعليم المستمر

يتقدم نمط الحياة الاجتماعية في عصرنا ويتطور تطورا سريعا. والتعليم لا يساير هذه السرعة، بل يتخلف ويحاول اللحاق مستعيرا أجهزة الكشوف العلمية، فإن أرضى حاجة الاقتصاد بالجهد المتواصل، فإنه لا يرضي حاجة الفرد ولا حاجة الجماعة. هناك في العالم تعليمان أحدهما مدرسي متخلف رغم الإصلاحات المتواصلة، والآخر حر سهل المتناول مغر وإن كان غير وظيفي ولا منتج وهو التعليم الإعلامي.

مشاكل الثقافة والتعلم الثقافي والمهني فرضت على ناس الجاهلية أن يبحثوا عن تعليم مستمر. وقد رأينا نموذج الثورة الثقافية المستمرة وكتيبها الأحمر وفاعلية أسبقية السياسة في بلاد الصين أرض العلم والتعليم. وهنا نستعرض ما عند الجاهلية المؤثثة لتتم لنا الاستفادة من عطاء الله غير المحظور.

في بلاد الثورة الصناعية وفي مقدمتها أرض «ما بعد الصناعة» تتقدم التقنيات وتتعقد استعمالاتها فتزداد حاجة الاقتصاد إلى تعليم العمال وتحسين تعليمهم وتطويره. وبتقدم التقنيات يتوجب على العامل أن يتكيف بحركية التغيير المخترع وما يتبعه من تغير في التنظيم الاجتماعي. وفي المجتمعات السكونية الراكدة يتعلم المرء

صناعة ما فيكسب تجربة وخبرة تغنيه مدى حياته عن تجديد ما تعلمه لأن التقنية لا تتغير، أما في عالمنا المتحرك فإن ضرورة التعليم المستمر تواكب ضرورة التجديد المستمر في أساليب الانتاج، وهذه تخدم حاجة الإنسان الجاهلي الاستهلاكي لتجديد أثاثه.

في جماعة الإسلام وحركية التطور نحو إسلام القوة والتقلل وحمل الرسالة لتكون حاجتنا للتجدد والابتكار أشد من حاجتهم، لكن في اتجاه مغاير، ونحو غاية لا تدخل لهم في حسبان. لنضع هذا نصب عيننا حتى نعلم موضع العبرة في مراقبتنا لتعليمهم المستمر، غير واهمين نحسب الشحم فيمن شحمه ورم.

في أرض ما بعد الصناعة أرض أمريكا بلاد الأثاث والرئي تغير في طبيعة المنتوجات وأشكالها، ففي سنة 1968 كان أربعون بالمائة من مجموع البضائع المعروضة في الأسواق قد اخترع منذ أقل من خمس عشرة سنة. والنسبة في تزايد سريع. وكل هذه البضائع أو جلها يصنع اليوم في معامل تتحكم السبرانية في إنتاجها كما تتحكم في حساباتها بعضا أو كلا. وفي موازاة هذا التغيير تحول سريع في نفس الجاهلي المؤثث، إنه قلق على مستقبله المهدد بالأوتوماتية السبرانية وبالقلق الاجتماعي وصراع الأجيال والأجناس وعنف الشارع والصواريخ. أخلاقيته تتغير وتتوالى عليها «مودات» السلوك من خنافسية إلى هبية، تنوعات دوابية هي

لنا من آيات الله الآذنة بخراب الجاهلية وحضارتها. وفي ميدان الجماليات تغير سريع مماثل بل إن عقلية أولئك باتت خاضعة للتيار المتماوج تعطي للتجديد قيمة لمجرد أنه تجديد، فكل من لطخ القماش بالألوان تلطيخا أشد نكرا من سابقه رسام، وكل من جن في ضرب القيثارة جنونا أعمق من صاحبه عبقري. وهكذا غليان التجديد، ومصدر الحاجة إلى التعليم المستمر، لكيلا يتخلف الإنسان عن آلاته في هذه المسابقة المجنونة.

لكل تجديد في بلاد الجدة وقعه على الحياة اليومية، فلا بد لكل إنسان أن يساير حركة الاختراع ليغير على ضوئها أسلوب حياته داخل الأسرة وفي ميدان العمل. وكان ذلك خاصا فيما مضى بالمختصين، أما الآن فكل من لم يتكيف بسرعة مع الجديد ينطرح بعيدا من وراء المجتمع المتحرك متخلفا عن الركب وعرضة للأحداث المتسارعة لا يعرف كيف يتقيها.

وإذا أضفنا إلى الاعتبارات السابقة أن بلاد الأثاث المتجدد يحكمها طاغوت الإعلام المتضارب المصارع في الفوضى المنظمة، وإن كل ذي فكرة أو مذهب أو قضية من القضايا تحميه الديمقراطية العتيدة وتعطيه ليقول ما يريد بحرية في الصحف والتلفزة، كما تحمي كل ذي بضاعة حتى يعرض بضاعته سواء كانت البضاعة أثاثا يرضي حاجة الجدة، أو أخلاقية من أخلاقيات مسارح العُرْي

مثلا. وأجهزة الإعلام في الجاهلية المتفسخة أدوات استرواح كما هي في بلادنا، مماثلة الترجمة بنسختها، أو ترجمة منقحة تضع النقط على الحروف مشيرة لمكان الفحش والرذيلة، ليفهمها المتخلفون عن موكب التجديد الانحطاطي.

ولا تستطيع مجتمعات الجاهلية المنحطة أن تصوغ من أجهزة إعلامها آلة موحدة للتربية لأن هذه الديمقراطية كالتنين لها رؤوس متعددة لا تتعايش ولا تتصالح إلا على مبدإ «اترك الناس يعملون» لا تستطيع ذلك مثلما تفعل جاهلية الثقافة الملتزمة وجاهلية الشيوعية المربية الأكثر التزاما. لكن هنالك عقلانية منظمة وفاعلية وإنتاجا عرفت بها أمريكا، وهنالك تطلعات وتقنيات تعليمية تحاول إلحاق الرجال والنساء بمستوى الثقافة وإعطائهم مواقف أمام تطورات السياسة والفن وفرص الاسترواح والعطلة. هي تقنيات تخدمها وسائل بشرية ليس لدينا منها إلا القليل ووسائل مادية نحن إليها فقراء لفقرنا من الرجال.

وسائل الإعلام الأمريكية تعطي عن العالم صورة مبرقشة حائرة مضطربة، وتفرض نفسها على الفرد فلا يستطيع مقاومة، ففي الشارع أضواء الإشهار بالليل والنهار، وفي البيت قعيدة متربصة هي زجاجة التلفاز. ومع الليل كل ذلك وحواليه صخب وتعب. وفي هذا الجو تتفجر إرادة الفرد لتحسين مستواه بالمجهود الفردي،

إلا أن عقلانية صنعت الصخب تملك من الحكمة أيضا ما تصنع به وسيلة تعليمية اجتماعية.

وقد درس أصحاب التعليم المستمر مشاكل تعليم الكبار تعليما يصلحهم بمستوى الخبرات المتجددة في عالم الثقافة والصناعة والحياة الاجتماعية، فوضعوا أسئلة ثلاثة[1] تلخص اهتماماتهم،

أولا : كيف يحدث اتصال مستمر وحقيقي ومتبادل بين رجال الفكر والابتكار والقيادة وبين الجماهير ؟ وهذا شرط أساسي في إفشاء العلم والثقافة.

ثانيا : كيف يوازن بين نفقات تعليم الكبار وبين نفقات الإعلام العامة؟ وقد حسبوا أن نفقات الإشهار بأمريكا تساوي نفقات التعليم الابتدائي والثانوي مجموعة.

ثالثا : كيف يوازن في عالم العطلة والاسترواح بين وقت التكوين الجاد ووقت اللهو والراحة.

ندع الجاهلية المؤثثة تبحث عن مخرج لها من صخبها وتعاني تعليمها في حل موازناتها، ولنتعلم نحن كيف يقف الإنسان أبدا عاجزا أمام العقبة، فلا هو يستطيع اقتحامها لجهله وجهالته، ولا هو يستطيع تجنبها لأنها في نفسه لا في العالم الخارجي. والعقبة هي هي لا ينال من طبيعتها ولا من شموخها على الإرادة غير

1. Le Monde Diplomatique , Mai 1970

المؤمنة التقدم الحضاري ولا الثقافة الفاتحة لأجواء السماء.

يضع السؤال الأول من أسئلة الخبراء مشكلة الحواجز بين الناس وعسر الاتصال بينهم. يرى الخبراء الأمريكان المشكل نظرة تجريبية جزئية تلائم بيداغوجية وليم جيمس وديوي. إنهم يعتبرون العقدة في ابتعاد رجال الفكر والإبداع عن الجماهير، والحل في الاتصال الفكري ليطلع الناس على ما يبدعه الفنان والكاتب فيمكنهم أن يستهلكوا مخترعاته ويتمتعوا برفاهيتها ويتزودوا بزوائد خبرته. فالاختلاف بين أصناف الناس اختلاف كمي يدخل في نطاق التفاوت العقلي، والحلول المقترحة حلول استهلاكية لا تروم تغيير الإنسان، بل تريد تكييفه لكيلا تحول مخترعاته وما فرضته من ضغط على الوقت بين الثقافة ومستهلكيها. وثَمتَ بيداغوجية مغيرة، كتلك التي في فكر روسو ولينين وماو، تصنف الناس تصنيفا طبقيا لتعبر عن المشكل ذاته تعبيرا يرمي إلى التغيير. فالأول يقول في المجتمع الرفاهي : نعلم الكبار لكي يلتحقوا بركب الاختراع ويكسبوا كل خبرة جديدة، وذلك بتيسير اتصالهم الفكري مع أهل الابتكار. وتقول الثانية : نغير البنية الاجتماعية لنمحو الطبقية بين الناس وذلك بثورة الصعاليك على المستغلين، نعلمهم الثورة ومبادئها حتى يثوروا.

وسواء ثورية التعليم المستمر الشيوعي والتعليم المستمر القمعي

الرفاهي في جهل عقدة العقد في الإنسان. ألا وهي الأنانية وما يتبعها من علاقات مجتمعية متفاقمة أبدا مادام الإنسان يعي نفسه وسط المجتمع قطعة حيوانية تدب إلى الموت وتنتهي عنده.

لكي يتعلم الإنسان تعلما مستمرا لا يكفي أن نتيح له فرص التعلم، بل يجب أن نخلق فيه حافزا قويا يحركه من داخل. وفي المجتمعات الراكدة يتجمد الناس على جهلهم فلا يحبون أن يتعلموا لأنهم لا يطيقون أن يقروا بجهلهم وحاجتهم للتعلم . تمنعهم الأنانية من ذلك كما تمنع من لهم الخبرة والدراية من إشراك إخوانهم في عملهم. وإن الفقه المنهاجي يدلنا على أن اقتحام العقبة يبدأ بتحطيم حاجز الاستكبار والتفرد الأناني. وأول خصاله الصحبة تفرض في المريد أن يجلس مجلس المتعلم برغبة في التعلم قوية ومستمرة.

في الصين كان الفلاح أشد الناس جمودا، إلى أن نشأ في نفسه حافز تعلم «الفلسفة» «والسياسية»، وحطم أنانية المستكبرين كما حطم أنانية محتكري التكنولوجيا. وفي ظل الإسلام ينزل كل عن أنانيته طوعا أو كرها ليقتسم مع الجماعة خبرته ويساهم في التغيير متعلما من الأيدي المتواضعة خادما لها. وإن كان أصحاب الأثاث يفشون الثقافة الغاوية والعلم الطاغوت بوسائل لا نملكها، فنحن بسيرنا في صف المستضعفين سنضاعف بالمحبة علمنا القليل

ووسائلنا الضئيلة وسنخلق وسنجدد ثقافة ترفعنا ولا تنحط بنا. يجب علينا يومئذ أن ننظر إلى الغاية الإحسانية أبدا لكيلا ينحرف علمنا وثقافتنا إلى الأهداف التكاثرية الاستهلاكية، ولكي يستمر تعليمنا ويتعمم عبر الحواجز الاستكبارية التي خلقها الظلم والنكاد البشري. إن لنا عقولا خامة مهجورة لفقر يدها، فيستبد المترفون بالمال لينفقوه على أبنائهم ويشتروا لهم به علما ومكانة اجتماعية، حتى ولو كانوا أغبياء، ويضيع العلم بضياع أولاد الفقراء ..وإن العلم المشترى لا يحيي أمة أبدا بل يحييها علم مبذول بعناية لمتعلم راغب بقوة.

وهنا نلتقي بالسؤال الثاني من أسئلة الخبراء، وهو الذي يضع مشكل التوازن بين نفقات التعليم ونفقات البذخ. ويرجع بنا هذا لمنهاج اقتحام العقبة في شكلها العادي وطبيعة علاقتنا بالمال والمتاع. إنها عقبة الشح والالتفات في العادة القاعدة بالإنسان في أنانية شهوته. ونتعلم من جاهلية الجاهليات بلاد الاستهلاك، أن الإنسان عندما تغريه حياة النعيم يضحي في سبيلها بذاتيته، فلا نهاية ترجى لعبوديته للشهوة والحاجة المتجددة والآلة التي تسيرها بسير الدواليب والمسارب الإلكترونية.

خصلة الصدق خصلة عملية تنبيء عن حقيقة الإنسان بصدق، إن المؤمن الصادق إنسان أصيل حر، وإنسان الاستهلاك

كاذب تنبيء عنه كميات البضاعة ونوعيتها ولا ينبئ هو عن شيء. وفي جاهلية الاستهلاك تتساوى نفقات الإشهار ونفقات التعليم اليوم، ومنطق الحياة الاستهلاكية يفرض عليها أن تفوق نفقات الإشهار النفقات التعليمية بإطراد لغلبة البضاعة وأسبقيتها في كل الاعتبارات.

والجواب الإسلامي عن مشكل استلاب الإنسان وذوبانه في البضاعة ومغرياتها في خصلتي البذل والاقتصاد، وبينهما العلم والتعلم والحلم والتحلم. والجماعة المؤمنة جماعة نصيحة ومحبة وطاعة، إنها ركب إيماني وموكب إحساني سائر إلى غاية يؤمن بها، ويعرفها ببلائه للغيب ورجائه لموعود الله وانتظاره. فما في يدها من مال تعتبره قياما لها وقيما فلا تبذره، ولكي تبني أمة الإسلام ترصده لما يعطي القوة وتتعلم الحلم بالتحلم لتصبر على الإغراء وتقاومه. ومع ما في يدنا من وسائل مهما كانت قليلة يكتمل لنا سبب الاستمرار في التعليم بصدق المعلم والمتعلم، ذاك لا يكذب في بذل وقته وعنايته، وهذا لا يكذب في رغبته ومثابرته. وإن هي إلا جولة أو جولتان حتى تنشأ حركية مغيرة يزداد معها الصادقون صدقا ويهون النقص الذي نعانيه في وسائلنا.

أما السؤال الثالث من أسئلة الخباء فيعبر عن جهل الجاهلية وغفلتها عن مصيرها. إن هذه الجاهلية فرغت منذ ردتها عن

دينها النصراني من اعتبار أي مصير للإنسان خارج عن مصيره الأرضي الترابي، كما رسخت عقيدته الفلسفة الوضعية وأكدته الجدلية المادية القابعة في ركن الجاهلية الآخر. إنهم لا يرجون لله وقارا، ولا يعيشون إلا للهو والاسترواح، مشكلتهم أن يوازنوا بين وقت اللهو ووقت التكوين، فوقت يزيدهم انغماسا في دوابيتهم من حيث كونهم حيوانات خلقت للتراب فهي تنهب اللذات قبل فوات الأوان لا تذكر الله ولا تعرفه. ووقت يتكونون فيه فيزدادون استلابا ومسخا من حيث تأهلهم ليجروا عربة الحضارة ويندرجوا بين عجلاتها كما يجر حمار الرحى ويندرج في دائرة سيره مغمض العينين أعمى.

إن هذا العلم الذي كسبه المترفون منا مظلمة من المظالم تطلب استردادها لتكون حقا للأمة. وفداء كل متعلم أن يفشي علمه ويبذله حقا مستردا أن أبى أن يبذله تطوعا مشكورا. يفتدي نفسه كما افتدى أسراء بدر أنفسهم بتعليم صبية المسلمين. وإن هذا العلم المحتكر القليل ببلادنا ذخيرة وكنز تطلب أن تزكى ويعطي ركازها لعامة الطالبين. وبذلك يكون لنا تعليم مستمر جماعي صادق مع الصادقين.

تعليم للتغيير

البيداغوجية المغيرة، كما نراها تطبق في الصين ونقرأها عند لينين بين سطور الإيديولوجية، بيداغوجية جدلية تمسك بالإنسان من عاطفته لتستدعي استجابة العقل لحافز التغيير. وعند الرأسماليين اليوم حافز خارجي يفرض عليهم البحث عن بيداغوجية مغيرة تحت ضغط الفورة الطلابية. لما ثار الطلبة ثورتهم على التقليد الأكاديمي ولفحت نارهم جهاز الحكم، أخذ المفكرون والسياسيون يلتمسون طريقا إلى التغيير ليدرءوا عن أنفسهم بأس حرسهم الأحمر الذي يتعبد البطل الصيني ومثاليته الشيوعية، أو قل شيوعيته المثالية المربية.

واكتشفوا أن ظروف مجتمعاتهم كانت مناسبة للثورة، وأن التحجر الأكاديمي الذي فضحته الثورة الثقافية ونجاحها في إعادة تربية الأساتذة، إنما يعكس تحجرا اجتماعيا يحمل في أحشائه جنين الثورة لا ينفس من دفعها إلا العنف المنظم في إضرابات المضربين وانفجار الغضب الطلابي.

الجاهلية المؤثثة في أوربا وأمريكا تحملت تغييرا وقع عليها من جراء تقدمها العلمي. وحركية التقدم العلمي حركية تسارع تاريخي لاهث، تفوت الآلة فيه الإنسان وتسبقه، فتحدث له أزمة في

التعليم بما أحدثت من أزمات في كيانه وكل نواحي حياته. تحملت الجاهلية ثورات في التكنولوجيا والنظام الاجتماعي والاقتصادي والسكاني، وتلقت معها حاجات متزايدة للمهارات والخبرات المسيرة. فسألت النظام التعليمي أن يتحرك ليجيب الحاجة ويحقق المطلب. وكان الجهاز التعليمي أثقل من أن يستجيب لما ورثه من مجد أكاديمي وعادات ثقيلة تدور حول أنانية الأستاذية.

نعلم إن الجاهلية لا تهتدي لتوازن أبدا، فهي قلقة تتقلب، ولن نضيع وقتنا بحثا عن مصير الجاهلية، الأنانية منها والسائرة إلى الثأثيت. أهي تقنع غدا بإصلاحية تتفادى بها الثورة، أم تخفق محاولات الإصلاح ومحاولات الثورة المتجددة في كل جيل كما يفهما ماو؟. المهم لدينا أن نؤكد أن تغيير التعليم ونظامه ما هو بالعامل الكافي لتغيير طبيعة الإنسان في نفسه ولا في علاقته بالناس والعالم.

والتعليم ببلاد الجاهلية المؤثثة يحصى نتاجه إحصاء كميا، لأن الجهد المطلوب للتغيير يتوجه إلى عالم الكم وهو عالم الأفكار وما تفرزه من مهارات ومخترعات. وهو تعليم يغير سطح الأشياء وسطح الإنسان بتغيير عقليته في إطار عقلانية رأسمالية. والتعليم الصيني مفعم بالعاطفة الثورية داخل في سياقها متأجج بوهجها، فيحدث تغييرا كيفيا في الإنسان بذلك.

وطِلبتنا، أمة الإسلام، أن نؤسس تعليما يعطينا العقلانية الإيمانية، أي طاقة العقل ودرايته الخادمتين للغاية الإيمانية الإحسانية، ويساهم في تغيير أنفسنا تغييرا كيفيا ليس كتغيير الشيوعية المربية، لأن هذه الشيوعية مهما تألقت وتفوقت على غريمتها لا تنفك عن كونها جاهلية دوابية، ولأن إنسيتها المثالية لا تختلف عن إنسية الجاهلية الأخرى الوضعية إلا اختلافا شكليا، أما المحتوى فهو الكفر والإلحاد والجهل المطبق بقيمة الإنسان. ولعل من إنسية الجاهلية المؤثثة ما ينتسب إلى النصرانية فيشم منه رائحة السماء وذاك من بقايا دين النصرانية المضطرب في مشاكله الذي أرغم أن يتعلم من الأحداث ويلتمس طريقا إلى التغيير.

إن آلات الحضارة الأثاثية وبضائعها حملت الجاهلية ثورات وهي تحملنا مثل ذلك وإن كان ما لدينا من آلات بنات كفر غريبة عنا، لا تربطنا بها إلا علاقات التلهف والنهم المستهلك المستحوذ علينا. وإن تعليمهم الآن تعليم يغير العقلانية لتساير تغير نتاجها، أما حاجتنا نحن فهي تعليم يغير عقلنا لنستطيع صنع حضارة على قدر الإنسان المؤمن بربه وبمصيره إليه.

وهنا تبدو لنا ضرورة الابتكار والسير على هدي الإيمان لئلا نقع في خط الجاهلية، ولكي نقتحم العقبة على جادة الجهاد. العلم والتعلم في نطاق الحضارة الإنسية العقلانية هو ما يعطيك

فكرا ناقدا يبني حكمه على الواقع، ومهارة تمهد لك السيطرة على الطبيعة وتضع رهن إشارتك أرزاق الأرض. وليس شيء ينقصنا مثلما ينقصنا العقل النقدي العلمي. فلذلك نحتاج لصياغة بيداغوجيتنا في نطاق حضارة إيمانية غيبية بحيث لا يتعارض عندنا داعي الإيمان بالغيب وداعي العقلانية والنقد العلمي والسيطرة على الطبيعة وموارد الرزق.

تعليمنا وفلسفته في ظل الإسلام لن يكون نقلا وترجمة لفلسفة التعليم الجاهلي، وإلا خرج لنا من المدرسة والجامعة أعداء للإسلام مثل الذين يخرجون. وإن هؤلاء يزعمون بترديدهم لضلال أساتذتهم الجاهليين أن العقل المؤمن بالغيب الخاضع لأحكامه لا يقدر على ابتكار لأنه عاجز عن الموقف أمام الأشياء والأحداث موقف الناقد المستخبر. ويكذبهم نجاح التعليم الإسلامي واكتشاف العلماء المسلمين في عصور الازدهار رغم نقص الحياة الإسلامية وبترها بعد استيلاء الملكية العاضة على السلطان.

فلما ازداد هُوي المسلمين بعد طفرتهم الأولى هوى معهم الفكر، واختلط عليه الغيب بالشهادة وبات ناعسا في أحلامه وخرافاته طوال قرون الانحطاط. وقد كررنا في الصفحات الماضية ونكرر ليقع الخبر موقع الإخبار وموقع التحدي معا أن الإيمان والغيب والإحسان مقولات علمية تجريبية، وأن التجربة الصوفية

وما تتضمنه من اكتشاف لعوامل المثال ولواقح الأنوار برهان ساطع مستمر، يتحدى باستمراره العقلانية الكافرة، ويعرض على من يريد أن يسمع كلمة الحق يقولها بين يدي عارف بالله ويصحبه حتى يزول عنه حجاب الغفلة. ذلك إن كان مريدا يطلب الحق لا مكابرا يبغي جدلا.

إن التعليم المترجم حتى إن أسكناه اللغة القومية لا يكون إلا ساكنا متقلقلا وعامل سكون وجمود مقلد لا عامل تغيير وترقية. ثم إنه ينطق بالكفر من خلال صيغته الجاهلية، وينطق بتفوق الجاهلية حين يعرض علينا أعلام المخترعين الكافرين، ويسرد قصة عبقريتهم. وبذلك يلبسنا رداء المذلة والخنوع لأننا لم نترب على الاستقلال الفطري ولم نترب على الفطرة المتعلمة لنتعلم من آيات الله ونحن في عز إسلامنا، فيبدو لنا الجاهليون خلقا من خلق الله سخرهم الله ليمهدوا لنا الصعب، ونأخذ العلم منهم دون أن نأخذ الكفر. وإن عقليتنا الجامدة الموروثة تدرك الظواهر إدراكا ذريا لا تستطيع ربط الأسباب بمسبباتها، ولا تستطيع أن تحيل كل ظاهرة إلى تطور الأحداث العام فتدخلها في نسبتها. لا يفعل ذلك إلا العقل الناقد، ونحن المسلمين الغثائيين، خاصة نحن العرب، قوم عاطفيون مندفعون سواء الخرافيون منا والمتحذلقون. فإذا أعجبنا بالحضارة الغربية أعطيناها ولاءنا واعتبرناها الحق المطلق وتفسخنا

من أخلاقنا وتتلمذنا للجاهلية.

والإسلام المنبعث إسلام متعلم، لكنه يتعلم من ظواهر الكون نظرا لمصدرها الإلهي ويدخلها في نسبيتها ومخلوقيتها، فإذا نقل العلم من الجاهليين نقل الحكمة وتعلم المهارة دون أن ينقل معها الفلسفة وتصور العالم والإنسان. ذلك لأن المؤمنين يذكرون ربهم فيزيل عنهم الغفلة وينير لهم بنور الإيمان السبيل.

للجاهلية ذات الرأسين جناح الفوضى ببيداغوجيته اللاهثة لتلحق الآلة، وجناح له بيداغوجية انتهت من التغيير في روسيا وهي لا تزال تغير في الصين. وكلا المذهبين في التعليم يخدم فلسفة للحياة وسياسة لتسيير الإنسان وتسخيره. فإن اقتبسنا شظايا من هنا وههنا ولفقنا لنا بيداغوجية تأخذ ما يستحسن من كل شيء، كما يفعل القوميون الإداريون، حكمنا على تعليمنا بالفشل، وعدنا إلى ذريتنا القرونية في انتظار أن يهب هابّ منا لينادي بالكفر نداء ثانيا وثالثا مع نداء قادتنا الكفار السابقين منهم واللاحقين ...إلى سقر. أما إن ابتكرنا لنا عملا تعليميا في ضوء منهاج الإسلام وفي تناسق مع حركة التغيير الإسلامية العامة فسيكون لنا مذهب تعليمي يكون صورة لنفسه لا مسخا لمذاهب الناس، وسيكون مذهبا لتحرير الإنسان لا لتسخيره.

فإن الاقتباس غير التعلم، والتلفيق والاختيار غير الحياة

الصادقة. إذا كان يعجبنا النموذج الصيني ونعجب بعبقرية الشيوعية المربية المعلمة، ونحب أن نتعلم من الصين كما نحب أن نتعلم من خلق الله أجمع، فلا الإعجاب ولا حب التعلم ينسينا أن التغيير لا يأتي من خارج بل يأتي من تغيير النفس وما بها. وكل ما تحدثه من تحوير في الإطار البشري أو المؤسسي مع الاحتفاظ بالنفسية والعقلية العتيقين لن يكون إلا اقتباسا ماسخا لا عاملا للتغيير .

إذا كان التعليم يرمي لتغيير العقلية وإيقاظ العقل العلمي الناقد ليعوض العقل الخرافي، فإن المذهب التعليمي المغير لا تبدعه إلا العاطفة الصادقة الراغبة في التغيير. فنعود إلى نجاح التعليم الصيني لنقارنه بالتعليم الحضاري الآخر الباحث عن توازنه. ذاك سبقته ومهدت له «أسبقية السياسة والفسفة»، وهذا دعا إلى تطويره حافز الاتباع والتكيف مع العوامل الاجتماعية والتكنولوجية.

كثيرا ما نسمع ببلادنا الإسلامية ساسة يزعمون أن التعليم وتغيير مناهجه ومحتواه هو وسيلة التغيير، والثوريون الملفقون منهم يزعمون أن المسلمين بعد الثورة سيتعلمون الشيوعية بفضائل فلسفتها وما تحدثه من تحسن في مستوى معاشهم. فهم حائرون في تلفيقهم حيرة لا يعترفون بها، لأن تغيير العقلية العامة للأمة استعصى عليهم قبل الثورة وبعدها، ونسمي الانقلابية ثورة

للتجوز والسخرية. العقل الثوري المتعلم عائم على سطح العاطفة منفصم عنها، وغاية ما يتأتى له هو أن ينفث سمومه في عقول الناشئة وشكوكه. فمثقفونا وشيوعيونا عبرة لمن اعتبر، وثوريتهم الفكرية تعبير عن عصاب جيل عجز عن إيجاد رتق لتمزقه. غيرهم التعليم الجاهلي تغييرا مرضيا حين سمم عقولهم وحقنها باقتناع أبدي أن الجاهلية الأستاذة هي المعيار، وأن منهج حياتها هو الحياة. فلهم عقلية مقلدة على قاعدة عاطفة مجتثة من أرضها. يتلفتون إلى أنفسهم فينكرونها لأنهم مسخ صارخ ولعنة على أنفسهم، ثم يعودون في عقليتهم المسممة فيستوحون منها مبررات لغربتهم وغرابتهم بين أمتهم وبين أساتذتهم، فإذا هم رواد وقادة للأصالة الثائرة يوهمون الأجانب بذلك أنهم من أمتهم يعتزون بها، وينافقون بذلك أمتهم إذ يتملقونها بشعار القومية. وإذا هم أمام فشل محاولاتهم يتلونون في اشتراكياتهم كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغول.

غالتهم الأيام، فما أكثر جدلهم! وليتهم يحلمون ولو مرة بالاستقلال الفكري إذ لا يتصورون استقلالا شموليا يكونون به أساتذة العالم. وما كان يحلم سيد قطب رحمه الله حين بشرنا بأن المستقبل للإسلام، وأن المسلمين هم أساتذة العالم غدا. وتزرى الفحولة الإيمانية بنذالة أذيال الجاهلية، ويرحم الله شهداءنا الأبرار.

التعليم المغير غير التعليم الملفق، كما أن الرجولة القائدة هي غير الزعامة المنقلبة. القيادة الإيمانية الإحسانية وظيفة عاطفة حية متماسكة بعقل حر، والزعامة تمسك العصا بيدها وتتلعثم في شعورها وفكرها كما يتلعثم الظنين. فلهذه تعليم متعثر متلعثم على صورتها، ويوم يمسك الزمام قائد الإسلام وإمامه فإن مذاهب تعليمنا وأنظمته تحلها روح التغيير، بل تحتلها أيضا، بين وازعي القرآن والسلطان. ويتغير التعليم ونظامه ليساهم في التحويل الإسلامي للأمة من غثائيتها أساتذة العالم خلفاء الله في أرضه مقتصدين إلى غايته مقتحمين إليها العقبة.

يحل التغيير مذهبنا التعلمي ويحتله فننتقل من مذهب الأيدي الناعمة والعقول المترفة والأجسام الملفوفة بالحرير إلى مذهب الاخشيشان والرجولة. المذهب التعليمي القاعد يعلم الطفل أن البقرة تعطي حليباً ويعرض عليه صورا أو يُزيره مزرعة نموذجية، ويشب لا يعلم من أين يكتسب القوت إلا علما نظريا كما لا يعلم من البقرة ووظيفتها إلا جملا وألفاظا. والمذهب التعليمي المجاهد المغير يسوق الأمة كلها ليحلب كل البقرة ويقطع لها الحشيش ويحمله على ظهره كما كان يحمل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب متاعهما على ظهريهما.

والمذهب التعليمي المتغير الذي يعلم باليد والقلم، ويعلم

بالقلم بعد أن يعلم باليد، سيمسح أسَرَ هذه الأمة جميعها يصطاد الكفايات المقبورة والعبقريات المهجورة، ولا يترك مجال العمل طعمة لمغتنم بل يجعله ميدانا للمتطوعين الخادمين.

وفي أمتنا مؤهلات إنسانية يزكيها ربنا الذي يبعثنا غدا للعز وحمل الرسالة، فيجمعها رابط المحبة والطاعة والنصيحة، وترقى بنا تتجاوز الأهداف الإسلامية ومقاصد الوحدة للأمة جميعا ليحمل جيل آت قريب رسالة النور والحرية للبشرية المعذبة بعقلها وعلمها.

ولن يعجزنا العلم والبحث عنه لأننا سننزل عن الحاجة الموهومة وسننتقل ونقتصد كما ننزل إلى حِرَفية مبدعة كما نزلت الصين الشيوعية، فيضع عمالنا ما لا يقدر عليه إلا عمالنا كما صنع الصينيون ويبتكرون ويخترعون. نتلعم الإيمان والقرآن فتتفتح لنا أبواب السماء وفتوق الأرض، وينبهر الإحتكاريون المستأثرون بالتكنولوجيا، يبيعونها لنا قطرات، ببراعة المسلم الطاهر كما ينبهرون اليوم من ذكاء الصيني وعبقريته ومرونته.

الفصل الثامن

الدعـوة

المحجة البيضاء

في الصفحات الفائتة من هذا الكتاب نثرنا نقدا للعقلية والنفسية العائقتين لتغيير ما بنا. وقلنا في شأن سادتنا العلماء وسادتنا الصوفية قولا أردناه ليكون بليغا يثير الانتباه ويثير الغيرة الإسلامية. والقول البليغ أسلوب القرآن نحذو حذوه، يبشر وينذر يخاطب العاطفة والعقل معا. وقد آن، ونحن ننظر في الدعوة الإسلامية والتنظيم الجهادي، أن نجمع ما كنا نثرناه جمعا يريد الإبلاغ والبلاغ.

كنا استعرضنا بعض رجال الدعوة الإسلامية المعاصرين، وتعلمنا من عملهم مواطن الضعف وأسباب القوة في الدعوة الإسلامية المعاصرة. وهنا نعمم البحث ونحاول تعميقه استكشافا على مدى خطوط القوة في الدعوة الإسلامية بين رجال العقل والعاطفة من العلماء العاملين، بين علماء الشريعة ورثة الأنبياء وبين علماء الحقيقة ورثة الأنبياء.

هؤلاء هم الربانيون، وهؤلاء هم الحاملون لأمانة الإسلام ورسالته، وهم المسؤولون عن حياته يوم يحيى وعن خفوته حين يخفت.

أخبرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته أنه تركنا على المحجبة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، وأوصانا

بالثقلين كتاب الله وسنته كما أوصانا بآل البيت وذكر أن أولى الناس به المتقون.

فبذلك أشار إلى أن آل البيت هم المتقون كما أشار بالتخصيص والتمثيل إذ أعلمنا أن سلمان من آل البيت. وما عتم القرن الأول من الهجرة حتى اختلف الناس في ماهية المحجة البيضاء، وتنازع أشبه الناس أن لا يتنازعوا على السلطان، وهم الصحابة الأبرار. واقتتل الربانيون بصدق كل يوقن أن الحق بجانبه، وجاهد كل جهاده، كما اجتهد من بعدهم اجتهاده، فضاعت معالم تلك المحجة بين فتنة الصحابة ومن تبعهم وبين نزاع العلماء ومن تبعهم.

فكل يدعو لجماعته ولتصور إسلامه ووحدته، وباتساع رقعة الإسلام وسرعة اتساعها انتشر رجال الدعوة الإسلامية في الأقطار كل حمل معه تصوره للمحجة البيضاء وحملها من صحبوه وتعلموا منه العلم واقتدوا به في الدين. وهكذا أثلوا لنا اختلافا في المذاهب وأثلوا لنا نفورا نشأ من الفتنة والقتال بين المسلمين على مدى أربعة عشر قرنا نحن في آخر عقد من آخرها. فلكي تكون لنا دعوة تجمع ولا تفرق وتوحد الشتيت وتلم الشعث، يلزم أن نقتحم عقبة الفتنة التاريخية التي استدبرناها كما يلزم أن نقتحم الفتنة التي نستقبلها. بل إن دعوة المسلمين لن تنجح في توحيد

الأمة إلا إن قلعت الفتنة من جذورها التاريخية، بأن يكشف الفقه المنهاجي عن منابع الفتنة ويحلل أسبابها ونتائجها، حتى يتعلم كل مسلم من أين أوتي المسلمون ويستعد استعدادا عاطفيا وعقليا معا ليطوي سجل الأحقاد والمنافسات، وليوبخ نفسه ويزجرها لترجع إلى المحجة البيضاء من تشعب القوميات وبلوى الوطنيات.

قربت بين عقليات المسلمين وطرق تفكيرهم هذه الثقافة الجاهلية تقريبا على بساط الشك والإلحاد والمسخ، وعقلنت الحضارة المستعمرة حياتهم اليومية وعاداتهم ووقتهم إلى حد ما. فهم اليوم يتعارفون على صعيد الدعوة الجاهلية البضائعية، مترفوهم الظالمون يركبون جميعا سيارات أمريكا الفخمة، وفقراؤهم يتغذون بصدقات القمح الأمريكي وأفلام الدعوة الدوابية.

ومن هب ليدعو إلى الإسلام بوخزة من ضميره، سلحتها ومضة من ومضات الهداية الإلهية، شغله عن المحجة البيضاء وتدبرها شاغل من عاطفته المذهبية أو شاغل من عقليته الموروثة، فدعا بما يعرفه وما نشأ عليه. وكانت احتكاكات رجال الدعوة الإسلامية بالعقلانية العلمية محرضا على الاجتهاد من أجل توحيد الدعوة الإسلامية، بيد أنها كانت بكل أسف باعثا أيضا على عقلنة الإسلام وإفراغه من معناه الإيماني. وقد بزغ قرن العقلنة مع الشيخ محمد عبده رحمه الله فجدد نزاعا مزمنا بين علماء الشريعة

وعلماء الحقيقة، ونشر تصورا متقلقلا عن الغيب وعالمه لما بدأ يقارن الجن بالمكروبات وينبذ في الموضوع كلاما لا يبين.

إن العقل نور عظيم، وهو الذي يجلو الشرعة والمحجة ويسهر على سلوكها، لكن المحجة البيضاء بابها مغلق لا ينفتح إلا بالإيمان، والإيمان عمل القلب والعاطفة يخدمه العقل بعد انحساره وتعجبه من آيات الله وخوفه من الموت والمصير الذي أخبره به الرسل عليهم السلام. إن هذه العقلانية الجاهلية ما كانت وثاقا للإنسان إلا لانغلاقها على منطقها وإفرازاتها الحضارية. فإن فتحنا المنطق العقلاني بنور الإيمان القار في القلب كنا اليوم أقدر منا في أي وقت مضى على استكشاف المحجة البيضاء. يكفي لذلك أن نتسلح بعقل ناقد ونقبل المنهج العلمي المؤسس على التجربة. وبالعلم المنهاجي القائم على التجربة الشخصية يمكن فقط أن نرقى إلى منابع تاريخنا، وأن ننحدر معه فلا نستغرب النزاع والقتال في الفتنة كما لا نستغرب النزاع المذهبي الذي يقعد بالدعوة الإسلامية أن تتوحد.

في كل قطر من أقطارنا وبين القطر والقطر اختلاف شديد في فهم المحجة البيضاء، يبلغ الاختلاف حد العداء الجاهر بين شيعة وسنة وبين وهابية وتصوف، ويكمن فيما بين ذلك، كمون التربص لا كمون الغيبة، أرباب العقول من جانب وهم طوائف

وأمم، وأرباب القلوب من جانب وهم أشد نُكْرا وتبديلا.

رأينا فيما مضى توزان الصحابة وكمالهم، ورأينا كيف صحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم صحبة مبايعة ومحبة وجهاد، وكيف قرأوا القرآن قراءة جهادية، كل ذلك مع الإيمان وبالإيمان، ومع الغيب وبالإيمان بالغيب ومعايشة الغيب. سمينا جماعتهم نموذجا خالدا تبشيرا بتجدده وإمكان تجدده، لكن الفتنة الطاغية منذ قتل الإمام سيدنا عثمان تكون حجابا كثيفا يحول بيننا وبينهم، فطائفة من المسلمين تمزقوا بين الولاء لآل البيت كما وصى الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الثقلين كما وصى، فحاروا في فهم شيعة الإمام علي. وهؤلاء تمزقوا من صدمات الفتنة ومآسيها الدموية فتأولوا الثقلين ونبذوا جملة من الصحابة. وكل يكفر صاحبه، فيبرهنون بذلك على عجز علمائنا في ضبط المحجة البيضاء ومعرفة أصولها، ويبرهنون على أن الصدع بين القلب والعقل صدع لا يرتئب مع الأيام بل يزداد شِقّاه ابتعادا.

وليس أعجز عن الاتحاد والتوحد على مثال النموذج الخالد من المختلفين في حضن السنة أو الشيعة، بين شيعة صوفية هم أعمق عاطفة من عاطفية عامة الشيعة، وشيعة سنية يتهمهم علماء الشرع من كل جانب بالميل إلى المعسكر الآخر. فإن الأمر آل، ويالخجلتنا، إلى اتهام ومعسكرات!

ألا إن اكتشاف نموذجية الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه، واكتشاف المحجة البيضاء ما اختلف فيه وعجز عنه المسلمون إلا لقصورهم في آلة البحث والاستكشاف. أرباب العقول يدخلون عليه من روايات القول وصفحات الكراريس يقارنون ويستدلون، وأرباب القلوب أمطرتهم سحائب الرحمة المهداة فذاقوا الإيمان حلاوة في قلوبهم ونورا في بصيرتهم عجزوا عن التعبير عنه بلسان يفهمه أهل العقل. وتنوعت المصطلحات وتكاثرت وتثاقلت، وكل زيادة فيها تُمعن في الخلاف وتزيده كثافة.

إن الثقلين مفتاحهما مفتاح عاطفي، إنه الإيمان بالغيب كما جاء في مقدمة القرآن في أول سورة البقرة لكيلا يقتحم القرآن عقل لم يتطهر بماء الغيب. فإن فتح الباب لمن أوتي الإيمان فسيجد في القرآن وحدة وانسجاما إن طوّع للإيمان عقلا حكيما خبيرا. أما من لم يجمع الآلتين فلن يخرج عن ذَرِّيَّته، يرى أن شظية من شظايا المذهبية الإسلامية هو الحق المطلق فيتقوقع في مذهبيته، ولن يعجزه التعصب من تأويل آيات الله بغير علم.

الطريق لاكتشاف الإسلام ووحدته هو التجربة الشخصية التي تعطيك إيمانا قبل القرآن، ومعها الكفاية الفكرية الواسعة التي تتيح لنور العقل أن يسلك بك المعميات على هدى نور البصيرة. واستكشاف القرآن والسنة بالآلتين هو التفقه المنهاجي،

وعصارته فقه منهاجي يجمع بين الحقيقة والشريعة في خط لاحب هو خط الجهاد. فعلى ضوء الفقه المنهاجي ينظر المؤمن أن الحق مع الشيعة، وأن الحق مع السنيين معا، وينظر أن علماء الشريعة أرباب العقل والنقل هم أهل الحق وحماة الدين وأن الصوفية أهل القلوب هم أهل التقوى والإحسان. كلٌّ صالحٌ إن طرحنا غلاة الضلالة من الباطنية وديدان القراء المنافقين، ولكل ينفتح فضل الله عز وجل وتنفتح أبواب السماء. إنهم مسلمون مؤمنون أولياء لله.

إن صدق ابن تيمية ونصحه للمسلمين وصدق ابن عبد الوهاب ونصحه للمسلمين لا ينافي صدق ابن عربي ولا ينافي صدق من بنوا على الرسول صلى الله عليه وسلم وأولياء هذه الأمة قببا. ومع صدق كل هؤلاء ورغم اختلافهم وتنافرهم وتكفير بعضهم لبعض هداية مبعثرة ينكرها كل فريق لأنه لا يتفاهم مع غريمه. فابن تيمية لا ينكر الإيمان والقلب العارف والورد، ويذكر من ذلك في كتاب الإيمان وسائر كتبه ما يثلج الصدر، ويعترف بمولانا عبد القادر الجيلاني بعد أن قرأ عقيدته، بينما لا يرى عند ابن عربي إلا كفرا. ويفهم الخبير من أحكامه أن تكفير شخص يتحدث بحديث لم يعرفه الأولون أهون على الأمة من نظره من مسارب الضلال التي يمكن أن يتذرع إليها الناس بحقائق الشيخ

الأكبر.

والشيخ الأكبر كان رجل عاطفة وقلب طاوعه المنطق ما لم يطاوع غيره فنطق بالحقيقة نطقا ما هو بأفصح ولا أجمل ولا أجمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتحدث عن ربه حين أخبر أن الله عز وجل يحب عبده فيكون له سمعا وبصرا ويدا ورجلا. وقد كنا ذكرنا أن هذا الحديث القدسي العظيم هو صلب الفقه المنهاجي ومحوره. ولو آمن المسلمون جميعا بما جاءهم من بشارة الله فيه ايمان الفطرة لا يؤولونه تأويلا لانمحت الخلافات، لكن يحول بين الناس والفطرة عقبة الأنانية والعقل المتأله والعادة الموروثة أو المستحدثة، فما بد مع ذلك من الدخول إلى الإسلام من المدخل المنهاجي وهو الصحبة.

الشيعة الكرام يغمر قلبهم محبة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فتلك صحبتهم ونعم الصحبة، ومن أحب قوما والله حشر معهم، قال ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام، فما يكف عن ضلاله من جهل فضل الشيعة وأعماه التعصب المذهبي عن الحق! إنهم أحبوا الأئمة الهداة أولياء الله المصطفين، ونقلوا عنهم شعائر الدين، فنعم الأئمة ونعم النقل. ولا يمنعنا من الاعتراف بالحق إلا الضلالة الأخرى، ضلالة القومية التي تربض مع صاحبتها المذهبية على خط الحدود الوطنية. وكل خلاف زائف، وكل ضلالة في

النار.

ولعلماء الشريعة صحبتهم وإسنادهم، وهو إسناد عقلي علمي يروي بمقتضاه فلان عن فلان العلم النبوي، فبذلك الإسناد تمتد إليهم الوراثة النبوية، ونعم الوراثة إن كان معها التقوى، وإلا فهي شاهد الحق على زور حامل الأسفار. وحتى إن كان لعلماء الشريعة من حرفيتهم ورَهَقهم بالعبء التراثي المتكدس باعث للتطرف، ومن ابتداعات المتصوفة باعث أقوى منه، فإن هذا التطرف «السلفي» أو الوهابي لهو رحمة للمسلمين ينكرها العاجزون عن اكتناه سر الله في خلقه وإتقانه سبحانه لصنعته في الكون. إن الدين دينه عز وجل والحرم حرمه، وما انبرى ابن عبد الوهاب والتيميون الجدد لهدم القبب وقطع رقاب المتصوفة أينما قدروا إلا ليظهر بإلحاح عجز كل فريق عن تجاوز الخلافات، وعن الاهتداء للمحجة البيضاء.

وهكذا يحمل كل فريق إسلامه عبئا ثقيلا، ولا يحرره إسلامه ليخف للجهاد. الشيعة يحملون عبء الظلم القومي والغضبة المستمرة لمصرع آل البيت الكرام، يتشخص ذلك الحمل في الرفض عند الروافض، والزيغ والباطنية عند الآخرين، أما معظم الأمة من الشيعة فهم أبرار أطهار، وهم أيضا عاجزون عن تخطي العراقيل التي تفصلهم عن السنيين. وهم لا يختصون بالعجز وإنما يرجع

النصيب الأكبر منه لأهل السنة. فهؤلاء يحملون عبئا لا يقل كثافة وثقلا، ينكرون صوفيتهم ويكفرون غيرهم. ويبقى عبء الصوفية الذي يحملونه، إنهم مظطهدون مشكوك في إسلامهم حيث لا يصرح بكفرهم وحيث لا يستتابون ويقتلون. إنهم قلة في هذه الأمة، وإنهم العنصر الحي النابض بالحياة كلما قيض الله مربيا يطيح بالعادات والإبداعات، ويخرج من زاوية الخمول إلى رباط الجهاد.

والصوفية كانوا على مر التاريخ أعجز الطوائف عن مخاطبة الناس جميعا بما يفهمه المسلمون جميعهم. رقدوا على تلك الصحبة والمحبة وغلَّفوا المحجة البيضاء بالمصطلحات، فإن كتب الله لعلماء الشريعة خيرا بعث لهم الشك في نفوسهم وطلبوا الحقيقة فما يجدونها إلا عند الصوفية، فيتتلمذون لهم كما تتلمذ الغزالي وعز الدين بن عبد السلام والشعراني وأخيار هذه الأمة[1].

فاللقاء على المحجة البيضاء دائما بشروط الصوفية، والانبعاث الإسلامي يتم دائما على يد الصوفية، وتذكرْ عمر بن عبد العزيز وابن تاشفين وكل المجددين المجاهدين، واستقريء تاريخ الإسلام فإنك لن تجد في صفوف الجهاد إلا الذاكرين، وما عهد المهدي السوداني وعبد القادر الجزائري وابن عبد الكريم الخطابي ببعيد.

1 انظر كتابنا الإحسان

بيد أن مطلب المنهاج النبوي هو توحيد كل طوائف المسلمين على المحجة النبوية، ليتعلم كل فريق أن الحق الذي نتنازع عليه ليس مقصورا على أحد، وأن حق الشيعة الذي هو الصحبة والمحبة وحق الذكر الذي يلهج به الصوفية وحق الصدق في الاتباع للسنة، ما هو إلا الحق الواحد، حق الله الحق المبين. ومتى جمعنا صدق علماء الشريعة العاملين وعاطفة الشيعة المحبين وكمال الصوفية المحسنين، وكونا من ذلك ربانية مجاهدة تربينا على تجاوز الخلافات فقد نجح الإسلام ورضي ساكن الأرض وساكن السماء.

الداعي إلى الله

يعج تاريخ الإسلام برجال الدعوة، وكل من نهض لدعوة ادعى أنه أهدى سبيلا من غريمه. فإن كان طالب دنيا وسلطان أظهر أنه ناصر الإسلام ومثبت أركانه، وإن كان من علماء الشرع قارع خصومه بالنصوص والحجة ليظهر حقه على باطل خصومه، وإن كان صوفيا أو شيعيا عرض حقه مرتبطا بقضية وراثة وتبعية.

وقد لعبت الفتنة التاريخية المشجعة للفوضى دورا مهما في تكثيف الفتنة المرتبطة بالإنسان وسلوكه في العالم، فلا يزداد الإسلام في عين الناس إلا استغلاقا وقتامة. ومن يفكر للإسلام اليوم يعرض قرآن الله على تاريخ الأمة، ثم يعرض تاريخ الأمة على نموذج الإسلام الخالد فلا يتبين شيئا.

والناس أتباع لنخبة تملك صولة الملك وبرهان العقل وهيبة التقوى، فإن نحن حاولنا تحليل عقلية القادة والعلماء والصوفية على ضوء المنهاج النبوي فإننا نقترب من فهم إسلامنا والتعرف على شظاياه، وفي نفس الوقت نملك ثقة بالإسلام تمكننا من جمع تلك الشظايا. وقد ذكرنا في الفقرة السابقة حق أرباب القلوب وحق أرباب العقول، فلنقرنهم هنا بأرباب السلطة لنرى أين الحق وأنّى تسرب، وكيف صدت الفتنة المسلمين عن اقتحام العقبة،

لكي نجدد لنا علما منهاجيا وإرادة إيمانية إحسانية.

دعوة أصحاب السلطان في الإسلام كانت تقوم على مهدية ترجع الحق إلى نصابه. هذا معاوية بن أبي سفيان طلب حق القصاص للخليفة المقتول، والعباسيون طلبوا حقهم في قيادة الأمة لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومثلهم الفاطميون وهلم جرا. وبعد الانتصار العسكري تقوم الدولة العاضة وتتبخر الدعوة وتتلاشى مع الأجيال، حتى تدول الدولة وتذهب ريحها. وحتى الدعوات الجهادية كدعوة يوسف بن تاشفين لا تخلف إلا دولة دائلة، لأن عوامل التفتيت النفسي تخرب رجال السلطان وتورثهم مع الأجيال رخاوة في الجسم وانحلالا في الخلق، يرث ذلك منهم صاغر عن كابر.

ودعوة علماء الشريعة دعوة لا تتصل بالمدعوين إلا من خلال الأوراق أو من على أعواد المنابر. فلهم مهديتهم يتوارثونها، ولهم «كبرياء العلم»، والعبارة شاهدة بتناقض شطريها على أن عقبة الفتنة يقف العلماء من ذوي الطيالسة والكبرياء العلمي عند أول خطوة فيها، فهم عند أنانيتهم لا يبرحون. وإن عممت فما قصدت الاستقراء، لكن قصدت وصف ظاهرة بينة جدا.

أما دعوة الصوفية فهي دعوة الرباني المتواضع الذاكر الخاشع، لكنها دعوة تورث كما يورث الملك. وكما يكون من رجولة

مؤسسي الدولة شاهد على فسولة خلفهم المربى في الحرير فكذلك يكون كمال مؤسسي الطرق الصوفية شاهد على قصور أخلافهم لنفس السبب، وهو أن المال والجاه يستغني بهما المرء فيطغى، ويهيئان له حياة الدعة والاسترخاء. فرجل السلطة الوارث لدولته ينهب اللذات ويتأله في الأرض، ورجل الزاوية ينوء بحمل العطاء الوارد ويسترخي مع عاداته إن استطاع اقتحام عقبة أنانيته وغفلته. وغالبا ما تجتمع الثلاثة فيقعد المتصوف الدعي بمكان أخزى من موقع العالم المتكبر.

ويمسخ العالم المتكبر دودة قارئة متملقة بنفس السهولة التي يتحول بها وارث التصوف بالوراثة النسلية الجسمية عن سنة أبيه أو جده إلى مذهب من يبتزون المال ويبيعون المحال.

ولعل علماء الشريعة أنجى الفرق وأقربها للسلامة، وذلك لسببين أحدهما نفسي والآخر سلوكي. فأما السبب السلوكي فهو أن علاقة عالم الشريعة بالمجتمع هي علاقة مصلحة متبادلة قبل كل شيء، فهو القاضي وهو المفتي وهو الواعظ وإمام الجمعة. ويبقى بعد ذلك منفردا لا يجمع جماعة، ولا يأخذ من الناس أتاوة، إلا ما جاء عفوا من تحلق طلاب العلم في داره بعد تحلقهم عليه في المدرسة مأجورا أو متطوعا، وإلا ما ينفحه من يعظمون العلم والعلماء. وللعلماء في عين المسلمين جلال وهيبة، إلا أن من

يغشون بابه قليل لأنه لا يهب شيئا غير علمه ولا يعرض بضاعة غير وعظه، فهو لا يخوض في الحقائق ولا كرامة له أو بركة يدعيها، فذلك السبب النفسي لنجاته. بضاعته تُقَيَّمُ على وجها ولا تُقَيَّمُ حظوة الدنيا وبركة الروح، بل تقدران تقديرا فيعرض ذلك للغبن.

أما رجل الدولة، وأما المتصوف بعد الصوفي، فهما يجمعان الناس، وهما يأخذان الأتاوة. ذلك يصلت سيف القمع ويلوح بالجزاء والغنائم والمراتب فيقبل عليه الناس رغبا ورهبا. وهذا كان أبوه داعيا إلى الله له نور وصدق يصيب الله بهما من أحبه وصحبه لمكانه من الله الذي تولاه. وكان يجتمع عليه الزائرون، وكان يقطن في زاويته ورباطه المريدون ولا بد لكل جمع عابر أو ثاو من مبيت وطعام، فيأتي الناس بدريهماتهم ينثرونها في صدقة المسلمين، ويرث الإبن والحفيد الزاوية وقد نشأت فيها عادات، فمهما كان ابن الشيخ وحفيده رجل صدق وروحانية فإنه ضحية تربيته مثل الأمير سواء بسواء.

إن الأمير كلف نفْسه عناء الخروج من بطن أمه كما يعبرون، فهو من المهد يُوطأ لهم الفراش وتتهافت حوله الأماني كتهافت الخدم والحشم، وتقبل يده ورجله، ويتملقه ديدان القراء ومن يشبههم فيغذون أنانيته، ويترفونه في الغفلة واللهو. وماذا يكون من تلقى مثل هذه التربية ؟ إنه ضحية مثل أمير الزاوية، بل إن

هذا أجدر أن يُسِف أكثر من صاحبه لولا صحبة المريدين.أمير الدولة تخدمه أيد أجيرة وتحوم حوله أحلام معلولة بعلة تقبل النفاق. أما أمير الزاوية فتخدمه أيد صادقة وتعظمه وتحبه قلوب تعرف قدر البركة لأنها أصابتها وأخرى سمعت بالبركة وكرامات الولي فصدقت بالسمع وقبلت رجل الصبي ويده.

الأميران يرزحان تحت عبء الجاه والمال، والجاه والمال هما رافدا السلطان، فيتنكر أمير القصر للقرآن ووازعه، ويضل أمير الزاوية عن قرآنه بين لهوه إن انقلب لاعبا أو بدأ مشعوذا وبين أمواله يجمعها لبدا. فإن لم يضل هذا عن قرآنه قرأه قراءة تعبد وانعزال، وإن لم يتنكر ذاك وحصلت المعجزة، فما حديثه عن القرآن إلا حديث هاو غاو.

فمن هذا التحليل نتعرف على الانشقاق الثلاثي، ومنه نلمح طبع العقبة وشكلها وطريق اقتحامها ليجتمع لنا وازعا القرآن والسلطان في قيادة جهادية تجدد أمر هذه الأمة غدا. وقد نظرنا إلى منحدر التدهور التاريخي في قادته من أسفل، فلننظر إليها الآن من أعلى، من رأس الأمر ومنبعه لنجلو الرؤية، ونخرج بمعيار إنساني لرجل الدعوة، للداعي إلى الله السليم من وباء الأنانية ورهق الوراثة الشكلية وما يتبعها من المعوقات النفسية.

الداعي إلى الله، قبل أن تستحدث المصطلحات، وقبل أن

تعمل عوامل التعرية التاريخية عملها في فتنة الصحبة والذكر والصدق، هو النبي والرسول، أو هو الوراث الكامل من هذه الأمة التي ختمت عليها النبوة والرسالة.

المحجة البيضاء دلنا عليها صاحبها صلى الله عليه وسلم بسلوكه، ودلنا عليها ربنا بحكاية هذا السلوك النبوي المنهاجي، وبالتعلم والهداية للأسوة الحسنة. قال الله عز وجل لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ فهذا يهدينا إلى أن الداعين إلى الله من هذه الأمة أشخاص يبتعثهم الله بعد نبيه فيتبعون النبي حتى يعطيهم الإتباع نورانية وبصيرة بها وعليها يدعون الناس إلى الله. وهذا أيضا يهدينا لنعلم طبيعة الدعوة الصادقة وغايتها، لأنها دعوة إلى الله وليست دعوة لعصبية ولا لطائفية. إنها دعوة موحدة تجمع المسلمين على الله يطلبون رضاه وجنته. وطلب الله وجنته طلب للغيب، فإن الله غيب وجنته غيب. والغيب لا يدرك إلا بالبصيرة، فلذلك نعرف صدق الدعوة من وجود البصيرة وآثارها في هذه الكرامات التي تحكي معجزات الأنبياء، وفي هذا الإيمان الذي يحمل صاحبه فيتجرد من الدنيا تعرضا لرضى الله وجنته. وهذا يشير للصوفية وصحبتهم، لشيخهم وكراماته، ونورانيته وزكاته.

ولا بد للمصحوب الداعي إلى الله على بصيرة أن يكون له

من رسوله ميراث يؤهله ليكون تعبيرا بشريا للثقلين كتاب الله وسنة نبيه. فكمال ميراثه أن يكون من آل البيت الذين أمرنا أن نحبهم ونتبعهم. وقد رأى الشيعة أن آل البيت هم الإمام مولانا علي عليه السلام وبنوه، ولا يشك في هذا مسلم، ولا يقصر عن محبتهم إلا محروم. بيد أن سنة الله في الكون أن تسري الهداية بالميراث الروحي كما تسري خصائص الجسم بالتناسل البيولوجي. ويسرى من المصحوب المقبور لتابعه نوارنية ولا شك، إلا أنها لا تبلغ أبدا أن تعطيه الميلاد الروحي الذي يوجدك في عالم لا تولد فيه إن لم تكن لك أبوة، وإن لم تزرع في أرض نفسك فحولة الأب الروحي بذرة الحياة.

فآل البيت الداعون إلى الله الضروريون لتجديد الإيمان هم ورثة الكمال الروحي، لا يغني عن وجودهم أصحاب القبور أبدا، ولا يتأهل لوظيفتهم من انتسب بالجسم دون الروح. وتربى الروح فتدل بنورانيتها على أهليتها لحمل الرسالة وميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما تدل بإسناد مشايخها. أما النسبة الجسمية فسلسلة الآباء والأجداد الطاهرين ذكر حسن ومغرس طيب، لكنها لا تخرج بصاحبها عن مرتبة العوام أو يصحب كاملا يحييه من موات.

آل البيت هم أهل القربى الذين سألنا الله ورسوله أن نوادهم

ونحبهم، وهم من بلغ مرتبة سلمان بروحانيته فانتسب لرسول الله بالروح نسبة كاملة أو جمع إلى ذلك نسب الجسد فأضاف طهرا إلى طهر. وهذا يشير إلى الصحبة، واستمرارها، وإلى المحبة، وكل ذلك عند الصوفية الصادقين.

وطريق التربية الروحية هو المحجة البيضاء، في أول عتبتها صحبة وفي العتبة الثانية ذكر وتسبيح. وما بعث الله النبيئين والرسل إلا وهم مسبحون. فسيدنا يونس ﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾. وسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يسبح وأمرنا معه ما لم يأمر بغيره. قال تعالى﴿**سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾. ونحن نتأسى بالرسل كما أمرنا الله. فيخبرنا القرآن أن التأسي والإتباع لا يتأتى إلا لمن ذكر الله كثيرا ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾.

والذاكرون الله كثيرا هم جماعة الصوفية خاصة، أما الآخرون فمنهم من يزعم أن الذكر ذكر بالقلب لا باللسان، وماذا نفعل بأمر الله لنا أن نسبح؟ ثم إن تخصيص القرآن للذكر والتسبيح بالإسم دليل على منهاج التربية الصوفية كأن المنكرين لا يقرأون القرآن، وخليق بمن يجهل الغيب ولا يرجو الدار الآخرة انتظارا أن

يعرض عنه القرآن بإعراضه عن ذكر ربه.

الصحبة والذكر لهما مؤهلات تتألق في صفائها عند الشيخ الصوفي الكامل، ويشرق نورهما على الأتباع فينم عن حق محير ضائع بين رجال الطروس وأصحاب الذوق والكؤوس. فهما الحزبان المتلازمان المتشاكيان المتعاديان. وبينهما انفرط العقد ودبت الوحشة. علماء الشريعة يريدون سلوكا شرعيا على ظاهر الكتاب والسنة، فهم حماة الإسلام. ويجيء أصحاب الذوق فيتحدثون عما وراء الإسلام، يتحدثون عن حلاوة الإيمان وعن كمال الإحسان، وهما ماهيتان يجهلهما رجل الأوراق جهلا وإن كان يقرأ القرآن وينطح في تلاوته ألفاظا لا مدلول لها في قاموسه إلا مدلولا منقولا وشكلا مقبولا.

إن ظاهر الإسلام هو شاطيء الأمان. وإن مواجيد الصوفية وغلبة عاطفتهم المحِبة الذائقة للإيمان والإحسان لأمر تفزع منه قلوب العامة حتى ولو كانوا مفتين وكُبراء. ولا حق للصوفية في إفشاء ما يفشونه لولا أن الجذب والحال، وهذه القشعريرة ولين الجلود شؤون لا يستجلبها المريد الصادق، وإنما ترد فتغلب. ويشمئز منها علماء الشرع ويشهرون الرقص الصوفي[1] ويشنعونه، ولهم الحق إذ لا يعرفون الحال إلا عيونا جاحظة وهيئة مزرية لا

1 كما نشهر به ولا نقول به

تدري أجنون هو أم فنون للنصب والكذب. اترك الصادق يغالب حاله وتعال أنبئك بما أنبأك به من قبلي أمثال الغزالي الفحل رضي الله عنه.

إن ابتداعات المتصوفة التي أخفت عنك صدق الصادقين، وإن اصطلاحات الصوفية المتراكمة على الأيام تخفي وراءها حقيقة الحياة الأبدية. وضروري للمسلمين في يوم انبعاثهم أن يرقوا من المصطلحات وكل المظاهر الموروثة إلى سمت الصحابة واقتصادهم وتؤدتهم لكي يفتحوا بابا كان مغلقا شديدة مسالكه وعرة عطابه. إنه باب الوصول إلى الله رب الرحمة والمحبة. إنك أخي والله إن عبرت هذه الدنيا ولم تطلب كمالك لَرجل مغبون غبنا لا يقاس. وإنك إن طغت عليك أنانيتك وعقلانيتك وعادتك فما تعلم أي جحيم تعيش فيه في الدنيا قبل الآخرة، ولن تعلمه حتى تصحب كاملا كما صحبنا، ولله المنة وله الحمد.

إن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبيئين حق مقسم لك منه نصيب إن تعرضت. وما تتعرض بعبادتك وحدها وعلمك إلا لمقام الإسلام والإيمان، أما الإحسان فاطلبه عند داع إلى الله صاحب بصيرة. فمن هذا الداعي ومنك نفسك يبدأ بعث الإسلام. فإن كان الداعي وارث نبوة دلك على خلاصك الفردي وأوصلك إلى مقام الرجال، وإن كان وارث رسالة ونبوة معا أهاب

بك إلى الرباط لتجاهد في سبيل الله وتموت موتة معنوية تحررك لتكون في الدنيا حامل رسالة رسولك صلى الله عليه وسلم، ولتكون في الآخرة عند ربك في مقعد الصدق بعد أن تقربت إليه في الدنيا بالفرض والنفل حتى أحبك، فكان سمعك وبصرك، ويدك ورجلك. وما يدلك دعاة الإسلام إلا على عمل هل يوصلك إلى غاية حتى؟ لأن من ليس داعيا إلى الله على بصيرة ووراثة لا يعرف محبة الله لعبده وكمال العبد بالسلوك إلى سيده والعبودية بين يديه. لا يعرف ذلك ولو كان يدعو لفرض ونفل مع دعوته لإسلامه الفكري. ولن يتم بعث الإسلام إلا باكتمال الدعوة إسلاما وإيمانا وإحسانا. وذلك هو المنهاج النبوي الذي نسيه الناس، وحفظه لك الصوفية بشرى من رسولك خالدة.

التنظيم الجهادي

أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أول ما جاءه الوحي أن يقرأ باسم ربه، كما أمره بعد ذلك أن يسبح اسم ربه ليكون من المسبحين الناجين المنجين. فبالذكر والتسبيح تكمل الروح وتتأهل لحمل الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض فأبينها وأشفقن منها. وبالقراءة وهي الجمع تتعين الوظيفة الجهادية لصاحب الرسالة المبلغ عن ربه.

فالداعي إلى الله على بصيرة إما أن يكون رجل مسبحة يسبح اسم ربه ويتزكى ويصيب الناس منه صدق وعبير ومسك ذفير، وإما أن يضيف إلى الذكر والتسبيح والتقرب بالفرض والنفل علما وقراءة فيتأهل لعمارة الرباط وتنظيم الجهاد. وذلك هو الوارث الكامل بكمالين، أحدهما روحي بما ورث عن المسبحين، والثاني ورثه عن أولي العزم من الرسل، وأولي الميراث شديدي القوى من المجاهدين، الذين كانوا رحمة للعالمين. وذلك مقام القارئ الجامع باسم ربه وإذنه.

الجذب قد يؤدي لروحانية إن كان جذبا إلهيا، فإن صحبه سلوك على يد شيخ كان المريد بين سلوك وجذب، أي بين عقل قابض للزمام يروم خدمة عاطفية هياجة. وذلك لعمري صعب

المنال وعر المرتقى، لأن العقل يتأله وينكسر ويستبد، ذلك ديدنه سيما إن لطخته العقلانية القلمية بشكوكها، ولأن العاطفة هوجاء لا حد لطاقتها. فيظن صاحب الأوراق أن الأمر كله عقل ونقل لأنه لم يكتشف عالمه القلبي، ويطرب الذائق ويتيه في محبته حتى لا يملك العقل من أمره قليلا ولا كثيرا، ويخلع العذار ويبوح بالأسرار. وعلماء الشرع يقتلونه كما يقتلون الفجار.

على طريق الجهاد عائق في نفوس المسلمين وعقولهم، إنهم جميعا بين عاطفة وعقل، فأما أهل النور فعاطفتهم جذب إلهي، وأما أهل النقل فعقلهم شرعي. ومع ذلك فوضى، ومع هذا جمود ولا يمكن أي جهاد مع الفوضى والجمود.

فلكي يكون لنا دعوة جهادية لا بد من تنظيم جهادي، وليكون التنظيم لا بد من تحرير العقلية الجامدة وضبط العاطفة الجامحة. وفي تاريخ الإسلام المعاصر تجربة تنظيمية غنية جدا مفيدة جدا بسلبياتها وإيجابيتها، إنها جهاد ولي الله تعالى سيدي حسن البنا.

تربى البنَّا في حجر الصوفية على نمط التربية الفردية، وكان شيخه الحصافي رجلا صادقا قويا لا يخاف في الله لومة لائم، يدخل على الأمراء ويقرعهم بالقول، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وهذا لا يمنع أن تصنف الطريقة الحصافية مع أصحاب

القضية الفردية والخلاص الفردي. وإن بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على تنسيق الشيخ الحصافي وكل علماء المسلمين الصادقين وبين الجهاد والمرابطة لفرقا كبيرا وفجوة بعيدة، ويزيدها تمايزا عادات الزاوية في الخمول والدعة والحرص على الخلوة لكيلا يتصل المريد بإخوانه إلا في ساعات مخصوصة. أما العالم فإن اتصاله به يقتصر على الحد الأدنى مخافة أن يلوث العالم مريد الله.

فلما أراد البنا سلوكا جهاديا اضطر أن يغادر زاوية ابن شيخه، وبدأ عمله في المساجد يعلم الناس الوضوء والصلاة، ويعظهم في المقاهي والشوارع. وتكاثر الأتباع فتدرجت الدعوة شيئا فشيئا نحو التنظيم لما أحس البنا بضرورته. لكن العفوية التي كانت أساسا لبناء الجماعة، وتسارع الحركة وعدم وضوح الهدف التربوي والمبدإ المنهاجي جعلت التنظيم الإخواني عرضة للأغراض، وكان ما كان مما جعله الله لنا درسا وعبرة ومثالا للرجولة والربانية.

لا نرجم بالغيب ولا نعلم إلى أي مرتبة روحية انتهى الشيخ البنا رحمه الله. هل كان صاحب إذن وصاحب سر؟ هل كان شيخا واصلا موصلا؟ هل اكتمل كيانه الروحي وهو يحمل أعباء الدعوة؟ تلك أسئلة لا يمكن أن نجد لها جوابا لأنها من غيب الله، لا نعلم منها إلا ما يتحدث به المشايخ من نعم الله عليهم. ولا تحسب هذه الأمور ولا تقاس كما تقاس الكفاية الفكرية بآثارها. بيد أن

وجود الوظيفة والورد والرابطة، وروعة ذلك السيد الجليل المهيب المحبوب الساطع الأنوار برهان واضح للولاية والإرث النبوي. لكن الذي يحير هو أن جماعة الإخوان المسلمين، بعد وفاة السيد الكريم نسوا، كثير منهم، انتماءهم الصوفي للشيخ، واحتفظوا بالفكر والمبدإ السياسي الذي عمى عليهم المبدأ التربوي. وفكر الشيخ رحمه الله ضئيل إذا قسناه بفكر الأستاذ المودودي مثلا، أو بفكر الشهيد سيد قطب رحمه الله. لا جرم أن يصبح تنظيم الإخوان بعد الشيخ تنظيما فكريا أول شيء، ولا جرم أن تميل الجماعة وتتنكر للصحبة، فتلك ثغرة كبيرة في تربية الشيخ رحمه الله، مردها إلى أنه عرف الجماعة بأنها جمعية ثقافية، وتنظيم سياسي وفرقة رياضية وجماعة صوفية. فكأنه دس الصحبة والذكر دسا يخاف أن ينفض من حوله الناس لعدم ثقتهم بالصوفية. وفي كتاباته رحمه الله إسلام وإيمان، لكنك لا تجد أثرًا لذكر معرفة الله ومحبته الموصلة لرضوانه ووصله. وكل تنظيم إسلامي لا تكتمل فيه الدرجات الثلاث ومؤهلاتها لا يجمع إلا نخبة وسطا. ذلك لأن ذوي الهمة العليا الذين لا يحرصون على حياة هم طالبو الحق الطامحون مع الجنة إلى رب الجنة. فمن دلهم على طلبتهم اتبعوه ولو فرض عليهم الإنزواء والخلوة.

قلنا من قبل أن العمل الإسلامي في نظر رجال الدعوة لا

يزال في نطاق عاطفية تحب الغموض ولا تجسر على استجلاء الحقائق بعقل ناقد. ونحن لا يمنعنا حب البنّا واللهج بذكره أن نحلل دعوته بقدر ما ينفعنا في بحثنا عن إسلامنا. والذين لا تسمو همتهم للحق والمعرفة والسلوك إلى المولى عز وجل حتى يحبنا ويكون سمعنا وبصرنا، لهم أن يجاهدوا جهادهم فهم إخواننا، وإن كانوا وهابية مع علماء الشريعة على شاطئ الإسلام، فنحن نعذرهم في إحجامهم عن الطلب، لكن نخبرهم أن صلب الإسلام في الصدر الأول كانوا رجالا مثل أبي بكر وعمر، أحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفنوا عن أنفسهم وماتوا في الله فعرفوا الله بالله، فلذلك كانوا ما كانوا.

وإن التجديد الذي ننتظره هو تجديد يصل علماء الشريعة أرباب العقول بالذاكرين المحبين أصحاب القلوب، وينقل هؤلاء وأولئك من القضية الفردية إلى القضية الجهادية. وقد كان عمل البنا رحمه الله وجهاده خطوة مهمة جدا في هذا السبيل، فلو قيض الله أن يعلم الناس تعليما لا ينسونه ما أتاهم به النبيئون والصديقون من ترغيب في الله ودلالة على ملكوت القلب وعلى الكنز الدفين في كل آدمي، لكان جهاده جهادا حاسما. لكن الأمر أمر الله تعالى والتوفيق توفيقه، وما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره الله كما يقول الصوفي.

كان عند الصوفية المنزوون ولا يزال، إعراض كلي عن الدنيا وأهلها، فكان ميراثهم نبويا لم يكلفوا بجهاد كما لم يكلف به معظم الأنبياء. وترى رسول الله سيدنا نوحا عليه السلام لما دعاهم فأعرضوا دعا عليهم ثم أعرض عنهم كما دعا أنبياء آخرون على أممهم لما كذبتهم وتأبت على هدايتهم. وهؤلاء المشايخ الصوفية لهم من قلوبهم ملكوت يتعهدونه بالذكر والعمل الصالح حتى ينكشف لهم عنه الحجاب، ويُفتح عليهم فيعرفوا الله. ويبرز من الصوفية أفذاذ عليهم يدور تاريخ الجهاد الإسلامي كله، فيطلبون ميراث رسل الله أولى العزم المجاهدين، فأولئك هم المرابطون، وكان أحدهم ولي الله البنا رحمه الله، غير أنك لو غشيت مجالس صوفية أهل الحقيقة وسألت عن البنا لما وجدت له عندهم خبرا، ولو سألتهم عن ولي لله الآخر ابن عربي لوجدتهم فيه حائرين وعليه وعلى كتبه عاكفين. ذلك لأن البنا دعا لجهاد جامع قارئ، وابن عربي دعا لقراءة من نوع لآخر، إليها يهفو الرجال، وحولها أيضا يتجمع الكسالى والعاطلون.

تقلصت الدعوة الإسلامية من ميادين الحياة العامة شيئا فشيئا، ولم يبق منها إلا مطالبة أصحاب الدنيا المغلفة بالدعوة، وإلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقوم به العلماء العاملون وظيفة فردية، أما الصوفية فانعزلوا عن الناس فآتاهم الله من فضله

كما آتى إبراهيم لما اعتزل وأصحاب الكهف لما انزووا ولبثوا في كهفهم ناعسين عن الدنيا وأهلها. فدعوة علماء الشريعة دعوة لتولي الله تعالى بالعمل الصالح، ودعوة الصوفية دعوة لكي يتولاك الله عز وجل بالفضل. وينضم عامة الناس للصوفية كما ينضم إليهم خاصة الخاصة، أما الوسط فمع علماء الشرع. وكان البنا رحمه الله رأى أن سواد المتعلمين يلبون دعوة لا تكتم بروحانيتها، فلذلك يبقى الحديث عن الولاية والكمال الروحي حديثا غريبا عند الإخوان المسلمين المحدثين[1].

إن الدعوة الصوفية المنزوية بؤرة للعاطفية ومدعاة للكسل، إن هؤلاء الأولياء مسبحون من المسبحين، ويستطيع كل الناس أن يسبح لا يعوقه عن ذلك جهد يبذله، بل يكفيه أن يحب ويصدق. إما القراءة والجمع فلا يطيقهما إلا من ملك زمامه عقله يمشي به في أنوار الغيب وأسراره، كما يمشي العقل بالجاهليين في ظلمات الكفر وبواره. السالك الذي اختفى جذبه وانضبطت عاطفته يستطيع أن ينتظم للجهاد، أما المجذوب والمتواجد الكاسل فعناصر نورانية تسبح بحمد ربها كما يسبح الضفدع والحجر. وأمرها إلى الله عز وجل، يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

أمامنا اذن مثال البنا وجماعته، كانت تربيته مبدئيا تربية

1 إلا ما ظهر أخيرا من كتابات الشيخ سعيد حوى رحمه الله وأجزل له المثوبة.

ثلاثية تشمل الروح والعقل والجسم، فأما العقل فقد أتى أكله في نجاح الإخوان الاقتصادي والثقافي، وأما الجسم فقد برزوا فيه فكانوا أنظف الناس وأقوى الناس، وأما الروحانية فهي كانت أساسا لاجتماعهم حين تفرق الناس، وألفتهم حين تباغضت الأحزاب، ووحدتهم وسط شعب مشعب التنظيم كان في صبغته العامة تنظيما فكريا، والتنظيم لا يكون إلا كذلك، فإن العاطفة تحفز للعمل ولا تضبط العمل. غير أن كل تنظيم اسلامي لا يبلغ من قوة روحانيته أن يرضي النخبة العليا من طلاب الحق ذوي الهمم العليا كما يرضي الآخرين، يوشك أن ينحدر إلى التنظيم الفكري الحالم الذي لا يستطيع مقاومة التنظيمات الشيوعية المغرية بيوتوبيتها ونماذجها الناجحة المساندة الدساسة.

فأمامنا بعدُ التنظيمات الثورية التي يجب أن نتعلم من ممارستها ونظامها كما تعلمنا من كتاب العالم وهو كتاب الله المحس وعطاؤه غير المحظور.

النظرية الثورية كانت حبرا على ورق، وفلسفة شاعر عالم، قبل أن تدخل عالم الواقع والممارسة. كان روسو وفولتير شعراء وفلاسفة، فأصبحت حقيقة على يد دانتون وربسبير، وكانت ثورة صنعها الشيوعيون في سلم طبقياتهم وتعلموا منها. وبتعلمهم من التاريخ العملي الحاضر، مثل تعلمهم من تحليله النظري عبر

الأجيال اهتدى زعيمهم لينين لوصف الآلة التنظيمية الحزبية ثم بنائها لتؤدي وظيفتها وسط الجماهير. تعلمت الماركسية النظرية كيف تتناول الناس وكيف تسوقهم إن لم ينقادوا، وكيف تحل مشاكل النضال اليومي، من يقظة لينين ومراقبته للأحداث والناس بعقل ناقد ذكي واسع الاطلاع مسلح بالنظرية ومنهجيتها، وأعز العلم أن تتعلم كيف تتعلم.

وتراكمت الخبرة الثورية في دنيا الشيوعية، واستغنت استغناء كبيرا بالممارسة الصينية. فهذه كانت أطول تاريخا وأوسع مدى وأشمل.

لنا في تنظيماتهم مجال للتأمل والتدبر والتعلم، فإن تنظيم الخلايا السرية قبل ثورة روسيا، وتنظيم الجيش الأحمر الصيني المناضل، وما تبع ذلك من تنظيمات الحزب المطالب بالسلطة دروس للدعوة الإسلامية قبيل البعث الإسلامي بشرط واحد. ذلك الشرط هو أن تتعلم الدعوة الإسلامية أن تجهر بأمرها لا تتستر ولا تعنف، فرفق وسمت إسلاميان ينافيان الحقد الطبقي والجهامة الثورية.

ثم إن التنظيم الثوري لن تنفعنا دراسته إلا إن كانت لنا ممارسة، ولن يكون للفقه المنهاجي معنى إن زعم أنه الصيغة النهائية للنظرية الإسلامية. كلا فإن العلم بالتعلم كما أن الحلم

بالتحلم، وبما أن العلم النظري يبقى مشلولا إن دار في هواء الأفكار كما يكون الحلم تصورا فارغا إن لم نمارسه بين الجماعة، فإن فقهنا المنهاجي تخطيط لا قيمة له إلا إن ترتب عليه تنظيم قبيل وبعد، فيه تعلم وتحلم.

للتنظيمات الثورية الجاهلية مراتب ثلاث : النظرية والحزب والطبقة، فقاعدتهم فكرية محض تستغل الغضب الطبقي وآلتهم تحزب على الفكرة والوعد الفكري ووسطهم جماهير وشعوب. وقاعدتنا نحن عاطفية ايمانية وعقل منهاجي يضبط العاطفة، وتختلف طبيعة الدعوة المنظمة عن معاني الحزب كما تختلف معاني الأمة والجماعة عن مدلول الشعب والجماهير.

عضو الجماعة

في حقل العمل الإسلامي تنظيمات متفرقات بعضها في أسر الطاغوت في مدرسة الصبر والرجولة، والأخرى طليقة. فواحد يستحق الذكر، وشبه تنظيم يستحق الإعجاب والتنويه. أولهما تنظيم جماعة المودودي وهو تنظيم حائر لمكان الفجوة الروحية فيه. وأما الذي يستحق إعجابنا فهي حركة رجال التبليغ، هؤلاء المساكين السائحون في الأرض الحاملون إسلامهم على أكف طاهرة وقلوب عامرة بالإيمان. إنه شبه تنظيم ولحمته أقوى الوشائج وأعظمها وهي لحمة الانتماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته. فكتابهم القائد هو كتاب «حياة الصحابة» وحديثهم في المجالس يدور حول حياة الصحابة، وكل حركاتهم وأعمالهم تحكي حياة الصحابة. فهم أهل السنة والجماعة. بقي لهم من أصلهم الصوفي إخبات إلى الله وذكر يستغرق الأوقات وتعظيم للمؤمنين، يزورون الأحياء ويلتمسون الدعاء.

وبينما تنظم الجمعيات الإسلامية المنتشرة في دار الإسلام محاضراتها وتأملاتها، ترى رجال التبليغ يهاجرون هجرة مستمرة يحملون الدعوة لكل البقاع. فلهم من هجرتهم برهان، ولهم من تقللهم وصبرهم البرهان على أن اتباع السنة، ولو تقمصا من

خارج، يشحذ العزيمة وينور البصيرة. وليس للجماعة فكر وثقافة فهم مساكين مجاهدون، خيرهم بينهم وقيادتهم لا تنبني على صحبة معينة أو فكرة رائدة غير هذه الفكرة الرئيسية، أن ميراث الأنبياء في حمل الرسالة فرصة متاحة لكل من يرجو لقاء الله، وأن وسيلة ذلك هو التشبه بالصحابة ومعاشرة المؤمنين على قواعد السلوك الصحابي، وأوله الهجرة وترك العادة.

لرجال التبليغ فاعلية أكبر مما تتيحه وسائلهم البسيطة، وذلك دليل على مكان توفيق الله لجهاد المساكين المهاجرين. ومن عناصر فاعليتهم تجاوزهم للإقليمة وعموم دعوتهم. ففي مساجدهم يجتمع المسلمون من كل الأقطار، ويجتمعون في الرحلات الطويلة وفي أرض الغربة، فيتعلمون الخشونة والرجولة كما يتعلمون أنهم إخوة.

ليس عجيبا أن تقوى الدعوة الإسلامية في أرض الهند لأن الاضطهاد الواقع على المسلمين يوحد الصف ويعين على طلب الحق المقهور. وفي تركيا تنظيمات إسلامية عظيمة تتحفز للعمل ولعلها اليوم أصفى وأقوى الحركات الإسلامية لأن إلحاد المارد مصطفى كمال وأتباعه يكون ظلاما قاتما لا ينهض له إلا نور الإسلام في أكمل صفائه. وقد قتلوا المسلمين وشردوهم حتى لم يبق في الميدان إلا الصادقون الذين لا يحرصون على حياة.

وهذا يصلنا إلى طريقة الانتساب والعضوية، وما يطرحه ذلك

من مشاكل في يوم الإسلام وغده. وقد لمحنا فيما مضى إلى أن يسر الانتساب لجماعة الإخوان المسلمين كان عاملا مهما في أن توغل في الصفوف من حملوا الشارة ورققوا العبارة لغاية غير غاية الإخوان. وعند المودودي حرص شديد على أن يبدأ الانتساب بالمبايعة، وعنده شكوى لا تجد جوابا من الفراغ الروحي. فالأعضاء يبايعون على الطاعة، لكن الطاعة تثقل إن لم تسبقها محبة تمهد لها. ففي هذه التنظيمات وما يشابهها يقبل الناس لينتسبوا للجماعة رغبة في الدعوة، بينما تقوى هذه الرغبة في أرض الاضطهاد رغبة عن الرجس المحيط. فرباط العضو بالجماعة هو شعوره بالحاجة لتغيير ما به، وثقته بأن الدعوة تملأ فراغ نفسه وتُربح جهاده وتوظيفه لحياته. وهو أقوى ما يكون إن دلته الدعوة على الطلبة العظمى في حياة الروح، وأعطته وعيا لذاته كشخص مفرد في خصائصه عزيز على خالقه، يحمل قابليات الكمال بين جنبيه، ويمكنه أن يحققها سالكا إلى ربه مع جماعته.

وكلما ارتفع الهدف المقترح على طالب الانتساب وخوطبت فيه روح التضحية والبطولة كان أدعى أن يلتصق بالجماعة ويتفانى فيها. فالمناضل الشيوعي يقوم ضد العالم كله ليحرر الإنسانية كلها، فشعوره ذاك يحرره من عادته ويبعثه لطلب البطولة. ويقوى هذا الشعور بالثقة التي توحي بها القيادة، وبالنجاح في العمل.

فلهذا تجد المنتسبين للأحزاب الثورية في بلادنا الإسلامية قوما خاوية أفئدتهم، لا يجمع بينهم إلا قشرة تافهة من النظرية الثورية من ورائها حيرة عقلية وعاطفية. فلا ثقة لهم بشيء، ولا نجاح يرغبهم في تضحية.

نظرنا في الحافز للإنتساب، فلننظر الآن إلى وظيفة المنتسب وعمله في الجماعة، والحركية في الجسم كله. قد يكون الحافز قويا جدا مع وجود قيادة توحي بالثقة وتدعو للرجولة، لكن المنتسب يستحيل آلة جامدة أو آلة مسخرة إن كان في الدعوة غموض يشل العقل الناقد، أو يشترط الاتباع الأعمى. فنتذكر «شيخ الجبل» الصباح الذي كان يمني أتباعه الأماني، ويغرهم بمخذراته، فيضحون بحياتهم من أجل مكره وباطله. وفي الدعوات الموجودة بدار الإسلام أصحاب مخدرات من هذا النوع أو ذاك، ومنهم أصحاب غموض وغبش في الفكر.

وأجلى مثال للغموض في الدعوة المؤدي للشلل وركود المنتسب، هو مثال الانتساب الصوفي حين يعتمد على التقليد. لا أتحدث عن المشعوذين الكاذبين، فأولئك لا يستحقون كل هذا الاهتمام، وإنما أتحدث عن الصادقين وهم أكثرية الذاكرين أولياء الله. فنحن الصوفية ورثنا ميراثا ثقيلا مثلما ورث أصحاب النقل. أقول نحن الصوفية أنتسب للكرام لأن الله لا يطرد من بابه من

انتسب لجنابه، فحيثما وجدت منا شيخا مربيا وارثا نبويا غطت نورانيته على ما هنالك وفتح لك إلى ربك المسالك، أما إن لم تعثر إلا على أمير الزاوية وقارئي المناقب فستقرأ من الكرامات حتى يغمى على فكرك، وستمنى بالفتح تشل إرادتك انتظارا لما لا يكون، وصبرا في غير موطن للصبر. إن هذه الكرامات حق، وإن الغيب حق، لكنها تصبح غاية من حيث نوى كتاب المناقب أن تكون تذكرة، ثم إن هذه الكرامات تحيط بها ظروف وملابسات هي من قبيل العادة، فيقرأها الغير ويختلط عليه الأمر فينغمس في البدع والضلالات. إن المريد ينتسب للشيخ يطلب الوصول إلى الله ويطلب الفتح، هذا مطلب مشروع مقبول في حق المبتدئ. وهو مطلب شامخ تهون معه كل تضحية وكل تخل عن الذات. لكن الشرط الغامض هو أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي غاسله.

وهنا تتلقفه العوادي، فالشيخ الحق لا يمكن أن تعرفه من لحيته أو سمته أو عمله الظاهر، وليس لك قوة روحانية تميز بها بين الغث والسمين، بين الخلاء والملاء. مهما أعطتك الكتب من مواصفات للشيخ المربي فلن تعرف بها الرجل إذ ما معك المعيار الروحي.

فينتسب المريد للطريقة على حسن الظن، فإذا كان من خاصة الخاصة، وأعني بهم ذوي الطموح الذي لا ينتهي الصادقين

المصدقين بالكمال وإمكانه، فإن له من إقباله على الله أو من علمه ما يمكنه من عبور حواجز النورانية وحواجز العادة. أما إن كان من عامة المسلمين فالزاوية تقبره قبرا وتشل فكره وإرادته، فلا ينهض لجهاد أبدا، ويستحلي الخمول النوراني، ويلوك تلك العبارات حتى يتوفاه ملك الموت الذي وكل به، ويهبه الله إن شاء ما شاء فإنه صبر وصدق، وإن لله في خلقه شؤونا يقصر العقل عن لمحها فكيف بتحليلها.

إن الدعوة الإسلامية تحت ظل الانبعاث الإسلامي هي الأداة الفاعلة في بث الوعي وإنهاض الهمم واكتشافها، وفي ضبط العمل وقيادة الجهاد. والدعوة الإسلامية الآن دعوة مبعثرة، فكل طائفة من المؤمنين تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في ركنها لا تربطها رابطة. وحين ينبعث الإسلام ستكون الدعوة المنظمة في قطر الانبعاث نواة التوحيد ونموذجه. ونعني بالدعوة المنظمة جسما واحدا ينتمي أعضاؤه للجهاد الإسلامي تحت قيادة واحدة. ولكل عضو الحرية أن ينتمي للطريقة أو لا ينتمي، وأن يصحب من يشاء صحبته شريطة أن يسبق واجبه الجهادي نحو التنظيم، وأن يسبق في وقته وماله ونفسه حقوق التنظيم على ما سواها. نرى في جماعة التبليغ أخوة جهادية تجمع بين الصوفي وغيره وتحاول بإلغاء المصطلحات والرجوع للمنبع الصافي تجاوز

الخلافات. فذلك لنا درس عظيم.

صياغة الأداة العملية الجهادية تبدأ بتحديد شروط العضوية. فالتنظيم الحزبي الثوري يفرض على المنتسب واجبات ويعين له حقوقا. وقد كان للشيوعيين خصام طويل ونقاش، على عهد لينين وبزعامته، لمعرفة من يقبل عضوا في التنظيم ومن لا يقبل. وكان في روسيا قبل توحيد الحزب البلشفي تجمعات كثيرة متوزعة بين التيارات الفكرية. وهو وضع يشبه وضع الدعوة الإسلامية الحالي، بل إن هذا أشد تعقدا لتمكن العنصر الإنفعالي العقدي من زمام القلوب، وإن ببلادنا الإسلامية أقواما لا يزالون في تراشق بالتهم وتكفير للناس، يطعنون بالرماح العالية، في عناوين منشوراتهم، صدور إخوانهم لخلاف جزئي تافه. وأولئك قوم فاتهم الركب، فما حديثنا عن الغابرين!

إن التنظيم أمر يحكمه العقل الناقد أساسا، فالتنظيم الجاهلي يطرد العاطفة طردا ويعتمد على العقلانية العملية في إثارة الحماس، وعلى اليوتوبيا في إبعاد المطمح. وعلى الإسلام المنبعث أن يؤسس الجهاد على العقل الراسخ بالعلم النبوي المنهاجي، ويتعلم كيف وأين يخصص للعاطفة مجالها، وكيف يصلح بين اتجاهات المنتسبين العاطفية في خط جهادي واحد. وما يتيسر ذلك إلا بالخلوص إلى اللب من وراء القشر اللفظي، وبمحاذاة النموذج الخالد عبر التراث

والعادة. ونعني بهذا عكس ما يفعله الإسلام الفكري، فالدعوة الكاملة تنظيم لجهاد المسلمين بقيادة النخبة الإيمانية الإحسانية، على مراتب الأهداف والمقاصد والغايات. وإن إسلام من يقفون عند الهدف قانعين بإبداء تفوق الشريعة ونظامها الإلهي على أنظمة الوضع لإسلام مبتور. مبتور لأنه لا يحدث الإنسان عن كماله وعن رضى ربه ليجعل منه عضوا في الجماعة حرا ينشد الشهادة في سبيل الله ولا يخاف الموت.

الغاية الإحسانية وطلبها هو ما يفرقنا عن التنظيمات المعهودة في الدعوات الإسلامية الحالية. والجهاد المنظم هو ما يميزنا عن صوفية الزوايا حيث يفهم الجهاد فهما خاصا وينكر التنظيم.

وحيث يعطي الميثاق الشيوعي للعضو في الحزب حقوقا تقابل واجبات فإن الجهاد الإسلامي المنظم يقتضي أن يسبق الواجب الحق، فإن المجاهد رجل يبذل ما اشتراه الله منه ليجزى به يوم القيامة وحتى إقامة العدل بين المسلمين قاعدة للجماعة الإسلامية يسبقها بذل النخبة المنظمة الجهادية.

يقول نظام الحزب السوفياتي لسنة 1961 : «من واجب عضو الحزب أن يناضل لإنشاء القاعدة المادية والتقنية للشيوعية، وأن يعطي مثال موقف شيوعي في العمل، وأن يرفع إنتاجية العمل، وأن يكون المحرك الأول لكل ما هو جديد وتقدمي، وأن يدعم

وينشر تجربة الطليعة، وأن يتمثل التقنية، وأن يحسن مستواه المهني، وأن يسهر على الملكية الاجتماعية الاشتراكية أساس قوة وازدهار الوطن السوفياتي، وأن يوسع هذه الملكية.»

فذلك أول واجب العضو، ونراه يدور حول القاعدة المادية كما نقرأ في كل الواجبات ما يوجه للهدف الاقتصادي وخدمة الشعب لتحقيقه.

وهو واجب عطاء وتضحية وخدمة في مقابل حقوق: أن ينتخب في هيآت الحزب وأن يناقش ويمارس النقد. ويزيد الميثاق الصيني لسنة 1969 واجب العضو وحقه في النقد الذاتي. فكل هذا يميز لنا باعث التنظيم الإسلامي الإيماني الإحساني عن بواعث البطولية والتضحية في مقابل إرضاء أنانية الفرد وحبه للظهور في الهيآت. ولكم تكبت الشيوعية المربية في الصين باعث الأنانية وتلح في دستورها وفي ممارستها على ضرورة خدمة الشعب والتفاني فيه والتضحية من أجله، لكن ذلك لن يمحق الأنانيات، ولن يمحقها الجهاد الإسلامي إن انفصل عن الغاية الإحسانية وطلبها.

وظيفة العضو في التنظيم الإسلامي الكامل أن يلتحم بالجماعة قلبا وقالبا، وأن يعطيها ولاءه، ويندمج فيها رغبا لا رهبا، حتى تصبح الجماعة وسيلة لتحقيق الهدف القاعدي وهو العدل والاستقرار. وفي اندماجه مع الجماعة ومحبته لإخوانه

خلاصه أيضا، لأنه بالمحبة والبذل يقوى إيمانه وتقوى علاقته بربه. فالمقصد الإيماني يرجع قوة الجماعة لخدمة الهدف، بينما يرقى بالعضو نحو آفاق المحبة، والمحبة إيمان، والإيمان درجة نحو الكمال الروحي والخلود في رضى الله عز وجل.

التنظيم الجاهلي يؤلف الجماعة بأخوة الفلسفة والإيديولوجية وأخوة الهدف السامي. وهو تنظيم ينجح نجاحا باهرا في الصين. ومن ألفة العمل الثوري وأسبقية السياسة والفلسفة تتولد في العاطفة موجات من الحماس البطولي تكهرب الجماعة وتلهب تشوفاتها. والحماس رغوة العاطفة وفيضها غير المستقر. ويحاول التنظيم الشيوعي أن يدخل عنصر العاطفة في حسابه، بتشجيع الولاء لشخصية القائد، لكن القاعدة تبقى هي الفكر ولا يكون الولاء للقائد إلا إعجابا وحماسا. يقول دستور الحزب الشيوعي الصيني لسنة 1969 : «يجب على أعضاء الحزب الشيوعي الصيني أولا : أن يدرسوا ويطبقوا الماركسية – اللينية – أفكار ماوتسي تونغ بصورة حية»، فأول واجب العضو واجب فكري حماسي خلاق للولاء البطولي.

وما هكذا يكون عضو الجماعة الإسلامية، إن عاطفته أساس إيمانه ومجمع كيانه، تلك حقيقته في ذاته. أما حقيقته الجهادية فهي الانضباط وإحكام الوقت والجهد. ويحافظ التنظيم على

الحقيقة الإيمانية دون أن يزول عن المنطلق التنظيمي، ويمارس الجهاد المنظم دون أن يضيع الحقيقة العاطفية. وبعبارة أخرى يكون العضو سالكا بعقله في عمله مع الجماعة في الوقت نفسه الذي يكون منهمكا في مناجاة ربه والتقرب إليه، وبنفس الحركة. فإذا كان الصوفي وظيفته التسبيح الفردى، ويترك سائر عمله عرضة لدواعي الجذب والغموض، فإن عضو الجماعة المجاهدة ينبغي أن يتخذ التسبيح والفرض والنفل وشيجه بينه وبين الله، من حيث كونه يسبح مع جماعته، ويؤدي معها فرضه، ويجعل أعظم نفله محبتها وخدمتها والتفاني في نفع المسلمين ورعاية الخلق أجمعين. ولا يزال داعي التفقه المنهاجي يسير بنا في طريق اكتشاق الإنسان المضطرب، نبحث عن الاستقرار والعدل، وعن الجماعة التي تغير معاني المجتمع، ونبحث عن الله عز وحل ومرضاته.

مركزية الطاعة

على خط الخصال العشر المنهاجية حددنا واجبات السالك وحقوقه. ويختفي الحق في ثنايا الواجب، لأن الحقوق المبذولة عطاء متبادل ضمنى في ظل الطاعة لصاحب الأمر، والحق المكتسب بالجهاد حق عند الله يتجاوز عالم الفتنة وجهادها ويتسامى على كل مطمح ويقتحم كل عقبة.

العضو العامل مطالبةً بالحق ليس له من العضوية إلا اسمها، وتجد في التنظيمات الحزبية متفرجين ممن ينتمون للحزب لا يشاركون إلا بالضجيج وانتظار المغنم. أما العضو العامل فهو من يسأل قبل كل شيء: ما هو العمل؟ وما يمكنني أن أساهم به؟ وإذا كان الحق لا ينفصل عن الواجب في التنظيم الجهادي انفصالا، وإنما ينسحب من الواجهة وينسحب من العقلية قليلا أو كثيرا حسب سمو الحافز وقوة دواعي البذل والإيثار، فإن التطوع لأداء الواجب لا يكون نشاطا خلاقا إلا إن حاطته طاعة وصانه انضباط.

قبل قيام الأمر الإسلامي توجد تنظيمات نلحظ منها جماعة الإخوان المسلمين وجماعة باكستان وجماعة التبليغ، وغيرها الكثير المبارك بإذن الله، ويرجع نجاح من نجح من هذه الجماعات فيما يرجع إلى مكان الطاعة والانضباط. فأي عضو لا يتم اندماجه

في التنظيم إلا بإعطائه القياد لأمير يطيعه، ويخط له سياجا للعمل يتقدم فيه بكل شخصيته ويتفاعل على خطه مع إرداة الجماعة الممثلة في القائد. وبعد قيام الأمر الإسلامي توحد الدعوة المنظمة جماعات الدعوة في تنظيم واحد يدين بالطاعة لقيادة واحدة، أو في جبهة إسلامية قطرية تقوم في وجه الطبقة اللائيكية حتى تستخلص منها مقاليد الحكم.

القائد المجاهد هو الرجل الذي يبادر لإعلان توبته ويتقدم ليتقمص الدور الرباني متعرضا لموعود الله. له من مبادرته أسبقية، ويمكن أن يكون هذا القائد قاصرا عن الربانية الكاملة التي تؤهله لحمل الدعوة، واستجلاب الهم والإرادات للتطوع. وهذا لا يمنع من أن تكون له الطاعة العامة كما تكون له طاعة الدعوة، لأن علماءنا أفاضوا في البحث عن جواز إمامة المفضول في حال وجود الفاضل أو غيابه. وإذن فالقائد الإمام صاحب الأمر العام والطاعة العامة هو نفسه قائد التنظيم وصاحب الطاعة التي يمنحها المتطوعون للجهاد.

وقد تعثر التنظيم الشيوعي منذ عهد لينين في التعارض الذي وقع بين ضرورة المركزية الديمقراطية نظريا، ومعنى ذلك أن تكون للتنظيم قيادة قوية منبثقة من إرادة الجماهير، وبين واقع المركزية الاستبدادية الذي مثله ستالين، وقلده كل زعيم صنع عملا مذكورا

في أرض الشيوعيات. تتعثر النظرية الثورية والممارسة الثورية في البحث عن القيادة القوية فلا تجدها إلا في الاستبداد الفردي الزائغ عن النظرية الديمقراطية المركزية. ويدل الواقع الشيوعي على أن قوة القيادة واستبداد القيادة بالتوجيه عامل حاسم في نجاح الثورة.

والإسلام يركز الجهاد في يد قائد يبايعه الناس ويطيعون له، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث اثنين فما فوق أمر أحدهم على الأخرين وأمرهم بطاعته. فلا تردد في الفقه المنهاجي فيما يرجع لمركزية الطاعة وضرورتها، وإنما تحدد الطاعة وتحدد المركزية بشرطين؛ أولهما أن يكون القائد رضى للجماعة، اختارته عن طواعية وبايعته على غير كره، وثانيهما أن يطيع الله ورسوله فإن زاغ خلعوه حقا لهم وواجبا عليهم.

ونحب أن نميز بين قيادتين، يجب أن تبقى وظيفتهما متميزة في ظل الحكم الإسلامي؛ هما قيادة الدعوة وقيادة الدولة. عند الشيوعية يبدأ الزعيم قبل الاستيلاء على السلطان قائدا للحزب، وبعد ذلك يتطابق جهاز الحزب مع جهاز الحكم، ويتركب الحكم مع الحزب فيكونان جهازا واحدا منه يصدر الأمر وإليه ينتهي. وأمامنا تخبط الشيوعية بعد الزعامة المستبدة في بحثها عن صيغة للحكم الجماعي، يترجمها التنظيم المؤسسي الذي يفصل ظاهرا

الحزب عن الحكم، ويضع بجانبها رئيسا للدولة. غير أن ذلك لا يمنع أن تكون الهيمنة لجهاز الحزب في كل ميدان. وليس للشيوعية أن تهتدي إلى غير ذلك، لأن الحزب والدولة يعملان لهدف واحد هو الهدف الاقتصادي، ولا يجد الحزب أفقا غيره ليشتغل به، فيزاحم الإدارة البيروقراطية، ولا يقتصر على مراقبتها، بل يهيمن وينشىء الحركة ويخطط لها وينفذها. بل يصبح هو البيروقراطية.

أما في الإسلام فإن الدعوة لا معنى لها إلا إن تجاوزت بالإنسان وعيه الاقتصادي، وبعثت فيه رغبة الإيمان ورغبة الكمال، فلذلك بعث الله رسله وأنبياءه وأورث أولياءه دعوتهم. وليس معنى هذا أن الدعوة ورجالها في ظل الإسلام لا يهتمون بالهدف الاقتصادي. كلا! فإن قاعدة العدل وإقامتها هدف لا يقدر على تحقيقه إلا من أتاه من أعلى. لكن الدعوة ورجالها لا ينهمكون ولا تتركز كل جهودهم في إقامة العدل، بل هم أساسا نموذج للمؤمن المقبل على ربه بنفس الحركة التي يقبل بها على استصلاح الأرض وتكثير الخير وتعميمه على الناس. فالإقبال على الله والسعي نحو المقصد والغاية وظيفة رجال الدعوة، ولهم غيرها وظيفة أخرى بصفتهم أعضاء في جماعة المسلمين عليهم واجب الطاعة العامة كما على الناس.

وهكذا فينبغي للدعوة المنظمة أن تكون اليد اليمنى للحاكم

الإسلامي دون أن تتحول أداة تنهمك في شؤون الهدف فتضيع المقصد والغاية. وهذا مطمح صعب جدا. فإن لم نجتهد غدا في جمع الطاعة وتركزها بلا خلط، فإن مصير الدول الدائلة يتهددنا. وما من دولة إلا بدأت بدعوة، ويأتي السلطان فيلتهم رجال الدعوة ويستهلك جهودهم في الأرض فينسون تربية الأجيال والجهاد المتفتح على العالم الحامل للرسالة.

لهذا نلح على ما نسميه بثنائية الدعوة والدولة، وهو نظر لا نرى له في واقع الناس إلا أمثلة متفرقة، لصعوبة الجمع بين وظيفتين في يد واحدة. فقد كان الرسل عليهم الصلاة والسلام رجال دعوة قبل كل شيء، لهم الطاعة من المؤمنين بدافع المحبة والثقة والتقرب إلى الله. وقد ينزع الناس اليد من الرسول فيقول بنو اسرائيل مثلا لسيدنا موسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾.وبنزعهم اليد من نبيهم أعرضوا عن الدعوة وكانوا قوما فاسقين. وكان رسولان جمعا بين الدعوة وتطوعها وطاعتها وبين الحكم وطاعته هما سيدنا موسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام. فكان معصومين تركزت في أيديهما الطاعة الشاملة فصرفا أمر الناس صرفا موفقا. وجاءنا خبر نبيين خليفتين آتاهما الله الدعوة والملك معا وهما داوود وسليمان عليهما أفضل الصلاة والسلام.

فالمعصومون حملوا العبئين معا بهمة مقتدرة وبصيرة مدبرة، وداوود قبل نبوته وملكه قاتل تحت إمرة طالوت، ولم يك طالوت نبيا وإنما كان ملكا، بعث الله نبيا له في بني إسرائيل، فطلبوا إلى ربهم أن يبعث لهم ملكا ليجاهدوا تحت قيادته. فبرز طالوت بجنده ومعه نبي الله، وكان طالوت مؤمنا محسنا مطيعا لنبيه. فهذه نماذج لثنائية الدعوة والدولة، أحيانا يجاهد رجل الدعوة حتى يتم له النصر فتتركز عنده طاعة التطوع الجهادي وطاعة الأمر العام. وتارة يجتمع للرجل الواحد حكمة وملك فيدعو إلى ربه بسطوة النورانية وصولة السلطان. وتارة يصحب رجل الدولة رجل الدعوة ويقود الجهاد، فللنبي طاعة الدعوة من حيث كونه نبيا وله الطاعة الجهادية العامة من حيث أن طالوت كان يطيعه. فكان طالوت صاحب أمره، وكانت الطاعة متركزة في يد النبي.

هذا وإن أنبياء الله ورسله لهم من الله توفيق وعصمة فلا يضعون الأمور في غير مواضعها. وقد جاءتنا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه بالنموذج الكامل للجمع بين الدعوة المجاهدة والمعايشة المتساعدة، ورأينا كيف كانت الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مبنية على المحبة والبذل والإيثار. وكذلك كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. ومنذ سيدنا عثمان رضي الله عنه توسعت الرقعة، وغلبت الفتنة بعد ذهاب يد كانت تحمل

الدرة فتزجر بها من لا يسمع الكلم.

إن غد الإسلام هو غد الخلافة على منهاج النبوة، وسيكون الأمر دولة تدول إن لم يفتح الفكر النظري والتنظيم المرن المتعلم اجتهادا يعضد إيمان القائد المجاهد ويكمل النقص البشري، يرفع الدعوة مستوية على عروشها، مشرفة على الساحة مراقبة غير منهمكة ولا مستهلكة.

إن رجل الدعوة رجل تهفو إليه الأفئدة، فهو مناط المحبة ومناط الرجاء للكمال والإحسان، فبالمحبة يجمع القلوب، وعلى المحبة ينسج تطوع المتطوعين للجهاد على منوال الطاعة. وأيا ما كان فهو غير معصوم، فإن جمع إلى هذه المحبة وجلالها الطاعة العامة فبم تحدثه نفسه إن لم يكن عبدا مطهرا كاملا؟.

مركزية الطاعة في الإسلام يحدها اختيار أولي الحل والعقد، وحرية الخلع وواجبه إن زاغ. والإمام بين هذين الحدين متروك لنفسه يلجمها ويزجرها ويربيها ويروضها على الصبر والصدق. وقد رأينا كيف خطب عمر بن الخطاب، ليخبر الناس أنه كان في صباه يرعى على خالاته بقبضة من تمر، يحسب ذلك اليوم أي يوم! كان يربي بذلك نفسه لكيلا تطغى، ويهينها لترتد عن غلوائها.

ومن يقدر على ما يقدر عليه عمر؟

مركزية الطاعة ضرورة نظامية إنسانية سيكولوجية تربوية؛ إن النموذج العالي الذي يصبح في عين الناس رمزا ومثلا أكبر حافز للجهاد. تسمع كلمته فتكون لها صولة هائلة وينظر إلى وجهه فيوحي إلى الناس معاني النبل ويوقظ فيهم داعي المحبة والبذل والإقدام. لا شك أن كل قائد ينصرف على نمطه وحسب كفاياته وقدرته على الاستقلال بالرأي والعزم. بيد أن المبادئ الدستورية في انتخاب الشخص المركزي وخلعه لا تكفي لتحديد وظيفة الإمام، بل لا بد من اجتهاد لتستقر ثنائية الدعوة والدولة على نسق معلوم.

لكي نعبر عن خطر الانحراف عن معاني الخلافة إلى معاني الدولة، نضرب مثلا بعبادة الشخصية وهي وباء الشيوعيات بل هو وباء أكثر استحكاما عند حكام العض والجبر في بلاد المسلمين. إن الزعيم يتأله أمام نجاح قيادته، والأدهى من ذلك أن طبع الجماهير أن تلتمس الأمن في ظل صنم تتخيل له قدرة فائقة وتتوهم له كمالا، فهي تعبد ذلك المتأله وتنصب وجهها إليه، ذلك يقع عند الملحدين، فيكيف لو اجتمعت شخصية ستالين ونجاحه الاقتصادي بقدسية البابا مثلا ؟ إن إمام المسلمين رجل رباني ورجل دعوة قبل كل شيء، فله في القلوب محبة وإجلال وتعظيم. وقليل جدا من الرجال من لا يطغيه تعظيم الناس له

سيما إن أضيفت إلى ذلك سلطة السلطان.

إمام الدعوة قبلة للقلوب، فإن كان كاملا الكمال الروحي فهو الطود الشامخ، لا تزعزعه المظاهر. فقد مات عن الدنيا وحيي بروح الله. وطاعته عندئذ تنفع مثلما تنفع محبته، وهو لا يضره من ذلك شيء. إنه عندئذ مثال للأبوة الروحية لجميع المسلمين. وإن كان من الذين إذا رؤوا ذكر الله، فإن محبته قربة ومن لا يعلم كيف يذكر الله فقد علم الله حيث قال:﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾[1]. فذلك الإمام تسطع نورانيته ويراه المؤمنون ويتذكرونه ويذكرون الله بذكره. وليس من الهيبة أبعد من هذا. فتصور أن الناس نشأوا على هذا التعظيم وهذه المحبة، ثم ولي الأمر من ليس له كمال. فما يكون وقع ذلك في نفسه؟ وما يكون أثره عليه؟ أو ليس يتملقه المتلقون فيتهاوى، ويدب إليه ديدان القراء فيفتنونه عن أمره؟

يجب أن تنتظم الخلافة على منهاج النبوة بحيث تيسر للإمام الخليفة القيام بوظيفتيه دون أن تطغى إحداهما على الأخرى، ودون أن يرهقه السلطان وطاعة الرقاب فيتأله أو ينحرف. ولا يستطيع التنظيم الدستوري أن يهيء ذلك إلا إن أدخل في حسابه مرونة لا تخلع وتنصب بتسرع فتضيع المثال وتكسر عاطفة المسلمين،

1 البقرة 199.

ولا تلين حتى تقبل خطأ لا يستقيم مع الأسوة الحسنة في إبراهيم والذين معه ومحمد صلى الله عليه وسلم والذين معه.

والإمام الخليفة رجل دعوة قبل كل شيء، وإن كان في فترة القيادة الجهادية لا بد أن يأخذ الأمر كله بقوة حتى يصفو الاتجاه، فإنه بعد استقرار الأمر الإسلامي ينبغي أن يشرف على أمر المسلمين، وأمرهم شورى بينهم. فهم يتخاصمون ويتشاورون على مصالحهم الاقتصادية، وهو يشرف ويوجه، ويحسم إن اقتضى الحال. وبعد أمر المسلمين بل قبله أمر الله تعالى وهو الدعوة والجهاد.

الإمام الخليفة بين الأمرين، أمر الله وأمر المسلمين، إنه مع المسلمين في مجالسهم ومساجدهم، على المنبر وفي المحراب ليبلغهم أمر الله ويحثهم عليه ويحيي قلوبهم بمواساته ومثاله. وهو مع الله في كل وقت وفي خدمة أمر المسلمين.

بين الأمرين مجال لاجتهاد الفقهاء الدستوريين، ومجال لتوفيق الله عبده الإمام حتى تستوي لنا غدا خلافة على منهاج النبوة. وأمامنا للدرس والتعلم في ملكوت الله عبادة الشخصية عند الشيوعيين، هي لهم ضرورة لا يعترفون بها، وبإزائها خبط الديمقراطيات وغلیانها الديمقراطي الذي لا يستقر بين انتخاب رئيس لا سلطة له، أو رئيس له سلطة لا ينفك يتجاذبها مع

منتخبيه وممثليهم. أولئك الجاهليون لا دعوة لهم، والدعوة الثورية لا نسميها دعوة لأنها عند الهدف الاقتصادي قاعدة. ومع قصور أمرهم على الهدف الواحد الموحد، منذ انتهوا من كنيستهم، فهم يشعرون بحاجة أجهزتهم لمركزية تعطى القوة وتفرض الاتجاه. وقد عبر عن ذلك أحد قادتهم المعجب بالنموذج الرئاسي الأميركي حيث قال بأن الرئيس له الدفع والاستمرار impulsion et continuité ولجهاز الحكم إعداد الخطة وتنفيذها prévision et action .

إن المبايعة للإمام عملية بواسطتها تأخذ المؤمن من عروته التي بها يمسك، وهي ذمته. فبطاعته وتطوعه للجهاد تكون مركزية الطاعة هي الدفع والاستقرار والعمل معا.

النصيحة

المحبة ثوب رضى يخلعه الله على من يشاء من عباده. فقد امتن على عبده موسى قال: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**﴾. فالمسلمون يحبون رجل الدعوة حبا خالصا لما أعطاه ربه من نورانية وبصيرة يدعو عليهما إلى ربه. وإمام المسلمين وخليفتهم غدا لن يصنع له المحبة صانع خارجي ولن يخلعها عليه إلا ربه إن صدقه الوجهة وأخلص له النية، فإذا كانت طاعة رجل الدعوة طاعة محبة متصلة بطاعة الله ورسوله، فصاحب الأمر العام ينبغي أن يستحق هذه المحبة قبل أن تعطاه مقاليد الأمور، أو نقول بلسان دارج : ينغي أن يستوي على عرش القلوب قبل أن يستوي إماما للأمر العام. أمرنا الله عز وجل أن نطيع الله والرسول وأولي الأمر، فهي سلسلة متصلة تتدرج من ربوبية الله إلى ناسوت الإمام عبر الأسوة الحسنة والنموذج الخالد. وينبغي أن يكون الإمام حكما مرضيا وأن يكون أمره مقضيا، فهو خليفة الرسول الشاهد على الأمة بالقسط.

طاعة الدنيا طاعة ظاهرة لا تحاسب على القبول العاطفي، أما طاعة الله الممثلة في طاعة الخليفة فهي شرط الإيمان، وكمالها أن يصحبها قبول في القلب وتسليم كامل. إنها عطاء غير مشروط

ولا محدود. قال الله:﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾. والخليفة له مثل ذلك من أمته. فهي طاعة كاملة تختلف عن طاعة الجاهليات اختلافا جوهريا كما يختلف انضباط المؤمن بإيمانه وطاعة ذمته اختلافا جوهريا.

فهاتان قائمتان من قوائم الجماعة المؤمنة، المحبة والطاعة، وبينهما تضامن وتساند، المحبة بلا طاعة عاطفية مائعة، والطاعة بلا محبة ضبط عسكري تسمع منه قعقعة العنف الجاهلي. بيد أن الجماعة لا تقوم على قائمتين حتى تكمل الثالثة وهي النصيحة. ليست الجماعة قطيعا أعمى يساق بالعصا، ولا كوكبة من الملائكة ترفرف في أنوار الملكوت متحابة متعاطفة. حقائق الأرض ومصالح الدنيا تفرق وتكدر، وتنسي لحظة من التظالم لحظات الصفو ولحظات التسليم المحب.

فلا بد للأمة في مجموعها من خصام، لذلك شرع الله المحاكمة وشرع الحدود، ولذلك ينظم القضاء الإسلامي العطاء والأخذ. ولا بد من اختلاف ينشأ في صف الدعوة وصف الأمة جمعاء، لذلك فحيوية الدعوة في تنظيمها الداخلي وحيويتها في نشاطها بين المسلمين تتوقف على فسح آفاق النصيحة وتنظيمها وضبطها بضوابط حرية الاجتهاد وواجب الصدق.

إن التنظيم معناه الضبط والانضباط، فلا بد من قيادة ضابطة وطاعة منضبطة. ومن طبع الإنسان أن يتمرد بأنانيته على الطاعة أو يراوغها إن كانت تشوش عادته أو تمنعه شهوة وارتفاقا وكسلا. ففي التنظيمات الجاهلية تُعد النظرية مكانا بارزا لمركزية القيادة والانضباط تحت لوائها وتعقد فاعلية الحركة على قوة القيادة، وتبرهن الممارسة على صحة ذلك وتؤكده. لكن موطن الخلل هو صعوبة المصالحة بين مركزية القيادة وبين ضرورة التزام الأعضاء عن تراض وتشاور. ففي النظرية يسمى لقاء المركزية بالتراضي «مركزية ديمقراطية»، وينتظر بمقتضى هذا أن تنبثق القيادة من إرادة القاعدة. وعندما ينزل التنظيم لميدان العمل يتبين أن القاعدة تتكون من ذرات بشرية شديدة الاختلاف مائلة للتنافر والتحزب والتعصب، وذلك يشل الحركة، فيضطرون أن يأتي التوجيه من أعلى. وهكذا تعلو طبقة من ذوي الشكيمة على مراتب التنظيم، ويطول بينهم النزاع أو يقصر حتى يمسك الأقوى أو الأدهى زمام الأمر، وتتحول مركزية القيادة إلى عبادة الشخصية.

الجهاز القيادي الجاهلي الثوري يفتقد داعي الثقة والانضباط الذي يجمع إرادات حرة تدعم القيادة وتطيعها ولا تبدد الجهود في النقاش الفارغ والتكتل المفرق. وإن علاقات الأعضاء فيما بينهم وعلاقاتهم بالقيادة لا تزال ولن تزال مؤسسة على السوْق

الاستبدادي ودمية تسيرها أيد ماهرة قاهرة. وإن أصحاب الجدلية الثورية يدركون جيدا التناقض بين طرفي العبارة: « المركزية الديمقراطية» ويدركون جيدا أن الجماعات بلا راع وقائد قطيع لا وحدة بينه ولا فاعلية له، لكنهم لا يحسنون أن يمهدوا لمشاركة أعضاء التنظيم في العمل، ويبقى عندهم طرف «الديموقراطية» في عبارة التنظيم تعويذة مبررة. وما أشبه ديمقراطية الشيوعية بديمقراطية الانتخابات في بلادنا، سواء منها الثورية الاشتراكية وصاحبتها. ففي بلادنا وبلادهم تبلغ نسبة الموافقين بضعا وتسعين ونيفا في المائة لا تتخلف، وتدل دلالة واضحة على أن الموافقة ما كانت مشاركة إلا بحركة السعي إلى مخادع التصويت.

وعند الشيوعية المربية يهتف شعار «خط الجماهير» أن الانطلاق ينبغي أن يكون من الجماهير ليعود الأمر إلى الجماهير، بعد تمحيص الرأي وغربلته وإغنائه. ولا تزال هذه الشيوعية تتمخض ولن تلد إلا طاغوتا كما ولدت سابقاتها. ونجد في تشوفات القادة الصينيين وتطلعاتهم وصفا للألفة والخدمة كما يتصورونها. يقول قائلهم في المؤتمر الثامن سنة 1956:[1] «إن واجب قيادة الحزب أن تعرف، عبر عملية ''الانطلاق من الجماهير للعودة إلى الجماهير'' وتكرارها اللامتناهي، كيف ترفع بصورة دائمة معرفة

1 «في التنظيم الثوري».جورج طرابيشي ص 244

الحزب والجماهير، وكيف تتقدم بعمل الحزب والشعب بصورة دائمة. وإن من واجب الحزب وأعضائه، في سبيل هذا الهدف، أن يقيموا صلات كثيرة ووثيقة مع العمال والفلاحين والمثقفين وسائر المواطنين، مع اهتمامهم الدائم بتوسيع هذه الصلات وتدعيمها. إن من واجب كل عضو أن يفهم التناغم القائم بين مصلحة الحزب ومصلحة الشعب، بين أن يكون مسؤولا أمام الحزب وبين أن يكون مسؤولا أمام الشعب من واجبه أن يضع نفسه من كل قلبه في خدمة الجماهير الشعبية وأن يستشيرها باستمرار، وأن يصغي إلى صوتها، وأن يطلع على مشاقها وآلامها، وأن يساعدها بكل ما في وسعه على تحقيق رغائبها. إن الحزب الشيوعي الصيني هو حزب في السلطة. لذا فمن الأهمية بمكان بالنسبة إليه أن يكون متواضعا وفطنا، وأن يحذر العجرفة وقلة الصبر، وأن يناضل بقوة ضد النزعة البيروقراطية التي تبتعد عن الجماهير وواقع الحياة في كل منظمة من منظمات الحزب وفي كل إدارة حكومية أو منظمة اقتصادية».

أوردنا هذا النص لما فيه من مثالية ولما يترجم عنه من صعوبات نبعت من الممارسة الثورية الغنية الناجحة المتحدية للعالم. فمن فطنة الشيوعية المربية ودهائها أن نفهم «خط الجماهير» فهما أكثر مرونة من مفهوم المركزية الديمقراطية، وإن كانت العاطفية

الصينية تتسلل بين السطور في خجل واستحياء، وتغطي عليها اعتبارات المصلحة وضرورة الفهم والعقل وواقع الحياة.

إن الإسلام ينطق بالحق لا يعلق بوضوحه شوائب بشرية تُرنق صفوه، فالعلاقات بين أعضاء جماعة المؤمنين هي علاقات ولاية، المحبة أبرز صفاتها وأولاها؛ فلا يخجل المؤمن أن يمارس محبته كما لا يخجل الشيوعي أن يمارس ديمقراطيته الثورية، إلا أن هذه وهم وراءه عنجهية الحاكم المتسلط، وتلك صادقة. والتنظيم الشيوعي يسمي استبداد القيادة وتأله القائد مركزية ديموقراطية نفاقا إيديولوجيا مبررا، ويسمي تناحر الأنانيات خطا جماهريا وما سوى ذلك، أما الإسلام فيقبل بوضوح بل يفرض بوضوح الطاعة على الرعية، ويسمي الرعية باسم واضح يدل على ثقة المرعي ورفق الراعي. ومع المحبة والطاعة النصيحة، وهي مساهمة كل مؤمن في الفكر والتخطيط والعمل.

إن للمنظمات صريرا منكرا وصريفا ينجلي بين آونة وآونة عن تصفيات يُلفظ فيها أشخاص على هامش التنظيم أو تقلع فيها رؤوس من على أجسادها، وما دام الأمر مصلحة اقتصادية وزعامة ودغدغة للأنانيات فما الأفراد إلا أرقام يجب أن يصطفوا طوع الأمر بمقتضى الفاعلية العقلانية المؤسسة للنظام. وفي الإسلام ترتبط الأهداف الدنيوية بالمقصد والغاية، فينطق ناطق الحق:

«لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا»، وينطق لسان الحق بأن اقتحام العقبة هو التواصي بالصبر والمرحمة، وإن الإنسان في خسر ما لم يتواص الناس بالحق ويتواصوا بالصبر. ويلح القرآن على وجوب الطاعة لدوي الأمر فإن طاعتهم من طاعة الله ورسوله.

فالعضو المؤمن في الجماعة الإيمانية ينبعث بحافز سعيه للخلاص والسلوك إلى ربه، وهو في التنظيم الجهادي يزداد رغبة في جزاء الله ومحبته، فإخوانه يحبهم ولا يرى منجاة له ولا مصيرا محمودا إلا بمحبتهم، وهو يطيع القائد الإمام طاعة لله ربه، ولا يمنعه الحب والطاعة من المساهمة في النصيحة والتواصي بالحق والصبر.

بين خطي الحق والواجب يتردد الجهد الجاهلي غدوا ورواحا، وجهد المؤمن دفع لواجب فرضه الله عليه. وفي أحسن صورة للعمل الجاهلي، وهو النضال الثوري، يتصور المناضل حقه خيرا مغصوبا وواجبه غضبا ثائرا، فيكون له من غضبه وطلبه مجال لإرضاء نزعته للبطولة والزعامة المأسوية. أما المؤمن فقد أمره الله بالتواصي بالحق والصبر، وبين له في الآية الأخرى أن الحق هو المرحمة أي المحبة والتعرض لرحمة الله من خلالها.

الحق الذي يتواصى عليه المؤمنون ويتناصحون به هو التفاني في خدمة الجماعة مقتحمين عقبة الأنانية، يحبون إخوانهم ويواسون،

وبذلك يستحقون الجنة لانهم أحبوا فآمنوا، ومن لا يحب لا يؤمن.

والطرف الثاني من التواصي والنصيحة هو الصبر والصبر خدمة وبذل ومواصلة للجهاد. فإنك إن عاشرت إخوانك في حضن الولاية التي بين المؤمنين، فمهما وصلت بك عاطفة المحبة والغيرية لا بد أن تتعارض مصلحتك مع مصلحة غيرك، فماذا أنت فاعل؟ إنك تصبر فتتنازل عن بعض حقك وتتسامح، وتصبر على ماعناة أخيك والترفق به حتى يرجع إلى الحق والصبر ويشاركك في النصيحة.

بين الحق والواجب تتمزّع وشائج الجماعة أو تلتئم. فجماعة من رعاة الوهم أو من الفارين بدينهم يطلبون الحق ولا يبذلون الواجب. خذ مثلا لهم المتصوفة الأدعياء، أو الصادقين المنزويين. إنهم يفهمون المحبة فهما جيدا ويقصرون الطاعة في نطاقهم فيطبقونها تطبيقا ما، لكنهم لا يعرفون النصيحة وإنما يستبدلونها بمفهوم غامض هو التسليم. فالتسليم لأولياء الله أصحاب الكرامات أمر لا محيد لذى قلب وعقل عنه، وإن لله مع أوليائه معاملة لا يعترض عليها إلا هالك. لكن مفهوم التسليم ينسحب على كل نشاط المتصوفة، فكل حر في تصرفه لا يُعترض عليه مخافة دعوة نافذة أو حرمان. بدل النصيحة يتميع بين المتصوفة السلوك الإسلامي وتفشو البدع، حتى إن الجذب المزعوم لا يغطي

أكثر الأحيان إلا خبالا يتنكر تحت المرقعات أو كسلا وهبالا.

قال مولانا جعفر الصادق عليه السلام : «اشتغلنا بما أريد بنا عما أريد منا»، وهذا أجمل تعبير وأدقه عن حال من يترك الواجب متعلقا بوهم الحق. في عقلية المسلمين عامة رواسب خرافية تخلفت عن الخبط العقدي فيما لم يكلفنا الله به، هو القدر. فالعقيدة الجبرية تشل الحركة نحو الواجب وأدائه، ويلزم أن يقبل الناس كل ما يرد عليهم دون اعتراض، لأن المشيئة مشيئة الله، ولأن العبد مسير. وهذا تعطيل للواجب والنصيحة والتواصي بالحق والصبر. وفي عقلية الصوفية اشتغال بما يراد بالمريد عما يراد منه. فالفتح الرباني وترقبه حق مشروع للمبتدئ لكنه إن أصبح مشغلة له عاقه عن أداء الواجب وعاقه عن التمييز والنقد والنصيحة. ونحن نشكر الله أن جعل من رجال الطريق شهداء يفضح صحوهم وغناؤهم في الإسلام كسل المشتغلين بالترهات المشلولين. يميز بين الفريقين بعضهم إذ يذكر «صوفية الأخلاق» و«صوفية الحقائق»، وهو تقسيم سطحي أعمى؛ لأنه لا حقائق إلا بأخلاق، وإن أهل الحقائق هم أهل الأخلاق لكن نقسم الفريقين إلى «صوفية رباط» وهم أهل الواجب والنصيحة، أروع مثال لهم في عصرنا الإخوان المسلمون الأولون، وإلى «صوفية زاوية» وهم أهل التسليم، ومن بينهم الصادقون المعذورون في فرارهم بدينهم، وآخرون يشتغلون

بالمحال يبغونه بكسلهم وأحلامهم.

ما خرجنا عن موضوعنا، بل عمقناه إذ بحثنا عن مصادر تعطيل النصيحة والانشغال عنها عند الصوفية.

للتنظيم والحياة الجماعية مشاكل تتركز حول القيادة والاتصال بين الأعضاء والتعاون. فيعطي الإسلام للمؤمن عضو الجماعة حق الفلاح عند الله لقاء واجباته في الطاعة بعد المحبة وفي النصيحة المبذولة. وعلى كل عضو واجب النصيحة كما عليه واجب الطاعة. فالطاعة للقائد تفترض منعَتَه في الحق وكماله في الرأي، والنصيحة تفترض نقص الإنسان وحاجته لتكميل نقصه برأي أخيه وحكمته.

واجب النصيحة والتواصي المعممين اعتراف بالنقص البشري وواقعية، كما أن واجب الطاعة اعتراف بمثل ذلك. الرعية في ضعفها تحتاج لسند قوي معنوي يكسبها الثقة فلذلك يوجب الإسلام أن تتركز الهمم حول الإمام فتطيعه وتسير بسيره. والراعي عرضة في كل وقت للخطإ، وعرضة لطغيان النفس، لذلك ففرض عليه أن يتناصح مع المؤمنين وأن يقبل نصيحتهم.

ولن تجد من القادة والزعماء أبدا من يقبل النصيحة مثلما قبلها أبو بكر وعمر إلا أن يكون مثلهما. فقد خطب أبو بكر خطبته الأولى فأعلم الناس أن يعينوه إن أصاب وأن يقوموه إن

أخطأ. فاعترف بالخطأ وإمكانه، واستعد لقبول النصيحة بل هو استجلبها. وكان عمر تعترض عليه العجوز تنصحه فيقبل حقها وحق كل ناصح.

في كتاب الله وعيد شديد لمن لا يقبل حق الناصحين، قال تعالى:﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾. وهكذا يكون بذل النصيحة واجبا يتعلق بالذمم والضمائر، ويرتبط بالغاية والمصير الفردي. فلذلك يكون الإسلام أقدر على حل مشاكل النقد والنقد الذاتي وتعدد التيارات في التنظيم الجهادي.

دعوة إلى الخير

لعل من ورثة الجمود القروني من يعترضون أساسا على وجود تنظيم جهادي داخل الأمة، أو لا يتصورون أن تكون الدعوة منظمة، لأن التنظيم اقترن في الأذهان بالمباديء الحزبية ومنهج الاضطراب السياسي. فلمن يسأل عن مشروعية التنظيم في الإسلام نجيب بالضرورة العملية ونجيب بالنص القرآني. فأما من جهة الضرورة العملية فإن الأمة تشمل أفرادا يشكلون ذرات تتلقفها تيارات الفتنة تهيجها وتسخرها، وهي بعدُ غثاء لا يتماسك. وإن إسلام هذه الجماهير إسلام فردي متفتت تسبح فيه نخبة مؤمنة تجهل نفسها ولا تتعرف على الطريق. فأي دعوة تقوم قبل اجتماع الوازعين في القيادة المؤمنة تتشعت وتتسرب إن لم ينظمها سلك ويوحدها منهاج ضابط. وأي انبعاث إسلامي لا يسنده تنظيم للنخبة المؤمنة لن يكون إلا اضطرابا، ولن تتاح له ظروف الاستبداد التربوي ووسائله. وإن كان في بلادنا لا ينجح دعاة الحزب الواحد الاشتراكي إلا كمثل نجاح الأحزاب المتعددة، فلا يرجع ذلك لعدم فهم التنظيم وأهميته، بل يرجع لعدم استجابة الناس لأمر لا يثقون به ولا يخاطب شعورهم الإيماني. فالتنظيم الإسلامي للدعوة ضرورة وشرط أساسي للجهاد والعمل

والتجديد. وبالتنظيم تجتمع الطاقات المبعثرة وينتقل الإيمان من كونه شعورا يتفاوت يقظة وخبوا إلى كونه حركة تتناول الواقع وتغيره.

أما النص القرآني فهو قوله عز وجل:﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

فالاجتماع من التفرق ووحدة الاعتصام بحبل الله، يرجع إلى رباط الألفة بين القلوب، وهو المحبة، وهو نور الإيمان يمن الله علينا به ويجعلنا إخوانا. فلكي تستمر الألفة ولكي يستمر الاجتماع ينبغي أن يكون منا أمة يدعون إلى الخير ويسهرون على النظام. إن حبل الله يربط الأمة جميعا بالمحبة والذمة والطاعة، لكن يجب أن تكون أمة من الأمة، أي طائفة خاصة هم أهل الدعوة، يحافظون على الحبل المتين وعلى الألفة والأخوة والنظام. أمة خاصة من الأمة العامة هم النخبة، وهم أهل التطوع والإحسان. في آية أخرى خطاب للأمة جميعا:﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾، فلم تذكر

فيها الدعوة، وإنما ذكرت النصيحة والتواصي بالمعروف وبالصبر. ذلك لأن الدعوة إلى الخير لا يتأتى إلا لمن كان على بصيرة متبعا لرسوله عارفا السبيل. فالنصيحة يشارك فيها كل مسلم على قدر علمه وحلمه، وحسب قدرته على البذل والتطوع، أما الدعوة للخير فتقتضي أن يعرف الداعي الخير قبل أن يدعو إليه. والخير درجات، لكن الكلمة تحمل معنى التفضيل، فلعل الداعي يدعو إلى خير ما يعلمه يحسب ذلك غاية الغايات، وهو ما خبر إلا نصف الطريق أو دون ذلك. يدعوك داع إلى الإسلام وآخر لإيمان وإحسان، فصاحب المرتبة الإسلامية دعاك إلى خير حسبه جماع الأمر، وما عنده خبر بما تمتد إليه طريق السلوك، وهو التماس الزلفى إلى الله واقتباس النور من قلب المؤمن العارف بالله.

ثم إن الدعاة إلى الخير إن لم ينتظموا في سلك تبددت جهودهم وتنافروا وتدابروا، وهو حال المسلمين على مدى القرون. فمن كان منهم لا يعلم من الخير إلا شرعة الحق والطاعة والعبادة أنكر ما يدعو إليه أصحاب القلوب من رقائق المعاملات مع الله تبارك وتعالى. وهكذا تفترق طريق الصوفي عن طريق العامي، هذا يتجهم بدعوته ولها، وذلك يبشر ولا ينفر، ويخبر عن فضل الله الواسع ورحمته وعطائه لعبده إذا امتن عليه فأصبح سمعه وبصره ويده ورجله. والدعوة إخبار وتحديث، فما ينتهي تشعب التعابير،

وما ينتهي تكفير الناس للصوفي حين تفجأه الأنوار والأسرار، فيتلعثم لسانه وينطق بما لا يقبله نقل الناقلين.

فالدعوة إلى الخير تختلف في سلم المراتب على درجات الإسلام والإيمان والإحسان، وتختلف اختلافا أفقيا بين دعاة الطائفة الواحدة. ويبدو لك جليا أية صعوبات تعترض تنظيم الدعوة، وقد كان الشيخ البنا رحمه الله رائد التنظيم الإسلامي، فقد ألغى الطائفية ودعا ليجتمع المسلمون على ما يقرب بينهم ويتركوا الخلافات المذهبية، يسلم كل لصاحبه ما لا يضيره من الخلافات الجزئية. وما تم له شيء مما أراد إلا بإغماضه مراتب الإسلام الضائعة في المصطلحات، فجعل طلب الحقيقة الصوفية جزءا وفرعا من نشاط الأخ المسلم، وتفرغ للانتشار الأفقي على صعيد الإسلام العام. والآية الكريمة مطلقة في الدلالة على أن نخبة الأمة يجب أن تدعو إلى الخير، والخير في الحديث النبوي هو خير الآخرة، فذلك الإيمان، أما نص القرآن فلا يذكر الخير إلا مقرونا بالاصطفاء، فالمصطفون الأخيار هم الرسل والأنبياء، والخير الذي أوتوه هو الإحسان والكمال.

التنظيمات يمتد نشاطها في مجال أفقي عقلاني، إنه مجال يجدده من جميع جوانبه الكم، ولا تقبل الإيديولوجية انحرافا عن الخط العقلاني المذهبي بل تشجب عاطفية الصين وشاعرية كاسترو.

فبعد أن نكرر أن الدعوة الإسلامية إن نُظمت على أساس إسلام لا يرقى لإيمان وإحسان دعوة مبتورة، ننظر إلى ما يجب أن يتحمله التنظيم الإسلامي الإيماني الإحساني من اختلافات هي من طبيعة الحركة والعمل.

مارست المنظمات الثورية ثوريتها، وباحتكاك الآراء والإرادات قبل انتصار الشيوعيات وبعده، دققت النظرية الثورية مباديء التنظيم ومناهجه، وأعدت لمفاهيم النقد والنقد الذاتي مكانها في حركية الجماعة. فللأعضاء حق الاعتراض على القيادة بالنقد، وعلى القيادة واجب الانصياع للحق. وولدت الممارسة الثورية لأصحابها خلافات على مناهج التنفيذ وحتى على مباديء العمل، فنشأ ميل إلى إحياء التيارات التي تكون بين الثوريين قبل التنظيم الموحد. وتعارضت ضرورة الوحدة والمركزية الضامنة للفاعلية والمضاء بحق المساهمة والتعبير الديمقراطي عن الرأي وحق اختيار القيادة. ولا يزال النظام الشيوعي يتخبط مثل تخبط الأنظمة الديمقراطية أو أشد في مشاكل تقسيم السلط وحرية الفكر والانتخاب. ويتحمل التنظيم الإسلامي بواجب المحبة والطاعة والنصيحة ما لا تتحمله الأنظمة الجاهلية، يتحمله لطبع فيه وفطرة فطرها الخالق ربنا، ويتحمله لانفتاح باب الاجتهاد والتراضي والتشاور. ويتحمله بعد ذلك لتعلق التنظيم كله بالمصير، ولأن هذا المصير وخط السير إليه

تحكمه أوامر الحق، فلا يؤذن فيه لمن أخل بشروط الإيمان. ومن شروط الإيمان أن يحسم النزاع بالمحاكمة إلى الحكم المطلق النهائي، وهو الله عز وجل، يحكم بشرعه رسوله أو خليفة رسوله. كل نزاع على التنفيذ والمنهاج داخل التنظيم الإسلامي لن يؤول إلى فوضى وتباغض لوجود الحكم، قال الله عز وجل:﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾.

يدلنا تاريخ الإسلام على أن ما نشب من خلافات بين المسلمين لم تقفه كل هذه الاعتبارات. وكان الصدر الأول زمان الرجال الأفذاذ من الصحابة والتابعين، وكانوا أعلم الناس بالخير وأقربهم للمعروف، وأبعدهم عن المنكر. ومع ذلك تنازعوا ولم يتراضوا بالمعروف، بل احتكموا للسيف. وهكذا فيما بعد، فكيف ننظم نحن بعد كل ذلك الكدر أمرنا نزعم أن الإسلام يتيح لنا ما لا تتيحه الأنظمة الجاهلية؟

إن الصحابة اختلفوا في الحَكَم من يكون، اختلفوا على الخلافة فلم يعترف بعضهم ببعض. وزحمهم من تكاثر الداخلين في الإسلام وعنفهم ما أعجلهم عن التشاور والتصالح. ودالت من بعدهم دول كان خلافها يدور حول الحكم ومبدإ الحكم، أما في غد الإسلام فإن الخلافة على منهاج النبوة ستكون لنا اختيارا

نستبدل به واقعنا الغث المهين. من بعد جهلنا بالخير وإنكارنا للمعروف نقبل على خيرنا الضائع، ونتعارف على طريق وعدٍ قوي يدل عليه منهاجه. فلنا من ماضينا المفتون العريق في الفتنة درس، ولنا من واقعنا حافز، وفي تجاريب الإنسانية مُتعلَّم.

ما هو الخير، وماهو المعروف، وما هو المنكر؟ على هذا اختلف المسلمون وبلغ اختلافهم اليوم درجة لا رجاء معها للإلتئام. أو ليس من حكام المسلمين اليوم رهط من الكفرة الفجرة! إن الأمة جهلت الخير والمعروف، وما كان منكرا في شرع الله أصبح لدينا معروفا مطلوبا. في بلاد المسلمين نصارى وأهل ذمة، فأولئك نحسن إليهم كما أمرنا الله. لكن تدهور الإسلام أدى بنا إلى تصور غير إسلامي لعلاقة الناس بعضهم ببعض في أرض الإسلام. وردت علينا الفلسفات السياسية والإنسيات الجاهلية، فعلمتنا أن قيمة القيم هي الحرية والمساواة، وأن المواطنة هي القاسم المشترك بين السكان. وحلت علاقة المواطنة محل الخلاف المذهبي الذي كان عاملا من عوامل التفتيت، لكن بأي شيء أتانا التعارف على المواطنة؟

برز لميدان السياسة مواطنون دعوا لخيرهم، وخيرهم ضلال مبين وكفر وإلحاد لا يتكتم ولا يتستر. زعماء السياسة يقودوننا من الخطم ذللا ومنهم ملاحدة النصارى. وبمقتضى الزعامة

المواطنة يحكمنا أجلاف الناس لأنهم كانوا رائدي الدعوة القومية أو رائدي الطاغوت الاشتراكي. وقد اختلطت سماؤنا الإسلامية بأرض الكفر والفسوق فلا نعرف معروفا ولا ننكر منكرا.

لهذا فبدل أن نسأل : ما هو الخير وما هو المعروف والمنكر؟ ينبغي أن نبحث عن رأس الحكمة وملاكها ونسأل: من الأجدر أن يدعونا إلى خير ويعرفنا بمعروف وينهانا عن منكر؟ بهذا السؤال نضع مسألة الثقة ومسألة الفراغ القيادي، ومسألة الفجوة بين القادة الملحدين والفاسقين وبين الأمة المسلمة. ونضع أيضا مسألة الاستبداد التربوي.

إن الإسلام سيكون اختيار الأمة غدا وملاذها من الفوضى المذهبية، ومن التسلسل الانقلابي والسطحية. وسيجد القائد أمامه تصدعا في الرأي وتشتتا في الإرادات ووهنا، سيما عند الطبقة المثقفة أو دعية الثقافة. وما يرمي إليه جهاد الإمام هو بناء جماعة مؤمنة تخلف المجتمع الغثائي الحالي، فالانتقال من البنية المجتمعية إلى البنية الجماعية خير في حد ذاته كل الخير في حق الأمة جمعاء. وهو المقصد، وببلوغه يتحقق الهدف وتتأهل الأمة لحمل الرسالة كي تؤدي دورها الوجودي.

وهذا الخير لا سبيل له إلا عن طريق الخير الملموس للأمة كافة، ولكل فرد منها على حدة. فالأمة كافة تحتاج لعدل، والفرد يحتاج

لاستقرار في حق يقيم عليه وغاية يصمد إليها. وكل ذلك موضع خلاف وإبهام للجهل الفاشي والتميع الفكري والإرادي.

وهنا يبرهن القائد الإمام على مضاء العزم، فتكون دعوته إلى الخير وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر مبادرة مستبدة مربية[1]. بحق الطاعة العامة يعبئ القوى ويصرف الوجهة الضالة صوب هُداها. ومن حوله تتوافق النخبة الإيمانية لميعاد الجهاد، يأتي بها المحبة والتطوع، فتتكون قيادة جماعية تحضن التنظيم الجهادي بعد ميلاده، وتربيه لكي يرشد ويمارس النصيحة.

إن حبل الله الذي يجب أن نعتصم به جميعا يوم نجتمع من فرقة هو طاعة الإمام الذي وثقنا به. طاعة مشروطة ببيعة مشروطة وشورى ملزمة. وعلى هذا الحبل نحسم نزاعاتنا السابقة، ويحسمها لنا هو باستبداده التربوي ريثما تنشأ لنا علاقات أخوة وينشأ لنا رشد. والمذهب الغوغائي، وهو الصورة الوحيدة التي نستطيع تحت أنظمة العض والجبر نقلها من أشكال الديمقراطية، لا تحب الوصاية على الشعب كما تعبر، وتطلب ضمانات للحرية، وتندد بأبوية كل قائد يروم الاستبداد بالتوجيه.

الحرية في دار الإسلام المفتونة اليوم غوغائية لا أكثر ولا

1 أكرر أن ما أقصده بالاستبداد التربوي هو الطائلة المعنوية والسلطة الأخلاقية لا استبداد القمع والقهر. الإقناع لا حشر الناس في الأقماع.

أقل، فالحرية السياسية فوضى حزبية يحسمها الانقلاب الاشتراكي فيستبد استبدادا منحرفا عن القصد حسب ضلال قائده وحسب أوهامه. والحرية الفكرية انحلال في الرأي وفوضى لا يعوضها الالتزام الاشتراكي داخل الحزب الوحيد إلا بهزال ببغائي يرثى له.

والحريات العامة كما لقنتها لنا الجاهلية فساد في الخلق وتلويث للناشئة وتميع برهنت التجارب على أن الانقلابية لا تغير منه قليلا ولا كثيرا. ولن تستطيع الانقلابية أبدا أن تربي أمة فقيرة عفيفة نظيفة. وذلك لأن الانقلابية جسم طاف فوق خضم الأمة الساكن.

فمن شر الحريات وسوء فهم الحريات وشر اغتيال الحريات، يدعونا الإسلام إلى خير لا نعرفه اليوم وسنعرفه غدا بعد أن يمسك الإسلام بيدنا يخطو بنا نحو الخلاص خطوة خطوة، فنتعلم كيف نطيع، ثم نتعلم كيف نحب صاحب طاعتنا وربانيينا، ثم نتفسح في واجب النصيحة فإذا أمرنا بالمعروف أو نهينا عن المنكر كان لنا تصور واضح لما نأمر وننهي، وكان لنا سلوك يدعو بلسان الحال قبل أن تدعو الألسنة بلغة الكلام.

التنظيم الثوري يتطابق ويتراكب مع الجهاز التنفيذي، يميل إلى ذلك ميلا من طبيعته، ويتراكم السلطان في نفس الأيدي فإذا المجتمعات الشيوعية استبدادية طبقية وإذا الحزب والدولة جهاز

واحد حاكم بأمره يخنق كل فكر وكل ضمير، ويطوق الرقاب تطويقا من شأنه أن يبدأ لجدلية العنف الثوري حلقة تفضي لحلقة لكي يلبث الجاهلي في جهالته يعاني الحياة نكدا شقيا. والتنظيم الإسلامي غدا لن تحدد وظيفته النظرية المنهاجية، وإنما ستحددها الممارسة. فهل يكون للتنظيم واجب اليقظة والمراقبة دون الناس؟ وكيف يراقب ويساهم في التربية العامة والنصيحة؟ وهل ينتخب أهل الشورى من صفوفه وحده أهل الحل والعقد؟ وأسئلة تنظيمية دستورية كثيرة لا مجال لطرحها هنا ولا لمناقشتها في الهواء[1]. والحاصل لدينا أن قابليات المحبة والطاعة والنصيحة في إحكام التنظيم وتعزيز فاعليته كبيرة جدا مبشرة بالخير الموعود.

1 انظر كتابنا «دولة القرآن» وكتابنا «الإسلاميون والحكم».

المستضعفون الوارثون

لا نطرح من كل تلك الأسئلة إلا سؤالا واحدا هو: كيف يعمل التنظيم لكي ينصب جهاده على خدمة المستضعفين الوارثين، على خدمة ضعفهم ليصحبوا أقوياء، وعلى خدمة وراثتهم في اتصال شامل دائم بين المقصد والغاية؟ أو بعبارة أخرى ينبغي أن يكون التنظيم نخبةَ خدمة لا نخبةَ استعلاء. والممارسة الثورية عجمت عود الثوريين فوجدتهم لا يقوون على مقاومة إغراء الجاه والمال، وإغراء السيارات الخاصة والقصور والأسواق الثرية وسط الحرمان العام. ولا نشك أن وازع القرآن وحده لن يكون رادعا للمؤمنين من أصحاب التطوع عن الاستيثار والاستعلاء، فما تعصمهم ربانيتهم من الخطإ. إذن فلا بد أن يتدخل وازع السلطان ليرسم الوجهة ويخصص في مباديء التنظيم المسؤوليات تخصيصا دقيقا.

وفي هذه النقطة يلتقي جمهور الأمة بالنخبة القيادية وجند الدعوة الجهادي المنظم. إن المستضعفين الوارثين هم المدعوون للخير وهم الملبون. وهم وحدهم الذين يمكنهم عددهم وضعفهم وحضورهم في كل ميادين العمل من التعرف على خير الأخيار وفضح نفاق المندسين. إن المستضعفين الوارثين هم «المستهلكون» لنتاج التطوع والبذل، وهم ضحايا الظلم الفائت والخلط البائت،

فيعرفون الخير إن رأوا الخير، ولا يلتبس عليهم الباطل في شخص يغادونه ويماسونه، و يلتبس على زملائه في التنظيم لا يرونه إلا في معرض التأكيد اللفظي على حسن النية وخلوص الوجهة. جماعة المسلمين أينما كانوا هم الحارس اليقظ على الإسلام وعدله، الدالون على داعي الخير وفضله. فذلك نصيبهم من النصيحة من كان منهم لا يتجاوز نطاق الطاعة العامة لجهاد التطوع.

فمن هم أولا المستضعفون الوارثون ؟

الاستضعاف فعل واقع على المستضعفين، إنه ظلم الغني بالجاه أو المال لمن لا سند له في مجتمعاتنا الغثائية التي لا تقيم وزنا للمسكين ولا تعرف له قيمة ولا ترعى فيه ذمة. وإنه استهزاء المستهزئين من الملاحدة الساخرين بكل ما هو إسلام وإيمان وغيب. فبهذا يلتقي على صعيد الاستضعاف المسكين المظلوم على قلة ماله وجاهه والمؤمن المستهزأ به على إسلامه. وبهذا الاعتبار فليس التقسيم بين ظالم ومظلوم وساخر ومسخور منه تقسيما طبقيا بالمعنى الاقتصادي الاجتماعي على خط العمل وتوزيع نتاج العمل وما يلي ذلك في منطق الجدلية الماركسية. إنه تقسيم مذهبي بين المسلمين على إسلامهم وبين الغاوين من ضحايا الفتنة الجاهلية. وإن كان هذا التقسيم يمشي إلى حد كبير على خط التمايز الطبقي الماركسي، نظرا لأن المترفين منا

والملحدين هم الذين خولهم جاههم ومالهم أن يحتكوا بالكفار ويعايشوهم، ويتعلموا في مدارسهم الفكر الذي يمسخ قلوبهم والتقنية التي بها يستعبدون المساكين.

أما الوراثة فهي وراثة بالقوة لا بالفعل كما يقول المتكلمون. إن هذه الوراثة موعود الله المدخور لمن آمنوا وعملوا الصالحات. فما يكون المستضعفون وارثين من كونهم مظلومين محقورين؛ لكن تجيئهم الوراثة جزاء لقيامهم بأمر الله وتنفيذهم لإرادته. وإن الله جعل حكمة قدره معلقة بأسباب هذا العالم وبسعي الإنسان، فهو سبحانه محرك كل ساكن، لكن للحركة أسبابا يدركها المنطق وتتسلسل عليها الأحداث في نسق منطقي. وهذا ما تفسره الجدلية الماركسية في حركة التاريخ بالاستقراء والتعليل. فقد رأى ماركس الداهية أن الإنسان يمنع الخير عن غيره ويستأثر بأنانيته ويظلم، ومع كل ظلم حقد يجيب عنه ويتربص به. ويكمل التحليل الماركسي لتولد الطبقية ودواعي الصراع الطبقي التفوق الملحوظ للفقراء الناشئين نشأة الكد على المترفين في النعيم العاطلين في الحلية والحرير. تفوق في قوة الجسم وصلابة العزيمة وشدة المراس صفات نوه بها فلاسفة التاريخ في كل عصر.

وكل أولئك أسباب ظاهرة تؤهل المساكين العاملين أن يخلفوا المترفين في النعيم الذين أفسدتهم الزينة والفسق، أثقل كاهلهم

المال والبذخ الحضاري. لكنا نرجع إلى الفقه المنهاجي فنجد أن المستضعف أقل الناس أنانية فهو يستجيب لداعي الله أسرع من غيره بذمة لم تفسدها معالجة النفاق الحضاري. ونجد أن حظ المستضعف من العقلانية المطغية ومن الأثاث الموطد للعادة الممكِّن من الإغراق في الشهوات أقل من حظ الآخر. فالمستضعف أقل فتنة من صاحبه وأقدر أن يتوب ويبذل مهجته في سبيل الحق، وكذلك يفعل المستضعفون الجاهليون تحت شعار الثورة وضرورة «الدكتاتورية البرولتارية» لانتزاع حق العدل والمساواة من الطبقة الظالمة. أما في منطق الحركية المنهاجية، فالمستضعفون يطلبون حق العدل ضمنيا، لكنهم لا يهبون للعمل الكلي إلا جهادا لنصرة دينهم الذي ارتضوه وغصبه من حياتهم المترفون.

في مجتمعنا الإسلامي المفتون طوائف من المثقفين أدعياء الثقافة يعومون على سطح الأمة، هم بثور الوباء وأحلاس الكفر، ومنهم أيضا الرصيد العقلاني الضروري للانبعاث الإسلامي استثمارُه. المنحلون منهم المخنثون يطأون الأمة بكبرياء وقسوة، وأكثرهم مروءة ثوريون أو يروحون ريح الإديولوجية الكافرة. والمستضعفون من الأمة هم سوادها من الفلاحين وسائر المساكين. وهم الأقوياء على الحق مثفقون ظلوا على إيمانهم رغم انتمائهم الاجتماعي للطبقة المخنثة أو الملحدة. فهل يلتقي المستضعفون على الإيمان

وحده ؟ وهل يستطيع المؤمنون من ذوي المتاع أن يضربوا المثال ببذلهم وجهادهم في الصف لإخوانهم الفاسقين والكافرين؟

أم هل يكون العنف وتحزب المساكين لنزع السلطان من يد الطوائف المترفة وسيلة الإسلام كما هو وسيلة الثورة؟ هل يرث المستضعفون الأرض بقوة السلاح في دار الإسلام كما ورثوها به في أرض الجاهلية؟

نرجع إلى بلاد الإقطاعات «اللاتفندية» في أمريكا الجنوبية. إن من حسن صنع الله لنا أن الشيوعية ودعوتها في بلاد الإسلام لا تنبت ولا يقوم لها قائم. فذلك يدل على أن مستضعفي المسلمين لا يزالون متمسكين بدينهم لا تزحزحهم عنه مغريات النضال اليساري الكافر. ويدل على أن بين المثقفين الملحدين فجوة عظيمة وبين المستضعفين، لا يستطيعون عبورها ولو لبسوا للأمة لباس الثعالب، ولو يقوم الشيوعي الأحمر الكافر يخطب في الناس فيبدأ خطابه بالبسملة يخدع بذلك سامعيه وما ينخدعون. فحالنا بوجود الفجوة السحيقة وببؤس المساكين وانقطاع المترفين في دوائرهم المفرغة على نزاعاتهم أشبه بحال الإقطاع الأمريكي الجنوبي، وفي مثل هذه الحالة يستحيل التنظيم الثوري. وإذا حمل السلاح فإنما يحدث استعماله انقلابا في سلسلة الانقلابات وظاهرة لمرض الانقلابية المزمن.

لذا، ولعهد رسول الله لنا ألا نحمل السلاح على بعضنا، فوراثة المستضعفين لأرض الله لن تأتي عن طريق العنف. ويختلف الانتقال من حال الجاهلية عن الانتقال من حال الفتنة. فجاهلية فرعون وجاهلية قريش واجهها المسلمون مع سيدنا موسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، بقوة السلاح أما جاهلية الفتنة المعاصرة فالدعوة إلى تغييرها، كالدعوة في كل فتنة، يجب أن تكون إقناعا وجهادا مستشهدا وقياما بالقسط إلى أن يبتعث الله المنقذ. وليخسأ المنطق الجدلي وكل منطق سواه! فإننا أمة تؤمن بالغيب وبما عند الله مما وراء الأسباب. ونكرر أننا ننتظر المعجزة ونرجوها رجاء الداعين المجاهدين لا انتظار الحالمين. معجزة تترتب على أسباب، وقومة، وتربية، وتنظيم، وزحف، ومصانعة للواقع.

رؤوس الفتنة في دار الإسلام هم أصحاب السلطان المهيمنون على مصادر الرزق ومصادر الفكر ومصادر الحركة. وبهذه الهيمنة تطحن رحاهم طائفة من المستضعفين هم مناط الرجاء ومعقد الخير لغد الإسلام. إنهم شبابنا الذين نشأوا أيتاما منقطعين عن الأب والجد منذ دخلوا تلك المدرسة الشاهق بنياتها بين الأكواخ، المزرية بنظافتها وغرابة أثاثها وكتبها بالبيئة المحيطة وبالأسرة الجاهلة المريضة. إن شبابنا نشؤوهم على احتقار دينهم واحتقار أهلهم، فهم الضحية الكبرى، وهم عصب هذه الأمة ورجالها غدا.

إنهم أغرار ورطهم أساتذهم الملحدون في حمأة الفساد الخلقي والضياع الفكري والعاطفي، وورطهم الحكم الفاسد في مطالبة وتمرد وعنف، ينفسون بذلك عن شعورهم بالظلم ويشكو لسان حالهم بؤس ضمائر جديدة ملطخة ملوثة تائهة. ورطهم هؤلاء من حيث لا يشعرون، وورطهم أولئك بالقصد والكيد، فطرحوهم في الشوارع في نصب ولغوب، وجلسوا من خلفهم على أرائك الترف ومناضد العبث ينتظرون أن تؤسس لهم تعاسة الشباب وضياعهم مجدا يتسلقون إليه متلصصين. وما شعر رجال الحكم بالورطة لأنهم خانوا عهد الله وميثاقه فخذلهم الله، ولا استحيى المثقفون الملحدون من عرض بضاعتهم النتنة على الأغرار، وهم يعلمون أن قلوبهم أنفسهم هواء، وأن أحلامهم شعاع.

إن البذرة تطرحها في الأرض ويسقيها الغمام لأمل حصاد غني. ولو أطللت على البذرة قبل نباتها لرأيت ما يقطع عليك الرجاء. إنها تعفنت بعد أن أصابها الماء وتغير لونها وطعمها، وهي بعدُ حاملة لأمل الغد، وإنما غذاها تعفنها بأمزاج تتصفى من بعد، وتبرز ساقا نظيفا قويا وورقا أخضر مُعجبا. كذلك واقع الفتنة في أرض الإسلام، وما هذا الهزال وما هذه الهزائم العامة المتوالية وما هذا العنف العاجز إلا أمزاج وأمشاج تغذي جنين الإسلام المحمول في أحشاء هذه الأمة المستضعفة في كل ميدان، وهذا يوحدنا على

إسلامنا تجاه العالم المتألب.

إن مترفينا ورواد الجاهلية فينا قوم منا وإلينا، وإن الإسلام سلام وخير، ولن يكون كذلك إن تأسس على صراع الطبقات قبل نشأته وبعدها. وإن كثيرا من بين زعماء الفتنة بين ظهرانينا خرجوا من حجر المساكين ودرجوا من عشهم إلى بطولة الخزي وقيادة ركب الفساد. تنكروا لتعليم الأسرة المسكينة وناطحوا السحاب لما ملكوا لسانا ينطق وقلما إلى العتاهة يسبق. تحللوا من واجب الدين إلى حرية المواطنة التي أتاحتها الأنظمة الطاغوت، فكان منهم المواطن طه حسين والمواطن سلامة موسى والمواطن ابن البوسطجي بطل القومية، يفخر بانتمائه لأسرة مسكينة كأنما يغطي ذلك غطرسة الذئب وشراسته.

وعلى ساحة الحكم والثقافة، وهما شران متلازمان في بلادنا أحدهما طليب الآخر، قادة وأساتذة وزعماء يُصر أحدهم على أن يُعرف أنه من أسرة فلاحين ومساكين. وكأنما يعتبر ذلك مأثرة يبرر بها ترفه الحاضر واستكباره في الأرض بغير الحق. ولا يرث هؤلاء من ماضي غيرهم المستضعف إلا خزيا وعارا يوم يذل كل جبار عنيد ويخيب.

التوبة الإسلامية العامة غداة يجتمع في يدي الإمام وازعا السلطان والقرآن هي وحدها الكفيلة بحل تناقضاتنا وتعقداتنا. ما

أحوج المسلمين يومها إلى وعي مُوَحد يربط بين القلوب في الحضن الدافيء الرحيم! وعي يقلم أظافر البغي والتظالم بيننا، ويضع في الصف الأول للجهاد أولي الكفاية والغناء بورقة تعريف جديدة لا تسأل عن الماضي وأتعابه، بل تفتح حسابا جديدا يصنف رصيدُه تباعا كل مجاهد وكل باذل بحسب استحقاقه للوراثة بما كسبت يداه.

ومن التوبة يبدأ التنظيم، فتنظيم محاسبة على المظالم يصفي الحقوق المسلوبة، وتنظيم لحساب الغد لتعرف الأمة رجالها؛ فإنما الرجل وبلاؤه وغناؤه وقدمه في الإسلام كما كان يقول مولانا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ففي كل وراثة محاسبة وحساب. وينبغي أن لا تفهم وراثة المستضعفين فهما أعوج، ينبغي أن نعلم أن دعوة الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تعني الفوضى والمطالبة الجامحة والطفرة الحمقى. لن يفرغ مترفوا الأمس ديارهم المحصنة المؤثثة ليحتلها مساكين الفلاحين، ولن تنزع من ظالم الأمس رأسه. وإنما ينزع من كل حق معلوم كان سلبه، أو حق بالمعروف يوخذ من الكاسين بالحرير حتى يستوي الناس جميعا في الكساء، ومن الطاعم في سبعة أمعاء حتى تسد جوعه كل طاو وتعالج أمراض كل بائس. فالمحاسبة ورد المظالم شأن من شؤون الطاعة العامة تسندها اليقظة العامة، والحساب الجديد حساب

تطوع تنظمه النصيحة العامة. والمسيرة إلى ذلك طويلة شاقة.

عندما ينشر لواء الإسلام لموعود الله ورسوله وللخلافة على منهاج النبوة، سيجد قطر الانبعاث نفسه أمة غريبة في الأرض، أمة مستضعفة يحيط الريب بحركاتها ونواياها، وتستقطب أنظار العالم. فهذا من شأنه أن يساهم مساهمة قوية في توحيد الصف الداخلي وتقوية الدعوة والتنظيم. ها نحن أولاء على المسرح تحدق فينا الأعين وتترقبنا الأطماع والأحقاد. فهنا تبدو ضرورة الاستبداد التربوي وضرورة صرف النقد مصرفا بناء.

إن النصيحة غير حرية النقد وحرية الصحافة والإعلام كما يفهم الحرية «المواطنون» الذين حطموا سياج الأخلاق والقيم. النصيحة التزام بالخدمة والتزام بالوضوح في معالجة قضية الإسلام. وهي أيضا دعوة جامعة لا دعوة مفرقة. التنابز بالألقاب والنزاع النظري والمذهبي شِرَّة تعلمها مترفونا من الجاهلية وعنف. أما أمة المستضعفين حين يتسلمون إرثهم فالنصيحة تعليم من جهل وتشجيع على المعروف وفضح للداء الساكن ولظواهر الانتكاس إلى الأساليب المفتونة.

النصيحة خدمة للمستضعفين والتزام، فمن بذل النصيحة في جلاء وشارك في اليقظة العامة والجهاد العام انتمى إلى المستضعفين ورقم له في حسابه نصيب. ومن عبارة «بذل النصيحة» تظهر لك

معاني الواجب والعطاء كما تظهر من عبارة النقد معاني المطالبة والتصلب في الجدال.

تجمع الوراثة وواجب حمل أعباء الخلافة في الأرض وواجب أستاذية العالم كل الأمة على صعيد المسكنة والإخوة والتعاون. وإن دعوة الإسلام المنظمة مجال مفتوح لكل من تاب، تخوله التوبة ونصاحتُها أن يبغي عند الله مقاما يسلك إليه عن طريق الخدمة للجماعة والمحبة لها والطاعة. ومن لا يكن له توبة نصوح فالمستضعفون اليقظون لن تعوزهم قيادة من ذاتهم تحتضنه لكيلا يدس فكرا مفرقا ورأيا معوقا. وسيعمل رجال الدعوة في وضح النهار ونصاحته كما يعمل فلاحونا في وضح الشمس المحرقة، على الصبر والمثابرة والجد.

الفصل التاسع

الخلافة

الخليفة

إن فشل القادة في دار الإسلام وتعقد المشاكل المتعرضة لرجال الحكم، يدفع بدفة السفينة في مسار مطرد نحو التغيير. وهناك عوامل متنوعة تساهم كلها في فرض الوجهة الإسلامية، فكلما اداركت موجة من موجات الانقلابية في هاوية الفوضى وتلتها موجة أخرى، تحمل نذير الانهيار كما حملته سابقتها، قربنا ذلك إلى الحل الإسلامي. تنوء كواهل الحكام بعظم الحمل الذي تحملوه، وهم يدركون جيدا أن ما تنتظره منهم الأمة من حكمة وقيادة قوية محال لما يكتنف عقولهم وإرادتهم من ظلام في الرؤية وجبن أمام الأهوال الهادرة، فما في آفاقهم إلا مخرج المزايدة والتسخير.

الأمر أعظم من أن ينهض له الخاوية قلوبهم، وينظرون حواليهم باحثين عن إلهام فلا يتراءى لهم إلا الروغة الحاسمة الجريئة نحو الكفر والشيوعية الصريحة، وهذا لا تتبعه عليهم الأمة أبدا ولا على المساومة الخبيثة باسم الإسلام. وكل ذلك مما يصنع ربك لمستقبل الأمة المشرق، القريب غير البعيد.

وقد فضح الله قومنا العرب فضيحة نكراء ليميز الله الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله

في جهنم، أولئك هو الخاسرون. ذلك حين نبغ منا بطل العروبة وعدو الإسلام ففكر وقدر، فقتل كيف قدر! وزعمت له شياطينه أن على مسرح العالم دورا لقيادة القومية العربية ينتظر من يتقمصه، وذلك ما فعله وكتبه في هرائه المسمى «فلسفة الثورة». وكان الدور حقا معرض الفضيحة، رفع الله عليه هذه النتنة المفرقة لجماعة المسلمين ليخبط بها الرَّغام. ونحن العرب لا نزال نجر خزي قوميتنا في خرائبنا على مسمع ومرأى من العالم، لا نحسن إلا الأنين... والغناء والأناشيد البطولية بعد الهزيمة.

يتأخر فهم الناس للأحداث فلا يدركون ما دهاهم إلا بعد ابتعاد الداهية أو بعد أن يألفوها، وقد جلبت علينا القوميات في دار الإسلام دواهي ذوات العدد، دهمتنا وفاجأتنا فجزعنا من عجزنا وقلة غَنائنا. والآن بعد سنة من داهية انشطار باكستان وبعد ست سنوات من هزيمة العرب النكراء، أخذت هذه الأمة تدرك ما هنالك، ويحلل العقل ويرفض الضمير ويعاف كل هذه التصريحات المكررة وكل هذا التدليس السياسي الذي لا يخفي عن أعيننا حيرة القادة وسخافتهم.

وهكذا تعلن الأحداث، ويعلن الوعي في صفوف الأمة وتعلن آيات الله الفصيحة في الكتاب وفي الآفاق، أن ثمت دورا كونيا تعرضه يد القدرة الإلهية على الطالبين، وتستعرض له المرشحين،

وقد أتى أمر الله وحق الحق لتعود الأمة إلى عزها في حضن خلافة على منهاج النبوة.

إن السلطة في يد الحاكمين المترفين العاضين كانت لعنة على أصحابها في تاريخ هذه الأمة المفتون. وهي اليوم لعنة على قادتنا صارخة تلهبهم عليها سياط الله الذي يبعث من عباده من يشاء لما يشاء. ومن يتدبر واقعنا المعاصر ببصيرة وإيمان يتبين له كيف تتجه عوامل التاريخ العالمي وعوامل الحركة والاضطراب بين الأمة المسلمة وعوامل الشعور بالفراغ والتفاهة والفشل العام والانهيار الاقتصادي على كل مستوياتنا نحو النقطة المركزية، نقطة انتهاء عهد فاشل بالاعتراف المتبادل، والانطلاق على أساس جديد يبعث الثقة من مواتها والرجولة من انحلال المترفين ورهق المساكين. وما ثم إلا الإسلام، إسلام صدق لا إسلام شعار ومساومة.

تعرض يد القدر الإلهي دور القيادة الإسلامية للطالبين الصادقين. ومن قادتنا اليوم صادقون في طلبهم للإسلام، لا نشك في ذلك. لكن الذي يجب أن نفهمه هو أن إسلام هؤلاء إسلام من وراء ثلاثة حجب ! انه إسلام لا يقتحم العقبة بل يحوم حولها لا يدري ما هي ولا كيف تُعالَج إليها الأسباب. حجاب الأنانية يخلط في إرادتهم داعي تذلل النفس في الجهاد لله مع دواعي الزعامة والرئاسة. وقد خلف لنا بطل العروبة من

الكبرياء البطولية أحمالا لو وزعت على جماعة لما وسع أحدهم آفاق السماء والأرض استكبارا. والإسلام لا يقبل خبث الكبرياء، سيما في قائد الجهاد الإسلامي. فمن هنا لا نزال ننتظر عبدا خاضعا لله مسكينا هينا، إن كان لم يرع الغنم على خالاته فيتذكر ذلك ليقمع نفسه، فليكن عمر بن عبد العزيز ينزع ديباج الترف ليلبس قطن المساكين.

وحجاب العقلانية والغفلة يحول بين طالبي الإسلام وبين ما يبغون، إنهم قوميون اشتراكيون أولا، أو هم أباطرة حماة للإسلام في دائرة الإسلام الإسمي يخالفون القول عملا. وهم جميعا لا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.

وحجاب العادة يحول بينهم وبين الفحولة، فمن نشأ منهم في الترف والبذخ فشهواته أقوى من أن تسمح له بطهارة، وأمواله لعنة تثقله وهو يحملها لاهثا حائرا. ومن نشأ في غير ذلك فما يعرف شجاعة الصادقين المتئدة لكن تعصف به حمى الاشتراكية وطيش الذي لا يحب أن يتعلم ولا يشعر بحاجة لأن يتعلم.

سيأتي الله ربنا بقائد مجاهد ترشحه يد العزة والقدرة لخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم. لن يهبط علينا من سماء الأرض، بل سينبت من بيننا كما فطر الله أنبياءه الوارثين، فكل شيء من

حالنا يناديه، وكل عويصة من أمراضنا تنتظره. ولتشتت الأمة في أقطار قومياتها فسيمضي وقت قبل أن يحق للقائد المجاهد صدارة الأمة بكاملها واحتلال مجلس الخلافة. إنه في قطر الإنبعاث صوت يؤذن وفكر رائد مجدد، وروحانية متطهرة ويد تنتظم حركتها على المقود على إيقاع الاجتهاد وعلى إيقاع التوفيق الغيبي الإلهي الذي يخص الله به من أخلص له الوجهة.

لا بد من فترة يبرهن فيها القائد المجاهد في قطره على كفاياته بالنجاح الملموس الساطع قبل أن تنفتح له في أرجاء دار الإسلام قلوب الأمة وتنضوي تحت لوائه. فهو قائد وإمام في بلده حتى يظهر غناؤه في التقدم نحو الهدف الاقتصادي وفي تحويل المجتمع الغثائي جماعة حية. ومتى اجتمع في يده قطران من أقطار الفتنة حق له أن يعلن الخلاقة على منهاج النبوة، فإن أعوص شيء علينا بشهادة الأمس واليوم أن نتجاوز قماءة القطرية، وجبروت الحدود الجغرافية والعرقية.

لعل شاكا يشك وسائلا يسأل: فيم هذه الجمل الشعرية الحالمة وأين نحن من الخلافة ومقوماتها؟ لا نكتفي بالإجابة أن نؤكد أن كلمة واحدة تقال بقوة لقوم فارغي الأفئدة تعد إيجابية عظيمة وأن ما وصف وكتب فقد خطا خطوة نحو الواقع، لكن نلقن الغافل أن الله ربنا موجود، وأنه وعدنا ورسوله وعدا ما هو

بمخلفه، وأن الكدر سيزول ليصفو لنا الخير، ولنعز بعد ذل. ومن يقرأ القرآن ويفهم إشارته، فقد تدبر آية الله في وعد الآخرة واقترانها بالرحمة لهذه الأمة. ومن لا تقرع سمعه نذر الله قستقرعه قارعة ليزول عن طريق الإسلام. ولتعلمن نبأه بعد حين، وقد أتى أمر الله وخرت الأوثان على الأذقان.

نعطي عن الخليفة المرتقب صورة مثالية لطبيعة الغيبية المحيطة بمبعثه، فما هو إلا رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لكنه يومها فاتح لعهد جديد يستمر بعد موت الأشخاص دورا خالدا إلى يوم الدين. لهذا فلنمض في تفقهنا المنهاجي لننظر في التشريع الدستوري المنظم للخلافة النبوية الموجه لها. وقد كتب في الموضوع أبحاث لا بأس بها غداة تأسيس باكستان، في مرحلة من أحلام هذه الأمة؛ إذ ظنت أن الإرادة الشعبية وما يصحبها من حماس يكفيان لفرض نظام إسلامي يعزف عنه المثقفون ويتجاهلونه ويتنكرون له، كما تجهله العامة من أصحاب الحماس وتجهل مقوماته ومقدماته التربوية. وقد ورثنا أيضا عن مؤرخي النظم الإسلامية سردا لاجتهادات فقهائنا في تنظيم الحكم بعد فتنة الحكم وذهاب معاني الخلافة مع بقاء شكلها. فلنستعرض قليلا من اجتهاداتهم.

يذكر الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية» أن علماء الإسلام

على عهده عدوا من صفات الإمامة عشر صفات هي: البلوغ، والعقل والحرية، والذكورية ونسب قريش، وسلامة حاسة السمع والبصر، والنجدة، والكفاية، والورع، والعلم.

ولا إشكال في أن هذه الشروط العشرة شروط فقهية مؤسسة على الكتاب والسنة، ويجمعها الكفايات الثلاث : الكفاية الروحية والفكرية والعملية. باستثناء شرطين أحدهما تشريع إسلامي محض لا تعرفه الجاهلية وهو المتعلق بالذكورية، والثاني شرط طالما وقف عنده علماؤنا وداروا من حواليه واستنطقوه فاستعجم عليهم، وهو شرط النسب القريشي. فأما مكان المرأة في ظل الإسلام ووظيفتها فقد حدده القرآن، وجعلهن موطنا لسكن الرجل واستقرار الأسرة وما يليه من استقرار الجماعة. فما ينبغي للمرأة أن تكون العنصر الفاتن المتقلقل بوظيفتها الاجتماعية فتضاعف ما لها من فتنة وتقلقل بطبيعة نشأتها. وإنما عليهن أن يقرن في بيوتهن ليكن مربيات ولتكون الجنة تحت أقدامهن إن أنشأن الأمة وكلأنها وحطنها بالعناية. وصرح الحديث الشريف بأن الأمر العام من أمور المسلمين عرضة للخسران إن وليته المرأة. وهذا لا يعني بالطبع أن تحصر المرأة في بيتها في غير معروف، وإن منهن من ينفعن الأمة بعلمهن وعملهن، فما علينا إلا أن ننكر المنكر وندعو للخير ونعرف المعروف.

وأما النسب إلى قريش والأحاديث المخبرة بأن الأئمة من قريش واردة في الصحيح، فقد وقف العلماء أمام الأحاديث الواردة فيه، وطعن من طعن، وضعف من ضعف. وكانت الغلبة في عصور طويلة لقريش على أمر الأمة فترسب من كل ذلك هذا الشرط القبلي لغزا معمى إلا على المبصرين. إن الله خص آل البيت الكرام بالفضل وسعة العلم والبسطة في النورانية. ومتى عرضت العارضات وكان من بيننا أبو حسن في مثل علم الإمام الأعظم وحلمه وفحولته، فلا أحق بها منه. لكن النسب القبلي لا مزية له من نفسه، بل هو العصبية بعينها والرجعية والتنكر للإسلام. ولبيس نظام يقيس كفاية الناس بانتمائهم العرقي. كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أمرا صريحا غير مطعون فيه أن نسمع ونطيع ولو ولي علينا عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ! لا يعنينا هنا إن استغل الجامدون مثل هذا الحديث لتبرير المنكر في زمان الفتنة، وإنما يعنينا أن إمام الأمة وخليفة رسولها ينبغي أن يكون أكرم الناس على الله وعلى الناس، والقرآن الكريم يعلمنا أن أكرمنا عند الله أتقانا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] : «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى!**».

ومن يخض في أنهار فقهائنا ومن تبعهم، وإن كان الغزالي، لا

1 رواه الإمام أحمد والبيهقي وأبو نعيم من حديث جابر بن عبد الله

يعثر على اللآلئ، لأن اللآليء لا توجد إلا في البحر. ألا وان البحارين المهرة والغواصين على بصيرة من أهل الله أوليائه وأحبائه هم من يخرجون الأمة من ورطاتها. وقد فسر أحد الصوفية كون الأئمة من قريش بأن قريشا التي منها يكون الأئمة ليست القبيلة، بل هي أمة الداعين إلى الله الجامعين القارشين[1]، ولا يكون إماما إلا من جمع الأمة وجمع الحكمة والروحانية. فقُرَيشُ القَرْشِ علم وهبته الحكمة ولم يهبه التأويل، ومن يتصدى لميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافته في أمته فلن يكونه إلا إن عد في المسبحين في القارشين، الذين يسبحون اسم ربهم ويقرأون باسمه، يجمعون ما لا يقدر على جمعه إلا أهل الكمال. والحديث بَعدُ إخبار بالغيب لأن أهل الكمال القارشين الجامعين بعده صلى الله عليه وسلم هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهم من قبيلة النبي.

ذكر أبو يعلى أحاديث في إمامة قريش وما منها إلا ما يؤيد أن النص على قريش إخبار بواقع زمني لا تكليف وتشريع. وأظهر هذه الأحاديث ما رواه عن أبي المثنى الحمصي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]: «**الخلافة في قريش، والحكمة في الأنصار، والأذان في الحبشة**». فهذا يشير إلى أحداث مفردة،

1 قال في اللسان: القرش: الجمع والكسب و الضم من هنا وهنا.
2 رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة

وما يحتكر القريشيون الخلافة باستناد على مثل هذه الأحاديث إلا بحق يشبه حق كل أنصاري يزعم أن الحكمة موقوفة عليه، أو حق حبشي يلزم الناس أن يقفوا عن الآذان حتى يكون هو المؤذن!

وخير من شروط الغزالي وعلمائه اجتهاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياسته الشرعية؛ فقد عقد الفصل الثالث من كتابه للبحث عن الشرطين القرآنيين في من يلي الأمر العام. في القرآن اقتراح ابنة سيدنا شعيب على أبيها: ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾،فالقوة والأمانة مؤهلان للوفاء بالذمة. واقترح سيدنا يوسف على عزيز مصر أن يعلمه، قال:﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾. فلما كان حفظ الخزائن يبغي الأمانة، كان الأمين الحافظ والأمين العليم بالحساب هو الأقوى على الوظيفة. ولما بعث الله طالوت ملكا لبني اسرائيل أخبرهم النبي قائلا: ﴿**إن اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾. فاجتمعت خصلتا الأمانة والقوة في الموقف الجهادي عند كفاية العقل وكفاية القوة البدنية. لم يذكر ابن تيمية كل هذا، وإنما جعلناه مقدمة لنتأمل مقارنة ابن تيمية بين قوة خالد وأمانة أبي ذر، وإلحاحه على أن الخصلتين قلما تجتمعان في شخص واحد، ثم تقسيمه الشرطين والوفاء بهما حسب طبيعة الوظيفة، فيكتفى عنده بالأمانة في جمع

المال وحفظه، وبالقوة في إمارة الجند، والورع في القضاء وهكذا.

ويذكر ابن تيمية رحمه الله أن الضرورة تبيح تولية حتى من ليس أهلا للولاية العامة، يذكر كلامه ما اختصم فيه علماء الشيعة في جواز إمامة المفضول.

وإن كنا وجدنا عند الغزالي شرطا قبليا لوجود نص صحيح محير لا يهتدي لكشفه إلا فحول الرجال، فإن عند ابن تيمية على فضله وجهاده عقلية تبرر ولا تغير، ولعله كان في قبضة المماليك أعجز من أن يقترح تحديد الخلافة، وإنما ألح في كتبه إلحاحا كبيرا على أن أولي الأمر المقصودين في القرآن الواجبة طاعتهم على الأمة هم الأمراء والعلماء. وكأنما كان يرى رحمه الله أن قد حُمّ القضاء فلا يلي الأمر العام إلا حامل سيف الغصب يمشي في ركابه علماء جزئيون نسبيون مبررون. أما نحن فقد وسع الله علينا من حيرة طواغيتنا لنقول بوضوح: إن الخلافة على المنهاج النبوي تحدد الكفايات بالهدف والمقصد والغاية، ولن يطابق هذا المعيار أمراؤنا وقادتنا ببأس ومراوغة لكن بالسعي إلى الاكتمال، باقتحام العقبة صادقين على السمت والتؤدة والاقتصاد.

نحن والفوضى الديمقراطية

لنقل أولا إن ما نسميه بالفوضى الديمقراطية هو النظام اللبرالي، فهو في بلاد الجاهلية ديمقراطية أكثر مما هو فوضى وعندما ننقله نحن ونترجمه لننظم مجتمعاتنا على سننه يكون فوضى أكثر مما يكون ديمقراطية.

الأنظمة اللبرالية عاشت عليها أمم أوربا وأمريكا ولا تزال، وهي في دار الإسلام توشك أن تصبح أثرا بعد عين، أو قل أثرا بعد وهم. فإن أمتنا المسكينة تتغير عليها الأسماء، وتسمى لها الأنظمة المستوردة بالأسامي، وهي في الحقيقة تحت نير استعمار بوليسي يخلف عليه الحاكم المواطن حاكما أجنبيا، وذلك معنى الملكية العاضة، وذلك معنى ما جاء في حديث نبوي أن الحكام بعد الملكية العاضة في دار الإسلام يتهارشون على الحكم تهارش الأحمرة. وقد برهنت الأنظمة المستوردة على فشلها جميعا. فأمامنا الخلافة على منهاج النبوة غدا، وستجد في مقابلتها في العالم نوعين من النظام السياسي هما اللبرالي والماركسي. وليس أسهل من التلفظ باسم الخلافة ولا أيسر من النظر العام في المنهاج النبوي وحركيته. لكن قيام الخلافة وإن طابت بها الأنفس ورغب فيها المسلمون دونها عراقيل كالجبال. من اليسير أن نؤكد أن

الخلافة نظام مستقل لا ينبثق عما تعرفه الأنظمة الجاهلية، ومن اليسير أن تقرأ تاريخ الخلفاء الراشدين ونستلهمه الحكمة. لكن عالمنا المعقد غير عالم عمر بن الخطاب، وتاريخ الأنظمة الجاهلية تاريخ ثري غني بالتجاريب.

فكما دون عمر بن الخطاب الدواويين واسترشد بحكمة الأمم الجاهلية دون أن يخط في ديوان المسلمين كفرا أو يزيغ عن روح الإسلام، وكما قال عمر للعالم سلاما وخيرا وأمنا، فنحن أحوج لتقصي الأنظمة السياسية الجاهلية ندرسها لنتعلم بمنهاجنا المستقل.

فأول ما نطرحه من أسئلة على النظامين المعاصرين هو كيف نصل نظام الدولة بالقاعدة الجماعية؟ كيف نقاوم الاستبداد الجاثم، وكيف نقطع الطريق على انقلابية متسلسلة تجدد الاستبداد؟ قال المثقف اللاآييكي: ما هي إلا الديمقراطية!

الأمة في أمسها ويومها مفصولة عن جهاز الحكم فصلا طبقيا واضحا. إن الذين يشكلون الجهاز الحاكم من بني جلدتنا لكنهم أغراب عن الأمة، لاييكيون مغربون، والميل الطبيعي لكل الناس أن يسيروا في ركاب الحاكم، فما يتعلم متعلم إلا لينضم إلى الطبقة الحاكمة، ولا يجتهد مجتهد في ميادين الثقافة والعلم إلا لينال الحظوة من تلك الطبقة. فحكمها على الأشياء هو المعيار،

وإرادتها نافذة. ولمكان هذا الفصل تمثل الدولة طائفة متحكمة بالسلطان البوليسي وبالدهاء المسخر. فمن كان من دولنا لا يزال في فترة ما قبل الانقلاب الاشتراكي يعمي الواقع التحكمي بطلاء الديمقراطية، ويوهم بتعدد الأحزاب وحرية الرأي أن الأمة تحكم نفسها بنفسها.

إن مصادرة الحكم والاستبداد به يجعل علاقة القاعدة المحكومة بالحاكمين علاقة غير منطقية وغير قارة، لأن الحاكم يتوهم أنه لا يخطىء أبدا وأن بوسعه أن يملي الإرادة من أعلى فيربح بذلك الوقت ويتجنب ضياع الجهد في تبصير قوم لا يستطيعون أن يبصروا. وبالفعل فتناقضات الحاكم مع نفسه، وثعلبية رجال السياسة وتقلبهم وتلونهم، يجعل من المستحيل أن يبصر الناس حاضرهم ومستقبلهم، ومن المؤكد على الدعوة محاولة إشراكهم في التفكير والتدبير، ومحاولة كسب ثقتهم بعد أن أصبحوا لا يثقون بشيء، وبعد الذي بلوه من المستكبرين.

فالخلافة على المنهاج النبوي ترث في أرض ما قبل الانقلاب الاشتراكي وما بعده وحدة في القاعدة وتمزقا بين طبقة المثقفين المنفصلة الطافية. وقبل الحكم الإسلامي قد يوهم المتمزقون بصراخهم واحتجاجهم أن تعدد أشلائهم ما هو إلا تعبير عن حرية الرأي وديمقراطية المطالبة. وهم يزعمون اليوم أنهم يخدمون

الأمة ويناضلون باسمها دفاعا عن حقوقها في صف المعارضة، كما يزعم منافسوهم في سوق النخاسة السياسية أن الاستبداد بالرأي خدمة للأمة وتوجيه.

هذا التمزق الموروث يرأبه غداة الإسلام رجوع من يختار ذلك إلى صف العاملين المساكين مندمجا في الصف، فإن أبى فمرغما محنوا عليه يُمَرَّض ويُطَبُّ من داء كلبه. فإنه جميل جدا أن يعيش الناس أحرارا، ووقت الجاهلية يملأه صراخ الأسواق السياسية وخصامها، لكن من يزعم أن الحرية هي استبدال جهاز العنف البوليسي بتسخير يعنف على الضمائر ويسخرها إضافة إلى جهاز قمعي أعنف فإنما يمني الناس بالكذب والبهتان. ولا يرضى بديمقراطية المساومات وشراء الأصوات والآراء بسلطان الملايين إلا جاهليون مكتظون، وقتهم فراغ وحياتهم فراغ، إن لم يملأوها بالضجيج والاضطراب الذي يوهمهم أن لهم في الحياة وظيفا غير وظيف الآلة المنتجة المستهلكة الكانزة!

تهارش السياسيين في أسواق الديمقراطية المحتضرة ببلادنا لا يعني الأمة في شيء، وإنما يزعجها بجعجعة الرحى الدائبة. وهي عن ذلك الشأن في شغل بالبحث عن الكسرة والدرهم. فوحدة الأمة الموروثة وحدة في الفقر ووحدة في الخوف ووحدة في عدم الثقة بشيء. إن كان للمتهارشين مزية على الأمة وفضل فذلك

أنهم بمثال حياتهم المترفة الباذخة وبتفاهة أحلامهم وفضحهم بعضهم بعضا يفتحون أعين الأمة على هذه الحقيقة المركزية: وهي أنهم ومنافسوهم ليسوا أهلا للثقة ولا للاحترام. وما رأيك بزعماء العدل والمساواة يتحولون من سوق النزاع اللائم، المعْوِل على صفحات الجرائد بأن خصومهم احتجنوا المال وشيدوا القصور، إلى سوق لهوهم وعبثهم في قصور تجاور قصور الآخرين وبتبذير مثل تبذيرهم؟

ذلك التمزق وهذه الوحدة على الشك والخوف وعدم الثقة يشكلان تعفنا عاما ووعيا عاما بأن الطبقة المستبدة المتهارشة طبقة من الأغيار لا ستحقون أن يتبعوا ولا يستحقون أن يحترموا. وهذا الوعي بالتعفن وكراهيته تسرع بتحويل القاعدة المسكينة من كونها مفعولا سلبيا عانيا إلى فاعلية الاستجابة لداعي الإسلام والالتحام به والثقة.

يختلف وضعنا عن وضع الديمقراطيات المتعددة الأحزاب في شكل العلاقات بين القاعدة والدولة وفي نوع هذه العلاقات، فمن حيث الشكل ينتخب الناس جميعا بما يسمى الاقتراع العام المرشح للمنصب في الدولة. فالمرشح ينشر طلبه ويعرض نواياه، ويقدح فيه الخصوم. وتتضارب الأحزاب على توجيه الرأي العام حتى تنتج الانتخابات نتاجها. فإذا نقلنا نحن الشكل الانتخابي في تقليدنا

القردي عالجناه بعقلية تمسخه مسخا زائدا على مسخه الأول، وإذا بالانتخابات مهرجان هزلي لا تمارسه الأمة إلا كما تمارس الطقوس السحرية ومعها عنت السخرة والتكليف. وهنا يظهر الاختلاف النوعي في علاقتنا المفتونة بالدولة، فحيث يكون التصويت عملية حرة لا يكره عليها الناس إلا الإكراه المعنوي بعويل الدعاية الإعلامية، يجند قادتنا المسلمين المساكين ليزاولوا وثنية الانتخاب إكراها شديدا. وحيث يقنع الناس في أرض الجاهلية أن مصالحهم تقضى إن صوتوا لفلان، يقال للمسلم، وهو البليد العقيم في نظر الطاغوت، ضع في غلافك الورقة البيضاء. ولا يكفي ذلك حتى يُعوذوه بتعويذة سحرية فيخبرونه أن اللون الأبيض لون الطهارة والسعد. وستنتهي شعوذة السياسيين إلى قرار، وبيس القرار.

في أرض اللبرالية الجاهلية وحدة في جهاز الدولة يتصالحون عليها، وفي الواجهة الأخرى تعدد في صفوف الشعب تمثله الأحزاب والحركات. أما عندنا فالعكس هو الصحيح، من جهة الحق أمة يوحدها الفقر والشك والريبة، ومن جهة الباطل المتهارشون على الحكم المتعددو الصبغات والوجهات. يتخاطبون بلغة مشتركة بينهم لا تفهمها الأمة، يعيشون في نفس القصور ويركبون نفس السيارات ويحتقرون الأمة نفس الاحتقار. وأعلاهم ادعاء أنه نصير الطبقة الكادحة أمعنهم في البذخ والكذب.

الإسلام المشرق غدا ينزع النبتة الشيطانية من جذورها، والإمام القائد، خليفة رسول الله وأمير المؤمنين، يبدأ بفضح الدس السياسي ويتوب إلى الله منه ويستتيب المتهارشين الغرباء عن الفلاح خلف محراثه الخشبي العتيق مع أمة الفلاحين، لا يعرفون كيف يستنبت الطعام إذ عجزوا أن يستنبتوا قرائحهم الجدباء وعزائمهم الغارقة في الشهوات كلمة صدق وحق تضرب لهم بنصيب في حياة العز الإسلامي.

لا بد أن تنتزع النبتة الشيطانية من أصلها لكي توحد الأمة حتى تصبح جسما متضامنا. ولكل جسم أعضاء تشترك في الإحساس وتشترك في العمل. لذلك فلن يكون مستويان في الأمة بل تخصص عضوي ضروري. وإن تأليف القاعدة الجماعية بالقيادة الحاكمة يتوقف على كسب الثقة وتبادل الثقة. والثقة تَعَوُّدٌ على الصدق، يُعْرَفُ أنه صدق من مصدره، لأنه كان كذلك بالإخبار المتواتر. ولقد قال العربي الأول : «إن كذبة المنبر بلقاء». وكثيرا ما يكذب رجال السياسة ولا يصدقون بحكم سوقية المهارشة وتَقَلُّب العقول الفارغة والقلوب الخافقة خوفاً وهلعاً.

الإمام القائد ذو الروحانية والذمة والربانية لا يكذب إذا وعد، كما لا يكذب السيف الهندواني إذا ضرب. فبعزم الصدق والوفاء بالوعد يصفي القائد الإمام أول ما يصفى هذه النبتة

السياسية الموبوءة، وينزل لخيمة الجهاد من قصر كان فيه لاهيا أو من حيث يأتي به الله من الآفاق، فيراه الناس جميعا قسيمهم في المسكنة وأسوة في الجد. فعليه يجتمعون وعلى نموذجه يتوحدون. إنه سيكون «المركَّب» الكيماوي الذي ينشىء تفاعلا يقرب الذرات بعضها من بعض ويستخرج ما فيها من الطاقة ومتنوع الخصائص. مترفو الأمس بثقافتهم يترفعون من حمأة الشك العقدي وبلاء التمزق الذاتي إلى كمال يرونه ماثلا في الإمام رجل الصفاء الفكري والنورانية الروحية. والمستضعفون يرقون من مواطئ الأقدام إلى مجلس الخليفة حقهم فيه سواء وحق سائر المسلمين. فعدل يبدأ فيه الإمام بنفسه ويضرب المثل عدل يسري بقوة في كل العقول إغراؤه وفي كل القلوب سكينته. وبعد العدل ثقة بالحق والصدق من مضاء عزم الإمام. وعلى الثقة بالعدل ينبني صرح الإسلام. فإذا كان المسلمون في فتنتهم لا ينتهي بهم اضطراب لبرالي إلا لِاضطراب انقلابي أحدهما أشد نكرا من صاحبه، فذلك لأن العدل لديهم عدلان، أحدهما تسلط على حق المسكين باسم القانون، والثاني تبرير لظلم الحاكمين باسم القانون.

وقد كان مولانا الخليفة أبو بكر أعلم الناس غداة توليته أن الضعيف عنده قوي وأن القوي عنده ضعيف حتى يأخذ لذلك الحق من هذا. وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون، وبمثله يحكم

إمامنا غدا.

فبالعدل والوعد الصادق، والثقة التي تعطيها تجربة الأيام يتأهل الإمام الخليفة ليكون من جسم الأمة بمثابة الرأس من الجسد. إنه المدبر المستبد بالوجهة والتربية. ولا يعني هذا أن يسكت المسلمون من تحته، لأنه غير معصوم ولأنه إن زعم لنفسه مكانا فوق الأمة فقد أتى على الثقة من أساسها.

بعد فترة التطهير من جذور الشر، وهي فترة ضرورية تطول أو تقصر، تنظم المبايعة العامة مع التوبة المعلنة الواضحة. وهذه عملية لا تتسع الديمقراطية لتصورها. فبعد المبايعة العامة تنظم النصيحة مع تنظيم الدعوة. هل تتخذ هذه النصيحة مكان الأحزاب السياسية المتعددة؟ وهل تقوم بوظيفتها؟ الجواب بالقطع جواب نفي! وذلك لأن علاقة الأحزاب بقياداتها وعلاقة القيادات بالحكم علاقات مطالبة وانتجاع للرتب والغنى والجاه. والنصيحة تواص بالحق والصبر، فتنظيمها تنظيم جند معبإ مرابط. ثم إن الأحزاب السياسية تنظيمات تنتسب للأمة وليست منها لكي ترشح للحكم نصراءها، وفي الخلافة الإسلامية لا يعطى هذا الأمر من طلبه بالمخادعة والوصولية أبدا إلا أن يكون في مقام يوسف بن يعقوب عليهما السلام حيث قال للعزيز: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيم**﴾.

سترى الأحزاب المتنكرة بالأمس للإسلام تدخل سوق المزايدة وتدعو إلى عروبة وإسلام. فما قبل منها الاعتراف بالشرع الحنيف مصدرا وقانونا فله بين الجماعات الإسلامية مكانه. وله في الدولة ما تكسبه إياه ثقة الأمة وتصويتها في انتخابات حرة نزيهة.

في ظل الإسلام، بعد فترة التصفية التربوية، يهيمن على مجال الرأي ويفرض الجهر بالحق قول أبي علي الدقاق «الساكت عن الحق شيطان اخرس». وقد رأينا أن الدعوة إلى الخير هي وظيفة أهل النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالنطق بالحق وإعلانه وتغيير المنكر واجب كل مؤمن دخل في الولاية الإيمانية. وهي ولاية خاصة لا تشمل المسلمين جميعا. إنها ولاية بين المهاجرين أهل البلاء والمحبة والقدم في الإسلام. قال الله عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾**[1]، **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾**.

هؤلاء المؤمنون الذين قطعوا حبال الجاهلية وتطوعوا، وأعطوا برهان صدقهم داخل الدعوة المنظمة هم قاعدة العمل الإسلامي.

---

1 الأنفال 73

ولا يكونون طبقة حاكمة بوجه من الوجوه لأنهم مع الأمة في كل ميدان، بل هم أكثر الناس صبرا وأسبقهم لبذل. فإذا ثبت لنا صدقهم بالبرهان كما يثبت لنا ضرورة الاستبداد التربوي الدائم المستمر للخليفة من حيث كونه الحكم ومن حيث كونه خليفة رسول الله الحاسم لكل نزاع، فلا تردد في أن النطق بالحق مجال واجب النصيحة والاجتهاد والتعبير بصراحة ووضوح عن مشاكل الحاضر ونوايا المستقبل في حق المهاجرين المجاهدين المنتظمين في الدعوة. ولكيلا لا يكون أحدهم شيطانا أخرس فلا مندوحة عن قبول تعدد وجهات النظر ونقد كل عامل في الحقل العام والخاص بما في ذلك الخليفة نفسه. ذلك واجب إسلامي في حدود السيادة الكاملة للشرع ومؤسسات الشورى. ولن يكون رجال الحكم الإسلامي أولئك الرجال إن لم يكونوا كعمر يقول: «رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا»، ويوبخ نفسه أمام ملإ حين أصابت عجوز وأخطأ عمر.

من حيث المبدإ نتعلم من جاهلية الفوضى المنظمة أن الفوضى المتعددة الوجوه المسماة أحزابا داء وبيل وَرّثوه لنا. وعلينا أن نخترع تعددية شورية تعالج الخلاف وتحترم رأي الغير في حدود الشرع، وتقترحها بديلا للتعددية الديمقراطية التي تفتن عقول المثقفين يحسبونها العلاج الشافي لكل داء. ونتعلم من كونها تنظيما كيف

يعطي التنظيم منعة للجهاز ضد التفتت رغم أسباب الفرقة والخلاف. فلذلك ينبغي أن نستقرئ أنظمة المؤسسات الإدارية لنشكل نصيحتنا شكلا عقلانيا مع الاحتفاظ بالمضمون الإيماني الإحساني الذي لا تعرفه الجاهلية ولا تقدر أن تتصوره. الفوضى المنظمة تتصور المجتمع تيارات متفارقة أو متوازية أو متصراعة، وهي تتمنع من الاعتراف بالتحليل الماركسي الذي يفضح الاستغلال الطبقي وتزعم أن حرية التعبير والممارسة السياسية والنقابية تمحو الطبقات. ولا ناقة لنا في ذلك ولا جمل، ولا غنى لنا أيضا عن وعي وضعنا المتعفن لنعالج فتنتنا بالطب الإسلامي ونقلع نبتة الشر بالرفق الإسلامي.

نحن والاستبدادية المذهبية[1]

النظامان السائدان في العالم ينتسبان إلى الديمقراطية، وكلاهما حريص أن يوهم المحكومين أن الدولة تستمد سلطانها من القاعدة الشعبية. وهكذا تزعم الشيوعيات أنها ديمقراطية، وللكلمة في حد ذاتها سحر وجاذبية. ففي النظر تفيد الكلمة حكم الشعب نفسه بنفسه، وفي التنظيم الدستوري يشرع التصويت العام والانتخاب. أما في الواقع فلا تختلف ديمقراطية الشيوعيات عن ديمقراطية الجانب المقابل في جوهرها، وإن كانت تختلف في لون التدليس. وقد رأينا أن جهاز الدولة في بلاد الفوضى الديمقراطية يعتمد على مؤسسات تسمى ديمقراطية، فتوهم بذلك أنها مؤسسات الشعب، وهي في الواقع مؤسسات في قبضة المحترفين السياسيين، وأصحاب الاحتراف السياسي، خبراء في التمويه واختلاس الأصوات وغصبها بقوة المال والدعاية.

أما ديمقراطية الشيوعيات فهي أقل نفاقا من صاحبتها، لأنها تعلن في أول حركتها أن الأمر دكتاتورية طبقية، فكل من لا ينتمي للعمال والفلاحين محروم من حقه في التسابق للمناصب.

1 هل بقي مجال لمناقشة الشيوعية بعد انهيارها الكئيب؟ أم أن النظرة إلى خلف لا تخلو من فائدة،لا سيما في مجتمعاتنا الحافلة برواسب الفكر الشيوعي؟

وتزعم النظرية أن البرولتارية تمارس استبدادها على سائر الطبقات بديمقراطية داخلية تنتخب فيها الخلايا مجالس المقاطعات ويصعد الانتخاب الديمقراطي إلى القمة. والواقع عكس ذلك تماما، فإنما هي ديمقراطية اسمية، وما قامت شيوعية قط إلا باستبداد قوي لا يقبل النقاش في المبادئ المذهبية ولا مساومة على المرشحين الذين تقترحهم القيادة. وكما أن للأنظمة اللبرالية أزماتها عندما يتعسر عليها أن تتصالح على رأي ومصلحة وأشخاص، فالشيوعيات تتجدد فيها الإعصارات التطهيرية. ومن حاولت منهن المناقشة الحرة والانتخاب الحر فسرعان ما تقتحم أرضه دبابات الأم الروسية الوصية، أو يختل صفه كما وقع لتشكوسلوفكيا ويوغسلافيا.

إن السلطان إذا كان لا يستمد من إرادة الشعب فهو نوع من الضغط والاستبداد. وإرادة الشعب في حياته الاجتماعية المتضاربة أمواجها بالأهواء والخلافات لا يمكن معرفتها بالضبط ولا بالتقريب. فالانتخاب الديمقراطي عبارة عن مخض للآراء بعد تهييجها بالدعايات المتناقضة، فلا يخرج منها إلا زبد يعتمده المحترفون ويبنون عليه تآمرهم الطبقي. ويبلغ التهييج والاحتراف صيغته القصوى بالولايات المتحدة الأمريكية حيث الأموال والتقنيات الدعائية، وموسم الانتخابات الرئاسية موسم هيجان كبير، يفيض على العالم كله، فيتحمس الناس لأفراس السباق

تلهبهم أصوات الدعاية وصورها. ونظريا يمكن لكل أمريكي أن يرقى لدرجة الرئاسة، أما عمليا فيستبد بالأمر جهاز الأحزاب استبدادا مطلقا، ويفرض الفرس الأمثل أن يغري الجمهور بصورته ونبرة صوته وقدرته على الجدال فرضا مطلقا.

والاستبدادية المذهبية تسمي تسلطها مركزية ديمقراطية. ويقول المذهب: إن الحزب محضن للبرولتاريا يربيها ويوحدها ويؤهلها لممارسة الديمقراطية. ويقول تاريخ الشيوعيات بأن الاستبداد والمركزية المذهبية الضيقة كانت ولا تزال قوة الحركة الشيوعية الأولى. فمنذ سنة 1903 اختصم شيوعيو روسيا على التنظيم والمركزية القيادية، وانتصر مذهب لينين الداعي إلى الحكم «من أجل الشعب» وليس الحكم بالشعب. ومعنى قوله أن النخبة من البورجوازية الصغيرة الذكية الواعية المتمذهبة المناضلة يحق لها أن تستبد ويجب أن تستبد لتربي الشعب. وذلك هو الخط البلشفي وهو الذي انتصر ولا يزال ينتصر. ومن أصبح يذكر الأقلية المنشفكية الحالمة التي كانت تظن أن التسامح المذهبي والرباط الحر بين تيارات الحزب يمكن أن تحقق هدف الثورة والاستيلاء على الحكم وبناء الاشتراكية؟

ولا يختلف خط الجماهير الصيني عن الخط البلشفي إلا في كون الاستبداد الصيني المربي يعيد للإنسان اعتباره واحترامه لنفسه

في ظروف الامتثال المطلق للأوامر العليا، بما يخوله من حرية في اقتراح ما يقترح، وما يعطيه من تشريف حين يكلف الجماهير المحرومة الكادحة بإعادة تربية المنحرفين. أما الاستبداد المطلق فلا يخفيه شعار. « من الجماهير ثم إليها». ومن الاستبداد الشيوعي ما هو ذكي دقيق الحس كلما نسي التصلب الإديولوجي. ومثلا له نجده في محاكمة رجال الإدارة إلى الشعب المستهلك لخدماتهم في النظام الصيني.

إن الأمم المنحلة لا تكون منحلة إلا من تشعب إراداتها على مسارب التعصب المذهبي والانفعال العاطفي والتأله المجادل. ولا تخرج من انحلالها إلا باستبداد يجمع الإرادة ويستأثر بالسلطان. وإن سر نجاح الثورات في عصرنا لا يرجع لخاصية في المذهب الاشتراكي والعقيدة الماركسية. وإنما المذهب والعقيدة ذريعة ووسيلة لجمع الآراء نحو هدف، إلى أن تتمكن القيادة الثورية من الزمام وتستبد، وباستبدادها تبدأ الثورة حقا. واقرأ تاريخ المذهب الماركسي قبل ثورة روسيا ونجاح ستالين الخارق في كل الميادين، إنها كانت حركة دولية ككل الحركات، وكان مذهبا يقارع المذاهب الأخرى وتغلبه كما غلبته في ألمانيا حتى بعد قيام ثورة روسيا. ولو تجددت في ألمانيا بعد استبداد ستالين ونجاحه فرصة مثل التي كانت على عهد لينين لتكهربت إرادات الماركسيين ولجرفت معها

إرادة الطبقة العاملة الألمانية.

هذا الاستبداد هو سر التعبئة الهائلة في روسيا والصين وحيثما قبض السلطان أيد شيوعية. وما يفرق بين الاستبداد الإقطاعي أو الاستبداد الانقلابي عن الاستبداد المعبئ الناجح إلا حيرة المنقلب؛ لا خطة معه ولا فكر ولا مذهب، وإلا فساد الإقطاعي وقصور جهده على إرضاء مصالحه ومصالح حاشيته. وعندما يجتمع النظر الواضح والإرادة المطلقة تسير الشعوب راضية فرحة واثقة كسير الصينيين في هذه اللحظة من تاريخ البشر، أو تسير مقموعة كما سار الروس تحت هراوة ستالين.

إن نظرة الناس إلى السلطان وصاحب السلطان نظرة تصحبها الرهبة والتقديس. كان ذلك هو القاعدة في تاريخ البشر. ويظن المفكرون اليوم أن الإنسانية تقدمت وأن لها من علمها وثقافتها ما يزيل عن عينها وهم القدسية والرهبة من صاحب السلطان. وليس الأمر كذلك اليوم ولن يكونه غدا، لأن حاجة كل إنسان وحاجة الجماهير إلى السند القوي والصورة الأبوية الواثقة بنفسها الحامية لمن يتعلق بها فراغ في العاطفة لا في العقل. لهذا فالشخص الهادئ الرزين الذي يتكلم بثقة، ويتصرف بثبات وشجاعة يفرض سلطته وهيبته حتى ولو كان يحاضر العلماء. وإن تاريخ العالم المعاصر والقريب يبرهن على أن القائد ذا الجاذبية الغلابة «chef charismatique»

يسوق أمته أين أراد، وتضاعف ثقتهم به وتعلقهم كفايات كل في فرد وفاعلية المجموع.

كان هتلر أقرب مثال من التاريخ البائد، وماو نصب أعيننا اليوم. فإذا أعوزت الشخصية الجاذبة القوية صنعتها الشيوعية صنعا بكل وسائل التمويه والإعلام كما تصنعها الديمقراطيات التي أصبحت تدين «للدولة المشهد» Etat spectacle . وكما تحوم حياة الأمريكان حول الرئاسة وانتخابها وعبادة شخصية الرئيس، فحياة الشيوعيين تدور حول عبادة الشخصية القيادية، ولا نحسب فترة القيادة الجماعية في روسيا بعد فضح ستالين وبعد مظاهرات خرشوف إلا قنطرة إلى استبداد يفرضه التأزم المذهبي واستفحال الاعتراض في روسيا.

انظر إلى فرنسا وإلى المفعول السحري لاستبداد بطلها ديغول؛إنها كانت على شفا الهاوية، فلما خاطبها رجل قوي ونفخ فيها نخوة القومية انساقت له وعبدته إلى حين. وينافق أهل الديمقراطيات في ادعائهم أن السلطان الرئيسي في الدولة دور يتقمصه شخص أي شخص فلا يتأثر سير الدولة لأن المؤسسات والمذهب هي سر النجاح، لكن تفضحهم الأحداث.

لنأخذ مثلا كوريا بعد انقسامها. نجحت كوريا الجنوبية نجاحا اقتصاديا كبيرا بفضل عطاء حليفتها العظمى. لكن كوريا

الشمالية نجحت نجاحا أضخم بفضل الاستبداد المستقر المتكىء على عبادة الشخصية[1].

قائد كوريا الشمالية رجل نكرة اسمه «كيم إيل سونغ»، له «مؤلفات» هزيلة أشد الهزال، ومع ذلك تطبعها الدولة طبعا فاخرا وتوزعها في أنحاء العالم ليتاح لها أن تملأ وسائل الإعلام بأخبار النجاح الإديولوجي لفكر الزعيم. وفي بلاد كوريا الشمالية لا تظهر على الحيطان ولا على الصحف والتلفزة إلا صور الرفيق الزعيم، ويهتف باسمه الطلبة والكشافة والخطباء في كل المهرجانات. ويؤلهونه ويعبدونه في غير التواء. وقد خطب كاتب اللجنة المركزية للحزب «يانغ هيونغ» مدة ثلاث ساعات في أحد المؤتمرات العلمية خصصها كلها لتمجيد الرفيق الزعيم. فمن كلامه[2]: «رئيسنا المحترم المحبوب جدا، الرفيق «كيم إيل سونغ» عبقري الثورة أحد عظماء رؤساء الحركات الشيوعية الدولية وطبقة العمال. ماركسي لينيني عظيم في زماننا ... الرفيق كيم إيل سونغ القائد الفكري العظيم، والأب ذو القلب الرحيم للاختصاصيين في العلوم الاجتماعية مثلنا ...الرفيق كيم إيل سونغ قائد مظفر دائما، ذو الإرادة الحديدية والمجد المتألق...شعبنا لا يعرف سعادة

1 كان ذلك يبدو قبل انكشاف العالم الشيوعي عن كوارثه
LE Monde Diplomatique , Juillet 1972:2

أعظم من العيش والعمل والكفاح الثوري إلى جانبه، مؤيدا التوجيه المصيب للرفيق كيم إيل سونغ الزعيم المحترم المحبوب جدا.»

في المعسكرين الجاهليين يكون جهاز الدولة آلة في يد أقلية بل تذوب هذه الأقلية عند الشيوعيين في إرادة شخص واحد، وكلاهما يؤكد أن الحكم للأغلبية وإن إرادة الجماهير هي السائدة. ويفسر المذهبان استبداد الدولة بضرورة قمع الأقلية وإلزامها أو محاربة أعداء الطبقة لئلا ينتكسوا بالثورة.

وقد كانت الإيديولوجية اليوتوبية تبشر أن الدولة واستبدادها يزولان بزوال سببهما وهو العدو الطبقي والقلة. فلما قتل ستالين أعداء البرولتاريا لم يكفه ذلك وما أحرزه من نجاح عن الإمعان في الاستبداد، بل وتنظير هذا الاستبداد وتبريره بأن العدو الطبقي حتى بعد تصفيته بالقتل والإزاحة يستمر في الميدان بوجود إيديولوجيته. فمن هنا يجب أن يستمر الاستبداد.

لا علينا في تمويه الديمقراطيات لاستبدادها، فإن الإسلام لا يستعير مبادئه من الجاهلية، لكنه يتدبر التاريخ ليتبين كيف يتحرك الناس في مجتماعتهم تصديقا لعلم الإنسان المضمن في القرآن : إن الإنسان هلوع متقلب ضعيف، فإذا لم يعط وجهه لقبلة واحدة، وإذا تركت له حيرة الاختيار، فإنما تتلقفه التيارات ويضيع جهدا كبيرا في معاناة الخواطر والنزعات.

ولا علينا في الفوضى المنظمة ولا في الاستبداد المقنع إن تعبدا لوثن الديمقراطية ووهم حرية الاختيار واستقلال الشعوب بأمورها. الإسلام مذهب الواجب قبل المطالبة، ومذهب واجب بلا مطالبة، ومذهب الشورى السابقة لكل اعتبار. لننس هذه اللفظة الملعونة المشحونة بإمكانيات الكذب والغش ولننس مدلول الديمقراطية. فما دام الإنسان وحيدا مع أخيه الإنسان لا يرعى فيه ذمة الله ومراقبة الفاطر الذي يبعث الخلق لدار الجزاء فإنما هما ذئبان. وتمارس الإنسانية ذئبيتها بشكل التنظيم المغير على غيره في مجتمعات ما قبل التاريخ، وهي مجتمعات عصرنا الجامعة لهول الصناعة المخربة ودهاء علوم الاجتماع والسياسة والدعاية. وما تكتسيه هذه الممارسة من أشكال التهذيب والإنسية الرحيمة غلالة شفافة تبدو من خلفها الأنانيات مكشرة أنياب الطمع والمغالبة.

تاريخ الإنسان يبدأ بالإسلام، ويختفي في التاريخ الذئبي باختفاء الإسلام من ميدان السلطان. والإسلام يعلن مبدأ الطاعة المطلقة لصاحب الأمر ولزوم الجماعة ويوعد على ذلك بالموتة الجاهلية. فبهذا الاعتبار يكون من خرج عن الجماعة وهي طاعة أمير المؤمنين خرج إلى الجاهلية وذئبيتها. ولا ينصب هذا على حاضرنا المفتون لأنه ليس للمؤمنين أمير تجب طاعته بهذا المعنى،

إنما هم ملوك عاضون يحذرنا الشرع أن نحمل السيف على بعضنا لإزالتهم.

فالخليفة رجل الرأي والوجهة والاستبداد التربوي. بمعنى أنه الحكم النهائي الذي لا ينقض حكمه في خلاف يقع ونزاع ينشب بين المسلمين بعد أن تأخذ الشورى مجراها. إنه خليفة الله ورسوله، وإنه الوجه الإنساني الذي يضعه الله للمحبة والقدوة، ويجمع له قدسية ولايته ونفاسته على المؤمنين المتحابين المتآخين.

إرادات الجماهير إرادات متقلبة متضاربة واهنة، ولا مضاء لها أبدا لأن العمر ينقضي في نقاش وقتال. وغدا في يوم الإسلام الأغر لن يرتفع لنا لواء إن لم نبدأ بمبايعة الإمام بذممنا ونخلص له إخلاصا ونعضده ونؤزره. وإلا فستمضي علينا قرون نتساءل ما بالنا ومن أين نبدأ؟ لا بداية لنا صحيحة في ميدان الحكم إن لم نجعل أمرنا بيننا شورى.

إرادة مستبدة محبوبة مطاعة يساندها النصح. وفرق ما بين وثنية عبادة الشخصية ووحدة الطاعة والنصيحة للإمام الخليفة أن الطاغوت المستبد لا يقبل رأيا غير رأيه، ويصنع لنفسه أبهة مستعلية ويصنعها له السدنة. أما الإمام فواجب كل مؤمن أن ينصحه إن غلط، فهو مثلنا خطاء، لكنه أفضلنا لأنه تواب يرجع للحق. وإن مع مركزية الطاعة للخليفة ومع النصيحة تتمكن

الأخوة من القلوب بتوالي النجاح في كل عمل جماعي. وقد خابت الحضارة الجاهلية وخسرت، ومثلها المؤرخ طوينبي بسفينة مشرفة على صخور الأهوال، وقال بأن أفق الإنسانية لا يبدو فيه أمل لظهور ملاح يجنب السفينة البشرية من الهلاك إلا من جانب الأخوة الإسلامية. ويتمنى قبحه الله وكذبه أن لا يكون للإسلام بعث. وخاب فأل الكافرين وصدق وعد الله لعباده المستضعفين الوارثين، وكأني والله بوجه إمامنا يتألق في هذا الجو المكفهر الذي يبشر غمامه بالغيث والرحمة!

سوق السياسة

وقائلٍ يشك: من أين يبرز للمسلمين إمام وخليفة وسوق الإسلام بائرة، وأهل الإسلام في نزاع على إسلامهم، ويكفر «علماؤهم» من خالفهم في المذهب، وأهل الدعوة يكبسهم الطاغوت كبسا ويشرد ويقتل، وبيت الله الحرام في القدس يطأه اليهود الأنجاس؟ فكيف يقدر المسلمون على مبايعة خليفة يوحد صفوفهم وهم لا يقدرون حتى على توحيد مدافع وطيارات يستخلصون بها البيت المقدس من عدوهم ؟!

وخلاه ذم ذلك الشاك إن كان في قلبه حنين وأنين! ورغم أنفه إن كان من الضالين المشككين !

ما كان حظ محمد بن عبد الله يتيم مكة من حظوظ النجاح بحساب المنطق البشري يوم تآمروا ليقتلوه ويوم فر هاربا بدينه من مكة؟ ومن كان يحسب أنه تدين له الجزيرة العربية بعد عشر سنوات من هجرته؟ ومن كان يحسب أن الإسلام سيتمكن في الأرض بعد أقل من خمسين سنة؟ إن المسلمين اليوم يئنون تحت وطأة طواغيتهم المفتونين، وإن هؤلاء يخزيهم الله تباعا ويضيق عليهم المسالك. وإنهم لا يرون أمامهم إلا ظلاما ويأسا. والأمر عند الله ربنا كذلك فقد آن أن تجتث من أرض الإسلام نبتتهم الخبيثة.

فتية المسلمين تتوزعهم أسواق السياسة والإيديولوجيات، وهم في هوسهم قد بدأوا يعافون قذارة ما هم فيه. ويوم تغابنهم في الدنيا قريب، ساعة يكتشفون قماءة تقليدهم القردي للحيوان العمودي الجاهلي، ويكتشفون أن بضائع الجاهلية الفكرية بضاعة غبن كالبضائع الأخرى. وسواد الأمة على عهده لم يتحول وإن ظلمه من ظلم وجهَّله من جهل. فبحساب التخمين البشري تكون حظوظ الإسلام اليوم أوهى منها في أي زمان. لكن حكمة الله لها سبل معجزة. وعسى ربنا أن يرحمنا، ولا تدل كلمة عسى في القول الحق على ترجئة بل هي رجاء بمعنى الانتظار. وستعلن كلمة التوحيد في كل سوق، وسيأسو بَلْسَمُهَا جروح الإنسانية المكلومة الهالكة إن شاء الله، ربنا وهو الملك الوهاب.

غزتنا الجاهلية في عقر دارنا بالسلاح والاحتلال الجسدي وروضتنا على الطاعة والخضوع فما خنعنا لها. بل حاربناها ما دامت محتلة ديارنا حتى أجليناها. وكان مع الغزو العنيف غزو مواز عمد إلى الفكر وخاطب الشهوات وداعب الأنانيات. وكان غزوا ماكرا دقيقا متلبسا علينا مغريا لنا، فكنا أثناءه زبائن نبتاع السم من سوق الجاهليين ونمتسخ رويدا رويدا. اتبعنا الثقافة الملحدة ونقلنا عن الجاهلي غطرسته وتألهه على المساكين. وكان ألعن ما أخذناه عنه هو هذه البضاعة العفنة المسماة سياسة لاييكية،

سياسة تنبذ الدين ظهريا.

كنا قبل الاستعمار قبائل وشيعا وكان بعضنا يقتل بعضا فسقطنا طعمة للمستعمر هينة. لكننا لم نكن نعرف أنفسنا إلا بأننا مسلمون. فعلمنا الجاهليون القومية وتجهزنا من ترسانة سياستها بالوعي القومي الوطني. كنا نقتل بعضنا بعضا لكنا كنا لا نكذب كذب المحترفين، فاتخذنا من سوق السياسة الجاهلية ضمائر مزورة وألسنة وأقلاما تزوق الكلام.

كنا مخدرين بأفيون الشعوب، كما سمى ماركس الدين الكنسي وكان لنا ولا يزال من ديدان القراء وأمراء الزوايا ما يشبه الطبقة الكنسية والعبث باسم الدين. وقبل أن يكتشف زعماؤنا السياسيون ماركس وتحليله قلدوا الجاهلي في تصوره للإنسان والعالم، وانتقلوا من شعار الوطنية الإسلامية إلى الوطنية المناضلة القومية. ثم هم الآن يهتفون باسم الإسلام يلفقون بعد أن بارت تجارتهم في سوق السياسة.

في العالم حملات منظمة لتخريب عقول المسلمين وتخريب رجولتهم وإغواء شبابهم وإفساده. وما من زعيم في بلاد المسلمين فاشل، وكلهم فاشلون والحمد لله العلي الكبير، إلا ويشكو من هذه الحملات المنظمة. ولو جمعنا أذى رجال التبشير وأذى رجال الثقافة والإعلام وأذى الصهيونية العالمية في حساب لنقرنه بالأذى

الذي نجلبه نحن باختيارنا من سوق السياسة الجاهلية لما كان الحساب الأول في وجه البضاعة المطلوبة إلا مناوشات سطحية. وإن كان منا من يتتلمذ للصهاينة في حقل الثقافة ومن يستهلك بضائع البذخ الجاهلي فيجلب لأمته خسارا وبوارا، فإن زبائن الأساليب السياسية الجاهلية يحملون إلينا الغول الفاتك إلى عقر دارنا من حيث لا يجلب الآخرون إلى خبره وصداه.

عقول قادتنا مطموسة فلا يقدرون على توليد فكرة واحدة مسلمة، وإن كنت لا تسمع منهم إلا حديث السياسات العالمية المتصارعة فما ذلك لأنهم يتعلمون من مصائب الناس ومن حكمة الناس، بل لأنهم يصدرون عن رأي الخبراء الجاهليين والنصراء. ويقدر الخبير سياسة الحكم لتلميذه فيترجمها التلميذ النبيه إلى اللغة القومية ويغمر الأفيون السياسي في فيض من الانفعال القومي المتأجج.

في سوق العالم مضاربات ومقامرات، ومن تحتها الغزو الضاري الماكر الذي يرمي لمحق العدو بكل الوسائل. وقانون العرض والطلب يحكم سوق السياسة العالمية كما يحكمها الدهاء الصهيوني المكر الكُبّار. وندخل نحن المسلمين السوق السياسية فتنبهر أنفاسنا مما نرى من علم ورأي وفلسفة، ونبتاع بأموال النفط خبراء زرقا وحمرا، أو نتلقاهم هدية مسمومة مع ما نتلقى

من متاع نحسبه سلاحا، وهو وثاق يقيدنا إلى عجلة السيد المتكرم بقمحه أو صواريخه.

يدخل كل سوق من له حاجة، وإن لنا لحاجات لا تنتهي، فلذلك ندخل السوق فنبتاع على غير هدى، وإن ترددنا خلق لنا العدو حاجات لنبتاع. ونبعث بأبنائنا يتعلمون في بلاد الكفار فيعودون إلينا وقد شحنوهم أفيونا وسما كما يشحن الأمريكيون جثث موتاهم بالأفيون الصيني.

وهاك قصة ذلك فهي واقع يدل على طبيعة السوق السياسة العالمية، ويرمز لانخداعنا بل لانهماكنا على بضاعة الجاهلية، سيما السياسة منها.

في القرن الماضي دبر الإنجليز احتلال الصين، فمهدوا لذلك بأن علموا الصينيين تعاطي الأفيون ثم فرضوا عليهم ابتياعه فرضا. فخلقوا الحاجة في الشعب لتعاطي المخدرات، ثم ألزموا الحكومة بإباحة البضاعة الإنجليزية في السوق. وفي أيامنا هذه نجح الأمريكيون نجاحا اقتصاديا هائلا، وأعجبتهم رخاوة مجتمعهم الاستهلاكي ثم أملتهم فطلبوا التغيير. وما كان لهم يلتمسوا تغييرا سياسيا لأن استقرارهم الديمقراطي وحده يضمن لهم مستوى العيش، ولأن الثائرين من شبابهم ومن طوائفهم المحرومة، وإن كانوا يلعنون النظام، لا يحلمون بنظام أفضل منه. فطلبوا الفرار

من واقعهم بتعاطي المخدرات. وتكونت لهم حاجة إليها شديدة فهي لهم ألزم من الغذاء والكساء. ولنمر على الدلالة المصيرية لهذه الظاهرة لنصل إلى الجثث المحشوة بالأفيون كما حشيت جثث مثقفينا بالفكر المسمم.

صرح رئيس وزراء الصين أن أفضل أنواع الأفيون تصنع بالصين، وإنها تباع للجنود الأمريكان بالهند الصينية. ونقلت الأنباء أن الشرطة الأمريكية اكتشفت أن جثث الأمريكين المنقولة من معارك الهند الصينية منذ أول الحرب كانت تحشى بالأفيون يهرب فيها إلى أمريكا.

ما أشبه الجثث بعضها ببعض، وإن كانت تلك تصدع ثم لا تحمل إلى بلادها إلا مادة تخرب الأجسام والعقول، وجثثنا أجسام تسعى بنفوس ممسوخة تحكمنا بالرأي الأفن والضمير العفن.

إن المنصب الحكومي في بلادنا نهب مقسم لكل ثعلب وذئب، وإن في صدورنا معشر المستضعفين لضيق مما يمكرون، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. في أقطار الانقلابية زمرة من القوميين يشكلون نديا يجثم على الأمة بكلكله، ومن نقل من سوق الكافرين نظاما إقطاعيا فهي عصابات فاشية على شكل المكروبات العمودية المستطيلة. فقد كتبنا كلمة «فاشية» بمعناها السياسي الجاهلي، وهي تحدد نظام التآلف العمودي للأجسام

الوسطى في المجتمع كما يقولون. والمقلدون للنظام اللبرالي يكونون شرذمة متقلبة مفتونة لا يقر لها قرار، فلها في كل يوم خصام ولها في كل شهر تحالف وتشكيل، ولها مع كل هيعة فزع وبلبلة ريثما يسويها الانقلاب بالرغام.

لكل هذه الزمر والشرذمات عالمها المنفرد عن الأمة، وفي جنب كل حركة من حركاتها. ومن تحتها زمر تدس وتعد العدة لتثب على الفريسة، وما الفريسة إلا هذه الأمة، يتعلمون في مقدساتها كيف يصعدون لقمم البطولات، وكيف يروجون لأنفسهم أسواقا في صحف الجاهلية ومنتديات العالم. وإن في أيديهم إلا بضاعة مزيفة، وإن في جثثهم إلا حشو من الأفيون السياسي ابتاعوه بطواعية ممن ينتجون أفضل الأنواع الاشتراكية.

ولكثرة ما ورد على بلادنا من بضائع تلك السوق نشأ لنا لغط، وفشت فينا حرفة المساومات والسمسرة. ولو قدر لحساب ماهر طويل الصبر أن يحصى موجات الإغراء التي يتعرض لمدها شبابنا كل يوم لخرج لنا بخط بياني فريد. في الخفاء تحت الانقلابية وفي شبه الخفاء دون ذلك عروض سياسية تساوم عليها ضمائر شبابنا، لا تشتمل في جزء منها على دعوة للرجولة والتضحية، وإنما هي حقد وتغن بالحرية المسلوبة وتشجيع على ممارسة هذه الحرية ممارسة كاملة. والمراهق ذو نفس كبيرة لا يملأها إلا أمل كبير

أو مشروع كبير. فعندما تتوالى عليه العروض وتختلط ويتمزق بين ذاتيته المنبعثة من أرضية الأمة المسلمة وبين الحرية الدوابية، يختار هذه لرواجها ويطرح الأخرى لهوانها في حساب سماسرة السوق. وهكذا يمارس خلاعته ودوابيته ولا يجد من يعرض عليه إنسانيته وقيمته.

قادتنا المفتونون ومنافسوهم في الخفاء والعلانية، وأعداؤهم المذهبيون من أقرانهم، يشغلهم ضجيج السوق السياسية عن شؤون المسلمين. لنتصور رئيس دولة أو وزيرا خطيرا وسط الحمى السياسية. إنه طليب خصومه السياسيين في بلده؛ فكل جهده منصرف ليحمي نفسه من كيدهم. وإنه منقطع عن الأمة في عقيدته وفكره. فما بقي له من جهد يوظفه في الدعاية الكاذبة ليوهم الناس أنه هو منهم أو ليوهمهم أنهم منه. فمن حاول أن يوهم الأمة أنه منها صلى في المسجد أو ذهب إلى أبعد من ذلك فتخلى عن القصر ومظاهر الرئاسة. حتى إذا نطق قال كفرا ومزج الإسلام بعقيدته الاشتراكية. وكل أتعابه ليكسب الشعبية تطيح بها الرياح في يومنا العاصف. ومن عمد ليوهم الأمة أنها منه فربما يثير حماسا مصدره الجهل والغرور، لكن سرعان ما يفتضح وينمسخ وذلك مثل أبطال القوميات. فقد كان المسلمون في بلاد العرب نائمين إلى أن هب البطل القومي وصرخ وصاح وأرعد

وأزبد، فخيل للعرب أن القومية طلسم عجيب انفتحت به قناة السويز وغلبت به إنجلترا. إلى أن كان حزيران وخر البطل القومي وتعلم المسلمون أن القومية هي الفشل والذل والهوان. وقد بارت سوق القومية في أرض المسلمين، لكن السماسرة لا يزالون يهتفون عليها وينادون، ولكن المنافقين لا يفقهون.

كل أمريكي يولد تعلمه أمه أن كرسي الرئاسة في متناول يده إن جد واجتهد، وكل روسي أو صيني تعلمه أنه عامل يجب أن يكدح ليخدم أمته. وأن كل مولود فينا تهيئه أدوات الإعلام ليكون زبون بضاعتها البخسة المرذولة، وتعلمه أن لا يعمل شيئا لأنه إن تحرك يمنة أو يسرة يفتضح عجزه. فالأمريكيون والأوروبيون يغشون الحياة بعقلية مغامر يأكلونه إن لم يأكلهم. والروسي أو الصيني يدخل الحياة فخورا بحاضر رفعه من ماضي الذلة والاسترقاق فيكون منتجا فاعلا. أما المسلم فيفتح عينيه على قادة يخطبون السنين الطويلة يتوعدون عدوهم الصهيوني ويقتلونه بالكلمات الحادة والجمل المتفرقعة. وقد آن أن يتعلم المسلمون أن الأدمغة المحشوة بأفيون الإديولوجية، والأيدي المسلحة ببضاعة الجاهلية بار سوقها وأفل نجمها. وهاهو الإسلام وخلافته في الأفق القريب.

يضع الإسلام حدا نهائيا للسوق السياسية ومساوماتها؛ «إننا والله لا نعطي هذا الأمر من طلبه». هذا قانون الإسلام، هو

الحكمة، وهو القوة والاستقرار. لن يكون في الخلافة تهافت على المناصب، ولن يكون للمنصب الواحد مرشح ولا مرشحون، كما لن تنظم الغزوات الحربية المسمات حملات انتخابية. المنصب بمنطق السياسة الجاهلية بضاعة مطلوبة وغنيمة مشتهاة، فلذلك يبذل المرشح نفسه وكل ما في وسعه ليقنع الناس بالمنطق ويغريهم بالعطاء ويخدعهم بالكذب والتزوير، لكي يبيعوه بضاعة أصواتهم. لا يختلف الترشيح في أرض الاشتراكيات القومية عن معنى السوق كما وصفناه إلا من كون المساومات تتم في خلايا الحزب الواحد، ويتم التراضي قبل إعلان اللائحة الوحيدة لطقوس الانتخاب. ولا تختلف سوقية الانتخاب في بلاد الإسلام اللبرالية عن مثيلتها الجاهلية إلا باحتكار المنصب والأصوات في يد الحاكم المستبد. فهو يرشح وهو يفرض الطقوس ونتائجها وهو ينصب ويعزل.

الولاية بين المؤمنين في ظل الخلافة الإسلامية تؤسس تعايشا على المحبة وتلازما بين المؤمنين حتى تعرف الجماعة أيهم الأتقى وأيهم الأقدر على الأمر والأجدر به. وإن تواصيهم بالحق والصبر يتضمن أن يمسك بعضهم بعضا عن إغراء المنصب، وأن يتلاوموا إن ضعف أحدهم ونسي الآخرة واشرأبت عنقه للمنصب. هذا خط وازع القرآن. أما وازع السلطان فيجب أن ينظم الشورى على كيفية تخالف تماما الانتخاب الديمقراطي ونظام المركزية

الديمقراطية، وتستبدل معاني السوق بمعاني السمت الإسلامي ووقار العقود الممضاة في المسجد، في بيت الله.

والمؤمنون بحاجة لوزاع السلطان فهم غير معصومين. والنفس تحب الرئاسة إن لم تزجر. وقد وصى أبو بكر عمر بن الخطاب لما عهد إليه قال : «أول ما أحذرك يا عمر نفسك؛ إن لكل نفس شهوة، فإذا أعطيتها تمادت في غيرها. واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله، فإنهم قد طمحت أبصارهم، وانتفخت أجوافهم، وأحب كل امريء منهم نفسه».

إن المؤمنين متى تعلقت همتهم بالغاية الإحسانية، ونبهت روحانيتهم من غفلتها، أولى أن يتدافعوا الرئاسة من أن يتنافسوها كما يفعل المغبونون.

الشورى

الاعتبارات المؤثرة على التحركات السياسية والقرارات في مجتمعنا المفتون اعتبارات اقتصادية مجتمعية تقع تحت ضغط التنافس السياسي في الداخل والخارج، فهي مكتوفة محدودة. وإرادة أرباب السلطان مرهونة بعقليتهم الأجنبية عاكفة على إرادات الحلفاء الجاهليين ترقبها وتلاعبها. وما يخيل إلينا من استقلال في الرأي وسبق للمبادرة ما هو إلا تعمية للرق والعبودية والأسر في أغلال الخوف من الناس والخوف من الموت والخوف من الخروج عن المألوف. فليس على ساحة قراراتنا وحركاتنا عزمة واحدة حرة تبعثها الحكمة والثقة بالله، وتخرج للعالم تسعى وتفعل وتبلغ مداها. دعنا من مظاهرات الأبطال القوميين، فإن نتائج خبطهم كانت وبالا وتكون، ويعرف الرأي الفاشل من وجهه؛ ينم عنه الخطل والعجلة الطائشة، كما تعرف المبادرات الحمقاء من نتائجها.

حكامنا يفتاتون على الأمة في رأيهم وسعيهم، والمجالس القومية ما هي شورى لسببين، أولهما أنها مجالس استراحة واسترواح بين دورتين من دورات السوق السياسية. فأفرادها، ولا أقول أعضاؤها لأن القوم أنكار أشتات، ابتاعوا المنصب وطلبوه ورغبوا فيه رغبة

المؤمن في رحمة الله. وهم يعتبرون تسلقهم للنيابة البرلمانية نجاحا لمسعاهم في الحياة. فمن كانت همته صغيرة حقيرة فكيف يستشار في أمر المسلمين في أمر المسلمين؟ وكيف يستشار في أمر الإمامة والخلافة وهي أمر الله الأقدس؟

والسبب الثاني أن المجالس النيابية في بلادنا ترهات مستوردة بأشكالها وأساليبها ومضمونها من الجاهلية مترجمة عنها. فهي برلمان، والكلمة في لغة الجاهليين تعني الهذر والثرثرة. إن هذه المجالس معارض للطواويس البشرية يُزكم الأنوف ريح الأنانيات إن تكلمت وإن انتفخت أوداجها لتخاطب الوزير الخطير وتلومه وتوبخه. إنها سوق سياسية لطبقة تجمع بين الارتزاق وذئبية السياسيين. وإن هذه الأسواق الهذرية أماكن تباع فيها ذمم المستضعفين وتغتال فيها حقوقهم..

كيف يعقل في بلاد المساكين، وهي كل بلاد الإسلام، أن يمنح من مال المسلمين لكسول يغشى سوق الثرثرة شهرين في السنة، الخمسمائة دينار في مطلع كل شهر، ويمنحه الجاه الذي به يبتز الأموال والحصانة التي بها يخرق حرمة القوانين، وببلاد المسلمين معلمون أجرهم الشهري لا يتجاوز ثلاثة دنانير، وأساتذة جامعيون لا يبلغ أجرهم ثلاثين دينارا؟

لكن حكامنا يعبدون الأشكال كما يعبدها كل فارغ القلب.

وإنها لمفخرة أن يكون لنا برلمان وأن يكون فيه ضجيج قائم لنبرهن للناس أننا أمة ديمقراطية. ولتخسأ الديمقراطية إن كانت واجهة يقتات من خلفها المأفونون بالأفن المطلق والأفيون السياسي!

شورانا في غد الإسلام الطاهر تكليف وخدمة. وقد كررنا أن أصحاب الخدمة من النخبة الإيمانية الإحسانية، رجال الدعوة ورجال الأمة، ينبغي أن يعملوا على مثل أجر الإمام الخليفة لكيلا يكون أي منصب في الحكم مغنما ماليا، ولن تدع النصيحة ويقظة الأمة جمعاء لطلاب المناصب وولاتها فرصة لاستغلال النفوذ. وقلنا إن الإمام الخليفة لن يكونه أبدا إن لم ينزع أبهة الجبارين ويجالس المساكين على الحصير والشعير. ما ينبغي أن يكون حكم المسلمين وشورى المسلمين عملا مأجورا وغُنما مشهورا، بل يكون التقلل والقدرة عليه والصبر وضرب المثل في ذلك شرطا نستدل به على الذمة وخلوصها، وإن الحكم تكليف وإن الشورى تكليف. وهكذا طرحنا أقوى أسباب السوقية السياسية، وإن هذه الذئاب تهجر مكانا لا تظن به فريسة.

أما هذه الانتخابات الهرجية وطقوسها والدسائس والتسخير فهي المظهر الشكلي للديمقراطية، وهي التعويذة السحرية التي بها يغشون أبصار الأمة ويوهمونها لولا بدائية أساليبهم ولولا ظهور لعبهم على الأمة التي يحتقرونها.

فيجدر بالخلافة الإسلامية أن تجدد في العالم أسلوبا لاختيار أهل الشورى، تفتقر إليه الإنسانية ولا تهتدي إليه. يجب أن تبتكر الخلافة أسلوبا للاختيار يتوفر على شرط الوضوح وشرط المساهمة المحدودة في النخبة الإيمانية ذات الولاية والمحبة الجماعية دون أن يستحيل الأمر إلى استبداد طبقة على طبقة أو مصلحة على مصلحة إلا استبدادا تربويا على مستوى الوجهة والمبدإ والغاية. والشرطان هما النصيحة، فما هي نصيحة إلا لنصاحتها ووضوحها، وما أمر بالتواصي بالحق والصبر إلا المؤمنون لا سائر المسلمين.

غوغائية التصويت العام جاءته من ذئبية المحترفين، وهو سوق الغبن للأمة لأن هذه الأمة لا تعرف للتصويت معنى إلا أنه كلفة غريبة من هذه الكلف التي يصدر بها أمر السادة الحكام. ولو قد تعلم الناس معنى الانتخاب، ولو قد توفرت فيه شروط الأمانة، وذلك مستحيل في يد قادتنا، لما صح أن يكون الاقتراع العام أسلوبا إسلاميا لاختيار أهل الشورى. إننا والله لا نعطي هذا الأمر من طلبه، فتلك واحدة. وأخرى ناتجة عنها وهي أن المال والرشوة يفتحان أبواب الحكام الفاسدين ويصنعان الدعاية ويصنعان التزوير.

لنا موعد فيه نضبط أمورنا غداة الإسلام، إنه المسجد

وإن العقدة مبايعة بين ذوي الذمم وميثاق. فالندي الإحساني والمجلس الإيماني في المسجد يبدأ منهما التعارف بين المؤمنين، ويتم التعارف في ميدان العمل والجهاد والنصيحة. فلكي نكتشف الرجال على قانون «الرجل وبلاؤه والرجل وغناؤه والرجل وقدمه في الإسلام» نقبل في صف التطوع المنظم كل طالب شهد على صلاحه المسلمون في قريته أو معمله. وعلى كل رجل منذئذ أن يعطي برهان الصدق والكفاية والبلاء والغناء كل صباح وكل مساء. وهكذا نعرف الرجال بانتخاب مستمر يومي يشمل كل الوقت، ولا ينحصر في مواسم التهييج والتهريج. إنه انتخاب دائم وامتحان عسير. ولن يمكن فيه التدليس، لأن رجال الدعوة المنظمة رعاة كلهم ورعية، فإن على كل طائفة شهيداً له الطاعة فكلهم شهداء على الحق. وإن للمؤمنين لذمة نعرفها من بلائهم، ومن كانت له ذمة وعهد وميثاق لا يسكت عن الحق أبدا، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

في هذه المواسم الانتخابية التهييجية يكثر التجريح والانتقاد والشتم والتنابز بالألقاب. وتلك سوقية يحسمها الإسلام حسما ليحل محلها سمت المؤمنين ووقار المصلين في بيوت الله المسبحين بحمده في عرصات الله، في أرجاء الأرض. لن يكون في صحفنا المسلمة دعاية بل تكون بها دعوة، لن يكون الكذب المموه بل

الصدق الناصح. ومتى رشحت طائفة المؤمنين رجلا وفرضت عليه أن يقوم بكلفة من الكلف في منظمات الشورى، فلكل مؤمن متسع في الصحافة والمجالس، وعليه الواجب أن ينصح للمسلمين إن ثبتت له الحجة على أن المرشح فاسق. وإن لكلام المسلمين لرزانة وتثبتا يفرضهما وازع الحد في حق من يتهم الناس بالظلم ولا يأتي ببينته.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**» هذا الحديث لا يغلق باب العمل في وجه من كانوا بالأمس مفتونين. ولعل منهم من يتوب فتحسن توبته ويحسن إسلامه حتى يبلغ مرتبة الإيمان والإحسان. والناس أعداء لما جهلوا، فلعل جلساء الهذر في أمس الفتنة يتعلمون الإسلام ويحبون الإسلام فنُعلمهم ونستفيد من خبرتهم. هذا حظ الرفق وحظ الرجاء. أما حظ الحيطة والتدبير فهو أن من شب على شيء وألفه لا يجد من نفسه قوة لمجافاته. وإن هؤلاء المحترفة المرتزقة منتفخة أجوافهم كما يعبر الصديق رضي الله عنه في زمان جاهليتهم فما يخليها من كبريائها وما يجلسها على الحصير والشعير!

نعم، لن ينزل نظام الخلافة مكمولا من يومه الأول قد سطرته

1رواه البخاري من حديث عبد الرحمان بن صخر

الملائكة، بل إنه اجتهاد وتعلم. وليس نظام الخلافة بأمر يتوقف على مؤسسات قانونية دستورية توضع لأول وهلة قالبا للعمل، إنما هو ممارسة واختبار. وسيرث الإمام الخليفة مؤسسات ورجالا ومحترفة، فليس من الحكمة أن يهدم قبل أن يخطط لبناء، ولا أن يتخذ الهدم مبدأ.

إن إمامنا غدا رجل الهمة والمضاء والعزم الشجاع، لكنه أيضا رجل الحكمة ورجل البصيرة، وفوق ذلك كله رجل التوفيق الإلهي معه نور الله به يسعى، ومعه يد الله بها يصول ويجول. إن أول موجه لاختيار الرجال ليس الاعتبار السياسي القائم على ضرورة ربط القاعدة الشعبية بالحكم، بل هو اعتبار ثوري، ونستعمل هذه العبارة الجاهلية ومثلها تقريبا للمعنى وإقرارا بقصور الفقه المنهاجي عن التعبير الكامل. إنه عداء بين المستضعفين الوارثين الجاهرين بفرحتهم للإسلام وبين المنكوبين من المحترفة والمترفين أجمعين. فأول خطوات العمل وأوسطها وآخرها استبداد تربوي، فلا مندوحة للإمام من اختيار بطانة له بنفسه، فأولئك أصحاب شوراه الأسبقون. وبعد ذلك في مرحلة التنظيم الوسطى والأخيرة حيث تدبر المؤسسات وتوضع للاختبار والتمحيص والتحسين المستمر المفتوح على الدوام، حتى تذوب العداوة ويستوي تنظيم الدعوة وتستوي النصيحة ويرشد المؤمنون.

استعملت عبارة البطانة، وكثيرا ما تستعمل للدلالة على التعفن واحتكار السلطان واحتجان الأموال. والحق أن الناس أسرع إلى صاحب السلطان من الذباب إلى قاذوراته. فمتى كان صاحب السلطان حشوه الشهوات وحشوه الأفيون الإيديولوجي فلبطانة السوء مرتع، ولها عند بابه أسواق. لكن من يوفقه الله ربه ووليه ويعصمه من هواه يكشف الزيف من الحق. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]: «**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، المعصوم من عصمه الله تعالى**».

ينبثق الاختيار من أعلى إذا كما تحدد المعايير إلى وقت ترشد فيه الأمة، ويسمي الفكر السوقي هذا مصادرة للحريات ووصاية على الشعوب، والشيوعية تنافق أيضا. وما كان على وجه الأرض تجديد ولا تعبئة إنسانية إلا بالوصاية الرشيدة الجادة. إنما تختلف وصاية الخلافة الإسلامية عن استبداد الطاغوت القومي اختلاف النهار عن الليل، لأن البطولة القومية تكذب وتموه وتسطو سطوة الجبارين. أما الخلافة الإسلامية فهي قوية بقوة المصحف قبل كل قوة، وهي تعلم أن الحرب خدعة، وأن أعظم الحرب هو

1 البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

مصانعة أعداء في حجرك تريد بهم خيرا وتريد لهم نصحا وتكفهم باليد لتعقلهم عن الفساد. لكن عملها صدق وإخلاص، ومجال عملها تعمه معاني المسجد لا معاني السوق. والماء ينفي الخبث عن نفسه كما يقول الفقهاء. وإن الماء حياة، وإن انبعاثنا حياة من موت القرون. فلن يجد الكذابون في مجلس من يستخلفه الله فيحفظه ويوفقه أذنا صاغية كما لم يجدوا في مجلس من بعثه الله نبيا فعصمه.

ستَنفي الكذابين طهارةُ الإمام ونورانيته، ولن تنفق عنده إلا الرجولة الكاملة، رجولة المسبحين القارئين. قال سيدنا موسى في دعائه: ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً، وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً**﴾. فها قد رأينا الأسوة في ثلاثة أمور؛ في طلب عون الله تعالى على الاختيار، وفي وظيفة الوزير المشير يشد الأزر ويحمي الظهر ويشترك في الأمر، ثم في الرباط العلوي المقدس بين الإمام وبطانته، لأنهم يجتهدون في الأمر العام ليزدادوا قربا من الله ويسبحون ويذكروه كثيرا.

إن أهم وظيفة من وظائف المؤسسات الشورية في الإسلام ستكون مثل الوظيفة الكبرى للمؤسسات الديمقراطية الجاهلية، وهي اختيار رئيس الدولة وإقراره ومؤازرته. ويمكن أن نتبين من الآن

نقطتي اجتهاد لتكون شورانا غدا إسلامية لا ترجمة للديمقراطيات.

النقطة الأولى هي أن اختيار الإمام إما أن يكون في عنق أهل الشورى عامة كمثل انتخاب الصديق أبي بكر، أو يكون عهدا من الخليفة المائت كما كان عهد الصديق للفاروق، أو يوكل الاختيار إلى فئة من أهل الحل والعقد دون الآخرين، وذلك فعله الفاروق رضي الله عنه. فكل ذلك سنة. وأهم ما في هذه السنن وأكثرها إخبارا عن طبيعة الروابط الروحانية بين أجيال المسلمين، أن الخليفة المائت، الرجل الكامل النوراني على بصيرة، يمكن أن يختار خليفة من بعده يقبله المسلمون فيبايعونه باستفتاء، أو يردون أمرهم إلى الشورى فهي أسبق.

والنقطة الثانية في مزاولة الشورى لوظيفتها الكبرى ولسائر وظائفها التي يتميز بها الإسلام هو التحرر من العقدة الموقوتة. فإن كل عهدة تعهدها لعامل مؤمن في الحكم أو الشورى، وفي النشاط العام أيضا إنما هي ميثاق جار يحده في كل لحظة طوارىء الإخلال بالواجب أو العجز الوظيفي. ومسألة التعاقب على الحكم درس نستفيده من العقد الديمقراطي دونما حرج.

العقلية الجاهلية تبني أنظمتها على الملاحظة العلمية، فهي تعرف أن الاستمرار في الحكم مفسدة، لأن من طال به الأمد في السلطان كان أميل للتجبر والظلم، فلذلك توقت ولاية الحكام

والمنتخبين. ويترتب على ذلك أن الحاكم والمستشار لا يتفرغ لمزاولة عمله أبدا بل هو يترقب ميعاد الانتخاب، ويشل إرداته هم إرضاء المنتخبين لكي يعطوه ثقتهم المرة بعد الأخرى. ويجب أن يلغي الإسلام هذا، وأن يجعل كل ولاية ابتداء من الخلافة العظمى ولاية قابلة للإلغاء في كل لحظة بشروط نكلها للفقه الدستوري تضمن الاستقرار ولا تبرر الأهواء المتلاعبة. ومثل هذا، الوظائف العامة التي تنظمها الجاهلية بحيث تكون غير موقوتة ولا مضبوطة، فكل من وظف في أمر من أمور المسلمين يجب أن يكون التوظيف عقدة مبايعة تبطل إن أخل الموظف بشرط من شروطه دون ارتباط بزمنية فترات الانتخاب.

السلطان

يصرخ المحترفون بأن للشعب حق كذا وكذا، ويزعمون أنهم باسمه يتكلمون، وهم والله كاذبون، فقد تقايأهم المسلمون منذ خبروا فسولتهم وذئبيتهم. ويصرخون بأن عصرهم عصر حرية واستخلاص للحقوق فهم لا يقبلون شورى ممنوحة. وقد أفل نجمهم ورب الكعبة وذهب الله بنورهم.

إن القوة والشورى كرامة الله للحكم الإسلامي. إنه يمسك الزمام بقوة ليخاطب المترفين بقوة السلطان التي يحترمونها حتى يطأطئوا الرأس ويسمعوا للقول الحسن ودعوة الخير، إنه يرث فتنة مزمنة ويرث صراعات وقودها الأمة المستضعفة، ودهاقينها من بيدهم القوة من هذه «النخبة» المثقفة المحتكرة للحكم والمحتكرة للمال والجاه. وبين الأمة وبنيها المتنكرين للإسلام نفور شديد، وبين هؤلاء ومنافسيهم في الرأي والغنائم حقد. فلا يتصور أن يستجيب المترفون لدعوة الإسلام ولا أن يقبلوها كما تستجيب الأمة، ولا يتصور أن يتضامنوا مع حكم يأتيهم بما لا يعلمون وبشجاعة لا يعهدونها. أليس أنهم فرغوا في أنفسهم أن الإسلام خرافة بائدة، وأن شعارات الإسلام ما تصلح إلا ملهاة تنبذ للشعب الجاهل المتخلف؟

قوة السلطان ووازعه هو الجامع لهذا الشتات. والحزم في ضرب اللاعبين وزجر المخربين ضرورة لصاحب العزيمة الماضية.

لن يكون قطر الانبعاث غداة الإسلام صفحة بيضاء كما يقول ماو عن صينه. بل إن بين الناس خلافات مذهبية وعادات متصلة بالعقائد الضالة المتأصلة في جسم الأمة. وإن من الناس راقدين كسالى لا ترجى منهم حركة، وآخرين تعفنت ضمائرهم حتى يخيل أن البتر الكامل هو وسيلة تطبيب الأمة وإعداد الصفحة البيضاء التي تستأنف إسلاما بين قوم طهروا من عدوى الشلل وعدوى الكفر. لكن الإسلام رفق لا عنف، والقوة العازمة الماضية ينبغي أن تكون مشرط الطبيب لا يبتر كلما أمكن الإبقاء.

إن قوة السلطان تحمي القوانين وتنمع من تخريب الأعداء. فالقانون هو الأساس وقبول الأمة له شرط سابق لإمكان تطبيق القوة لتكون نظاما وجمعا. وبعبارة أخرى فالدعوة الإسلامية حين تصل إلى الحكم تدعمها استجابة المؤمنين من بين هذا الخليط المفتون يتبعها بالتدرج المتئد الثابت الخطى لا بالقفز فرض الشريعة وحمايتها بقوة الوازع السلطاني. وبما أن الأمة في مجموعها أمة مسلمة تلبي مَن صَدقها الدعوة وبرهن عن صِدقه، فلن يكون استعمال القوة نوعا من الإكراه الانقلابي. الإلزام الإسلامي يتشكل في طائفة من رجال الحسبة وفي الجند المتطوع لليقظة العامة.

ووراء كل هؤلاء، يسندهم ويعضدهم، مشاركا في النصيحة، كل المسلمين المتضامنين على إسلامهم. وسيبقى على الهامش هذا الزبد الغثائي المثقف بثقافة الإلحاد بعد أن تنتزع منه زبدة الأخيار من رجال العلم والثقافة والحكم. في الانقلابية تتعاور السلطان فتية لا صلة لهم بالأمة مطلقا وإن كانوا من بني جلدتنا لأنهم لا يدعون لإسلام، وإن دعوا فدعوتهم ظلام لا يبين. وأما استبداد الإسلام التربوي فهو مَسْكُ للسلطان بالأيدي المؤمنة في خدمة هدف واضح ومقصد وغاية يعرفها المؤمنون وتهفو إليها قلوبهم وينكرها الذين في قلوبهم مرض.

ذكرت الحسبة ورجالها لأشير إلى الاختلاف الجذري بين النظام البوليسي والنظام الإسلامي. المحتسب وأعوان الحسبة ينتمون لمؤسسة إسلامية صرف، فهي محاسبة عامة على السلوك الإسلامي في كل الميادين، إنها النصيحة المنظمة، وإنها اليقظة السلطانية التي ينبغي أن تخدمها وتؤيدها اليقظة العامة. النظام البوليسي يحارب الرأي المخالف ويقتفي أثر المنافسين السياسيين ليقطع دابرهم، ويتجسس على كل حركة لا تسير في ركاب الاستبداد. أما الحسبة فوظيفتها أشمل وأعم، وهي أنظف أيضا، بعد المرحلة الانتقالية، حين يتعلم المسلمون مجافاة الأساليب البوليسية الفظة وممارسة النصيحة بيقظة أكثر وحزم ورفق معا.

إن الأمر العام والنظام العام، سيما إن كان نقلة بعيدة كنُقلتنا من الفتنة الجاهلية إلى الحكم الإسلامي، لن يقوم إلا على السلطان اليقظ الشديد لا يتساهل في ذرة. وهنا تكمن أخطار الانحراف العديدة اللاصقة بطبيعة الإنسان. هناك التجهم الثوري والعنف الثوري الذي يتبع كل تغيير جذري. فقد كانت الجهامة والعنف بعد ثورة روسيا أقوى من أن تعدلهما حكمة لينين ودهاؤه. وقد تصرف التنظيم بعد انتصار الثورة تصرفا وحشيا أدى سريعا إلى الانقطاع بين العمال في القاعدة وبين رجال الحزب. وما مضت سنتان بعد الثورة حتى كانت روسيا قد خربت خرابا شاملا. كان من عوامله الحرب والحرب الداخلية، لكن أهم عامل، بل والسبب الأول في الحرب الداخلية هو التسرع والعنف الفظ. والخراب الذي لحق بروسيا نوع من جرد الأخطاء وتمهيد الطريق لاستئناف الكتابة على الصحيفة البيضاء. لكنه بيس الأسلوب، وقد كانت روسيا في سنوات 1921 و1922 متاهة يموت الناس فيها جوعا ويسعى في شوارعها الأطفال المشردون «bezprisonie» ويوزَّع فيها حساء الإحسان...الأمريكي.

وما نسيت الإنسانية تلك الملايين التي سفك دماءها ستالين الجبار، ولا الفوضى والمجاعات المطردة في بداية كل الثورات الشيوعية، حتى في بر الصين بعد إخفاق «القفزة الكبرى». ولا

يزال النظام الروسي وغيره من الأنظمة الشيوعية نظاما يستند على البوليس السري. ويذكر الناس أن تربية الثورى الصغير من الأجيال وليدة الثورة يبدأ بتعليمه كيف يتجسس على ذويه ليفضح كل انحراف عن خط الثورة. ولم يكن ذلك خاصا بالعهد الستاليني، وإن حكماء الصين الثوريين ينفون أن يكون في بلادهم بوليس سري، لكن من يدري لعل هذه اليقظة العامة ما أساسها إلا تعميم للتجسس وتصعيد إديولوجي للتضاغط الاجتماعي؟

يصحب الثورات الشيوعية إعصار اجتماعي شديد، لأن رجال الثورة يستعجلون أمرهم، وثورتهم أساسها نزع الملكية، فيلقون تمنعا شديدا ومعاكسة وتخريبا، وتقل الأقوات وتستأصل طوائف من الناس. وما تعبُر الثورات أهوال البداية إلا بالمضاء والعزم الذي لا يرتد أبدا، فإن ارتد فإنما هي مراوغة. وكانت حكمة الصينين هونت من هول الإعصار كما هون منه حجم المحرومين وضآلة عدد الملاك وفداحة ظلمهم الماضي.

أما الإسلام فلا ينزع ملكية، لكنه ينزع الإنسان بنفسه ويهيئه بالتربية أساسا، لسلوك يتعارض تماما مع سلوكه المألوف في زمن الفتنة. فالإسلام يطلب من الناس أكثر مما تطلبه الثورة، بيد أن لب السلوك الإسلامي ناحية لا تصل إليها يد السلطان، إنما تصل لبرهان الصدق العملي. فهل يقتصر السلطان الإسلامي

على مراقبة السلوك الفكري الاقتصادي أم يتسلط على الضمائر ويحاول أن يسبر أغوارها ليعرف إخلاصها للقضية الإسلامية؟

وبعبارة أخرى ما الفرق بين الحسبة الناصحة الواضحة التي تسندها اليقظة العامة وبين الجاسوسية البوليسية؟ وهل يستغني الإسلام المنبعث عن شبكة تجسس؟ لا شك أن من الأخطار التي يتعرض لها النظام الإسلامي خطر المغالاة في الدين حتى يشبه الأمر ما كان في زمن التفتيش الكنسي. وما أمر الله بالتجسس بل نهى عنه ونهى عن النميمة والغيبة، وزجر رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أسامة لما قتل رجلا تلفظ بالشهادة وغضب عليه أن قتل رجلا مسلما. فلما أبدى اسامة ظنه أن الرجل قالها نفاقا قال المعصوم صلى الله عليه وسلم : «**هلا شققت على صدره** !». فلا مجال ولا إمكان للتجسس على الصدق إلا من مراقبة براهينه العملية. فكل من صلى في المسجد مع الجماعة وأدى زكاته وصام رمضانه، واحترم السلوك الإسلامي العام في ظاهره فلا سبيل عليه. وتبقى النصيحة تضامنا عاما لفضح كل انحراف وزجره وقتاله، بشرط أساسي هو أن لا تعتبر المذهبية وممارستها انحرافا وإنما الانحراف محاربة المذهب الآخر. وأعني بالطبع المذاهب الإسلامية الطاهرة من الشرك والباطنية، كالمذاهب الفقهية والشيعة غير الرافضة ولا المبهمة، والصوفية

تنزع عن قتالها للوهابية، وهذه تكف عن تكفيرها للناس.

وقد كانت الثورة الوهابية درسا سلبيا لكل عمل إسلامي يأتي بعدها. انحدر علماء نجد بأفكارهم الحرجة المكفرة وانهالوا على مساكين تهامة كما انهالوا على المبتدعة في الحرمين الشريفين. وكان سلطان الوهابية دواء ناجعا للفوضى وقطع الطريق، لكنه كان أيضا احتلالا دينيا ضيق العطن قصير النفس. فمن حملات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوهابية، ومن كسر الطنابير والمذياعات، لم يبق اليوم إلا أسى وحسرة وإلا سوق فاضحة مفضوحة لبضائع الجاهلية الباذخة تباع في جوار بيت الله ومسجد رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن كانت الطنابير منكرا في الحرمين فهو كان ولا يزال منكرا خاصا، والمنكر الاقتصادي المخرب للأمة لا تبصره أعين المتشددين في الدين.

كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحذر كثير السؤال عن الناس، وكان عمر بن الخطاب أعلم الناس بما في الناس لا تخفى عنه من أمور أمته خافية. فكذلك ينبغي أن يكون الحكم الإسلامي المربي، وكذلك ينبغي أن تبقى الخلافة على مدى الأيام. لكن يجب أن لا ينحدر الإطلاع على الناس وأحوالهم إلى تشاؤم يجعل من مبادئه الاعتماد على الأرغام وسيلة لتغيير الأمة وأخلاقيتها وعقليتها. فليست التربية هي الردع، بل إن الردع يميت

ولا يحيى إن كان وحده الوسيلة، ويثبط ولا ينمى.

الإطلاع على الناس وأحوالهم يكشف حقيقة ذئبية الناس وقلة الصالحين. وإن «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظرة التشاؤم هذه قد تستبد بالحاكم فيزاول سلطانه إرهابا وقمعا. لكن من ينصبه المسلمون حاكما لن يرعيه الله رعية إن لم يكن بها رفيقا. وقد كان رسول الله يقول : «أنا نبي الرحمة، أنا نبي الملحمة» وكان يقول : «أنا الضحوك القتال»[1]. فكان عليه الصلاة والسلام جامعا باسم ربه مسبحا له نور وبصيرة وله رفق وتؤدة وسمت. فكان يعلم من وحي الله إليه من هم المنافقون فلا يفضحهم، وإن افتضحوا بأعمالهم سترهم وعفا عنهم. ولا تمنعه هذه الرحمة وهذا الرفق من المضاء في قتال عدوه، ويضرب كل من أبدى له صفحة وجهه.

سيطلع علينا الحكم الإسلامي، فهل يلزم الناس بالطاعة وحدها، أم يفرض التطوع إن لم يتطوع من الناس من يقومون بفرض الكفاية ؟ وما حد الطاعة؟ وما حد التطوع؟ لقد تركت لنا الفتنة الأولى درسا خالدا في معقد الاحتلال، بل قل في سر الانحلال، حين تفاقم اضطراب الذئاب الإنسانية ولأن مقبض العصا السلطانية في يد خليفة رسول الله سيدنا عثمان. فقد لبث

1 الحديثان ذكرهما ابن تيمية في: «السياسة الشرعية»

رضي الله عنه مترددا بين حدود الدعوة ووازعها وبين حدود القسر السلطاني حتى قال قولته بعد أن لات حين مناص : «لما يزع الله بالسلطان أكثر مما لا يزع بالقرآن».

وما تماسكت عصا التأديب في اليد الكريمة، فتداعت الدعوة، وما تعلم المؤمنون يومها أن يتركوا للأمة أمر المال شورى بينهم ليستبد الإمام بأمر الله. وقد كان اختلط أمر الله بأمر الناس، وكان ظهر الاجتهاد واختلاف الرأي بين الصحابة دون أن يكونوا استعدوا لتنظيم خلافهم على إثر صاحب الدرة والعزيمة الحادة القوية سيدنا عمر بن الخطاب. هل هذا المال الذي يجب أن يساس لصالح المسلمين هو مال الله أو مال الناس ؟ وهل يدود الناس عن حظيرة الغنائم العامة قولة الخير أو سيف السلطان. وبعبارة أخرى هل يكون الإلزام يوما ما خبرا بعد عين إن تربى الناس والتزموا خط العدل؟ وهل ينفصل حامل العصا المؤدبة عن قضايا المال فيتعالى عن التهمة ويتمكن من ضبط الأمر وإحكامه، أم تفرض طبيعة الحكم أن يلصق الناس مطالباتهم وأسبابها بالحاكم صاحب العصا ؟

كل هذه الأسئلة كانت تطرحها منطقية الفتنة الكبرى كما يطرح اليوم السؤال الوهمي : هل يمكن يوما أن تختفي الدولة من حيث كونها أداة قسر ؟ وإن الفقه القانوني الدستوري الغني

بتجاريب الأمم وحكمة التاريخ يفتح لنا أبوابا للاجتهاد كي يكون «الاستبداد التربوي» مستندا على الوازعين دون أن يكون الإمام رجل الخطة الاقتصادية، ودون أن ينقص ذلك من هيمنته على كل صغيرة وكبيرة من حيث التوجيه والحكم الفاصل عند النزاع. فما كان يدري مولانا عثمان أين تنتهي صلاحياته، فلذلك ضعف. وكان عمر خليفة لله لا حد لسلطانه، فنجح وكذلك يكون إمامنا غدا. حاور مولانا عثمان أبا ذر حين نازعه، قال أبو ذر : «إنه لا ينبغي أن يقال مال الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا» فقال : «يا أبا ذر، علي أن أقضي ما علي وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد. وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد»[1].

ماذا على الإمام وماذا على الرعية ؟ هذا ما كان فقهنا المنهاجي يبحثه، وبمقتضى محو عقلية المطالبة وإبدالها بالتطوع والطاعة الجهادية يفرض الإمام بالقرآن والسلطان الاقتصاد والجهاد فرضا.

1 الطبري

توحيد المسلمين

«إنما يستجيب الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون». إن الأمة لا تسمع مكاء القوميين ولا تصدية المحترفين فلذلك لا تستجيب وإنما تخضع للطاغوت. وكل الأنظمة القائمة في دار الإسلام اليوم أنظمة إرهاب وقمع لا استثناء من ذلك البتة.[1] وعلى سطح الأمة يطفو الزبد الغثائي مجتثا غدا إن شاء الله من فوق الأرض ما له من قرار. فعندما تنبعث الكلمة الطيبة وينشر لواء الإسلام وتنصب خيمة الجهاد ويصلت سيف سلطانه، ستفرح قلوب المؤمنين وستكون مشاركتهم في ممارسة الإلزام والنصيحة مشاركة من انبعث من موت، فهو على ما فاته حزين وعلى الفرصة الثمينة التي بيده حريص. إن الحاكم الإسلامي أخ محبوب لأن قلبه فيه التوحيد وفيه الإيمان فهو يتجاوب مع قلوب السبعمائة مليون مسلم ويتناغى معها. وإن سيف العدل سلاح تحركه يد الرحمة ودعوته الصادقة اللاحقة شعت القطر الإنبعاثي، وسيعطي الله أحبته وأولياءه الذين انبروا لحمل رسالته رفقا وتؤدة كما يعطيهم مضاء وقوة وعزما لا يلين ولا يتصالح على أنصاف الحلول.

1 ثم جاءت الثورة الإرانية الإسلامية. هي الآن تخرج من مخاضاتها الميلادية الصعبة.

وإن لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرى أن الخلافة على منهاج النبوة سيرضى عنها ساكن الأرض وساكن السماء، وستمطرها السماء وتنبت لها الأرض وتخرج لها من بركاتها. ذلك من تزكية الله القوى العزيز للجهاد المشمر الدائب الذي يقوده المؤمنون في كل ميدان، يبدأون في كل يوم عند الفجر في صف للصلاة، فيبكر العاملون المجاهدون لأرضهم يخاطبونها بالجد فتستجيب لهم بأمر ربها حتى يعمهم الخير.

الأمة الإسلامية متخلفة في اقتصادها فذلك ما يهيمن على وعيها، وإنها جميعا عند إعلان الدولة الإسلامية ستترحك تحركا عاطفيا على سطحه شك القادة المنحرفين والضالين وفي أعماقه فرحة كل مسلم مستضعف. لكن هذه الحركة العاطفية تتحول اهتماما جادا يعقبه وشيكا حيرة المفتونين الضالين وتهاويهم وخزيهم عندما تبدو طلائع النصر الإسلامي في كل ميدان، خاصة في البناء الاقتصادي المجدد المبتكر الذي يتعلم من عطاء الله غير المحظور لكن يسير على غير مثال سابق وينسج على منوال إسلام منهاجي متكامل، يومئذ فقط يمكن لكل قطر تحرر وقامت فيه دولة القرآن أن يدعو لتوحيد المسلمين، ويمكن أن يطرح للنقاش والإعجاب حجج صدق الله في عطائه لمن صدقه عز وجل في التعرض لموعوده.

من زعمائنا الآن من يقيم دنيا الهتافات ويقعدها يريد وحدة بين دول الإسلام القومي الاشتراكي. ويجتمع رجال الحكم والسياسة في مؤتمراتهم ليتدارسوا وسائل توحيد المسلمين. وهم يجهلون الإسلام ويتصورونه رباطا قوميا وعصبية يكاثرون بها أهل الغلبة من أعدائهم. إنهم رجال العقلانية السياسية وأصحاب الاحتراف والمماطلة والمراوغة من لا يبكيين قوميين وعشائريين تقليديين. بعد أن ينتهوا من تنازعهم على الزعامة والرئاسة يلدون أفكارا اقتصادية تبقى دائما في حيز الأحلام، ويتعاهدونا على النصرة والوحدة، ثم لا يكون من مؤتمراتهم طائل. وكيف يتآلف الإسلام مع النيات القومية والنوايا المخادعة؟ واقرأ فشل الجامعة العربية في مذكرات القشيري ففيها البلاغ!

ولعلمائنا الأفاضل مؤتمرات يسعون فيها لتوحيد المسلمين لا سيما بعد أن غُزِي المسجد الحرام بالقدس واحتل وامتنهت حرماته. ولعلمائنا غيرة شديدة على الإسلام تسهل عليهم إن شاء الله نبذ الخلافات المذهبية. وإنها لخطوة لا يستهان بها. يجتمع علماؤنا الكرام فلا يعتمون أن يتفقوا على وجوب جهاد العدو الصهيوني وتوحيد المسلمين لتعبئة الجهاد، ويرفعون توصياتهم للقادة المراوغين المتخاذلين، فترمى تلك التوصيات ويرجع العلماء لأمتهم بالأفئدة الكئيبة يشكون بثهم وحزنهم إلى الله. ومن خلفهم

ديدان القراء يبصبصون للزعماء والطواغيت ويكذبون على الأمة بالخطب المدنسة بنياتهم الدودية.

القادة على رقاب الأمة لا يستطيعون جمع الأمة لأن أفئدتهم هواء لا إيمان لهم، ولأن وعيهم الممسوخ المصنوع المترجم لا يرى في البلاد إلا قوما يسخرون ويعتسف بهم. هم الدخلاء في الأمة وبيدهم قوة العقل وقوة البطش، والأمة الممثلة في علمائها أمة عاطفية تتكلم بلسان العاطفة والإيمان، فلا يحسن الزعماء إلا تقليدا قرديا للشعارات، وإن بكى العلماء وبكى معهم المسلمون لضياع الأمة وفتور الإيمان، هتف الزعماء بشعار الإسلام والإيمان وعموا على الأمة الجاهلة المحرومة كل معلم نحو استعادة شخصيتهم وعزهم بإيمانهم.

فإذا يئس علماؤنا من الزعماء، كما كان يئس منهم محمد عبده بعد أن قضى عمره في مداراتهم، فكروا كما فكر في إنشاء جامعة إسلامية تربي للأمة أجيالا صالحة، وعولوا على سلوك الطريق الوعر الطويل بادئين من البداية. ففي ظل الكفر المجوسي بالهند تزدهر المدارس الإسلامية وتؤدي مهمتها في تربية المسلمين ولم شتاتهم وإيقاظ روح الإيمان فيهم ما وسعها ذلك، وما تركها الفاتن المجوسي. أما في بلاد الإسلام القومي فجامعاتنا الإسلامية تحتضن علماء مخلصين ومن بينهم آخرون أدعياء منافقون يخادعون

الله والمسلمين ويبررون القومية ويعبدون الطاغوت. ويا حسرتا على الأزهر الشريف، معقل الإسلام، تبرز منه رؤوس الشياطين من أمثال الذين عبدوا البطل القومي وتمسحوا بحذائه. «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون !»

وفي العالم الإسلامي اليوم مشروعات تدرس لتأسيس جامعة اسلامية توحد الفكر الإسلامي. وما من زعيم حامل لشعار الإسلام كما يحمل الأفاكون شهادة الزور مسخا ظاهرا على وجوههم، إلا ولديه مشروعه لتأسيس جامعته الإسلامية. ما منهم إلا من يطلب الرئاسة ويسابق منافسيه لتزعم الوحدة الإسلامية ولو في صورة جامعة. وإن جامعة اسلامية ينفق عليها ويوجهها الطاغوت القومي لمؤسسة مدجنة، اغتر بها علماء المسلمين وشكلتهم حبائلها فسرعان ما سيكتشفون أن الطبقة المترفة يفسد في يدها كل شيء، فما بالك بالمشروع الجليل الذي هو جمع المسلمين وتوحيدهم.

وعلى هامش لعب القادة وسذاجة العلماء الصادقين تتم لقاآت شعبية بين المسلمين، يجتمعون; أبيضهم وأحمرهم، مرة في السنة حول بيت الله الحرام. يجتمعون على الإيمان بالغيب، يلثمون الحجر الأسعد ويطوفون بالبيت الحرام ويهرولون بين الصفا والمروة.

فالإيمان بالغيب يجمعهم ويفرقهم العقل. لكن هذا الجمع حول الغيب وهذا الإيمان بالميقات والإحرام والوقوف ورمي الجمرات اجتماع شكلي ذري. وفي وسط مليون ونيف من الناس يقف كل حاج بعرفات يطلب خلاص نفسه وأهله، فإن دعا للمسلمين فإنها دعوة عابرة لا تترجم وعيا جماعيا ولا نية جهاد جماعي. ويجتمع الحجاج في بيت الله الحرام فلا يمنعهم ذلك من الإفتراق عند الصلاة، فإن من الطوائف الضالة من لا يصلي بصلاةالجماعة. ويفترقون الفرقة الكبرى حول قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فالأمة في مجموعها تحبه وتعظمه وتوقره وتعزره وتتوسل إلى الله به وتتشفع كما أمرها الله، وطائفة يكفرون أحباب رسول الله ولا يرون في الوجود مهمة غير التكفير والاتهام بالشرك.

كل هذا لأن الاجتماع على الغيب في المستوى الشعبي، إن كان إيمانا يقبله الله، فإنه لا يكفي ليكون آصرة جمع وتوحيد حتى يفضى الإيمان بالغيب إلى الاهتداء بالقرآن.

ويجتمع المسلمون، خواصهم من أهل العزم والهمة، في مساجد دعوة رجال التبليغ وأمثالهم. إنه اجتماع على الإيمان والهجرة والسنة والاقتصاد والتعارف. لكنه اجتماع تظاهر وجهر بالإيمان ودعوة فردية لغياب الفكر والتخطيط والمنهاج العملي. وما كان الأمر ليكون غير ذلك، فإن الهند مهد دعوة التبليغ هي بلاد المجوس،

وكل محاولة للتفكير الإسلامي يعده الكافر سياسة ويضطهد عليه. الوحدة في مساجد التبليغ وحدة تحضر آحاد المسلمين من شتى الآفاق، ويتظاهرون بإسلامهم وإيمانهم، وينفع الله بهم الأمة. وعندهم مبدأ أساسي هو ترك ما لا يعنيك. وهذا الترك قد يخفي ما لا يعلمه إلا الله من عدم الإهتمام بأمور المسلمين، كما قد يكون اقتصادا وصمودا نحو الهدف والمقصد والغاية. ولا نعتب على رجال التبليغ إن كانوا يصرحون بأنهم لا يحبون التخطيط ولا الفكر المخطط اعتمادا على ما يحدثه الله لهم; تلك عفوية وتواكل قديمان فينا موروثان. وإن رجال التبليغ بصراحتهم وصدقهم لا يدعون ما يدعيه القادة الكاذبون من شمولية دعوتهم ومن اخلاص لقضية الإسلام والمسلمين.

هذه الوحدة الشعبية في الحج ومسجد التبليغ، وتلك المحاولات المؤتمرية نبضات غائضة للشعور الإسلامي النائم الضبابي. ولن تكون لنا وحدة إلا بقيادة دعوة منظمة تؤمن بالغيب وتعبد الله وتسبحه ويقرأ باسم ربها جامعة الربانية من أطرافها، عالمة مربية رفيقة، ليس مطية العاطفية الساذجة ولا ضحية العقلانية والاحتراف.

قلنا في فقرة مضت إن الحاكم الإسلامي ينبغي أن لا يكون رجل الخطة الاقتصادية. قلنا ذلك لسببين اثنين; أولهما أن ثنائية

الدعوة والدولة، وضرورة جمع الوازع السلطاني مع الوازع القرآني في يد واحدة قوية، تقتضي أن يترك الإمام الهدف الاقتصادي ومال المسلمين شورى بين المسلمين، وأن يبقى هو مشرفا من أعلى على الحركة كلها، بمكان الحَكم اليقظ الذي تفزع إليه كل الخصوم، ذلك أدعى ألا يضطرب السلطان في يده إن أصبح خصما في النزاعات اليومية. والسبب الثاني هو أن الحاكم الإسلامي يجب أن يتفرغ للمقصد الإيماني والغاية الاحسانية، والمقصد الإيماني هو تربية جماعة مؤمنة تربط بين أعضائها ولاية المؤمنين، تحمل مشروع توحيد الأمة عبر أقطارها. معنى هذا أن يتفرغ للدعوة وتنظيمها وإشعاعها على الأمة قاطبة. والغاية الإحسانية هي ميراث الدعوة المحمدية الكاملة، فالإمام يدل المسلمين على ما دلهم عليه الخلفاء الراشدون من محبة الله والتقرب إليه والتماس الزلفى لديه، ومحبة الخلق أجمعين وتبليغهم رسالة ربهم.

الإمام إذن جامع الأمة وقارشها بإذن ربه، إنه لا يترنح على تلك المقاعد الزعامية في المؤتمرات يفتات على المسلمين، بل هو جليسهم كل يوم في مسجد جامعته; إذ يجب أن يكون له جامعة تعلم وتربي ويفد إليها كل مؤمن يؤهله الإيمان والفكر والاستعداد لحمل دعوة التوحيد وتنفيذها. وإن الإمام يبلغ المسلمين عامة صوته إذا خطب وأثر سلوكه في العدل والنصيحة لله ورسوله والمسلمين،

وأثر فضل الله على أمته به، فيحبونه وتنفتح قلوبهم وعقولهم لمعاني الوحدة، فيشتاقون إليها ويفهمون شروطها ويتأهبون لها بجد، لأن الوحدة لا ترتجل ولا يمكن أن نطوي قرون الفتنة بين عشية وضحاها.

حول شخص الإمام سيتم جمع المسلمين من فتنة كما اجتمع الإسلام الأول حول شخص الداعي إلى الله الرسول من جاهلية. إنها وحدة عاطفة وثقة بالإسلام مجسمة في الثقة برجل الإسلام. وعلى أساس الثقة والمحبة تتكون وحدة فكرية ودستورية وجغرافية في إبانها. ذلك بعد توحيد الأجيال، وتوحيد العقليات وتوحيد الوجهة وتوحيد الاجتهاد، وتوحيد حرية المذهبية بما لا ينافي صريح النص وبما لا يتنافى والهدي القرآني ومحبة الرسول الكريم وآل بيته.

ألا وأن أعظم عرقلة في وجه الوحدة هي هذه القومية النتنة هي كانت فرقتنا وأوهنتنا ولا تزال. وإن في دار الإسلام رجالا ألوانهم مختلفة، هم ذخيرة الإسلام غدا وعماده، يجب أن يهاجروا، من كان له منهم غناء، إلى الإمام يعززونه وينصرونه. وكما كان زعماء القوميات في أوائل الفتنة يكرهون «المولى» الذي سماه رسول الله بسم المحبة المتبادلة والمناصرة، فأحالوها حقدا ومعرة، فنحن غدا نبتهج ونمرح ونفرح إن اجتمع اخواننا المؤمنون على صعيد الولاية، كلهم مولى لصاحبه ومولى للمسلمين. وقد وصفوا

لنا داءهم القومي القديم، فإن ذكرناه اليوم فضحنا الوباء الذي لا يزال على حاله، وكرهناه لنتقاياه ونبغضه. روى صاحب العقد الفريد ما يلي، كما روى غيره مثل ذلك عن هشام بن عبد الملك. وهي روايات تنتشر خزي الشعوبية القديمة، وننشرها نحن لنخزي الشعوبية المعاصرة. ومن أحب أن يعرف مخازي القومية الحديثة فعليه بمذكرات أحد أبطالها : الشقيري. قال ابن عبد ربه.

«قال لي ابن أبي ليلى : كان عيسى بن موسى شديد العصبية فقال لي : من كان فقيه العراق ؟ قلت : الحسن بن أبى الحسن. قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين. قال : فما هما ؟ قلت : مولیان. قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن ابي رباح، ومجاهد، وسعيد بن جبير وسلمان بن يسار. قال : فما هؤلاء ؟ قلت: موال. قال : فمن فقهاء المدينة ؟ فقلت : زيد بن اسلم، ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبي نجيح. قال : فمن هؤلاء؟ قلت : موال. فتغير لونه ثم قال : فمن افقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأي، وابن أبى الزناد. قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالى، فاربد وجهه ! ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت: طاووس وابنه وابن منبه. قال : ومن هؤلاء ؟ قلت : من الموالى. فانتفخت أوداجه وانتصب قائما! قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبد الله الخراساني. قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى

فازداد وجهه تربدا، وأسود اسودادا حتى خشيته ! ثم قال فمن فقيه الشام ؟ قلت مكحول. قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى. فتنفس الصعداء. ثم قال : فمن فقيه الكوفة ؟ فو الله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وحماد بن أبي سليمان، ولكني رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم النخعي والشعبي. قال : فما هما ؟ فقلت عربيان. فقال : الله أكبر ! وسكن جأشه».

لقد حررنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من رق الجاهلية ونخوتها وعصبياتها، وأوصانا بأن نترك هذه المنتنة . والله أولئك الرجال الموالي الفقهاء المؤمنون كم قاسوا من طاغوت الشعوبية العربية. وما تطأنا أقدام الجاهلية إلا لتمكن العصبيات من قلوبنا، وسيمحوها الله عز وجل ويرفعها. لقد ضيعنا معاشر العرب استحقاقنا لمحبة المؤمنين اجمعين بضيق قلوبنا وتفاهة أحلامنا، وإن لم تنبدوها ويلكم! فإن موعدكم الصبح أليس الصبح بقريب ؟!!

الرحمة في العالمين

قال الله عز وجل للمنذرين :﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ اللهم اجعله صبح الرحمة مطر الرحمة يغسلنا من أدراننا ويجدد في هذه البذور الغثائية العفنة حياة وقوة، وتبعثنا ربنا رحمة في العالمين. إن أمرك يا قوي يا عزيز إذا جاءنا بالبشرى كفيل أن يذل القوميات ويعلي كلمتك الحق، أنت الحق وأنت الرحمن الرحيم.

بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وكل من سار على منهاجه وعرج لسماء الروح بمعراجه، فهو للعالمين رحمة، وإلى المرحمة يدعو والصبر والجهاد. الرحمة في العالمين وظيفة معطلة، لم يبق من خيرها إلا رأفة الرهبان المتبتلين الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، كانوا متبعين روح الله، فلما تأله من بينهم القساوسة وحرفوا لهم دينهم ترسب رغم ذلك الرحمة والرأفة. وهم لا يزالون يقولون إنا نصارى، فنأتمر بأمر الله ونفهم إشارة الله، فهم أقرب الناس مودة لنا. لكن رأفتهم ورحمتهم تختلط بالشرك المثلث ولا تنجح دعوتهم في دلالة العالمين على الفطرة التي

فقدوها، رغم قوة التنظيم الكنيسي وغناه، ورغم وسائله الهائلة ورجاله الأذكياء العلماء. والكنيسة اليوم في أزمة شديدة، وعملها في نفس الوقت يحظى باهتمام متزايد من جانب العالمين.

دعوة الكنيسة واحدة من الدعوات التي تصدع بدعايتها في هذا العالم المخبول. الدعوات الشيطانية السحرية، والشعوذات من كل فن ولون، والتنجيم والتزليم. وحتى راكبوا الصورايخ يحملقون في الأجواء الفضائية يبحثون عن الله، ويصرخ الملحد منهم من على منبره الفضائي أنه عبر الآفاق العليا فما وجد لله أثرا.

إن هذه الإنسانية معذبة شقية بدوابيتها، فهي تنتظر الرحمة، ولا رحمة إلا من الله جاء بها محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه. وإن الإسلام هو دين المغلوبين المستعمرين. وإنه كان ولا يزال الغرض المنصوب لافتراء المستشرقين وكيد المنصرين. ورغم ذلك كله، ورغم أن أهل الإسلام لا يمثلون الإسلام، بل يعاكسون وجهته ويهتكون حرمته، فإن الجاهليين يترقبون رحمة إسلامية تفتح القلوب الحرجة لرجاء مشرق. علمائهم والمؤرخون يرتقبون أخوة إسلامية ورحمة اسلامية تعوض جهامة المجتمعات الكافرة، كان منهم اشبنجلر وطوينبي وبرناردشو وكثيرون. ومن علمائهم وعامتهم من يعتنقون الإسلام طالبين راغبين بأهون الجهد. قد أسلم منهم على يد رجال التبليغ خلق كثير. ويكتب

إلي أحد المهتدين بأن أميركا بلاد ضياع روحي واسعة America is a vast spiritual wastland. نعلم ذلك من حركة الإسلام بين السود الأميريكيين، وهو اسلام مشوه يتخذ شكل التنظيم القومي المعارض. ولما زار محمد خباز أحد مسلمي السود الأميركيين دار الإسلام وحج مع المسلمين، اكتشف الإسلام الحق، وألغى اسمه النضالي في صفوف الإسلام المشوه «مالكوم إكس»، ورجع لبلاده يبشره برحمة الإسلام، ويخبر قومه أن الإسلام لا يفضل الأبيض على الأسود، وأن المسلمين يتعايشون ويواكل أبيضهم الأحمر ويصاهره ويحبه، بل ويؤمره عليه ويطيعه، حتى قتلوه. وبقيت مذكراته كتابا يجب أن يتأمله رجال الدعوة الإسلامية طويلا، ليدركوا معنى الضياع الروحي الذي يعيشه العالم.

اغتر محمد خباز بمظاهر الألفة والإخوة بين المسلمين التقليديين ولعله أدرك أبعاد هذه الألفة وحدودها، ومع ذلك ورغم ذلك قنع بهذه الأخوة النسبية المظهرية بديلا لجحيم الميز العنصري وغابوية المجتمعات المستهلكة.

تصور ما يكون عليه الأمر يوم تقوم في الأرض دولة اسلامية حقا، ويوم تجمع المسلمين على كلمة الحق، ويوم تكون لنا أخوة غير محدودة ولا مظهرية. تصور أن لنا معشار الوسائل التي جمعتها الكنيسة وجندتها لدعايتها، وأن لنا عشر معشار

علمائها وجديتهم أن العالمين يروحون منا روح الرحمة ويقبلون علينا ليتعلموا سلام الإسلام ورفق الإسلام. إن سفينتهم الحضارية تتحطم على صخور الجهل والجهالة، وإن حضارتهم لفي النزع، يدركون ذلك على مراتبهم وينذر به عقلاؤهم. فدعنا من التخيل وهلموا يا مسلمين نتعلم كيف نصبح أساتذة العالم.

الأرزاق نحن أقل العالمين نصيبا منها، والسلاح نحن نشتريه به بثمن الغبن ثم لا نحسن مسكه بأيدينا، والعلوم العقلانية لن ننتهي من تعلمها في مدارسهم ليوم قريب. فما بقي لنا إلا روحانية المؤمنين، وقد استأثرنا باللب والصميم إن اكتشفناها ومارسناها. أما ترى أن الجاهليين يرتدون إلى البهيمية القذرة المتحللة هروبا من نظامهم الحضاري القاتم، وسعيا وراء خيال مجنح في المخدرات وما إليها، لا تجتمع لهم راحة الضمير وكرامة الإنسان، فيهينون هذه الدابة الإنسانية المستهلكة في عاداتها ويرذلونها ليشتروا وهم الراحة ووهم الحرية.

عندما نكتشف ايماننا ونمارسه في الشارع والبيت والديوان والمعمل، ونمارسه حيث يرانا الناس جميعا، فلن نحتاج نحن أن نحمل إلى العالمين اسلامنا بل هم يهرعون إلينا ليتعلموه ويقتبسوه. الرهبانية الكنسية، وأختها الهندوسية وما يسير في الركب الظلماني من ترهات، تقترح على العالم روحية تقتضي انزواء عن العالم أو

طقوسا مبهرجة تغر ولا تسر. وكل ذلك كان ولا يزال نشاطا هامشيا ظنينا لا صلة له بالحياة.

وإن اسلامنا حياة، وإن ايماننا رحمة، وإن إحساننا حقيقة ترتفع بالإنسان لكماله.

لعل ما سردناه من قصورنا في الأرزاق والعلم والقوة يوهمك أن اكتشافنا للب الإيمان وثمرة الإحسان قد يكون بمعزل عن الفاعلية في مزحمة العالم. وما قتله هو أن منافستنا للجاهلية في تلك الميادين لن تكون الحافز لهم على قبول دعوتنا، بل الحافز هو تغيرنا الكيفي الذي لا يتنافى مع إعدادنا للقوة وغزونا لدينا الكم بما يتناسب والمبدأ المنهاجي في الاقتصاد.

تعشش في عقول المسلمين المفتونين آمال لدخول الأمة في عالمية تعيد لنا المجد الحضاري، ونخوة الآباء والأجداد، عالمية منتهى طموحها أن ندخل العصر ونلحق بركب الحضارة المادية. ولنا نحن رجاء وانتظار ليوم الإسلام الأغر، يوم نتسلم ميراثنا للخلافة في الأرض، ونرتفع عن الأماني القومية إلى الهمة القعساء، ومجالي الرحمة العامة الإيجابية المتعدية. إن هذا العالم لنا، ومن أجلنا خلقه الله بأرضه وسماواته. فإن وعينا أنفسنا وعيا قوميا ضيقا فما لنا ميراث إلا الخزي والهزائم. أما إن وسعت تطلعاتنا العالمين، وفسحنا للإنسان مكانه في ميراثه، أنى تكن جنسيته ولسانه وماضيه بشرط

واحد هو أن يؤمن بمحمد ورسالته وبأنبياء الله جميعا ويسلك على شريعته، فستخلع أنانية كلمة «نحن» رجسها، وستجمع خلق الله وعياله كفالة الإيمان ورحمة الإحسان.

قادتنا المضطربون همهم بالليل والنهار أن يفسح لهم مجلس على مائدة اللئام. إنهم يبغون المشاركة في عالمية حقيقتها التقليد والتبعية والتلمذة الخانعة، وعليها غلالة صفيقة من نفاق الأصالة ومنكر القومية. إنها عالمية استهلاك ومطالبة ومسخ. لا يضيرها أن تكون مطالبة بحق مهضوم وإنما يضيرها المسخ القردي المتنكر لقيمة الإنسان وكونها ذنبا للجاهلية، وزمة لروسيا وأمريكا.

وإذا اجتمع المسلمون بمكة والمدينة في لحظة اخبات وتوبة تعلموا من زيارتهم لتلك البقاع الشريفة عالمية الإستهلاك وتقبلوها على أنها الحق والهدى، لأن اللعب الإلكترونية الواردة من اليابان وأمريكا متوفرة بباب الحرمين المقدسين، والمسلمون بين بائع ومشتر لهنات الحضارة العفنة بالمال الذي نبذره تبذير السفهاء، فلا نقوم به ولا نعز.

عالمية التقليد المسخ وعالمية الاستهلاك تتموج على خطوطها عقلية المسلمين وعاطفتهم على كل مستوياتهم. وإن كانت مائدة الأرزاق في العالم يحتكرها اللئام، وتملى علينا ضرورة العيش أن نقاتلهم بسلاحهم السياسي لنأخذ نصيبنا، فإن تهالكنا على

البضائع العالمية مهانة وبرهان على سفاهتنا وعدم أهليتنا لحمل الرسالة الرحيمة.

العالم الجاهلي يغزونا بفكره ويغزونا بنتائج علمه، فما من كتاب لهم نقرأه وما من مسمار ولعبة نستهلكهما من متاع الجاهلية وأثاثها، نحتاج إليه ولا نقدر على صنعه، إلا يحمل معه سما ناقعا يبعدنا عن معاني وراثتنا ورجولة تلقيها. فهل نغلق علينا الأبواب بستار من طين، إذ يعوزنا حديد نسدله علينا كما أسدلته روسيا مدة مخاضها بالعالمية الشيوعية؟ وهل نتنكر للعالم وننابذه حتى يستوي لنا نظام الخلافة وركائز قوته؟

هنا نصل إلى استراتيجية رجال الدعوة الإسلاميين اخواننا. إنها أسلوب الحرب الطويلة البعيدة : أسلوب حفر الخنادق والتربص بالعدو في غبش المؤامرات العالمية الصهيونية. وأسلوب المطاولة ومعاداة العالم. يستعمل الإسلاميون اخواننا عبارة المواجهة، ولعلها عدوى لفظية سرت لصفوفنا من البهلوانية القومية التي تظل على المواجهة وتبيت، وهي مواجهة خاصة بمجتمع الكراهية دالة على طبيعته، وبمقتضاها يواجه القومي شركاءه في الجريمة. يواجهه سرا وجهرا، على صفحات المذكرات والجرائد أو على أمواج الإذاعة. ويلعن بعضهم بعضا ويفضح. ويدعون أنهم يواجهون عدوا مشتركا. والحق أن أعدى أعدائهم يكمن في قلوبهم الكارهة

الضيقة. فلو غلبوه لطار قلب الصهاينة الراتعين فينا شعاعا وفرقا من الظاهرة المستحيلة.

عالمية المواجهة عند رجال الدعوة الإسلاميين عالمية شريفة نظيفة، إنها عالمية الرجولة المجاهدة المتحفزة للقاء العدو، بيد أن عداء العالم لوجود الصهيونية والتنصير ومائدة اللئام، موقف انكماشي ذو أهداف قريبة جزئية. فهلا عالمية الدعوة إلى الله، تعرف مواقع الصهيونية ولا تستهين بها وتتجاوز كيد المنصرين، عالمية أن من طبيعة العقرب أن تلدغ، وأن الرجل ينبغي أن لا يركز همته في النعل التي أعدها للعقرب. فإن فعل فغاية أمره أن يماحك العقرب وتراوغه، ويمضى العمر في تقليب الأحجار ليبعثها من أحجارها.

ينبغي لرجال الدعوة إخواننا أن يوسعوا الدائرة وأن ينظروا بعيدا، وينظروا واسعا، وينظروا رحيما، ويرفعوا الرأس عاليا والهمة شامخة في تواضع الحامدين لنعمة الله علينا إذ ندعو لدينه في زمن الغربة والكفر والردة. وإنهم جميعا سيرجعون إلينا فارين من رهق الحضارة المادية المنقطعة عن الله، فارين من العنف الطاحن، ومن الدماء المراقة والذمم الخوانة. إن هذا العالم أصبح جحيما لا يطاق، وكل انسان يملك حظا من التمييز على ظهرها يئن ويحن ويقلب وجهه وقلبه لومضة اشراق تنيره من ظلمة، أو لمسة رحمة

تسقيه من جفاف.

إن خلافتنا الإسلامية التي بدت طلائع فجرها لن تكون بمعزل عن العالم، ولن تمنعها كراهية التقليد والتقاط الفتات من التفتح على العالم باسطة ذراع الرحمة والسلام والإخوة بين بني الإنسان. إنها ستكون رحمة في العالمين جميعا، ولن يزكيها الله إن انحرفت عن غاية حمل الرسالة ونشر الرحمة لتكون فقط ثارا من الجاهلية وماضي ظلمها. إن الله عز وجل يبعث رسله وأنبياءه، وخلفاءه أولياءه ليقوموا في الناس بالقسط. ونحن لا غاية لإنبعاثنا الجماعي إلا أن نشهد على العالم بالقسط بشهادة نبينا فينا. ولا تقوم جماعة بشهادة القسط إن لم تحقق إيمانها بعد إسلامها، وإن لم يكن عمادها محسنون بلغوا قمة الكمال، فكانوا هم المرجع والمآل.

إن محبة الرسول وآل بيته، والفناء في روحانيته، وما يواكب ذلك السلوك الشريف، والمشروع المنيف من أنوار الغيب وأسرار الملكوت، هي الكنز الذي آن أن يكشف للعالمين. إن منا معشر المسلمين من يجهل المحبة ويناصب أهلها العداء، ويحج المسلمون وكلهم صوفية محبون والهون في شخص رسولنا الكريم فيسمعون بعرفات شتم الأولياء وتحقير الأنبياء. لا جرم أن تكون دعوة التكفير وكراهية الصوفي الفقير مطية لعالمية الاستهلاك، وما ثم من

أنواع الثبور والهلاك. وإنما شرع الله الحج لشهود المنافع ولذكر الله في تلك الأيام المعلومات أيام المحبة والفرح بالله وبأخوة الإسلام.

إن خلافة الرسول على منهاجه ستطلع شمسها وتنير السبيل وتبريء العليل، وهي عطاء للعالمين جميعا. يتولى حضانتها المسلمون، وتتولى هي تربيتهم وترقيتهم إلى ايمان واحسان. إلى أخوة متعاونة وبر بالعالم موصول. وإلى ربانية تمرض العالم وتعطف عليه وترأف، وتنشر السلوك الإيماني الإحساني بالحق ليدحض باطل الروحية الشيطانية الجاثمة على العالم.

وهذه آخر الدعوة وأولها. يأيها الإنسان، سل نفسك لم هذه الأرض والسماء، ولم الألم والبغضاء، وفيم الحياة والموت، ولم يضيق صدرك بفوت الفوت ؟ إنك خلقت للخلود وإن الإسلام ما هو فقط نظام الحياة اليومية والاقتصادية، وما هو فقط أخلاقية إيمانية ومحبة واخوة، بل هو بعد الإسلام والإيمان إحسان يقربك من ربك، ويصلك بجنابه إن وقفت ببابه. إنك يا إنسان غرة الزمان ومعقد الحدثان، وقد جاءك الرسول بأخبار ربك أنه يحب من احبه ويصطفيه، وأخبرك العارفون بالله أولياء الله بتجربتهم الشخصية واكتشافهم لما وراء حسك المغلق وعقلك الذي أنت سجينه. اسمعها واضحة بليغة مؤثرة تبكي شكرا وغبطة بنعمة الإسلام، وبلغها يوم يسطع نورك بأقصى ما تقدر من بلاغ

للعالمين رحمة وبشرى : إن الله عز وجل يتقرب إليه العبد بالفرض والنفل حتى يحبه ربه، فإذا أحبه كان له سمعا وبصرا ويدا ورجلا. فذلك هو الإنسان لا تلك الدودة العالمية. وذلك هو المرشح للكمال واللحاق بركب النور مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين. ولا بد لك من صحبة فهي أول المنهاج وآخره، والصحبة دعوتنا للعالم.

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بلغ هذا الكتاب إلى ختامه، وطلع بدر تمامه، وقد بدا فجر الإسلام وانتشرت تباشيره، فحيي على الصلاة ! حيي على الفلاح

أخي القارئ وأختي القارئة، كنت صبرت على ما في الصفحات الطويلة من الإغزار والنجود، ومزمجرات الرعود، فاعذر نصيحا أراد أن يقول للهالكين في أنفسهم قولا بليغا، فلعله غلظ عليهم، ولنا أسوة برسولنا المحبوب، بلسم كل مكروب، فانه أمر وامرنا أن نغلظ ونقول للمنافق في نفسه قولا بليغا، حتى يمقت نفسه ويمجها، ويزيل قذى افكه، ويرجع عن شركه .

و لعلنا عممنا كثيرا وفي الناس أفاضل كراما، فاللهم غفرا وسترا. وإنما يبلغ السمع المختوم بالوهم المركوم، كلام ذو زوايا حادة يجرح ويؤلم . وإلى ذلك قصدنا وعلى الله اعتمدنا .

وقد أكثرنا من الحث على ضرورة التعلم من عطاء الله غير المحظور، ولا ننتظر أن يفهم عنا بساط الأحلام كيف يعير مسلم إخوانه بالصين وتجربتها وإخصاب تربتها . إننا أردناها كلمات منبهة تقرع في آذان الغافلين قرع الجرس، بعد أن قل من ينتبهون

لآذان الصبح .

أما المنهاج فقد كتبناه بسطة من ربنا، ووسيلة لمأربنا .ومن العبد القصور سيما في عظائم الأمور . ولولا فضل الله ورحمته لكنا كالقردة المقلدين . ولا نزال ننتظر أن يأتونا بفكرة واحدة، مؤمنة غير جاحدة . وإن لهم العقم وللإسلام مستقبل الأيام .

أما بعد فلعل من يستعجم دعوتنا من أهل الفضل والدعاء على إعرابها، فما مثلنا ومثله إلا كموسى وصاحبه . وكل موسى يقف عند مجمع البحرين، ويعاني الأمرين . يطلب العلم والحقيقة حتى يلقى العبد المرحوم . فلا يرهقه متبوعة من أمره عسرا، وإنما يعجل موسى بما عنده من العلم فلا يستطيع صبرا . ويأخذ موسى يرتق ويفري، إلى أن يهتف به هاتف الحق بلسان صاحبه : « ما فعلته عن أمري «. وعندها يثبت البرهان ويصح التأويل، فيذعن موسى للسبيل . يتعلم طريق كماله، والجهاد لبلوغ رضى الله ونواله . يخرق سفينة عادية، ويقتل غلمة شهوته، ويقيم على ذكر ربه حتى يناديه الحق من جانب الطور . فذلك مشروع طالب الحق والحقيقة، يعتصم بالرفيق ويسلك طريقه . سقته الغوادي الثرة، وحلت قلبه المسيرة .

وما مثلنا ومثل الهائمين الحائرين، في آفاقنا الإسلامية وفي العالمين، إلا كمن يستفتون في بقراتهم العجاف، حتى بشرهم

يوسف الحسن والإحسان برحمة الله والألطاف، بالإشارات اللطاف .يبشرهم بالأذن الصحيح، والأمر النجيح .

ويلمح المستفتون عنقاءهم المغرب، فتلتفت إليها الأعناق، ويتم التلاق . ثم يتحول المسلمون من غثائية العناكب، يزاحمون الناس بالمناكب . يبلغونهم رسالة الله، يحبون الموت في سبيله ويلتمسون رضاه .أما المغبون فقرأ ما نكتب وقال : إسلام فلسفي! وما درى أن الله يعد ويفي .

اللهم ملكنا نفوسنا لنتبعها الهدى، ونسلك إليك طريق الجهاد البعيد المدى، واتم علينا نعمتك حتى ندعوك بدعوة الحفيظ العليم، الرسول الأمين : ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ .

أعوذ بالله من خطل الرأي والزلل، وأعوذ بوجهه الكريم من اللغو والكسل . واستغفره مما جرى به اللسان وليس له رضى، فهو ولينا غافر الذنب وقابل التوب .

اللهم هؤلاء جنودك من طلائع الكلام، سقناهم بتوفيقك هذا المساق، بالمعاني الرقاق . فأعملهم اللهم في خدمة أمة رسولك محمد الحبيب، ليوم الإسلام القريب، وبعد ذلك إلى يوم الدين .فقد جعلت علينا إرثا له البلاغ، وعليك مولانا الحساب .

اللهم فبجاهه العلي، ومقامه السني، وبحق كل مصطفى نبي، وكل مطهر ولي، آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من امرنا رشدا، ورقنا في مقعد الصدق عندك أبدا، ويسر لنا من نورك ومن قلوب خلقك مددا, « من يهد الله فهو المهتدي، و من يضلل فلن تجد له وليا مرشدا « . واجعل اللهم وجهك الكريم وعز الإسلام لنا غاية ومقصدا . وارحم اللهم من قرأ ووعى ،ثم ترحم ودعا، للسابقين بإيمان، واللاحقين بإحسان، يا رحيم يا رحمان.

اللهم نصرك الذي وعدت المستضعفين، من عليهم سيدي واجعلهم أئمة واجعلهم الوارثين .

دعتك مولانا كلمات هذا الكتاب بحال المسلمين . وندعوك بلسان من عصى فتاب، فجعلته ردء للصواب وآتيته الحكمة وفصل الخطاب، أن تغفر لنا خطايانا، وأن تجعل لنا من عبادك الصالحين فرطا ومثلا للآخرين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

نشر هذا الكتاب جملة منذ زهاء عشرين سنة، ونعيد طبعه بعد تنقيحه.

فيه بضعة أفكار تسبح بحمد ربها في كل صفحة من صفحاته، مستبشرة ببشرى ربها أن بعثها رائدة للإسلام، مؤذنة لميقاته، ليسمعها قلب مؤمن سعيد، يلقى السمع وهو شهيد.

إنه من قلب مؤمن، إن شاء الله، وقد شاء ثناؤه فمن، ونهج لعباده وسن. فله الحمد ما ترنم شاد وحن.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً.

﴿قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

صدق الله العظيم

محتويات الكتاب

الفصل الأول: المنهاج النبوي وحركيته

المنهاج.....15
اقتحام العقبة.....21
الخصال العشر.....35
الصحبة والجماعة.....47
الذكر.....57
الصدق.....67
البذل.....76
العلم.....85
العمل.....95
السمت.....105
التؤدة.....114
الاقتصاد.....123
الجهاد.....133

الفصل الثاني: النموذج الخالد

المسلمون والتاريخ.....147
موكب النبوءة.....159

محمد رسول الله..... 170
الإسوة.....180
الصحبة.....190
الجماعة.....200
الذكر.....210
الصدق..... 223
البذل.....236
العلم.....248
العمل.....260
السمت.....270
التؤدة.....281
الاقتصاد.....293
الجهاد.....305

الفصل الثالث: كتاب العالم

منها قائم وحصيد..... 319
في مأدبة اللئام.....331
قائد ثورة.....342
الثورة الثقافية.....354

تربية من القاعدة.....365
خبير وأحمر.....379
القوة..... 390
الفقر والعفة.....401

الفصل الرابع: طريق إلى التجديد

تهافت الفلاسفة.....414
كلمات تخرق السكون.....425
من يجدد؟ 436
الإمام البنا 448
غضبة القطب..... 460
الاجتهاد.....472
التنظير.....483
التنظيم 494

الفصل الخامس: من القلة إلى التقلل

العدل 506
اليقظة والانضباط.....517
سلم القيم.....528

التحويل الثقافي.....539
التعاون الجماعي.....550
اقتصاد القوة.....561
تنمية الإنسان.....572
أمراض التكاثر.....583

الفصل السادس: الربانية والربانيون

التربية والتغيير.....595
الفقه المنهاجي.....605
الربانيون.....616
خصوم الإسلام.....627
القيام بالقسط.....639
الأم.....650
تربية من فشل.....661
الحرية والمسؤولية.....670

الفصل السابع: التعليم والتعلم

التربية والتعلم.....682
لغة القرآن.....693

الثقافة والتنمية.....704
التعليم المتخلف.....719
وسائل الإعلام.....726
تطوير التعليم.....737
التعليم المستمر.....747
تعليم للتغيير.....757

الفصل الثامن: الدعوة

المحجة البيضاء.....768
الداعي إلى الله.....779
التنظيم الجهادي.....790
عضو الجماعة.....800
مركزية الطاعة.....811
النصيحة.....822
دعوة إلى الخير.....833
المستضعفون الوارثون.....844

الفصل التاسع: الخلافة

الخليفة.....856

نحن والفوضى الديمقراطية.....867
نحن والاستبدادية المذهبية.....879
سوق السياسة.....890
الشورى.....901
السلطان.....912
توحيد المسلمين.....922
الرحمة في العالمين.....933
خاتمة الكتاب.....944